

الدرر والنبات

دراسة في محاضرات

تأليف

السيد محمد سعید فخر

لا إله إلا الله محمد رسول الله
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دَرَسَةٌ فِي مَجَازَاتِ
تَأْلِيفِ

السِّيَرِ عَلَى سَبْعِ عَشْرَ فَرْقٍ

إِنْشَاءً مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْحَقِيقِيَّةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشابك : ٦ - ٦٧ - ٦٣٩٠ - ٩٦٤

ISBN : 964 - 6390 - 67 - 6

الكتاب : فاطمة الزهراء عليها السلام دراسة في محاضرات

المؤلف : محمد شعاع فاخر

الناشر : انتشارات المكتبة الحديدية

عدد المطبوع : ١٠٠٠ نسخة

سنة الطبع : ١٣٨٠ - ١٤٢٢ هـ

الطبعة : الاولى

عدد الصفحات : ٥٨٨ صفحة وزيري

المطبعة : شريعت

السعر : ٣٠٠٠ تومان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين ، وصحبه الأبرار الأخيار .

وبعد ؛ فهذا هو الكتاب الرابع من سلسلة الكتب التي عقدنا العزم على إخراجها بعونه وحسن تقديره سبحانه ، وتتضمن تاريخ أهل البيت عليهم السلام ، نقدّمها للقارىء الكريم ، مدفوعين بعزم الولاء ، واثقين بحسن الجزاء من الله سبحانه ، لا نرجو سواه ولا نطلب إلا رضاه .

ونسأله الخير للمحبّ والحاسد على حدّ سواء ، فكلّا الشخصين لنا بمثابة قوّة الدفع التي حملتنا على مواصلة الخطى على درب الشائك ، لكي نصل إلى الهدف ، وكلّ من سار على درب وصل إنشاء الله تعالى .

أمّا المحبّ فبتشجيعه لنا ونصحه ، وتعاونه معنا شاكرين له ما بذل في هذا السبيل من جهد وإن قلّ ، وأمّا الحاسد فبما أسدى لنا من يد ، انتفعنا بها - وإن لم يرد لنا النفع - دون أن يكلفنا عناء شكره ، وذلك حين انطلق بروح الحاسد ، يصوب فينا ويصعد ، ويبحث جاهداً في الحروف بله الكلمات ، لعلّه يعثر على زوائد أو نواقص ، ومثالب أو معائب - ولا أقول أنا منزّه عن هذه أو تلك - فالكمال المطلق لله وحده ، وسبحان من لا عيب فيه ، ولكنّ الحاسد كالأعشى الذي يبحث عن حاجته بالليل ، فلن يجدها إلا على هدي النور ، وظلام الحسد لا يقبل عن اعتكار ظلام الليل ، ولن يصيب الحاسد بغيته إلا على هدى العقل وإشرافه البصيرة .

وطالما بلغني عن زيد أو عمرٍ وشقيقيهما بكرٍ وخالد قول تخطى الحدود والسدود إليّ بواسطة الناقل ، ولم يجد صاحبه الشجاعة الكافية ليواجهني به ، فصار لي قوّة ونشاطاً ولم يؤدّ المهمة التي ابتغاها صاحبه من وراء اطلاقه ولكنّه عرفني بنعمة الله عليّ فضاغت شكري لله لعلمي أنّ كلّ ذي نعمة محسود ..

ومن البديهي أن قولاً كهذا بمنزلة عطفة عنز لا يصل إلينا منه إلا رذاذ مُفَرَّز، فقد يزداد فيه وقد ينقص منه، ولكن دلالة لا تتأثر بالزيادة أو النقصان.

وليست المصيبة في سماعه أكبر منها في عسر الإجابة عليه إن لم يكن استحالتها، إذ أنه لا يصل إلينا إلا بالبناء للمجهول، ويحرص من ينمّ به على جنى الإثارة مع الاحتفاظ بصاحبه سرّاً من الأسرار.

وبلغت الحاسد الحال، أن أزهق نفسه حين سعى إلى الناشر محاولاً ثنيه عن نشر آثاري بتحقيرها في عينه حيناً وتحقيري حيناً آخر.

ثم لا يفوته أن يقذفني بمختلف التهم وأخفة معاكستي لتيّار الوضع الراهن، أو احتوائتي على مقالة في السياسة غير مستساغة، وطالما ردّدت بعد تعرّضي لشُبوبٍ من هذه الأقوال قول بدويّ الجبل:

سائلوا عنهم العواصف لصا رجت الأرض أين كنا وكانوا

وسلوا ظلمة السجون فلن ينبىء عنهم سجن ولا سجان

أقول - ولا فخر -: مهما قال عني هؤلاء فإنّي أعطيت الجمهورية الإسلامية كادراً مثقفاً من خيرة شباب الأهواز المؤمن، حين أسست في العهد الشاهاني التعسفي «جمعية أبناء القرآن» وقد عملت في عهد الشاه المخلوع طيلة اثني عشر عاماً وانحاز إليها من شباب الأهواز المتعطش إلى الدين والمعرفة مجموعة رائعة كانوا طلائع الثورة الإسلامية عندما زحرت في البلاد أمس ولا زالوا اليوم عاملين بجدّ ونشاط لحفظ مكاسب الثورة، ولو شئت لسمّيت أعلاماً منهم يحلون اليوم في أعلام القائمة من رجال الحكم.

أمن الإنصاف في شيء أن يُصدّق في حقّي قول حاقد أو حاسد؟! وضاعف الحاسد جهده حين تابعت كتبي الواحد تلو الآخر بفترة زمنية قصيرة ممّا أثار شجونه وشحن بالغيظ صدره فتميّز حفيداً وغيظاً حين رغب الناس عنها، باطلاق الاشاعات الباطلة وأخفها أنّي اخترقت حرمة محمد بن الحنفية عليه السلام، وفرغ إليّ جماعة من أنصاري الشباب، سائلين عن حقيقة الأمر، وأوقفتهم على الواقع فهان عليهم هوان صانعيه.

ولكنّي رأيت أن أستقبل من الكتابة صاحب المروءة الكريم الودود أخي الأستاذ أبازينب، وحرّرت له رسالة بلّغ بي الألم فيها كلّ مبلغ ممّا حدى بي أن أقول له، قل لهم

يا أبا زينب: هبوه كما قلتُم ووصفتُم، أكان يضيركم أن يكافح عدوكم مجاناً ويدافع عن تراث أهل البيت بلا حتى خفي حنين، اللهم إلا تلك اللماظة التي يجنيها من خدمة المنبر الحسيني سامحكم الله، هل ما كتبه الرجل يسيء إلى أحد منكم أو من غيركم أو الإساءة إلى عدو أهل البيت وحده - إن كنتم اتخذتموه عدواً - فلماذا يؤذيكم ذلك، وما أن اطّلع أبو زينب على الرّسالة حتى اتّصل بي على الهاتف وكلّه عزم وخير، قائلاً بالحرف الواحد: والله لو توقّف طبع كتبك على بيع المؤسسة لما تراجع، أكتب يا أخي ولا تبالي بقول قائله حاسد، أو جملة قفرت من حاقده. وشكرت له هذا الودّ، وتباهيت بأريحيته حفظه الله، وكان لي حافزاً على مواصلة العمل.

وأنسأ الله في الأجل، ومنح القوّة، وحال بيننا وبين الشواغل، وأعاننا سبحانه وتعالى حتى كتبنا كتابنا الرابع عن سيّدة النساء فاطمة صلوات الله وسلامه عليها. وفيه حلّقت في عالم التجريد ولم أجد ساعة أحلى من ساعة أخلوبها إليه منقّباً أو باحثاً أو كاتباً وطالت مدّة تأليفه، لثراء موضوعه أولاً، وثانياً لأنّي قصدت ذلك لكي أستوعب المادّة ما اتّسع لها عقلي وفكري، وأعرضها للقارئ مستوفاة الأطراف، تامّة الجهات بلا إسفاف أو ابتذال..

وجاءت بحوث في الكتاب مسهبة، وكان الإسهاب سرّاً خلا في مع القارئ، الذي يريد المادّة «لمحة وتغيب» ليتسنى له استظهارها، وأنا أريده أن يقف متأملاً سائحاً في عالم رحب من أسرار الصّفوة من أهل البيت، ولا يتمّ ذلك بلمحة خاطفة ما لم يجر القارئ مع المادّة إلى حدّ الإشباع، ثمّ يصوغها صياغة حسب الطلب متسقاً مع الظرف الخاصّ أو ظرف الجمهور، أنا أكتب لأصحاب الصياغة لا الإستظهار، وليس معنى ذلك حرمان هؤلاء ممّا أكتب، كلّاً، إذ بإمكانهم الإستفادة ممّا خفّ حملة وغلا ثمنه، وفي الكتاب منه الكثير الكثير، بحمد الله تعالى، وفي الكتاب بحوث تبدو لعين المطالع في الوهلة الأولى غريبة عنه، وكأنّها من موضوع آخر لا يمت إلى تسلسل المادّة في الكتاب بصلة.

ولكن عند التحقيق تبدو، متّصلة به اتّصلاً وثيقاً من قبيل إيمان أبي طالب عليه السلام، فقد اتّسعت مادّته اتّساعاً وافياً بالعرض ممّا زاد بها حجم المحاضرة ومن ثمّ حجم الكتاب.

وقد دعت حاجة ملحة خطابيه إلى ذلك من حيث عزوف أكثر الناس عنها، فما سمعت ولا علمت بمن عالج هذا الموضوع على صعيد علمي موفٍ بالقصد مؤدٍّ للحاجة منه، ولو في بلادنا على أقلِّ تقدير، اللهم إلا مروراً عابراً من غير تركيز ولا الزام للخصم ومردِّ ذلك في الأعم الأغلب إلى التنافر بينه وبين الذوق العام أو الجهل عند المعالج، فكان لا بدَّ من تحبيره ولا مناص من تحريره على هذا النحو.

وقل مثل ذلك في البحث الخاص ببنات النبي ﷺ، وقد جعلت الأساس فيه الردُّ على كتاب «بنات النبي أم ربابه» لسيدنا العالم الفاضل السيد جعفر مرتضى العاملي، وهو بحث طريف فيما أظنَّ، بيّنت فيه ما اعتقدته حقاً في المسألة، ولسان حاله هناك يرّدّد مع عمرو صاحب حذيمة الأبرش:

هذا جنائي وخياره فيه إذ كلُّ جانٍ يده إلى فيه

ولم أحاول تجريب حظي مع السيد الفاضل ولا أنا «كناطح صخرة» بل دافعت بما كتبت عن بنات النبي، لاعتقادي بصحة بنوتهنَّ وأنهنَّ من صلب النبي حقاً وصدقاً، وأنهنَّ من حيث النبوة كالصديقة وسبقتهنَّ بالفضل العظيم عليهنَّ السلام جميعاً، علماً منِّي بأنَّ هذا الوتر الحساس قد ضرب عليه عدوُّ الله لامانس منذو عشرات السنين وطل له المستشرقون وزمروا، ليسرَّ وأحسَّوا في ارتغاء، وجاء ساداتنا العلماء فعالجوا الموضوع بنزاهة وحسن نية وليس غرضهم إلا كشف الحقيقة ولكن فوق كلِّ ذي علم عليم.

وفي الكتاب موضوع إن لم يكن بكرةً فقد قلَّ من طرفه من شيعتنا، وهو الفرية على أمير المؤمنين في خطبة ابنة أبي جهل جويرية، وبحثن طويلاً عنه في كتب الأولياء فلم أجد إلا نفاً مبثوثة في تضاعيف الكتب التاريخية والروائية، لا تسمن ولا تغني من جوع، وإشارات عابرة هنا أو هناك لا تفي بالغرض.

أما الخصوم فقد أوسعوا الموضوع بحثاً ورواية حتى اتخذ ثاني قميص عثمان، وراحوا يغمزون به العلاقة المتميِّزة بين النبي والوصي صلى الله عليهما وآلهما إلا أنَّ الله دحضهم لأنَّه الباطل فكان زهوقاً، وأخالني وُقُفتُ إلى ردِّه ودحضه وتكذيبه وكان لي شرف ذلك موصولاً بشرف الإخلاص والتقرب..

وبقي أمرهم أعترذ منه إلى الشيعة وحدهم علماً منِّي بأنَّ ما بدر على قلبي من شدة اللهجة مع خصوم الزهراء لا يرضيهم، ويعارض سياستهم معترفاً بأنَّ لومهم لي

تعدّئ النصح إلى التفرّيع ، صحيح أنّ للخصوم حرمة لا بدّ من رعايتها ، ولكنّ الصحيح أيضاً أنّهم لا يراعون لنا حرماً بل لا يرقبون فينا إلّا ولا ذمّة ولا عهداً ، وهم أدلّ من فرام الجارية أمام النصارى واليهود ، ولكنهم علينا أسود الشرى ولا علاج لذلك إلّا إذا كلت للخصم بمكياله ، وأنا أسأل الوليّ العاتب والغاضب بم تجيب من يقول عن أمير المؤمنين عليه السلام : فهل سكت عليّ عن حقّه نظير ثمن بخس أو مقابل عظم دسم^(١) فما هي الدلالة ليت شعري بكلمة عظم ... وبم يعبر المسلم عن هؤلاء ؟

واستمع إليه يقول عن الإمام الصادق عليه السلام : ولا أذيع سرّاً إذا قلت إنّ «جعفر بن محمّد» كان ألمع نجم وقع اختيار العصابات الماسونيّة عليه فقد ثبت أنّه أحد العميان الذين كانت شياطين الماسونيّة تعدّهم وتمنّهم بنيل الخلافة^(٢) .

واستمع إلى تعابيره عن الشيعة : يضمّر اليهودي العدا لجميع البشر من غير أبناء جنسه ، أمّا الشيعي فلا يحبّ إلّا نفسه ، يتعبّد المسلمون بما شرعه الله ويتعبّد الوثني والمجوسي والكتابي بما لا يضرّ غيره ، أمّا الشيعي فإنّه يتعبّد بالشتّم والتذف والغدر والتأمّر والاحتيال والتزوير ونهش الأعراس وانتهاك الحرمات .

أقانيم التخلف في المجتمع الإسلامي ثلاثة : الجهل ، والتشيع ، والفئات الحاكمة ..^(٣)

قد لا يصدق القارىء الكريم ، إنّ نكاح الأم عندهم هو من البرّ بالوالدين وأنّه عندهم من أعظم القربات^(٤) .

ويقول عن الإمام أيضاً في جواب اخترعه وأوحى به إلى الخوارج : إنّ عليّاً كان يحسد ابن عمّه وأنّه كان يريد افساد دينه فلم يتمكّن من ذلك في حياة النبيّ وحياة الخلفاء الثلاثة حتّى سعى في قتل عثمان وأوقد الفتنة حتّى تمكّن من القضاء على أصحاب محمّد بغضاً له وحسداً وعداوة وأنّه كان مباطناً للمنافقين الذين ادّعوا فيه

(١) الجبهان ، «إيقاظ النيام» ، ص ٨٤ .

(٢) نفسه ، ص ١٦١ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٤) نفسه ، ص ٢٢٢ .

الألوهية وكان يظهر خلاف ما يبطن دينه التقية^(١).

ثم يختم أقواله المتقدمة بقولٍ جمع ماهيته كما هي: خرمسيس، مرمسيس، درديس، أدب سيس..^(٢)

ولعلّ قائلاً يقول: هذا مهرج شاذّ خائب، وليس من الإنصاف تحميل أمة من أتاس ذنبه، أقول له: كلاً فالقوم طراً على هذا المذهب إلا من عصم الله ممن فارق ابن حنبل وبعد عن ابن تيمية، وقد نقل الشيخ الخنيزي في الجزء الأول من كتابه «الدعوة الإسلامية» قول أحد علمائهم: إنه لا يموت الميت منهم إلا وفي نفسه شيء من عليّ بن أبي طالب، والجبهان ترجم هذا الشيء إلى ما قرأت سلفاً، من ديوان نقائضه.. وعندني على انحراف أهل السنة والجماعة أمس واليوم عن الإمام أمير المؤمنين شواهد كثيرة ولكتني أتركها إلى مناسبة أخرى إنشاء الله.

وبعد الذي تقدّم ينبغي تغيير استراتيجية الدفاع اليوم، فقد صفحنا أكثر ممّا ينبغي حتّى عدّه القوم ضعفاً، وحملنا التّقيّة أكثر من طاقتها، ولم يبق عذر لمعتذر بعد صدور كتاب الففاري: «عقائد الشيعة الإثني عشرية»، وفيه ما لا يصبر عليه وما لا يسكت عنه، وهو عبارة عن مجموعة من الجهل والإفتراء.

وكنت قد اقترحت على أحد العلماء الغياري في قم أن ينبري يحد الفضلاء للردّ عليه، فرمقني بطرفه من تحت النظارة وقال لي: إنّ مصير هذا الكتاب الذي شغلك واقض مضجعك سلّة السهملات، وليس له تأثير في الأوساط السنيّة لما فيه من الدس والكذب والشتم والهجو.

قلت له: ليس من صالحنا السكوت عنه، فقد ردّ أسلافنا على مقال نشر في مجلة إسلامية عشرات الكتب، أنوئي مثل هذا الكتاب الخبيث ظهورنا ونضع رؤوسنا تحت الرمل كالنعامة أمام صائدها، وإني أضع طاقاتي تحت تصرفكم وأذنوا لي بالردّ عليه.

فقال لي: إفعل بشرطين: أن لا يتجاوز ردّك مثني صفحة، وأن لا تلزما بنشره، وأقول لك أننا لا ننشر لك سطرأ واحداً فضلاً عن الكتاب كله.

(١) نفسه، ص ٢٢٦.

(٢) نفسه، ص ٢٣٧.

وأدخلني في دوامة من اليأس والإحباط وراح عني يداعب أحد أنجاله ويثني عليه أمامنا ويطري عقله وعلمه وجدّه وكياسته وذكائه ونجابته، وهكذا دواليك .

كلّ هذا وأنا واثق مطمئن بأنّ للكعبة ربّاً يحميها، ولا أخشى عليها إلاّ من تواكل الشيعة . وإنّ مذهب أهل البيت مؤيّد بنصر الله، وورائه حجّة الله يحميه من العاديّات ويحمينا، رافعاً على رؤوسنا شعار «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» .

والآن أقول عوداً كما قلت بدءاً: لم ألو جهداً في تحزّي الحق والصواب فيما كتبت، وفي اعتقادي أنّ في كتابي هذا كثيراً من الأفكار التي يفيد الإطّلاع عليها، ويلدّ اكتشافها لطّالِب الحقيقة، وهو وإن كان مسهباً، فقد حشدته بالشواهد التي تزيل السأم عن القارئ، وتنوّعت فنونه وأغراضه حتّى صار نادراً في موضوعه، لطيفاً في محتواه، شامخاً في مبناه، ويعود سرّ ذلك إلى شرف انتسابه، إلى سيّدة النساء مولاتنا الصديقة الزهراء، وإتي إذا أضعه بين يدي القارئ والخطيب أملاً أن ينفعه الله به، ويوفّقني وإيّاه ويغفر لي وله، بمحمّد وآله الميامين، والحمد لله ربّ العالمين .

محمّد شعاع فاخر

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وسلام على عباده
الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين الأبرار...

المجلس الأول

«ابنة الطاهر..»

..مهيار الديلمي..

يا ابنة الطاهر كم	تقرع بالظلم عصاك
غضب الله لخطب	ليلة الباب عراك
ورعى النار غداً	فظ رعى أمس حماك
مرّ لم تعطفه شكوا	ك ولا استحيا بكاك
واقتردى الناس به	بعُد فأردي ولذاك
يا ابنة الراقي إلى	السدره في لوح السكاك
لهف نفسي وعلى	مثلك فلتبك البواكي
كيف لم تقطع يد	مد اليك ابن صهّاك
قد زوى الله عن	الرحمة زنديقاً زواك
ونفى عن بابه الو	اسع شيطاناً نفاك... ^(١)

الحديث عن الصديقة الطاهرة، يسمو بالخيال إلى عالم مضيء بالطهر والفضيلة، ويعود بالنفس المكتظة بكثافة المادة إلى الروحانية والتجريد، ويحوّل الواقع الترابي إلى آخر ليس من جنس العوالم المادية بل ينحو به إلى نورانية الحور

(١) الشعر لمهيار الديلمي من قصيدة مطبوعة في الديوان ولكن الناشر تصرف بها فحذف الجزء الأكبر من القطعة أعلاه.

والملائكة ، وإن لم يغادر حقيقة الأنس .. وليس عروج الخيال إلى قدس الأقداس بالأمر السهل ، ولا الطرق إليه معبدة لوجود موانع منها في الأماكن ، وتخص خيال السائر فقد يقصر عن بلوغ الغاية فيعود على صاحبه خاسئاً وهو حسير . ومنها في ذاتية الهدف الذي صانه الله في حجب علوية طاهرة ، تقصر العقول عن اختراقها ، وتقف على الأعتاب متضائلة في ذاتها ، راضية بأنس الجوار ، وكم عقل دفعه الطموح ورفعته الهمة إلى محاولة الإختراق ، وحالت الهيبة بينه وبين الدنو من قدس الأقداس ، فرضي ببلوغ الهامش عن التفلل في العمق الممتنع ؛ والحديث عن سيّدة النساء عليها السلام كالحديث مع جنابها ، تمتزج به هيبة ربّانية تابعة من الحقيقة الثابتة في «من خاف الله خافه كلّ شيء» ومن هنا نشأت الصعوبة في معالجة مثل هذه المواضيع .

أتذكر ليلة من ليالي الصيف وأنا في دمشق الشام ، وبالتحديد في «فندق اليرموك» الواقع في ساحة المرجة ، وقد أويت^(١) إلى فراشي بعد حوار صعب في مسجد بني أمية بيني وبين أحد المخالفين الخصوم ، وما إن تغشّاني النوم حتّى رأيت في عالم الرؤيا سيّدتي الصديّقة ، وقد تجلّبت بالسواد فلم يظهر منها شيء تقع عليه العين حتّى ما أذن الله في إبدائه ، وقالت لي كلمة واحدة بلا سوابق أو لواحق : «انصرنا نصرك الله» ، وسرعان ما غابت كلمح البصر ، فانتبهت فزعاً بين الدموع والابتسام وتقلّبت بين فرحة اللقيا وفيها دعاء الصديّقة لي وحزن الشكّ في النسب ، وبقيت من يومئذ نهباً للوساوس حتّى أنعم علينا البارئ سبحانه بلقاء العالم النقي العابد الزاهد والصابر المحتسب آية الله الشيخ عبد الأمير المنصوري رضوان الله عليه ، فشكوت إليه ما أنا فيه من هجمة الشكّ بعد تلك الرؤيا المباركة وقلت له : لو كنت صحيح النسب لما احتجبت منّي أمّي الزهراء؟! فقال لي عليها السلام - وقد أشرقت على ثغره ابتسامة عريضة عذبة :- هوّن عليك ، فكلّ من رآها كانت بالشكل الذي رأيتها به ، وقد ترفقت بك أمك فاحتجبت منك ، ولم تبدّ بطبيعة نورها ، وإلا لأصبت بفقدان البصر - نعوذ بالله - لأنّ نورها الساطع لا تقوى عين على مواجهته حتّى تذهب في وادي العمى أجارنا الله ، فحمدت الله على ذلك ، ومن يومئذ جرّدت لساني خطيباً ، وامتشعت قلمي كاتباً في نصرتهم والدفاع عن حوزتهم ، لا أحول عن ذلك ولا أزول وهذه الغاية يطمح إلى

(١) أوى إليه بالمدّ ضمّ إليه ، وأوى إليه بالقصر : انضمّ إليه .

بلوغها كل ولي ناصر.

وألفت نفسي أحلق في المجرة الزهراء من نير إلى نير، محاولاً بذلك اختصار الزمن وطبي المسافات لإخواني وأبناء جلدتي الخطباء، لكي نؤجر معاً ونفيد من هذا الألق الدافق حول سيّدة النساء عليها السلام معاً، ونبدأ أولاً بهالة النور التي تدور على مولانا أمّاً صفيّة نجية طاهرة وأباً ختم الله به رسالات السماء وأتمّ به كلمة الحق، وبما أنّ الحديث عن سيّد الرسل صلى الله عليه وآله يشع في كتب السير والتاريخ والتفسير والدراسات، فصلاً فصلاً، وهو في تناول يد الطالب متى أراد ذلك، لذلك نبدأ بالصديقة الكبرى أمّ المؤمنين وسيّدة المسلمين خديجة عليها الصلاة والسلام، والحديث عنها لا ينفك عن الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله لأنهما امتزجا كما امتزج الضو بالضوء، ونسئل الله التوفيق.

أمّ المؤمنين؛ خديجة الكبرى عليها السلام

نسبها

أبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى وهو واحد من ستة إخوة، ذكرهم ابن حزم في الجمهرة وهم: الحارث، والحويرث، وحبیب، والمطلّب، ونوفل، وخويلد، ولم يذكر فيهم عمراً بن أسد^(١)، وذكرهم ياقوت في المقْتَضِب ونصّ على عمرو، وأوصلهم إلى عشرة ذكوراً، منهم هاشم ومهتم، وهذان درجا أي ماتا طفلين، وخالد وعمرو ولم يعطف الأخير بالواو، ولعلّه والحويرث شخص واحد، هذا مع احتمال كونه ترك أداة العطف قصداً^(٢). وكان عمرو هذا آخر إخوته موتاً بدليل أنّ النبي صلى الله عليه وآله خطب خديجة منه، ولو كان والدها حيّاً لكان المقدم على إخوته. ويظهر أنّ خويلداً هو بكر أسد، والمسود في أهل بيته، وقد ذكر المؤرخون له مقامات كريمة تدلّ على سيادته وعلوّ قدره؛ منها حضوره مع الوفد القرشي الذي أمّ اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن بعد عودة الملك إليه، وقد ذكر المؤرخون حضور الوفد بالتفصيل ونحن نسوق رواية صاحب الأغاني، لأنها أدقّ تفصيلاً وأجمع للفوائد، قال بعد ذكر السند:

لمّا ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة - وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وآله بسنتين، أتته

(١) ابن حزم، جمهرة النسب، ص ١١٧، دار الكتب العلميّة - لبنان، ١٤٠٣.

(٢) راجع: ياقوت الحموي، المقْتَضِب، ص ٤١، دار العربية للموسوعات - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٧.

وفود العرب من قريش فيهم عبدالمطلب بن هاشم وأمّية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد في ناس من وجوه قريش، فأتوه بصنعاء - وهو في رأس قصر له يقال له: عُمدان -، فأخبره الآذن بمكانهم، فأذن لهم، فدخلوا عليه وهو على شرابه، وعلى رأسه غلام واقف ينثر في مفرقه المسك، وعن يمينه ويساره الملوك والمقاول، وبين يديه أمّية ابن أبي الصلت الثقفي ينشده قوله فيه هذه الأبيات :

لا يطلب الثأر إلاّ كابين ذي يزن	في البحر خيّم للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعماته	فلم يجد عنده النصر الذي سالا
ثمّ انتحى نحو كسرى بعد عاشرة	من السنين يهين النفس والمالا
حتّى أتى ببني الأحرار يقدمهم	تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
لله دزهم من فتية صبروا	ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا
بيض مرازية غلب أساوره	أسد تُرئّت في الغيضات أشبالا
فالتط من المسك إذ شالت نعماتهم	واسبل اليوم في برديك أسبالا
واشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً	في رأس عُمدان داراً منك محللا
تلك المكارم لا قعبان من لبن	شيبا بماء فعادا بعد أموالا

بنو الأحرار الذين عناهم أمّية في شعره هم الفرس الذين قدموا مع سيف بن ذي يزن وهم إلى الآن يسمّون بني الأحرار بصنعاء، ويسمّون باليمن الأبناء، وبالكوفة الأحامرة، وبالبحرة الأساوره، وبالجزيرة الخضارمة، وبالشام الجراجمة .

فبدأ عبدالمطلب فاستأذن في الكلام، فقال له سيف بن ذي يزن: إن كنت ممّن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك؟! فقال عبدالمطلب: إنّ الله قد أحلك أيّها الملك محللاً رفيعاً، صعباً، منيعاً، شامخاً باذخاً وأنتك منبتاً طابت أرومته وعزّت جرثومته، في أكرم موطن، وأطيب معدن، فأنت أبيت اللعن - ملك العرب وربيعها الذي به تخصب، وأنت أيها الملك رأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد، فسلف لنا خبر سلف وأنت لنا منهم خير خلف، فلم يخمل من أنت خلفه، ولن يهلك من أنت سلفه، نحن أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا لكشفك الكرب الذي فدحنا، فنحن وفود التهنية لا وفود المرزية .

قال: وأيهم أنت أيّها المتكلم؟ قال: أنا عبدالمطلب بن هاشم . قال: ابن أختنا؟

قال: نعم، فأدناه حتى أجلسه إلى جنبه، ثم أقبل على القوم وعليه فقال: مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلاً ومستنخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً^(١) يعطي عطاء جزلاً، قد سمع الملك مقاتلكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، وأنتم أهل الشرف والنباهة ولكم الكرامة ما أقمتم، والجباء إذا ظعنتم، ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، فأقاموا فيها شهراً لا يصلون إليه ولا يؤذن لهم في الإنصراف، وأجرى لهم الأنزال^(٢). ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبدالمطلب فأدناه وأخلى مجلسه ثم قال: يا عبدالمطلب، إني مفوض إليك من سرّ علمي أمراً لو يكون غيرك لم أبح به إليه ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك طلعة، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا خيراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة، ولك خاصة.

قال عبدالمطلب: مثلك أيها الملك من سرّ وبرّ، فما هو فذاك أهل الوبر، زمراً بعد زمر؟

قال ابن ذي يزن: إذا ولد غلام بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

قال عبدالمطلب: أيها الملك، لقد أبث بخير ما آب بمثله وافد، ولولا هيبة الملك وإكرامه وإعظامه لسألته أن يزيدني في البشارة ما ازداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد؟ اسمه محمد عليه السلام يموت أبوه وأمه، ويكفله جدّه وعمّه، وقد ولدناه مراراً، والله باعته جهاراً، وجاعل له متناً أنصاراً، يُعزّبهم أوليائه ويذلّ بهم أعدائه، ويضرب بهم الناس من عرض، ويستبيح لهم كرائم الأرض يخمد النيران، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبدالمطلب: أيها الملك، عزّ جدّك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهل الملك مخبري بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح؟

(١) عظيم الشأن.

(٢) جمع نزل، ما هبّني للضيف.

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النصب، إنك يا عبدالمطلب لجده غير الكذب.

فخرّ عبدالمطلب ساجداً فقال له: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً ممّا ذكرته لك؟

فقال عبدالمطلب: أيها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رقيقاً، زوجته كريمة من كرائم قومي اسمها آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سمّيته محمّداً، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمّه.

قال: الأمر ما قلت لك، فاحفظ بابنك واحذر عليه من اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، واطوما ذكرت لك عن هؤلاء الرهط الذين معك، فإنّي لا آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون له الرياسة، فينصبون له الجبائل ويطلبون له الغوائل، وهم فاعلون وأبنائهم، ويطيّر ما يجيبه قومه، وسيلقى منهم عنثاً، والله مبلغ حجته ومظهر دعوته وناصر شيعته، ولولا أنّي أعلم أنّ الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتّى أصير يثرب دار ملكي، فإنّي أجد في الكتاب المكنون أنّ بيثرب استحكام أمره، وأهل نصرته، وموضع قبره، ولولا أنّي أتوقّى عليه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حدّثة سنّه أمره، ولكنّي صارف ذلك إليك من غير تقصير منّي بمن معك.

قال: ثمّ أمر لكلّ رجل بعشرة أعبد، وعشر إماء، ومائة من الإبل، وحلّتين بروداً، وخمسة أرطال ذهباً، وعشرة أرطال فضّة، وكرش مملوثة عنبراً، ثمّ أمر لعبدالمطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: يا عبدالمطلب، إذا حال الحول فأنتي، فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول، وكان عبدالمطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر، فإنّه إلى نفاذ ولكن ليغبطني بما بقي لي شرفه وذكره إلى يوم القيامة، فإذا قيل له: وما ذاك؟ قال: ستعلمون نبأ ما أقول لكم ولو بعد حين^(١).

ومن دلائل سيادة خويلد بن أسد دوره القيادي البارز في حرب الفجار الثاني، فقد كان في هذا اليوم على أسد بن عبدالعزّى وقد فقد اثنين من أولاده وهما العوام

(١) الأغاني، ٣١١/١٧ - ٣١٦: الأزرق، تاريخ مكة، ص ١٤٩ - ١٥٤؛ تاريخ الخميس، ٢٣٩/١.

وحزام^(١) وهذا يدل على أنه عانى الحرب كأقسى ما تكون، وما كان ليعطى دوراً قيادياً لو لم يكن من طلاب قريش، بخاصة إذا عرفنا أنّ حرب الفجار حربٌ مصيرية بالنسبة لقريش.

قواد قريش في حرب الفجار

نذكر أسماء قواد قريش ومن معهم برواية صاحب الأغاني، قال: فكان على بني هاشم وبني المطلّب ولقّهم^(٢) الزبير بن عبدالمطلّب، ومعهم النبي ﷺ إلا أنّ بني المطلّب - وإن كانوا مع بني هاشم - كان يرأسهم الزبير بن عبدالمطلّب بن هاشم ورجل منهم وهو عبد يزيد بن هاشم بن المطلّب بن عبد مناف، وأمّ الزبير الشفاء بنت هاشم ابن عبد مناف، وكان على بني عبد شمس ولقّها حرب بن أمية ومعها أخواه أبو سفيان، وسفيان ومعهم بنو نوفل بن عبد مناف يرأسهم بعد حرب مطعهم بن عدي ابن نوفل، وكان على بني عبدالدار ولقّها خويلد بن أسد وعثمان بن الحويرث، وكان على بني زهرة ولقّها مخزوم بن نوفل بن وهيب ابن عبد مناف بن زهرة وأخوه صفوان، وكان على بني تيم بن مرة ولقّها عبدالله بن جدعان، وعلى بني مخزوم هشام بن المغيرة، وعلى بني سهم العاص بن وائل السهمي، وعلى بني جمح ولقّها أمية بن خلف، وعلى بني عدي زيد بن عمرو بن نفيل والخطّاب ابن نفيل عمّه، وعلى بني عامر بن لؤي عمرو بن عبد شمس بن عبد ود أبو سهل بن عمرو، وعلى بني الحارث بن فهر عبدالله بن الجراح أبو أبي عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح، وعلى بني بكر بلعاء بن قيس ومات في تلك الأيام وكان جثامة بن قيس أخوه مكانه، وعلى الأحابيش الحلبي بن يزيد^(٣).

فأنت ترى أنّ خويلدًا عليه السلام قرن هؤلاء الرجال ذوي السيادة المطلقة على قريش والجزيرة العربية.

(١) الأغاني، ٧٢/٢٢.

(٢) اللف الجماعة والأخلاق من الناس.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٦٢/٢٢ و٦٣.

حرب الفجار؛ الإسم والسبب الذي هاجها

ذكر ابن هشام في سبب تسمية هذا اليوم بالفجّار، قال: بما استحلّ هذان الحيّان: كنانة وقيس عيلان فيه من المحارم بينهم^(١).

وقال السهيلي: والفجار - بكسر الفاء - بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة، وذلك أنّه كان قتالاً في الشهر الحرام ففجروا فيه جميعاً فسُمّي الفجار^(٢).

وقال المسعودي: وكان بين عام الفيل وعام الفجار عشرون سنة، والفجار حرب كانت بين قيس عيلان وبني كنانة استحلّوا فيها القتال في الأشهر الحرم فسُمّيت الفجار..^(٣)

قال ابن هشام: وكان الذي هاجها أنّ عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن هوازن أجار لطيمة للنعمان بن المنذر^(٤) فقال له البرّاض بن قيس - أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة -: أنجيها على كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق، فخرج فيها عروة الرحال، وخرج البرّاض يطلب غفلته حتّى إذا كان ببيتمن ذي طلال بالعالية، غفل عروة فوثب عليه البرّاض فقتله في الشهر الحرام فلذلك سمّي الفجّار. وقال البراض في ذلك:

وداهية تهّم الناس قبلي شددت لها بني بكر ضلوعي
هدمت بها بيوت بني كلاب وأرضعت الموالي بالضروع
رفعت له بذني طلال كفي فخرّ يميّد كالجدع الصريع...^(٥)

وكان البرّاض سكّيراً فاسقاً، خلعه قومه وتبرّثوا منه، فشرّب في بني الدليل فخلعوه فأتى مكّة وأتى قريشاً فنزل على حرب بن أمية فحالفه فأحسن حرب جواره وشرب بمكّة حتّى همّ حرب أن يخلعه، فقال لحرب: إنّه لم يبق أحد ممّن يعرفني إلّا خلعتني سواك وإنك إن خلعتني لم ينظر إليّ أحد بعدك فدعني على حلفك وأنا خارج

(١) الروض الأنف، ٢١١/١.

(٢) الروض الأنف، ٢٠٩/١.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٢٦٨/٢، دار الأندلس، طبعة الاولى ١٩٦٥.

(٤) العير تحمل المسك والبز وغيرهما.

(٥) الروض الأنف، ٢٠٩/١ و ٢١٠.

عنك ، فتركه وخرج فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة^(١) . ونشبت الحرب على أثر فتكة البرّاض بين قيس عيلان وبني كنانة ، وحمي أتونها ، وأكلت الأخضر واليابس حتّى قال ابن إسحاق عنها : كان الفجّار الآخر بعد الفيل بعشرين سنة ، فلم يكن في العرب يوم أعظم ولا أذهب ذكر في النَّاس منه ، بين قريش ومن حالفها من كنانة وبين قيس بن عيلان فالتقوا فيه بعكاظ^(٢) .

صور من هذه الحرب

ثمّ كان يوم الفجّار الثاني ، وأوّل حروبه يوم نخلة وبينه وبين مبعث النبي ﷺ عشرون سنة ، وشهد النبي ﷺ ذلك اليوم مع قومه وله أربع عشرة سنة ، وكان يناول عمومته النبل ، هذا قول أبي عبيدة ، وقال غيره : بل شهدا وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، ثمّ كان اليوم الثاني من الفجار الثاني وهو يوم شمطة ، فجمّعت كنانة وقريش بأسرها وبنو عبد مناة والأحابيش^(٣) وأعطت قريش رؤوس القبائل أسلحة وأعطى عبد الله بن جدعان خاصة من ماله مائة رجل من كنانة أسلحة تامة وأداة ، وجمعت هوازن وخرجت فلم تخرج معهم كلاب ولا كعب ولا شهد هذان البطنان من أيّام الفجار إلّا يوم نخلة مع أبي براء عامر بن مالك ، وكان القوم جميعاً متساندين على كلّ قبيلة سيّدهم ... وكانت هوازن متساندين كذلك . قال : فسبقت هوازن قريشاً فنزلوا شمطة من عكاظ ، وظنّوا أنّ كنانة لم توافهم ، وأقبلت قريش فنزلت من دون السيل وجعل حرب بني كنانة في بطن الوادي ، وقال لهم : لا تبرحوا مكانكم ولو أبيحت قريش هوازن من وراء المسيل .

قال أبو عبيدة : فحدّثني أبو عمرو بن العلاء قال : كان ابن جدعان في إحدى المُجَنَّبَتَيْن ، وفي الأخرى هشام بن المغيرة ، وحرب في القلب ، وكانت الدائرة في أوّل النهار لكنانة ، فلمّا كان آخر النهار تداعت هوازن وصبروا واستحزّ القتل في قريش ، فلمّا رأى ذلك بنو الحارث بن كنانة وهم في بطن الوادي مالوا إلى قريش وتركوا

(١) الأغاني ، ٥٧/٢٢ .

(٢) محمّد بن أحمد الفاسي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ١٤٩/٢ ، دار الكتاب العربي ١٤٠٥ .

(٣) الأحابيش ، سمّوا بذلك لأنهم تحالفوا على أن يكونوا يدأ على من سواهم ، ما أقام حبيش وهو جبل معروف .

مكانهم فلما استحرّ القتل بهم قال أبو مساحق بلعاء بن قيس لقومه : أَلحقوا برخم - وهو جبل - ففعلوا وانهزم الناس وكان رسول الله ﷺ لا يصير في فئة إلا انهزم من يحاذيها ، فقال حرب بن أمية وعبدالله بن جُعدان : ألا ترون إلى هذا الغلام ما يحمل على فئة إلا انهزمت ؟

ثم كان اليوم الثالث من أيام الفجّار وهو يوم العباء فجمع القوم بعضهم لبعض والتقوا على قرن الحول بالعبلاء وهو موضع قريب من عكاظ ورؤسائهم يومئذ على ما كانوا عليه يوم شمطة وكذلك من كان على المجنيتين فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت كنانة فقال خداش بن زهير :

ألم يبلغك بالعبلاء أنا ضرينا خندقاً حتى استقادوا
تُبئى بالمنازل عزّ قيس وودّوا لو تسيخ بنا البلاد

ثم كان اليوم الرابع من أيامهم يوم عكاظ ، فالتقوا في هذه المواضع على رأس الحول وقد جمع بعضهم لبعض واحتشدوا والرؤساء بحالهم ، وحمل عبدالله ابن جُعدان يومئذ ألف رجل من بني كنانة على ألف بعير وخشيت قريش أن يجري عليها مثل ما جرى يوم العباء فقيّد حرب وسفيان وأبو سفيان بنو أمية بن عبد شمس أنفسهم وقالوا : لا نبرح حتى نموت مكاننا وعلى أبي سفيان يومئذ درعان قد ظاهري بينهما ... فاقتتل الناس يومئذ قتالاً شديداً ، وثبت الفريقان حتى همت بنو بكر بن عبد مناة وسائر بطون كنانة بالهرب ، وكانت بنو مخزوم تلي كنانة فحافظت حفاظاً شديداً وثبت الفريقان وكان أشدهم يومئذ بنو المغيرة فإنهم صبروا وأبلوا بلاءً حسناً ، فلما رأت ذلك بنو عبد مناة من كنانة تدامروا - أي حصّ بعضهم بعضاً على القتال - فرجعوا وحمل بلعاء بن قيس وهو يقول :

إن عكاظ ما وانا فخلّوه وذاالمجاز بعد أن تحلّوه

وخرج الحليس بن يزيد أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة - وهو رئيس الأحابيش يومئذ - فدعا إلى المبارزة فبرز إليه الحدّان بن سعد النصري فطعنه الحدّان فدفق عضده وتحاجزا . واقتتل القوم قتالاً شديداً وحملت قريش وكنانة على قيس من كلّ وجه فانهمزمت قيس كلّها إلا بني نصر فإنهم صبروا ثم هربت بنو نصر وثبت بنو دُهمان فلم يغنوا شيئاً فانهمزموا وكان عليهم سبع بن أبي ربيعة - أحد بني دهمان ، فعقل نفسه ونادى : يا آل هوازن ، يا آل هوازن ، يا آل نصر ، فلم يعرّج عليه أحد وأجفلوا

منهزمين ، فكرّ بنو أمية خاصة في بني دهمان ومعهم الخنيسق وتشعّه الجشيان فلم يغنوا شيئاً ، فانهزموا . وكان مسعود بن معتب الثقفي قد ضرب على امرأته سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف خباءً ، وقال لها : من دخله من قريش فهو آمن ، فجعلت توصل في خبائها ليتسع فقال لها لا يتجاوزني خباءك فيأتي لأمضي لك إلا من أحاط به الخباء فاحفظها ، فقالت : أما والله إني لأظنّ أنك ستودّ أن لو زدت في توسعته ، فلمّا انهزمت قيس دخلو خبائها مستجبرين بها فأجار لها حرب بن أمية جيرانها وقال لها : يا عمّه ، من تمسك بأطناب خباءك أو دار حوله فهو آمن ، فنادت بذلك ، فاستدارت قيس بخباءها حتّى كثروا جدّاً ، فلم يبق أحد لا نجاة عنده إلا دار بخبائها فقبل لذلك الموضوع مدار قيس وكان يضرب به المثل ... (١)

أفاض المؤرخون بذكر هذه الحرب الضروس وذكرها الذهبي في تاريخ الإسلام في سطور وسكت عن جلّ أحداثها ، وكأنّه ما ذكرها إلا ليؤكدّ الزعم القائل : إنّ حرب بن أمية كان قائد قريش (٢) .

وأطلنا في أخبار حرب الفجار ليلمّ القارئ بشدّتها ومن ثمّ يعرف مكانة قادتها ، إذا الحرب تدلّ على صفة القائد من الحكمة والشجاعة ورجاحة الرأي حين يطول أمدها ويستعر أوارها ويحمى وطيستها ، وكانت حرب الفجار معركة عن مكانة خويلد من حيث هو أحد قادتها ولم تكن قيادته لبيته خاصة بل شملت بني عبدالدار أيضاً وهم حجة البيت وما كان هؤلاء ترضيهم قيادة ما لم تكن في المستوى اللائق بهم (٣) ، يقول ابن قتيبة : وأمّا بنو عبدالدار فمنهم آل أبي طلحة بن عثمان بن عبدالدار فقتلوا جميعاً يوم أحد إلا عثمان بن طلحة فإنه أسلم ودفع إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفتاح الكعبة وابنه شيبه بن عثمان وفي ولده المفتاح إلى يومنا هذا .. (٤)

(١) الأغاني ٥٦/٢٢ - ٦٩ بتصرف ، وراجع أيضاً : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٤ ؛ وابن دريد ، الإشتقاق ، ص ٩٢ ؛ وشفاء الغرام ، ١٥١/٢ ؛ وروض الأنف ؛ ٢٠٩/١ ؛ وسمط النجوم الغوالي ، ٢٤٠/١ ؛ والأرزقي ، تاريخ مكة ، ١١٥/١ ؛ وابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، ٢٥٣/٥ وسمّاه الفجار الآخر ؛ وابن الأثير ، الكامل ، ٣٥٨/١ إلى آخره ؛ والدياربركي ، تاريخ الخميس ، ٢٥٩/١ .

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، السيرة النبوية ، ص ٦١ ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ١٤١٥ .

(٣) الأغاني ، ٦٢/٢٢ .

(٤) المعارف ، ص ٣٢ ، ط بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٠ ؛ أخبار مكة ، ١٠٩/١ و ١١٠ .

ومن المواقف الدالة على سمو مكانة سيدنا خويلد في قريش ، موقفه من تبع حين أراد غزوا البيت وأراد أن يحتمل الحجر الأسود معه إلى اليمن فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة ثم إن تبعاً روع في منامه ترويعاً شديداً حتى ترك ذلك وانصرف عنه (١).

ولم يذكر ابن الأزرقي في تاريخ مكة أيّاً من التبابعة أراد أخذ الحجر ، ولكنه قال : وأما التبابعة الذين أرادوا هدم الكعبة وتخريبها ثلاثة ، وقد كان قبل ذلك منهم من يسير في البلاد فإذا دخل مكة عظم الحرم والبيت ، وأما التبعية الثالث فإتّما كان في أول زمان قريش (٢).

ومن الراجح أن يكون هو صاحب خويلد بن أسد ، يدلّ على ذلك نعتُ السهيلي له بأنّه الآخر كما سلف ويشكل بعدُ الزمانين لأنّ أول زمان قريش كان في عهد قصي جدّ أسد بن عبدالعزيز والدخويلد والخبر ذكره ابن إسحاق في السيرة وورد في أخبار مكة للأزرقي أتم .

أول زمان قريش وحكاية قصي بن كلاب

هلك كلاب بن مروة بن كعب بن لؤي بن غالب وترك «زهرة» و«قصياً» ابني كلاب مع أمّهما فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل ، وزهرة أكبرهما ، فتزوج ربيعة بن حرام أمّهما وزهرة رجل بالغ ، وقصي فطيم أو في سنّ الفطيم ، فاحتلمها ربيعة إلى بلادهم من أرض عذرة من أشرف الشام ، فاحتلمت معها قصياً لصغره وتخلّف زهرة في قومه فولدت فاطمة ابنة عمرو بن سعد لربيعة رزاح بن ربيعة فكان أخا قصي بن كلاب لأّمّه ولربيعة بن حرام من امرأة أخرى ثلاثة نفر «حسن» و«محمود» و«جلهمة» بنو ربيعة ، فبينما قصي بن كلاب في أرض قضاة لا ينتمي إلا لربيعة بن حرام إذ كان بينه وبين رجل من قضاة شيء وقصي قد بلغ فقال له القضاعي : ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منّا ، فرجع قصي إلى أمّه وقد وجد في نفسه ممّا قال له القضاعي ، فسألها عمّا قال له ، فقالت : والله أنت يا بني خير منه وأكرم ، أنت ابن كلاب بن مروة بن كعب

(١) السهيلي ، الروض الأنف ، ٢١٣/١ ، طبع مؤسسة مختار .

(٢) الأزرقي ، تاريخ مكة ، ١٣٢/١ ، طبع مكة ١٣٨٥ .

وقومك عند البيت الحرام وما حوله ، فأجمع قصي للخروج إلى قومه واللحاق بهم وكره الغربية في أرض قضاة ، فقالت له أمه : يا بني لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فأني أخشى عليك ، فأقام قصي حتى دخل الشهر الحرام وخرج في حاج قضاة حتى قدم مكة ، فلما فرغ من الحج أقام بها ، وكان قصي رجلاً جليداً حازماً بارعاً ، فخطب إلى حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ابنته حبى ابنة حليل فعرف حليل نسبه ورغب في الرجل فزوجه ، وحليل يومئذ يلي الكعبة وأمر مكة ، فأقام قصي معه حتى ولدت حبى لقصي عبد الدار وهو أكبر ولده وعبد مناف وعبد العزى وعبد بني قصي فكان حليل يفتح البيت فإذا اعتل أعطى ابنته حبى المفتاح ففتحته فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصياً أو بعض ولدها فيفتحها ، وكان قصي يعمل في حيازته إليه وقطع ذكر خزاعة عنه .

فلما حضرت حليلاً الوفاة نظر إلى قصي وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته فرأى أن يجعلها في ولد ابنته فدعا قصياً فجعل له ولاية البيت وأسلم إليه المفتاح وكان يكون عند حبى ، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه وذلك وأخذوا المفتاح من حبى فمشى قصي إلى رجال من قومه من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى أن يقوموا معه في ذلك وأن ينصروه ويعضدوه فأجابوه إلى نصره وأرسل قصي إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة وهو ببلاد قومه من قضاة يدعوهم إلى نصره ويعلمه ما حالت خزاعة بينه وبين ولاية البيت ويسأله الخروج إليه بمن أجابه من قومه ، فقام رزاح في قومه فأجابوه إلى ذلك فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته من أبيه «حسن» و«محمود» و«جلهمة» بنو ربيعة بن حرام فيمن تبعهم من قضاة في حاج العرب مجتمعين لنصر قصي والقيام معه ، فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا إلى الحج فوقفوا بعرفة وجمع ونزلوا منى وقصي مجمع على ما أجمع عليه من قتالهم بمن معه من قريش وبني كنانة ومن قدم عليه من أخيه رزاح من قضاة ، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعل له حليل وعظّموا عليهم القتال في الحرم وحذروهم الظلم والبغي بمكة وذكرّوهم ما كانت فيه جرهم وما صارت إليه حين الحدوا فيه بالظلم والبغي فأبت خزاعة أن تسلم ذلك فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى .

قال : فسَمِّي ذلك اليوم المَفْجَرُ^(١) لما فَجَّر فيه وسفك فيه من الدماء وانتَهك من حرمة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتَّى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً وفشت فيهم الجراحات وحاج العرب جميعاً من مضر واليمن مستكفون ينظرون إلى قتالهم ثمَّ تداعوا إلى الصلح ودخلت قبائل العرب بينهم وعظّموا على الفريقين سفك الدماء والفجور في الحرم ، فاصطلحوا على أن يحكّموا بينهم رجالاً من العرب فيما اختلفوا فيه فحكّموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وكان رجلاً شريفاً ، فقال لهم : موعدكم فناء الكعبة غدأ ، فاجتمع إليه النَّاس وعدّوا القتلى فكانت في خزاعة أكثر منها في قريش وقضاة وكنانة ، وليس كلُّ بني كنانة قاتل مع قصي إنَّما كانت مع قريش من بني كنانة قبائل يسيرة واعتزلت عنها بكر بن عبد مناة قاطبة ، فلمَّا اجتمع الناس بفناء الكعبة قام يعمر بن عوف فقال : ألا إنِّي قد شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدميَّ هاتين فلا تباعة لأحد على أحد في دم وإني قد حكمت لقصيَّ بحجابه الكعبة وولاية أمر مكة دون خزاعة لما جعل له حليل وأن يخلّي بينه وبين ذلك وأن لا تخرج خزاعة من مساكنها من مكة .

قال : فسَمِّي يعمر من ذلك اليوم «الشِّدَاخ» فسلمت ذلك خزاعة لقصي وعظّموا سفك الدماء في الحرم وافترق الناس فولّي قصيُّ بن كلاب حجابة الكعبة وأمر مكة وجمع قومه من قريش من منازلهم إلى مكة يستعزّ بهم وتملّك على قومه فملكوه ، وخزاعة مقيمة بمكة على رباعهم وسكناتهم لم يحركوا ولم يخرجوا منها فلم يزالوا على ذلك حتَّى الآن . وقال قصي في ذلك وهو يتشكّر لأخيه رزاح بن ربيعة :

أنا ابن العاصمين بني لؤيٍّ	بمكة مولدي وبها ربيت
ولي البطحاء قد علمت معدّ	ومروتها رضيت بها رضيت
وفيها كانت الآباء قبلي	فما شويت أخيّ ولا شويت
فلست لغالب إن لم تأثل	بها أولاد قيدير والبنيت
رزاح ناصري وبه أسامي	فلست أخاف ضيماً ما حييت

فكان قصي أوّل رجل من كنانة أصاب ملكاً ، وأطاع له به قومه فكانت إليه

(١) المَفْجَرُ : مكان خلف الجبل المقابل للبير وهو على حافة طريق السيّارات إلى عرفات أيام الحج وبهذا المكان مجرى عين زبيدة وقد أُقيم عليه آلة بخارية رافعة لتوصل الماء إلى قناة منى .

الحجابه والرفاده والسقاية والندوة واللواء والقيادة . فلما جمع قصي قريشاً بمكة سَمِي مجعماً وفي ذلك يقول حذافة بن غانم الجمحي :

أبوهم قصي كان يدعى مجعماً به جمع الله القبائل من فھر
هم نزلوها والمياه قليلة وليس بها إلا كهول بني عمرو

يعني خزاعة . قال إسحاق بن أحمد : وزادني أبو جعفر محمد بن الوليد بن كعب

الخزاعي :

أقمنا بها والناس فيها قلائل وليس بها إلا كهول بني عمرو
هم ملؤا البطحاء مجداً وسودداً وهم طردوا عنها غواة بني بكر
وهم حفروها والمياه قليلة ولم يستق إلا بنكد من الحفر
حليل الذي عادى كنانة كلها ورابط بيت الله في العسر واليسر
أحازم إتماً أهلكن فلا تزل لهم شاكرأ حتى توسد في القبر

ويقال : من أجل تجمع قريش إلى قصي سميت قريش قريشاً . قال أبو الوليد :

وأشدني عبدالعزيز بن إسماعيل الحلبي في التقرش وهو الاجتماع :

أيجدي كشحنا للطعان إذا افترش القنا وتقعق الحجف

ولبعضهم :

قوارش بالرماح كأن فيها شواطن تنتزعن به انتزاعا

والتجمع التقرش في بعض كلام العرب ، ويقال : كان يقال لقصي القرشي ولم

يسم قريش قبله (١) .

لم سميت قريش قريشاً ..

يقال : إن النضر بن كنانة كان يسمي القرشي . وقد قيل أيضاً : إنما سميت قريش قريشاً لأنها كانت تجاراً تكتسب وتتجر وتحترش فشبهت بحوت البحر .. وقال الأزقي : حدثني أبو الحسن الوليد بن أبان الرازي عن علي بن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال : قيل لابن عباس : لم سميت قريش قريشاً ؟ قال : بأمر بين مشهور ، بدابة البحر تسمى قريشاً والدليل على ذلك قول تبع حين يقول :

(١) الأزقي ، تاريخ مكة ، ١٠٣/١ - ١٠٨ ، وانظر : سيرة ابن هشام ، ١١٧/١ .

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشاً
تأكل الفث والسمين ولا تترك فيه لذي جناحين ريشاً
هكذا في البلاد حتى قريش يأكلون البلاد أكلاً كشيثا
ولهم آخر الزمان نبي يكثر القتل فيهم والخموشا

قال : فحاز قصي شرف مكة وأنشأ دار الندوة وفيها كانت قريش تقضي أمورها ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون^(١) وحلفاءهم ، فلما كبر قصي ورث كان عبدالدار بكره وأكبر ولده ، وكان عبد مناف قد شرف في زمن أبيه وذهب شرفه كل مذهب ، وعبدالدار وعبدالعزى وعبد بنو قصي بها لم يبلغوا ولا أحد من قومهم من قريش ما بلغ عبد مناف من الذكر والشرف والعز ، وكان قصي وحبي ابنة حليل يحبان عبدالدار ويرقان عليه لما يريان عليه من شرف عبد مناف وهو أصغر منه ، فقالت له حبي : لا والله لا أرضى حتى تخص عبدالدار بشيء تلحقه بأخيه ، فقال قصي : والله لألحقته به ولأحبوته بذروة الشرف حتى لا يدخل أحد من قريش ولا غيرها الكعبة إلا بإذنه ولا يقضون أمراً ولا يعقدون لواء إلا عنده ، وكان ينظر في العواقب ، فأجمع قصي على أن يقصم - كذا - أمور مكة الستة التي فيها الذكر ، الشرف والعز بين ابنه فأعطى عبدالدار السدانة وهي الحجابة ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة . فأما السقاية فحياض من آدم ، كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة ، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل وليسقاه الحاج ، وأما الرفادة فخرج كانت قريش تخرجه من أموالها في كل موسم فتدفعه إلى قصي يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد ، فلما هلك قصي أقيم أمره في قومه بعد وفاته على ما كان عليه في حياته ، وولي عبدالدار الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبدالدار ، وجعل دار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبدالدار فكانت قريش إذا أرادت أن تشاور في أمر فتحها لهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار أو بعض ولده أو ولد أخيه ، وكانت الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف بن عبدالدار درعها ثم درعها إياه وانقلب بها أهلها فحجبوها فكان عامر بن هاشم يسمى محيضاً وإنما سميت

(١) أخبار مكة ، ١٠٩/١ .

دار الندوة لاجتماع النداة فيها يندونها يجلسون فيها لإبرام أمرهم وتشاورهم...^(١) ولقد ورث مكارم الجدّ أكثر من غيره سيّدنا هاشم بن عبد مناف عليه السلام، كان يقول لقريش إذا حضر الحج : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، خصّكم الله بذلك وأكرمكم به ثمّ حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا ضيافته وزوّار بيته يأتونكم شعناً غبراً من كلّ بلد، فكانت قريش ترافد على ذلك حتّى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشّيء اليسير رغبة في ذلك فيقبل منهم لما يربح لهم من منفعتهم. وكلام هاشم هذا نفس الكلام الذي كان يقوله قصي لقريش : يا معشر قريش، إنكم جيران الله أهل الحرم، وإنّ الحاج ضيفان الله وزوّار بيته، وهم أحقّ الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشرباً أيام هذا الحج حتّى يصدروا عنكم، ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كلّ عام من أموالهم خرجاً تخرجه قريش في كلّ موسم من أموالهم فيدفعونه إلى قصي، فيصنعه طعاماً للحاج أيام الموسم بمكّة ومنى فجرى ذلك من أمره في الجاهليّة على قومه وهي الرفاضة حتّى قام الإسلام وهو في الإسلام إلى يومك هذا وهو الطعام الذي يصنعه السلطان بمكّة ومنى للناس حتّى ينقضي الحاج^(٢).

وكان قصي من بناء البيت وقد نظم ذلك علي الطبري شعراً فقال :

مدى الدهر من سابق يكرم	بنى البيت خلق وبيت الإله
خليل عمالقة جرهم	ملائكة آدم، ولده
وحجاج بعدهم يعلم	قصي، قريش ونجل الزبير
مراد هو الماجد المنعم	وسلطاننا الملك المرتضى
وأبقاه خالقنا الأعظم	أدام الإله لنا ملكه

ونظم محمّد علي بن علان ثلاثة أبيات جمع فيها بناء الكعبة فقال :

وشيت وإبراهيم ثمّ العمالقة	بنى الكعبة، الأملاك، آدم، ولده
هو ابن الزبير، ثمّ حجاج لاحقه	وجرهم، قصي، مع قريش، وتلوهم
مراد بني عثمان سيّد رونقه... ^(٣)	ومن بعد هذا قد بنى البيت كلّهم

(١) أخبار مكة ١٠٩/١ و ١١٠ وإتّما أطلنا في نقل أخبار قصي فلأنّ أصل الكتاب موضوع للخطباء الكرام وهم بحاجة ماسة إلى الإطلاع على هذه الأخبار.

(٢) أخبار مكة ١٩٥/١.

(٣) أخبار مكة، ١/٣٧٣.

يقول أحمد بن علي الفاسي : بنيت الكعبة مرّات ، وفي عدد بنائها خلاف ، ويتحصّل من مجموع ما قيل في ذلك أنّها بنيت عشر مرّات ؛ منها بناء الملائكة ، ومنها بناء آدم ، ومنها بناء أولاده ، ومنها بناء الخليل على جميعهم السلام ، ومنها بناء العمالقة ، ومنها بناء جرهم ، ومنها بناء قصي ، ومنها بناء قريش ، ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، ومنها بناء الحجاج بن يوسف الثقفي ، وفي إطلاق العبارة بأنّه بنى الكعبة تجوّز ، لأنّه ما بنى إلّا بعضها ولولا أنّ السهيلي والنووي ذكرا ذلك وجميع ما ذكرناه من بناء الكعبة ذكره الأزرقى إلّا بناء قصي فإنّه لم يذكره^(١) . ولكنّ الأزرقى ذكر ذلك إن لم يكن نثرأ ففي الشعر كما سلف .

ومن مآثر قصي الراية التي تسمّى للعقاب وكانت في حرب الفجّار الثاني بيد حرب بن أمية كما زعم ذلك صاحب الأغاني^(٢) . ولعلّ هذا الزعم خدع الذهبي فنسب إلى حرب القيادة في تلكم الحرب وقد مرّ آنفاً ما قاله عن حرب .. والواقع إنّ القيادة لم تكن لواحدٍ بعينه بل كانت موزعة في بيوت قريش لكلّ بيت رجل لامع منه أسندت إليه القيادة ، من ثمّ كان خويلد واحداً من هؤلاء القادة بل من أعظمهم شأنًا وأكبرهم مقاماً ، دلّ على ذلك قيادته لبني عبدالدار ، وهم من هم يومئذ في قريش لكونهم يلون أعظم المراتب في البيت الحرام ، وهي الحجابة ، وكان خويلد في الشرف البادخ من قريش حتى ولو لم تسند إليه القيادة يومئذ لكثرة أتباعه وأبنائه . يقول صاحب الجمهرة : وأمّا خويلد بن أسد بن عبدالعزيز بن قصي فهو كان على بني عبدالعزيز وبني عبد ابني قصي يوم الفجّار وفي ولده البيت والعدد^(٣) . ولعلّ الكثرة من أسباب سيادته أيضاً ، لأنّها الغالبة لا محالة .

ثمّ لا يذهب عن البال أنّه الأقرب نسباً من قصي ، وكانت السيادة على قريش قاطبة وعلى أهل مكة له ، لأنّه المجمع كما سمّوه :

أبوكم قصي كان يدعى مجعماً به جمع الله القبائل من فهد

(١) أحمد بن علي الفاسي ، الزهور المقتطفة ، ص ٤١ .

(٢) الأغاني ، ٦٠/٢٢ .

(٣) ابن حزم ، جمهرة النسب ، ص ١٢٠ .

ومنه انتقلت السيادة إلى أولاده الأقرب فالأقرب ، فمن كان أقرب إليه لحمه كان أدنى إلى السيادة .

بعد الذي مرّ لا زال الإشكال على حاله في قول المؤرخين عن قيام خويلد في وجه تبّع ومنعه له من احتمال الحجر معه ، لأنّ ذلك لا يصدق إلا على تبّع الثالث كما ذكر ذلك الأزرقى ويؤكدّه نعت السهيلي له بأنّه الآخر وحينئذ يكون زمنه سابقاً على زمن خويلد لقول الأزرقى : إنّما كان ذلك في أوّل زمان قريش وهو زمن قصي جدّ أسد والد خويلد ، فهل هو تبّع آخر أو خويلد آخر ؟ علم ذلك عند الله .

أم خديجة عليها الصلاة والسلام

هي فاطمة بنت زائدة بن جندب وهو الأصم بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد شمس بن معيص ^(١) من سلالة عامر بن لؤي ^(٢) ، ولها أخت شقيقة تدعى هالة ، وأخرى اسمها «رفيقة» أم أميمة بنت بجاد بن عمير من بني تيم بن مرّة .. وهالة هي أم أبي العاص ابن الربيع صهر النبي ﷺ ^(٣) . ومن هذه السلالة وهو ابن خال سيّدتنا خديجة عليها السلام مؤذن النبي ابن أم مكتوم واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم ، نسب إلى أمّه وهي أم مكتوم عاتكة بنت عبدالله ^(٤) . وفي ابن أم مكتوم هذا نزلت السورة التي يذكر فيها عبس وتولّى .

ابن أم مكتوم ..

والراوي لحكاية ابن أم مكتوم هشام عن أبيه عروة بن الزبير عن عائشة ، قالت : نزلت عبس وتولّى في ابن أم مكتوم ، جاء إلى النبي ﷺ فجعل يقول : يا محمّد استدني ، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : يا فلان هل ترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : لا والدمى ، ما أرى بما تقول بأساً ، فأنزل الله عبس وتولّى .

(١) الزبيري ، أنساب قريش ، ص ٢١ .

(٢) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ١٧٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٠ .

(٤) جمهرة النسب ، ص ١٧١ ؛ أسد الغابة ، ١٢٧/٤ ؛ الإصابة ، ٥٢٣/٢ .

وفي الترمذي مسنداً قال: حدّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، حدّثني أبي، قال: هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: نزلت عبس وتولّى في ابن أم مكتوم الأعمى وساق الحديث^(١).

والظاهر أنّ الإتفاق حاصل من أهل السنّة والجماعة أنّها نزلت في ابن أم مكتوم عتاباً للنبي في حقّه، ولذا قال القرطبي: فروى أهل التفسير أجمع أنّ قوماً من أشرف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه فأعرض عنه ففيه نزلت هذه الآية..^(٢). ولكننا نرد هذا القول رداً أكيداً، يقول الشيخ الطوسي رحمه: وهذا فاسد لأنّ النبي ﷺ قد أجلّ الله قدره عن هذه الصفات، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب وقد وصفه بأنّه على خلق عظيم، وقال: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وكيف يعرض عمّن تقدّم وصفه مع قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾؟ ومن عرف النبي ﷺ وحسن أخلاقه وما خصّه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة حتّى قيل أنّه لم يكن يوافق أحداً قط فينزع يده من يده حتّى يكون ذلك الذي ينزع يده من يده، فمن هذه صفته كيف يقطب في وجه أعمى جاء يطلب الإسلام على أنّ الأنبياء عليهم السلام منزّهون عن مثل هذه الأخلاق وعمّا هو دونها لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والإصغاء إلى دعائهم ولا يجوز مثل هذا على الأنبياء من عرف مقداهم وتبيّن نعتهم.

وقال قوم: إنّ هذه الآيات نزلت في رجل من بني أميّة كان واقفاً مع النبي ﷺ فلما أقبل ابن أم مكتوم تنفّر منه وجمع نفسه وعبس في وجهه وأعرض بوجهه عنه فحكى الله تعالى ذلك وأنكره معاتبه على ذلك^(٣).

ونقل الشيخ الطوسي رحمه قول السيّد المرتضى قدّس الله روحه: ليس في ظاهر الآية دلالة على توجيهها إلى النبي ﷺ، بل هو خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه وفيها ما يدلّ على أنّ المعنيّ بها غيره لأنّ العبوس ليس من صفات النبي ﷺ مع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٠٩/١٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٠٩/١٩.

(٣) الطوسي، التبيان، ٢٦٨/١٠، و٢٦٩.

الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين ، ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة ، ويؤيد هذا القول قوله سبحانه في وصفه عليه السلام : ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقوله : ﴿ ولو كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فالظاهر أَنَّ قوله : ﴿ عبس وتولى ﴾ المراد به غيره ، وقد روي عن الصادق عليه السلام أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقدَّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه (١) .

ويظهر لي والله العالم أَنَّ الشيخ الطبرسي يميل مع الرأي العامي ، لأنه قال عقب ذلك : فلو صحَّ الخبر الأوَّل ، هل يكون العبوس ذنباً ؟ وأعقب ذلك كله برواية عن الإمام الصادق عليه السلام تخالف ما قاله السيّد المرتضى علم الهدى عليه السلام ، قال : فإن قيل : فلو صحَّ الخبر الأوَّل هل يكون العبوس ذنباً أم لا ؟ فالجواب أَنَّ العبوس والإنسياط مع الأعمى سواء إذ لا يشقَّ عليه ذلك فلا يكون ذنباً فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه بذلك نيِّه عليه السلام ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق وينبِّهه بذلك على عظم حال المؤمن المسترشد ويعرفه أَنَّ تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه . وقال الجبائي : في هذا دلالة على أَنَّ الفعل يكون معصية فيما بعد لمكان النهي ، فأما في الماضي فلا يدلُّ على أنه كان معصية قبل أن ينهى عنه ، والله سبحانه لم ينهه إلا في هذا الوقت . وقيل إنَّ ما فعله الأعمى نوعاً من سوء الأدب فحسن تأديبه بالإعراض عنه إلا أنه كان يجوز أن يتوهم أنه أعرض عنه لفقره وأقبل عليهم لرئاستهم تعظيماً لهم فعاتبه الله سبحانه على ذلك ، وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال : مرحباً مرحباً لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً ، وكان يصنع به من اللطف حتَّى كان يكف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ممَّا يفعل به .. (٢)

واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرّة في غزواته ، منها في غزوة الأبواء وبواط وذوالعسيرة وخروجه إلى جهينة في طلب كرز بن جابر وفي غزوة السويق وخطفان وأحد وحمراء الأسد ونجران وذات الرقاع

(١) مجمع البيان ، ٤٣٧/٥ .

(٢) مجمع البيان ، ٤٣٧/٥ .

واستخلفه حين سار إلى بدر ثم ردَّ إليها أبا لبابة واستخلفه عليها واستخلف رسول الله ﷺ عمراً أيضاً في مسيره إلى حجة الوداع، وشهد فتح القادسية ومعه اللواء وقتل بالقادسية شهيداً، وقال الواقدي: رجع من القادسية إلى المدينة فمات ولم يسمع له بذكر بعد عمر^(١).

وقال ابن حجر: أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين، قدم المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ إليها وقيل بل بعده وبعد وقعة بدر ببسبر، قاله الواقدي، والأول أصح، فقد روي من طريق أبي إسحاق عن البراء قال: أول من أتانا مهاجراً مصعب بن عمير ثم قدم ابن أم مكتوم^(٢).

وجزم المحدث الجليل صاحب التصانيف المفيدة الشيخ عباس القمي رحمه الله بموته حتف أنفه حيث قال: وكان رسول الله ﷺ يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته وشهد القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع ثم رجع إلى المدينة فمات بها^(٣).

وأنا أرتاب في حضوره القادسية ولي تعقيب بسيط على ذلك وهو أن قوله تعالى: ﴿غير أولي الضرر﴾ من سورة النساء نزلت فيه كما روي ذلك عن زيد بن ثابت، قال القرطبي: روى الأئمة واللفظ لأبي داود عن زيد بن ثابت قال:

كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيت السكينة فوعدت رسول الله ﷺ على فخذي، فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سري عنه فقال: أكتب، فكتبت في كتف^(٤) ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ إلى آخر الآية، فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - لما سمع فضيلة المجاهدين فقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد مع المؤمنين؟ فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة فوعدت فخذته على فخذي ووجدت من ثقلها في المرّة الثانية كما وجدت في المرّة الأولى ثم سري عن رسول الله ﷺ فقال: اقرأ يا

(١) أسد الغابة، ١٢٧/٤؛ وابن عبد البر، الإستيعاب، ٢٧٦/٣.

(٢) الإصابة، ٥٢٥/٢.

(٣) الكنى والألقاب، مادة ابن وأبو، ص ٢٠٩.

(٤) الكتف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم.

زيد ، فقرأت : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾ فقال رسول الله ﷺ ﴿ غير أولي الضرر ﴾ الآية كلها ، قال زيد : فأنزلها الله وحدها فألحقها والذي نفسي بيده ، والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقتها عند صدع في كتف .
ثم قال القرطبي : وصحّ وثبت في الخبر أنه عليها السلام قال : وقد قفل من بعض غزواته : إنَّ بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سرتهم مسيراً إلا كانوا معكم ، أولئك قد حبسهم العذر (١) .

وكان القوم على شبه اتفاق بشأن نزولها في ابن أم مكتوم ، يقول الشوكاني : وقد أخرج البخاري وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد بن ثابت ، وساق الحديث باختلاف يسير ، قال : وقد أخرج هذا المعنى عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث البراء وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن المنذر والطبراني والحاكم وصحّحه من طريق خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه (٢) .

أقول : ينزل عذر ابن أم مكتوم في كتاب الله ويقعد عن الجهاد مع رسول الله بيدر وغيرها ثم هو يخرج براءة سوداء إلى معارك القادسية ولذا تعجب أنس بن مالك من ذلك وقال : نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم ولقد رأيت في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء (٣) .

وليس من البعيد أن يكون مكذوباً عليه ويعضد ذلك ما كان يقال من شهادته في القادسية ومع فرض صحّة حضوره في القادسية فينبغي علينا أن نجري للقادسية ورجالها تقييماً آخر غير ما درج عليه الناس يومها . إنَّ القادسية تحوّلت من جهاد في سبيل الله إلى جهاد في سبيل الغنيمة ، وقد رأى المسلمون يومئذ الديمة الهطالة التي سحّت على المدينة طيلة الحرب ، غنائم لا عهد لشعب الجزيرة بها فاندفع الناس لحضورها طمعاً في الفوز بالغنيمة الغالية وهذا الأمر وإن أنكرته الأخلاق فإنَّ الشرع لا ينكره ، فلا مانع من حضور المسلم مواقع الحرب ليحظى عند الله ولا ينسى نصيبه من

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٣٤٢/٥ .

(٢) أنظر : الشوكاني ، فتح القدير ، ٥٠٣/١ .

(٣) نفسه ، ٥٠٤/١ .

الغنيمة ، وليس هذا إسائة ظنَّ بهم ، ولقد اختلف أهل بدر وهم خيرة أهل الأرض يومئذ في الأنفال ، واستأثر كلُّ على أخيه ولم تكن في غنائم بدر تيجان الأكاسرة ولا أسورتها ولا حلِّي صاحبات الجلالة فكيف نستكثر على قوم ولعهم في الغنيمة بعد ما شاهدناه من أهل بدر وهم مع النبي يجاهدون .

أجل ، ليس بعيداً أن يحضربن أم مكتوم وإن كان معذوراً لعماء معارك القادسية ليفوز مع الفائزين في الدنيا والدين ، على أنَّ حضور القادسية وإن تجرَّد من كل معنى دنيوي وتمحض لله ، ليس بتلك المثابة التي يريد بها المجاهد في سبيل الله ، لأنَّ إجراء الجهاد على يد غير المعصوم ومن استخلفه النبي بأمر الله ليسد فراغ النبوة لا بدَّ من جريانه على خلاف الشرع في كله أو بعضه على أقل تقدير ، ولو كان حضور القادسية فضلاً لما تركه سيّد أهل الفضل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام .

التلخص ..

وكان أمير المؤمنين عليه السلام مقاطعاً لهم نائي الخباب عنهم لا يأتلف معهم فيما يذهبون إليه من مذاهب في الحرب أو السلم حتّى شكاه عمر ذات يوم إلى عبد الله بن عباس ، روى ابن عباس قال : خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته فانفرد يوماً يسير على بعيره فأتبعته ، فقال لي : يا ابن عباس ، أشكو إليك ابن عمك ، سألته أن يخرج معي فلم يفعل ولم أزل أراه واحداً فيم تظن موجدته ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إنك لتعلم . قال : أظنّه لا يزال كثيراً لغوت الخلافة ؟ قلت : هو ذاك ، إنّه يزعم أنّ رسول الله أراد الأمر له . فقال : يا ابن عباس ، أراد رسول الله الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك ، إنّ رسول الله أراد أمراً وأراد الله غيره فنفذ مراد الله ولم ينفذ مراد رسول الله ، أو كلما أراد رسول الله كان؟! إنّه أراد إسلام عمّه ولم يردّه الله فلم يسلم^(١)!!

وها أنت ترى أنّ الإمام عليه السلام معرض عنهم مباحد لهم في السلم والحرب على حد سواء فلم يشاركهم في فتوحاتهم التي امتدّت فشملت حكم الخلفاء الثلاثة وها هو يلقي عمر في بعض الطريق فيقول له الإمام عليه السلام : أنشدك الله هل استخلفك رسول

(١) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ٧٨/١٢ و ٧٩ ، والظاهر أنّ هذه الفرية على أبي طالب بدأت من أستاذ الأجيال ؛ أبي حفص عمر .

الله ﷻ؟ قال: لا. قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك؟ قال: أما صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فساخلعتها من عنقي إلى عنقك، فقال عليها السلام: جدد الله أنف من ينقذك منها... (١)

لو عرف الإمام الجَدّ من عمر لكان أجابه بغير هذا الجواب، وكيف يكون جاداً في ردّ الحق إلى نصابه وهو حي من عمل المستحيل ليصرفها عن صاحبها وهو ميت؟ راجع مسألة الشورى بعد أن طعنه أبو لؤلؤة بتبصّر وتمعّن لتعرف صدق ما حدّثتك عنه، هذا من جهة ومن جهة أخرى لو كان خلعتها عمر من عنقه حقيقة لما قبلها أمير المؤمنين كيف وهو ما يزال يسمع صوت الزهراء عليها السلام يرنّ في أذنه عندما خرجت ورائه وهو يقاد إلى المسجد ملتباً:

خلّوا ابن عمّي أو لأكشف بالدعا	رأسي وأشكو للإله شجوني
ما كان ناقة صالح وفصيلها	بالفضل عند الله إلا دوني
ورنت إلى القبر الشريف بمقلة	عبري وقلب مكمد محزون
أبناه هذا السامري وعجله	عبدا ومال الناس عن هارون...

المجلس الثاني

تمة ترجمة سيّدتنا خديجة الكبرى سلام الله عليها

ورقة بن نوفل..

ومن بيت عبدالعزّي بن قصي ورقة بن نوفل بن عبدالعزّي وهو ابن عم سيّدتنا خديجة عليها السلام، ونوفل وخويلد هما أبناء علات، لأنّ أم نوفل تدعى خالدة، ويقال لها قبة الديباج بنت هاشم بن عبد مناف بن قصي، وأم خويلد هي زهرة بنت عمرو بن حبشي ابن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد... (٢)

ولورقة بن نوفل تاريخ حافل في الإسلام، فقد ذكرته جلّ المصادر الإسلامية بكثير من الثناء وما من مصدر في السيرة قديم أو حديث لم يذكره ذكراً حسناً ناعماً إياه

(١) شرح ابن أبي الحديد، ٥٨/٢.

(٢) راجع: الزبيري، نسب قريش، ص ٢٠٧.

بالصفات الجليلة ، ومع كون المؤرخين وكتاب السيرة متفقين على تاريخ ورقة إلا أنه يلفه الغموض في كثير من نقاطه ونحن نذكر فصولاً من هذا التاريخ وبعدها ، نشير إلى أمر مهم جداً قلَّ من تنبه له من المؤلفين المسلمين ، وهو وقوع ورقة بن نوفل في المزاد التبشيري واتخاذ المبشرين منه مادة دسمة لوضع سمّ التبشير فيها ، والعجيب في أمر هؤلاء المبشرين أنهم أخذوا تاريخ ورقة من المصادر الإسلاميّة ولكنهم على جاري عادتهم حرّفوا الكلم عن مواضعه وذكروا بعضاً من كل ، والبعض الذي أهملوه كان القصد من إهماله بذر الشك في نفوس الناشئة أو أصحاب القلوب المريضة ، والذي تزعم هذه الحركة المناوئة للإسلام هنا في البلاد العربية هو أخبث المبشرين نفساً وأقولهم بباطل وأكذبهم على الحق والتاريخ صنيعة المستشرق لامانس لويس شيخوا اليسوعي صاحب الكتاب الهزيل «مجانى الأدب» والذي لا زال رائجاً بين المسلمين بل وتقرره في مناهج دراستها بعض الجامعات الإسلامية في البلاد التي تحمل شعار الحكم الإسلامي لأنّ صاحبه يضرب على وتر حساس في نفوس بعضهم .

ونحن نسوق أخبار ورقة من المصادر الإسلامية لا نقدّم مصدراً على آخر إلا إذا وجدنا في الخبر ضعفاً أو ضعفاً فإننا نشير إليه إنشاء الله ثمّ نعرض في أثناء البحث للتبشير الذي اتخذ من ورقة وسيلة للنفوذ في عقول المسلمين .

قال أبو الفرج : هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأمّه هند بنت أبي كثير بن عبد بن قصي ، وهو أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية وطلب الدين وقرء الكتب وامتنع من أكل ذبائح الأوثان ..

عن عروة بن الزبير قال : سئل رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل كما بلغنا فقال : قد رأيت في المنام كأنّ عليه ثياباً بيضاً فقد أظنّ أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض ...

وعن عائشة : إنّ خديجة بنت خويلد انطلقت بالنبي ﷺ حتّى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ، وكان امرأً قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك . قال ورقة : يا بن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله تبارك وتعالى على موسى ، باليتني فيها جدع ، ليتني

أكون حياً إذ يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم ؟ قال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك لأنصرتك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة أن توفي ..

وقال عروة : كان بلال لجارية من بني جمح بن عمرو وكانوا يعدّبونه برمضاء مكة يلصقون ظهره بالرمضاء ليشرك بالله فيقول : أحد أحد ، فيمرّ عليه ورقة بن نوفل وهو على ذلك يقول : أحد أحد ، فيقول ورقة بن نوفل : أحد أحد والله يا بلال ! والله لئن قتلتموه لأتخذنه حناناً كأنه يقول لأتمسحنّ به . وقال ورقة بن نوفل في ذلك :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدنّ إلهاً غير خالقكم	فإن دعوكم فقولوا بيننا حد.. ^(١)
سبحان ذي العرش سبحانه نعوذ به	وقبل قد سبّح الجودي والجمد ^(٢)
مسخرّ كلّها تحت السماء له	لا ينبغي أن ينا ملكه أحد
لا شيء ممّا ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويؤدي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له	والجن والإنس تجري بينها البرد

وعن هشام بن عروة : أنّ رسول الله ﷺ قال لأخي ورقة بن نوفل أو لابن أخيه : شعرت أنّي قد رأيت لورقة جنة أو جنتين ، يشك هشام .

قال عروة : ونهى رسول الله ﷺ عن سبّ ورقة^(٣) .

ولا زال الغموض يلف ورقة من قرنه إلى أحمص قدمه مع كثرة المصادر التي روت وقائعه وأقواله والأقوال في حقه ، لقد نيف ورقة على القرن ، ولكن لم نعثر على وجوده في مجتمع مكة إلاّ مقترناً بالبعثة النبويّة ، ومن الغريب أن لا يكون له دور في حرب الفجار الثاني وقد شاركت قريش فيه بقضّها وقضيضها .

أجل ، نعثر أحياناً على ذكره عرضاً مع نظرائه الذين خرجوا على دين الجاهليّة

(١) الحدد : المنع .

(٢) الجودي : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليها السلام ؛ والجمد : جبل بنجد .

(٣) المصادر التي ذكرت ورقة تفصيلاً وإجمالاً كثيرة ، منها : الأغاني ، ٣/ ١١٩ - ١٢٢ ؛ والطبري ، ٢/ ٢٤٣ و ٢٩٩ و ٣٠٢ ؛ وأخبار الدول للقرماني ، ١/ ٣٧ ؛ وبلوغ الإرب ، ٢/ ٢٦٩ ؛ ونسب قريش ، ص ٢٠٧ ؛ وذكره كلّ من الإصابة وأسد الغابة والكامل والعقد الفريد وهكذا دواليك .

فقد ذكروا أنّ قريشاً اجتمعت يوماً بنخلة تحيي عبد العزى فخلص منهم أربعة نجياً هم زيد بن عمرو وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وورقة بن نوفل ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء وأتّهم لفي ضلال ، فما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضمر ولا ينفع ومن فوقه يجري دم النحور ، يا قوم التسموا لكم ديناً غير هذا الدين الذي أنتم عليه .

أما ورقة فدخل النصرانية وقيل إنّه نقل إلى العربية بعضاً ممّا في الأنجيل . وأما عبيد الله بن جحش فظل فيما هو فيه من الإلتباس حتّى أسلم ثمّ هاجر مع المسلمين إلى الحبشة وهناك اعتنق النصرانية ومات عليها وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان على الإسلام حتّى صارت من أزواج النبي وأمّهات المؤمنين . وأما زيد بن عمرو ففرّ من زوجه ومن عمّه الخطّاب وطوّف في الشام وفي العراق ثمّ عاد ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان وكان يقول وهو مستند إلى الكعبة : اللهمّ لو أنّي أعلم أيّ الوجوه أحب إليك لعبدتك به ولكنّي لأعلمه . وأما عثمان بن الحويرث وكان من ذوي قرابة خديجة فهرب إلى بيزنطة وتنصّر وحسنت مكانته عند قيصر ، ملك الروم ، ويقال : إنّه أراد أن يخضع مكة إلى حماية الروم وأن يكون عامل قيصر عليها فطرده المكّيون فاحتفى بالغساسنة في الشام وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة ، فوصلت الغساسنة هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسموماً^(١) .

والملاحظ هنا أنّ الثلاثة من هؤلاء الأربعة أحاط المؤرخ بتفاصيل حياتهم إلّا ورقة فلم يرد له إلّا الإسم فقط ، وبعض التفاصيل الباهت وهذا ما حملنا على التريث في أمره وأتّه أضيف إلى حياته أمور لم يفعلها وأقوال لم يقلها إمّا من مسلم جاهل يظنّ أنّه بهذا وأضرابه يخدم الدين أو صليبي حاقد يريد أن يوظف ورقة لمصلحة التبشير بدين الصليب . ثمّ انظر إلى خبث «لويس شيخو اليسوعي» واستعماله الدس في قضية عثمان ابن الحويرث وهو الذي خان أمته ووطنه وأرضه حين أراد بيعها على قيصر الروم بثمن بخس . انظر إلى هذا الصليبي وما زعمه من أمر عثمان حيث قال في ترجمته : عثمان بن الحويرث بن أسد الذي ملكه القيصر على قريش وعارضته قريش وكان

هجاء ألقابها عالمياً بمثلها^(١). الناظر في هذا النص يخيل له أن حكم القيصر منبسط على شبه الجزيرة العربية وممتد حتى على عاصمتها مكة ولكن بقليل من التأمل يدرك أن هذا القول من «شيخو» مجرد هراء رخيص وتراه أسند هذه المزعمة إلى معجم البلدان وذكر الجزء والصفحة ولم يذكر زمان ومكان الطبع مبالغة في الدس والتزوير، وأحياناً يقع الباحث على ذكر شاحب في ثنايا التاريخ لورقة يعرضه المؤرخ ضمن أقوال هي أشدّ تماسكاً وأقرب إلى الواقع نسباً منه من قبيل ما ذكره ابن عبد ربّه الأندلسي في العقد الفريد، قال: لما خطب رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد بن عبد العزى ذكرت ذلك لورقة بن نوفل وهو ابن عمّها، فقال: هو الفحل لا يُقدح أنفه تزوجيه..^(٢)

والمعروف بين المؤرخين كافة أن سيّدتنا خديجة عليها الصلاة والسلام هي التي تقدّمت بطلب الزواج من رسول الله ﷺ ولا أستبعد أن تكون هذه الرواية من دسّ الأمويين بخاصة إذا عرفنا صلة ابن عبد ربّه الوثيقة بهم، والغرض منها إظهار رسول الله بمظهر من لا يُرغب في الزواج منه ومن يُستشار بشأنه لضعف حاله. نعود إلى موضوع ورقة، فنقول: إن المصادر الإسلاميّة روت جميعاً حضوره المبكر أحداث البعثة الأولى وفي جميعها أنه أيقن بصدق البعثة واعترف لخديجة بالناموس الذي يأتي موسى عليه السلام والعبارة التي ذكرها الحلبي في السيرة المسماة إنسان العيون هي هكذا: قدوس قدوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقت يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي يأتي موسى الذي هو جبرئيل وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له يثبت.

وأفاض الحلبي بعد هذا القول بذكر حقائق مفيدة جداً إلى أن قال: وإتّما ذكر ورقة موسى دون عيسى عليهما الصلاة والسلام مع أنّ عيسى أقرب منه وهو على دينه لأنه كان على دين موسى ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام أي كان يهودياً ثم صار نصرانياً أي لأنّ نبوة موسى عليه الصلاة والسلام مجمع عليها أي على أنّها ناسخة لما قبلها وأنّ شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام قيل إنّها متممة ومقرّرة

(١) شعراء النصرانيّة قبل الإسلام، ص ٣.

(٢) العقد الفريد، ٨٩/٦، طبع القاهرة ١٩٦٧.

لشريعة موسى عليه الصلاة والسلام لا ناسخة لها. قيل: ولأنّ ورقة كان ممّن تنصّر كما علمت والنصارى لا يقولون بنزول جبرئيل على عيسى عليه الصلاة والسلام أي بل كان يعلم الغيب لأنهم يقولون فيه أنّه أحد الأقانيم الثلاثة اللاهوتية وذلك الأقنوم هو أقنوم الكلمة التي هي العلم حلّ بناسوت المسيح واتّحد به فلذلك كان يعلم علم الغيب ويخبر بما في الغد.

ورّد الحلبي على هذا القول بقوله: وفيه إنّ في رواية وإنك على مثل ناموس موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام أي ففي بعض الروايات جمع وفي بعضها اقتصر على موسى وفي الإقتصار على موسى دون الإقتصار على عيسى ما علمت ثمّ رأيت أنّه جاء في غير الصحيح الإقتصار على عيسى، فقال: هذا الناموس الذي نزل على عيسى فهو كما جاء الجمع بينهما جاء الإقتصار على كل منهما..^(١)

أقول: هذه الأقوال هي التي جرأت النصارى على ذكر مزاعمهم في نصرانية ورقة وقريش بل والعرب وأزيد فأقول: إنّ افتراءهم هذا تعدّى حدود هؤلاء إلى سيّد البشر عليه السلام وأحب أن أحذّر إخواني من كتاب وخطباء من كلمة طالما استعملها بعض الناس بحسن نيّة وهي كلمة أطلقها التبشير على رسول الله أعني: كلمة «رسول» فهم حين يذكرون النبي لا يقولون النبي أو رسول الله بل يقتصرون على كلمة الرسول كذباً وافتياتاً ودساً وتحايلاً على المسلمين، وغرضهم من ذلك أنّ سيّد البشر عليه السلام كان قبل النبوة أحد رسُلهم، وقد كتبوا في ذلك الكتب التي تدعّم كما يزعمون أقوالهم الهزيلة ومذاهبهم الباطلة فالحذر الحذر من خبث الأعداء وغفلة الأولياء، ثمّ الذي يظهر لي أنّ ورقة كان يترصّد بعثة النبي عليه السلام في زمان قريب لما كان يراه فيما يقرأ من كتب الأولين، يقول الطبري عن أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزّى وهي أخت ورقة بن نوفل، وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل وكان قد تنصّر واتّبع الكتب حتّى أدرك، فكان فيما طلب من ذلك أنّه كائن لهذه الأمة نبي من بني إسماعيل^(٢)، والخبر في سيرة ابن هشام. لذلك لم يتردد لخديجة عليها السلام في الإعراف بصحة دعواه، وصدق نبوته، ولم تطل أيامه كما ذكر أكثر المؤرخين فمات قبل أن تنتشر الدعوة ويؤمر النبي

(١) علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبيّة، ٢٤٠/١ و٢٤١، دار إحياء التراث العربي - لبنان.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، ٢٤٤/٢؛ والكامل لابن أثير، ٤٠/٢.

بتبليغ الإسلام علناً، وكان قد عمّر وأضرَّ بعد أن نيف على القرن .
 ومن عجب أن يُعدَّ ورقة في الرعيّل الأوّل من السابقين إلى الإسلام على كلمة
 قالها أو كلمتين من قبيل قوله : يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، ويعطى
 الدرجات الرفيعة ، وتؤلف في فضله الكتب ، على حين يهمل فضل أبي طالب عليه السلام
 وينسى بل يعطيه عدوّ أهل البيت جزاء خدماته الكبرى للإسلام ضحوضاحاً من النار
 كما روى ذلك محمّد بن إسماعيل في جامعہ ومسلم القشيري في حديثه وغيرهما من
 أنصار الأمويّة وأعوانها ، كما ينسب إليه ظلماً البقاء على الشرك حتّى الموت ، وإتهم
 ليفتون بكفر من نسب الكفر إلى والدي النبي صلّى الله عليه وآله وعلى والديه ، وقالوا
 في سبب ذلك أنّه يؤذي النبي ومؤذي النبي عليه السلام كافر ، ذكر ذلك صاحب كتاب «زاد
 المسلم» عن أبي بكر بن العربي الفقيه المالكي ، فكيف لا يكفر من نسب الشرك إلى
 عمّ النبي وشقيق والده وحاميه وكافله والذاب عنه يوم قعد عن نصرته القريب والبعيد
 والقصيّ والدني ... أليس ذلك يؤذي النبي حتماً ؟ .. ولنا عودة إلى الموضوع تحت
 عنوان «ورقة وأبوطالب» إنشاء الله .

وقوع ورقة في قبضة التبشير

للتبشير خطة لا أقول محكمة ، فالمسيحيّة بمسلماتها لم تكن بهذه المثابة
 ولكنّها مراوغة تعتمد المداهنة مركز ثقل في حركتها التبشيرية ، وليست الحقيقة من
 همومها لتشغل حيّزاً من وجودها بل تنحصر خطتها في جذب البسطاء إلى حظائرها ،
 وإلا ففي بذر الشك في نفوسهم على أقلّ تقدير .

نقل لي من أتق به أنّ أحد القسس وقعت عينه عفواً على ربّة بيت في منطقة
 «خرم آباد» وهي تقف أمام الفرن تدحو العجين فتمسكه بكلتا يديها وتضع العجينة
 بين كفيها ثمّ تضرب كفاً على أخرى والعجينة بينها لتمتدّد وتتخذ شكل الرغيف وفي
 هذه العملية يمرّ أحد ذراعيها على الآخر ليحدث من ذلك وضعٌ شبيهٌ بعلامة الضرب
 أو قفل شكل صليب ، فقال القس : إنّ طريقة النساء هنا في الخبز تدلّ على أنّ القوم كانوا
 على دين النصرانية ، قبلاً ، فلا بدّ من التحقيق حول ذلك وسأتولّى ذلك بنفسي ، ولما
 سأله مرافقه عمّا حمّله على اعتقاد ذلك ، قال : إنّ اتّخاذ ذراعي المرأة شكل صليب ليس
 عفواً بل هو من إملاء العقل اللاواعي ، الذي اختزن هذه الصور منذ مئات السنين

وتركزت فيه حتى استحالت إلى عادة متأصلة ، وهذا دليل مقنع على نصرانية القوم . وما كان القسّ جاداً فيما يقول ، وحجته هذه لا تقنع حتى الأطفال في عهد اللبن ولكنها المحاولة الثانية في خطة التبشير وهي بذر الشك في نفس المسلم إن عزّ جلّبه إلى حضيرة الكنيسة وليست خطتهم هذه جديدة بلى هي قديمة قدم التبشير نفسه ، إلا أنها طبقت في البلاد الإسلامية أكثر من غيرها من البلاد التي رزحت تحت نيرهم وذائق مرارة استعمارهم ، واتخذ التبشير من ورقة بن نوفل أداة ينفثون من خلاله سمومهم في بعض النفوس المريضة فقد صوروه على شكل نصراني يرأس كنيسة ذات وضع مستقل في أم القرى قبيل البعثة وشادوا من قول المؤرخين عن تنصّر ورقة هذا البناء الواهي لشخصيته ، المرادفة لشخصية العنقاء ، وزعموا أنّ ورقة كان يدين بالنصرانية ، هو وآخرون من أبناء مكة . فقد نبذ هؤلاء عقائد قومهم واتجهوا شطر الدين المسيحي وأنعمت الكنيسة على ورقة بأن رتبته قساً في مكة ولكنه تصرّف بالمسيحية فانتزع منها نصرانية مكة التي تدعى «الحنيفية» وهو الذي أعان النبيّ على صنع الدين الجديد الذي هو في حقيقة أمره النصرانية المحققة أو الحنيفية المأسلمة ، يقول الذي سمى نفسه «أبو موسى الحريري» في كتابه «قس ونبي» : كان دين النصرانية أفكاراً مبعثرة وأشلاءً موزعة بين الأحزاب والأنجيل المتعددة فأراد القس والنبي جمع شتاتها في دين واحد ، ويضيف قائلاً : فإذا بالنصرانية قد أسلمت بعد أن أذابها ورقة ومحمّد في إسلامهما الجديد . ويقول أيضاً : ولا تظننّ أنّ نصرانية الأمس هي مسيحية اليوم ؛ فتلك أسلمت وهذه لم يعرفها الإسلام قط ...^(١)

وتكمن الصعوبة في الرد على هذا الزعم الرخيص أنّه مجرد تخرص محض ليس له ما يدعمه من عقل أو علم أو تاريخ وإنّما هو افتراء على التاريخ ودس معروف الإتجاه واضح المعالم وهو بمثابة روايات اليوم التي تستغرق أعماراً طويلة وليس إلاّ في نفس منشئها ، ومن أراد الرد على مثل هذه الأفكار التافهة فعليه أن يرتدي ثياب الإفتراء ويمتهن الدس ليقابل سلاح القوم بمثله ، وهذا الخلق يناقض ضمير المسلم الذي ألزم بقول الحق والتواصي به .

ومن هؤلاء الذين استأثر ورقة بعنايتهم لويس يشخو وهو صليبي شعوبي

(١) قس ونبي . ص ٦ نقلاً عن كتاب شريف محمد هاشم ، الإسلام والمسيحية في الميزان ، ص ١٦ .

حاقد على الأمة الإسلامية، فقد ذكره في كتابه شعراء النصرانية قبل الإسلام ونسب إليه أقوالاً وأفعالاً معزواً جلّها إلى مصادر إسلاميّة وبالرجوع إليها لم نجد لها عيناً ولا أثراً والواقع أنّ الأخبار المرويّة لورقة أو عنه أكثرها موضوع بل إنّ ورقة نفسه كثر فيه الأخذ والرد حتّى زعم بعضهم أنّه شخصيّة أسطوريّة ومردّد ذلك إلى الصورة الغربية التي صوّره بها كتاب السيرة والمؤرخون الإسلاميون فصنعوا منه ذاتاً إلى الوهم أقرب منها إلى الحقيقة فمنهم من زعم له المقامات العالية وروى له روايات مهمّة نظير ما أسند إلى النبي من أنّه قال: .. لا تسبوا ورقة فإنّي رأيت له جنة أو جنتين، أو رأيت في ثياب بيض، وفي أخرى: لقد رأيت أو رأيت في ثياب بيض، وفي أخرى: لقد رأيت القس يعني ورقة في الجنة عليه ثياب الحرير، وفي ثالثة: أبصرته في بطنان الجنة وعليه ثياب السندس، وفي رابعة: وقد رأيت فرأيت عليه ثياباً بيضاً وأحسبه لو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض، وعدّه ابن مندّة في الصحابة، وعدّه الزليعي العراقي على أنّه أوّل من أسلم ومال إليه البلقيني ... ويقول ابن عساكر: لا أعرف أحداً قال إنّ أسلم، وابن الجوزي يقول: إنّ آخر من مات في الفترة ودفن في الحجون، فلم يكن مسلماً، وكذا قال غيره، وابن عباس يقول: مات على نصرانيّته..^(١)

فهذه الصورة المتأرجحة بين الحقيقة والخيال عند المؤرخ المسلم، هي التي صيّرت تاريخ ورقة مضطرباً للغاية، وحملت أساطير كثيرة، وممّن شارك في صنع هذه الأسطورة صاحب السيرة الحلبية فيها هو يتعقّب قول ورقة لخديجة عليها السلام: يأتيه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى الذي هو جبرئيل وإثما ذكر ورقة موسى دون عيسى عليه السلام مع أنّ عيسى أقرب منه وهو على دينه لأنّه كان على دين موسى ثمّ صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام أي كان يهودياً...^(٢)

وتحدّث الحلبي ناقلاً عن الأقاليم الثلاثة وإيمان ورقة بها، غاضاً نظره بعلم أو بعدم اطلاع عن حقيقتها وأنها لم تلج عالم النصرانية إلّا في عهد متأخر أي في عصر الملك قسطنطين وبعد مؤتمر «نيقيه» على التحديد حين حاول ملك روما الشرقية إيجاد صيغة جامعة لشعبه بطوائفه المختلفة وكان الوثنيون يؤلفون أكثرية شعبه،

(١) جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ٢/٣٠١ و٣٠٢ بتصرف.

(٢) الحلبية، ١/٢٤٠.

والطائفة الأخرى الطارئة على البلاد وهم النصارى وما يحملون من عقيدة التوحيد فأراد جمع الفريقين على دين واحد ، هو خليط من الوثنية والمسيحية فأدخل على الأخيرة كثيراً من عقائد الوثنيين واستقرّت الحال على صيغة الأب والإبن والروح القدس ، وهي الأقانيم المعبودة عندهم والكفيلة بجمع الشتات وتأليف الشعب وإرضاء كلّ اتجاه بوضع شيء من معتقده في هذه الأقانيم الثلاثة وتركزت المسيحية أصولاً وفروعاً على هذه الصيغة ، وهي وإن كانت سابقة على زمن ورقة لأنها حدثت في النصف الأول من القرن الرابع إلّا أنّها من الغموض والإبهام والإستحالة بحيث يصعب فهمها ناهيك بالإيمان بها ، فأنتى يبلغ فهم عربي مكّي ساذج من درك الواحد ثلاثة والثلاثة الواحد مع تنافر ما بينهما ، وبعد أحدهما عن الآخر .

وبهذا نجزم بأنّ الشيخ الحلبي أو من نقل عنه أرسلوا القول على عواهنه على أنّهم أعطوا الذرائع للمبشرين ليتخذوا من ورقة بن نوفل مادةً جاهزة الصنع ليدخلوها في صناعة التبشير أمس واليوم ، وهم وإن طاش سهمهم وخاب فآلهم فقد استطاعوا أن يقيموا هذا الوهم على رجلين ظاهرين من الدعاية الباطلة ضدّ الحق وأهله . والسبب الأكبر يعود إلى مؤرخينا وكتاب السيرة فإنّهم بالغوا في نعت ورقة وإسباغ الصفات الفضفاضة عليه وخلق مواقف ومشاهد وأقوال للرجل لم تصدر منه سجيس الليالي كما يقول المثل . وكأنّ الإجماع حاصل من المؤرخين أنّ ورقة تنصّر ونبذ دين الجاهلية بخلاف صاحبه زيد بن عمرو بن نفيل فإنّ هذا بقي نهياً للشك حتّى هلك إلّا أنّ تنصّره كما ظهر لي ليس هو نصرانية الصليب اليوم أو أمس بل ريب ، لأنّ هذه الثانية لا يدركها أحد من عبّاد الصليب حتّى البابا نفسه ، والأمر يرجع في جميع الأحوال كما عليه غيره ممّن نسب إليها أو عصبت في جبينه إلى ما درج عليه الناس آنذاك من اعتبار الكتابيين هم الفئة المثقفة في الوسط الجاهلي الذي لا يعرف ما الثقافة لذا ينسب إلى النصرانية أو اليهودية كلّ من كان من أبناء الجاهلية ذانزة ثقافية شريطة أن يفارق دين القوم ، وبهذا الشرط يخرج النضر وأمثاله اصحاب المنحى الثقافي بين قومهم لأنّ هؤلاء استنكروا الجهل وقبلوا الدين فحخت نعمة قومهم عليهم .

أما ورقة وأضرابه فقد استنكروا الإننين معاً من ثمّ أخرجهم قومهم إلى النصرانية بل اليهودية أحياناً وبها نبز ورقة أيضاً ولذا قال الحلبي : إنّ ورقة كان على دين اليهودية ثمّ تنصّر . وحينئذٍ لا بدّ من عدّ نصرانيته وكذلك الحال في أضرابه من قبيل

زيد وابن حويرث - من نوع آخر لا يمت إلى نصرانية اليوم ولا أمس بصلة والصلبيون الذين طَبَلُوا لإخبار ورقة وأستغلُّوها لصالح التبشير، كان مصدرهم الوحيد هو كتابة المؤرخين المسلمين ونراهم كما هي عاداتهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فقد يحذفون من النص الجزء الخاص بالبشارة بالنبي ﷺ ويركزون على ما سواه بعد أن يحملوه من التأويل والإضافة ما لا يحتمل. وممن حزم بنصرانيته وسمَّاه قسّاً ابن القيم الأندلسي ولعلّه متَّبِع لبعض النصوص حيث أطلقت عليه هذين الوصفين^(١). وابن حزم ليس بدعاً في المؤلفين فلم تجد مؤرخاً منهم تعرّض لبدء البعثة ولم يذكر ورقة أو لم ينزهه بالنصرانية والواقع كما حدّثناك عنه إنّ نصرانية ورقة وغيره لا تسمّى نصرانية بعرف القوم اللّهمّ إلّا من الوجه الذي ذكرناه آنفاً، لأنّ النصرانية يومئذ قبل أن تصبح ربّاً كنيسة فقدت جوهرها في عقر دارها، فكيف تنبت في تلك الرمال العطشى من جزيرة العرب، وينب في الوسط الجاهلي كلّ من أعلن الخروج على تقاليد البيته من قبل أهل الجاهليّة باليهوديّة أو النصرانية، ولمّا لم تكن الأولى دين دعوة فإنّ النسبة تنحصر في الثانية، والمؤرخون يتبع بعضهم إثر بعض دونما تمحيص أو تمييز، ولعلّ أدلّ دليل على ما نقول هو اشتغال النصرانية بهمومها الداخليّة يومئذ ومعاركها الطاحنة بين القسس والرهبان عن هموم الدعوة في العالم بخاصة إذا كانت في وسط تنعدم فيه مستلزمات الحياة الأولى كالجزيرة العربية، أضف إلى ما تقدّم أنّ النصرانية كانت تعيش في تلك الآونة أجواء عصورها المظلمة الملبّدة بغيوم الجهل والقسوة وقد بدأت من المائة الخامسة قبل الميلاد واستمرّت حتى القرن الخامس عشر الميلادي ..

يقول المؤرخ «البرماله ووژول إيزاك»: مع أنّ القرون الوسطى أقرب إلى زماننا ممّا تقدّمها من القرون إلّا أنّ أخبارها لا تزال مجهولة لنا، وبصعب الإلمام بما دار فيها من أسرار ووقائع علينا قياساً بالألف عام السابقة عليها، ومرجع ذلك إلى علتين؛ الأولى: فشوّ الأمية في الشعوب الروميّة وتضائل المعرفة عنها في عهد الروم واليونان، ومن هذه الجهة ندر وجود من يقرء ويكتب بين عامة الناس بله الكاتب الواعي فلم تكن الآثار التي خلّفتها القرون الوسطى ممّا يعبأ بها كما لم تكن ذات قيمة تاريخيّة

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ٢١/٣؛ وراجع: تاريخ الخميس، ٢٨٤/١.

معتدّ بها فهي إمّا ناقصة لا يمكن التعويل عليها أو فاسدة لا يوثق بها. الثانية: إنّ مجرى التفكير في تلك الحقبة يختلف تماماً عن التفكير الذي اعتادت عليه العقلية الأنجلو سكسونيّة، ومن هذا الجانب كان التعرف على حقيقة القرون الوسطى غاية في الصعوبة ومع أنّ «موسنن أنتن» و«سبسون» الرومي يفصل بيننا وبينهم فاصل زمني شاسع قدّروه بعشرين قرناً إلاّ أنّهما يعيشان اليوم في المجال المعرفي لنا ومن ثمّ فهما أقرب إلى فهمنا من «هوغا كايه» ومعاصريه وقد كان هؤلاء قبل تسعمائة وخمسين سنة على قيد الحياة، وهذا دليل صارخ على كثافة الظلمة بيننا وبين القرون المسماة بالوسطى^(١).

وما زالت الحالة الدينية في تدهور مطرد بدءاً من القرن الخامس الميلادي وحتى القرن العاشر وعندما تلقى نظرة فاحصة على وضع الكنيسة الكاثوليكيّة التي هي عماد الكتلركة في العالم نجده وضعاً غامضاً للغاية ولا ينتظم الكنائس نظام واحد، بل لكل كنيسة دين خاص بها وعقيدة مقصورة عليها ويمكن القول بأنّ الكنيسة ما هي إلاّ صورة الشعب الذي تحلّ بين ظهرائه وهذا القول ينتظم الأساقفة أيضاً فلكلّ أسقف عمله الخاص ومذهبه الخاص وطريقته الخاصة في جلب الزبائن إليه^(٢).

ومع أنّ الطبقة الوحيدة المثقّفة هم رجال الدين إلاّ أنّهم من أشدّ الناس جهلاً وأكثرهم أميّة أضف إلى ذلك أنّ أكثر القسس اخترقوا نواميس كنائسهم فصار للواحد منهم عدد من الأزواج ولا مانع من ذلك عندهم لأنّ الإنجيل أباحه والمهم عندهم اختيار القس زوجته لتنجب له أولاداً يشغلون منصبه من بعده، وصارت مراتب الكنائس تعطى بواسطة أعيان كلّ بلد، فالكبار منهم ينصبون الأساقفة ونصب القس بعهدة صغارهم، وليس للباب أيّ نفوذ بين الناس، اللهمّ إلاّ ذلك الشعور الذي يخامر العامه بتقديسه ولا شيء وراء ذلك. وأكثر أخبار هؤلاء من صنع أعيان روما ولا يخضع إختيارهم للبابويه لقاعدة معيّنة، والجدير بالذكر أنّ واحداً منهم ضاجع بنت أحد أعضاء مجلس الأعيان الرومي وأولدها ذكراً وكان مصيره أن أصبح بعد وفاة زوج أمّه حبراً أعظم ولم يمنعه من ذلك كونه مولوداً من سفاح، ولكن والدته حالت دون توليه

(١) تاريخ قرون وسطى تا جنك صد ساله، ٢٤/٤ و ٢٥.

(٢) قصّة الحضارة، ١٢٠/١.

ذلك المنصب بغضاً لأبيه وسعت سعيها حتى أسندته إلى ولد لها آخر من غير البابا وحكمت بسجن ولدها من البابا^(١).

ومما لا ريب فيه أن وضعاً كهذا ينعكس على هموم التبشير في البلاد الواقعة في أحضان المسيحية فما بالك بالبلاد النائية بخاصة إذا كانت في موضع الجزيرة العربية وفي طبيعة مناخها اللافح حرّاً وظمأاً وتبدأ البابوية من سنة ٣٤٤ عندما اختار البابا مجلسه المؤلف من جماعة الأساقفة، وفي عام ٤٤٥ بارك الأمبراطور هذا المقام ومنحه الصفة الرسمية في البلاد، مضافاً إلى ما تقدّم فإن مؤتمر نيسه أعطى الباب مسئولية كبرى وذلك باعتباره المصدّق الوحيد على الإيمان وأعطاه مهمّة المحافظة على المذهب الكاثوليكي..^(٢)

وإذا تركنا الكنيسة ورائنا ظهرياً وحولنا الوجه شطر الأديرة بل الديارات نراها قامت على أساس الزهد ولهذا الزهد في الدنيا سبب وذلك أن توالي المحن والمصائب على البلاد المسيحية خلقت في الناس نزعة الترهّب وطلب العزلة بخاصة في تلك البلاد الطليانية التي نأت بأشدّ الهجمات الشرسة عليها من جماعة اللمباردو في القرون الوسطى وإلى هذا السبب تعزى الكثرة المفرطة من الديارات في ايطاليا وكان الناس تحملهم هموم الحياة وفتك الزمان بهم وبالبلاد على قصد الديارات زرافات ووحداً هرباً من حدة وقعها وقسوة تحملها ومنهم أعيان وأبناء أعيان بل حتى ذو وثقافات العالية منهم.

تدهور الوضع التبشيري

تحصّل لدينا ممّا مرّ أنّ وضع النصرانية في تلك الفترة لم يكن مساعداً على نشرها بين الناس، وما يذكر من انتشارها في أوروبا في القرون الوسطى لم يكن سببه اقتناع الناس بجداها أو بصحة أقوالها وإنما سياسة الحكام حملتهم بالقصر على قبولها على أن الإيمان بها يومئذ لم يتعدّ الوهية السيّد المسيح وأنه ابن الله جاء إلى الأرض ليكون فداءً عن خطايا البشر وتخليصهم من ثقل إصرها، وهنا يكمن السرّ

(١) رابرت روزول بالمر، تاريخ جهان نو، ٤٤/١، ترجمة أبو القاسم طاهري.

(٢) تاريخ قرون وسطى، ٧٨/٤٠.

في إقبال الناس عليها لأنها تخلصهم من تبعات الذنوب والآثام وتلقيها على عاتق غيرهم ، ومن قديم الزمان جرى البشر وراء كبش فداء يحمل عنهم آصارهم ، ويلقون على كتفيه ثقلها ، ولعلّ هذه العقيدة اخترقت حجاب النصرانيّة من اليهود في جملة ما دخل النصارى من ديانتهم فقد كان لليهود «ماعز» يضعون على قفاها خرجاً خاصاً ينفثون في داخله جناباتهم وذنوبهم على شكل همس يبوحون به في وسط الخرج ثمّ يطلقون الماعز في الصحراء ويقولون لقد تخففنا واسترحنا من ذنوبنا ، فكانت الماعز كبش فداء للقوم ، وهكذا اقتبست النصرانيّة من اليهود عقيدة المخلص وصيرتها إحدى دعائم دينهم وأغرت الناس في الجري ورائها ، كجري الظمئان وراء السراب ، والناس يسعدهم أن يحمل غيرهم ثقل تبعاتهم ، وحين نعرض للعقيدة المسيحيّة الكامنة وراء هذا الوجه المغربي ، فلا أحسب أحداً منهم يفهمها وإذا ما قدّر له فهمها فلن تراه مصدّقاً بها أو موقناً بصحّتها .

وهذا الأمر صادق في البلاد المتحضرة التي وقعت في قبضة المسيحيّة ، أمّا غيرها من البلاد فلم تجد فيها المسيحيّة موطئ قدم لها ، وهذه إيران شاهد على ما نقول ، فإنّ المسيحيّة وجدت على مقربة منها ولكنها لم تترك فيها أيّ أثر يذكر لحدّ الآن بل لم تترك المسيحيّة أيّ أثر في مهدها الأول ومسقط رأسها (فلسطين) والشرق الأوسط فكيف تراها تتخطى هذه المناطق الشاسعة وتمتطي متون الرياح حتّى تحطّ في أرض العطش والجوع وتنازع البقاء والوثنيّة ، أعني جزيرة العرب؟! وهل ترك أولئك الذين زعموهم نصارى وثنيّتهم أو آمنوا بالمسيح إيمان النصارى به اليوم؟! إنّ شواهد الحال تكذب هذا المدعى ، فهذه الأوثان تملأ الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ولكلّ قبيلة صنم بل أصنام ، وهناك في مكّة المكرمة تجثم مئات الأصنام داخل وخارج الكعبة في أمن ودعة وقد تمسح بها ورقة ابن نوفل وغيره من أمثاله وهم وإن تصدّقوا عليه بالمراتب الكنسيّة وسمّوه قساً وإحياناً أسقفاً وما أشبه هذه الرتب فإنّه لا يتجاوز حجم إنسان يعيش أجواء جزيرة العرب بكلّ أبعادها ، وهل كان للكنيسة وهي في أوج تنازعها وشدة انقسامها في تلك الفترة المظلمة ، الوقت والمال والجهد والإمكانيّة البالغة حدّ الإعجاز لكي تخترق شواظ الجزيرة ونحاسها

فتطلع لها رأساً أو ذنباً فيها بله في مكة؟! وكيف يكون للنصرانية قواعد في مكة وهي عاكفة على بيتها العتيق تحج إليه وتجري مناسكه وشعائره وتقيم طقوسه وتقاليده؟! وكيف تقرّها الكنيسة على الجمع بين الوثنية وعبادة البيت والمسيحية وإن كان في تلك الأصقاع هيئة تسمى كنيسة أو عقيدة تسمى المسيحية؟! إن هذا شيء عجاب .

أجل ، إن بعض العقول الخارجة على نظام الجزيرة العبادي لسبب من الأسباب نسبوا إلى النصرانية أو اليهودية لانحصار الثقافة ذلك الزمان بهما شأن أبناء زماننا حين ينزول بالشيوعية ويعصبونها في جبين كل من ينادي بالإشتراكية وتحسين مصير الشعوب وإن جهل ما تكون الشيوعية بل وإن تنكّر لها وعادها . ومهما كان الأمر فإن ورقة يظل ذلك الكائن العربي الذي تفيض نفسه بأخلاق الجزيرة شعراً ونثراً ، ويظل بمنأى عن دهاء الصليب ومراوغته .

قالت عائشة رضي الله عنها : دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أتمثل بهذين

البيتين من الكامل :

إرفع ضعيفك لا يحريك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نما

يجزيك أو يثني عليك وإن من أثنى عليك بما صنعت فقد جزى

فقال ﷺ : أعيدي عليّ قول اليهودي قاتله الله ، لقد أتاني جبرئيل برسالة ربّي عزّوجلّ : أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاءً إلاّ الثناء فقد كافاه . وقد روى هذا الشعر لقريظ اليهودي وروي أيضاً لورقة بن نوفل وروي أيضاً لزيد بن عمرو بن نفيل ^(١) .

التلخص ..

ولقد صدق من قال ذلك الشعر ، فإن أدنى مستويات المكافئة على الصنيع الجميل ذكر صاحبه بالنعمة الجميل ، والقول الحسن ، هذا بالنسبة لأهل الشكر وأما أهل النكران والعقوق فإنهم يقابلون الإحسان بالإساءة والفعال الجميل بالفعل

(١) التذكرة الحمدونية ، ٢٦٦/١ .

الرديء ، كما فعل أولئك القوم الذين قابلوا جميل رسول الله ﷺ بالهجوم على دار ابنته فاطمة ﷺ وإحراق بابها وإسقاط جنينها .

لولا احتراق الباب ما احترقت لهم
 في الغاضرية أربع وستور
 لو لم يقاد المرتضى من داره
 ما قيّد السجاد وهو أسير
 لو لم تسير الطهر فاطم خلفه
 ما زينب خلف العليل تسير...^(١)

المجلس الثالث إسلام أبي طالب ﷺ

«النار والحطب»

الشيخ هاشم الكعبي^(٢)

يا غيث كلّ الورى إن عمّ عامهم
 والثابت العزم والأهوال مقبلة
 والماجد الحسب المقري الظبا كرمأ
 ما غالبت صبرك الدنيا ومحتنتها
 ولا تروع لك الأيام سرب حجي
 إن يصبح الكون داجي اللون بعدك
 فأنت كالشمس ما للعالمين غنى
 تالله ما سيف شمر نال منك ولا
 لولا الأولى أغضبوا ربّ العلى
 أصابك النفر الماضي بما ابتدعوا
 ولا تزال خيول الحقد كامنة
 فأدرك الكل ما قد كان يطلبه

جذبّ ويا غوثهم إن نابت النوب
 والراسخ الحلم والأحلام تضطرب
 حوبائه وكذلك الماجد الحسب
 إلا انثنت وله من دونها الغلب
 بلى إذا ريعت الأعلام والهضب
 والأيام سوداً وحسن الدهر مستلب
 عنها ولم تجزهم من دونها الشهب
 يدا سنان وإن جلّ الذي ارتكبوا
 وأبوا نصّ الولا ولحقّ المرتضى غصبوا
 وما المسبب لو لم ينجح السبب
 حتّى إذا أبصروها فرصة وثبوا
 والقصد يدرك لَمَا يمكن الطلب

(١) الشعر لفارس المنبر الحسيني السيد صالح الحلّي ، راجع : شعراء الحسين ، فصل ترجمة السيّد صالح الحلّي ﷺ .

(٢) الدر النضيد ، ص ٣٦ .

كف بها أمك الزهراء قد ضربوا هي التي أختك الحورا بها سلبوا
 وإن نار وغى صاليت جمرتها كانت لها كف ذاك البغي تحتطب
 فليبك يومك من يبكيه يوم غدوا بالصنو قوداً و بنت المصطفى ضربوا

إيمان ورقة في الميزان

أكثر القوم في ورقة بن نوفل بن عم خديجة عليها السلام حتى اعتبروه في عداد السابقين إلى الإسلام وصنّفوه في الصحابة، وكتبوا عنه كتباً مستقلة تناولت حقيقته بالفحص والدرس، وانتهوا من خلال ذلك إلى عدّه في الصحابة السابقين، والذي أثر عنه ممّا فيه دلالة على إسلامه لا يتجاوز الموقف أو الموقفين. وليس في ذلك القطع على كونه أسلم قبل موته حتى قال ابن عساكر: ولا أعرف أحداً قال: إنّه أسلم^(١). هذا مع العلم بأن الطبري والبغوي وابن قانع وابن السكن ذكروه في الصحابة^(٢).

وذكره الشيخان في صحيحهما من طريق الزهري عن عروة عن عائشة، كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ إلى قوله: فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ خلق الإنسان من علق ﴿اقرأ وربك الأكرم...﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم! اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ﷺ ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيناً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط

(١) ابن حجر العسقلاني، الأصابة، ٦٣٣/٣.

(٢) نفسه.

بمثل ما جئت به إلا عودي ، وأن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا..^(١)
 أخرجه مسلم في كتاب الإيمان الباب ٧١ وأخرجه البخاري في كتاب بدء
 الوحي ، باب حدثنا يحيى بن بكير.. ولهذا الحديث سياقات مختلفة ، ولم يخل منه
 كتاب في السيرة . وبعد أن ساق ابن حجر شطراً من حديث البخاري قال : وفي آخره
 فلم ينشب ورقة أن توفي . فهذا ظاهره أنه أقرّ بنبوته ولكنه مات قبل أن يدعو رسول
 الله ﷺ الناس إلى الإسلام فيكون مثل بحيرا .

أقول : يختلف مع بحيرا أنه أقرّ بنبوته ﷺ بعد البعثة وذلك قبلها ، من هنا جاز
 اعتباره فيمن آمن بالنبي ﷺ وصدّقه ، وقال ابن حجر : وفي إثبات الصحبة له نظر ،
 لكن في زيادات المغازي من رواية يونس بن بكير.. وساق الخبر إلى قول ورقة : ابشر
 ثم ابشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنت على مثل ناموس موسى وإنك نبي
 مرسل وإنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، وإن يدركني ذلك لأجاهدك معك ،
 فلما توفي قال رسول الله ﷺ : لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن
 بي وصدّقني ، وقد أخرجه البيهقي في الدلائل من هذا الوجه وقال : هذا منقطع ..
 وقال ابن حجر أيضاً : يعضده ما أخرجه الزبير بن بكّار وساق رواية مرور ورقة
 على بلال وهو يعذب برمضاء مكة وقول ورقة : لأتخذته حنانا . وقال : وهذا مرسل
 جيد ، يدل على أنّ ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال ،
 والجمع بين هذا وبين حديث عائشة أن يحمل قوله ولم ينشب ورقة أن توفي أي قبل
 أن يشتهر الإسلام ويؤمر النبي ﷺ بالجهاد ، وكأنّ ابن حجر يذهب إلى إسلام ورقة
 فقد ذكر له أبياتاً تدلّ على ذلك :

هذي خديجة تأتيني لأخبرها وما لنا بخفي الغيب من خبر
 بأن أحمد يأتيه فيخبره جبريل إنك مبعوث إلى البشر
 فقلت علّ الذي ترجين منجزه له الإله فرجّي والخير وانتظري

وذكر عن ابن عدي في الكامل حديث : رأيت ورقة في بطنان الجنة عليه
 السندس وتعقب قول ابن عدي : تفرّد به إسماعيل عن أبيه بقوله : قد أخرجه ابن
 السكن من طريق يحيى بن سعيد الأموي عن مجالد لكن لفظه : رأيت ورقة على نهر

(١) محمد فؤاد عبد الباقي ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، ١/٣٣ ط بيروت - دارالفكر .

من أنهار الجنة لأنه كان يقول ديني دين زيد والهبي إله زيد، وأخرجه محمد بن عثمان ابن أبي شيبة من هذا الوجه .

وأخرج البزار من طريق أبي معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ نهى عن سب ورقة . وهو في زيادات المغازي ليونس بن بكير أخرجه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ساب أخ لورقة رجلاً فتناول الرجل ورقة فسبه فبلغ النبي ﷺ فقال: هل علمت أنني رأيت لورقة جنة أو جنتين فنهى عن سبه ^(١) .

كل هذا يدل على أن القوم يذهبون إلى أكثر من إسلام ورقة بل يعتبرونه حالاً في الدرجات الرفيعة من العلم والإيمان وشاهدتهم على ذلك كلمات شاحبه يتقلونها عن ورقة لا تدل على مقام شامخ ولا تثبت للنقد، واختلافهم في سياقاتها دليل آخر على اضطرابها، هذا ويجهلون بل يتجاهلون إيمان سيدنا أبي طالب عليه السلام وقد ثبت بالطرق العقلية والنقلية وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل إنشاء الله تعالى .

وذكر الذهبي من مراسيل عروة أن رسول الله ﷺ قال: رأيت لورقة جنة أو جنتين ^(٢) .

وقال الذهبي: وكانت خديجة قد ذكرت لعمها ورقة بن نوفل وكان قد قرأ الكتب وتنصر، ما حدثها ميسرة من قول الراهب وإظلال الملكين فقال: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً النبي هذه الأمة وقد عرف أن لهذه الأمة نبياً ينتظر زمانه، قال: وجعل ورقة يستبطن الأمر ويقول: حتى متى وقال:

لججت وكنت في الذكرى لجوجا	لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطئ المكتين على رجائي	حديثك أن أرى منه الخروجا
بما خبرتنا من قول قس	من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود قوماً	ويخضم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور	يقيم به البرية أن تموجا

(١) راجع الإصابة، ٦٣٣/٣ و ٦٣٤ و ٦٣٥ .

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، السيرة، ص ١١٩؛ ورواه في أسد الغابة، ٨٩/٥؛ وفي مجمع الزوائد، ٤١٦/٩ .

فيلقى من يحاربه خسارا
 فياليتي إذا ما كان ذاكم
 ويلقى من يسالمه فلوجا
 شهدت فكنت أولهم ولوجا
 فإن يبقوا وأبق تكن أمور
 يضحّ الكافرون له ضحيجاً...^(١)

وينقل أيضاً شهادة ورقة له بالنبوة في خبر طويل ، وهي قوله : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبتّه وتؤذنته ، ولتخرجنّه ولتقاتلنّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرأ يعلمه ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه^(٢) . وذكر له أبياتاً أخرى وفيها تصريح باسلامه .

إن يك حقاً يا خديجة فاعلمي
 وجبريل يأتيه وميكال معهما
 حديثك إيانا فأحمد مرسل
 من الله وحي يشرح الصدر منزل
 يفوز به من فاز فيها بتوبة
 فسبحان من تهوي الرياح بأمره
 ومن عرشه فوق السماوات كلّها
 وإقضائه في خلقه لا تبدل...^(٣)

وذكر ابن كثير ما ذكر الذهبي من الخبر والشعر وزاد على قصيدة حائية عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق وفيها أبيات تدلّ على إسلامه :

بأن ابن عبد الله أحمد مرسل
 وظني به أن سوف يبعث صادقاً
 إلى كلّ من ضمت عليه الأباطح
 كما أرسل العبدان هوداً وصالح
 وموسى وإبراهيم حتى يرى له
 بهاءً ومنشور من الذكر واضح
 ويتبعه حياً لؤي وغالب
 شبابهم والأشيبون الجحاح
 فإن أبق حتى يدرك الناس دهره
 فإنني به مستبشر الودّ فارح
 وإلا فإنني يا خديجة فاعلمي
 عن أرضك في الأرض العريضة سائح^(٤)

بعد الذي مرّ بنا من أقوال العلماء والأخباريين والرواة والرجاليين عن ورقة بن نوفل ندرك أنّ للقوم جزءاً بإيمانه بل بصحبته ومن قال بخلاف ذلك اعتبروا قوله شاذاً

(١) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، السيرة ، ص ١٢٤ و ١٣٢ ؛ سيرة ابن هشام ، ٢٧٠/١ ؛ الروض الأنف ،

٢٧٤/١ ؛ نهاية الإرب ، ١٧١/١٦ و ١٧٢ ؛ وعيون الأثر ، ٨٦/١ و ٨٧ ؛ السير والمعازي ، ص ١٢٢ .

(٢) نفسه .

(٣) تاريخ الإسلام ، السيرة ، ص ١٣٣ ؛ وذكره البيهقي في الدلائل ، ٤٠٤/١ .

(٤) ابن كثير ، السيرة النبوية ، ٢٦٩/١ ، ط بيروت - دار الرائد العربي ، ١٤٠٧ .

وما من مسألة في الدين أو التاريخ إلا وفيها أقوال شاذة لا يعول عليها، وقد ألف أبو الحسن برهان الدين إبراهيم البقاعي الشافعي تأليفاً في إيمان ورقة بالنبي وصحبته له عليه السلام ولقد أجاد في جمعه وشدّد الأنكار على من أنكر صحبته وجمع فيه الأخبار التي نقلت عن ورقة، بالتصريح بإيمانه بالنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وسروره بنبوته والأخبار الشاهدة له بأنه في الجنة وما نقله العلماء من الأحاديث في حقه وما ذكروه في كتبهم المصنفة في أسماء الصحابة وسمى تأليفه: «بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة السيّد ورقة» وحاصل ما ذكره البقاعي في شأن ورقة بن نوفل:

إنّه ممّن وخذ الله في الجاهليّة فخالف قريشاً وسائر العرب في عبادة الأوثان وسائر أنواع الشرك وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطأوا دين إبراهيم الخليل إبراهيم الخليل عليه السلام ووحد الله تعالى واجتهد في طلب الحنيفيّة دين إبراهيم ليعرف أحبّ الوجوه إلى الله تعالى في العبادة فلم يكتف بما هدها إليه عقله بل ضرب في الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم بكتب الله تعالى المنزلة من عنده الضابطة للأديان فأذاه سؤاله أهل الذين الذين أمر الله بسؤالهم إلى أن أتبع الذي أوجبه الله تعالى في ذلك الزمان وهو الناسخ لشريعة موسى عليه السلام دين النصرانيّة ولم يتبعهم في التبديل بل في التوحيد، وصار يبحث عن النبي عليه السلام الذي بشره موسى وعيسى عليهما السلام، فلما أخبرته ابنة عمّه الصديقة الكبرى خديجة رضوان الله تعالى عليها بما رأته وأخبرت به في شأن النبي عليه السلام من المخايل بأظلال الغمام ونحوها ترجى أن يكون هو المبشّر به.

وقال في ذلك أشعاراً يتشوّق فيها غاية التشوّاق إلى إنجاز الأمر الموعود ليتخلّع من النصرانيّة إلى دينه لأنه كان قال لزيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء: إن أحبّ الدين إلى الله تعالى دين هذا المبشّر به: أنا أستمّر على نصرانيّتي إلى أن يأتي هذا النبي، فلما حقّق الله الأمر وأوقع الإرهاصات بالسلام من الأحجار والأشجار على النبي عليه السلام مع الإستتار وخاف النبي عليه السلام من ذلك واشتدّ خوفه فنقل ذلك إلى ورقة رضي الله تعالى عنه فاشتدّ سروره بذلك وثبته وشدّ قلبه وشجّعه، فلما بدى له الأمر بفراغ نوبة إسرافيل وأتاه جبريل عليه السلام وفعل ما أمره الله به من شقّ صدره الشريف وغسل قلبه وإيداعه الحكمة والرحمة وما يشاء الله تعالى وتبدّى له جبريل وأنزل عليه بعض القرآن وأخبره به ففّ شعر ورقة وسبح الله وقدّسه وعظم سروره بذلك وشهد أنّه أتاه الناموس الأكبر الذي كان يأتي الأنبياء قبله عليه السلام وشهد أنّه أنزل عليه كلام الله

وشهد أنه نبي هذه الأمة وتمنى أن يعيش إلى أن يجاهد معه ، هذا مع ما له بالنبي عليه الصلاة والسلام وزوجته الصديقة خديجة من أعظم القرب والإنتساب الموجب للحب رضي الله تعالى عنه وأرضاه... (١)

لقد وصل هذا المؤلف إلى حقيقة قبلها جلّ العلماء المسلمين إن لم يكن كلهم ، وهي أنّ ورقة بن نوفل من السابقين إلى الإسلام وهو صحابي معدود من خَلصهم وأهل السابقة فيهم ، على أنني أرتاب فيما روته عائشة عنه لسبب واضح لمن تأمله وذلك أنها لا يمكن أن تنظر إلى إسلام خديجة المبكر نظراً سليماً مجرداً من نفسية الضرة والمعروف عنها مناصبه سيّدتنا خديجة ﷺ العدا ، وطالما أغضبت النبي بذكرها في حضرته بما لا يحمد ولا يرضيه ، حتى واجهها بالشدة وانتهرها مرّات ، وهي إن استطاعت أن تصنع لعدوّها علي نظيراً في إسلامه وهو أبوها فلن يواتبها ذلك مع خديجة لما نعلم من بعد زمن أمّ رومان أمّها من زمن خديجة ﷺ ، لذلك عمدت إلى صنع شخصيّة قريبة من بيت خديجة ، ذات رحم ماسّة بها ، وهي شخصيّة ورقة ، ولا أقول أنّ عائشة اختلفتها اختلاقاً وإنما أضافت إليها أقوالاً وأفعالاً يشعر بأنّ خديجة أسلمت بإيحاء منه لا باستقلاليّة من ذاتها واندفاع من ضميرها المشيع بالإشراق والطهر ، ولو ثبت لخديجة الثاني وهو ثابت فعلاً فإنّ مكانة عائشة تكون في عصف الريح ، وهذا الخاطر بالذات حملني على الإرتياب في أكثر ما ترويه عائشة عن ورقة . ولنفترض أنّ أحاديث ورقة ثابتة ثبوتاً قطعياً وصحيحة جزماً ، فإنّها لا تتجاوز بضع كلمات قالها لخديجة ﷺ أو للنبي ﷺ أو لبلال ﷺ وهو يعذب بالرمضاء ، كما نقل عنه شعر يدلّ على إسلامه ، أو تبشيره بالنبي قبل وبعد البعثة ، هذا القليل النزر ، صير منه مؤمناً وصحائباً وأعطاه جنّتين وثياباً بيضاً في الجنّة وهكذا ، فما بال القوم لم يتصرّفوا هذا التصرف الطيّب مع سيّدنا أبي طالب ﷺ ؟ وهل في المسلمين من يشبهه في الذود عن الإسلام والدفاع عن حريمه والذبّ عن صاحب الرسالة العظمى ﷺ بنفسه الكريمة وأولاده وما يملك من المال حتّى مكن للنبي بما يزيد على عقد من السنين أن يدعو إلى الله بحرية تامة ، دون أن يمسه أذى ؟؟

ولولا أبـوطالب وابنه لما مثل الدين شخصاً فقاما
فهذا بمكّة أوى وحامى وذاك بيثرب جسّ الحماما

أكان جزاء أبي طالب من عدوّ أهل البيت أن ينسبه إلى الشرك ، وينكر إسلامه ويروي في حقّه الروايات الموضوعة ، وواضعه معروف باسمه وصفته ؟ على أنهم صنعوا من نار أبي لهب عدوّ الله التي ذكرها الله في محكم كتابه جنّة غريبة سأتلوها عليك .

نار أبي لهب جنّة؟!؟

قال الله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ وامرأته حمالة الحطب * في جيدها جبل من مسد ﴿ (١) حتم الله سبحانه على عبدالعزى أن يصلى بنار ذات لهب لعداوته لله ورسوله حتّى قيل للحسن عن قوله تعالى : ﴿ تبّت يدا أبي لهب ﴾ هل كان في أم الكتاب ؟ وهل كان أبولهب يستطيع أن لا يصلى النار ؟ فقال : والله ما كان يستطيع أن لا يصلها ، وإنّها لفي كتاب الله من قبل أن يخلق أبولهب وأبواه ... (٢)

وما كان الله سبحانه ليظلمه وإنّما هو بما كسبت يده من العداوة الشديدة لله ورسوله ﷺ ، وكان شديد المعادة والمناسبة له عليه الصلاة والسلام ومن ذلك ما في المجمع عن طارق المحارمي قال : بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا برجل حديث السن يقول : أيّها الناس ! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول : يا أيّها الناس إنّه كذّاب فلا تصدّقه . فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلّم يزعم أنّه نبي وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذّاب (٣) .

ومن شديد عداوته لله ورسوله ، أنّه لما أنزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي ، يا بني فهر ، يا بني عدي لبطن قريش ، حتّى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبولهب وقريش فقال : أرايتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدّقي ؟ قالوا : نعم ، ما جرتنا عليك إلا صدقاً . قال : فإني نذير لكم بين يدي

(١)

(٢) تفسير القرطبي ، ٢٧٣/٢٠ .

(٣) الألويسي ، روح المعاني ، ٢٦٠/٣٠ .

عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبتاً لك سائر الأيام لهذا جمعنا ؟ فنزلت ، ويروى أنه مع ذلك القول أخذ بيديه حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ ... روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس أيضاً أن أبا لهب قال لما خرج من الشعب وظاهر قريشاً : إن محمداً بعدنا أشياء لانراها كائنة يزعم أنها كائنة بعد الموت فماذا وضع في يديه ، ثم نفخ في يديه ثم قال : تبتاً لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد ﷺ فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ (١) .

وكان يقول للنبي ﷺ : ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك ؟ قال : كما يعطى المسلمون . فقال : مالي عليهم فضل ؟ قال : وأي شيء تبغني ؟ قال : تبتاً لهذا من دين تبتاً أن أكون أنا وهؤلاء سواء ، فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ يقول : بما عملت أيديهم (٢) . قال ابن كثير : وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ والبغضة له والإزدراء به والتنقص له ولدينه . وروى رواية عن عبد الله بن عباس أنه قال : سمعت ربيعة بن عبّاد الديلمي يقول : إنني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل وورائه رجل أحول وضيء الوجه ذو حمة يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : يا بني فلان ! إنني رسول الله إليكم أمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به ، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أفيش إلى ما جاءه به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمّه أبو لهب ؛ رواه أحمد أيضاً والطبراني بهذا اللفظ (٣) .

ولعدائه الشديد ومعارضته دعوة الإسلام بالكيفية التي ذكرها المفسرون ، وإن زعم قوم من الماتريديّة في تأويلاتهم أنه كان كثير الإحسان إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وكان يقول : إن كان الأمر لمحمد فيكون لي عنده يدٌ وإن كان لقريش فلي عندها يد فأخبر أنها خسرت يده التي كانت عند محمد ﷺ بعناده له التي عند قريش

(١) تفسير الطبري ، ٢١٧/٣٠ ، بيروت - دار المعرفة ، ١٣٩٨ ؛ روح المعاني ، ٢٦٠/٣٠ ؛ تفسير ابن كثير ،

٦٠٣/٤ .

(٢) نفسه .

(٣) تفسير ابن كثير ، ٦٠٣/٤ .

أيضاً لخسران قريش وهلاكهم في يد محمد (ص).^(١)

وما زعمه هؤلاء باطل فما كانت تعطفه على رسول الله عاطفة، بل كان شديد الإيذاء عظيم النصب والعداوة له من هنا أصلاه الله ناراً ذات لهب .
قال الألويسي : سيدخلها لا محالة في الآخرة ويقاسي حرّها، والسين لتأكيد الوعيد، والتنوين للتعظيم، أي ناراً عظيمة ذات لهب ذات اشتعال وتوقّد عظيم وهي نار جهنّم (٢).

وقال ابن كثير: أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد...^(٣)

هذا ما قاله الله سبحانه عن أبي لهب وبلغه رسوله ﷺ، ولكن للأموية ومن لفّ لفّها رأي آخر فيه وإنما عصبنا التهمة في رؤوسهم فلأنهم أصحاب كلّ بدعة تقال في الإسلام . ثم لمكان أم جميل عمّة خال ابن تيمية وابن كثير وغيرهما من المؤمنين بدين الأموية . أجل ؛ حاول هؤلاء أن يجعلوا ناره ذات اللهب جنّة غريبة ونعيماً عجيباً لم يجر مثله في أمم الأنبياء والمرسلين . يقول النهاني :

... وأرضعته ﷺ ثوبية عتيقة أبي لهب أعتقها حين بشرته بولادته عليه الصلاة والسلام، وقد رؤي أبولهب بعد موته في النوم فقيل له : ما حالك ؟ فقال : في النار إلا أنه خفّ عني في كلّ ليلة اثنين وأمّص من بين أصابعي هاتين ماءً وأشار برأس إصبعيه وإنّ ذلك بإعتاقني لثوبية عندما بشرتني بولادة النبي ﷺ وإرضاعها له...^(٤)

فإذا كان هذا العدو اللدود قد انقلب بفعل فعله لا يعدل عند الله سبحانه جناح بعوضة أزاء ما اجترحه من سيئات وارتكبه من جرائم وفعله من كبائر بحق الإسلام وأهله، فكيف ينسبون إلى أبي طاب وهو من هو في دفاعه عن النبي ودينه يوم لم يكن هناك حام أو مجبر، العظام ويروون له الضحاح الذي سيكون جزائهم إنشاء الله يوم يؤاخذ الله الناس كلّاً بما فعل ...

ومما يضحك ويبكي في آن، أنّ أتباع بني أمية سلكوا مسلكهم واحتذو حذوهم، وما غادروا شيئاً من سيئاتهم إلّا وقّلدوهم فيها حتّى الحمامات، فقد تحدّث

(١) إسماعيل حقي الدوسري، تفسير روح البيان، ٥٣٣/٣٠، ط دارالفكر.

(٢) روح المعاني، ٢٦٣/٣٠.

(٣) تفسير ابن كثير، ٦٠٣/٣.

(٤) القاضي النهاني، الأنوار المحمدية، ص ٢٨، ط دارالفكر.

المؤرخون عن معاوية أنه قال لعقيل وهو يريد أن يشير إلى أن لهم في المشركين نصيباً كما لبني أمية، وقد دخل عليه وأصحابه بين يديه: أين تجد عمك أبله الآن؟ فأجابه من فوره - وقد كفاً عليه أنائه وبصره بدائه ومزق ردايه - إذا دخلت جهنم فخذ علي شمالك ستجده مفترشاً عمّتك حمالة الحطب ..

والسؤال والجواب ممّا يتندر بهما في المجالس استدراكاً للضحك وطلباً للمزاح. وما علمنا أنّ النصب يبلغ باين تيمية ما بلغه الشرك بخاله فيختص أمير المؤمنين ﷺ بأبي لهب، يحمله على ذلك بغض والشنآن فيقول عن أبي لهب وزوجته: سورة تبت نزلت في هذا وامراته وهما من أشرف بطنين في قريش وهو عم علي وهي عمّة معاوية... (١)

انظر بعين الإنصاف هل ترى من داع يذكر لإصاق أبي لهب في الإمام سوى داعي الغمز والتشويه وهو عمّ علي كما هو عمّ رسول الله كما هو عمّ الحمزة والعباس. ولكنه يريد أن يغمز من الإمام بنسبة المشرك المذموم في كتاب الله إليه كما فعل سيده ومولاه وخاله معاوية لعنه الله في نسبهته إلى بني هاشم.

وقالوا عن أبي لهب أنه ينال نصيبه من الشفاعة وذلك بالتخفيف عنه في كل يوم اثنين لسروره بولادة النبي ﷺ وإعتاقه ثوبية حين بشر به، نقل ذلك الزركشي في الخادم وهو كتاب له عن ابن دحية (٢).

ولعلّ التبادر حاصل من لفظ الشفاعة أنّها من النبي ﷺ، وأقول أنا: بل هي شفاعة أم جميل الأموية، وإلا فإنّ القرآن صرح بشدّة عذابه حين وصف النار التي يصلها بأنها ذات لهب، فكيف صارت عليه كنار الخليل؟ ذلك لأنّ دين الأموية اقتضى ذلك كما اقتضى تكفير المسلم الأول أبي طالب ﷺ، ودرج رواة الموضوعات على هذا الدين كالبخاري وأضرابه ورضي الله عن سيدي العلامة الأميني القائل عن البخاري: ولا يغفرك إخراج البخاري لها، فإنّ كتابه المعبر عنه بالصحيح هو عابة السفاسف وعبية السقطات و... (٣) وسيتبوء مقعده حيث يتبوءه الذي كذب على رسول الله متعمداً.

(١) ابن تيمية، التفسير الكبير، ١٠٩/٧.

(٢) السيوطي، الرسائل التسع، ص ٢٥ و ٢٦.

(٣) الغدير، ٢٧/٨، ط دار الكتاب العربي، ١٣٨٧.

ومما لا ريب فيه أنّ هؤلاء آذوا النبي بروايتهم الموضوعات في أبيه وعمّه ولقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ وسئل القاضي أبو بكر ابن العربي أحد الأئمة المالكية عن رجل قال: إنّ آباء النبي ﷺ في النار، فأجاب بأنّ من قال ذلك فهو ملعون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قال: ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه أنّه في النار^(١).

أقول: والحال مع عمّه واحدة، ولقد ثبتت شفاعته ﷺ لأبيه وعمّه فيما رواه ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة شفعت لأبي وأمّي وعمّي أبي طالب وأخ لي في الجاهلية. قال السيوطي: أخرجه تمام الرازي في فوائده بسند ضعيف إلى أن قال: وقد ورد هذا الحديث من طريق آخر أضعف من هذا الطريق من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أبو نعيم وغيره وفيه التصريح بأنّ الأخ من الرضاة، فالطرق عدّة يشد بعضها بعضاً، فإنّ الحديث الضعيف يتقوى بكثرة طرقه وأمثلهما حديث ابن مسعود رضي الله عنه فإنّ الحاكم صحّحه..^(٢)

وتتبع هذا الحديث في ما روى الحاكم عن ابن مسعود فما عثرت عليه في النسخة التي بحيازتي.

وقال السيوطي: أوردته المحب الطبري وهو من الحفاظ والفقهاء في كتابه «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى» وقال: إن ثبت فهو مأوّل في أبي طالب على ما ورد في الصحيح من تخفيف العذاب عنه بشفاعته - إنتهى. وإنما احتاج إلى تأويله في أبي طالب دون الثلاثة أبيه وأمّه يعني من الرضاة لأنّ أبا طالب أدرك البعثة ولم يسلم والثلاثة ماتوا في الفترة^(٣).

والذي حمل الطبري على هذا التأويل الباطل رواية الشيخين لحديث الضحضاح وذلك حجاب صفيق لا يمكن أن يخترق، وإلا فإنّ مصير الفاعل إلى الإتهام بالرفض أو التشيع، من هنا لجأ الطبري ومن لّف لّفه إلى التأويل مع علمهم الأكيد بطلان ذلك.

(١) الرسائل التسع، ص ٧٧، ط دار إحياء العلوم - بيروت، ١٤٠٥.

(٢) الرسائل التسع، ص ٢٤ و ٢٥.

(٣) الرسائل التسع ص ٢٤.

بطان الشفاعة للكافر ..

يستفاد من حديث الضحضاح ، أنّ التخفيف عن أبي طالب كما يزعم راوي هذه الموضوعه كان بنحو الشفاعة . لاحظ الحديث جيداً في هذين السياقين :

عن العباس بن عبدالمطرب قال : قلت للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل .

ومن حديث أبي سعيد ، أنه سمع النبي ﷺ ذكر أبو طالب عنده فقال : لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منه أم دماغه . وهذا الحديث الموضوع ، أخرجه الشيخان البخاري في أبواب المناقب باب قصّة أبي طالب وفي كتاب الأدب باب كنية المشرك ، ومسلم في كتاب الإيمان . وينبغي علينا هنا النظر في الشفاعة المشروطة أو المطلقة وفي وقوعها أو عدمه للكافر أخذاً من السفر الخالد العظيم «الغدير» لمفيد الطائفة الثاني الشيخ الأميني رضوان الله عليه . ونقول :

إنّ النبي ﷺ أناط شفاعته لأبي طالب عندما جاء يعودوه وهو في السياق وفي حضرته جماعة من قريش ، منهم أبو جهل بن هشام وغيره وقال له : يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : أترغب عن ملّة عبدالمطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتّى قال أبو طالب آخر ما تكلم : على ملّة عبدالمطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرنّ لك ما لم أته عنك ، فأنزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ وأنزل الله في أبي طالب ، فقال لرسول الله : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء ﴾ ... أخرجها البخاري في الصحيح في كتاب التفسير في القصص ج ٧ ص ١٨٤ ..

فأنت ترى من خلال هذه الرواية وغيرها أنه أناط شفاعته له بالشهادة بكلمة الإخلاص بقوله ﷺ : يا عم ! قل لا إله إلا الله كلمة استحلّ لك بها الشفاعة يوم القيامة ، كما أنه أناطها أي الشفاعة بكلمة الإخلاص في مطلق الشفاعة وجاء ذلك في أخبار كثيرة ننقل منها هذه الأخبار الثلاثة التالية :

- ١- عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: قيل لي: سل، فإن كل نبي قد سأل، فأخرت مسئلتني إلى يوم القيامة فهي لكم لمن شهد أن لا إله إلا الله.
- ٢- عن أنس في حديث: أوحى الله إلى جبرئيل عليه السلام أن اذهب إلى محمد عليه السلام، فقل له: ارفع رأسك، سل تعطى، واشفع تشفع إلى قوله: أدخل من أمتك من خلق الله من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك.
- ٣- عن أبي هريرة مرفوعاً من حديث: شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وأن محمداً رسول الله، يصدق لسانه قلبه وقلبه لسانه..

يقول شيخنا الأميني عليه السلام بعد ذكره ما تقدم ونظائر لها مع الإيعاز إلى المصادر التي أخرجتها... فالمنفى في صورة انتفاء الشهادة جنس الشفاعة بمعنى عدمها كلية لعدم أهلية الكافر لها حتى في بعض مراتب العذاب، فالشفاعة للتخفيف في العذاب في مراتبها المنفية كما أنها نفيت كذلك في كتاب الله العزيز بقوله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾^(٢). ويقول تعالى: ﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾^(٣) ويقول تعالى: ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا أولم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾^(٤) ويقول تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾^(٥).

أقول: هذه الآيات ومثلها معها تنفي التخفيف عن أهل النار، بحال من الأحوال، فكيف تأول المحب الطبري الحديث الذي أخرجه تمام الرازي في فوائده وصححه

(١) فاطر: ٣٦.

(٢) النحل: ٨٥.

(٣) البقرة: ١٦٢.

(٤) غافر: ٤٩.

(٥) البقرة: ٨٦.

رجعنا في هذا كله إلى كتاب الغدير وتصرفنا في نقله تصرفاً ينسجم مع سياق كتابنا. راجع ج ٨ ص ٢٣

الحاكم كما مرّ توّاً وقال : هو مأوّل في أبي طالب من تخفيف العذاب عنه بشفاعته .. وهذا خلط فضيع من مثله لا يقترّ عليه وهو فاضل محب ومن أصحاب النظر الموفق في محبة أهل البيت ولكنّها كبوة الجواد ...

وأنا أجزم أنّ الذي أوقعه في هذه المفارقة العجيبة ، هو الثقة بكلّ ما رواه الشيخان ، وأنّ ما ثبت في صحيحيهما لا يطاله النقد . قال إمام الحرمين : لو حلف إنسان بطلاق امرأته أنّ كلّ ما في البخاري ومسلم صحيح لما ألزمته الطلاق ، لإجماع المسلمين على صحّتهما وما قيل في بعض أحاديثهما أنّه لم يصل إلى درجة الصحيح فهو من اختلاف نظر النقاد في الرواة^(١) .

وقال في طلعة الأنوار :

أعلى الصحيح ما عليه اتّفقا فما روى الجعفي فرداً ينتقى
والجعفي هو البخاري^(٢) .

وعدّ ابن الصلاح ما اتفقا عليه في حكم المتواتر .

وابن الصلاح قال إنّ ما جرى بوقف دين مثل ما تواتر^(٣)

بهذا وأمثاله اضطرّ المحب الطبري وغيره إلى مخالفة الثابت القطعي ، لئلا يتعرّضوا لسخط الأولياءه في اختراق ما أجمعوا عليه وتلقّوه بالقبول ، وإلا فالمحب الطبري لا يجهل فضل أبي طالب وسائر أهل البيت كيف لا وهو الراوي بحقّهم عن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : يا معشر بني هاشم ! والذي بعثني بالحق نبياً لو أخذت بحلقة الجنّة ما بدأت إلاّ بكم^(٤) .

وممّا لا ريب فيه أنّ المحب الطبري أساء إلى الحقّ إساءة مرفوضة ، حين أوّل شفاعته النبي لأبي طالب ﷺ بما تقدم ، ولقد أغضب النبي ﷺ بهذه الجرأة على عمّه وشقيق والده وحاميه والمدافع عنه ، وكيف تأوّل الشفاعته في أبي طالب وهو بنفسه ذو شفاعته عند الله مقبولة ؟!

(١) محمد ناصف ، التاج الجامع للأصول ، ١/١٦٠ .

(٢) زاد المسلم ، ١/٥٠٦ .

(٣) نفسه .

(٤) المحب الطبري ، ذخائر العقبى ، ص ١٤ .

التخلص: شفاعة أبي طالب

عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أبيه الباقر عليه السلام عن علي بن الحسين عليه السلام عن ابيه الحسين عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان جالساً في الرحبة والناس حوله ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ! إنك بالمكان الذي أنزلك الله وأبوك معذب في النار؟ فقال : مه ، فض الله فاك ، والذي بعث محمداً بالحق نبياً لو شفع أبي في كل مذب على وجه الأرض لشفعه الله فيهم ، أبي معذب في النار وابنه قسيم الجنة والنار؟ والذي بعث محمداً بالحق إن نور أبي طالب يطفى أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار : نور محمد ، ونور فاطمة ، ونور الحسن ونور الحسين ونور ولده من الأئمة ، ألا إن نوره من نورنا خلقه الله من قبل خلق آدم بألفي عام^(١) .

ونقول لمولانا أمير المؤمنين : كل ما نالكم من ظلم وتعذُّ هو من احتراق ذلك الباب ، حتى جهل حق مولانا أبيك عليه السلام :

لولا احتراق الباب ما احترقت لهم	في الغاضرية أربع وستور
لوم يقاد المرتضى من داره	ما قيّد السجاد وهو أسير
لوم تسير الطهر فاطم خلفه	ما زينب خلف العليل تسير.. ^(٢)

المجلس الرابع إيمان أبي طالب عليه السلام

«.. تيمم وعدي ..»

شاعر آل محمد الجبري

إن الصبا يا نفس عز طلابه	ونهتك عنه واعظات نهاك
والشيب ضيف لا محالة مؤذن	برداك فاتبعي سبيل هداك
وتزوّدي من حب آل محمد	زاداً متى أعددته نجاك

(١) فخار بن معد الموسوي ، إيمان أبي طالب ، ص ٧٣ و ٧٤ .

(٢) للسيد صالح الحلبي رحمته الله . راجع شعراء الحسين للأبرواني .

فلنعم زاداً للمعاد وعدة
والى الوصي مهم أمرك فوُضي
وبحبه فتمسكي أن تسلكي
وتعوّذي بالزهر من أولاده
فهم مصابيح الدجى لذوي الحجى
وهم الأدلة كالأهلة نورها
يا أمة ضلت سبيل رشادها
لا تحسبيك بريئة مما جرى
يا آل أحمد كم يكابد فيكم
كبيدي بكم مقروحة ومدامعي
وإذا ذكرت مصابكم قال الأسى
وابكي قتيلاً بالطوف لأجله
إن أبكم في اليوم تلقهم غداً
يا رب فاجعل حبهم لي جنّة
واجبر بها الجبري جبراً وابره
وبهم إذا أعداء آل محمد

للحشر إن علقت يداك بذاك
تصلي بذاك إلى حظي منك
بالزيف عنه مسالك الهلاك
من شر كل مضلل أفك
والعروة الوثقى لذي استمساك
يجلو عمى المتحير الشكاك
إن الذي استرشدته أغواك
والله ما قتل الحسين سواك
كبيدي خطوباً للقلوب نواك
مسفوحة وجوى فؤادي ذاك
لجفوني اجتنبي لذيد كراك
بكت السماء دماً فحق بكاك
عيني بوجه مسفر ضحك
من موبقات الإثم والأفك
من ظالم لدمائهم سفك
غلقت رهونهم فجد بفكاك^(١)

إيمان مولانا أبي طالب صلى الله عليه ..

من جملة تأييد الله للحق، أن جعل علل بعض القضايا المهمة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ولاجرم أن تكون القضية بمثابة النور الذي يدل على قرص الشمس البارز في عقابيل الأفق، نهاية ما هناك أن التماس هذه الأسباب في مظانها، يحتاج إلى عقلٍ واعٍ بصير، كما يحتاج اكتشاف الشمس إلى بصر سليم حديد. وقضية إيمان أبي طالب أو عدمه، من القضايا الإسلامية المهمة، ومما يدعو إلى الإعتزاز أنها بحثت عند العلماء المسلمين من أولياء وخصوم بحثاً جاداً مستوعباً، سواء في الصدر الأول للإسلام أو في العصور التالية. ولقد تولى بيانها أهل البيت للناس، حتى أثبتوا

(١) سيدنا الأمين، الدر النضيد، ص ٢٢٥ و ٢٢٦.

الحق نزيهاً وأماطوا عنه أذى الباطل كما تماط المدرة من حب الحصيد .

العباس أخوه يشهد بإيمانه

عن ابن عباس قال : أخبرني العباس بن عبدالمطلب إن أباطالب عليه السلام شهد عند الموت أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله (١) .

الإمام يشهد بإيمان أبيه عليه السلام

عن عامر بن وائلة الأسقع الكناني قال : قال علي عليه السلام : إنَّ أبي حين حضره الموت ، شهدته رسول الله ﷺ ، فأخبرني عنه بشيء خبير لي من الدنيا وما فيها (٢) . وهذه ليست الشهادة الأولى بل تكرّر من أميرالمؤمنين عليه السلام الإعلان عن إسلام أبيه ، وسرور أميرالمؤمنين عليه السلام هنا ليس بإيمان أبيه بل بالمنزلة الكبرى والمقام المحمود الذي ناله أبوطالب من ربه بحيث خوّله سبحانه الشفاعة يوم القيامة لأهل الكبائر وقد مرّ طرف من ذلك في المجلس الثالث .

أبو بكر يعترف بإسلام أبي طالب عليه السلام

عن عكرمة عن ابن عباس قال : جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ بأبي قحافة ، يقوده وهو شيخ كبير أعمى ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : ألا تركت الشيخ حتّى نأتيه ، فقال : أردت يا رسول الله أن يأجرني الله ، أما والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشدّ فرحاً بإسلام عمك أبي طالب منّي بإسلام أبي ، ألتمس بذلك قرّة عينك . فقال رسول الله ﷺ : صدقت . وقد روى هذا الحديث بعينه أبوالفرج الأصفهاني (٣) .

إعلان آخر ومدح قيم

عن الشعبي يرفعه عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام قال : كان والله أبوطالب ، عبد

(١) فخار بن معد ، إيمان أبي طالب ، ص ١٠٨ نقلاً عن ابن أبي الحديد ، ٣/٣١٢ .

(٢) نفسه ص ١١٢ .

(٣) إيمان أبي طالب ، ص ١١٥ و ١١٦ .

مناف بن عبدالمطلب مؤمناً مسلماً يكتم إيمانه مخافة على بني هاشم أن تنازها قريش.
قال أبو علي الموضح: ولأمير المؤمنين عليه السلام في أبيه أبي طالب عليه السلام يرثيه:

أباطال عصمة المستجير وغيث المحول ونور الظلم
لقد هدّ فقدك أهل الحفاظ فصلّى عليك وليّ النعم
ولقّاك ربك رضوانه فقد كنت للمصطفى خير عم

فتأمل ما ضمّته أمير المؤمنين عليه السلام أبياته هذه من الدعاء لأبي طالب عليه السلام فلو كان مات كافراً لما كان أمير المؤمنين عليه السلام يؤبّنه بعد موته ويدعوله بالرضوان من الله تعالى، بل كان يذمه على قبيح فعله، وسالف كفره، ويفعل به كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث حكى الله عنه في قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأ مِنْهُ ﴾ (١).

الإمام السجّاد عليه السلام يحتج على الخبثاء

عن أبي علي الموضح قال: تواترت الأخبار بهذه الرواية وبغيرها، عن علي بن الحسين عليه السلام أنه سئل عن أبي طالب، أكان مؤمناً؟ فقال عليه السلام: نعم، فقيل له: إن هاهنا قوماً يزعمون أنه كافر فقال عليه السلام: واعجبه كلّ العجب، أيطعنون على أبي طالب، أو على رسول الله ﷺ وقد نهاه الله تعالى أن يقرّ مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن، ولا يشكّ أحدٌ أنّ فاطمة بنت أسد رضي الله عنها من المؤمنات السابقات فإنّها لم تنزل تحت أبي طالب حتّى مات (٢).

الباقر عليه السلام؛ يعلن إيمان جدّه عليه السلام

عن أبي بصير عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال:
مات أبو طالب بن عبدالمطلب مسلماً مؤمناً وشعره في ديوانه، يدلّ على إيمانه، ثمّ محبّته وتربّيته ونصرته ومعاداة أعداء رسول الله ﷺ ومولاة أوليائه، تصديقه إياه فيما جاء به من ربه، وأمره لولديه علي وجعفر عليه السلام بأن يسلما ويؤمننا بما يدعو إليه، وأنه خير الخلق، وأنه يدعو إلى الحق والمنهاج المستقيم، وأنه رسول ربّ العالمين،

(١) التوبة: ١١٥، إيمان أبي طالب، ص ١٢٢ و ١٢٣.

(٢) إيمان أبي طالب ص ١٢٣.

ثبت ذلك في قلوبهما ، فحين دعاهما رسول الله ﷺ أجاباه في الحال وما تلبّنا لما قد قرّره أبوهما عندهما من أمره ، فكانا يتأملان أفعال رسول الله ﷺ فيجدانها كلّها حسنة ، تدعو إلى سداد ورشاد .

يقول فخار بن معد رضي الله عنه : وقد كنت سمعت جماعة من أصحابنا العلماء مذاكرة يروون عن الأيمة الراشدين من آل محمد صلوات الله عليهم أنهم سئلوا عن قول النبي المتفق على روايته المجمع على صحّته : أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ، فقالوا : أراد بكافل اليتيم عمّه أباطالب ، لأنه كفله يتيماً من أبويه ، ولم يزل شفيحاً حديباً عليه ..^(١)

الإمام الصادق عليه السلام يفصح عن إيمان أبي طالب

عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال : ما مات أبوطالب حتّى أعطى رسول الله ﷺ من نفسه الرضا .
وبالإسناد عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إنّنا لنرى أباطالب ، أسلم بكلام الجمل .

قوله عليه السلام : لنرى أي لنعتقد ، لأنه يقال : فلان يرى رأي فلان أي يعتقد اعتقاده .
وقوله عليه السلام : بكلام الجمل ، يعني الجمل الذي خاطب رسول الله ﷺ وقصّته مشهورة .

تفسيران لكلام الجمل

التفسير الأول :

عن جابر بن عبد الله وعبادة بن الصامت قالوا : كان في حائط بني النجار جمل قطم - أي انتهى الضراب - لا يدخل الحائط أحد إلا شدّ عليه ، فدخل النبي ﷺ الحائط ودعا فجائه ، ووضع مشفره على الأرض ونزل بين يديه فخطمه ودفعه إلى أصحابه فقيل : البهائم يعرفون نبوتك ؟ فقال : ما من شيء إلا وهو عارف بنبوتني سوى أبي جهل وقريش فقالوا نحن أحدى بالسجود لك من البهائم ، فقال : إنّني أموت فاسجدوا للحبي الذي لا يموت .

(١) إيمان أبي طالب ، ص ١٤٠ و ١٤٢ .

وجاء جمل آخر يحرك شفتيه، ثم أصغى إلى الجمل وضحك، ثم قال: هذا يشكو قلة العطف، وثقل الحمل. يا جابر! اذهب معه إلى صاحبه فأنتني به. قلت: والله ما أعرف صاحبه، قال: هو يدلك. قال: فخرجت معه إلى بعض بني حنظلة وأتيت به إلى رسول الله ﷺ فقال: بعيرك هذا يخبرني بكذا وكذا قال: إنما كان ذلك لعصيانه ففعلنا به ذلك ليلين، فواجهه رسول الله ﷺ وقال: انطلق مع أهلك فكان يتقدمهم متذلاً فقالوا: يا رسول الله أعتقناه لحرمتك، فكان يدور في الأسواق والناس يقولون: هذا عتيق رسول الله.

وقال ابن حماد: ودعاه البعير أن يا رسول الله أشكو إليك جفوة أهلي. يقول السيد محمد بحر العلوم: ولعل المؤلف أراد أن يوضح بأن مراد الإمام أبي عبدالله عليه السلام بأن أباطالب أسلم بكلام الجمل يعني أنه كان مؤمناً في باطنه، متظاهراً بالشرك لأسباب تقتضيها طبيعة الظروف الوقتية كما أن هناك روايات تؤيد هذا المعنى، بأنه أبطن الإيمان وأظهر الشرك.

التفسير الثاني

غير أن السيد علي خان في الدرجات الرفيعة ص ٢٥١ فسّر هذه العبارة بشيء آخر لعله أقرب للواقع. قال ابن بابويه في معاني الأخبار: سئل أبو القاسم الحسين بن روح عن معنى هذا الخبر أن أباطالب أسلم بحساب الجمل وعقد بيده ثلاثاً وستين عقدة فقال: عنى بذلك إله واحد جواد. قال: وتفسير ذلك أن الألف واحد، واللام ثلاثون، والهاء خمسة، والألف واحد، والذال أربعة، والحاء ثمانية، والجيم ثلاثة، والواو ستة، والألف واحد، والذال أربعة، فذلك ثلاثة وستون.. (١)

الصادق عليه السلام يأمر بالطواف عن أجداده عليهم السلام

عن داود الرقي قال: دخلت علي أبي عبدالله عليه السلام ولي علي رجل دين، وقد خفت تواه (٢) فشكوت ذلك إليه فقال عليه السلام: إذا مررت بمكة فطف عن عبدالمطلب

(١) إيمان أبي طالب، ص ١٠٩ و ١١٠.

(٢) أي خفت هلاك المال.

طوافاً وصلَّ عنه ركعتين ، وطف عن أبي طالب طوافاً وصلَّ عنه ركعتين ، وطف عن عبدالله طوافاً وصلَّ عنه ركعتين ، وطف عن آمنة طوافاً وصلَّ عنها ركعتين ، ثم ادعَّ الله عزَّ وجلَّ أن يردَّ عليك مالك . قال : ففعلت ذلك ثم خرجت من باب الصفا فإذا غريمي واقف يقول : يا داود ! جثني هناك فاقبض حَقَّك ^(١) .

من ينكر إسلام أبي طالب فهو من أهل النار ..

قال منجج الخادم مولى بعض الطاهرية بطوس قال : حدَّثني أبان بن محمد قال : كتبت إلى الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام : جعلت فداك ! إنني شككت في إيمان أبي طالب . قال : فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوَّله ما توَّى ﴾ ^(٢) إنك إن لم تُقرَّ بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار ^(٣) .

ابن عباس يشيد بإيمان أبي طالب عليه السلام

وذكر أبو الفداء والشعراني عن ابن عباس : أن أبا طالب لما اشتدَّ مرضه قال له رسول الله ﷺ : يا عم ! قلها استحلَّ لك بها الشفاعة يوم القيامة يعني الشهادة . فقال له أبو طالب : يا بن أخي ، لولا مخافة السبِّه وأن تظنَّ قريش إنَّما قتلها جزعاً من الموت لقلتها ، فلمَّا تقارب من أبي طالب الموت ، جعل يحرك شفتيه فأصغى إليه العباس بإذنه وقال : والله يا بن أخي لقد قال الكلمة التي أمرته أن يقولها . فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي هدانا الله ^(٤) .

وهذه الرواية ذكرت على نهج القوم من باب الإدانة من الفم وإلا فإنَّ أبا طالب كان مسلماً حياته كلها بعد البعثة قائماً بالذب عن النبي وشعره يشهد بذلك ولذا قال شيخنا الأمين رضوان الله عليه : ذكرنا هذا الحديث مجاراةً للقوم وإلا فما كانت حاجة أبي طالب مسيسة عند الموت إلى التلطف بتينك الكلمتين اللتين كرس حياته الثمينة بالهتاف بمفادهما في شعره ونثره .

(١) نفسه ، ص ١٠٤ .

(٢) النساء : ١١٤ .

(٣) إيمان أبي طالب ، ص ٧٦ .

(٤) الغدير ، ٢٦٩/٧ .

والذي أظنه والله العالم إن صحّت هذه الرواية أنّ النبي أراد من أبي طالب أن يعلن إسلامه لمن حضر بعد ذهاب المحذور بموته لثلاثاً يقال إنّه مات على الشرك ، مع علم النبي اليقيني أنّ ذلك سبق من أبي طالب في بدء الدعوة .

حزن النبي عليه بعد موته وتأبينه ودعائه له

اختلفوا في وفاة أبي طالب ، اليوم والشهر وأتفقوا على السنة العاشرة من البعثة فمنهم من جعلها في النصف من شوال ومنهم أول ذي القعدة وثامن عشر شهر رمضان سنة عشر ومنهم من جعل وفاته في رجب ، قال شيخنا الأميني رضوان الله عليه : عيّن ابن سعد في الطبقات لوفاة أبي طالب يوم النصف من شوال كما سمعت وقال أبو الفداء في تاريخه توفي في شوال وأوعز القسطلاني في المواهب ٧١/١ موته في شوال إلى القليل ، وقال المقرئ في الإمتاع ص ٢٧ : توفي أول ذي القعدة وقيل : النصف من شوال ، وقال الزرقاني في شرح المواهب ٢٩١/١ : مات بعد خروجه من الشعب في أول سنة ثامن عشر رمضان سنة عشر ، وفي الإستيعاب : خرجوا من الشعب في أول سنة خمسين وتوفي أبو طالب بعده بستة أشهر فتكون وفاته في رجب ، إنتهى وهذا الإختلاف موجود في تأليف الشيعة أيضاً^(١) .

أخرج ابن سعد في الطبقات ١٠٥/١ عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي قال : أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموت أبي طالب ، فبكى ثم قال : اذهب فاغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه .

وفي لفظ الواقدي : فبكى بكاءً شديداً ثم قال : اذهب فاغسله .. الخ . وقال ابن خزيمة : إنّا ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشي في الجنائز ، أتفاءً من شرّ سفهاء قريش وعدم صلواته لعدم مشروعيّة صلاة الجنائز يومئذٍ .. وفي رواية أنّه صلى الله عليه وآله وسلم مشى وراء جنازته ولمّا عاد منها قال : وصلتك رحم ، وجزيت خيراً يا عم . وفي لفظ الخطيب : عارض النبي جنازة أبي طالب فقال : وصلتك رحم جزاك الله خيراً يا عم .

وقال البيهقي في تاريخه ٢٦/٢ : لمّا قيل لرسول الله : إنّ أباطال قد مات عظم ذلك في قلبه واشتدّ له جزعه ثمّ دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرّات وجبينه الأيسر

ثلاث مرّات ثمّ قال: يا عم ربيت صغيراً، وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً فجزاك عني خيراً ومشى بين يدي سريره وجعل يعرضه ويقول: وصلتك رحم وجزيت خيراً..^(١) وهذا بجملته يدلّ على إيمان أبي طاب لأنّ أحاده إن لم تكن متواترة فإنّ معناه متواتر ومن شكّ فيه فلن يؤمن بشيء بعده بحال من الأحوال. من ثمّ نجد قوماً أنعم الله عليهم بالعقل السليم لم يجدوا مناصاً من الإيقان بإسلام أبي طالب عليه السلام من هؤلاء المبرّد صاحب الكامل، قال فخار بن معد رضي الله عنه: حدّثني شيخنا عميد الرؤساء أين أيوب اللغوي قال: أراني السيد عبد الحميد بن التقي الحسيني النسابة نسخة عتيقة من كتاب الكامل للمبرّد وفيها بعد ذكره أبا طالب في بعض الأبواب: وأسلم أبو طالب وحسن إسلامه وصدّق رسول الله صلى الله عليه وآله في كلمته وله شأن عجيب لا يحتمله أهل بغداد، ممّا صدّقه فيه صلى الله عليه وآله قوله: إذهب بني فما عليك غضاضة وذكر الأبيات...^(٢)

ومنهم العلامة مفتي السادة الشافعية بمكة المشرفة السيّد أحمد ابن السيّد زيني بن أحمد دحلان الشافعي المتوفى سنة ١٣٠٤ وكتب في إيمان أبي طالب كتاباً سمّاه (أسنى المطالب في نجاه أبي طالب) أقام فيه البراهين الساطعة على إيمان أبي طالب عليه السلام وتصديقه بالنبوة وزيّف كل شبهة تمسك بها القائلون بعدم إيمانه. ومنهم العلامة الجليل السيّد محمد بن رسول البرزنجي الكردي المتوفى سنة ١١٠٣ هـ وقد ألف كتاباً في نجاه أبوي النبي صلى الله عليه وآله وذيله بخاتمة في نجاه أبي طالب عليه السلام وكتاب الدحلاني اختصار من هذه المقدمة، وأضاف على ما اختصره مطالب مهمّة، طبع الكتاب بمصر سنة ١٣٠٥ هـ.^(٣)

مواقف لشيخ البطحاء خالدة..

الموقف الأول

قال ابن إسحاق: إنّ أبا طالب خرج في ركب إلى الشام تاجراً، فلمّا تهياً للرحيل وأجمع السيرة هبّ له رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ بزمام ناقته وقال: يا عم إلى من تكلني، لا

(١) الغدير، ٣٧٢/٧ و٣٧٣.

(٢) إيمان أبي طالب، ص ٢٦٣.

(٣) مقدمة العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم على الطبعة الأولى من كتاب إيمان أبي طالب، ص ٢٠،

أب لي ولا أم لي ، فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجنّ به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً . قال : فخرج به معه فلمّا نزل الركب «بصرى» من أرض الشام ونهياً راهب يقال له «بحيرا» في صومعة له وكان من أعلم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة راهب إليه يصير علمهم من كتاب فيهم كما يزعمون يتوارثونه كائن عن كائن .

فلمّا نزلوا ذلك العام ببخيرا وكانوا كثيراً ما يمرّون عليه قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يتعرّض لهم ، حتّى إذا كان العام نزلوا به قريباً من صومعته ، فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله عليه السلام من بين القوم ، ثمّ أقبلوا حتّى نزلوا بظلّ شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتّى أظلت الشجرة ، وتهصّرت يعني تذكّلت أغصانها على رسول الله عليه السلام حتّى استظلّ تحتها ، فلمّا رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثمّ أرسل إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً يا معاشر قريش ، وأنا أحب أن تحضروا كلّمكم صغيركم وكبيركم وحزّكم وعبدكم .

فقال له رجل منهم : يا بحيرا إنّ لذلك اليوم لشأناً ما كنت تصنع هذا فيما مضى وقد كنّا نمرّ بك كثيراً فما شأنك اليوم ؟ فقال له بحيرا : صدقت قد كان ما تقولون ولكنكم ضيوف فأحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه كلّمكم ، فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله عليه السلام من بين القوم لحدائه سنّه في رحال القوم تحت الشجرة ، فلمّا نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرفها وهي موجودة عنده ، فقال : يا معشر قريش ! لا يتخلف أحد منكم عن طعامي هذا . فقالوا : يا بحيرا ما تخلف عنك أحد ينبغي أن يأتيك إلّا غلام هو أحدث القوم سنّاً تخلف في رحالهم . قال : فلا تفعلوا أدعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش : واللوات والعزّى إنّ لهذا اليوم نبأً أليق أن يتخلف ابن عبدالله من بيننا ، ثمّ قام إليه فاحتضنه ثمّ أقبل به حتّى أجلسه مع القوم ، فلمّا رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجده عنده في صفته حتّى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرّقوا قام بحيرا فقال له : يا غلام ! أسألك باللات والعزّى إلّا أخبرتني عمّا أسألك عنه . فقال رسول الله عليه السلام : لا تسألني باللات والعزّى شيئاً قط . فقال بحيرا : فبالله إلّا ما أخبرتني عمّا أسألك عنه . فقال : سلني عمّا بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من نومه وهيئته وأموره ورسول الله يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده، الحديث. فقال أبو طالب في ذلك:

إن ابن أمنة النبي محمداً
لما تعلق بالزمام رحمته
فأرفض من عيني دمع دارف
راعيت فيه قرابة موصولة
وأمرته بالسير بين عمومة
ساروا لأبعد طيبة معلومة
حتى إذا ما القوم بصرا عاينوا
حبراً فأخبرهم حديثاً صادقاً
قوم يهود قد رأوا لما رأى
ثاروا لقتل محمد فنهاهم
فتنى زبيراً من بحيرا فانثنى
ونهى دريساً فانتهى عن قوله
عندي يفوق منازل الأولاد
والعيس قد قلصن بالأزواد
مثل الجمان مفرق الأفراد
وحفظت فيه وصية الأجداد
بيض الوجوه مصالت أنجاد
فلقد تباعد طيبة المرتاد
لاقوا على شرك من المرصاد
عنه ورد معاشر الحساد
ظل الغمام وعن ذي الأكباد
عنه وجاهد أحسن التجهاد
في القوم بعد تجاول وبعاد
حبر يوافق أمره برشاد..^(١)

وهذا الخبر يدل على سبق معرفة أبي طالب بنبوة النبي ﷺ من بحيرا وأضرابه من رهبان النصارى وغيرهم، بل كان أبو طالب أعلم من هؤلاء جميعاً بمقام ابن أخيه وحرمة عند الله وصلته المستقبلية به، دل على ذلك ما كان يفعله من الإستسقاء بجنابه إذا قحطت الأرض.

الموقف الثاني

أخرج ابن عساكر في تاريخه عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجدب العيال فهلهم واستسق فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة تجلت عنه سحابة قنماء وحوله أغيلمة فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام، وما في السماء قزعة فأقبل

السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق وأغدوق وانفجر له الوادي وأخصب البادي والنادي ففي ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأزامل
يلود به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان عدل لا يخيس شعيرة ووزان صدق وزنه غير هائل..^(١)

وهذه ليست المرة الأولى التي يستسقى أبو طالب بالنبي فيها فقد سبقها استسقاء عبدالمطلب عليه السلام به فيما ذكره الشهرستاني في الملل والنحل بهامش الفصل ٢٢٥/٣ أنّ سيدنا عبدالمطلب أمر أباطالب ابنه لمّا أصاب أهل مكة ذلك الجذب العظيم وأمسك السحاب عنهم سنتين ، أمر أباطالب ابنه أن يحضر المصطفى عليه الصلاة والسلام وهو رضيع في قماط فوضعه على يديه واستقبل الكعبة ورماه إلى السماء وقال : يارب بحق هذا الغلام ، ورماه ثانياً وثالثاً ، وكان يقول بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغياً دائماً هاطلاً ، فلم يلبث ساعة أن طبّق السحاب وجه السماء وأمطر حتى خافوا على المسجد وأنشد أبو طالب ذلك الشعر اللامي الذي منه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأزامل

يقول شيخنا الأمين رضي الله عنه وأرضاه : فاستسقاء عبدالمطلب وابنه شيخ الأبطح بالنبي الأعظم ﷺ رضيعاً ويفعاً يعرب عن توحيدهما الخالص ، وإيمانهما بالله ، وعرفانهما بالرسالة الخاتمة وقداسة صاحبها من أوّل يومه ولو لم يكن لهما إلاّ هذين الموقفين لكفياهما كما يكفيان الباحث عن دليل آخر على اعتناقهما الإيمان^(٢).

الموقف الثالث

عن ابن عباس في حديث طويل : إنّ النبي ﷺ قال للعباس عليه السلام : إنّ الله قد أمرني بإظهار أمري وقد أنبأني واستنبأني فما عندك ؟ فقال له العباس عليه السلام : يا بن أخي تعلم أنّ قريشاً أشدّ الناس حسداً لولد أبيك وإن كانت هذه الخصلة كانت الطامة الطمّاء

(١) الغدير، ٣٤٦/٧. نقلاً عن شرح البخاري للقسطلاني ٢٢٧/٢ المواهب اللدنية ٤٨/١، الخصائص

الكبرى ٨٦/١ و١٢٤ وشرح المحافل ١١٩/١ : السيرة الحلبية ١٢٥/١ : طلبة الطالب، ص ٤٢.

(٢) الغدير، ٣٤٦/٧ نقلاً عن الملل والنحل ٢٢٥/٣ هامش الفصل.

والدهاية العظيمة ورمينا عن قوس واحدة وانتسفونا نسفاً صلنا ولكن قَرَبَ إلى عمِّك أبي طالب فإنه كان أكبر أعمامك إن لا ينصرك لا يخذلك ولا يسلمك، فأتيته فلما رأهما أبو طالب قال: إنَّ لكما لطناً وخبراً ما جاء بكما في هذا الوقت؟ فعزَّفه العباس ما قال له النبي ﷺ وما أجابه به العباس فنظر إليه أبو طالب وقال له: أخرج ابن أبي فإئك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً والأعلى أباً والله لا يسلفك لسان إلا سلفته ألسنٌ حداد واجتذبتة سيوف حداد والله لتذلنَّ لك العرب ذلَّ البهم لحاضنها ولقد كان أبي يقرأ الكتاب جميعاً ولقد قال: إنَّ من صليبي لنبياً لوددت أني أدركت ذلك الزمان فأمنت به فمن أدركه من ولدي فليؤمن به^(١).

والبشارة بالنبي ﷺ على عهد جدِّه عبدالمطلب كانت مشهورة حتَّى أنها جاءت على لسان سيف بن ذي يزن لما وفد عليه عبدالمطلب في جماعة من قريش لتهنئته بعودة الملك إليه، والخبر مروى بكثرة في كتب السيرة النبوية.

الموقف الرابع، حكاية السكاكين ..

قال فخار بن معد رضي الله عنه: وأخبرني الشيخ الحافظ أبو الفرج عبدالرحمن بن محمد ابن الجوزي المحدث البغدادي وكان ممن يرى كفر أبي طالب ويعتقده بواسط العراق سنة إحدى وتسعين وخمسائة بإسناد له إلى الواقدي قال: كان أبو طالب بن عبدالمطلب لا يغيب صباح النبي ﷺ ولا مساءه ويحرسه من أعدائه، ويخاف أن يغتالوه، فلما كان ذات يوم فقدته فلم يره، وجاء المساء فلم يره، وأصبح الصباح فطلبه في مظانِّه فلم يجده فلزم أحشائه، وقال: واولداه وجمع عبيده ومن يلزمه في نفسه فقال لهم: إنَّ محمداً قد فقدته في أمسنا ويومنا هذا ولا أظنُّ إلا أن قريشاً قد اغتالته، وكادته وقد بقي هذا الوجه ما جثته وبعيداً أن يكون فيه واختار من عبيده عشرين رجلاً فقال: امضوا وأعدوا سكاكين، وليمض كلُّ رجل منكم وليجلس إلى جنب سيِّد من سادات قريش، فإن أتيت ومحمد معي فلا تحدثنَّ أمراً وكونوا على رسلكم حتَّى أفف عليكم، وإن جثت وما محمد معي فليضرب كل رجل منكم الرجل الذي إلى جانبه من سادات قريش.

(١) الغدير، ٧/٣٤٨ نقلاً عن نهاية الطلب وغاية السؤل في مناقب آل الرسول.

فمضوا وشحذوا سكاكينهم حتى رضوها ومضى أبو طالب في الوجه الذي أرادته ومعها رهطه من قومه فوجده في أسفل مكة قائماً يصلي إلى جنب صخرة فوقه عليه وقبلة وأخذ بيده وقال: يا بن أخ قد كدت أن تأتي على قومك سر معي، فأخذ بيده وجاء إلى المسجد، وقرئ في ناديهم جلوس عند الكعبة، فلما رأوه قد جاء ويده في يد النبي ﷺ قالوا: هذا أبو طالب قد جاءكم بمحمد إن له لشأنا فلما وقف عليهم والغضب في وجهه قال لعبيده: أبرزوا ما في أيديكم، فأبرز كل واحد منهم ما في يده، فلما رأوا السكاكين قالوا: ما هذا يا أبا طالب؟ قال: ما ترون إني طلبت محمداً فلم أراه منذو يومين فخفت أن تكونوا كدمتموه ببعض شأنكم، فأمرت هؤلاء أن يجلسوا حيث ترون وقلت لهم: إن جئت وليس محمد معي فليضرب كل منكم صاحبه الذي إلى جنبه ولا يستأذني فيه ولو كان هاشمياً، فقالوا: وهل كنت فاعلاً؟ فقال: إي ورب هذه وأوماً إلى الكعبة، فقال له المطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف وكان من أحلافه: لقد كدت تأتي على قومك، فقال: هو ذلك. ومضى به وهو يقول:

أذهب بني فما عليك غضاضة أذهب وقرّب بذاك منك عيوننا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت قبل أمينا
وذكرت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية ديننا

قال: فرجعت قرئش على أبي طالب بالعتب والإستعفاف وهو لا يحفل بهم^(١).

الموقف الخامس

لما نزلت: ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربین ﴾، خرج رسول الله ﷺ فصعد على الصفا فهتف: يا صباحاه^(٢) فاجتمعوا إليه فقال: أرايتكم^(٣) لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج

(١) إيمان أبي طالب، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ وذكرها مولانا الأمين رحمته الله في سياقين يختلفان عن هذا السياق، انظر الغدير ٢٤٩/٧.

(٢) هذه كلمة يقولها المستغيث وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمّون يوم الغارة يوم الصباح فكان القائل واصباحاه يقول: قد غشينا العدو وقيل غير ذلك. راجع جامع الأصول، ٣٦٣/٢.

(٣) العرب لها في رأيت لغتان ومعنيان أحدهما: أن يسأل الرجل الرجل رأيت زيداً بعينك فهذه مهموزة

بسفح الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جرّنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك، أما جمعتنا إلا لهذا؟

ثمّ أحضر قومه في داره فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلّم ودع الصبأة واعلم أنّه ليس لقومك بالعرب فاطبة طاقة، وأنّ أحقّ من أخذك وحبسك بنو أبيك وإن أقت ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن ينبّ لك بطون قريش، وتمدّهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرّ ممّا جئتم به فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلّم.

ثمّ دعاهم ثانية وقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكّل عليه وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، ثمّ قال: إنّ الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلاّ هو إني رسول الله إليكم خاصّة وإلى الناس عامّة، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقضون ولتحاسبنّ بما تعملون وإنّها الجنّة أبداً والنار أبداً. فقال أبو طالب: ما أحبّ إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدّ تصديقنا لحديثك وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنّما أنا أحدهم غير أنّي أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك، وأمنعك غير أنّ نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب..^(١) ويعتبر قول أبي طالب هذا جزءاً من الخطة التي أجمع على اتّخاذها أمام تعنّت قريش، فإنّه لو آمن به علناً مع وجود رجل فيهم كأبي لهب وقد مرّ قوله الشديد بحقّ رسول الله ﷺ من التهديد والوعيد والتلويح بحبسه حتّى سكت النبي ولم ينطق بكلمة واحدة وما ردّ عليه بحرف لعلمه بشديد عداوته له، وإنّه لا مانع عنده من إغراء سفهاء قريش به.

أقول: لو أنّ أباطالب عليه السلام أعلن بإيمانه ساعته إذ لما استطاع أن يقف في وجوه قريش ولاعتبروه كرسول الله ﷺ ولم تكن له تلك الكلمة النافذة فيهم، ولا تلك

❦ فإذا أوقعتها على الرجل منه قلت: أرايتك على غير هذه الحالة؟ تريد هل رأيت نفسك على غير هذه الحال ثمّ تننى وتجمع فتقول للرجلين أريتما كما وللقوم أرايتموكم وللنساء أرايتكنّ وللمرأة أرايتك تخفض التاء والكاف لا يجوز إلاّ ذلك. والمعنى الآخر أن تقول: أرايتك وأنت تريد أخبرني وتهمزها وتنصب التاء منها وتترك الهمز إن شئت وهو أكثر كلام العرب وتترك التاء موحدّه ومفتوحة للواحد والواحدة والجمع في مؤنّه ومدكره فتقول للمرأة: أرايتك زيداً خرج وللنساء أرايتكنّ زيداً خرج.

(١) الغدير، ٣٥٢/٧، نقلًا عن الكامل لابن أثير ٢٤/٢.

الهيبة التي أخذت بمجامع قلوبهم ، ثم إن مداراة قريش له في ابن أخيه باعتباره منهم ويدر بن دينهم ، ولولا ذلك لوقفت قريش ضده ورمته عن قوس واحدة .
 ثم إن قوله غير أنني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به يشعر باستجابته له وإيمانه به خلا أنه قال قولته الأخيرة أي نفسي لا تطاوعني الخ ليجعلها يداً عند قريش فلا تتخذ منه عدواً وتعامله معاملة لرسول الله وهذه هي خطة الحكيم المحنك أضف إلى ما تقدم أن دين عبدالمطلب سلام الله عليه لم يكن إلا دين التوحيد والإيمان بالله ورسله وكتبه غير مشوب بشيء من الوثنية ، كما قال مولانا الأمينى وهذا عين التوحيد الذي دعاهم إليه النبي ﷺ .

الموقف السادس : حضوره ومشاهدته المعجزة

قال أبو طالب للنبي ﷺ بمحضر من قريش ليريهم فضله : يا ابن أخي ! الله أرسلك ؟ قال : نعم . قال : إن للأنبياء معجزاً وخرق عادة فأرنا آية . قال : أدع تلك الشجرة وقل لها يقول لك محمد بن عبد الله أقبلي بإذن الله ، فدعاها فأقبلت حتى سجدت بين يديه ثم أمرها بالإنصراف ، فانصرفت ، فقال أبو طالب : أشهد أنك صادق ثم قال لابنه علي عليه السلام : يا بني ألزم ابن عمك ^(١) .

هذه الشجرة لها نظير في نهج البلاغة ذكرها الإمام في الخطبة التسعين بعد المائة ، فهل هي نفس الشجرة التي جرت على يديه ﷺ يطلب من أبي طالب عليه السلام أو هي شجرة أخرى ؟ الناظر في التفاصيل يجزم بأنهما شجرتان ، إلا أن الأولى كانت بمشهد من قريش ، فلم يبدو منهم رد فعل كالذي فعلوه في الثانية حين نسبوه إلى السحر ، وازدادوا عتواً وتكبراً ، ومهما تكن الحال فإن راوي الثانية أمير المؤمنين عليه السلام فثبوت وقوعها ممّا لا شك فيه ، يقول الإمام عليه السلام :

ولقد كنت معه ﷺ لما أتاه الملائ من قريش فقالوا له : يا محمد ! إنك قد ادّعت عظيمًا لم يدعه أباءك ولا أحد من بيتك ، ونحن نسألك أمراً إن أحببنا إليه وأرئتناه علمنا أنك نبي ورسول وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب ، فقال ﷺ : ما تسألون ؟ قالوا :

(١) إيمان أبي طالب ، ص ١٢٨ ، وأورد الرواية الصدوق في أماليه ص ٣٦٥ عن طريق الأعمش وكذلك رواه أبو علي الفثال في روضة الواعظين ص ١٢٨ .

تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك ، فقال عليه السلام : إن الله على كل شيء قدير ، فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحق ؟ قالوا : نعم . قال : فإني سأريكم ما تطلبون ، وإني لأعلم أنكم لا تفيثون إلى خير ، وإن فيكم من يطرح في القلب ، ومن يحزب الأحزاب .

ثم قال عليه السلام : يا أيها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله وباليوم الآخر وتعلمين أنني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بإذن الله . فوالذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دويّ شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتى وقعت بين يدي رسول الله عليه السلام وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله عليه السلام ، وبععض أغصانها على منكبي وكنت عن يمينه عليه السلام .

فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا - علواً واستكباراً - فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها ، فأمرها بذلك . فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّ دويّاً ، فكادت تلتف برسول الله عليه السلام . فقالوا - كفرةً وعتواً - : فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان ، فأمره عليه السلام فرجع ، فقلت أنا : لا إله إلا الله فإني أول مؤمن بك يا رسول الله ، وأول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوتك وإجلالاً لكلمتك .

فقال القوم كلهم : بل ساحرٌ كذاب عجيب السحر ، خفيف فيه ، وهل يصدّقك في أمرك إلا مثل هذا ، يعنوني ، وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم سيماهم سيما الصادقين ، وكلامهم كلام الأبرار...^(١) عمّار الليل ومنار النهار ، متمسكون بحبل الله القرآن ، يحبون سنن الله وسنن رسوله عليه السلام ، لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلون ولا يفسدون ، قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل .

قال الخوئي^(٢) : وصف هؤلاء القوم بعشرة أوصاف :

أولها : أنّ سيماهم سيما الصّديقين أي علامتهم علامة هؤلاء .

قال الطبرسي في تفسير قوله تعالى : ﴿ من يطع الله والرسول فأولئك مع الذين

أنعم الله عليهم من النبيين والصّديقين ﴾ قيل في معنى الصّديق أنّه المصدّق بكلّ ما

(١) مغنية ، في ظلال نهج البلاغة ، ١٥٧/٣ .

(٢) بما أنّ هذه البحوث مكتوبة أساساً لخطباء المنبر الحسيني من ثمّ أسهبنا فيها إسهاباً يرتكز على

الإشارة والصلة وإن كانت بعيدة في استدراج المواضيع .

أمر الله به وبأنبيائه لا يدخله في ذلك شك. وقيل: صادقاً مبالغاً في الصدق فيما يخبر عن الله تعالى.

قال الخوئي: مقتضى كون الصديق من أبنية المبالغة أن يكون كثير الصدق مبالغاً في الصدق وذلك مستلزم لكون عمله مطابقاً لقوله مصداقاً غير مكذب أي صادقاً في أفعاله وأقواله.

وفي البحار عن بصائر الدرجات عن بريد العجلي قال: سألت أبا جعفر عن قول الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ قال: إيانا عنى .. الثاني: إن كلامهم كلام الأبرار أي المطيعين لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ .

الثالث: أنهم عمّار الليل بالدعاء والمناجات وتلاوة القرآن.

الرابع: أنهم منار النهار يعني أنهم يفتخرون ويقومون في النهار فالتناس يهتدون بهم كما يهتدي في المنار في غياب الدجى.

الخامس: أنهم متمسكون بحبل القرآن.

قال الشارح البحراني: استعار لفظ الحبل للقرآن باعتبار كونه سبباً لتعلميه إلى التروى من ماء الحياة الباقية كالعلوم والأخلاق الفاضلة كالحبل، هو سبب الإستسقاء من الماء أو بكونه صاعداً من دركات الجهل إلى درجات العقل كالحبل يصعد فيه من السفلى إلى العلو، إنتهى.

قال الخوئي: والأظهر أنّ تشبيهه بالحبل لأنه حبل ممدود من السماء إلى الأرض... وفي الحديث الشريف «كتاب الله حبل ممدود» يحتمل أن يكون معناه «الأمان» لأنه من معاني الحبل.

السادس: أنهم يحبون سنن الله وسنن رسوله أي يقومون بنشر آثار الدين ويواظبون على وظائف الشرع المبين بأقوالهم وأعمالهم.

السابع: لا يستكبرون ولا يعلون لما قد علموا من مخازي الكبر والترفع ومفاسده التي تضمّنها هذه الخطبة وغيرها من الخطب المتقدمة.

الثامن: أنهم لا يغفلون أي لا يحسدون ولا يحقدون علماً منهم برذائل الحقد والحسد ولرذالة هذه الصفة ودناءتها أخرجهما من صدور أهل الجنة كما قال في وصفهم: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ ﴾ فالمراد براءتهم من وصمة الخيابة لمعرفتهم برذالتها.

التاسع: أنهم لا يفسدون ولا يحدثون الفساد لأنه من صفة الفساق والمنافقين كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ الآية .

العاشر: أن قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل يعني أن قلوبهم متوجهة إلى الجنان مشتاقة إلى الرضوان فهم والجنة كمن رآها وهم فيها منعمون ومحصله أن نفوسهم بكليتها معرضة عن الدنيا مقبلة إلى الآخرة والحال أن أجسادهم مستغرقة في العبادة وأوقاتهم مصروفة بالطاعة..^(١)

رجع إلى حديث الشجرة

وحديث الشجرة المعجزة هذه لم يرد في كتاب الله ولكن آية منه أشارت إليه حيث قص الله تعالى عتوهم وعتادهم وقولهم للنبي ﷺ ﴿ ساحر كذاب ﴾ بعد أن وعدوه بتصديقه إذا استجاب لمطلبهم ، قال سبحانه في سورة «ص»: ﴿ وعجبوا أن جائهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ جعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا شيء عجاب ﴿^(٢)

قال الطبرسي في وجه نزول الآية: قال المفسرون: إن أشراف قريش وهم خمسة وعشرون منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم وأبو جهل وأبي وأميمة ابنا خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والنضر بن الحارث أتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وأتيناك لتقضي بيننا وابن أخيك فإنه سفه أحلامنا وشمم آلهتنا، فدعا أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك . فقال: ماذا يسألونني؟ قالوا: دعنا وإلهنا ندعك وإلهك . فقال: قولوا كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم . فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك وعشر أمثالها . فقال: قولوا لا إله إلا الله، فقاموا وقالوا: ﴿ اجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ فنزل هذه الآيات .

هذا ولما قالوا: إنه ساحر، ولم يكونوا شاهدي مثل ما أتى به من غيره، أعظموا أمره ووصفوه بأنه عجيب السحر لأنه قد أتى بما يعجز عنه غيره . وهذا الحديث يدعم أن الشجرة التي ذكرها أمير المؤمنين وتلك التي جرت بمشهد أبي طالب واحدة ولكن

(١) منهاج البراعة، ٣٣١/٥، ط المطبعة العلمية، ١٣٥٢ هـ.

(٢) ص: ٤٥٤.

الرواة حذفوا بعض التفاصيل التي جاءت في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام ، مع العلم بأن تعددها ممكن بل هو المحتمل بمساعدة قرائن الحال .

وهناك شجرة ثلاثة وردت في تفسير الإمام عن علي بن محمد عليه السلام ، قال : وأما دعائه عليه السلام الشجرة فإن رجلاً من ثقيف كان أطب الناس يقال له : الحارث بن كلدة الثقيفي ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد جئت أداويك من جنونك فقد داويت مجانين كثيراً فشفوا على يدي . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا حارث ! أنت تفعل فعل المجانين وتنسبني إلى الجنون . قال الحارث : وماذا فعلته من أفعال المجانين ؟ قال : نسبتك إياي إلى الجنون من غير محنة منك ولا تجربة ونظر في صدقي أو كذبي . قال الحارث : أوليس قد عرفت كذبك وجنونك بدعواك النبوة التي لا تقدر لها . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : وقولك لا تقدر لها فعل المجانين لأنك لم تقل لم فعلت كذا ولا طالبنتي بحجة فعمزت عنها . فقال الحارث : صدقت ، وأنا أمتحن أملك بأية أطلبك بها إن كنت نبياً فادعوا تلك الشجرة وأشار بشجرة عظيمة بعيد عنهما فإن أتتك علمت أنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشهدت لك بذلك وإلا فأنت المجنون الذي قيل لي .

فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده إلى تلك الشجرة فأشار إليها أن تعالي فانقلعت الشجرة بأصولها وعروقها وجعلت تخد في الأرض خدّاً عظيماً كالنهر حتى دنت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوقمت بين يديه ونادت بصوت فصيح : ها أنا ذا يا رسول الله ما تأمرني ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : دعوتك لتشهدي لي بالنبوة بعد شهادتك لله بالتوحيد ثم تشهدي لعلي عليه السلام هذا بالإمامة وإته سندي وظهري وعضدي وفخري ولولاه ما خلق الله شيئاً ممّا خلق . فنادت أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك يا محمد عبده ورسوله أرسلك بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وأشهد أن علياً ابن عمك هو أخوك في دينك أوفر خلق الله من الدين حظاً وأجزلهم من الإسلام نصيباً وأنه سنده وظهرك قانع أعدائك وناصر أوليائك باب علومك في أمتك وأشهد أن أوليائك الذين يوالونه ويعادون أعداءه حشو الجنة وأن أعداءك الذين يوالون أعداءك ويعادون أوليائك حشو النار .

فنظر رسول الله إلى الحارث بن كلدة فقال : يا حارث ! أو مجنوناً تعدّ من هذه آياته ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ولكنني أشهد أنك رسول رب العالمين وسيد الخلق

أجمعين وحسن إسلامه^(١).

والحارث هذا مختلف في إسلامه ولكن ابن حجر ترجم له في الأصابة وذكر عن رجل من ثقيف قال: لما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم في أولئك العبيد يعني الذين نزلوا إلى النبي ﷺ فأسلموا فاعتقهم، فقال النبي ﷺ: أولئك عتقاء الله وكان ممن تكلم منهم الحارث بن كلدة، قال غيره: وكان فيهم الأزرق مولى الحارث... أقول: ومنهم أبو بكره أخو زياد وكان ولد على فراش الحارث ولكنه نفاه ولم يلحقه بنسبه...

ولم يذكر ابن حجر إسلام الحارث لكن روى رواية عن سعد وفيها احتمال كونه مسلماً وذلك حين أمره النبي بعلاج سعد ولكن ابن أبي حاتم قال: لا يصح إسلامه وهذا الحديث يدل على جواز الإستعانة بأهل الذمة في الطب ولم يترجم له في الإستيعاب وترجم لابنه وسماه الحرث بن الحرث بن كلدة الثقفي وقال: كان أبوه طبيب العرب حكيماً وهو من المؤلفلة قلوبهم معدود فيهم وكان من أشرف قومه وأما أبوه الحرث بن كلدة فمات في أول الإسلام ولم يصح إسلامه^(٢).

ولا أدري ما الذي يعنيه في أول الإسلام؟ فابن أبي أصيبعة ذكر أنه بقي أيام رسول الله وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهم وقال له معاوية: ما الطب يا حارث؟ فقال: «الأزم» يعني الجوع، ذكر ذلك بن جلجل... وفي الحديث أنّ عمر سأل الحرث بن كلدة ما الدواء؟ فقال: الأزم، يعني الحمية قال: وكان طبيب العرب..^(٣)

(١) الخوئي، منهاج البراعة، المجلد الثاني ص ٢٣٣.

(٢) الإصابة، ٢٨٩/١ والإستيعاب مطبوع بالهامش.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٤٥، ط بيروت - دار الكتب العلمية، ١٤١٩. وللحارث كلام في الطب كالم به كسرى، وفيه فوائد مهمة لا بأس بذكرها ليبتغ بها القارئ والخطيب.

كلام الحارث مع كسرى..

من ذلك أنه لما وفد على كسرى أنوشروان أذن له بالدخول عليه، فلما وقف بين يديه منتصباً قال له: من أنت؟ قال: أنا الحرث بن كلدة الثقفي. قال: فما صناعتك؟ قال: الطب. قال: أعربي أنت؟ قال: نعم من صميمها وبحبوحة دارها. قال: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها، وضعف عقلها، وسوء

أعذبتها؟ قال: أيها الملك إذا كانت هذه صفتها، كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ويقيم عوجها، ويسوس أبدانها ويعدل أشاجها، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ويمرّ موضع دائه ويحترز عن الأدواء كلّها بحسن سياسته لنفسه. قال كسرى: فكيف تعرف ما تورده عليها؟ ولو عرفت الحلم لم تنسب إلى الجهل؟ قال: الطفل يناغى فيداوى والحيّة ترقى فنحاوى ثمّ قال: أيها الملك، العقل من قسم الله تعالى قسّمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم فكلّ من قسمته أصاب وخصّ بها قوم وزاد، فمنهم مثر ومعدم، وجاهل وعالم، وعاجز وحازم، وذلك تقدير العزيز العليم.

فأعجب كسرى من كلامه ثمّ قال: فما الذي تحمد من أخلاقها ويعجبك من مذاهبها وسجاياها؟ قال الحرث: أيها الملك! لها أنفُس سخية وقلوب جريئة ولغة فصيحة والسّن بليغة، وأنساب صحيحة وأحساب شريفة يمرق من أفواهم الكلام مروق السهم من نبعة الرام، أعذب من هواء الربيع، وألين من سلسيل المعين، مطعموا الطعام في الجذب، وضاربوا الهام في الحرب، لا يرام عزّهم ولا يضام جارهم، ولا يستباح حريمهم ولا يذلّ أكرمهم، ولا يقرّون بفضل الأنام إلاّ للملك الهمام الذي لا يقاس به أحد ولا يوازيه سوقة ولا ملك.

فاستوى كسرى جالساً وجرى ماء رياضة الحكم في وجهه لمّا سمع من محكم كلامه، وقال لجلسائه: إني وجدته راجحاً ولقومه مادحاً وبفضيلتهم ناطقاً وبما يورده من لفظه صادقاً وكذا العاقل من أحكامته التجارب، ثمّ أمره بالجلوس فجلس فقال: كيف بصرك بالطب؟ قال: ناهيك. قال: فما أصل الطب؟ قال: الأزم. قال: فما الأزم؟ قال: ضبط الشفتين والرفق باليدين. قال: أصبت. قال: فما الجمرة التي تصطلم منها الأدواء؟ قال: هي التخمة وإن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحلّلت أسقمت، قال: صدقت. وقال فما تقول في الحجامة؟ قال: هي في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم فيه، والنفس طيبة والعروق ساكنة، سرور يفاجئك وهمّ يباعدك. قال: فما تقول في دخول الحمام؟ قال: لا تدخله شبعاناً ولا تنشأه أهلك سكراناً ولا تقم في الليل عرياناً، ولا تقعد على الطعام غضباناً وارفق بنفسك، يكن أخرى لبالك وقلّ من طعامك يكن أهنا لنومك. قال: فما تقول في الدواء؟ قال: ما لزمتك الصحة فاجتنبه فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه فإنّ البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت، وإن تركتها خربت، قال: فما تقول في الشراب؟ قال: أطيبه أهناً وأرقه أمراً وأعذبه أشهاً، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً، وتثير عليك من الأدواء أنواعاً.

قال: فأني للحمان أفضل؟ قال: الضأن الفتى والقديد المالح مهلك للأكل، واجتنب لحم الجزور والبقر. قال: فما تقول في الفواكه؟ قال: كلّها في إقبالها وحين أداؤها وأتركها إذا أدبرت وولّت وانقضى زمانها، وأفضل الفواكه الرمان والأنرج. وأفضل الرياحين الورد والبنفسج، وأفضل البقول الهندباء والخس. قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر وشربه بعد النوم ضرر، أفضله أمراً وأرقه أضفاه ومن عظام أنهار البارد الزلال لم يختلط بماء الآحام والأكام تنزل من صرادح المسطان ويتسلل عن الرضراض وعظام الحصى في الأبناع. قال: فما طعمه؟ قال: لا يوهم له طعم إلاّ أنّه مشتق من الحياة. قال: فما لونه؟ قال: اشتبه على الأبصار لونه لأنّه يحكي لون كلّ شيء فيه.

وللحارث هذا ولد اسمه النضر بن الحرث بن كلدة هو ابن خالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الأبحار والكهنة واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جلييلة القدر واطَّلَع

☞ قال: أخبرني عن أصل الإنسان ما هو؟ قال: أصله من حيث شرب الماء يعني رأسه. قال: فما هذا النور في العينين؟ قال: مركَّب من ثلاثة أشياء: فالبياض شحم والسواد ماء والناظر ريح. قال: فعلى كم جبل وطبع هذا البدن؟ قال: على أربع طبائع: المرَّة السوداء وهي باردة يابسة، والمرَّة الصفراء وهي حارَّة يابسة، والدم وهو حار رطب، والبلغم وهو بارد رطب. قال: فلم لم يكن من طبع واحد؟ قال: لو خلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك. قال: فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما؟ قال: لم يجز، لأنهما ضدَّان يقتتلان. قال: فمن ثلاث؟ قال: لم يصلح موافقان ومخالف فالأربع هو الإعتدال والقيام. قال: فاجمل لي الحار والبارد في أحرف جامعه. قال: كلُّ حلو حار، وكلُّ حامض بارد، وكلُّ حريف حار، وكلُّ مر معتدل وفي المر حار وبارد.

قال: فاصل ما عولج به المرَّة الصفراء؟ قال: كلُّ بارد لين، قال: فالمرَّة السوداء؟ قال: لين. قال: والبلغم؟ قال: كلُّ حار يابس، قال: والدم؟ قال: أخرجه إذا زاد وتطفنه إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة. قال: فالرياح؟ قال: بالحقن اللينة والأدهان الحارة اللينة. قال: أفنأمر بالحقنة؟ قال: نعم، قرأت في بعض كتب الحكماء أنَّ الحقنة تنقي الجوف وتكسح الأدوية عنه والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد وأنَّ الجهل كلُّ الجهل من أكل ما قد عرف مضرته ويؤثر شهوته على راحة بدنه. قال: فما الحمية؟ قال: الإقتصاد في كلِّ شيء فإنَّ الأكل فوق المقدار يضيِّق على الروح ساحتها ويسد مسامها. قال: فما تقول في النساء وإتيانهن؟ قال: كثرة غشيانهن رديء وإياك وإتيان المرأة المسنة، فإنَّها كالشئ البالي تجذب قوتك وتسقم بدتك، ماءها سم قاتل ونفسها موت عاجل، تأخذ منك الكل، ولا تعطيك البعض، والشابَّة ماءها عذب زلال، وعناقها غنج ودلال، فوها بارد، وريقها عذب، ريحها طيب، وهنها ضيق، تزيدك قوَّة إلى قوتك، ونشاطاً إلى نشاطك. قال: فأيهن القلب إليها أميل، والعين برؤيتها أضر؟ قال: إذا أصبتها المديدة القائمة، العظيمة الهامة، واسعة الجبين، أناة العرنيين، كحلاء لعساء صافية الخد عريضة الصدر، مليحة النحر، في خدَّها رقَّة، وفي شفتها لعل، مقرونة الحاجبين، ناهدة الشديين، لطيفة الحصر والقدمين، بيضاء فرعاء جمعة، غضة بضة، تخالها في الظلمة بدرأ زاهراً تبسم عن أقحوان، وعن مبسم كالأرجوان، كأنَّها بيضة مكنونة، ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأنزه من الفردوس والخلد، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد، تفرح بقربها وتسرُّك الخلوة معها.

قال: فاستضحك كسرى حتَّى اختلجت كتفاه وقال: ففي أيِّ الأوقات إتيانهن أفضل؟ قال: عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى والنفس أهدى والقلب أشهى والرحم أدنى فإنَّ أردت الإستمتاع بها نهاراً تسرح عينك في جمال وجهها ويجتني فوك من ثمرات حسننها، ويعي سمعك من حلالة لفظها وتسكن الجوارح كلَّها إليها.

قال كسرى: لله درك من أعرابي. لقد أعطيت علماً وخصصت فطنة وفهما، وأحسن صلته بتدوين ما نطق به.

على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلّم من أبيه أيضاً ما كان يعلمه من الطب وغيره .
 وكان النضر يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي ﷺ لكونه كان ثقفياً كما قال
 رسول الله ﷺ : قريش والأنصار حليفان ، وبنو أميّة وثقيف حليفان .

وكان النضر كثير الأذى والحسد للنبي ﷺ ويتكلّم فيه بأشياء كثيرة كيما يحط
 من قدره عند أهل مكة ويبطل ما أتى به بزعمه ولم يعلم بشقاوته أنّ النبوة أعظم
 والسعادة أقدّر والعناية الإلهية أجل والأمور المقدّرة أثبت ...

أقول - والقول لأبي ابن اصبعية :- ولما كان يوم بدر والتقى فيه المسلمون
 ومشركو قريش وكان المقدّم على المشركين أبو سفيان وعدّتهم ما بين التسعمائة
 والألف والمسلمون يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وأيد الله الإسلام ونصر نبيّه
 ووقعت الكسرة على المشركين وقتلت في جملتهم صناديد قريش وأسر جماعة من
 المشركين فبعضهم استنفكوا أنفسهم وبعضهم أمر النبي ﷺ بقتلهم وكان من جملة
 المأسورين عقبه بن أبي معيط والنضر بن الحارث بن كلدة فقتلها عليه السلام عند منصرفه
 من بدر .

التخلص .. قتيله ترثي النضر ..

عن محمد بن إسحاق قال : حدّثني عاصم بن عمرو عن قتادة ويزيد بن رومان
 أنّ رسول الله ﷺ قتل يوم بدر عقبه بن أبي معيط صبراً ... ثمّ أقبل من بدر حتّى إذا كان
 بالصفراء قتل النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي أحد بني عبدالدار فقد أمر عليّاً بن أبي
 طالب عليه السلام أن يضرب عنقه فقالت فتيلة بنت الحرث ترثيه :

يا راكباً إنّ الأثير مظنة	من صبح خامسة وانت موفّق
بلّغ بها ميّتاً فإنّ تحية	ما إن تزال بها النسائم تخفق
منيّ إليه وعبرة مسفوحة	جادت بدرتها وأخرى تخنق
فليسמעنّ النضر إن ناديته	إن كان يسمع ميّت أو ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تمزّق
صبراً يقاد إلى المنية متبعاً	رسف المقيّد وهو عان موثق
أمحمّد ولأنت نسل نجيبة	في قومها والفحل فحلّ معرق
ما كان ضرّك لو مننت وإنّما	منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

والنصر أقرب من أخذت بزلة وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كنت قابل فدية لفديته بأعز ما يفدى به من ينفق

قال أبو الفرج الأصفهاني: فبلغنا أن النبي ﷺ قال: لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتله. فيقال: إن شعرها أكرم شعر موتوره وأعفه وأكفّه وأحلمه... (١)
فإذا كان النبي يرقّ لعدوّه صاحب الإساءات والزلات، كثير الأذى والحسد له الذي يتكلم فيه بأشياء كثيرة كيما يحطّ من قدره عند أهل مكة ويبطل ما أتى به وقد تقدّم ذلك، فما ظنك به لو وقف على الحال التي كانت عليها بناته يوم الطف.. الخ.

المجلس الخامس أبوطالب مؤمن قریش

«.. قفا بمطلع سعدٍ..» (٢)

في مدح سيّدنا شيخ الأبطح عليه السلام

وأمليا شرح شوقي في معانيه	قفا بمطلع سعد عزّ ناديه
ق الحجون واحترسا أن تبهرا فيه	واستقبلا مطلع الأنوار في أف
ونائرات الهدى دلّت مناديه	مغنى به وابل الرضوان منهمر
يروى بديع المعاني في أماليه	قفا فذا بلبل الأفراح من طرب
بحر هناك بديع في معانيه	واستمليا لأحاديث العجائب عن
منه السجايا فلم يفخر مباريه	حامي الذمار مجير الجار من كرمت
عن نصره فتعالى في مرضيه	عم النبي الذي لم يئنّه حسد
موفقاً لرسول الله يحميه	هو الذي لم يزل حصناً لحضرته
وهو الذي قطّ ما خابت أمانيه...	وكلّ خير ترجاه النبي له
وتستعزّ به فخرأ وتطريه	قد خصك الله بالمختار تكلأه

(١) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ص ١٥٢.

(٢) ذكرها علامة العلماء مولانا الأميني رحمته الله في الغدير ٣٨٢/٧ عن أسنى المطالب تأليف زيني دحلان

ولم يذكر قائلها، بل قال: لله درّ القائل:

عנית بالحب في طه ففزت به
 كم شمت آيات صدق يستضاء بها
 من الذي فاز في الماضين أجمعهم
 كفلت خير الورى في يتمه شغفاً
 عضدته حين عادته عشيرته
 فيا سعيد المساعي في متاجره
 مستمطراً منك وزن الخير معترفاً

ومن ينل حب طه فهو يكفيه
 وتملاً القلب إيماناً وترويه
 بمثل ما فزت من طه وباريه
 وبتّ بالروح والأبناء تفديه
 وكنت حائطه من بغى شانيه...
 قد جئت ربك أستهمي غواديه
 بأنّ غرس المنى يعني لصابيه...^(١)

مؤمن قريش

افترقت الأمة في مسألة إسلام أبي طالب ﷺ إلى ثلاث فرق: فرقة قطعت بإيمانه، وفرقة قطعت ببقائه على الشرك، وفرقة توقفت ومن هؤلاء الواقفة عبد الحميد بن أبي الحديد؛ فلم يقطع بإيمان ولا بشرك، وصرّح بذلك في شرح النهج، ولنا كلام مع هذه الفرق الثلاثة.

الفرقة الأولى

وهؤلاء هم الأكثرية من الأمة فقد جزم شيعة أهل البيت على اختلاف آرائهم بإيمان أبي طالب لم يشذّ منهم أحدٌ في السابق أو اللاحق، بل صرّح بعضهم بكفر من قال ببقائه على الشرك، متبعين بذلك من أمروا باتباعه وهم أهل البيت؛ عدل القرآن وترجمانه وكذلك قال بإسلامه الكثير من أهل السنة والجماعة..
 ولهم حول ذلك براهين تأخذ بالأعناق بل لا يمكن تخطيها بحال من الأحوال، وإذا ما حاول متنتع التشكيك بها فقد يستلزم من ذلك أن لا يصحّ شيءٌ ممّا غاب عنّا بل ليس بالإمكان البرهنة على أمر ممكن.

وليس يصحّ في الأدهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولكن ذهب هؤلاء مذهباً فيه غمط كبير لحقّ سيّدنا أبي طالب ﷺ، وذلك حين زعموا أنّه كتم إيمانه رعاية لقريش، لئلا تفقد ثقته به، أو يسقط اعتباره عندها ومن ثمّ

يعسر عليه الإحتفاظ بالشخصية الموثقة بينهم فلا يستطيع الدفاع عن النبي ﷺ، وهذا المذهب يغري الناظر فيه بما عليه من الزبرج بقبوله ولكنه بعيد عن الحقيقة تماماً.

فلم يكتف أبو طالب إيمانه بل صرّح به لقريش وغيرها، وعرفوا منه الإيمان القويم برسالة ابن أخيه وشاهد ذلك شعره الرصين الذي ما فتئ يكشف فيه عن مكتونات قلبه ومطويات ضميره وعن قناعته بهذا الدين الحديد، الذي لا يستطيع الإنسان أن يجحده ويبقى محتفظاً بسلامة عقله ..

وعلمت منه قريش ذلك فصبرت عليه لسببين :

الأول: القدرة الخارقة التي يتمتع بها أبو طالب وهي موهبة من الله ولا بدع أن يودع الله فيه هذا السر لما أراد منه من صيانة الرسالة والرسول وهذه القدرة هي جلب ثقة العدو بالتزام خطة من السلوك حكيمة لا تنأى به عن العدو فيتنكر له كما لا يكون فيها إلباً على الولي فيضرب بحاله، وهذه موهبة مريحة قل من الرجال من وقّ إليها وأبو طالب من هؤلاء القلة .

الثاني: خوف قريش من مضاعفة الضفط على أبي طالب، لئلا يجنح إلى ابن أخيه بكله، وكانوا يعرفون قوام شخصيّة أبي طالب ليس عندهم وحدهم بل في عالم الجزيرة كلّه، وهم على يقين من أنّ أباطال إذا ما أعلن إسلامه للعرب ولأهل الموسم منهم فسوف سيكون ذريعة للناس في قبول هذا الدين والتوجه شطر الإسلام فكانوا هم الذين يدارونه لا العكس .

ولقد أعلن أبو طالب إسلامه بشعره والنظم لا يقل أثراً عن النثر عندهم، إن لم يزد عليه، بل إعلان الإيمان نظماً أوقع في النفس وأدعى إلى تحسّينه وألصق بالدعوة إليه، وسوف نطلعك على شعره الرصين في الفصل الخاص بذلك ولكننا الآن نعطيك نماذج حيّة من نظمه لتعرف صحّة ما نرمي إليه . يقول عليها السلام :

فيا لبني فهرا فبقوا ولم تقم	نوائح قتلى تدعي بالتندّم
على ما مضى من بغيكم وعقوقكم	وأبنائكم في أمركم كلّ ماثم
وظلم نبي جاء يدعو إلى الهدى	وأمرأتى من عند ذي العرش قيّم
فلا تحسبونا مسلميه ومثله	إذا كان في قوم فليس بمسلم...

وهذا اعتراف صريح بإسلامه حيث لم يسلم النبي لأنّ من يسلمه مارق عن هذا

الدين فليس بمسلم، يقول ذلك بعد إقراره بنبوّة النبي ودعوته إلى الهدى ويوجّه رسالة صريحة بالإعتراف بنبوّة النبي وأنه بمنزلة موسى وغيره من الأنبياء .

ألا أبلغا عنّي على ذات بنينها لؤياً وخصاً من لوي بني كعب
ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب
ويقول ﷺ قولاً أشدّ صراحة من سابقه :

نبيّ أتاه الوحي من عند ربّه فمن قال لا يقرع بها سنّ نادم
تطيف به جرثومة هاشميّة تدافع عنه كلّ عات وظالم
وأكثر شعره من هذا القبيل ..

فهل يعتقد رواة السيرة أنّ النفر السابقين إلى الإسلام عبّروا عن إسلامهم وإيمانهم بأبين من هذا وأكثر إيضاحاً؟ لا أظنّ ذلك .

نعم فرق بين بينه وبين غيره ممّن أسلم بالشعر والنثر، فأولئك نثروا إيمانهم وأبوطالب ﷺ نظمه وحينئذ تنشأ مسألة كلامية مشتقة من هذا الكلام وهي: لو أنّ مشركاً في بدء الدعوة أو حتى في هذا الزمن نظم إسلامه نظماً وصيّر صيغة الشهادة شعراً موزوناً مقفى جاذباً غير هازل ألا يكون ذلك إسلاماً له وألا يخرج من الشرك إلى الإيمان؟! وهل يردّ إسلامه عليه ويؤمر بإجرائه نثراً؟! إنّ هذا لا يقول به أحد من العلماء في فرق الإسلام كافة، والجميع على مذهب واحد وهو أنّ ناظم الإسلام شعراً يقبل منه ويحقن به دمه ويصون نفسه وماله وعرضه به، ويؤمر حينئذ بأداء التكليف . وفي عهد أبي طالب لم تكن هناك تكاليف ليؤمر بها، حتّى الصلاة لم تكن فرضت بعد بما في ذلك، صلاة الجنائز، ولذا ما صلّى عليه النبي بعد وفاته لعدم فرض الصلاة يومئذ وبهذا يتبيّن عدم الفرق بين من أسلم نثراً ومن أسلم شعراً.. ولنا عودة إلى شعر أبي طالب ﷺ عند الكلام على دلائل إيمانه .

الفرقة الثانية

ذهبت هذه الفرقة إلى بقاء أبي طالب على الشرك حتّى مات، واستشهدت على مذهبها السقيم بروايات موضوعة، وآيات مأولة فيه تأويلاً باطلاً وسنعرض لذلك إنشا الله ونكشف للمطالع والخطيب عوار هذا القول وبطلانه . على أنّ هذه الفرقة ليست ذات نمط واحد .. وإثما هي أنماط ثلاثة :

النمط الأول: وهم يؤلفون جذور هذه الفرقة وأولئك هم الأمويون وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان الواضع الأول لهذه الأكذوبة والذين تابعوه على ضلاله بعلم أو بجهل .

النمط الثاني: وهم المخدوعون بالأوائل الذين أحسنوا الظن بالسلف فتابعوهم على كل رأي وإن أثبت الواقع عكسه، جرياً وراء قاعدة هم قعدوها وهم الذين ابتلوا بها، فكلفتهم ثمناً باهضاً، وأفقدتهم دينهم؛ من قبيل القاعدة التي لا تقبل عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى سوءاً وضلالةً وهي الحكم على ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم بالتواتر، بحيث جعلوا ذلك حاكماً على الحق والواقع والصدق بل والقرآن أيضاً فنسخوا به المحكم، وأبطلوا الحق، وحرّموا المباح، وأباحوا المحرّم، وعدّلوا الفاسق، وفسّقوا العادل، وصار الإسلام تاريخاً وتشريعاً عند هؤلاء هو عبارة عما اتفق عليه البخاري ومسلم، وفي هذا الإتفاق ما فيه ممّا يندى له الجبين ويخزي الأحرار ويسيء إلى الأبرار، من قبيل الرواية التي رفعها ابن اللعين الأبتري: آل أبي طالب ليسوالي بأولياء ...

وهنا حار بها أهل الدين والعلم منهم فتحبّطوا فيها خبط عشواء كالقاضي عياض، واحتال في التماس الوجوه والتأويلات لها، فلم يأت بشيء وخرج من كل ذلك بيد صفراء، حتّى بعد أن أبدل لفظ آل أبي طالب بآل فلان وزعم أنّ الرواية في آل أبي معيط، فلم يتغيّر من ظلامها شيء وقد أرهقت وجوههم والحمد لله بفترة الكذب والوضع رواةً وناقلين ومصحّحين ومؤيّنين وتبوءوا والحمد لله مقعد الكاذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم متعمداً ...

أقول: لم يحمل القائلين بشرك شيخ الأبطح وحاشاه من ذلك إلا الرواية الضحضاحية التي رواها الشيخان، فلم يجدوا بداً من متابعتها، علماً منهم بأنّ ردّها يقوض هذا البنيان الذي أقاموه لهما وهم وقفوا بين خيارين التفریط بالحق أو التفریط بالقواعد، والضرر الذي يترتب على التفریط الثاني أكثر وأكبر لأنّه ينقض البناء من أسسه، فرأوا التفریط بالحق أهون الشرّين ففرطوا فيه وسيحاسبهم الله عليه ويكون الضحضاخ الذي أرادوه لآل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم ومن نصيبهم إنشاء الله تعالى .

النمط الثالث: وهم الذين أدركوا الحقيقة فاعترفوا بالحق في باطنهم فكان مصيرهم مصير أولئك الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ... لأنهم من جهة ألموا

بالدلائل الثابتة على إيمان أبي طالب التي لا تقبل النقض بخاصة بعد أن عرفوا إجماع أئمة أهل البيت عليهم السلام - وهم أدرى بما في البيت - على ذلك فأمنوا بذلك في سرهم ولكنهم من جهة أخرى خافوا من لوم طائفتهم وطردها لهم وحكمها عليهم بالضلال لأن عند هذه الطائفة نبذ الضلال ضلال لذلك أدخلوا إلى الباطل ظاهراً ولكنهم نافروه في سرهم ، وهذا شعبة من شعب النفاق حمانا الله وإياك منه .

جذور هذه الفرقة

لم يلبس المسلمين الأوائل الشك في إيمان شيخ الأبطح وعرفوا السيدهم حقاً في الإيمان والسبق طيلة حياة النبي وأبي بكر وعمر وعثمان . وبدأت المسئلة تتخذ شكلها السياسي على يدي معاوية بن أبي سفيان وأزلامه ، فأثيرت من جديد وراحوا يبذرون الشك في النفوس حول إيمان أبي طالب ، وما كان عليه السلام ليشكل خطراً عليهم بعد أن توفاه الله إليه ولكن المسئلة تتركز حول أمير المؤمنين ولده .

فقد عمد معاوية كجزء من خطة مدروسة وحبكة محكمة أقام عليها أصل سياسته إلى الحط فيما يزعم من مقام أمير المؤمنين وذلك بكسرتطوق الهيبة والقداسة اللتين أقامهما له الإسلام في الكتاب والسنة واعتمد في سياسته هذه على الوضع واستأجر لذلك وضاعين من الصحابة وغيرهم وأمدهم بالأموال الطائلة ورسم لهم سياسة الوضع على النحو التالي .

الأول: إنكار ما ورد في حق علي من المناقب والفضائل والتشكيك في مواقفه الجهادية مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتهوين ما لا يمكن إنكاره والتقليل من شأنه أو السكوت عنه ، لاحظ أخبار الغزوات المروية عن شيعة معاوية فلن تعثر على ذكر لأmir المؤمنين عليه السلام إلا في القليل النادر وإتلك لتعثر على مناقض لكل موقف ، لا يمكن رده كقتل مرحب اليهودي فإنك واجد إلى جانب الرواية وفيها قتل أمير المؤمنين لمرحب رواية أخرى مركزة وفيها قتل محمد بن مسلمة له وهكذا ..

ثانياً: عمد الوضاع بأمر معاوية طبعاً إلى كل منقبة ثابتة للإمام أمير المؤمنين فوضعوا نظيراً لها في خصومه ، من قبيل سد الأبواب الشارعة في المسجد فقد وضعوا مثلها لأبي بكر ولكن الله فضحهم على يد خلفهم ، وذلك حين نسوا أن بيت أبي بكر لم يكن ملاصقاً للمسجد ليكون له باب شارعاً فيه من ثم جاء الأخلاف

فتملكتهم الحيرة وفزعوا إلى التأويل الغث البارد ولكنهم لم يصنعوا شيئاً والحمد لله غير فضيحة سلفهم وصحَّ فيهم المثل القائل «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون» .

ثالثاً: راحوا يجردون أميرالمؤمنين من مناقبه إلا منقبة ليس في مضمونها سبق على من تقدّمه ليستوي في عيون الأمة بشرأ كسائر الناس وكان شعارهم أفضل الناس أبوبكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ الناس بعد ذلك سواء، وعلى هذا الرأي درج مالك بن أنس ومن تبعه . وانحصر همّ القوم في حذف مشاهدته وستر مواقفه وإنكار مناقبه وصوغ عبارات على لسانه تدلّ على اعترافه بتقدم من سبقه بالخلافة عليه من قبيل : من فضّلني على أبي بكر جلدته حدّ المفترى ، وأمثال ذلك .

ومن هذه الخطة الخبيثة رمي أبويه بالشرك وهم لم يجنوا على أبي طالب وحده بل ألحقوا به أم أميرالمؤمنين ، بل أم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة ابنة أسد صلى الله عليه وآله فزعموا أنّ إسلامها لم يثبت ذكر ، ذلك الحافظ بن حجر في الإصابة في ترجمتها والواقع أنّهم لم يبتدعوا القول بشرك أبي طالب بل أتبعوا أيّمتهم فقد جاء على لسان عمر ذلك ممّا يدلّ على أنّ له ضلعاً في هذه الفرية الظالمة .

عمر يرمي أباطالب بالشرك

روى ابن عباس قال : خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته ، فانفرد يوماً يسير على بعيره فاتبعته ، فقال لي : يا ابن عباس ! أشكو إليك ابن عمّك ، سألته أن يخرج معي فلم يفعل ولم أزل أراه واجداً ، وجرى حوار حادّ بين عمر وبين ابن عباس وفيه قال عمر : يا ابن عباس أريد رسول الله صلى الله عليه وآله (وآله) وسلّم الأمر له فكان ماذا ، إذالم يرد الله تعالى ذلك ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أراد أمراً وأراد الله غيره ، فنفذ مراد الله ولم ينفذ مراد رسول الله ، أوكلّمنا أريد رسول الله صلى الله عليه وآله كان ! أراد إسلام عمّه ولم يرده الله فلم يسلم ..^(١)

وممّا يدعو إلى الحيرة ويحمل المرء المسلم على التسائل هذه النظرة العمرية الخاصة للنبوّة ، من حيث وجود التضاد بين الإرادتين الربانية والنبوية وأنّ النبي أحياناً

(١) راجع ص من هذا الكتاب .

يريد أمراً لا يريد الله وهذا القياس العمري ينتج تفضيل عمر على النبي لأن عمر أتفتت إرادته مع الله واختلفت إرادة النبي والإتفاق أفضل من الإختلاف هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حكى هذا الحوار عن تجذّر الحقد في نفس عمر على أبي طالب ليغضه ولده ، ولما عجز عن غمز شخصية أمير المؤمنين عمد إلى غمزها بالواسطة ، حين جرّد أباه من فضيلة السبق بل رماه بالشرك وكفى به نقصاً لرجل لم يسجل له التاريخ إلا الفضل والشرف . وبقدر ما حطّ من قدر أبي طاب بزعمه رفع من قدر عمر وآله ، لأنّ إرادة الله اقتضت إسلامهم لمّا أبت إسلام أبي طالب ، ولا يكون ذلك إلا لسرّ خاص فيهم .

وهذا أسلوب ناعم خبيث موغل في الفتنة والذم ، لأنّه يحمل السامع على التخبّط في متيه شاسع ، من الظنون والأوهام حول السر الذي أوجد هذا التنافر بين الإرادتين أو بين إرادة الله ردّاً لإسلام أبي طالب بتجريده من البواعث النفسية الداعية إلى الإسلام والسرّ الذي أوجد هذا التوافق بين إرادة الله إسلام عمر ومن هم على شاكلته ، فلا بدّ والحال هذه من وجود خصوصية ممدوحة فيهم وخصوصية مذمومة في أبي طالب لا يعلمها إلا الله .

إنّ هذه النظرة شكّلت الأساس الذي بنى معاوية ، ملكه عليه ، وهي القاعدة القول بالقدر والقضاء وكان معاوية وأعوانه يروّجون لهذه النظرية الباطلة وبالتسليم لها رضيت الأمة بحكمه مكرهةً ، لأنّه قضاء من الله ولا رادّ لقضائه سبحانه ، ولا بدع فعمر بن الخطاب هو واضع التصميم لهيكل الخلافة الأموية المبدوثة بعثمان والمختومة بوهابيّة اليوم .

شبهات الفرقة الثانية حول إسلام أبي طالب ﷺ

الشبهة الأولى

قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾^(١) . زعم هؤلاء أنّ هذه الآية نزلت في أبي طالب ﷺ بعد موته ، ذكر ذلك جلّ المفسّرين إن لم يكن كلّهم ، فقد أرسل

نزولها في أبي طالب الطبري في جزئه الحادي عشر بسنده عن معمر وعن عمر بن دينار، وعن مجاهد، الذي ذكره ابن حبان في الضعفاء..^(١)

وسعيد بن المسيّب عن أبيه وكذلك أشار إلى سبب نزولها ابن كثير في تفسيره والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن والبغوي والرازي في مفاتيح الغيب والثعلبي في الجوهر الحسان وصاحب البحر المحيط فيه وفي الماد وذكر نزولها في أبي طالب عليه السلام الماوردي في النكت والعيون وقال: اختلف في سبب نزولها على ثلاثة أقاويل، وشرع في ذكرها:

الأول: أنها نزلت غبّ استئذانه ربة بالإستغفار والدعاء إلى أمه.

والثاني: أنها نزلت في أبي طالب روى ذلك سعيد بن المسيّب عن أبيه.

والثالث: أنها نزلت في رجل استغفر لأبيه فنهاه الإمام أمير المؤمنين، فاحتج بإبراهيم فنزلت الآية جواباً له.

ولم يحتج الماوردي لأحدها ولكنّه بتأخيره القول الثالث عن سابقه يشعر بترجيحه..^(٢)

وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرج نزولها في أبي طالب ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيّب عن أبيه.

... كما ذكر طريقاً آخر عن محمد بن كعب وقال: أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه وأشار إلى طرق ابن جرير عن عمر بن دينار وسعيد بن المسيّب وقتادة وقال: أخرج ابن سعد وابن عساكر عن علي وساق خبر السياق الذي حضره النبي والعباس وغيرهما وفيه بكاء النبي وقوله للإمام إذهب فغسله وكفّنه وواره غفر الله له ورحمه ثم استغفار النبي له أياماً لا يخرج من بيته إلى أن نزلت الآية كما يزعمون، وليس في الخبر ما أخرجه أبو داود من قوله: «الشيخ الضال» وهذه زيادة إما من الرواة أو من أبي داود نفسه لنزعه الأموية وليس من المعقول أن ينعت الإمام أباه بهذا النعت

(١) شرح الزرقاني على المواهب، ١/١٠٧، ط دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧ ولم أعر على ذكر له في الكتاب المذكور.

(٢) الماوردي، «النكت والعيون»، ٢/٤٠٩، ط بيروت - دار الكتب العلمية.

الجافي مع علمه بأن شرك الأبوين لا يبطل حقوقهما الأدبية بنص الآية الشريفة ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ . وفي الخبر دلالة قوية على إسلام أبي طالب حيث أمر النبي ﷺ الإمام وهو مسلم بتجهيزه بجهاز الإسلام من غسل وكفن ودفن ، ولو كان مشركاً لأحال أمره إلى ولديه الكبيرين المشركين طالب وعقيل .

وذكر السيوطي أيضاً سند ابن سعد وأبي الشيخ وابن عساكر إلى عمر بن الخطاب عن سفيان بن عيينة ، وهنا لابد من الإشارة إلى أنّ عمر ممن شارك في هذه الأكذوبة كما مرّ عليك في هذا الفصل بل كان من السابقين إلى وضعها والمروجين لها لغاية في نفسه طبعاً .

وساق طريقاً آخر لابن سعد وإسحاق بن بشير عن الحسن ، وذكر أسباباً أخرى لنزول الآية لسنا بحاجة إلى ذكرها الآن^(١) .

والشوكاني أشار إلى كثرة طرقها ولكنّه أعلّمها جميعاً بالإرسال قال : منها عن محمد بن كعب عند أبي حاتم وأبي الشيخ وهو مرسل ، ومنها عن عمر بن دينار عند ابن جرير وهو مرسل أيضاً ، ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساكر وهو مرسل ، وسكت عن طريق عمر عند ابن سعد وأبي الشيخ وابن عساكر^(٢) .

والسؤال الملحّ هنا هو كيف اعتبر الحديث عن ابن المسيّب عند ابن جرير مرسلًا وهو يرويه عن أبيه^(٣) والمسيّب وأبوه حزن من مسلمة الفتح ..^(٤) ولعلّ الإرسال يعود إلى أبيه لأنة كان يومئذ على الشرك ، ولم يحضر نزاع أبي طالب ﷺ خلا أنّ الصحابي يعتبر حديثه موصولاً عندهم وإن أرسل .

وإذا صحّ ما ذهب إليه الشوكاني يكون الحديث عند البخاري مرسلًا أيضاً وحينئذ تدور الحال بين إرسال حديث البخاري فتنزل درجته أو رفع حديث ابن جرير وقد نصّ هؤلاء العلماء على إرساله ؟

نقول : هذا بناء على مذهب القوم ، أمّا على مذهبننا فالعلم الضروري حاصل لنا بإيمان أبي طالب ﷺ بل بسبقه إلى الإيمان وردّ الروايات الدالة على خلاف ذلك ،

(١) السيوطي ، الدر المنثور ، ٣/٢٨٢ ، ط بيروت - دار المعرفة ؛ والشوكاني ، فتح القدير ، ٤١١/٢ .

(٢) الشوكاني ، فتح القدير . ٤١١/٢ .

(٣) ابن حجر ، «الإصابة» ، ج ٣ .

(٤) المزني ، تهذيب الكمال ، ٧/٢٩٨ و ٤٢٠ .

لوضعها ما في ذلك ريب وسنوقفك على حقيقة الحال إنشاء الله تعالى .

وقفة حساب مع الألويسي

عرفت من نفسي منذو زمن مبكر احترام العلماء وإن كانوا على غير مذهبي . أتذكر ذات يوم وأنا أنصت إلى إحدى نشرات الأخبار، إذ قطع المذيع أخباره ليعلن للملأ عن اغتيال الدكتور صبحي صالح عليه الرحمة، فأحسست بهبوط مفاجئ في كل قواي، واعرترني موجة من الدهشة مصحوبة بكآبة شديدة، وهرعت إلى البكاء، وأرقت الدموع، وعزفت عن الكلام ولم أنتفع بيومي بعدها، وهجرت النوم لا حزناً على الصالح وحده وإن كان جديراً بالحزن والأسى بل على الأمة الجاهلة التي تجعل علمائها ثمناً لمأرب دنيء سافل ولم تحل إساءات الصالح للشيعية والتشيع دون ذلك . ولكنني في قبال هذه الحسنه أضيق ذرعاً وامتلاً نفوراً ومقتاً للعالم الذي تنضح له الحقيقة بإشراقاتها المبهجة ثم تراه يزور عنها ويجنح مع الباطل اقتداءً بسنة جائرة، أو أتباعاً لقاعدة باطلة خشية أن يتعرض لطائلة اللوم والعنت من أبناء جلده أو يغمز في دينه وعقيدته .

فهذا الألويسي صاحب التفسير المسمى بروح البيان وهو تفسير نافع إلى حد ما، تراه وهو العالم بحقيقة أبي طالب عليه السلام وصحة يقينه وثبوت إيمانه يتبع أثر الجمهور أتباع الفصيل إثر أمه، وإن وطئ الحق بسنابك الباطل وجار واعتدى على الحقيقة . فقد قال عند ذكره آية استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والآية في الصحيح نزلت في أبي طالب، ثم ذكر من أخرجها من الجماعة إلى أن قال: ... واحتج بهذا ونحوه من أبياته المتضمنة للإقرار بحقيقة ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم وشدة حنوه عليه ونصرته له صلى الله عليه وآله وسلم الشيعة الذاهبون إلى موته مؤمناً وقالوا: إنه المروي عن أهل البيت وأهل البيت أدرى ...

وأنت تعلم قوة دليل الجماعة فالاعتماد على ما روي عن العباس دونه مما تضحك منه الثكلى والأبيات على انقطاع أسانيدھا ليس فيها النطق بالشهادتين وهو مدار فلك الإيمان وشدة الحنو والنصرة مما لا ينكره أحد إلا أنها بمعزل عما نحن فيه، وأخبار الشيعة عن أهل البيت أو هن من بيت العنكبوت وإنه لأوهن البيوت^(١) .

(١) الألويسي، روح المعاني، ٣٣/١١، بيروت - دار إحياء التراث، رابعه ١٤٠٥ .

وللرد عليه نقول: يسفّ العالم في عقله عندما يهبط إلى درك الإتياع والتقليد ويترك ورائه نور العقل ظهرياً لا يهتدي به، وللشيعة حجج دامغة في إثبات إيمان أبي طالب لا يتخطأها إلا جاهل عنيد أو متعصب بليد، وقد كتبوا في ذلك الكتب المستقلة، وحرّروا البحوث المعمّقة كما فعل مولانا الأمين عليه السلام في كتابه الخالد «الغدير» الجزء الثامن والسابع ونرشد من أراد الإطلاع على أسماء الكتب بالرجوع إلى الثبت الذي حرّره العلامة المحقق السيّد محمد صادق بحر العلوم في مقدمته على الطبعة الأولى لكتاب «الحجّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب» لفخار بن معد الموسوي عليه السلام، وقد أحصى سيّدنا الصادق عشرين مؤلفاً شاهد سبعة منها بعينه^(١)، وقد أعذر مؤلفوها إلى الله في الدفاع عن ساحة قدس هذا السيد المظلوم عليه السلام وأثبتوا بما لا يقبل الشك إيمانه عقلاً ونقلاً، أكمل هذه الكتب قرأها الألووسي؟ أو قرأ بعضها؟ أكاد أجزم أنّ الرجل لم يعلم بتأليفها فضلاً عن قرائتها!! فإذا نطق بما يخالف الحق فيجهل نطق، والجهل ذميم.

أمّا الحديث عن قوّة دليل الجماعة فأقول له: إنّ هذه القوّة المزعومة ترجع إلى أمر واحد وهو إخراج الشيخين لها ولولاها لكانت هباءً منثوراً، فهما اللذان صيّرهما قوّة لا تقهر في مقابل كلّ نقل وعقل، بل حكما على العقل بالجمود وأبطلاً مفعوله، فلا يمكن له أن يخترق الهالة التي دارت على كتب الشيخين، وإن خالفا بها المسلّمات الضرورية، وزعموا لهما أنّ حسن اختيارهما وتشدّدهما في الرواية واتّخاذهما شروطاً صارمة في الراوي هذه كلّها جعلت لكتابتيهما القيّمة المسلّمة لكننا لانجد لهذه المزاعم عيناً ولا أثراً.

فقد خالف الشيخان شروطهما في أكثر الروايات التي أطلقوا عليها «الصحيح» وما هي منه طبقاً لموازينهما المعتمدة ومنها إخراج البخاري لرواية سعيد عن أبيه المسيّب، وقد انفرد بالرواية عنه ومن شرط البخاري عدم إخراجه رواية كهذه ولكنّه خالف شرطه وأخرجها، لأنّها تخدم غرضاً أمورياً مهماً وهو رمي أبي طالب بالشرك وعلى هذه قس العشرات بل المئات من صحيحه وصحيحه شقيقه القشيري.

كما أنّهما خالفوا شروطهما في الراوي وتجاوزا قواعدهما، وخلفاها ورائهما

ظهرياً، وراحا يرويان عن مثل مروان بن الحكم والوليد وبسر بن أرطاة هؤلاء من الصحابة كما يزعمون وهم من لا يشك في جرحهم بل فسقهم مسلم كما سمى النبي مروان والصحة ما هي نبوة ولا عصمة . نعم ويروون عنهم مثل عمر بن سعد وهو الذي سفك دم الحسين ومثل عتبة بن العاص وهو سمير الحجاج ، كيف عدالة سمير الحجاج ؟

نعم ؛ وأما الرجال في الصحيحين فقد علمتم ما قيل فيهم ، قال الذهبي ناقلاً عن القطان بعد كلامه في الصحيحين : خلق مستورون ما وثقهم أحد وهم مجهولون ، وهذه عبارة متناقضة فإنّ المستور هو المجهول .

وقال الذهبي في ترجمة يحيى الرمادي : في رجال الصحيحين خلق ما علمنا أنّ أحداً وثقهم .

وقال صاحب التّريب ناقلاً عن القطان : إنّ المجهول لم يثبت لنا بعد أنّه مسلم فهذه الروايات مملوءة بها الصحيحان عن مروان وغيره وكيف يرتب حكم تلقى الله به على مثل رواية مروان^(١) .

إنّ القوم وفيهم الألويسي اعتمدوا في تكفير أبي طاب على كتاب مثل هذين الكتابين ، وهما في الواقع بيت العنكبوت الذي تحدّث عنه لا من يروي عن أهل بيت النبي الثقل الأصغر وعدل القرآن ، فأين تكمن قوّة دليل الجماعة في مثل هذا لبيت شعري ؟!

وأما اعتمادنا على ما روي عن العباس عليه السلام من نطق أبي طالب بالشهادة وهو في النزاع فإنّ هذه الرواية رويت من طرقهم المعتبرة ولكن الألويسي مبالغته منه في دحضها رواها من أضعف طرقها عن ابن إسحاق في سيرته عن العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من خبر طويل ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي طالب في مرض موته وقد طمع فيه : أي عم ! فأنت فقلها ، يعني لا إله إلا الله أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة وحرص عليه عليه الصلاة والسلام بذلك فقال : والله يا ابن أخي لولا مخافة السبّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظنّ قريش أنّي

(١) راجع على سبيل المثال كتاب ذخائر علماء اليمن ص ٦٤ ط بيروت مؤسسة دار الكتاب الحديث ، ط أولى ١٤١٠ .

إنما قتلها جزعاً من الموت لقلتها ولا أقولها إلا لأمرك بها فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفيته فأصغى إليه بأذنه فقال: .. يابن أخي لقد قال أخي التي أمرته أن يقولها. فقال له ﷺ: لم أسمع^(١).

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: روي بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس وبعضها عن أبي بكر ابن أبي حنيفة أن أبا طالب ما مات حتى قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ والخبر مشهور أن أبا طالب عند الموت قال كلاماً خفياً فأصغى إليه أخوه العباس ثم رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يابن أخبي والله لقد قالها عمك لكنه ضعف عن أن يبغلك صوته..^(٢)

وتعقب هذه الرواية السهيلي بعد أن ثبت عنده صححتها فقال: شهادة العباس لأبي طالب لو أداها بعد ما أسلم كانت مقبولة، ولم يُردِّ بقوله لم أسمع لأنَّ الشاهد العدل إذا قال: سمعت وقال من هو أعدل منه لم أسمع أخذ بقول من أثبت السماع لأنَّ عدم السماع يحتمل أسباباً منعت الشاهد من السمع ولكنَّ العباس شهد بذلك قبل أن يسلم...^(٣)

ولا دليل على عدم إسلام العباس ﷺ بل قرائن الحال تدلُّ على إسلامه لذلك اهتمَّ بشهادة أبي طالب ولو لم يكن مسلماً لما عناه من أمره ذلك. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنَّ شهادة العباس لأبي طالب مع فرضه مقيماً على الشرك أدلُّ على إسلام أبي طالب منها عليه لو كان العباس مسلماً، إذ واقع الحال يشير إلى أنه لو لم يسمعها لما أداها إذ ما حاجة المشرك إلى الشهادة لمشرك آخر بالإسلام؟

هذا مع كون العباس مسلماً ولكنه يستخفي بها خوفاً من قريش كسائر بني هاشم إلا من ندر منهم كأبي لهب، ولعلَّ الدليل على إسلامه ثابت من بقاء لبابة أم الفضل زوجته على حبالته مع أنها أسلمت بعد خديجة وإن تأخرت هجرتها حتى قال ابنها عبدالله: كنت وأمِّي من المستضعفين من النساء والولدان، ولو كان العباس مشركاً لما أقرَّها النبي على نكاحه يعاشرها معاشرة الأزواج لزوجاتهم.

(١) روح المعاني، ٣٣/١١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤١٨/٢، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) إيمان أبي طالب، ص ٢٧٣، هامش بحرالعلوم نقلاً عن شرح ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٣١٢.

(٣) الروض الأنف، ١٧٠/٢.

بعد الذي مرّ ينبغي أن يضاف إلى الرد: أنّ القائلين بإيمان شيخ الأبطح لم يعتمدوا على ما روي عن العباس دون دليل الجماعة اعتباطاً وجزافاً من القول، بل نقدوا المسئلة نقد الصيرفي الحاذق للذهب فعرفوا الجوهر من البهرج والقوة من الضعف.

أمّا الأبيات التي زعم أنّها منقطعة الأسانيد وليس فيها الإقرار بالشهادتين وعليهما يدور فللك الإيمان، نقول: هذه الأبيات تواترت معنىً إن لم تتواتر لفظاً، قال ابن أبي الحديد: «... فكلّ هذه الأشعار قد جاءت مجيء التواتر لأنه إن لم يكن أحادها متواترة فمجموعها يدلّ على أمر واحد مشترك وهو تصديق محمد صلى الله عليه وآله ومجموعها متواتر كما أنّ كلّ واحدة من قتلات علي عليه السلام الفرسان منقولة أحاداً ومجموعها متواتر يفيدنا العلم الضروري بشجاعته وكذلك القول فيما روي من سخاء حاتم وحلم الأحنف ومعاوية وذكاء أبياس وخلاعة أبي نؤاس وغير ذلك.

قالوا: واتركوا هذا جانباً ما قولكم في القصيدة اللامية التي شهرتها كشهرة قفانك، وإن جاز الشك فيها أو في شيء من أبياتها جاز الشك في قفانك وفي بعض أبياتها.. (١)

ثمّ إنّ شيعة أبي طالب وأولاده عليهم السلام لم يستندوا على الحنو والنصرة في إثبات إيمانه بل جعلوهما معربين عمّا يختفي ورائهما من التصديق بنبوّة النبي صلى الله عليه وآله فعرفوا أنّ هذا الحب الغامر والودّ الطاهر الذي تجاوز حدوده الطبيعية لا يعمر إلاّ صدور المؤمنين والآن لا بدّ من أنّ القارىء عرف بيت العنكبوت أين هو إنّه البيت الذي تارجح بين أشواك الشجرة الملعونة، والشيعية قوم تعلقوا بالبيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، وأذن أن يرفع ويذكر فيه اسمه.

في رحاب آية الإستغفار

﴿ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنّهم أصحاب الجحيم ﴾ * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها

(١) الغدير، ٧/٣٤٠ نقلاً عن شرح ابن أبي الحديد ٢/٣١٥.

إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴿^(١)﴾.

الآية الأولى قال الماوردي: اختلف في سبب نزولها على ثلاثة أقاويل: أحدها ما روي عن مسروق عن ابن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فواجه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا فقال: ما أبكاكم؟ قلنا: بكينا لبكائك، قال: إن القبر الذي جلست عنده قبر أمنة وأني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، وأني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل الله علي: ﴿وما كان للنبي والذين معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾ الآية، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة.

والثاني: أنها نزلت في أبي طاب، روى سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أباطالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال ﷺ: أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال له أبو جهل وعبدالله بن أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فكان آخر شيء كلمهم به أن قال: أنا على ملة عبدالمطلب. فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية.

والثالث: أنها نزلت فيما رواه أبو الخليل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ قال: أولم يستغفر إبراهيم لأبويه؟ فذكرته للنبي ﷺ فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين..﴾ ^(٢).

ويعيننا في بحثنا من هذه الأقاويل الثلاثة الثاني، ومداره على ثلاثة سعيد بن المسيب والزهري وأبو بكر محمد بن مسلم بن عبيدالله، وعمرو بن دينار.. ^(٣) والزهري وابن دينار يرويان عن سعيد بن المسيب فمداره حينئذ عليه وحده ^(٤) وهو يرويه عن أبيه والرواية ساقطة من وجوه وسنعرض لبعضها إنشاء الله ولكن

(١) التوبة: ١١٣ - ١١٤.

(٢) النكت والميون، ٤٠٩/٢ و ٤١٠.

(٣) ابن حبان، البحر المحيط، ١٠٤/٥.

(٤) المزني، تهذيب الكمال، ٢١٥/١٤ و ٢٢٠/١٧، ط بيروت - دارالفكر، ١٤١٤.

إخراج البخاري وسلم لها جعل القوم يحتالون إلى درجة التهافت في إثباتها وإليك الرواية ومن أخرجها:

راجع كتاب «الصحيح من أسباب النزول» ص ١٢٥ و ١٢٦: عن ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده وساق الرواية إلى آخرها بلفظ البخاري إلى أن قال: الحديث أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه ١٩٤/٨ وفيه: فنزلت ﴿ ما كان للنبي ﴾ الآية ونزلت: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ و ٤١١/٩ و ١٢٤/١٠، وأخرجه مسلم ٢١٤/١، والنسائي ٧٤/٤، وأحمد ٤٣٣/٥، وابن جرير ٤١/١١، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٩٧ و ٩٨، وابن أبي حاتم ١٠٢/٤.

وهؤلاء جميعاً إن حَقَّقْت أخرجوها عن راوٍ واحد هو سعيد بن المسيب وسنطلعك على حاله إن شاء الله تعالى.

والآية يحيل العقل والنقل نزولها في أبي طالب؛ أما العقل فللوجه التالية: أولاً: سبق من الله سبحانه أن أنزل على النبي ﷺ آية محكمة وفيها نفي المغفرة عن المشرك فقد قال تعالى: ﴿ ... إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ... ﴾ فكيف يطلب النبي ﷺ المغفرة لمن سبق من الله نفي ذلك عنه.

ثانياً: إن الله سبحانه أخبر عن دخول المشرك النار فإذا طلب النبي المغفرة للمشرك فكأنه طلب من الله أن يخلف وعده وهذا لا يجوز في حقه.

ثالثاً: قضى الله سبحانه أنه يعذب المشركين ويبن ذلك في آيات كثيرة من كتابه العزيز فلو طلب النبي المغفرة لهم لردّ طلبه لأنه لا يغيّر القضاء وهذا يؤدي إلى نقصان درجته وخطأ منزلته.

رابعاً: قال الله تعالى: ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وقال: ﴿ إنهم أصحاب الجحيم ﴾ فهذا الإستغفار يوجب الخلف بأحد هذين النصين وهذا ما لا يفعله النبي ﷺ.

«ما كان» للنفي أو النهي

وتبقى مسألة أخرى تتفرّع عما تقدّم وهي قوله تعالى: «ما كان» فإنها في القرآن تأتي على وجهين: على النفي نحو قوله تعالى: ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ و ﴿ ما كان لنفس أن تموت ﴾ والآخر بمعنى النهي كقوله تعالى: ﴿ ما كان لكم أن تؤذوا رسول

الله ﴿

أما «ما كان» في آية الإستغفار ففيها قرينة عقلية صارفة عن إرادة النهي وحينئذ يكون المعنى والله العالم إخبار بالنفي عن حال النبي ﷺ والذين آمنوا من عدم الإستغفار للمشارك للمحاذير مارة الذكر فلا تكون إلا للنفي وعليه فلا يصح نزولها في أبي طالب بشهادة العقل السليم .

وأما النقل : فإن الآية من سورة التوبة وهي بالإجماع آخر ما نزل من القرآن : قال ابن حجر: حدّثنا الوليد حدّثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء رضي الله عنه يقول : آخر آية نزلت ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ وآخر سورة نزلت براءة ^(١) . ومات أبو طالب رضي الله عنه في عنفوان الإسلام والنبي ﷺ بمكة ولذلك استبعد الحسين بن الفضل نزولها في أبي طالب بأنّ موت أبي طالب قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة ..

وردّ عليه الواحدي بقوله : وهذا الإستبعاد مستبعد فأني بأس أن يقال كان عليه الصلاة والسلام يستغفر لأبي طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول الآية فإنّ التشديد مع الكفار إنّما ظهر في هذه السورة واعتبر الأوسي الفاء للسببية لا للتعقيب ، وعليه لا بدّ من وجود فاصل زمني بين النزول وسببه ، وأعجبه قول الواحدي وكأنّه أخرجه من مأزق .

والواقع أنّه مأزق موحش ، وجد بقول الواحدي من سمّاهم جلة العلماء عنه متنفساً وقال : وهو - أي قول الواحدي - وجه وجهه .. ^(٢) إلا أنّ الرواية الثالثة التي أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن علي كرم الله وجهه أعادتهم إلى المأزق مرّة أخرى ، قال الإمام رضي الله عنه : ... أخبرت رسول الله ﷺ بموت أبي طالب ، فبكى ، فقال : اذهب فغسله وواره غفر الله له ورحمه ، ففعلت وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً لا يخرج من بيته حتّى نزل عليه جبرئيل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية ﴿ ما كان للنبي .. ﴾ الآية ، يقول الأوسي :

فإنّه ظاهر في أنّ النزول قبل الهجرة لأنّ عدم الخروج من البيت فيه مغيباً به اللهم

(١) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ١٦٧/٨ .

(٢) روح المعاني ، ٣٣/١١ .

إلا أن يقال بضعف الحديث لكن لم نر من تعرّض له ..^(١) وكأنّ الألوّسي يفصح عمّا يخبيئ قومه من التلاعب بالسنن الصحيحة من أجل إثبات باطلهم ، فلا بدّ من تضعيف الحديث وإن كان صحيحاً من أجل إثبات ما يناقضه من مروياتهم ، والرواية أخرجه أبو داود وفيها لفظ «الشيخ الضال» وهو تحريف للكلام إمّا منه لترعته الأموية أو من الرواة الذين نقل عنهم وسنعود لذكره مرّة أخرى .

والبأس الذي نفاه الواحدي فيما تقدّم قائلاً: وأيّ بأس أن يقال ... الخ فإنّ القرآن يثبت هذا البأس بأياته البيّنات يقول مولانا الأمين عليه السلام :

إنّ آية الإستغفار نزلت بالمدينة بعد موت أبي طالب بعدة سنين تربو على ثمانية أعوام فهل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلال هذه المدّة يستغفر لأبي طالب عليه السلام بأخذه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : والله لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك ؟ وكيف كان يستغفر له وكان هو والمؤمنون ممنوعين عن موادّة المشركين والمنافقين وموالاتهم والإستغفار لهم - الذي هو من أظهر مصاديق الموادّة والتحابب منذو دهر طويل بقوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ويأدهم بروح منه ﴾ . هذه الآية ٢٢ من سورة المجادلة المدنيّة النازلة قبل سورة البرائة التي فيها آية الإستغفار بسبع سور كما في الإتيان ١٧/١ وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبو نعيم والبيهقي وابن كثير كما في تفسيره ٣٢٩/٤ وتفسير الشوكاني ١٨٩/٥ وتفسير الألوّسي ٣٧/٢٨: إنّ هذه الآية نزلت يوم بدر وكانت في السنة الثانية من الهجرة الشريفة أو نزلت على ما في بعض التفاسير في أحد وكانت في السنة الثالثة فاتفق الجمهور كما قال الحلبي في السيرة ، فعلى هذه كلّها نزلت هذه الآية قبل آية الإستغفار بعدة سنين .

ويقوله تعالى : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ . هذه الآية ١٤٤ من سورة النساء وهي مكية على قول النحاس وعلقمة وغيرهما ممّن قالوا: إنّ قوله تعالى يا أيها الناس ، حيث وقع إنّما هو مكي ، وإن أخذنا بما صحّحه القرطبي في تفسيره أو ذهب إليه الآخرون من أنّها مدنيّة أخذاً بما في صحيح البخاري من حديث عائشة ما نزلت سورة النساء إلا وأنا

(١) روح المعاني ، ٣٣/١١ .

عند رسول الله ﷺ فإنها نزلت في أوليات الهجرة الشريفة بالمدينة وعلى أي من التقديرين نزلت قبل سورة آية الإستغفار «البراءة» بإحدى وعشرين سورة كما في الإتيان ١٧/١ .

ويقوله سبحانه : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة ﴾ هذه الآية ١٣٩ من سورة النساء وقد عرفت أنها نزلت قبل براءة .

ولقوله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾ . هذه آية ٢٨ من سورة آل عمران نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في أوائل الهجرة الشريفة يوم وفد نجران كما في سيرة ابن هشام ٢٠٧/٢ وأخذها بما رواه القرطبي وغيره ، نزلت هذه الآية في عبادة بن الصامت يوم الأحزاب وكانت في الخمس من الهجرة وعلى أي التقديرين وغيرهما نزلت آل عمران قبل البراءة ، سورة آية الإستغفار بأربع وعشرين سورة كما في الإتيان ١٧/١ .

ويقوله تعالى : ﴿ سواء استغفر لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ وهي الآية السادسة من المنافقين نزلت عام غزوة بني المصطلق سنة ست وهو المشهور عند أصحاب المغازي والسير كما قاله ابن كثير ونزلت قبل البراءة بثمان سور كما في الإتيان ١٧/١ .

ويقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

ويقوله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ وهذه وما قبلها آيتا ٢٣ و ٨٠ من سورة التوبة نزلت قبل آية الإستغفار .. أترى النبي ﷺ مع هذه الآيات النازلة قبل آية الإستغفار كان يستغفر لعمه طيلة مدة سنين وقد مات كافراً - العياذ بالله - وهو ينظر إليه من كتب لاها الله حاشا نبي العظمة .. (١)

ولست أدري أن كان الواحدي قرأ هذه الآيات وهو يجبر أسبابه أو أنه لم يقرئها فنفى البأس وهي تثبتة ، ولكنّ القوم مقلّده يتبع أحدهم إثر صاحبه ، وإن أفضى به إلى الضياع .

إصرار على الباطل ..

مع وضوح الحق لكل عين ناظرة لا يزال القوم مصرّين على نزول الآية في أبي طالب عليه السلام ولما أعياهم التملص من الإشكال والتخلص من الحجج الدامغة زعموا أنّ الآية وإن تأخر نزولها هذه المدّة الطويلة فهي في أبي طالب ولا مانع من بقاء النبي على الإستغفار لعمّه هذه المدّة الطويلة حتّى نهاه الله سبحانه بأية الإستغفار، وقد كشفنا زيف هذا المذهب قبل قليل .

وزعموا أنّ الآية نزلت مرّتين ، يقول الدكتور صبحي الصالح وهو يستعرض الزمن بين النزول وأسبابه وأنّ بعض ما زعموه سبباً للنزول يستحيل جمعه مع النزول قال : لا يمكننا الجمع هاهنا بين الروایتين لتباعد الزمن بين الحادثتين إلى أن يقول : فلا بدّ من القول بتعدد نزول الآيات .

ومن ذلك ما يرويه البخاري واللفظ له عن المسيّب : لمّا حضرت أباطالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي عمّ قل لا إله إلاّ الله أحاجّ لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : يا أباطالب ! أتربغ عن ملّة عبدالمطلب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك ، فنزلت ﴿ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إنّه بهم رؤوف رحيم ﴾ .

وهذه الآية من سورة التوبة نزلت في المدينة آخر الأمر باتفاق مع أنّ وفاة أبي طالب كانت في مكة ، ومن ذلك سورة الإخلاص فقد ورد أنّها جواب للمشركين بمكة وجواب لأهل الكتاب بالمدينة ولا مانع من تعدد النزول . قال الزركشي في البرهان : وقد ينزل الشيء مرّتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه كما قيل في الفاتحة نزلت مرّتين مرّة بمكة وأخرى بالمدينة ...^(١) ونجيبه أولاً : الأصل عدم تكرار النزول .

وثانياً : لو تكرّر نزول الآية لاعتبرت آيتين لا آية واحدة ولا نقض علينا فيما زعموه من تكرار نزول بعض السور ، لأنّ ذلك لو صحّ لما تعلّق غرض معتدّ به من

(١) مباحث في علوم القرآن، ص ١٤٤ و ١٤٥ .

كتابتها مرتين بعد أن أغنت بكتابتها في المرة الأولى .

لا يقال: إنَّ هذا أيضاً يصدق في الآية المكررة ونقول: لما جرت العادة برسم الآية النازلة مرتين في المصحف علمنا أن ذلك جرى لغرض فهمه الجامع الأول ويتركه رسم السورة مرتين ثبت لدينا عدم وجود الغرض بالقرينة الحالية . ومضافاً لما تقدّم لم يؤثر عن أحد من علماء الإسلام القول بنزول آية الإستغفار مرتين وما ذكره الدكتور صبحي ما هو إلا محاولة للتخلّص من المأزق الذي وقع فيه أصحاب الصحيح ، وإيجاد المخارج لهم من هذه المزالق التي صنعتها أيديهم للأمة انسياقاً وراء الأهواء النفسانية المضلّة وها هم تتقلّب بهم المذاهب ذات اليمين وذات الشمال ليوطئوا لنزول الآية في أبي طالب ﷺ صيانةً لماء وجه الأوائل الذين روى الموضوعات أو اختلقوها ، وإبقاءً على القواعد التي كان الغرض الأساسي لوضعها هو إغلاق الأبواب في وجه حجج الخصم أو اختيار الأبعد فالأبعد عن مذهب أهل البيت أو الأكثر عداءً لهم .

استمع إلى المراغي كيف يحتال كلاعب الشطرنج في التماس الوجوه والمخارج ليثبت نزول الآية في شيخ الأبطح عليه الصلاة والسلام ، ارجع إلى تفسير الآية من تفسيره تدرك سرّاً ما قلت لك .

والقضية إن حَققت ذات بعدين :

الأول: أنها اكتسبت صفة القداسة فلا تمكن مناقشتها على ضوء العقل والقضايا المسلمة ، لأنّ العقول تراجعت عمّا رواه الشيخان البخاري ومسلم ولا بدّ من استسلامها للمخاريق بأيّ ثمن كان !

الثاني: أنّ سعيداً بن المسيّب راويها عن أبيه وناهيك به عند القوم ، لا لفضل يذكر في ذاته ولكن للصوقه بعمر بن الخطاب لأثمه : ولد في إمارة عمر وكان ابن عمر يرسل إليه في أحاديث عمر ، لأنّ سعيداً كان قد نصب نفسه لقول عمر فلم يجزه إلى غيره هكذا كان يقول الإمام مالك (١) .

ونحن لا مناص لنا من اختراق حمى سعيد بن المسيّب لنعرفه على حقيقته ومن ثمّ نعرف مبلغ الرواية عنه من الصدق ولا يتمّ ذلك لنا إلا بتعريفه وإن طال الحديث .

سعيد بن المسيّب

هو سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن مخزوم بن يقظة أبو محمد القرشي المخزومي ، هكذا ساق نسبه المؤرخون^(١) .
نال من المنزلة ما لم ينله أحد بحيث صار عند سليمان بن موسى : أفقه التابعين ،
وعند ابن حبان : فقيه الفقهاء ، وعند مهران : أعلم أهل المدينة ، وقال علي بن المديني :
هو عندي أجلّ التابعين ، وعند ابن حنبل : أفضل التابعين ، وعند أبي زرعة : ثقة إمام ،
وختاماً قال في نعتة الحافظ المزي : مناقبه وفضائله كثيرة جداً .

السرف في رفعه ..

وحين نستجلي السرف في بلوغه القمّة الخيالية فإننا سنعثر عليه حتماً في شدة
لصوقه بعمر بن الخطاب كما سبق ، من ثمّ كان يسمّى : راوية عمر بن الخطاب .
قال الليث : لأنّه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته ..^(٢)
وسئل ابن حنبل عنه هل هو حجة عن عمر ؟ فقال^(٣) : عندنا حجة ، قد رأى عمر
وقد سمع منه وإذا لم يقبل سعيد عن عمر فمن يقبل .

سماعه من عمر ..

اتفقت كلمة المؤرخين أنّ سعيداً لم يسمع من عمر بل رآه فحسب لأنّه ولد بعد
سنتين من خلافة عمر وقيل بعد أربع وعلى التقدير الأول يكون عمره يوم قتل عمر لم
يتجاوز الثامنة من عمره ولذا قال الواقدي : لم أر أهل العلم يصحّحون سماعه من عمر
وإن كانوا قد رووه^(٤) .

(١) سير أعلام النبلاء ، ٢١٧/٤ ؛ وتاريخ الإسلام ، حوادث ووفيات ٨١ - ١٠٠ ؛ وتهذيب الكمال ،

٢٩٧/٧ ؛ وأعلام الحفاظ والمحدثين ، ٨٧/٤ .

(٢) أعلام الحفاظ والمحدثين ، ١٢٤/٤ .

(٣) تهذيب الكمال ، ٣٠١/٧ .

(٤) تهذيب الكمال ، ٣٠١/٧ .

وقطع ابن معين بعدم سماعه من عمر حيث قال: لم يثبت له من عمر سماع^(١). ونفى مالك بن أنس وهو أحد المغالين فيه سماعه من عمر نفيًا باتًا، قال ابن وهب: سمعت مالكا وسئل عن سعيد بن المسيّب هل أدرك عمر؟ قال: لا ولكنّه ولد في زمن عمر فلمّا كبر أكبّ على المسألة من شأنه وأمره حتّى كأنه رآه^(٢).

وكان أبو حاتم الرازي يردّ سماعه من عمر، قال ابنه في المراسيل: سمعت أبي وسئل هل يصح لسعيد سماع من عمر؟ قال: لا إلاّ رؤيته على المنبر ينعى ابن مقرن^(٣). وقال الذهبي: في ترجمته: رأى عمر ولم ينقل سمع منه^(٤).

وروى في سيره سماعه من عمر بصيغة التمريض فقال: وقيل سمع من عمر^(٥). وجزم في التذكرة بسماعه فقال: وسمع من عمر شيئاً وهو يخطب^(٦). ولكنّ ابن حنبل خرق إجماع هؤلاء الأعلام فروى سماعه من عمر، مؤكداً ذلك تجد ممّا يدلّ على جزمه به ولا نعرف مستنده اللهمّ إلاّ أن يكون متساهلاً فيما ينقل أو أنّه عوّل على ما ادّعاه لنفسه سعيد كما أخبر عنه بكير بن الأحنس أنّه قال: سمعت من عمر على المنبر وهو يقول: لا أجد أحداً جامع فلم يغتسل، أنزل أو لم ينزل، إلاّ عاقبته^(٧).

ولا أعرف الوسيلة التي يطلع بها عمر على مثل هذه الأسرار كما لا أعرف الباعث على تصريحه بهذه الأمور الخطيرة.

والذي يتجلّى لي من خلال الأقوال السالفة أنّه لم يسمع من عمر وقد صدق أصحابها وجاء ادّعاء السماع من سعيد نفسه، لأنّ التزلّف إلى عمر يومئذٍ إحدى وسائل السبق والتقدم على المنافسين والرجل واحدٌ من طائفة من الفقهاء، قيل هم سبعة وقيل عشرة وقيل أكثر، وحدوث المنافسة بين الزملاء المتنافسين أمر تملّيه طبائع البشر،

(١) أعلام الحفاظ والمحدثين، ١١٩/٤.

(٢) أعلام الحفاظ والمحدثين، ١١٤/٤؛ والفسوي، المعرفة، ٤٦٨/١.

(٣) المراسيل، ص ٦٥.

(٤) تاريخ الإسلام، ٨١ - ١٠٠، ص ٣٧١.

(٥) سير أعلام النبلاء، ٢١٨/٤.

(٦) تذكرة الحفاظ، ٥٤/١.

(٧) سير أعلام النبلاء، ٢٢٣/٤.

ولابد للمتنافسين من التوسل إلى التفوق والغلبة بوسيلة ما تعطف أعناق الناس وتجلب انتباههم وتجذبهم إلى الحضيرة ولم تكن وسيلة يومها أفضل من عمر، لما له من المكانة في قلوب العامة، ولسنا بصدد بيان هذه المكانة أو سببها، من هنا كان ابن المسيّب يزعم السماع من عمر حتى قال ابن حجر: وقع لي بإسناد صحيح لا مطعن فيه وفيه تصريح بسماعه من عمر وساق السند إلى داود ابن أبي هند عن سعيد بن المسيّب قال: سمعت عمر بن الخطاب على هذا المنبر يقول: عسى أن يكون بعدي أقوام يكذبون بالرجم يقولون: لا نجده في كتاب، لولا أن أزيد في كتاب الله ما ليس فيه لكتبت أنه حق قد رجم رسول الله ورجم أبو بكر ورجمت. يقول ابن حجر: هذا الإسناد على شرط مسلم..^(١)

أقول: لا غرابة في سماع ابن الثامنة أو السادسة بدون تحمل فإنّ هذه ألسن لا يصعب معها الفهم بخاصة إذا كان صاحبها في ذكاء ابن المسيّب ولكن هذه الرواية تثبت لعمر القول بالتحريف وهي صحيحة وروى نحواً منها البخاري في جامعه، فما عذر السلفيين اليوم أمّا أنا فأقول لهم: إذا كان بيتك من زجاج فلا ترم الناس بالحجارة..

ولم يعتبر ابن معين سنّ الثامنة شيئاً في السماع من ثمّ ردّ على عباس الدوري حين حدّثه بقول سعيد: ولدت لسنتين من خلافة عمر بصيغة الإستفهام الإنكاري: ابن ثمان سنين يحفظ شيئاً!؟

تحصّل لدينا ممّا تقدّم أنّ ابن المسيّب ما سمع من عمر إلاّ عرضاً كسائر الأطفال، حين يسمعون أموراً هامة بعفوية، ثمّ يكسبها الزمان العناية بعد أن يتقدموا بالسن.

وابن المسيّب يختلف عن غيره بالحافز النفسي الذي حمله على الإدّعاء لغرض التفوّق وحينئذ ينبغي أن يتوقف عند مروياته لأنها لا تخلو أو بعضها على أقلّ تقدير من هذا الحافز.

(١) نيل الوطر، المطبوع بهامش تهذيب الكمال، ٣٠٢/٧.

علمه بالأقضية ..

كان ابن المسيب يقول عن نفسه : ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ وكل قضاء قضاه أبو بكر وكل قضاء قضاه عمر . قال إبراهيم راوي الخبر عن أبيه : قال أبي : وأحسبه قال : وكل قضاء قضاه عثمان مني^(١) .

قال يزيد بن هارون : قال مسعر : وأحسب قد قال : وعثمان ومعاوية^(٢) .
وهنا لابد من سؤال حائر : ما باله لم يذكر قضاء أمير المؤمنين عليؑ ؟ أكان عليؑ عنده لا يعدل حتى ابن هند؟؟ وماذا في قضاء هؤلاء الأربعة سوى مخالفة الشرع والقول بالرأي ومحض الهوى وتعطيل أحكام الله سبحانه وسنحدّثك عن بعض عجائبهم .

قضاء أبي بكر ..

إنّ أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة ، فقد قال في الكلاله : أقول فيها برأبي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمنّي ، ولم يعرف ميراث الجدّ...^(٣)
وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أحد أمرين : تهاونه بالشرع وإلّا لم يقل برأيه في مسألة لها حكم مقرر في الشرع .. الثاني جهله المطبق في مسألة من مسائل اختصاصه كإمام المسلمين وقائم مقام رسول الله ﷺ^(٤) ولما جهلها الخليفة قال فيها برأيه وهذه البادرة منه أول بذرة غير طيبة لتفسير القرآن بالرأي لمحض الجهل بالحقيقة .

(١) تهذيب الكمال، ٣٠١/٧؛ تذكرة الحفاظ، ٥٥/١ ولم يذكر عثمان وروى معمر عن الزهري ذلك .

(٢) أعلام الحفاظ والمحدثين، ١٢٤/٤؛ وأخرجه ابن سعد في الطبقات، ٣٧٩/٢ و١٢٠/٥؛ والبخاري في التاريخ الكبير، ٥١١/٣، والفوسى في المعرفة، ٤٦٨/١ .

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٠١/١٧ و٢٠٢ .

(٤) الكلاله، مصدر من تكلله النسب أي أحاط به وبه سمي الأكليل وهي منزلة من منازل القمر لإحاطته بالقمر إذا احتلّ ومنه الأكليل أيضاً وهو التاج والعصابة المحيطة بالرأس، فإذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد فورثته كلاله فالأب والابن طرفان للرجل فإذا ذهباً تكلله النسب .

قضاء عمر ..

وهذا كثنائيه لا يعرف ما الكلالة .

عن معدان بن أبي طلحة اليعمرى قال : إن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وذكر أبا بكر فقال : ثم إنني لأدع بعدي شيئاً أهمّ عندي من الكلالة ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شيء ما راجعته في الكلالة وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بأصبعه في صدري وقال : يا عمر ألا يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء وإنني إن أعش افض فيها بقضاء - بقضية يقضي فيها من يقرأ القرآن ومن لم يقرء ^(١) .

ولا تنس جهله بالميراث .

عن مسروق قال : سألت عمر بن الخطاب عن ذي قرابة لي ورث كلالة ، فقال : الكلالة ، الكلالة ، وأخذ بلحيته ثم قال : والله لأن أعلمها أحب إليّ من أن يكون لي ما على الأرض من شيء ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ألم تسمع الآية التي أنزلت في الصيف فأعادها ثلاث مرّات ^(٢) .

ومن قضائه الفضيح وحكمه الوجيع ما حكم به على مجنونة يقال إنّها زنت . عن ابن عباس قال : أتى عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً فأمر بها أن ترجم فمرّ بها علي عليه السلام فقال : ما شأن هذه ؟ فقالوا : مجنونة بنى فلان زنت فأمر بها فردّت .

كلّ الناس أفتقه من عمر ..

ومن غرائب علمه أنّه مرّ يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمئان فاستقاه فجدح له ماءً أبعسل فلم يشربه ، وقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ فقال الفتى : إنّها ليست لك ولا لأحد من أهل القبلة إقرأ ما قبلها : ﴿ ويوم يعرض

(١) مولانا الأميني ، الغدير ، ١٢٧/٦ نقلاً عن صحيح مسلم كتاب الفرائض ، ٣/٢ ؛ مسند أحمد ، ٤٨/١ ؛ سنن ابن ماجه ، ١٦٣/٢ ؛ أحكام القرآن للجصاص ، ١٠٦/٢ ؛ سنن البيهقي ، ٢٢٤/٦ و ١٥٠/٨ ؛ وتفسير القرطبي ، ٦/٢٩ .

(٢) الغدير ، ١٢٧/٦ نقلاً عن تفسير الطبري ٣٠/٦ ؛ تفسير الدر المنثور ، ٢٥١/٢ .

الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴿ فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر^(١) .

واعترف مرّة ثانية بضلالة حجمه على المنبر .

عن مسروق بن الأجدع قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثمّ قال: أيها الناس! ما إكثاركم في صداق النساء؟ وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها فلا عرفنّ ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم. قال: ثمّ نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين! نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمئة درهم؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَأَتَيْمٌ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾؟ قال: قال: اللهمّ غفراً، كلّ الناس أفقه من عمر، ثمّ رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس! إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهنّ على أربعمئة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله - أو - فمن طابت نفسه فليفعل ..

قال مولانا الأميني رحمته الله: أخرج أبو يعلى في مسنده الكبير، وسعيد بن منصور في سننه، والمحاملي في أماليه، وابن الجوزي في سيرة عمر ص ١٢٩، وابن كثير في تفسيره ٤٦٧/١ عن أبي يعلى وقال: إسناده جيد قوي، والهيتمي في مجمع الزوائد ٤٨٤/٤، والسيوطي في الدر المنثور ١٣٣/٢، وفي جمع الجوامع كما في ترتيبه ٢٩٨/٨، وفي الدرر المنشرة ص ٢٤٣ نقلاً عن سبعة من الحفاظ ومنهم أحمد وابن حبان والطبراني، وذكره الشوكاني في فتح القدير ٤٠٧/١، والعجلوني في كشف الخفاء ٢٦٩/١ نقلاً عن أبي يعلى وقال: سنده جيّد، وابن درويش الحوت في أسنى المطالب ص ١٦٦ وقال: حديث، كلّ أحد أعلم أو أفقه من عمر قاله عمر لما نهى عن المغلاة في الصداق وقالت امرأة: قال الله: ﴿وَأَتَيْمٌ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا﴾ رواه أبو يعلى وسنده جيّد وعند البيهقي منقطع^(٢) .

أقول: أهذا هو العلم الذي وقف ابن المسيّب نفسه عليه، وصار لا يتجاوزه وبه

(١) الغدير، ١٠٤/٦ نقلاً عن شرح ابن أبي الحديد، ٦١/١ .

(٢) الغدير، ٩٥/٦ و٩٦ .

ارتفعت منزلته وعلا قدره عند مالك وأضرابه؟ أم هذا هو القضاء الذي تباهى به ابن المسيّب بين الناس؟!

قضاء عثمان ..

وعثمان ثالثة الأثافي والطامة الكبرى فقد راح يقضي في الأمة بأحكامه بين نثيله ومعتلفه .

الجمع بين الأختين

أخرج مالك في الموطأ ١٠/٢ عن ابن شهاب عن قبيصة بن ذئيب أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين من ملك اليمين هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلتهما آية وحرمتها آية؛ فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك. قال: فخرج من عنده فلقى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فسأله في ذلك فقال: لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا. قال ابن شهاب: أراه علياً بن أبي طالب.

وقال ابن عبد البر في كتاب الإستذكار: إنما كتبت قبيصة بن ذؤيب عن علي بن أبي طالب لصحبته عبد الملك بن مروان، وكانوا يستثقلون ذكر علي بن أبي طالب عليه السلام. وقال الرازي: عن عثمان أنه قال: أحلتها آية وحرمتها آية، والتحليل أولى..^(١)

قضاء عثمان في امرأة ولدت لستة أشهر ..

أخرج الحفاظ عن بعجة بن عبد الله الجهني قال: تزوّج رجل منّا امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فأمر بها أن ترجم، فبلغ علياً عليه السلام فأثاه فقال: ما تصنع؟ ليس ذلك عليها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وقال: ﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين ﴾ فالرضاعة أربعة وعشرون شهراً والحمل ستة أشهر. فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، فأمر بها عثمان أن تردّ فوجدت قد رجمت وكان من قولها لأختها: يا أخيّه لا تحزني فوالله ما كشف

(١) الغدير، ٢١٥/٨ وذكر مولانا الأميني عليه السلام مصادر الرواية في نفس الصفحة فراجعها.

فرجى أحد قط غيره . قال : فشَبَّ الغلام بعد فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به ، وقال : فرأيت الرجل بعدُ يتساقط عضواً عضواً على فراشه (١) .
فأين ابن المسيَّب سيّد الفقهاء عن هذه المصائب التي نشبت في الإسلام من حكم هؤلاء !؟

قضاء معاوية

لو كان ابن المسيَّب اقتصر على الثلاثة لهان الخطب ولكنه أشرك معهم ابن آكلة الأكباد ، والقول وإن جاز فيه النقاش إلا أنه منسوب إليه على كل حال ، ويكفينا من قضاء معاوية ما ذكره ابن المسيَّب نفسه عنه عن ابن حرملة قال : ما سمعت سعيد بن المسيَّب سبَّ أحداً من الأئمة إلا أنني سمعته يقول : قاتل الله فلاناً ، كان أوّل من غير قضاء رسول الله ﷺ ، فإنه قال : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وهذا الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وعائشة وأخرجه مسلم وغيرهما وقد قال ابن عبد البر : هو من أصح ما يروى عن النبي ﷺ (٢) .

وفلان الذي عناه ابن المسيَّب وأبهمه ابن حرملة هو معاوية ، لأنه الذي غير قضاء رسول الله ﷺ باستلحاقه زياداً بنسبه .

ويحقّ لنا بعد الذي ذكرناه أن نسأل ابن المسيَّب أو من روى عن لسانه رواية العلم بالأفضية أهذا هو العلم الذي كان يُدَلُّ به وهل أثر عن هؤلاء الأربعة إلا مثل هذه المخازي ؟ وما له تجاهل أمير المؤمنين ﷺ في قضائه فلم يتحمّل منه شيئاً !؟ وهل اقتضاه الإنصاف أن يصرّ في قلبه طامات هؤلاء ، ويعرض عن قضاء عليّ ﷺ الحق ، أم الإجحاف !؟ وهل قال النبي في حقّه أو حق واحد منهم أفضاكم عليّ ؟ والحديث طويل وإليك شذرة عنه .

أفضاكم عليّ ...

أخرج ابن ماجة في سننه عن أنس بن مالك قال : إن رسول الله ﷺ قال : أرحم

(١) راجع العدير ، ٩٧/٨ ، وانظر مصادره فيه .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ٢٣٨/٤ وانظر الهامش .

أمتي بأمتي أبوبكر، وأشدّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي، وأقرءهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة عبدة بن الجراح..^(١) وهذا الحديث تلاعبت به الأيدي، وكان هم الرواة الأكبر حذف الجزء المختص بالإمام عليه السلام، فقد أخرجه البيهقي من دونه^(٢)، وكذلك فعل الحاكم النيسابوري^(٣)، وابن حنبل في مسنده^(٤)، وأخرجه في المصابيح وليس فيه أقضاهم علي^(٥)، وأخرجه الليثي في موارد الظمئان عن أنس بن مالك بعد حذف الجزء المختص بالإمام عليه السلام وفيه زيادة ما أطلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على رجل أصدق ذي لهجة من أبي ذر أشبه عيسى في ورعه... الخ^(٦).

وفي كنز العمال: أرحم أمتي أبوبكر، وأشدّهم في الله عمر، وأكرمهم حياءً عثمان بن عفان، وأقضاهم علي...^(٧)

وفي سياق آخر: وأقضى أمتي علي بن أبي طالب وفي رابع: وأقضاهم علي بن أبي طالب، وفي خامس وسادس وأقضاهم علي، وفي سياق سابع: رحم الله علياً اللهم أدر الحق معه حيث دار^(٨). وأخرجه أبو نعيم في الحلية وليس فيه ذكر الإمام^(٩). والظاهر أنّ هذا الحديث صار عرضة للإضافات والطرح ولم يطرح منه إلا الجزء العلوي ثم أضاف إليه من شاء ما شاء من الشخصيات المفضلة لديه والعجيب أنّ الرواة لم يحذفوا سوى الجزء المختص بالإمام عليه السلام والذي اعتقده أنّ الحديث هو هذا الجزء فحسب ثم لعبت به يد الوضع وقد ذكره ابن حجر في فتح الباري الجزء الثامن مستقلاً بلفظ: أقضى أمتي علي بن أبي طالب. والناظر في رواية العجلوني للحديث

(١) سنن ابن ماجه، ٥٥/١، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) سنن البيهقي، ٦/٢١٠.

(٣) المستدرک، ٣/٤٢٢.

(٤) ٣/٢٨١.

(٥) المصابيح رقم ٦١٢٠.

(٦) موارد الظمئان، ٢/٩٩٥ الحديث ٢٢١٨.

(٧) كنز العمال، ١١/٦٣٥.

(٨) انظر الحادي عشر من كنز العمال الصفحات التالية ٦٤١ و٦٤٢ و٦٤٣.

(٩) أبو نعيم، حلية الأولياء، ٣/١٢٢.

يدرك ما أقول: ففيه زيادة «وأبو هريرة وعاء العلم».

وذكر العجلوني سياقات مختلفة للحديث وفيه إضافة الجملة أو الجملتين وفي بعضها: ذكر الإمام عليه السلام إلى أن قال: ورجح الدارقطني هو والبيهقي والخطيب، أن الموصول منه ذكر أبي عبيدة والباقي مرسل، ورجح ابن الموق وغيره رواية الموصول وليس عند واحد منهم وأفضاهم علي وذكره ابن عبد البر في الإستيعاب عن محجن أو أبي محجن .. (١)

ومما لا ريب فيه أن أصل الحديث هو هذا الجزء «أفضاهم علي» ولكن تعرّض بآخرة للإضافات وهو نظير الحديث الشريف: أنا مدينة العلم وعلي بابها، فقد أضاف الرواة إلى هذه المدينة سقفاً وحوائط وكنفاً بعدد الثلاثة طبعاً.

وكذلك القول في حديث «سيدي شباب أهل الجنة» فقد أضاف الرواة للجنة كهولاً ولم يكونوا سوى الثلاثي المعهود، ورحم الله من قال: «في كلّ واد أثر من ثعلبة». وأخيراً توجه خطابنا إلى ابن المسيّب لسمع من صنّفه في شعبة أمير المؤمنين عليه السلام: ما باله تجاهل قضاء أمير المؤمنين ولم يوص نفسه بحفظه وتعاهده، أما بلغته كلمة أستاذه الذي وقف نفسه على علمه لم يتجاوزه: لولا علي لهلك عمر.. ولهذا القول حكاية ذكرها مولانا الأميني عليه السلام (٢).

ونخلص إلى النتيجة الحتمية من هذا الحديث أن ابن المسيّب لا يمكن أن يعدّ فيمن يوالي عليّاً بل الأحرى به أن يكون عدواً ومن ثمّ كيف يُصدّق فيما يروى عنه أو عن أبيه، وهو ذو نزعة أموية وسنطلعك على هذه الحقيقة بأكملها..

أموية ابن المسيّب

وأحسب الناظر في هذا العنوان يتملكه العجب لهذه الأموية والمعروف عنه خلافها فقد عاش يناصب آل مروان العداة ويناصبونه، وقد جلدوه حدّاً وشهّروا به وأرادوا تصفيته، ويروى الرواة لذلك سببين: الأول إباثة البيعة لإثنين من أبناء عبد الملك لما أراداه والي المدينة عليها وهما الوليد وسليمان، والثاني من أجل ابنته

(١) العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الألباس، ١١٧/١ و١١٨، مؤسسة الرسالة.

(٢) الغدير، ١١٠/٦.

وأراه أقرب إلى منطق الأحداث .

قال أبو بكر بن أبي داود : كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك لابنه الوليد فأبى عليه فلم يزل يحتال عبد الملك حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرّة ماءٍ وألبسه جبّة صوف ... (١)

أمّا ضربه من أجل البيعة فلست أراه مستقيماً مع قرائن الوضع ، لأنّ البيعة إن كانت صحيحة فلا مانع من وقوعها لاثنتين وليست هي من باب الإمامة المحظور إسنادها إلى إمامين في عرض واحد ، بل هي ولاية عهد تسمّى لاثنتين على التناوب كما حدث ذلك بعد عصر سعيد بل في عصره أيضاً عندما كان عمر وعثمان مرشّحين لنيلها بعد الأول ، وإن كانت باطلة فيستوي في عدم وقوعها الواحد والاثنتان ، ولئن صحّ تمنعه فهو تنطع من جنبه تجاوز الحد .

ومهما كانت الحال فإنّ هشاماً بن المغيرة ضربه ستين جلدة ، وحبسه حتى كفّه عنه عبد الملك وظلّ يحمل هذه الذكري الأليمة في نفسه لآل مروان وما برح يدعو عليهم ويعلن ذمّهم في الخلوات والجلوات ..

قال علي بن زيد : قلت لسعيد بن المسيّب : يزعم قومك أنّ ما منعك من الحج إلا أنّك جعلت لله عليك إذا رأيت الكعبة أن تدعو على بني مروان . قال : ما فعلت ، وما أصلي صلاة إلا دعوت الله عليهم .. (٢)

وهذا لا يدلّ على عدائه لبني أمية بأجمعهم بل اختصّ به آل مروان وحدهم ، من هنا ما كان يدعو على غيرهم من بني أبيهم .

عن رجل من آل عمر قال : قيل لسعيد بن المسيّب : أدع على بني أمية ، فقال : اللهم أعزّ دينك وأظهر أوليائك وأخز أعدائك في عافية لأمة محمد (٣) .

ومن هذه الجهة بالإمكان التعرف على سخته الأموية ، فنقول : إنّ الشجرة الملعونة لها فرعان : سفباني ومرواني ، وبين هذين الفرعين تنافر شديد والرواية التالية توضح ذلك بجملاء ..

(١) سير أعلام النبلاء ، ٤/٢٣٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ٤/٢٢٥ .

(٣) أعلام الحفاظ والمحدثين ، ٤/١٠٨ .

روى المصعب الزبيري في كتابه «أنساب قريش» قال : اشتكى عمرو بن عثمان فكان العوَّاد يدخلون عليه فيخرجون ويتخلَّف عنده مروان فيطيل ، فأنكرت ذلك رملة بنت معاوية فخرقت كوة فاستمعت إلى مروان فإذا هو يقول لعمرو : ما أخذ هؤلاء (يعني بني حرب بن أمية) الخلافة إلا باسم أبيك فما يمنعك أن تنهض بحقك فلنحن أكثر منهم رجالاً ، منّا فلان ومنهم فلان ومنّا فلان ومنهم فلان حتّى عدّ رجالاً ثمّ قال : ومنّا فلان وهو فضل وفلان فضل فعُدّ فضول رجال أبي العاص على رجال بني حرب .

فلما برء عمرو تجهّز للحج وتجهّزت رملة في جهازه فلما خرج عمرو إلى الحج خرجت رملة إلى أبيها فقدّمت عليه الشام فأخبرته وقالت : ما زال يعد فضل رجال أبي العاص على بني حرب حتّى عدّ ابني عثمان وخالداً ابني عمرو فتمنيت أنّهما ماتا !

قال أبو عبدالله : فكتب معاوية إلى مروان :

أوضاع رجلٍ فوق أخرى يعدنا عديد الحصى ما إن تزال تكاثر
وأمنكم تزجي ثواماً لبعلها وأمّ أخيكم نزرة الولد عاقر

أشهد يا مروان إنّي سمعت رسول الله يقول : إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً ودين الله دخلاً وعباد الله خولاً والسلام .

فكتب إليه مروان : أمّا بعد ؛ فإنّي أبو عشرة وأخو عشرة وعمّ عشرة ، والسلام^(١) . فانظر إلى هذه النفرة التي أتت على عواطف القوم فتنكروا لأنفسهم حتّى تمتّ رملة أن تفقد ولديها ..

ومن خلال التغلغل في مخلفات القوم أقوالاً وأفعالاً يمكننا أن نلم بطابعي البيتين وأنّ لكل واحد منهما أنصاراً وأعداءً . وربّما كان عدوّ أحدهما وليّ الآخر كسعيد بن المسيّب ، فإنّ صلته القطيعة ببني مروان لأسباب عرفنا بعضها ، حملته على الركون إلى آل أبي سفيان ، بل لا أغالي إذا قلت إنّ هذه الصلة كانت موجودة وعلى أساس منها تنكّر له الفرع المرواني ..

فقد كان سعيد يشير بأبي هند ويرى له فقهاً وورعاً . قال شعبة : حدّثنا عمر بن

مرة: سمعت سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة، آخر قدمة قدمها، فخطبنا فأخرج كبة شعر فقال: ما كنت أرى أن أحداً يفعل هذا غير اليهود وأن النبي سمّاه الزور يعني الوصال في الشعر. وهذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن سعيد عن معاوية، يريد أنصار الأموية بهذا وأضرابه أن يظهروا معاوية بمظهر الفقيه الورع ليتمّ التستر على جرائمه وموبقاته.

معاوية يتلبّسه الورع على المنبر من قرنه إلى أخمص قدميه من كبة شعر ويمارس مختلف أنواع الذنوب بدءاً بقتل الأبرار ومحو الآثار ومروراً بإباحة الفروج والدماء وختاماً بالربا ومعاقرة الخمر، فلا يخاف من الله ولا يخشى التشبه باليهود ولا بالهنود. ويرويها عنه راوية عمر وسيد الفقهاء السبعة والتابعي ابن المسيب لتكون شهادة بتعديله وانظره وهو يتحدّث عن اجتهاد معاوية ويجعله صنو الفاروق ويجعل له أجراً وإذا كان معاوية مجتهداً في هذه، فهو مجتهد في كل أعماله وإذا أجر فيها فهو مأجور على كل ما فعل بما في ذلك حربة وسية للإمام عليه السلام. وهذا القول من ابن المسيب يشكل البذرة في ظاهرة تعديل معاوية الشاذة.

يقول سعيد: قضى عمر في الأضراس ببعير بعير وقضى معاوية ابن أبي سفيان في الأضراس بخمسة أبعرة. قال سعيد بن المسيب: فالدية تنقص في قضاء عمر بن الخطاب وتزيد في قضاء معاوية فلو كنت أنا لجعلت في الأضراس بعيرين بعيرين فتلك الدية سواء وكل مجتهد مأجور^(١).

وها هو يقطع بنجاة معاوية، ففي مروج الذهب ٨٣/٢ ذكر لو ط بن يحيى الأزدي وابن دأب والهيثم بن دأب وغيرهم من نقلة الأخبار أن معاوية لمّا احتضر قال: اللهم أقل العثرة واعف عن الزلّة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة وليس لذي خطيئة مهرب إلا إليك.

فبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: لقد رغب إلى من لا مرغوب إلا إليه وإني لأرجو أن لا يعذبه الله...^(٢) وهذه هي التوبة التي ردّها الله سبحانه في محكم كتابه بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم

(١) الموطأ، ٨٦١/٢ ط دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦.

(٢) سيدنا الأمين عليه السلام، أعيان الشيعة، ٢٥٢/٧، ٢٤.

الموت قال إنِّي تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً^(١) صدق الله وكذب ابن المسيّب ، فإنّ توبة معاوية كتوبة فرعون ، ولكنّ سعيداً بأقواله في معاوية حمل أوليائه على تعطيل القواعد عند حدوده وحدود شيوخه ولا ينظر إلى معاوية هذه النظرة إلاّ من والاه ولا يواليه إلاّ من عادى علياً ، لأنّه صديق العدو ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في كلمة له قيّمة : وعدوك ثلاثة : عدوك ، وعدو صديقك ، وصديق عدوك ...

وصلته من معاوية أبعده من علي عليه السلام وقربته من أبي هريرة حتّى صار ختنه علي ابنته ذكر ذلك كلّ من ترجم له ، قال الذهبي : وكان زوج بنت أبي هريرة وأعلم الناس بحديثه ..^(٢)

وقال أبو حاتم : ليس في التابعين أنبل من سعيد بن المسيّب وهو أثبتهم في أبي هريرة^(٣) .

ولك أن تقيس قربه من علي على قربه من عدوّه ولقد فعل ذلك مالك بن أنس فتجلّى له عدائه للإمام عليه السلام فنسبه إلى أنّه كان خارجياً إباضياً^(٤) . وما فعل مالك ذلك إلاّ ليعدله ، لأنّ مالكا كان مبغضاً للإمام منحرفاً عنه ، ومن كان من أبي هريرة بهذه المكانة المكيّنة هل تصفو نفسه لأهل البيت أو لسيد العترة !؟

وما حقن دمه في وقعة الحرّة وقد أتت علي الأخضر واليابس ، وأحرق حتّى الأطفال في المهود والطيور في أوركارها إلاّ لهذا السبب ، فقد كان في مسجد النبي صلى الله عليه وآله يصليّ آمناً وقد دخله غريان الشام - يعترضون كلّ من وجدوه فيه ، فيوجر دمه بحرابهم ، وتركوا ابن المسيّب لشأنه^(٥) . فهل تركوه عفواً أو قصداً؟ لا تسلني وسل المغفّلين ..

وأحياناً يطفح على سطح ابن المسيّب بعض دخائله تجاه أهل البيت وإن

(١) النساء : ١٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء . ٤ / ٢١٨ ؛ وانظر تاريخ الإسلام س ٨٠ إلى ١٠٠ ؛ وتهذيب الكمال ، ١١ / ٧٤ ؛ وابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ٤ / ٧٥ وغيرها ؛ وفيات الأعيان ، ٢ / ٣٧٥ .

(٣) أعلام الحفاظ والمحدثين ، ٤ / ١٣٧ .

(٤) سيّدنا الأمين ، أعيان الشيعة ، ٧ / ٢٥٢٢ .

(٥) سير أعلام النبلاء ، ٤ / ٢٢٨ .

استطاع أن يكتم ذلك في منتهى أعماق نفسه ، فقد توفي الإمام زين العابدين وهرع الناس لحضور الجنازة ولم يبق أحد في المسجد ولم يتخلف حتى العدو ، لأنه قيل في نعته : ليس له عدو في العلانية ، لحسن مداراته للناس وطيب سلوكه معهم عليها السلام ، إلا ابن المسيب فقد ترك الجموع الحزينة والجماهير الباكية وانسل قاصداً المسجد وقد عاتبه بعضهم قائلاً : إنك أخبرتني إن علي بن الحسين النفس الزكية وأنت لا تعرف له نظيراً . فقال : كذلك وما هو بمجهول ما أقول فيه والله ما روئي مثله . قال علي بن زيد : فقلت : والله إن هذه الحجة الوكيدة عليك يا سعيد فلم لم تصل على جنازته ... الخ^(١) .

وقد اعتذر بعذر أبرد من الثلج في كانون ولو صحَّ عذره فإنه قد أصاب هذا اليوم وربما يتكرر فتحقق أحلامه في خلو المسجد من المصلين ولكن هل تتكرر جنازة الإمام السجاد وحضوره فيها أفضل بكثير من هذه الصلاة التي ينشدها .

رأي الشيعة فيه ..

اختلف رأي الشيعة فيه فمن معدلٍ برآه من عيوبه ، وجادل عنه ، وفند أقوال جارحيه ، ومن جارح ألحقه بالنواصب واستدل على ذلك بمشاهد من تصرفه وفقرات من أقواله تحتم نصبه وقد طالعنا صاحب التفسير والمفسرين بأقوال تتضمن الدفاع عنه بلهفة حيث قال :

... وأول شيء أنه تربية أمير المؤمنين عليه السلام رباه في حجره بوصية من جدّه حزن ، فقد نشأ وترعرع في أهل بيت العلم والورع والظهارة كما وأصبح من خلص أصحاب الإمام علي بن الحسين زين العابدين وأحد الأوتاد الخمسة الذين ثبتوا على الإستقامة في الدين على ما وصفهم الفضل بن شاذان قال : ولم يكن في زمان علي بن الحسين في أول أمره إلا خمسة أنفس سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ، محمد بن جبير بن مطعم ، يحيى بن أم الطويل ، أبو خالد الكابلي . ويقول أيضاً : وللمحقق البحراني في حاشية البلغة استظهار تشييعه من كلام الشيخ في أوائل التبيان .. إلى أن يقول : وقد استوفى السيد الأمين الكلام بشأنه وشأن ولائه لآل البيت ، وذكر أنه صحب علياً أمير المؤمنين عليه السلام ولم يفارقه حتى في حروبه ونقل عن ابن أبي الحديد وغيره بعض

(١) أعيان الشيعة ، ٧/٢٥١ع ١.

الطعن عليه وفنّده على أسلوب حكيم..^(١)

ونقول للشيخ المحقق: لم يثبت شيء مما تقدّم عند إخوانه المحققين بخاصة تربية أمير المؤمنين له وحضوره في مشاهدته كما أنّ أوائل التبيان في كلّ بيت يحتوي على مكتبته وقد قرأناه فلم نعثر على هذا الإستظهار وهذا الأمين في أعيانه لم يقطع بجرح ولا بتعديل في حقّه، ولعلّه يميل إلى جرحه حيث نقل ما قاله الشهيد الثاني في حقّه ردّاً على العلامة: وهذه الرواية فيها توقف من حيث السند والمتن؛ أمّا السند فظاهر وأمّا المتن فلبعد حال هذا الرجل عن مقام الولاية لزين العابدين عليه السلام فضلاً عن أن يكون من حواريه وإني لأعجب من إدخال هذا الرجل في القسم مع ما هو المعلوم من حاله وسيرته ومذهبه في الأحكام الشرعيّة المخالف لطريقة أهل البيت عليهم السلام وقد كان بطريقة ختنه أبي هريرة أشبه وحاله بروايته أدخل والمصنّف قد نقل أقواله في كتبه الفقهيّة من التذكرة والمنتهى، بما يخالف طريقة أهل البيت عليهم السلام وقد روى الكشي في كتابه عنه الأفاصيص والمطاعن. قال المفيد في الأركان: وأمّا ابن المسيّب فلا يدفع نضبه، وما اشتهر عنه من الرغبة عن الصلاة على زين العابدين عليه السلام وقيل له ألا تصلّي إلى آخر ما مرّ وقد روي عن مالك أنّه كان خارجياً إباضياً الله أعلم بحقيقة الحال..

وشرع سيّدنا الأمين في نقل معارض هذه الأقوال وقال فيما يعد اعترافاً منه بانحراف ابن المسيّب: أمّا الجواب عن ذلك بأنّه كعمل بن الجنيد بالقياس المخالف لطريقة أهل البيت ولم يناف ذلك تشيّع فغير وجيه، لأنّ ابن الجنيد خالف طريقتهم عليهم السلام في مسألة واحدة أصوليّة وابن المسيّب كما يستفاد من أحواله خالف طريقتهم في جميع مسائل الفروع... وآخر ما قال الأمين عن ابن المسيّب: فيبقى ما دلّ على استقامته خلواً من المعارض^(٢). بل المعارض موجود وما أكثره ومنه روايته عن شيخ الأبطح وعندنا أنّ من زعم أنّ أباطالب مات على الشرك فهو من أهل النار روي ذلك عن الإمام الرضا عليه السلام^(٣).

ومنه تصدّيه للفتوى مع حضور من يجب عليه اتّباعهم، والقول بإمامتهم،

(١) محمد هادي معرفت، التفسير والمفسّرون، ١/٣٢٨ و ٣٢٩ و ٣٣٠.

(٢) أعيان الشيعة، ٧/٢٥٢ و ١٤ و ٢٤.

(٣) إيمان أبي طالب، ص ٨٢.

واعتماد آرائهم وأقوالهم ومنه تفانيه في حضور الصلاة وراء الجبابة الطغاة وعدّ ذلك قريبا يتقرب بها إلى الله، ومباهاةً يتباهى بها بين عباده، وقال لمن عرض عليه الإصحاح إلى البرية طلباً للراحة: فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح وقال: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد، وقالوا عنه: إن سعيد بن المسيّب مكث أربعين سنة لم يلق القوم قد خرجوا من المسجد وفرغوا من الصلاة، وقال برد مولاه: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد..^(١) وأقواله في ذلك كثيرة وليس هذا فعل من يوالي وليّ أهل البيت ويعادي عدوّهم.

ويؤدّي أن أزيد ما تقدّم وضوحاً لأنّ البحراني عزا القول بتشيّعه استظهاراً إلى الشيخ الطوسي عليه السلام ولم يشر إلى موضع ذلك من التبيان، بل قال: في أوائل التبيان، وهذا تساهل منه في الضبط، ولا تغني الإشارة أو الإحالة المبهمة في مثل هذه الأمور.. لأنّ أوائل التبيان مجهول مبتدأها ومنتهاها، وما ضرّ الشيخ والحال هذه لو نقل العبارة المستظهرة أو ضبط محلّها من الكتاب، وبرجوعنا إلى التبيان رأيناه لم يذكره إلا مرة واحدة، فيمن كره من التابعين القول بالرأي..^(٢) ولم يذكره فيمن حمدت طرائقه من المفسّرين واقتصر على ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد^(٣). ولو كان كما يقول معدّلوه لما أهمله شيخ الطائفة عليه السلام ولذكره في طليعة الممدوحين. والحقيقة أنّ جلّ مادحي ابن المسيّب لا يعرفونه وإلا لما عدّوه في الصحابة وقد ولد بعد موت عمر بأربع سنين أو سنتين.

فقد روى عمر بن المقدم عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: وأما سعيد بن المسيّب فنجا وذلك أنه كان يفتي بقول العامة وكان آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله^(٤). والشيخ المفيد ما زاد على ذكر اسمه في أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام^(٥)، ولا يدلّ ذلك على مدح أو تعديل، فكم من صاحب لهم تنكّر للصحبة رغباً أو رهباً، وهذا الكميّ صاحب العلويات صار إلى أميّة والأمور لها مصائر.

(١) أعيان الشيعة، ٢٥٢/٧، ع ٢٤.

(٢) ٤/١ و٦.

(٣) نفسه.

(٤) أعيان الشيعة ٢٥٠/٧.

(٥) الإختصاص، ص ٨.

وأما شهوده حروب الإمام الثلاثة ومثوله فيها مجاهداً فلم نعثر على ذكر له في أيّ واحد من هذه الحروب الضارية، وهذا شيخ الشيعة المفيد لم يذكر في كتاب النصرة شيئاً عن سعيد، اللهم إلاّ سؤاله من سعيد بن زيد بن نفيل بايعت؟ مستفهماً وكأنه ينكر عليه البيعة وكشف عن ذلك جواب سعيد بن زيد لسعيد بن المسيّب: ما أصنع؟ إن لم أفعل قتلني الأشر وذووه، فلم ينبس سعيد بنعت شفة وكأنه مقتنع بما قال^(١).

ختام القول في سعيد..

لقد بان لنا الوضع الختامي لسعيد عند الشيعة.. فقد رجّح فيما اعتقد قول الجارحين، أمثال الشيخ المفيد، والشيخ الأميني رضي الله عنهما^(٢). وكان قول عمر بن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ورضي الله عن ابنه عمر.. أجلى شهادة تكشف لنا واقع هذا الرجل.

روى عبدالرحمن بن الأسود عن أبي داود الهمداني قال: شهدت سعيد بن المسيّب وأقبل عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له سعيد: يا بن أخي! ما أراك تُكثر غشيان مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يفعل إخوتك وبنو أعمامك؟ فقال عمر: يا بن المسيّب! أكلمنا دخلت المسجد أجيء فأشهدك؟ فقال سعيد: ما أحب أن تغضب. سمعت أباك يقول: إن لي من الله مقاماً لهو خير لبيني عبدالمطلب ممّا على الأرض من شيء. فقال عمر: وأنا سمعت أبي يقول: ما كلمة حكمة في قلب منافق فيخرج من الدنيا إلاّ يتكلّم بها. فقال سعيد: يا بن أخي! أجعلتني منافقاً؟ قال: هو ما أقول لك. ثمّ انصرف^(٣).

ولو لم يعرف عمر منه النصب الشديد لما واجهه هذه المواجهة العنيفة.

(١) راجع كتاب النصرة لسيد العترة، ص ١١٢، ط الفيّة المفيد قم ١٤١٢.

(٢) الغدير، ٩/٨.

(٣) الغدير، ٩/٨.

إرساله الحديث ..

كان ابن المسيّب يرسل الحديث ، وهو عيب في الراوي والرواية ، وإن صحّح قومٌ مراسيله لحسن الظنّ به حيث أنّه كما يزعمون لا يرسل إلاّ عن الثقة . ومهما قيل فيه فإنّ الإرسال لا يخلو من إحدى حالتين ، إمّا كونه جاهلاً بمن يروي عنه وإمّا كونه مدلساً ، وبكليهما يعلّ الحديث ولا يقبل . ولو كان عالماً بحال من يروي عنه فلا داعي لكتمان اسمه وإيقاع السامع في الوهم واللبس والتخرض ولا أرى حسن الظنّ بابن السيّب يبقى مختفظاً بنسبته المقبولة ، بعد روايته عن نفسه أنّه أصلح بين علي عليه السلام وعثمان .

عن ابن المسيّب قال : أنا أصلحت بين علي وعثمان ؛ قلت لعلي : إنّه أمير المؤمنين ، وقلت لعثمان : إنّه علي ، ولو شئت أن أقول قولاً لفعلت ..^(١)
ولعلّ القارئ لا يلمّ بمغزى قوله : لو شئت الخ ، هل تعلم إنّ الرجل يتّهم أمير المؤمنين بقتل عثمان ؟ لأنّ المتبادر إلى ذهن السامع هذا لا غير وإن نوى ابن المسيّب غيره ولو قصد الخير لتجنّب القول الموهوم في تلك الفترة الحرجة وكان الشايخ بين أعوان بني أمية وأنصارهم أنّ المسئول الأول عن دم نعتل علي عليه السلام .
قال حسان بن ثابت لأمير المؤمنين عليه السلام وعنده المهاجرون والأنصار : والله يا أمير المؤمنين ما تقول أنك قتلت عثمان ولكنك خذلته ، وما نقول : أنك أمرت بقتله ولكنك لم تنه والخذل أخو القتل والسكوت أخو الرضا ، وإنّ صاحبه لغيرك^(٢) .

أجل ؛ هذا هو القول الذي لو شاء ابن المسيّب أن يقوله لقاله . ولقد ثبت عن ابن المسيّب عدم تحفظه فيما يقول بل قد يقول الشيء المخالف للواقع لأغراضه الخاصة كما روى حضور أبيه المسيّب بيعة الشجرة وهو بالإجماع من مسلمة الفتحة^(٣) . ولا مجال هنا لحسن الظنّ في سعيد وهو صاحب الزعم من كونه يروي عن عمر والمحدثون أجمعوا على بطلان ذلك كما أنّ إصلاحه بين عثمان وعلي لا أساس له من

(١) المزني ، تهذيب الكمال ، ٣٠١/٧ .

(٢) نثر الدر ، ٩٧/٢ .

(٣) أعلام الحفاظ والمحدثين ، ١٣٩/٤ .

الصحة إطلاقاً إنما هي محاولة تضاف إلى نظائرها لغرض رفع المستوى الإجتماعي له .

قال يحيى ابن معين : هاهنا قوم يقولون : إنه أصلح بين علي وعثمان ، وهذا باطل^(١) .

وابن معين يعلم أنّ هؤلاء القوم قالوا قوله فإن كان القول باطلاً فممنه لا من غيره . وكان يفسّر القرآن برأيه إحيائاً ، ولذا قال أوليائه : وبالنظر في تفسير ابن كثير - مثلاً - نجد نماذج نقلت عن سعيد في التفسير بالمأثور أو بالرأي والإستنباط والتأويل ، لكن ذلك قليل ، فلم يرو عنه في مجال التفسير شيء^(٢) وروايته في حق سيدنا أبي طالب من هذا القليل طبعاً .

خاتمة المطاف

بعد الذي استعرضناه من حقيقة رواية عمر سعيد بن المسيب ، لا يبقى شك في انحرافه عن أهل بيت النبي وجنوحه إلى عدوّهم آل أبي سفيان وإنّ روايته في أبي طالب وإساءته إلى جنباه تضرب في هذا الميتة المهلك ، لقد أراد ابن المسيب طلب الزلفى عند ابن هند في أمور ثلاثة ..

الأول : وضع الحكايات والروايات التي ترفع من شأنه ، وتصنّفه في رعييل الفقهاء والمجتهدين المأجورين كما سبق وحدثناك عنه .

الثاني : صوغ رواية البطولة عن أبيه لرفع منزلته وستر تلك الفترة المظلمة من عمره التي قضاه في الكيد للإسلام وإعلان الحرب عليه حتّى أيس من الفوز فلجأ إلى الإسلام بعد أن أوشك أن يطيح برأسه ويقضي عليه .

يروى شجاعة أبي سفيان ..

روى يعقوب بن سفيان وابن سعد بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول : يا نصر الله اقترب ، قال :

(١) تهذيب الكمال ، ٣٠١/٧ .

(٢) أعلام الحفاظ والمحدثين ، ١١٧/٤ .

فنظرت فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد، ويقال: ففتت عينه يومئذ^(١).
وفي البداية: فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر: يا نصر الله اقترب، الثبات
الثبات، يا معشر المسلمين..^(٢)

وهذه الشهادة من ابن المسيّب عن أبيه وهو دائماً يروي عن أبيه - أوحى إلى
أولياء آل أبي سفيان أن يصفوا إمام الكفر بالصفات الطيبة والنوع المحببة، حتّى قال
الذهبي: وكان يومئذ - أي يوم اليرموك - قد حسن إن شاء الله إيمانه، فإنّه كان يومئذ
يحرص على الجهاد وكان تحت راية ولده يزيد، فكان يصيح: يا نصر الله اقترب، وكان
يقف على الكراديس يذكّر ويقول: الله الله إنكم أنصار الإسلام ودارة العرب، وهؤلاء
أنصار الشرك ودارة الروم، اللهم هذا من أيامك اللهم هذا نصرك فإن صحّ هذا عنه فإنّه
يغبط ولا ريب..^(٣)

هذا القول ونظائره من وحي روايات سعيد بن المسيّب، وإنّ واقع أبي سفيان
بعكس ذلك تماماً، وكان إماماً للكفر في الجاهليّة والإسلام.
عن مجاهد: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ قال: أبو سفيان..^(٤)
وإنّ موقفه يوم اليرموك لموقف المنافق الذي يوالي الشيطان في سرّه، ويتمنّى
له النصر على الإسلام.

عن ابن الزبير قال: كنت مع أبي عام اليرموك فلما تعبى المسلمون للقتال لبس
الزبير لامته ثمّ جلس على فرسه وتركني فنظرت إلى ناس وقوف على تل يقاتلون مع
الناس فأخذت فرساً ثمّ ذهبت فكننت معهم فإذا أبو سفيان في مشيخة من قريش
فجعلوا إذا مال المسلمون يقولون أيده بنبي الأصفر^(٥) وإذا مال الروم قالوا: يا ويح
بنبي الأصفر^(٦).

فما فارقه ذكرى هبل لافي حرب ولا في سلم ويؤيد نفاقه في اليرموك ما كان

(١) ابن حجر، الإصابة، ١٧٩/٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/٧.

(٣) سير أعلام النبلاء، ١٠٦/٢.

(٤) مختصر تاريخ دمشق، ٥١/١١.

(٥) إبه يا بنبي الأصفر.

(٦) الإصابة، ١٧٩/٢.

يحرص به أهل مكة على الارتداد بعد وفاة النبي ﷺ حتى قال لهم سهيل بن عمرو حين نهاهم : فلا يغترنكم هذا من أنفسكم - يعني أبا سفيان - (١).

وكان ممّا أخذه الثّوار على عثمان تقيّبه أبا سفيان الكافر حتى منعوا دفنه .. وبقي عثمان ثلاثة أيام دون أن يدفن حتى كاد أن يتغيّر وكان أحد كبار الخارجين من أهل مصر ويدعى عبد الله بن سحر قال لن نرضى أبداً بدفنه في مقابر المسلمين ، لأنه ليس مسلماً ، فقد سمع في أيام خلافته حين عاد من المسجد إلى منزله وحوله بنو أمية فقال لهم أبو سفيان : يا بني أمية تلّفنوها تلّف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة وإنه بدلاً من أن يقيم عليه حدّ المرتدّ أعطاه مئتي ألف دينار من بيت مال المسلمين (٢).

وقد نقل هذا الكفر عن أبي سفيان بصيغ مختلفة .

عن أنس : إن أبا سفيان بن حرب دخل على عثمان بعدما عمي فقال : ها هنا أحد ؟ قالوا : لا . قال : اللهم اجعل الأمر جاهلية ، والملك ملك عصبية ، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية .. (٣)

إنّ على عمال الأموية أن يستخدموا أساليب الوضع من أجل تغيير سحنة الكفر عند أبي سفيان طلباً لسحت معاويه ابنه وتزلفاً إليه ، ولكي يصوغوا شخصية له في الإسلام مخالفة لواقعه الكافر حتى لا يدخل الغمز منه على «أمير المؤمنين معاوية» !! وخال المؤمنين !! وصنبة الفاروق عمر وإلّا فما الذي حمل ابن المسيّب على وضع تلك المأثرة المكذوبة في حرب اليرموك له ، وهو دائماً يرسل عن أبيه المسيّب إذا أراد تركيز القول في عقل الأمة وليته منع بالجهاد المفتعل في اليرموك ولم يضع له ماثر أخرى .

عن سعيد بن المسيّب قال : لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا فقال أبو سفيان لهند : أترين هذا من الله ؟ قال : ثم أصبح فعدا أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : قلت لهند

(١) السيرة الحلبية ، ١٩٦/٢ .

(٢) الفتوح لابن الأعمش ١ - ٤٣٠/٢ .

(٣) مختصر تاريخ دمشق ، ٦٧/١١ .

أترين هذا من الله؟ نعم هو من الله. فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله والذي يحلف به أبو سفيان ما سمع قولي هذا أحد من الناس إلا الله وهد^(١).

أبدأ تدور روايات التابعي الراوية!! على محور واحد هو إيمان أبي سفيان وتلك مهمة اضطلع بها جماعة ماجورون وأجرهم على معاوية لا على الله لتغيير سحنة أبي سفيان وأسرته وتبديلها بالإصباح والمساحيق إلى سحنة إيمانية جهادية، وقلب الوقائع التاريخية رأساً على عقب ليصبح الجبن شجاعة، والهزيمة إقداماً والنفاق إيماناً والضلال هداية وأبو سفيان مسلماً وهداً للمؤمنين وهداً جدّاً ومعاوية خالاً لهم وهكذا.

وعن سعيد بن المسيب: أن رسول الله ﷺ سبى يوم حنين ستة آلاف بين غلام وامرأة فجعل عليهم أبا سفيان بن حرب...^(٢) وهكذا أنت واجد - أيها القارئ - لأبي سفيان على لسان سعيد بن المسيب، صيغة أخرى تختلف عن واقعه وصورة تنافي حقيقته كل ذلك ليترفع إمام الكفر على عرش الإيمان كما ترّبع ولده على عرش الإسلام.

الثاني ...

ومن جهة أخرى على ابن المسيب أن يحط من قدر أعداء معاوية بنسبة أمور إليهم منافية لواقعهم لأن ذلك من تمام الغرض المطلوب، إذ لا يرتفع قدر ابن هند إلا بخفض قدر عدوه، ولكن هذا العدو كالكتاب المنزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما من ثغرة في تاريخه بإمكانه النفوذ منها، كما ليس باستطاعته إحداث ثغرة في هذه الحياة الفاضلة، خلا أن هناك مواضع من حياة سلفه بإمكان العدو استغلالها والإتكاء عليها في الإساءة إلى تلکم الحياة المثلّي.

وكان شيخ الأبطح أبو طالب عليه الصلاة والسلام هو طلبة القوم وبدأت المنازلة وشهر المستأجرون لهذا الوضع أسلحة الكذب والإختلاق، وجاء سعيد بن المسيب في الرعيّل الأوّل من هؤلاء فألقى دلوّه في الدلاء، وشارك بنصيب وافر من هذه الفرية على شيخ الأبطح، بل كان له النصيب الأوفر لغلبة حسن السمّت والهيئة عنده على

(١) مختصر تاريخ دمشق، ٦٢/١١.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، ٦٣/١١.

عقول الناس، وأحسن طوائف من الأمة الظن فيه وفي من هو على شاكلته فقبلت روايته من غير تمحيص ولو أنهموه لما احتج إلى جهد كبير في دحض فرية الشرك على شيخ الأبطح عليه السلام وقد تكلمنا بما فيه الكفاية عنها في ما مضى ونزيد الآن أن الرواة لعدهم لأهل البيت أو لثقتهم بعدوهم يتلقفون ما روي بحقهم دونما نقد للمتن أو السند، حتى الشروط التي تضعها أيديهم للرواية تراهم لا يأخذون بها عندما تأتي الرواية ضد أهل البيت فهذا البخاري وضع شرطاً للصحيح وقيد نفسه أن لا يروي الرواية عن له راوٍ واحد، ورواية ابن المسيب في نزول آية الإستغفار في أبي طالب عن أبيه لم يروها غيره عنه، ولكن البخاري تجاوز هذا الشرط ورواها في صحيحه^(١)، وأخذها عنه غيره ووثقوا بها لأنها تجرح علماء من أعلام أهل البيت عليهم السلام فالله حسيبهم وهو الذي يتولى جزاءهم.

التخلص..!!

ويبقى أبوبال طاهر الأردان، ناصع الجبين، مكللاً بالغار والفخار، وإليه يعود الفضل في غلبة الإسلام على الشرك وأهله، وله القدح المعلى في إنجاب الشهداء الذين تدفقت دماءهم الشريعة شعلاً لا تخمد على مرّ الأحقاب والدهور تنير سبل السالكين، وتثير عزائم المجاهدين.

يدمى ووضّاح الجبين يعفّر	فبدمّة الإصلاح جبهة ماجد
	ولسان حال أولاده الشهداء يقول:
أنها سلوة لنا لا الخود	ما عشقنا غير الوغى وهي تدري
وعليها يشبّ منا الوليد	تتفاني شبابنا بلقاها
هو للحشر ذكره مشهود	ولنا في الطفوف أعظم يوم
من بني حرب ليس فيهم رشيد	يوم وافى الحسين يرشد قوماً
مثلما كذب المسيح اليهود	ولقد كذبتة أبناء حرب
فهتوا كما تهبّ الأسود	فدعا آله الكرام إلى الحرب

(١) بدر الدين العيني، عمدة القاري، ١٧/١٨.

عليون والشجاعة فيهم ورتتها آباءهم والجدود...^(١)

المجلس السادس تتمة مؤمن قریش

«.. لولاه ما شدّ أزر المسلمين..»

عين الحنيفة سالت في مجاريها	لولاه ما شدّ أزر المسلمين ولا
عن خير حاضرها طراً وباديها	آوى وحامى وساوى قيد طاعته
حام وضرب عروق فارغاليها	ما كان ذاك الحفاظ المرّ أطة أر
العصماء في كل شطر من قوافيها	بل للإله كنما فاهت روائعه
الله من بعده واسودّ ضاحيها	ضاققت بما رحبت أم القرى برسول
بدعوة ليس بالمجيوه داعيها	فانصاع يدعو له بالخير مبتهلاً
ما فاه فوه بما فيه ينجيها	لولم تكن نفس عمّ المصطفى طهرت
قضاه بالحزن يبكيه ويبكيها	عاماً قضى عمّه فيه وزوجته
أيامها البيض أدجى من لياليها	أعظم بايمان مبكي المصطفى سنة
فالمترضى بدئها والذخر تاليها... ^(٢)	من صلبه انبثت الأنوار قاطبة

الشبهة الثانية ..

قوله تعالى : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون .. ﴾^(٣). أخرج الطبري عن حبيب بن ثابت نزولها في أبي طالب وروى القرطبي أيضاً نزولها فيه وساق الرواية كالتالي :

عن ابن عباس أيضاً روى أهل السير قال : كان النبي ﷺ قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله : من يقوم إلى هذا

(١) للسيد جعفر الحلبي رحمته الله توجد في ديوانه المطبوع .

(٢) الشعر للشيخ عبدالحسين صادق العاملي رحمته الله راجع الغدير ، ٢٩/٨ .

(٣) الأنعام : ٢٦ .

الرجل فيفسد عليه صلته ؟ فقام ابن الزبير فأخذ فرثاً ودماً فطبخ به وجه النبي ﷺ فانفتل النبي ﷺ من صلته ثم أتى أباطالب عمه فقال : يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي ؟ فقال أبوطالب : من فعل هذا بك ؟ فقال النبي ﷺ : عبد الله بن الزبير ، فقام أبوطالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم فلما رأوا أباطالب قد أقبل جعل القوم ينهضون ، فقال أبوطالب : والله لئن قام رجل لجللته بسيفي ، فقعدوا حتى دنا إليهم فقال : يا بني من الفاعل بك هذا ؟ فقال : عبد الله بن الزبير ، فأخذ أبوطالب فرثاً ودماً ولطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم ، وأساء لهم القول ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وهم يبهون عنه وينأون عنه ﴾ فقال النبي ﷺ : يا عم نزلت فيك آية ، قال : وما هي ؟ قال : تمنع قريشاً أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي . فقال أبوطالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
إلى آخر الأبيات .

فقالوا : يا رسول الله ، هل تنفع نصره أبي طالب ؟ قال : نعم دفع عنه بذاك الغل ، ولم يقرن مع الشياطين ، ولم يدخل في جب الحياة والعقارب وإنما عذابه في نعلين من نار يغلي منها دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً ..^(١)
وأول ما يواجهك في هذا السياق أنه مبطل لنظم القرآن الكريم وموجب لدخول الحشو في نسق الجملة التي تتم بها الآية .

قال الرازي : نزولها في المشركين الذين كانوا يبهون الناس عن أتباع النبي والإقرار برسالته ، ونزولها في أبي طالب خاصة .. فقال : القول الأول أشبه لوجهين : الأول : أن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية تفتضي ذمّ طريقتهم ، فكذلك قوله : ﴿ وهم يبهون عنه ﴾ ينبغي أن يكون محمولاً على أمر مذموم فلو حملناه على أن أباطالب كان ينهى عن إيذائه لما حصل هذا النظم . والثاني : أنه تعالى قال بعد ذلك : ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم ﴾ : يعني به ما تقدم ذكره ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله ﴿ وهم يبهون عنه ﴾ النهي عن أذيته ، لأن ذلك حسن لا يوجب الهلاك^(٢) ...
ورد أكثر المفسرين القول بنزولها في أبي طالب لعدم تناسب معاني الآي ،

(١) الغدير ، ٣/٨ و٤ نقلاً عن تفسير القرطبي ، ٤٠٦/٦ .

(٢) مولانا الأميني رحمته الله ، الغدير ، ٧/٨ نقلاً عن تفسير الرازي ، ٢٨/٤ .

ولاضطراب النظم فهذا ابن كثير وهو من أكثر القائلين بنزولها في أبي طالب عناداً نقل في المسئلة قولين أنها في المشركين عامة والمراد منها أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والإتيان بالقرآن وينأون عنه أي يبعدونهم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع ، ونسب هذا القول إلى ابن عباس ومحمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد وقال : وهذا القول أظهر وهو اختيار ابن جرير . ثم ذكر نزولها في أبي طالب وعزى ذلك إلى سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عمّن سمع ابن عباس قال : نزلت في أبي طالب كان ينهى عن النبي أن يؤذئ وكذا قال القاسم بن مخيمرة وحبيب بن أبي ثابت وعطاء بن دينار وغيره . وقال سعيد بن هلال : نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر^(١) . وإن صح هذا القول فإنه منتقض مع من أسلم من أعمامه كحمزة والعباس وأبي طالب عليهم السلام .

رأي الطبري في تأويل الآية

وهذا الرأي ينبغي أن لا يعدل عنه لأنه الموافق لنظم المعاني في آيات الكتاب العزيز، وأن القول بنزولها في أبي طالب نزول بفصاحة القرآن عن أعلى المستويات إلى الفصاحة العادية التي يعاب الكتاب أو القائل بنسبتها إليه ، فكيف بالكتاب المعجز .. !؟

قال الطبري بعد أن استعرض اختلاف المذاهب في تأويل الآية .. :

القول الأول ونسبه إلى ابن الحنفية والسدي وابن عباس وأبي معاذ وقتادة ومجاهد وابن زيد وهؤلاء اتفقوا على نزولها في المشركين عامة لا في واحد بخصوصه ولم يختلف هؤلاء إلا في دلالة اللفظ فابن الحنفية فسّر النأي بالتخلف وعدم الإجابة وابن عباس : ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به وينأون عنه ويتباعدون ، وقال بعضهم : ينهون عن القرآن أن يعمل به أو أن يسمع له ويعمل بما فيه وقيل عنه وعن النبي وهكذا . أطبقت كلمة هؤلاء على نزولها في قريش والمشركين عامة ..

(١) تفسير ابن كثير ، ١٣٢/٢ .

القول الثاني عن حبيب بن أبي ثابت عمّن سمع من ابن عباس يقول : نزلت في أبي طالب ينهى عنه أن يؤذى وينأى عمّا جاء به . وذهب هذا المذهب القاسم بن مخيمرة وعطاء بن دينار .

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال تأويله وهم ينهون عنه عن اتباع محمد ﷺ من سواهم من الناس وينأن عن أتباعه وذلك أنّ الآيات قبلها جرت بذكر جماعة المشركين العادلين به والخبر عن تكذيبهم رسول الله ﷺ والإعراض عمّا جاءهم به من تنزيل الله ووحيه فالواجب أن يكون قوله ﴿ وهم ينهون عنه ﴾ خبراً عنهم إذ لم يأتنا ما يدل على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم بل ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على صحّة ما قلنا من أنّ ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسول الله ﷺ دون أن يكون خبراً عن خاص منهم وإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية وإن ير هؤلاء المشركين يا محمد كلّ آية لا يؤمنوا بها حتّى إذا جاءوك يجادلونك يقولون إن هذا الذي جئتنا به إلّا أحاديث الأولين وإخبارهم وهم ينهون عن استماع التنزيل وينأون عنك ، فيبعدون منك ومن أتباعك ﴿ وإن يهلكون إلّا أنفسهم ﴾ يقول : وما يهلكون بصدّهم عن سبيل الله وإعراضهم عن تنزيله وكفرهم برّبهم إلّا أنفسهم لا غيرها..^(١)

وهذا المذهب هو الحق في المسئلة وإليه ذهب الرازي في تفسيره وذكر في تأويل الآية قولين نزولها في المشركين عامة الذين ينهون عن القرآن وتدبره أو عن النبي ﷺ وينأون عنه ونزولها في أبي طالب ونسبه إلى عطاء ومقاتل إلى أن قال : والقول الأول أشبه لوجهين : الأول أنّ جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية تقتضي ذمّ طريقتهم فكذلك قوله : ﴿ وهم ينهون عنه ﴾ ينبغي أن يكون محمولاً على أمر مذموم ، فلو حملناه على أنّ أباطالب كان ينهى عن إيذائه لما حصل هذا النظم . الثاني : أنّه تعالى قال بعد ذلك : ﴿ وإن يهلكون إلّا أنفسهم ﴾ يعني به ما تقدّم ذكره ، ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله : وهم ينهون عنه النهي عن أذيتّه ، لأنّ ذلك حسن لا يوجب الهلاك...^(٢)

والسيوطي في الدر المنثور ذكر الأقوال الثلاثة :

(١) الطبري ، التفسير ، ١١٠/٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ، ١٨٩/١٢ .

الأول: في أبي طالب وقال: أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وعبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس .

٢- في المشركين عامة، وقال: أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وأخرج هؤلاء وابن أبي شيبه عن محمد بن الحنفية أنهم كفّار مكة وأخرج هؤلاء وعبد حميد عن مجاهد. قال: قريش.
٣- أنها نزلت في عمومة النبي العشرة وهو قول سعيد بن هلال وأخرجه عنه ابن أبي حاتم^(١).

وهذا القول يردّه شاهر الحال فإنّ العباس والحمزة وأباطال من هؤلاء العشرة ولولم يُتَيّد النزول بعدد معيّن أمكن حمله على من بقي على شركه منهم ومع التقيّد ينتقص بهؤلاء الثلاثة عليهم السلام والعجب من إخراج الحاكم له عن حبيب بن أبي ثابت وتسميته في الصحيح وقول الذهبي عنه صحيح .. وموضع حبيب في الرواية معروف، فقد انفرد به ولم يروه أحد غيره، ولا يمكن المتابعة على ما يرويه ولو فرضناه ثقة في نفسه بعد قول ابن حبان: إنّه كان مدلساً، وقول العقيلي: غمزه ابن عون وله عن عطاء أحاديث لا يتابع عليها، وقول القطان: له غير حديث عن عطاء لا يتابع عليه وليست بمحفوظه، وقول الآخر عن أبي داود: ليس لحبيب بن عاصم بن ضمرة شيء يصحّ وقول ابن خزيمة: كان مدلساً^(٢).

وحينئذٍ كيف يُرتّب في الصحيح ما كان راويه على شاكلة حبيب بن أبي ثابت، وهذه ولا شك هفوة من الحاكم وما أكثر هفواته، والله سائله عنها، وكان عليه أن يتقده قبل أن يثبته في مستدركه أمّا الذهبي فإنّ نصبه المعهود حمله على نعتة بالصحيح ولم يكشف جديداً من حاله كما عرفناه والقرطبي شارك في الصوت النشاز فقد قال أولاً وأصاب الحق: هو عام في جميع الكفار أي ينهون عن اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وينأون عنه ونسب هذا القول إلى العباس والحسن، وعبر عن القول الثاني بصيغة التمريض إشعاراً بضعفه المتناهي بل سقوطه قال: وقيل: هو خاص

(١) الدر المنثور، ٣/٨ و٩.

(٢) الغدير، ٤/٨.

بأبي طالب ينهى الكفار عن أذية النبي ويتباعد عن الإيمان، عن ابن عباس أيضاً ولكنه جرياً على عادته وعادة سلفه الصالح!!! دعم هذا القول الواهي الموضوع على ابن عباس برواية رُكِبَ «بالبناء للمجهول» على أصلها الصحيح حديث موضوع، بادٍ عواره، بين سقطه، فاحش غلظه، وفيه زعم الزاعم نزول الآية في سيدنا أبي طالب. وذكر حديثاً آخر عن شيخ المضيرة وفيها نزول آية أخرى فيه وستعرض لها إنشاء الله تعالى، وحديثاً ثالثاً عن ابن عباس بضرب في متيه الضحضاح، ولا شبهة في وضعه^(١).

والغرض من وراء إثبات الموضوعات هو الإيحاء إلى القارئ بصحة التأويل التالي، مع كونه ذكره بصيغة التمريض ولولا تناهيه بالضعف لما ذكره بالصيغة المذكورة.

والبغوي ذكر القول الأول وأطلقه على سبيل الجزم وضعّف القول الثاني ونسبه إلى مقاتل وابن عباس وأعرض عن عطاء بن دينار.

أما أبو حبان في بحره المحيط: فقد بدء بنزول الآية في أبي طالب عليه السلام وهذا لا يدل على اعتماده كمذهب له لأنه قال عقيب ذلك: والظاهر أن الضمير في قوله «هم» يعود على الكفار وهو قول الجمهور، واختاره الطبري، وفي قوله عنه يعود إلى القرآن وهو الذي عاد عليه الضمير المنصوب في «يفقهوه» وهو المشار إليه بقولهم: إن هذا وهو قول قتادة ومجاهد والمعنى: أنهم ينهون غيرهم عن اتباع القرآن وتدبره وينأون بأنفسهم عن ذلك^(٢).

والشوكاني لم يجاوز نطاق زملائه فقد فسّر البدء بقوله: أي ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن أو بمحمد عليه السلام وبيعدون هم في أنفسهم عنه، وكان هذا القول هو المقدم لديه والمعتمد عنده ولذا عبّر عن الثاني بصيغة التمريض^(٣).

وبدأ الأكوسي تفسير الآية بالقول الأول مرجحاً إيّاه على غيره قائلاً: الضمير المرفوع للمشركين - أي هم - والمجروح للقرآن - أي عنه - أي لا يقنعون بما ذكر من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٤٠٦/٦ و٤٠٧.

(٢) ابن حبان، البحر المحيط، ١٠٠/٤.

(٣) فتح القدير، ١٠٨/٢.

تكذبه وعده حديث خرافة بل ينهون الناس عن استماعه لثلاً يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به وينأون عنه أي يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهاراً لغاية نفورهم عنه وتأكيدهم لنهيهم فإن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي، ثم عبّر عن القول الثاني بـ «قيل». والآلوسي إمعاناً منه في ظلم الحق ودعم اللوضاع أراد أن يحفظ شيئاً من ماء الوجه فزعم أن الآية جاءت على وجه الإلتفات وعليه لا يضطرب النظم، وهو مذهب شائع في الأساليب البلاغية وفي القرآن منه شيء كثير.

الإلتفات ..

وهو الإلتقال من ضمير إلى ضمير أثناء الكلام كقوله تعالى: ﴿حَقِّ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجْرِينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ..﴾^(١) حيث كان الكلام بصيغة الخطاب «كنتم» ثم تحوّل إلى الإخبار والغيبة «جرين بهم» ووجه الإلتفات بزعمه في الآية الكريمة هو عود الضمير المرفوع «هم» إلى أبي طالب، والمجروح إلى النبي «عنه» وبهذا يرتفع الإشكال كما يزعم. والإشكال هو: أن جميع الآيات المتقدمة في ذمّ فعل المشركين فلا يناسبه ذكر النهي عن أذيته عليه الصلاة والسلام وهو غير مذموم^(٢).

وإذا قدر الكلام العارض المخالف للنظم بنحو الإلتفات فلا إشكال حينئذ. وفي تفسير أبي السعود تجد نفس المسلك من اعتبار القول الأول هو الأصل ونعني به نزول الآية في المشركين عامة. وعزو القول الثاني إلى القليل المشعر بتمريضه.

نتيجة البحث ..

فتحصل لدينا ممّا سلف أن المفسّرين أجمع ضعفوا القول بنزولها في أبي طالب للأسباب التالية:

أولاً: الإرسال لأنّ ابن أبي ثابت لم يصرّح بشيخه وسمّاه من سمع من ابن عباس فهو مجهول لا يمكن الحكم عليه وعلى هذا تعتبر روايته من هذا الطريق مرسلة.

(١) يونس: ٢٢.

(٢) الآلوسي، روح المعاني، ١٢٧/٧.

ثانياً: اضطراب النظم القرآني، فإن آيات الكتاب العزيز تتسلسل ألفاظها بتسلسل معانيها في وحدة فنيّه أخذ بعضها برقاب بعض الكائنات العضوي الحي لا يتخلل جسمه عضو غريب عن المجموع العضوي للجسم، فليس بين الآي والآي سواء في الجمل أو معانيها فجوات تتسرّب فيها المعاني المغايرة للنظم المتصل أوله بوسطه بآخره. فإذا أرجعنا ضمير ﴿ وهم ينثون عنه ﴾ على أبي طالب ﷺ فقد أدخلنا على كليّ المعنى جزءاً غريباً عنه، إذ الآي برمتها تقتضي الذم لفعل القوم والنهي عن إيذاء النبي ﷺ لا يمكن أن يكون مذموماً إذ هو ممدوح قطعاً وعلى هذا يكون مغايراً لما سبقه من الآي ولما لحق به من المعاني، ولم نجد محاولة الألوّسي برده إلى الإلتفات لعدم جريانه في الآية مورد البحث حيث أنه كما ذكر الزمخشري: إيقاظ للسامع من الغفلة وتطريب له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر فإنّ السامع ربّما يملّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطاً له في الإستماع واستمالة له في الإصغاء إلى ما يقوله^(١). والإلتفات لا يجري فيما نحن فيه لأنّ الأمر يلتبس على السامع إذ ليس فيه انتقال من حال إلى حال مغايره على شكل ضرب من ضروبه.. لتوحد الضمائر والأفعال الواردة في الآيات وشرط الإلتفات أن يكون اختلاف بين السابق واللاحق كالاختلاف بين الخطاب والغيبة أو الخطاب والفعل والماضي والأمر والمضارع وهكذا.

ثالثاً: لا يصحّ نزول الآية في أبي طالب ﷺ نظراً لما جاء في الصحيحين - فيما زعموه من أنّ قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ نزلت في أبي طالب بعد وفاته فإنّ سورة الأنعام التي فيها الآية المبحوث عنها نزلت جملة واحدة بعد سورة القصص بخمس سور كما في الإتيان ١٧/١ فكيف يمكن تطبيقها على أبي طالب وهو رهن أطباق الثرى وقد توفي قبل نزول الآية ببرهة طويلة...^(٢)

وهكذا تجلّى لنا بطلان نزول الآية في سيّدنا أبي طالب ﷺ وصار كزوبعة الدخان في عصف الريح بعقابيل الأفق، وبعد هذا الفصل أرى إتماماً له لزوم التعرض

(١) راجع الطراز، ١٣٣/٢.

(٢) الغدير، ٥/٨ و٦ بتصرف.

إلى المتهم في الرواية على أبي طالب من رجال السند ولكن رأيت ذلك دونما جدوى حيث أن الحساب الأول ينبغي أن يوجه إلى الصحابي الذي رفع المتن ولكن القوم عدلوهم جميعاً فهم في عصمة من المحاسبة وحينئذ ليس من المستبعد أن يكون من دون الصحابي من الرواة صدقوا في الرواية وإن كانت حالهم تقتضي اتهامهم فلا تجدي محاسبتهم شيئاً اللهم إلا رجلاً لا بدّ من عرضهم أمام القارئ بعد تعريتهم من أمثال القاسم بن مخيمرة وعطاء بن دينار ومقاتل، فهؤلاء متأولون ولم يوقفوا مذاهبهم على صحابي فالمسئولية عليهم دون غيرهم.

القاسم بن مخيمرة ..

من أهل الكوفة سكن الشام مرابطاً، وثقه القوم وأتفقوا على توثيقه .. ولكنه روى عن غير ثقة كعبدالله بن عمرو بن العاص، وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري ويقال: إنه سمع من عائشة أيضاً^(١) كما حدث عن وراد كاتب المغيرة، وأعتقد أن الرجل ذهي من وراد هذا وليس بعيداً أن يكون وراد روى موت أبي طالب على الشرك عن المغيرة والمغيرة هو صاحب الضحاح وراويته^(٢).

ثم إن الصحابة الذين ادّعى الرواية عنهم لم يسمع من واحد منهم وهذا ما ثبت عنه أنه لم يسمع من الصحابة^(٣)، فلا بدّ أن تكون روايته بطريق الإرسال والظاهر أن الرجل تمحض للأموية حين سكن الشام فقد كان موالياً لهم مطيعاً لأوامرهم وما كان يخرج إلى سفر حتى يستأذن الوالي، فقيل له: رأيت إن لم يأذن لك، قال: إذن أقيم، ثم قرأ: ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾^(٤) وهذا التأويل باطل كتأويله الآية في أبي طالب .. لأن الإذن الواجب مختص بالنبي ﷺ ولو سرى لغيره من حكام السوء لأئمت الأمة بأجمعهم إلا ابن مخيمرة، إذ ما كان يفعل ذلك غيره، بل كان يفتي الرجل لصالح الأموية فيمن فارق بعثه ببطلان صلواته حتى يرجع^(٥).

(١) تهذيب التهذيب، ٣٠٣/٨.

(٢) إيمان أبي طالب لفخار بن معد، ص

(٣) سير أعلام النبلاء، ٢٠٢/٥؛ وتهذيب التهذيب، ٣٠٣/٨؛ تهذيب الكمال، ١٩٤/١٥.

(٤) سير أعلام النبلاء، ٢٠٢/٥.

(٥) نفسه.

وهذا دليل آخر على عراقته في الأموية، وقد عرفت منه الأموية الولاء الشام فكرمته فقد أعطاه عمر بن عبدالعزيز ما أغناه^(١) عن التجارة على نزاره ما كان يعطيه هذا الرجل.

قال الذهبي: لم يخرج له البخاري^(٢) ولكن المزي زعم أنه استشهد به في الصحيح وروى له في رفع اليدين في الصلاة^(٣).
ومهما قيل فيه فإن الجامع لأمره..

أولاً ولأنه الشديد للأموية، فليس غريباً أن يسدي لهم هذه اليد في الإفتاء على أبي طالب وإن لم يكن هو مخترعه وواضعه فإنه يروي الموضوع المخترع على أقل التقدير.

ثانياً: لم يرو عن أحد من الصحابة حتى أبو بردة فقد نسب بعضهم إليه الرواية عنه ونفى ذلك البعض الآخر^(٤) وروايته عن عائشة مشكوك فيها وحينئذ تكون روايته معلولة بالإرسال فتسقط.

ثالثاً: إن روايته وإن كانت بالإرسال عن عبدالله بن عمرو بن العاص وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري الناصبي الخبيث الذي قُبل يد أبي غادية قاتل عمّار، وكان يروي حديث المنزلة بقوله: بمنزلة قارون من موسى... وروايته عن وّاد كاتب المغيرة تجعله في موضع الإتهام فيما يرويه عن أهل البيت عليهم السلام.

رابعاً: وهذه الحجة نسوقها على الخصم وإلّا فلنسنا نحتج بها لأنفسنا، أن القاسم لم يخرج له البخاري وقد قيل إن من روى عنه البخاري فقد اجتاز القنطرة وحينئذ يبقى على صفة الإتهام، وترد روايته عن سيّدنا حكيم قريش وحامي الإسلام على أم رأسه والحمد لله رب العالمين.

عطاء بن دينار ..

عطاء بن دينار أبو الريان أو أبو طلحة الهذلي مولى بني ختاعة بطن من هذيل ..

(١) سير أعلام النبلاء، ٢٠٢/٥: تهذيب الكمال، ١٩٥/١٥: وتهذيب التهذيب، ٣٠٣/٨.

(٢) تذكرة الحفاظ، ١٢٢/١.

(٣) تهذيب الكمال، ١٩٦/١٥.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٣٠٢/٨ و٣٠٣.

روى تفسيره عن سعيد بن جبير ولم يسمع منه .

قال أحمد بن صالح : ... تفسيره عن سعيد بن جبير صحيفة ، وليست له دلالة على أنه سمع من سعيد بن جبير .
والراجح أنّ الرجل أخذ رأيه في أبي طالب من هذا التفسير وهو موضوع لصالح الأموية .

قال أبو حاتم : صالح الحديث إلا أنّ التفسير أخذه من الديوان ، فإنّ عبد الملك بن مروان كتب يسأل سعيد بن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن فكتب سعيد بن جبير بهذا التفسير إليه فوجده عطاء بن دينار في الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير^(١) .

ولا اعتقد أنّ سعيد بن جبير يذهب إلى موت أبي طالب على الشرك ، وهو الثقة ، المؤمن الجانب الذي لا يقدم على الحق حاجة أخرى . وإذا ما برّأنا عطاء بن دينار من جريرة الوضع والإضافة إلى التفسير ما ليس فيه ، فإنّ التفسير نفسه لما كان صحيفة ولم يكن بنحو الإملاء فإنّه معرض للإضافة وللزيادة والنقص ، فكيف يوثق بتفسير على هذا التّمط والشاكله .

ونخلص من هذه المقدمة إلى النتيجة التالية :

أولاً : عطاء بن دينار وإن وثقوه إلا أنّ تفسيره لا إعتباره لأنه أخذه من صحيفة لا بالسمع حتّى ولا بالوجدادة إذ لم يكن سعيد على علم بما كان يفعل عطاء .
ثانياً : إنّ هذا التفسير وضع بطلب من عبد الملك وحينئذٍ فهو مؤلف للأموية خاصة وليس من المعقول أن يخلو من غمز أهل البيت والإفتراء عليهم لأنّ ذلك جزء لا يتجزأ من سياسة الحكم وقوة استمراره .

ثالثاً : أنا شخصياً أنزّه سعيداً بن جبير من هذا التفسير وإذا ما ثبت وضعه على يديه فإنّما وضعه لإرشاد حكّام السوء ووعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وما فيه من أمور شاذة أو منافية للواقع فليس من سعيد بل من غيره ما في ذلك ريب .

(١) تهذيب الكمال ، ٤٣/١٣ و ٤٤ ؛ ميزان الإعتدال ، ٧٠/٣ ؛ تهذيب التهذيب ، ٧/١٧٩ .

مقاتل بن سليمان ..

مقاتل بن سليمان البلخي المفسر ويكنى أبا الحسن ، اتهم بالكذب .
قال وكيع : كان كذاباً .

وقال النسائي : كان مقاتل يكذب .

وقال البخاري : سكتوا عنه .

وقال يحيى : ليس حديثه بشيء ..

وجاء في ترجمة محمد بن سعيد المصلوب عن النسائي : أن مقاتلاً يضع
الحديث .

وهو الذي حكم على نفسه بالكذب .

قال سفيان بن عيينة : سمعت مقاتلاً يقول : إن لم يخرج الدجال في سنة خمسين
ومائة فاعلموا أنني كذاب ونحن الآن على رأس القرن الخامس عشر الهجري والدجال
لا يزال مستتراً ومقاتل كذاباً .

وكان يدعي لنفسه الإحاطة بكل شيء في الأرض أو في السماء .

قال الجوزجاني : كان دجالاً جسوراً ، سمعت أبا اليمان يقول : قدم هاهنا فأسند
ظهره إلى القبلة وقال : سلونبي عما دون العرش وحدثت أنه قال مثلها بمكة فقام إليه
رجل فقال : أخبرني عن النملة أين أمعاءها ؟ فسكت .

والذي جرّاه على هذا الإدعاء العريض من كان يأخذ عنهم وهم اليهود
والنصاري .

قال ابن حبان : كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق
كتبهم ، وكان يشبه الرب بالمخلوقات وكان يكذب في الحديث .

وكان خارجة بن مصعب يستحلّ دمه ، فقد قال : لم أستحلّ دم يهودي ، ولو
وجدت مقاتل بن سليمان خلوةً لشققت بطنه^(١) .

كره العلماء تفسيره لكذبه ولروايته الإسرائيليات ولوضعه الأحاديث .

يقول سفيان بن عيينة : سمعت مسعراً يقول لحمام بن عمرو : كيف رأيت

(١) ميزان الإعتدال ، ١٧٣/٤ و ١٧٤ و ١٧٥ ترجمة مقاتل .

الرجل - يعني مقاتلاً؟ قال: إن كان ما يجيء به معلماً فما أعلمه ولعلّه تأثر بهذا القول فكان عنده كتاب لمقاتل حتّى أنكر عليه ذلك تُعيم بن حمّاد وقال له: يا أبا محمد تروي لمقاتل في التفسير؟ قال: لا ولكن أستدلّ به وأستعين^(١).

لم يأخذ مقاتل تفسيره من أحد من المفسّرين كالضحّاك والسّدي وغيرهما. سنل إبراهيم الحربي: هل سمع من الضحاك بن مزاحم شيئاً؟ قال: لا، مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين، وقال مقاتل: أغلق عليّ وعلى الضحاك باب أربع سنين. قال إبراهيم: وأراد بقوله باب يعني باب المدينة، وذلك في المقابر.

قيل لإبراهيم: من أين كان؟ قال: من أهل مرو.

قال إبراهيم: ولم يسمع من مجاهد شيئاً ولم يلقه.

قال إبراهيم: وإنّما جمع مقاتل تفسير الناس، وفسر عليه من غير سماع...^(٢) ولذا ما كان يتردّد في تفسير القرآن برأيه.

جاء إنسان إلى مقاتل فقال له: إن إنساناً سألتني: ما لون كلب أصحاب الكهف؟ فلم أدر ما أقول له. فقال مقاتل: ألا قلت هو أبقع، فلو قلت له لم تجد أحداً يرد عليك قولك. قال أبو إسماعيل: وسمعت نعيم بن حمّاد يقول: أول ما ظهر من مقاتل من الكذب هذا، قال للرجل: يا مائق لو قلت أصفر أو كذا من كان يرد عليك^(٣)!

وكان يؤجر نفسه على السلطنة العباسية لوضع الحديث.

قال المهدي لأبي عبيد الله: ألا ترى إلى ما يقول هذا - يعني مقاتلاً -؟ قال: إن شئت وضعت لك أحاديث في العباس^(٤) ومن قبله كان قد عرض نفسه على أبيه^(٥).

قال أبو عبيد الله والد هارون: قال لي أمير المؤمنين المهدي: لمّا أتى نعيّ مقاتل اشتد ذلك عليّ فذكرته لأمير المؤمنين أبي جعفر فقال: لا يكبر عليك فإنّه كان يقول لي: أنظر ما تحب أن أحدثه فيك حتّى أحدثه..

وقطع خارجة بن مصعب بنفسه وفجوره وبه استباح دمه قال: كان جهم ومقاتل

(١) تهذيب الكمال، ترجمة مقاتل من ص ٣٣٩ إلى آخره.

(٢) تهذيب الكمال، ٣٤٤/١٨ و ٣٤٥ و ٣٤٦.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

بن سليمان عندنا فاسقين فاجرين .. (١)

وكان علماء الأمة لا تستحل الرواية من تفسيره .

قال محمود بن آدم المروزي : حضرت وكيعاً وسئل عن كتاب التفسير عن مقاتل ابن سليمان ، فقال : لا تنظر فيه . قال : ما أصنع به ؟ قال : ادفنه (٢) .

وقال أحمد بن حنبل : مقاتل بن سليمان صاحب التفسير ما يعجبني أروي عنه شيئاً (٣) .

وأخيراً أجمعوا على تركه .. (٤)

ونخلص من هذه المقدمة إلى النتيجة التالية :

أولاً : مقاتل كذاب يضع الحديث

ثانياً : فاسق فاجر

ثالثاً : أخذ تفسيره من أفواه الناس

رابعاً : لم يسمع من الضحاك ولا مجاهد وإنما كان يروي عن اليهود والنصارى وينسبه إلى المفسرين

خامساً : باع نفسه على حكام زمانه ، يكذب على النبي لهم ويضع الحديث

لصالحهم

سادساً : عرض نفسه على بني العباس ولكنهم رفضوه ولو كان هذا الرفض

صحيحاً لعاقبوه على كذبه ولعبه بالسنة الشريفة

سابعاً : لا أستبعد أن يكون قوله في تأويل الآية مارة الذكر في سيدنا أبي طالب

كان بأمر بني العباس أو تبرعاً منه لأجلهم ، لأن العباسيين صار لهم إرب في مثل هذه

الفرية كأسلافهم بني أمية ..

يقول ابن المعتز لابن طباطبا العلوي وغيره :

فأنتم بنو بنته دوننا ونحن بنو عمّة المسلم

ويقول الطاهر بن علي بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس في الطالبين :

(١) تهذيب الكمال ، ١٨٠ / ٣٤٥ .

(٢) الجرح والتعديل ، ٨ / ٣٥٤ .

(٣) نفسه ، ص ٣٥٥ ، وراجع ابن عدي : الجرح ، الكامل في ضعفاء الرجال ، ٦ / ٤٣٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ، ٧ / ٢٠٢ .

لو كان جدكم هناك وجدنا فتنازعا فيه لوقت خصام
 كان التراث لجدنا من دونه فحواه بالقريبى وبالإسلام
 حقّ البنات فريضة معلومة والعم أولى من بني الأعمام^(١)

واتحدت نظرة العباسيين بإخوانهم الأمويين إلى أهل البيت ومنها القول في أبي طالب وتقديم الخلفاء الثلاثة على أمير المؤمنين عليه السلام وإن كان العباسيون قبل الحكم لا يرون ذلك وليس من العجيب أن ينبري كاذب كمقاتل فيضع للعباسيين ما يشاؤون فيمن يشاؤون ويدخل في هذا الحساب تأويل آيات الشرك في سيدنا أبي طالب عليه السلام. ومن الثابت القطعي أنّ جدّ العباسيين هو أحد اليهود على إيمان أخيه أبي طالب عليه السلام، وهذه نبذة نافعة تشرح حال هؤلاء الثلاثة الذين رووا نزول الآية السابقة في أبي طالب عليه السلام ليعرف القارئ الكريم نوازعهم والبواعث النفسية التي حملتهم على هذا التأويل الباطل وهناك رواية أخر أعرضنا عن نقل حالهم لعلنا بأنّ الداء لا يكمن فيهم، فقد يروي الراوي الصحيح وإن كان هو غير ثقة في نفسه والمستول عن الكذب من نقل عنه من الصحابة ولكنّ التهمة تعصب برأس الراوي من غيرهم وعلى الباحثين أن يتوجهوا لهذه الحقيقة وكان أول من أشار إلى ذلك تلميحاً سيدنا الإمام شرف الدين في كتاب أبي هريرة ردّاً على من ذبّ التهمة عن أبي هريرة لأنّه صحابي وعصبتها بجبين غيره لأنّ أبا هريرة كصحابي معصوم عن الكذب عندهم.

الشبهة الثالثة ..

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢). أخرج نزول الآية في أبي طالب البخاري عن الزهري عن سعيد بن المسيّب في كتاب التفسير في القصص عن أبيه وأخرج مسلم في صحيحه من طريق سعيد بن المسيّب وتبع الشيخين جلّ المفسرين لحسن ظنّهم بهم . قال واللفظ للبخاري: حدّثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيّب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ

(١) عبد الرحيم بن أحمد العباسي، معاهد التنصيص، ٢٤/٣ و ٢٥، ط عالم الكتب - بيروت، ١٣٦٧.

(٢) القصص: ٥٦.

فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال : أي عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانها بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما تكلم : على ملة عبدالمطلب وأبي أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك فانزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت .. ﴾ الآية (١) .

وذكر الطبري في تفسيره نزولها في أبي طالب ﷺ وبناء للمجهول قائلاً بعد كلام : وذكر أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل امتناع أبي طالب من إجابته إذ دعاه إلى الإيمان بالله إلى ما دعاه من ذلك ... (٢)

وأخرج الطبري الرواية عن ابن عمر وفي رواية الدر المنثور أنّ ابن عمر زعم نزولها في أبي جهل أيضاً (٣) .

وآدعى الزجاج الإجماع على نزولها في أبي طالب ﷺ (٤) وتعقبه القرطبي قائلاً : والصواب أن يقال : أجمع جلّ المفسرين على أنّها نزلت في شأن أبي طالب عمّ النبي وهو نصّ حديث البخاري ومسلم .. (٥)

والقرطبي فقد الصواب حين ارشد الزجاج إلى الصواب لأنه لا إجماع حين يتفق الجدل لا الكل ، ولكنّ القوم استمراراً على الباطل ودحساً للحق فيما يزعمون من أجل البخاري ومسلم خالفوا كلّ القواعد المقرّرة والمتفق عليها ومنها الإجماع وهو : الإتفاق في عصر على أمر من الأمور من جميع من هو أهله من هذه الأمة .. وقيد جميع يخرج الإجماع بعد خلاف مستقر عن حيّ أو ميت ، ومثل هذا الإجماع ممتنع فإنّ العادة تقتضي بامتناع الإتفاق على ما استقرّ فيه الخلاف .. (٦) وعلى هذا فلا يقال لاتفاق

(١) راجع البخاري ، ٨/٨ ، ٩ و نقلاً عن البخاري ، ١٨٤/٧ .

(٢) تفسير الطبري ، ٥٨/٢٠ .

(٣) نفسه ؛ الدر المنثور ، ١٣٤/٥ .

(٤) الزمخشري ، الكشاف ، ١٨٥/٣ .

(٥) القرطبي ، ٢٩٩/١٣ .

(٦) التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، ١٠٤/١ ، ط لبنان ناشرون ، أولى ١٩٩٦ .

الجل - لو حصل - إجماعاً ولكن القرطبي أبي أن يخرج من الإجماع لئلا يعرضه للسقوط عناداً وبغضاً لآل محمد وتقرباً من أعداءهم ..

وقال الرازي : هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب عليه السلام ثم أشار إلى ادعاء الزجاج الإجماع ولم يتعرض لنقده واقتصر على سياق الرواية المخالفة لما تقدمها من السياقات وفيها أن أباطالب دعى قومه إلى تصديق النبي ﷺ وقول النبي له : أتأمروهم بالنصح لأنفسهم وتدعوها لنفسك ، وردّ عليه إنك صادق ولكنني أكره أن يقال : جزع عند الموت .. (١)

وهذا لا يأتلف مع ما عرف عن أبي طالب عليه السلام من العقل والحكمة إذ لا يقدم عاقل على معاندة الحق بعد تصديقه به لمجرد أنه يخشى قالة الناس فيه بعد موته ولو نسب هذا القول إلى النوكى لشانهم فكيف وهم ينسبون إلى شيخ الأبطح وحكيم قريش وشاعرها وقد عاش عمره يشيد بالحق ويصرّح بقبوله ويعلم إيمانه به بشعره ويدافع عنه ، كل هذا لا يخشاه ولا يجلب له قالة السوء ويخشى من كلمة واحدة يقولها بلسانه ثم يودّع الوجود الفاني إلى العالم الباقي فهل يصدق عقل سليم هذا؟!

هذا وقد عايش الوحي عشر سنين من عمره وهو ينزل على ابن أخيه ويرى من إشرافاته الخاصة ما لا يراه غيره ، والقوم لم يكلّفوا أنفسهم نقداً لما يقال في حق أهل البيت عليهم السلام من عدوّهم ولقد ظهر لي من سبر الأحاديث الموضوععة في المسئلة أن جانباً كبيراً منها وضع في العصر العباسي حين تعلق للقوم غرض سياسي في ذلك .. خذ على سبيل المثال مارواه «الماوردي» من نزول الآية في أبي طالب عن ابن عباس ومجاهد وفتادة والحسن وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال لعنه أبي طالب : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة فقال : لولا أن تعيرني قريش إلى آخر الخبر .

وقال فتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ قاله فتادة يعني العباس (٢) .

وهذا بالضبط ما كان يروّجه العباسيون وأعوانهم بين الناس : ونحن بنو عمّه المسلم .

(١) مفاتيح الغيب ، ٢/١٣ .

(٢) الماوردي ، النكت والعيون ، ٢٥٩/٤ .

وزعم ابن حبان أن المسلمين أجمعوا على نزولها في أبي طالب وحديثه مع رسول الله حالة أن مات مشهور^(١).

وقد عرفت وجه الإجماع فيما تقدم .

وقال أبو السعود : الجمهور على أنها نزلت في أبي طالب ، وساق رواية الشيخين باختصار^(٢).

أما الشوكاني فقد قال : وهذه الآية نزلت في أبي طالب كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ثم نقل إجماع الزجاج المدعى ولم يتعقبه بحرف مع ما عرفت من بطلانه إذ لم يقسم أحد من علماء أصول الفقه الإجماع إلى قسمين كما فعل القرطبي ؛ إجماع الكل وإجماع الجل ، وهذا احتيال غريب في تثبيت الأخطاء والسقطات .

وقال الشوكاني بعد ذلك : وقد تقرر أن الإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل في ذلك أبوطالب دخولاً أولياً^(٣).

وهذا اعتراف ضمني منه ببطلان نزولها في أبي طالب ولكنه لم يملك شجاعة المؤمنين لكي يصرح به . والحق أن القوم حملهم على تخصيص نزولها في أبي طالب ﷺ مع رد السياق لهذا التخصيص هو رواية الشيخين لها لا غير ، ولذا استشهد الشوكاني في بدء الآية برواية الشيخين لها ولم يجد شاهداً على ذلك غيرهما .

والبغوي شارك في هضم الحق وذكر نزولها في أبي طالب ﷺ وعزى ذلك إلى مجاهد ومقاتل وقد عرفنا حال الثاني ، ولا يقبل قوله إلا من كان على شاكلته ، ويكفيه ما قال فيه ابن حبان : كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم ...^(٤) وأما مجاهد فلا يختلف عنه اختلافاً كبيراً ولقد أحسن ابن حبان حين صنفه في الضعفاء .

قال أبو بكر بن عيَّاش : قلت للأعمش : ما بال تفسير مجاهد مخالف - أو شيء نحوه ؟ قال : أخذها من أهل الكتاب ...^(٥)

(١) البحر المحيط ، ١٢٦/٧ .

(٢) تفسير «أبي السعود» ، ١٩/٧ .

(٣) فتح القدير ، ١٧٨/٤ .

(٤) كتاب المجروحين ، ١٤/٣ .

(٥) ميزان الإعتدال ، ٤٣٩/٣ .

فهؤلاء جميعاً علومهم في التفسير دخيلة وهي الإسرائيليّات التي أطلقت من أصحابها لغرض التشويه والتجهيل وتسميم العقل وتعتيم الرؤية وأخذها هؤلاء بسوء قصد أو غيره.. فكيف نجعلهم حجّة في فهم كتاب ربّنا ونعرض عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وهم عدل القرآن والثقل الثاني المقرون به الذي لا يفارقه، حتّى يرد كلاهما على رسول الله صلى الله عليه وآله الحوض.

أليست هذه خسارة كبرى ما منيت بها أمة من الأمم؟ فأيّ أمة تاريخيّة احتضنت الزيف والبهرج وأعرضت عن الجوهر ولم تندثر وتهلك؟؟ ومهما كثرت القول حول تأويل الآية فمداره على رواية الشيخين ليس إلّا وقد اعترف بذلك المفسّرون جميعاً واستمع إلى ابن كثير وهو يردّ الآية في شيخ الأبطح إلى كتاب الصحيحين بقوله: وقد ثبت في الصحيحين أنّها نزلت في أبي طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله (١).

وخادع القوم عقولهم فزعموا أنّ التأويل مورد إجماع الأئمة وقد عرفت حاله، واعترف الكثير منهم بطلانه وأراد القرطبي التحايل على الحق فقسّمه إلى الكل والجل، ولم نسمع لحد الآن بإجماع الجل، بل الإجماع إذا نقص طرف من أطرافه لا يعدّ إجماعاً، ولذا قال الألويسي:

وحكاية إجماع المسلمين والمفسّرين على أنّ الآية نزلت فيه لا تصحّ، فقد ذهب الشيعة وغير واحد من مفسّريهم إلى إسلامه وادّعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك وأنّ أكثر قصائده تشهد له بذلك، وكأنّ من يدّعي إجماع المسلمين لا يعتدّ بخلاف الشيعة ولا يعول على رواياتهم... (٢)

مرّ الحديث عن هذا الإجماع الغريب وقول القرطبي عنه، وهو دليل على عدم انفراد الشيعة بخلافه وإنّما خالفه الكثير إن لم يكن أكثر أهل السنّة والجماعة ولكنّ القوم فرّطوا بالحق ولم يفرّطوا بالشيخين وسبب ذلك أنّهما القاعدة لكلّ معتقد، والأصل لجميع النظريات في الإمامة وغيرها.

(١) تفسير ابن كثير، ٤٠٦/٣.

(٢) روح المعاني، ٩٧/٢٠.

خاتمة المطاف ..

الناظر في موضع الآية ومحلّها من السّياق حيث جاءت وسطاً بين أيّ تصف المؤمنين وأخرى يذكر سبحانه فيها الذين لم يؤمنوا حذار أن يتخطفوا من مكة المعظمة ، فمقتضى النظم القرآني أنه سبحانه أراد بيان أن هداية المهتدين منهم لم تستند إلى دعوة الرسول فحسب وإنما الإستناد الحقيقي إلى مشيئته وإرادته سبحانه لا على وجه الإلجاء والقسر بل بنحو التوفيق والهداية وهي كبقية أخواتها ممّا يحمل معناها من قبيل : ﴿ ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء .. ﴾^(١) و ﴿ إن تحرص على هداهم فإنّ الله لا يهدي من يضل وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم .. ﴾^(٢) .. ﴿ أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون .. ﴾^(٣) إلى آخر آيات كثيرة تدلّ على نفس المعنى في آيتنا مورد البحث^(٤) .

وهي لبيان أنّ هؤلاء المذكورين من المهتدين هم على شاكلة غيرهم في إسناد هدايتهم إليه سبحانه ، فلا صلة لها بأيّ إنسان خاص أبي طالب أو غيره وهي إن حققت على إيمانه أدلّ لما جاء فيها من التأكيد على حبّ النبي إياه ، حتّى قال الألويسي : ثمّ إنّّه على القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبّه والتكلم فيه بفضول الكلام فإنّ ذلك ممّا يتأدّى به النبي عليه الصلاة والسلام الذي نطقت بناءً على هذه الروايات بحبّه إياه والإحتياط لا يخفى على ذي وهم ...^(٥)

ونسأل صاحب هذا القول : هل عفّ قومه وعلى رأسهم خالهم معاوية عن سبّ ولده والتكلم فيه بفضول الكلام ليتأدّبوا مع الوالد ...؟

ثمّ إنّ ما روي في الآية بمفردها كلّها من قبيل المراسيل فإنّ منها ما رواه عبد بن حميد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة ، وهو يوم وفاة أبي طالب عليه السلام كان في اليمن

(١) البقرة : ٢٧٢ .

(٢) النمل : ٣٧ .

(٣) يونس : ٤٣ .

(٤) تشرّفنا باستلهم المعاني الخاصة بالآية من غدیر مولانا الأُمیني رحمته الله وشرّفنا ألفاظها بتطعيمها بفيض

من جملة الشريفة ، الغدير ، ١٨/٨ .

(٥) روح المعاني ، ٩٧/٢٠ .

على دين الشرك يتكفف الناس ويسألهم إلحافاً فكيف حضر وفاة شيخ الأبطح ولم يسلم إلا عام خيبر لكنّ القوم بتعديل الصحابة أجمعين أكتعين أبصعين لم يعتبروا مرسل الصحابي مرسلأ لزعمهم أنه لا يرسل إلا عن ثقة ..

والمروية عن ابن عباس مرسله أيضاً لأنّ ابن عباس كان يرضع ثدي أمه يوم وافى حكيمة قريش الأجل والقول فيها كالقول في سابقتها . مضافاً إلى ورود أبي سهل السري في سند الرواية وهو كذاب وضاع كان يسرق الحديث ومثله في الكذب عبدالقدّوس الذي روى عنه أبو سهل فهو كذاب يروي عن كذاب ويسوق السند إلى صحابي روي عنه بطرق معتبرة إسلام أبي طالب عليه السلام وهو عبدالله بن عباس على أنه كان في وفاة أبي طالب رضيعاً في حجر أمه ، فكيف يحتج برواية معلولة بالإرسال في سندها كذابان وضاعان على أمر خطير من قبيل إسلام أبي طالب وموته عليه أو على الشرك وحاشاه منه .

والمروية عن ابن عمر جاءت بسند فيه الكذابان أبو سهل وعبدالقدّوس ، وفي المعنى رواية ثانية عن ابن عمر وفيها نزول الآية فيه وفي أبي جهل أيضاً ، وهي على علّاتها مرسله كذلك لأنّ ابن عمر كان يوم وفاة أبي طالب عليه السلام ابن السابعة فإنّ مولده كان بعد البعثة بثلاث سنين ، والعادة قاضية على من كان في سنّه بعدم حضور ذلك المجلس الرهيب فهي مرسله من هذه الناحية أيضاً .

فهذه المراسيل المرويّة عن الكذّابين كيف يحتج بها القوم ، لولم تكن صدورهم مكتنّزة بالقتام الأسود على أمير المؤمنين عليه السلام نفساً وأباً وأولاداً ترضية للأموية وشيخها خال أهل السنّة والجماعة...؟

الشبهة الرابعة .. حديث الضحضاح

ونحن نذكر سياقاً واحداً لهذه الفرية الموضوعية ثمّ نحاول التعرّف عليها من خلال روايتها ومخرّجها ..

حديث العباس بن عبدالمطلب عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما أغنيت عن عمك فإنّه كان يحوطك ويغضب لك . قال : هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك

الأسفل من النَّار^(١).

وهذه القرية أخرجها البخاري ومسلم بعدة طرق ولها سياقات وفي بعضها اختلاف يسير، والذي يظهر للمتتبع من استقراء هذه الموضوعات أن القوم كجاري عاداتهم تبع للشيخين فيها ولولاهما لما كان لها قيمة تذكر من حيث السند والتمن وعندهم أن اتفاق هذين الرجلين على رواية يمنحها حكم التواتر.

وقد أخرجها أيضاً مسلم في كتاب الإيمان باب شفاعة النبي لأبي طالب والتخفيف عنه .. من هنا تحجرت عقول القوم عليها وحضروا على أنفسهم مناقشتها.

الحجر لابن حجر ..

بالغ ابن حجر كما هي عادته في ترميم هذه الرواية الموضوعية وتلافى أخطائها وتسوية نقائصها، وأغمض عينيه عما فيها من مخالفات للكتاب والسنة المعصومة كما لم يجد بداً من الإعراف بفضل أبي طالب عليه السلام فقال: وكان يذب عن النبي عليه السلام ويرد عنه كل من يؤذيه، وهو مقيم مع ذلك على قومه، وقد تقدم قريباً حديث ابن مسعود: وأما رسول الله عليه السلام فمنعه الله بعمه وأخباره في حيافته والذب عنه معروفة مشهورة ومما اشتهر من شعره في ذلك قوله:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
وقوله:

كذبتم ورب البيت نبي محمد
ولما نقاتل حوله ونناضل

وقال أيضاً: وكان أبوطالب عضداً وناصراً على قومه فلما هلك أبوطالب نالت قريش من رسول الله عليه السلام من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفیه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً فدخل رسول الله عليه السلام بيته يقول: ما لنتني قريش بشيء أكرهه حتى مات أبوطالب^(٢).

وهنا يحق للعاقل أن يحكم عقله ويسألهم - إن كان باحثاً عن الحق يريد إصابة

(١) أخرجه البخاري في ٦٣ كتاب مناقب الأنصار: ٤٠ باب قصة أبي طالب. راجع محمد فؤاد عبد الباقي،

اللؤلؤ والمرجان، ٥٣/١.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ٢٣٤/٧.

كبد الحقيقة بسهم البحث - ما هذه العناية القصوى من رجل مشرك في دفاعه عن نبي جاء بما يخالف دينه جملة وتفصيلاً بل بما يعنى على دنياه أيضاً فإنَّ العداء الذي جلبه النبي ﷺ بدعوته المخالفة لما انطوت عليه الجاهلية شكلاً ومضموناً، لا يقل عن أي عداء آخر. أهي مجرد قضايا الرحم، وأصرة الدم، أو مجرد كونه ابن شقيقه المتوفى شاباً. فهذا السبب لا يساوي الجهد الكبير الذي بذله أبوطالب في الدفاع عنه وتعريض نفسه وبيته للخطر الماحق. ولقد جعل سيدنا أبوطالب المصالح الخاصة كلها تحت قدميه واندفع في حماينه، غير عابئ بشيء من أمور الدنيا. إنَّ العقل المتحرر من أسر الهوى ينأى بتصديقه عن مثل هذه الأمور مخالفة لأبسط قواعده.

أجل؛ إنَّ السبب الحقيقي الذي حمل أباطالب على التضحية بكل شيء حتى شملت المال والوولد، فكان يضع أحد أولاده لينام في فراش النبي حتى إذا توجه خطر إلى النبي ﷺ يكون ولده فداءً له ..

أقول: السبب الحقيقي لهذا كله هو القناعة النفسية بصدق النبي ﷺ وأنه نبي حقاً وعلى أبي طالب أن يؤمن به ويشدُّ أزره وبما أنَّ له مركزاً مرموقاً في قريش وأنَّ حماية النبي موكلةً إليه دون غيره لذلك اختلف إيمانه عن إيمان غيره، فكان كمؤمن آل فرعون يسرَّ الإيمان ويرضي قريش بظاهر ينسجم مع ما هم عليه من الوثنية إلى الحد الذي لا يتأثر بذلك الظاهر إيمانه المضمحل وبهذه السياسة الحكيمة التي ألفت بين ما يريد الإيمان منه وما تريده النصره، صمد في وجه قريش ولولا ذلك لعسر عليه الإحتفاظ بمكانته بين قريش، ولناصبته قريش العداء، ومن ثمَّ لم يعد بالإمكان الدفاع عن النبي ودعوته ولاحتاج إلى من يدافع عنه هو أيضاً.

وقد اعترف ابن حجر بنصاف إيمان سيدنا أبي طالب وجحد النصف الآخر عناداً وتجاهلاً لا جهلاً لعلمه أنَّ الإيمان لا يمكن قسمته بالمناصفة لشدة التصاق أحد النصفين بالآخر لما بينهما من الملازمة الأكيدة. قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون أبوطالب كان يتحقق أنه رسول الله ولكن لا يقتر بتوحيد الله ولهذا قال الأبيات النونية:

ودعوتني وعلمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت قبل أمينا

فاقتصر - أي النبي في ساعة وفاته - على أمره له بقوله: لا إله إلا الله، فإذا أقرَّ

بالتوحيد لم يتوقف على الشهادة بالرسالة^(١) .

ونسأل الحافظ ابن حجر إذا كان يتحقق أنه رسول الله ويعلم صدقه فهو إذن مؤمن برسول اسمه محمد ﷺ وهو صاحب رسالة .. فما هذه الرسالة التي يتحقق أبو طالب من صدقها إن لم يكن في طليعتها الإيمان بالله وشهادة ألا إله إلا الله فمن آمن بمحمد ﷺ لا ينفك إيمانه به عن إيمانه بربه واحداً لا شريك له وهو الذي بعثه بالنبوة . وهذا اعتراف صريح من الحافظ بإيمان أبي طالب ولكن يحول بينه وبين التصريح بذلك القاعدة الفولاذية التي لا تسمح بمسائلة الشيخين فيما اتفقا عليه ، وهذا هو دين الجاهلية وشعاره ﴿ وجدنا آباءنا على ملّة ﴾ .

وعلى أساس هذه القاعدة الفولاذية ردّوا كثيراً من الأحاديث الصحاح الثابتة بالطرق المعتمدة عند الأمة جمعاء ، ومنها شهادة العباس لأبي طالب بقول لا إله إلا الله . يقول ابن حجر أيضاً : في سؤال العباس عن حال أبي طالب ما يدل على ضعف ما أخرجه ابن إسحاق من حديث ابن عباس بسند فيه من لم يسمّ وساق الرواية ثم قال : وهذا الحديث لو كان طريقه صحيحاً لعارضه هذا الحديث الذي هو أصح منه فضلاً عن أنه لا يصحّ ...^(٢)

وفي حديث ابن إسحاق علة واحدة ردّوه بها وليس الضعف الذي زعمه ابن حجر ، ألا وهي مخالفته للصحيحين وإن كان في نفسه صحيحاً ، وإذن فنحن أمام طامة كبرى مني بها الإسلام وأهله وهو هذا الميزان المتهرّء المعبّر عنه بالصحيحين الذي نزن فيه التاريخ والإعتقاد والتشريع ونبني القبول والرفض على ما وافقهما أو خالفهما ، وإن كانا من أكثر الموازين عيباً ونقصاً .

ثم إن تسليم ابن حجر ببعض إيمان أبي طالب ليس معناه انكشاف الحق له وظهور الواقع لعينيه بل اعترف بذلك مرغماً ليستر عوار الرواية حين لاحظ أنّ اقتصار النبي على كلمة التوحيد حين طلب من عمّه ذلك دون الشهادة له بالنبوة لا تخلو من أحد أمرين .. إمّا انحصار الإيمان يومئذٍ بلا إله إلا الله ولم يكن للنبوة ذكر معها ، وهذا ما كان يقوله النصارى من أنّ النبي في مكة ما دعى إلى دين جديد بل إلى المسيحية بصفته

(١) راجع فتح الباري ، ٧ / ٢٣٦ .

(٢) فتح الباري ، ٧ / ٢٣٤ .

أحد رسلها، وإما أن تكون الرواية باطلة من رأس، فعمد ابن حجر إلى هذا الإعراف الناقص ليزيل بزعمه هذا العيب من الرواية، وهذا دليل على العصبية لا تفارق حتى العلماء، فما بالك بغيرهم.

نقد المتن ...

١ - اضطرابه، ٢ - الشفاعة للكافر، ٣ - تخفيف العذاب عن أهل النار.

أولاً: اضطراب المتن ..

في سياق منه لم يصرح باسم أبي طالب حتى جعله بعض الشارحين احتمالاً، ففي الرواية التي أخرجها البخاري عن النعمان بن بشير: إنَّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخصم قدميه جمرة يغلي منها دماغه..^(١) وفي سياق ثانٍ بدل الجمرة جمرتان وفي سياق ثالث صرح باسم أبي طالب مع ذكر الضحاح.

وقال ابن التين عن السياق الأول: يحتمل أن يراد به أبو طالب فجعله احتمالاً واعتذر عن وروده الجمرة دون الجمرتين فيه باحتمال أن يكون الإقتصار على الجمرة للدلالة على الأخرى لعلم السامع بأنَّ لكلِّ أحد قدمين. وقال الكرمانى: المراد من الأول جمرتان بقريئة القدمين.. وجزم ابن حجر بأنَّ المراد به أبو طالب. قال: وقد بيّنت في قصّة أبي طالب من المبعث النبوي أنّه وقع في حديث ابن عباس عند مسلم التصريح بذلك ولفظه أهون الناس عذاباً أبو طالب...^(٢)

والذي يظهر لي من صيغة الحديث الخالية من اسم سيدنا أبي طالب عليه السلام أن له أصلاً مروياً بطرق على شيء من الإعتبار فجاء رواية السوء فحملوه على أبي طالب عليه السلام كابن التين وأضرابه ثمَّ درجوا على وضع سياقات مساوية له في معناه، من قبيل الضحاح وفي ذلك فائدتان لهم:

الأولى: استغنائهم عن تركيب سند له كما هو دأبهم وديدنهم في الأحاديث

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان، ١/٥٣ وقال: أخرجه البخاري في ٨١ - كتاب الرقاق: ٥١ - باب صفة الجنة. وأخرجه مسلم - كتاب الإيمان باب أهون الناس عذاباً يوم القيامة.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١١/٤٣٨.

الموضوعة التي ليس لها أصل يعرف .

الثانية: تركيزه في الأذهان على نحو سريع وفاعل لأن الأذهان أسرع إلى قبول حديث ذي أصل معروف وإن دخله لفظ موضوع فيه من حديث ليس له أصل ويدخل في قسم الأحاديث المدرجة وما أكثرها عندهم . وقد درجوا على اعتبار الأحاديث التي دخلتها ألفاظ موضوعة ليست من أصلها على أنها مدرجة هذا إذا أمكن إثبات الألفاظ الأجنبية عنه ، أما إذا عسر ذلك على الناقلين كحديث ضحضاحهم فإنها حينئذ تحمل على السنّة وتتخذ لها مداراً هناك كالحديث مورد البحث . ووضع الألفاظ المدرجة في الحديث لا تتم عفواً بل تكون أحياناً كثيرة مقصودة لذاتها ، وهي من قبيل تحريف الكلم عن مواضعه ولسنا بصدد بيان الشواهد وإلا لاحتجنا إلى جهد ووقت مضاعف كما يؤثر ذلك على حجم الكتاب .

من هنا بان لنا اضطراب المتن وأن الحديث أساساً في بيان ونعت أهون العذاب للكافر فأدرج فيه الواضع اسم أبي طالب ، ليكون شاهداً على ما وضع على شيخ الأبطح في معناه ، عاملهم الله بما يستحقون .

عدم جواز التخفيف عن الكافر بنص الكتاب

وحين نعرض لمعنى الحديث نقع فيه على لفظ التخفيف عن أبي طالب لأن شأنه باعتبار النصرة يختلف عن شأن غيره من أهل الشرك ، وهذا منافٍ لما جاء في الكتاب العزيز حيث نفى ذلك بالقطع واليقين عن الكافر . قال تعالى :

١ - ﴿ وَإِذْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِحِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٣) .

(١) النحل : ٨٥ .

(٢) البقرة : ١٦٢ .

(٣) غافر : ٤٩ - ٥٠ .

٤ - ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ ^(١).

فهذه الآيات وأمثالها تنفي التخفيف عن الكافر وحديث الضحضاح يثبت ذلك ، استمع إليه بلفظ البخاري :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمّه أبوطالب فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه أم دماغه... ^(٢)

وهذه الرواية تخالف الكتاب والسنة الثابتة وقد جاء في الصحيح مرفوعاً : تكثر لكم الأحاديث من بعدي فإذا روي لكم حديث فأعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فاقبلوه وما خالفه فردّوه ^(٣).

وحينئذٍ فنحن نردّ الضحضاح على أهله ليكون عليهم أشدّ العذاب حين يتبوّؤون مقعدهم من النار..

عدم جواز الشفاعة للكافر..

حير عصابة الوضع هذا الحديث لأنه مخالف لأصولهم من عدم جواز الشفاعة للكافر ، وقد جاء ذلك في كتاب الله تعالى :

١ - ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً وهواً وعرّتهم الحياة الدنيا وذكّر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله وليٌ ولا شفيع وإن تعدل كلّ عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا هم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ ^(٤).

٢ - ﴿ فا تنفعهم شفاعاة الشافعين ﴾ ^(٥).

٣ - ﴿ وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما لهم من حميم ولا

(١) البقرة : ٨٦.

(٢) عمدة القاري ، ١٢٥/٢٣.

(٣) الغدير ، ٢٦/٨ وقال : أخرجه البخاري في صحيحه .

(٤)

(٥) المدثر : ٤٨.

شفيح يطاع ﴿^(١)﴾.

٤ - ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الله عهداً﴾ ﴿^(٢)﴾.

لذلك كثرت تخرصاتهم وتشعبت مذاهبهم حول معناه بخاصة وقد جاء بصيغة الترجي لعله تنفعه شفاعتي ولم يقطع بذلك كما زعم الراوي، وصيرهم هذا الحديث في دوامة كأنها الزوبعة. ومما أوردوا عليه من الإشكالات:

أولاً: قوله تعالى: ﴿فا تنفعه شفاعت الشافعين﴾ ينافي ما جاء فيه من ترجي الشفاعة. وهنا دار رأس المجيب كما يدور رأس المحموم بالهذيان فما وجد مخلصاً من ذلك إلا بجعله من خصائص النبوة.

وجاء آخر فزعم أن المعنى يختلف في المنفعتين ففي الآية الإخراج من النار وفي الحديث التخفيف.

والجواب: لا نكر أن للنبي ﷺ خصائص ليست لأحد من الناس ولكن ليس فيما يخالف كتاب الله سبحانه وهذه الخصيصة المزعومة مدفوعة بالقرآن.

وعن الثاني أن هذا محض تقوّل لا دليل عليه من اللغة نفسها ولا من العرف، ولو أبحنا لأنفسنا مثل هذا السلوك لما بقي للغة العرب مفهوم يطمئن إليه القلب ولقال من شاء بما شاء من تفسير معاني اللغة.

وجاء البيهقي برأي جديد، فاطمئن إلى صحة الرواية وقال: لا معنى للإنكار بعد ثبوت صححتها.

ونقول له: إن هذه الصحة لم تثبتها الموازين العلميّة لتكون غاية الجميع ولكنّ القواعد المنسوجة باليد المقرّرة سلفاً أثبتتها والرواية لولا هذه القواعد الباطلة لكان ثبوت زيفها أوضح من الشمس في رابعة النهار فإذا سقطت القاعدة عن الإعتبار وهي ساقطة فعلاً سقطت الرواية المبنية عليها والمصححة بها وحينئذ يحتاج البيهقي إلى أن يعمل رأيه من جديد في هذه المسألة وهو في عالم الضحضاح وسيجد الكاذب على النبي والمؤيد له مس هذا العذاب.

(١) غافر: ١٨.

(٢) مريم: ٨٧.

وجاء مهرج آخر فتصرّف في الشفاعة الواردة في الرواية تصرّفاً مضحكاً حقاً بقوله: اختلف في هذه الشفاعة هل هي بلسان قولي أو بلسان حالي والأول يشكل بالآية وجوابه جواز التخصيص. أقول - والقول للكاتب -: وقد أجنبناه عن هذا الجواب فارجع إليه. والثاني يكون معناه أنّ أباطالب لما بالغ في إكرام النبي ﷺ والذب عنه جوزي على ذلك بالتخفيف فأطلق على ذلك شفاعة لكونه بسببه.

ونقول له ببساطة لغوية: إنّ هذا عدول عن ظاهر اللغة من دون قرينة صارفة والذي يتبادر من الشفاعة إلى الأذهان عند الإطلاق هي القولية ولا أثر للشفاعة الحالية المزعومة ولم يقل بها أحد من المسلمين، وادّعائها خروج باللفظ عمّا وضع له لمحض الهوى والتشهيّ وهو لا يخرجكم من شرنقة الضحضاح والحمد لله ربّ العالمين.

وجاء آخر لمّا لم تشف غليله الإعدار السالفة فعمد إلى معنى الآية الكريمة فتأولها على أساس أنّ قوله تعالى ﴿فا تنفعه شفاعة الشافعين﴾ أنّ المخفف عنه لمّا لم يجد أثر التخفيف فكأنّه لم ينتفع بذلك... (١)

وهذا هو تفسير القرآن بالرأي، وهو محرّم على المسلم ونحن من أجل إيضاح معنى الآية نقل ما ورد عنهم في معناها:

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿فا تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ قال: لا تنفعهم شفاعة من يشفع.

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي ﷺ قال: يؤتى بأدنى أهل النار منزلة يوم القيامة فيقول الله له فتتدي بملا الأرض ذهباً وفضّة فيقول: كذبت، قد كنت أسألك ما هو أيسر عليك من أن تسألني فأعطيك وتسغفري فأغفر لك وتدعوني فأستجيب لك فلم تخفني ساعة قط من ليل أو نهار ولم تر ما عندي قط ولم تخش عقابي ساعة قط وليس أحد إلّا وهو شرّ منه، فيقال: ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين﴾ إلى قوله ﴿حتى أتانا اليقين﴾ فيقول الله: ﴿فا تنفعهم شفاعة الشافعين﴾.

وأخرج البيهقي في البعث عن ابن مسعود قال: يعذب الله قوماً من أهل الإيمان ثم يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ حتى لا يبقى إلّا من ذكر الله ﴿ما سلككم في سقر﴾

(١) راجع ابن حجر، فتح الباري، ٤٣٩/١١.

إلى قوله: ﴿ شفاعة الشافعين ﴾ (١).

وما أكثر الروايات في هذا المعنى، وكلّها تدلّ دلالة قاطعة على أن لا شفاعة للكافر ولا تخفيف كما لا أثر فيها للشفاعة الحالية ولا استأنس معناها أحد علماء الإسلام، فكيف يزعم الزاعم ذلك لأبي طالب والقرآن يردّه ويكذّبه!؟

إيمان أبي طالب من شعره ..

أكثر شعره يحمل إيمانه برسول الله ﷺ وهو متواتر معنى إن لم يكن لفظاً، ومجموعه يدلّ دلالة قاطعة لا تقبل النقض على إسلامه. يقول في إحدى قصائده:

١

فيا لبني فهر أفيقوا ولم تقم	نوائح قتلى تدعي بالتندّم
على ما مضى من بغيكم وعقوقكم	وإتيانكم في أمركم كلّ مآثم
وظلم نبيّ جاء يدعو إلى الهدى	وأمر أتى من عند ذي العرش قيم
فلا تحسبونا مسلميه ومثله	إذا كان في قوم فليس بمسلم
فهذي معادير وتقدمة لكم	لئلا تكون الحرب قبل التقدّم (٢)

وهذه الحرب الضروس إن لم يخضها هو فقد خاضها أولاده ﷺ .
وشاهد إيمانه في البيت الثالث، فقد آمن بالرسول والرسالة والمرسل .

٢

ألا أبلغا عني على ذات بينها	لؤيّا وخصّاً من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً	نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتب
وأنّ عليه في العباد محبة	ولاخيف فيمن خصّه الله في الحبّ (٣)

والبيت الثاني اعتراف منه بأنّ محمداً نبيّ شأنه شأن موسى، وفيه إيمان بالنبي وإخوانه الأنبياء وكتبهم .

يقول الإمام معد بن فخر الله: فهذا البيت يدلّ على إيمانه من وجوه: منها إيمانه

(١) الدر المنثور، ٢٨٥/٦، ٢٨٦.

(٢) إيمان أبي طالب، ص ١٨٩.

(٣) إيمان أبي طالب، ص ١٩٢.

بكتب الله تعالى التي لا يعرفها إلا المؤمنون، ومنها معرفته بموسى بن عمران عليه السلام وقوله: «ولا حيف فيمن خصه الله بالحب» يريد بالنبوة منه والإختيار، ومنها إيمانه بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، وهذا الشعر إذا تأمله المنصف رآه محض الإقرار بالنبوّة والإعتراف بالرسالة^(١).

٣

وبلّغ على الشحفاء أبناء غالب لويأ وتيمأ عند نصر العزائم
ألم تعلموا أنّ القطيعة مآثم وأمر بلاء قائم غير حازم
وأنّ سبيل الرشد يعرف في غد وأنّ نعيم اليوم ليس بدائم
فقوله: وإنّ سبيل الرشد يعرف في غد، يريد يوم القيامة. وقوله: وإنّ نعيم اليوم ليس بدائم، يريد نعيم الدنيا، فنعيم الدنيا ليس بدائم ونعيم الآخرة دائم، وهذا إذا تأمله المنصف رآه إقراراً صريحاً من أبي طالب صلى الله عليه وآله بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله من القيامة والبعث والنشور والثواب والعقاب، وغير ذلك من أمور الآخرة.. ألا ترى إلى قوله: إنّ القطيعة مآثم، والإثم هو ما يجازى عليه في الآخرة.

قد روي أنّ رجلاً من قريش يقال له أمية بن خلف الجمحي جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله بعظم نخر فسحقه في وجهه وقال: أنت تزعم يا محمد أنّ هذا العظم يعود حياً، تكذيباً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله، فأنزل فيه: ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾^(٢) وأبو طالب صلى الله عليه وآله قد صرّح في هذه الأبيات وغيرها بالإقرار بالبعث بخلاف ما عند القوم^(٣).

٤

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة متى ما يخبر غائب القوم يعجب
محي الله منها كفرهم وعقوقهم وما نعموا من معرب الخط معرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

(١) نفسه، ص ١٩٤.

(٢) يس: ٧٨ - ٧٩.

(٣) إيمان أبي طالب، ص ١٩٩ و ٢٠٠.

فأمسى ابن عبدالله فينا مصدقاً على سخط من قومنا غير متعب^(١)
 .. في هذا الشعر إشارة إلى ما فعله الأرضة فعلته بصحيفة المقاطعة وجعلها
 عبرة للقوم وكأنه يدعوهم إلى الإعتبار بها ونبذ الكفر والإيمان بالنبي ﷺ بعد أن
 بان صدقه . ثم تسمية دين الجاهلية كفرةً ولو كان مقيماً عليه فنعتته بالنعوت الحسنة
 أو سكت عن ذكره .

٥

عليها صنديد من هاشم هم الأنجبون مع المنتجب
 وأن كان أحمد قد جاءهم بصدق ولم يأتهم بالكذب
 فكيف يكون الإسلام؟ وبماذا تعرف الإيمان؟ وهل بين قوله هذا وبين قول
 المسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فرق عند ذي اللب الذي ينهى النفس
 عن الهوى ، ويتنكب سبيل الردى^(٢) ؟

٦

الا يرون أقل الله خيرهم أنا غضبنا لعثمان بن مضعون
 ومنع الضيم من يرجو مضيمنتنا بكل مطرد بالكف مسنون
 ومرهفات كأن اللحم خالطها تشفي بها الداء من هام المجانين
 حتى تق رحال لا حلوم لها بعد الصعوبة بالإسماع واللين
 أو يؤمنوا بكتاب منزل عجب على نبي كموسى أو كذي النون
 أنظر يا ذاللب والنهى ، والعقل والحجى إلى إقراره بالكتاب وأنه منزل عجب ،
 كما قال الله تعالى حاكياً عن مؤمنى الجن حين سمعوا القرآن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجباً
 يهدي إلى الرشد فآمنا به ﴾ الآية^(٣) . وإلى قوله : على نبي كموسى أو كذي النون ،
 فسبحان الله من أين يعرف الجاهلي موسى ويونس عليه السلام ؟ ومن أين يعرف الكتاب
 المنزل ؟ وهل يؤمن بأنبياء الله تعالى ورسله وكتبه من يشرك به ؟ إن هذا إلا هوى قاهر
 وعناد ظاهر^(٤) .

(١) إيمان أبي طالب ، ص ٢٠٤ و ٢٠٥ .

(٢) إيمان أبي طالب ، ص ٢١٨ .

(٣) الجن : ١ .

(٤) إيمان أبي طالب ، ص ٢٢٢ .

شهوده المعجز ..

عن الغي في بعض ذا المنطق	أفيقوا بني عمنا وانتهاوا
بوائق في داركم تلتقي	والأ فإني إذا خانف
ورب المغارب والمشرق	تكون لفابركم عبرة
ثمود وعاد فمن ذا بقي	كما ذاق من كان من قبلكم
وناقة ذي العرش إذ تستقي	غداة أتتهم بها صرصر
من الله في ضربة الأزرق	فحلّ عليهم بها سخطه
حسام من الهند دو رونق	غداة يععض بعرقوبها
عجائب في الحجر الملتصق	وأعجب من ذاك في أمركم
إلى الصابر الصادق المتقي	بكفّ الذي قام في جنبه
على رغم ذي الخائن الأحمق	فأثبته الله في كفّه

نظم سيدنا حكيم قريش المعجزة التي أجراها الله على يديه حين جاء أبو جهل لعنه الله إلى النبي ﷺ ومعه حجر يريد أن يرميه به إذا سجد رسول الله ﷺ فرجع أبو جهل يده فيبست على الحجر فرجع وقد التصق الحجر بيده فقال له أشياعه من المشركين : أجننت ؟ قال : لا ولكني رأيت بيني وبينه كههيئة الفحل يخطر بذنبه ، فقال أبو طالب ﷺ الأبيات السالفة .

ويقول المؤلف تعليقاً عليها : فهل يكون دليل على إيمان أبي طالب ﷺ أوضح من هذه الأبيات ، وأنه أعرب بها عن إيمانه بالله تعالى ورسوله ﷺ ، كما ضمّنها من الإقرار بالله تعالى والإعتراف بآياته وتصديقه بالمعجزات التي أظهر الله لنبيه ، وإخباره عن النبي ﷺ أنه صابر صادق متقي ، ثم يضرب للكفار الأمثال بناقة صالح ﷺ ويضيفها إلى الله تعالى في قوله : (وناقة ذي العرش) . ألا ترى ما أحسن ما يظهر الله إيمانه ويبيّن إسلامه حيث لا يضرب للكافرين مثل النبي ﷺ إلا بأمثال من تقدّمه من النبيين والمرسلين ﷺ وفي هذا مقنع لمن اهتدى ونهي عن النفس والهوى .

رؤيا صادقة ..

حكى الشيخ أبو الحسن علي بن أبي المجد الواعظ الواسطي بها في شهر

رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة حكاية مطبوعة أوجبت الحال إيرادها في هذا المكان . قال : حدّثني والذي أبوالمجد الواعظ قال : كنت أروي أبيات أبي طالب هذه القافية وأنشد قوله منها كذا :

بكفّ الذي قام في جنبه إلى الصائِن الصادق المتّقي

فرأيت في نومي ذات ليلة رسول الله ﷺ جالساً على كرسي وإلى جانبه شيخ عليه من البهاء يأخذ بمجامع القلوب فدنوت من النبي ﷺ فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فرّد عليّ السلام ثم أشار ﷺ إلى الشيخ وقال : أدن من عمّي فسلمّ عليه ، فقلت : أيّ أعمامك هذا يا رسول الله ؟ فقال : هذا عمّي أبوطالب ، فدنوت منه وسلّمّت عليه ، ثمّ قال : يا عم رسول الله إنّي أروي أبياتك القافية وأحب أن تسمعها منّي . فقال : هاتها ، فأنشدته إياها إلى أن بلغت فيها :

بكفّ الذي قام في جنبه إلى الصائِن الصادق المتّقي

فقال : إنّما قلت أنا : «إلى الصابر الصادق المتّقي» بالراء ولم أقل بالنون ، ثمّ استيقظت وكتبت في النسخة التي عندي بعد هذه الأبيات : أخبرني أبوطالب ﷺ بين يدي رسول الله ﷺ أنّه قال : إلى الصابر الصادق المتّقي (١) .

نصرنا الرسول رسول المليك
أدبٌ وأحمي رسول الإله
ومأ أن أدبٌ لأعدائه
ولكن أزيّر له سامياً

ببيض تلاًّ كلمح البروق
حماية حام عليه شفيق
دبيب البكار حذار الفنيق
كما زار ليث بغيل مضيق (٢)

إلى النجاشي ..

تعلّم خيار النَّاس أن محمداً
أتى بالهدى مثل الذي أتيا به
وإنكم تتلونّه في كتابكم
فلا تجعلوا لله ندّاً وأسلموا

وزير لموسى، والمسيح بن مريم
فكلّ بأمر الله يهدي ويعصم
بصدق حديث لا حديث المترجم
فإنّ طريق الحق ليس بمظلم

(١) إيمان أبي طالب ، ص ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) إيمان أبي طالب ، ص ٢٢٦ و ٢٢٧ .

وإنك ما تأتيك منا عصابة لقصدك إلا إرجعوا بالتكريم...^(١)

التخلص ..

مرّ أبو طالب ومعه ابنه جعفر برسول الله ﷺ وهو يصلي، وعلي عليه السلام عن يمينه، فقال أبو طالب لجعفر: صلّ جناح ابن عمك. فجاء جعفر فصلّى مع النبي ﷺ فلما قضى صلواته قال له النبي ﷺ: يا جعفر وصلت جناح ابن عمك إن الله يعوّضك من ذلك جناحين تطير بهما في الجنة، فأنشأ أبو طالب رضوان الله عليه يقول:

إِن عَلِيّاً وَجَعْفراً ثِقْتِي	عند ملّم الزمان والنّوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما	أخي لأمي من بنيهم وأبي
إِن أبا معتب قد أسلمنا	ليس أبو معتب بذّي حذب
والله لا أخذل النبي ولا	يخذه من بني ذو حسب
حتّى تروا للرؤوس طائحة	منا ومنكم هناك بالقضب
نحن وهذا النبيّ أسرته	نضرب عنه الأعداء كالشهب
إن نلتموه بكلّ جمعكم	فنحن في الناس الأم العرب ^(٢)

دستور النصرّة ..

هذا الموقف الشريف صار لبنية دستور النصرّة وعلى أساس من هذا الخلق الكريم والأدب الرفيع وقف أولاده يوم كربلاء يذبّون عن ابن رسول الله .
بأجسادهم في عرصة الطف عزّسوا وأرواحهم في عالم القدس عوموا
قد أدرعوا حديداً وأخروا من الصبر أقوى منه نسجاً وأحكم...^(٣)

(١) إيمان أبي طالب، ص ٢٤١.

(٢) إيمان أبي طالب، ص ٢٥٠.

(٣) الشعر للإمام كاشف الغطاء، راجع الإيرواني شعراء الحسين ترجمة الشيخ كاشف الغطاء.

المجلس السابع أم المؤمنين خديجة عليها السلام

«يُعزُّ علي رسول الله ﷺ»

ولقد يعزُّ علي رسو
قد مات فانقلبوا على
منعوا البتولة أن تنو
نعش النبي أمامهم
لم يحفظو للمرتضى
لولم يكن خير الوري
قد اطفئوا نور الهدى
أسد الإله فكيف قد
وعدوا علي بنت الهدى
في أي حكم قد أباحوا
بيت النبوة بيتها
أذن الإله بـرفعه
بأبي وديعة أحمد
عاشت معصبة الجبين
حتى قضت وعيونها
وأمرض خطب في حشى
بالليل وارهأ الوصي

ل الله ما جنت الصحابه
الأعقاب لم يخشوا عقابه
ح عليه أو تبكي مصابه
وورائهم نبذوا كتابه
رحم النبوة والقرباه
بعد النبي لما استنابه
مذ أضرمو بالنار بابه
ولجت ذناب القوم غابه
ضرباً بحضرته المهابه
إرث فاطم واغتصابه
شادت يد الباري قبابه
والقوم قد هتكوا حجابه
جرعاً سقاها الظلم ضابه
تإن من تلك العصابه
عبرى ومهجتها مصابه
الإسلام قد أورى التهابه
وقبرها عفى ترابه^(١)

أم الصديقة الطاهرة

لقد تعلقت سيده النساء بأمتها تعلقاً زائداً فاق حدود ما عند البنات لأمتهاهنّ ،

(١) الشعر للشيخ محمد علي اليعقوبي رحمته الله ؛ انظر : وفاة الصديقة الزهراء لسيد عبدالرزاق المقرم ، ص ١٤٨ .

فلقد زاد تعلقها بأمها حين فتحت عينها على شخصيّة عظيمة يخضع لشرفها الأشراف، ويتمنى خدمتها والسعي في تجارتها أعيان مكة ورؤساء قريش، فهي بمثابة ملكة من ذوات العزّ والسيادة والمال في الوسط القرشي .

كذلك ازدادت حباً لها وتعلقاً بها حين شاهدت أباهما سيّد البشر يوليها حبه واهتمامه ويقدر لها إخلاصها في مؤازرته وإيمانها الصادق الذي لا تشوبه شائبة بدعوته . وطالما أثنى عليها في الغيب والشهادة، وبلغها رسالات السماء تترى في السلام عليها واختصاصها بتحايا الله سبحانه، والملا الأعلى من العباد الصالحين ..

وكانت سيّدتنا خديجة محبوبّة من ربّها بجمال باهر وكمال زاهر غير مصطنع كما أنّ قلبها الكبير يفيض حبّاً وحناناً على الدني والقصي والقريب والبعيد، فهاهي تسعف بأموالها. أصحاب العوز والحاجة، استجابة لنداء الرحمة في قلبها الكبير ممّا ضاعف حب الزهراء لها وميلها الشديد إلى جنابها لا بالنبوة وحدها تجاه الأم الرؤوم بل بالإعجاب بالشخصيّة الجليلة والذات الرفيعة لسيدة ملأت رحاب مكة فضلاً وسماحاً، فانطلقت الألسن تثني عليها والعيون تشرّبت نحوها ..

ومن عظيم تعلقها بأمها الظاهرة أنّ النبي صلى الله عليه وآله دخل ذات يوم منزله فإذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول : والله يا بنت خديجة ما ترين إلّا لأمك علينا فضلاً وأيّ فضل كان لها علينا، ماهي إلّا كبعضنا، فسمع مقالتها لفاطمة، فلمّا رأت فاطمة رسول الله صلى الله عليه وآله بكت، فقال : ما يبكيك يا بنت محمد؟ قالت : ذكرت أمّي فتنقّصتها فبكيك، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال : مه يا حميرا فإنّ الله تبارك وتعالى بارك في الودود الولود وأنّ خديجة رحمها الله ولدت منّي عبد الله وهو المطهر وولدت منّي القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب وأنت ممّن أعقم الله رحمه فلم تلدي شيئاً^(١).

وظاهر تفضيلها بكونها ولوداً أنّ بطنها سلام الله عليها وعاء للإمامة، وبهذا السرّ المقدّس سادت غيرها من النساء ...

دخل النبي صلى الله عليه وآله على فاطمة فرآها منزعجة، فقال لها : ما بك؟ فقالت : الحميراء افتخرت على أمّي أنّها لم تعرف رجلاً قبلك، وأنّ أمّي عرفتها مسنةً،

فقال عليها السلام: إنَّ بطن أمك كان للإمامة وعاءاً^(١).

وكانت عائشة تبالغ في التيه على النساء من كونها لم تتزوج أحداً قبل النبي وبهذا تشير إلى خديجة عليها السلام وحدها لما تشاهده من حب النبي لها وثنائه عليها بمحضر عائشة. كانت عائشة تتيه على نساء العالم في الماضي والحاضر والغابر بخصال ذكرتها لنفسها سبع أو تسع أو عشر طبقاً لما كانت ترويها وما تستحضره من صفاتها في كل مرة تذكرها..^(٢)

قالت ذات يوم خلال في سبع لم يكن في أحد من النساء، إلا ما أتى الله مريم بنت عمران، والله ما أقول هذا فخراً على أحد من صواحيبي. فقال لها عبدالله بن صفوان: وما هن يا أم المؤمنين؟ قالت: نزل الملك بصورتي، وتزوجني رسول الله عليه السلام لسبع سنين، وأهديت إليه لتسع سنين، وتزوجني بكرة لم يشركه في أحد من الناس، وكان الوحي يأتيه وأنا وهو في لحاف واحد، وكنت أحب الناس إليه وبنت أحب الناس إليه، وقد نزل في من آيات القرآن، وقد كانت الأمة تهلك في، ورأيت جبرئيل ولم يره أحد من نسائه غيري، وقبض في بيتي لم يله أحد غيري والملك.

ولا يخفى قولها تزوجني بكرة وإدلالها بذلك على العاقل، ولو ناقشناها الحساب على هذه الخلال مع صون كرامتها كعرض مقدس للنبوة لأصبحت ذمتها مشغولة لنا بالكثير الكثير..

وهناك في قاموس صفاتها خلال نسبتها أو أعرضت عنها بسبب معلوم ومنها ثلاث نذكرها على جناح السرعة وهي: لم يتزوج من اسمها عائشة سواها، ولم يتزوج من اسم أبيها أبوبكر واسم أمها أم رومان غيرها، ولو أردنا تكثير مزاياها لترجح كفة جنابها على من عداها، لذكرنا اسم أخيها وأختها وجدّها وابن أختها، وهكذا دواليك، فتكون الخلال ألفاً وزيادة..

أمّا نزول الملك على صورتها فقد روى الرواة ذلك وأن النبي أراها بسرقة حرير

(١) الشيخ عبدالله البحراني الأصفهاني، عوالم العلوم والمعارف والأحوال فاطمة الزهراء، ص ٦٤، ط مكتبة الزهراء - إصفهان.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ٣١/٢٣؛ مجمع الزوائد، ٢٤١/٩؛ مسند أحمد، ج ١ هامش ص ٢٦٧؛ سير أعلام النبلاء، ١٤٧/٢؛ الإصابة، ٣٦٠/٤.

قبل اقتراحه بها وقال: إن يرده الله يمضه.. وهي رواية ربما تندحر أمام النقد، ولا تماسك مطلقاً ولكننا نعرض عن نقدها لعدم تعلق غرض لنا بذلك.

وأما موضوع سنّها وهل هي ابنة ست أو سبع أو تسع أو أكثر فهو مجال المناقشة الحامية، كانت عائشة تتظاهر بصغر السن أبان بناء النبي عليه السلام عليها وروت حول ذلك روايات تعبّر جميعها عن صغر سنّها من قبيل ما كانت تقصّه من حكاية لعبها باللعب، فقد كان لها أتراب يلعبن معها بالعرائس، فإذا دخل رسول الله عليه السلام فررن منه فيأخذهنّ رسول الله فيردهنّ إليّ... (١)

وقال الخطيب في كفايته: وكان هذا لها ديدناً.. (٢)

وكانت تقول: تزوّجني وأنا على الأرجوحة.. (٣)

وقال أكثر المؤرخين: أنّها ابنة ست سنين وقيل سبع، وبنى بها وهي بنت

تسع.. (٤)

خلا إتنا كباحثين على الحياد، حين نخضع هذه النصوص للبحث والتحري، نجدها تتعارض مع الحقيقة تعارضاً كلياً، وبخاصة إذا حكمنا العقل السليم في المسألة فإنّه يستبعد أن يتقدم من هو في مقام النبي وسنّه عليه السلام إلى خطبة صبيّة في السادسة، وإن خلت الدنيا من النساء.

فهذه خولة بنت حكيم، تعرضها على رسول الله عليه السلام مع سودة بنت زمعة.. (٥)

أما كانت خولة تتحلّى بمسكة العقل وتسترشد بهدية كي تصف لرسول الله من هنّ أكبر من عائشة بالسن ليشغلن فراغ خديجة عليها السلام وما أكثر النساء في قريش آنئذ.. دع ذا، ولكن سل أم المؤمنين عائشة عن ابنة السادسة هل تتقدّم الرجال الكبار لخطبتها؟ أما كانت مخطوبة لابن المطعم بن عدي قبل أن يخطبها النبي عليه السلام.. (٦)

(١) الطبراني، المعجم الكبير، ١٧٧/٢٣؛ الطبقات، ٥٩/٨؛ وأخرجه البخاري في الأدب عن محمد

ومسلم في الفضائل عن أبي كريب كلاهما عن أبي معاوية.

(٢) الخطيب البغدادي، «الكفاية»، ص ٢٠٥.

(٣) الطبراني، المعجم الكبير، ١٧٩/٢٣؛ الطبقات، ٥٨/٨.

(٤) أسد الغابة، ٥٠٢/٥؛ دلائل النبوة، ٤٠٩/٢.

(٥) دلائل النبوة، ٤١١/٢؛ مجمع الزوائد، ٢٢٦/٩.

(٦) دلائل النبوة، ٤١١/٢؛ والطبقات، ٥٨/٨؛ ومجمع الزوائد، ٢٢٦/٩.

وهب أنّ ذلك كذلك ، ولكنّ الخاطب تمهّل بالثمرة التّضحج والنبى سبق الزمن إليها ، ولكن قول المؤرخ ابن سعد يردّنا على الأعقاب حين روى في الطبقات أنّها طلّقت من ابن المطعم ..^(١) وهذا كلّه يدلّ على أنّ المرأة أكبر سنّاً بكثير ممّا زعمت . وأمّا رؤيتها جبرئيل ولم يره أحد من نساءه غيرها فهو نفى باطل ، وحكم مستعجل ، فقد رأته خديجة وبلغها سلام ربّها وبشّرها ببيت في الجنّة وهكذا روى أبو هريرة قال : أتى جبرئيل النبي ﷺ فقال : هذه خديجة قد أنتك معها إناء مغطى فيه أدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أنتك فاقراء عليها السلام من ربّها ومنّي السلام وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب . وقال شريك وقد سئل عن القصب قصب الذهب الخ^(٢) .

وأما حديثها عن موت النبي تارة في بيتها لم يله أحد غيرها وتارة بين سحرها ونحرها ، فإنّ الحقّ خلافه ، ولقد توقّف النبي على صدر أمير المؤمنين وها هو يقول : ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد ﷺ أنّي لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة قط ، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكّص فيها الأبطال وتتاخر الأقدام نجده أكرمني الله بها . ولقد قبض رسول الله ﷺ وإنّ رأسه لعلى صدري ، ولقد سألت نفسه في كفي فأمرتها على وجهي ، ولقد وليت غسله ﷺ والملائكة أعوانني فضجّت الدار والأفنية ملاً بهبط وملاً يعرج ، وما فارقت سمعي هنيمة منهم يصلّون عليه حتّى واريناه في ضريحه ، فمن ذا أحقّ به منّي حيّاً وميتاً...^(٣)

وأخرج البخاري في الأدب المفرد «باب حسن الملكة» عن نعيم بن يزيد قال : حدّثنا علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أنّ النبي ﷺ لما ثقل قال : يا علي إئتني بطبق أكتب فيه ما لا تضلّ أمّتي ، فخشيت أن يسبقني فقلت : إني لأحفظ من ذراعي الصحيفة ، وكان رأسه بين ذراعه وعضدي يوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم ، وقال : كذاك حتّى فاضت نفسه وأمره بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله من شهد بهما حرم على النار...^(٤)

(١) الطبقات ، ٥٩/٨ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٣٣/٦ ، ط طهران ١٣٢٣ .

(٣) مغنية في ظلال نهج البلاغة ، ١٨٧/٣ .

(٤) البخاري ، الأدب المفرد ، ص ٢٦ ، ط بيروت - دار الكتب العلمية .

ألا يدل هذا كله على أنّ عائشة تساهلت كثيراً في رواية الوفاة ، والذي ذكره المؤرخون أنّها لم تكن حاضرة ساعتها بل لم تكن في البيت على الإطلاق ولكنها من أجل إحراز مكاسب على الضرّات راحت تصوّر لنفسها وللناس تفوّدها في حوادث كثيرة ومنها حادثة الوفاة المؤلمة . وممّا لا ريب فيه أنّ نفي ذلك عنها صعب لمن لم يكن حاضر الوفاة ، لأنّ قرينة الزوجية وأنّ كلّ زوجة لابدّ وأن تكون على مقربة من سرير בעلها في السياق ، تحمل الناس على تصديقها ، إلا أنّ لقائل أن يقول لها : ما الذي أحرّ أمّهات المؤمنين وأهل البيت قاطبة وقدمك وحدك في تلك الساعة الرهيبة . ومن عجب أنّها روت حضورها ساعة الوفاة عند النبي بسياقات مختلفة ومنها الرواية التالية :

عن عبدالله بن الزبير قال : سمعت عائشة تقول : مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين سحري ونحري وفي دولتي ، لم أظلم أحداً ، فمن سفهي وحداثة سنّي إنّه قبض في حجري ، فوضعت رأسه على الوسادة ، وقمت الندم مع النساء وأضرب وجهي ...^(١) وفي سياق آخر : مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنّه لبين حافنتي وذافنتي ...^(٢) وفي أخرى : توفي في بيتي وفي يومي ، وبين سحري ونحري ، وإنّ الله جمع بين ربيقي وربقه عند موته ..^(٣)

ولعلّ السرّ في هذا الإدّعاء يتجلّى للقارئ من الرواية التالية :

عن إبراهيم بن الأسود قال : ذكر عند عائشة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوصى إلى علي ، فقالت : من قاله ؟ لقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأني لمسنته إلى صدري فدعا بالطلست فانخثت ، فمات فما شعرت فكيف أوصى إلى علي ..^(٤)

فهي تستأثر بساعة الوفاة وتروي لها صوراً مختلفة ينافر بعضها البعض الآخر من أجل الرد على من ادّعى الوصيّة ، ونسبت أم المؤمنين أو أخذت على حين غرّة أنّ الوصيّة ليس من الضروري أن تكون ساعة الوفاة ، فالعمر كلّه بجميع مراحلها مجال للوصيّة .

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٢٣٦/٢ .

(٢) البخاري ، الجامع ، ١٤٠/٥ ، ط بيروت - دارالفكر ، ١٤٠١ .

(٣) نفسه ، ١٤٢/٥ .

(٤) نفسه ، ١٤٣/٥ .

والجدير بالذكر أنّ صورة الوفاة السابقة تنافي ما جاء قبلها، تقول في خبر طويل وهذا بعضه :

وبين يديه - النبي - ركوة، أو علية يشكُّ عمر فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: لا إله إلا الله، إنّ للموت سكرات، ثمَّ نصب يده فجعل يقول في الرفيق الأعلى، حتّى قبضت ومالت يده..^(١)

فأين هذه الصورة من تلك التي نسبت إلى النبي ما لا يليق بحضرته، لتستأثر بالأمر وتنفي الوصية عن أصحابها بغضاً لهم.

لعلَّ ممّا يهون الخطب أنّ عائشة لم تكن مدفوعة إلى هذا البغض المشثوم بدافع ديني ولا لكفرت ولكنه عداً أُسري أي يرجع بمجملة إلى ما كان يتحكّم في الأسرة الواحدة من العلاقات، ومنها العدا بين الضرائر، الذي تعدّى الضرة إلى كلّ ما يمت إليها بسبب أو نسب، وطالما كشفت عائشة عن ذلك بقولها: رحم الله علياً لقد كان على الحق وما كان بيني وبينه إلا كما يكون بين المرأة وأحمائها^(٢).

مكانة سيدتنا خديجة في الإسلام

هي أول من شدّ الله به أزر رسول الله ﷺ، صاحبت الدعوة من مطلعها فكانت حيث يراد منها عزمًا وبذلاً، وتضحية في سبيلها. إنّ الساعات الأولى التي طالع بها النبي ﷺ عالم الوحي وأبصر ملاكه نازلاً عليه بالرسالة الخاتمة والشريعة التامة من شرائع الله لساعات صعبة ثقيلة الوطئ على غلب الرجال، وفيها نزول القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً.

ولم يجد النبي في تلك الساعات إلا سيّدة الإسلام الأولى، ولم يكن له في الكرة الأرضية ومنها في الجزيرة العربية ومنها في مكة المكرمة ومنها في بني هاشم من يلقي بهمومه على صدره ويغيب في غامر حنانه ودافق حبه عن سورتها وعنف أخذها سوى تلك المرأة التي يفىء النبي ﷺ من زحمة الحياة إليها، ويستريح من صحب

(١) نفسه، ١٤٢/٥.

(٢) مسند أحمد، ٨٢/٣؛ الترمذي في المناقب، باب مناقب علي، ٦٣٤/٥؛ البيهقي، دلائل النبوة،

٤٣٤/٦؛ الشوكاني، نيل الأوطار، ١٦٤/٧.

الوجود الجاهلي في مكة بين يديها .. فتغمره بالود وتشاطره الهم وتقاسمه الكل ، حتّى يخامرهم شعور قويّ بأنّ يد الله الذي وعده الحماية والنصرة دفعت في طريقه هذه الزوجة الفاضلة لتشاطره أعباء الدعوة الباهضة وتقوم معه بدور المرأة التي عرفت موقعها من المهمّة الصعبة فقامت بالبذل والعطاء من الذات ومن خارج الذات على حدّ سواء ، لا بدافع الزوجيّة وحده شأن من يدفعها الحب لفتى أحلامها إلى مشاطرتها متاعبه ، وإن نأت بفهمها عن إدراك حقيقتها أو حقّها من باطلها ، بل نهضت مع المبعوث بالرسالة الخاتمة بوحي مخلص بصدقه وإدراك مثالي ممّا يدعو إليه ، ولما يحمله من النور المبدد لغياب الظلام والظلم في مكة والجزيرة بلّه العالم كلّه ، وانتقال سريع دونه للمح بالبحر إلى جوهر الدعوة حتّى شدّت إليها بالفهم الصادق والتصديق النابه والإيمان المدعوم بنور العقل .

وبهذا الموقف المحقق الثابت والدعم الصامد بدأ النبي ﷺ يتحدّى العبث الجاهلي ويسلّط على ظلام الشرك الأخذ بكظم الدنيا أنوار الحق والإيمان واليقين ، حتّى بدأت العيون الكليّة والعقول الذليلة تعتاده وتنساق مع إشراقاته وتبصر مواقع اللطف والحق فيه ، وليست عزائم سيّدتنا الصديقة الأولى بمعزل عن مجموع القوى المؤيّدّة للدعوة وصاحبها بل هي تيسير من الله مضاف إلى ذلك التسديد الخفي الذي هو بعين الله سبحانه ، وإرادة التأييد التي وعد بها نبيّه انضمت إلى سياق القوى الكليّة المؤيّدّة لمسيرة الدعوة الإسلاميّة .

إنّ سيّدة الأمة الأولى خديجة الكبرى صلّى الله عليها قوة ربّانية شدّ الله بها أزر رسوله الكريم ونبيّه العظيم ، فكانت كالقاعدة الشامخة الراسية التي نهضت بها جهود النبوة في مكّة في بدء الدعوة وهي بمثابة البؤرة التي تجمع الضوء وتركّزه حتّى يندفع بوهج متدفّق بالطاقة الحراريّة ، ولكي نعرف أهميّة دورها في الإسلام وثبات موقفها لا بدّ من مصاحبة بدايتها ونكون بمنزلة المتحدّث عن الشمس لا مناص من متابعة وصفها في الظل ، أمّا ملأ العيون من قرصها ففيه إيدان بنهاية العين ، وهو لا ينيل كسباً ..

في رحاب سيّدة الأمة الأولى ..

عن ابن إسحاق : أمّنت خديجة برسول الله ﷺ وصدّقت بما جاء به من الله ووازرته على أمره وكانت أوّل من آمن بالله وبرسوله وصدّقت بما جاء به فخفف الله

بذلك عن نبيّه لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفّف عنه، وتهوّن عليه أمر الناس ...

وخديجة هي التي قامت تنصر رسول الله ﷺ ما استطاعت وتحملت الأذى في سبيل نصره ولمّا أنزل عليه ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ وأعلن بالدعوة وآذاه قومه وأخرجوه ذهبت خديجة وعلي بن أبي طالب يطلبانه. الخبر. وقال ابن إسحاق: كانت وزير صدق على الإسلام ..

وقام الإسلام بأموال خديجة، وسيف علي بن أبي طالب، وكانت خديجة من أهل الثروة والغنى، فورثها رسول الله ﷺ ولولدها فكان ينفق من ذلك ما أراد في سبيل نشر الدعوة، ولمّا أراد الهجرة من مكة إلى المدينة أوصى من يشتري ناقتين له ولصاحبه فقال صاحبه: عندي ناقتان يا رسول الله فأبى أن يأخذها إلا بثمانها وأمر علياً فنقده الثمن، فسئل الراوي من أين كان له المال؟ فقال: وأين ذهبت أموال خديجة وقد ورثها هو وولده.. (١)

وقال الذهبي: سيّدة نساء العالمين في زمانها، أم القاسم ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشيّ الأسديّة، أم أولاد رسول الله ﷺ وأول من آمن به وصدّقه قبل كلّ أحد، وثبتت جأشه (٢)، وهي أقرب من النبي إلى قصيّ برجل (٣). وأمّها فاطمة ابنة زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي، وأمّها هالة بنت عبد مناف من بني الحارث بن معيص، وخديجة أم أولاد النبي ﷺ جميعاً إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية (٤).

أول امرأة تزوّجها وأول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين لم يتقدّمها رجل ولا امرأة وإلى هذا ذهب الشيعة أيضاً. جاء في البحار:

أنّها سبقت النّاس كافّة ولم يختلف في أنّها عليها السلام أول الناس إسلاماً.. (٥)

(١) أعيان الشيعة، ٣١١/٦ و٣١٢.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٠٩/٢.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٦٣/١.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٨.

(٥) راجع الكتب التالية: أسد الغابة، ٤٣٤/٥؛ الإstimاب، ٣٨٠/٤؛ بحار الأنوار، ١٣٣/٦ و١٣٥ ط

وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة^(١).

وكانت خديجة عليها السلام ... امرأة حازمة، جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وهي يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك..^(٢)

قد ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش مجتمعين في كثير من الأعوام^(٣).

وأهم من هذا جميعاً بالنسبة إلى زوجة نبي وإلى جدّة الأيمة من بيت النبوة أنها كانت مفطورة علىّ التدين ورائة وتربية؛ فأبوها خويلد هو الذي نازع «تبعاً» الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود (الحجر الأسود) معه إلى اليمن فتصدى له ولم يرهب بأسه غيراً على هذا المنسك من مناسك دينه...^(٤)

وقد مرّ في صدر هذا الكتاب جانب من مآثر والدها وأعمالها.

اللقاء الأول ...

يقال: إنّ صاحبة الفضل الأول في هذا اللقاء المثمر صحابية فاضلة تدعى: نفيسة بنت منبة أخت يعلى بن منبة.

فقد روى ابن سعد وابن السكن وأبو نعيم عن نفيسة بنت منبة قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلاّ الأمين لما تكامل فيه من خصار الخير، قال له أبوطالب: يا بن أخي! أنا رجل لا مال لي وقد اشتدّ الزمان علينا

(١) مجمع الزوائد، ٢١٨/٩؛ أسد الغابة، ٤٣٤/٥؛ الإستهباب، ٣٧٩/٤؛ الإصابة، ٢٨١/٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ١٣١/١.

(٣) ذكر جان نامس في كتابه «تاريخ جامع أديان» أنّ رأس المال القرشي قدّر بواسطة المحققين بخمسين ألف مثقال ذهب، وبناءً على ذلك تكون خديجة قد ملكت هذا المبلغ لتجارها منفردة.

(٤) راجع: فاطمة الزهراء لتوفيق أبي علم، ط دار المعارف، ص ٣٤.

وألحّت علينا سنون منكرة وليس لنا مائة ولا تجارة وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عبراتها فيتجرون لها في مالها، ويصيبيون منافع، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ولكن لا تجد من ذلك بدأً.

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال وتجارة، تبعث بها إلى الشام فيكون غيرها كعامه غير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم الأموال مضاربة، وكانت قريش قومًا تجاراً ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم شيء، فقال له رسول الله ﷺ: فلعلها ترسل إلي في ذلك، فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمراً مدبراً فافترقا.

وبلغ خديجة ما كان من محاوره عمّه له وقبل ذلك ما كان من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه فقالت: إنّه دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك..

ففعل رسول الله ﷺ ثم لقي عمّه أباطالب فذكر له ذلك فقال: إنّ هذا لرزق ساقه الله إليك، فخرج رسول الله ﷺ مع غلامها ميسرة وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً.

فخرج هو وميسرة وعليه غمامة تظله وجعل عمومته يوصون به أهل العير، فخرج حتى قدم الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له نسطورا، فاطّل الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، أفي عينه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه. فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء وبأليت أني أدركه حيث يؤمر بالخروج.

وعند أبي سعد النيسابوري في الشرف: فلما رأى الغمامة فزع وقال: ما أنتم؟ قال ميسرة: غلام خديجة. فدنا إلى النبي سراً من ميسره وقبّل رأسه وقدميه وقال:

أمنت بك وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة ثم قال : يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة فأوضح لي عن كنتفك ، فأوضح له ، فإذا هو بخاتم النبوة يتلألاً ، فأقبل عليه يقبله وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشر بك عيسى بن مريم ، فإنه قال : لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبي الهاشمي العربي المكي ، صاحب الحوض والشفاعة وصاحب لواء الحمد ، إنتهى .

فوعى ميسرة ذلك ثم حضر رسول الله سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة فقال الرجل : أحلف باللات والعزى فقال رسول الله ﷺ : ما حلفت بها قط . فقال الرجل : القول قولك ، ثم قال لميسرة وخلا به : يا ميسرة هذا نبي هذه الأمة والذي نفسي بيده إنه لهو ، تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم .

فوعى ميسرة ذلك ثم انصرف أهل العير جميعاً وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظللانه من الشمس وهو على بعيره وكان الله تعالى قد ألقى على رسول الله المحبّة من ميسرة فكأنه عبد لرسول الله ﷺ .

وعند أبي سعد في الشرف : أنهم باعوا متاعهم وربحوا ربحاً لم يربحوا مثله قط ، فقال ميسرة : يا محمد اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما رأيت ربحاً قط أكثر من هذا الربح على وجهك ، فلما كانوا بمصر الظهران قال ميسرة للنبي ﷺ : هل لك إلى أن تسبقني إلى خديجة فتخبرها بالذي جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتين ، فركب النبي ﷺ فعوداً أحمر فتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهرية وخديجة في عليه لها معها نساء فيهن نفيسة بنت منبه ، فرأت رسول الله حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظللان عليه ، فأرته نساءها فعجبين لذلك .

ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبّرها بما ربحوا فسرت بذلك وقالت : أين ميسرة ؟ قال : خلفته في البادية . قالت : عجّل إليه ولتعتجل بالإقبال ، وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره ؟ فركب رسول الله ﷺ وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى فاستيقنت أنه هو ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت وأخبرها بقول الراهب نسطورا ، ويقول الآخر الذي خالفه في البيع ..

قال ابن إسحاق: فلمّا رأّت خديجة أنّ تجارتها قد ربحت أضعفت له ما سمّت^(١).

الزواج السعيد..

قال الصالحى الشامى: وسبب ذلك ما حدّثها به غلامها ميسرة وما رأته من الآيات وما ذكره ابن إسحاق في المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه في المسجد فاجتمعن يوماً فيه فجأهنّ يهودى فقال: يا معشر نساء قريش إنّه يوشك فيكّن نبيّ فأيكّن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبه النساء وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك في نفسها، فلمّا أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هي قالت: إن كان ما قاله اليهودى حقّاً ما ذلك إلّا هذا.

واختلفوا في سبب الخطبة، فعند أبى سعيد النيسابورى في «الشرف» أنّ خديجة رضى الله عنها قالت للنبيّ صلى الله عليه وآله: إذهب إلى عمّك فقل له: عجل إلينا بالغداة، فلمّا جاء قالت له: يا أباطالب أدخل على عمرو عمّي فكلمه يزوّجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله، فقال أبوطالب: يا خديجة لا تستهزئي. فقالت: هذا صنع الله، فقام أبوطالب مع عشرة من قومه فذكر الحديث..

وعند الزهري في سيرته أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل على خديجة ليتحدّث عندها فلمّا قام من عندها جاءت امرأة فقالت: خاطباً يا محمد؟ فقال: كلاً، فقالت: ولم؟ فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلّا تراك كفوّاً لها، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله خاطباً لخديجة مستحياً منها.

وعند يعقوب في تاريخه عن عمّار قال: مررت أنا ورسول الله بأخت خديجة

(١) أثنّا رواية محمد بن يوسف الصالحى الشامى في كتابه «سبل الهدى والرشاد»، ١٥٨/٢ و ١٥٩ و ١٦٠ لشمولها واحتوائها على زيادات لا توجد في غيرها، ومن أراد مزيد الإطلاع فليراجع الكتب التالية: السيرة الهشامية، والحلبية، وابن كثير، وسير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام، وأعيان الشيعة، والمعرفة والتاريخ، والعقد الثمين، وإمتاع الأسماع، والإصابة، وأسد الغابة، وتاريخ الخميس، وبحار الأنوار، وعيون الأثر. وتاريخ الطبري، والطبقات، والكامل لابن الأثير. وكتب غيرها بطول المقام بذكر أسمائها.

فنادتني فانصرفت إليها ووقف لي رسول الله ﷺ فقالت: أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ فقال عمار: فأخبرته، فقال: بلى لعمري، فذكرت لها فقالت: أغدوا علينا إذا أصبحنا، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلة وذكر الحديث.

وعند أبي إسحاق في المبتدأ أنها قالت له: يا محمد ألا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا. قال: ومن لي بك وأنت أئيم قريش وأنا يتيم قريش. قالت: أخطبني، وذكر الحديث.

وعنده في السيرة: فلما استقرّ عندها ذلك، أي ما أخيرها به ميسرة وما رآته وكانت امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وهي يومئذ أسط قريش نسباً، وأعظمنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالاً، وكلّ قومها حريص على نكاحها لو يقدر عليه وعرضت نفسها على النبي ﷺ فقالت له فيما يزعمون: إنني رغبت فيك لقربتك وسطنتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك، فلما قالت له ذلك ذكره لأعمامه، وذكر الحديث.

وروى ابن سعد عن نفيسة بنت منبة قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ من أوسط قريش نسباً وأعظمنّ شرفاً وأكثرهم مالاً وكلّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر له ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلت دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما منعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به. قلت: فإن كفيت ذلك ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفائة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قالت: قلت: عَلِيٌّ فَأَنَا أَفْعَلُ، فذهبت فأخبرتها، فذكرت الحديث، قالت: فأرسلت إليه أن إئت ساعة كذا وكذا، فحضر وأرسلت إلى عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها.

وعند ابن إسحاق أنّ رسول الله ﷺ دخل مع عمّه حمزة.

وعند النيسابوري في الشرف أنّ أبا طالب خرج مع عشرة من قومه حتى دخلوا على عمّها فخطبها فزوّجها، فقال عمرو بن أسد: هذا الفحل لا يقدر أنفه ...

قال ابن هشام: أصدقها عشرين بكرة.

قال البلاذري والدمياطي: إثنى عشرة أوقية ونشأ.

قال المحب الطبري: ذهباً...

قال ابن إسحاق في المبتدأ: وكان تزويجه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً عقب صفر سنة ستٍّ وعشرين.
قال الزهري: وقال راجز من أهل مكة في ذلك:

لا تزهدني خديج في محمد نجم يضيء كما أضاء الفرقد

..... (١)

الخطبة والزواج..

قال النسوي في تاريخه: أنكحه إياها أبوها خويلد بن أسد، فخطب أبو طالب بما رواه الخركوشي في شرف المصطفى والزمخشري في ربيع الأبرار وفي تفسيره الكشاف وابن بطّة في الإبانة والجويني في السير عن الحسن والواقدي وأبي صالح والعتبي فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم ومن ذرّيّة الصفي إسماعيل وضئى معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل مسكننا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكّام على الناس، ثمّ إنّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوازن برجل من قريش إلّا رجح به ولا يقاس بأحد منه إلّا عظم عنه وإن كان في المال مقلّاً فإنّ هذا المال ورق حابل وظلّ زايل وله والله خطب عظيم ونبا شايع وله رغبة في خديجة ولها فيه رغبة فزوّجوه والصدّاق ما سألتموه من مالي، عاجله وآجله.

فقال خويلد: زوّجناه ورضينا به.

وروي أنّه قال بعض قريش: يا عجباً أيمهر النساء الرجال؟ فغضب أبو طالب وقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلى الأثمان، وإذا كانوا أمثالكم لم تزوّجوا إلّا بالمهر العالي، فقال رجل من قريش يقال له عبد الله بن غنم:

هنيئاً مريئاً يا خديجة قد جرت لك الطير فيما كان منك بأسعد

(١) ما مرّ هرواية سبل الهدى والرشاد، وآثرناها على غيرها لأنها شاملة وقد اجتمع فيها جلّ ما رواه المؤرخون ولك أن تراجع الكتب التالية مضافاً إلى ما ذكرناه سابقاً من المصادر: المستدرک، ٣/١٨٦؛ وكنز العمال، ١٣/٦٩٠؛ ومجمع الزوائد، ٩/٢٢١، والمصادر حول المعنى كثيرة جداً.

تزوجته خير البرية كلها ومن ذا الذي في الناس مثل محمد
ويشربه المرآن عيسى بن مريم وموسى بن عمران فيا قرب موعد
أقرت به الكتاب قدماً بأنه رسول من البطحاء هادٍ ومهتدي...^(١)

وفي المنتقى : فلما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل فقال :

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفصلنا على ما عدت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشييرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبتنا في الإتصال بجيلكم وشرفكم ، فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأنّي قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله على أربعمئة دينار .

ثم سكت ورقة وتكلم أبو طالب وقال : قد أحببت أن يشرك عمّها . فقال عمّها : أشهدوا عليّ يا معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد وشهد على ذلك صناديد قريش^(٢) .

وهذا يعرّز الرأي القائل بأنها عليها السلام خطبت من ابن عمّها ورقة ، وقد كثر الإختلاف حول ذلك ، فقال ابن إسحاق : زوجه إياها خويلد بن أسد . ويقال : أخوها عمرو بن خويلد ، كذا في السمط الثمين . وفي المنتقى : زوجها عمّها عمرو بن أسد وسيجيء .

وروى ابن شهاب الزهري : أنّه قيل لخويلد بن أسد بن عبدالعزيز وهو ثمل من الخمر هذا ابن أخيك محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب يخطب خديجة وقد رضيت فدعاه وسأله عن ذلك فخطب إليه فأنكحه فخلقت خديجة أباه وحلت عليه حلّة ودخل رسول الله ﷺ بها ، فلما صحا الشيخ من سكرته قال : ما هذا الخلق وما هذه الحلّة ؟ قالت ابنته أخت خديجة : هذه حلّة كساها ابن أخيك محمد ابن عبدالله ابن عبدالمطلب أنكحته خديجة ودخل عليها ، فأنكر ذلك الشيخ ثم صار إلى أن سلم واستحى .

وفي المنتقى قال الواقدي : هذا غلط والصحيح عندنا المحفوظ عند أهل العلم

(١) بحار الأنوار ، ١٣٣/٦ ، ط طهران ١٣٢٣ ؛ وانظر تاريخ الخميس ، ٢٦٤/١ .

(٢) تاريخ الخميس ، ٢٦٤/١ .

أَنَّ عَمَّهَا عمرو بن أسد زَوَّجَهَا وَأَنَّ أَبَاهَا مات قبل الفَجَّارِ (١).
وعلى فرض وجوده على قيد الحياة ساعتها فإنَّ الصورة التي رسمها له
المؤرخون من لهوه وإدمانه وغفلته عمَّا يجري حوله لا يلائم الشخصية المنسوبة إليه
فقد كان وجهاً من وجوه قريش، وقائداً من قوادها، وهو الذي عارض تبعاً حين همَّ
باقتلاع الحجر الأسود، وحمله على ترك ذلك. فأين هذه المكانة من تلك الصورة،
والذي أراه أَنَّ الرواية من وضع الزنادقة من أمويين وغيرهم للزراية على سيِّدة الأمة
الأولى والحطِّ من قدر أبيها ولا بدع أن يكون أنصار أم المؤمنين عائشة وراء أخبار
كهذه الأخبار والعلم عند الله سبحانه.

الإختلاف في عمرها الشريف ساعة الزواج..

أمَّا عمر النبي ﷺ فقد أوشك المسلمون على الإئتفاق من كونه ابن الخامسة
والعشرين حين بنى على سيِّدتنا خديجة عليها الصلاة والسلام.
قال ابن عبد البر: وكان رسول الله ﷺ إذ تزوّج خديجة ابن إحدى وعشرين
سنة وقيل ابن خمس وعشرين سنة وهو الأكثر... (٢)
وقال ابن الأثير: وتزوَّج رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها قبل الوحي
وعمره حينئذٍ خمس وعشرون سنة (٣).
وقطع بذلك المجلسي رحمته الله (٤).

وذكر في مجمع الزوائد عن ابن شهاب قال: تزوّج رسول الله ﷺ خديجة
بمكة وهي أول امرأة تزوّج وكانت قبله عند أبي هالة التميمي وتزوَّجها رسول
الله ﷺ وهو ابن إحدى وعشرين سنة وتوفيت لسبع مضين من مبعثه، رواه
الطبراني وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف.

وعن عمر بن أبي بكر الموملي، أَنَّ عمرو بن أسد زَوَّجَ خديجة رسول الله ﷺ
وهو ابن خمس وعشرين سنة وقريش تبني الكعبة، رواه الطبراني وعمر متروك.

(١) تاريخ الخميس، ٢٦٤/٢.

(٢) ابن عبد البر، الإستهباب، ج ٤ ص ٣٧٩.

(٣) أسد الغابة، ٤٣٥/٥.

(٤) بحار الانوار، ١٣٢/٦، ط طهران ١٣٢٣.

وعن ابن جريج قال: نكح رسول الله ﷺ وهو ابن سبع وثلاثين سنة، وفيه محمد بن الحسن بن زباله وهو ضعيف.. (١)

والقول الأخير لم يعتبره أحد من العلماء، والقول الثاني هو المعتمد عندهم حتى قال الذهبي على نحو الجزم: وتزوجها وعمره خمس وعشرون سنة.. (٢)

وقال الصالحى الشامي في الثاني من التنبيهات: اختلف في عمر خديجة وعمر رسول الله ﷺ حينئذ فقيل: كان عمره ﷺ خمساً وعشرين سنة. قال في الغرر: وهو الصحيح الذي عليه الجمهور، وقطع به أبو عمرو والحافظ عبدالغنى المقدسي. وقيل: إحدى وعشرين سنة، وقدمه في الإشارة. وقيل: تسعاً وعشرين وقد راهق الثلاثين قاله البرقي، وقيل ثلاثين، وقيل سبعاً وثلاثين وقيل غير ذلك.

قال في الغرر: وهذه الأقوال الأربعة ضعيفة ليس لها حجة تقوم على ساق.. (٣) وأما عمرها صلى الله عليها فالمروي الشايح أنه أربعون سنة، ولكن ذلك لا يلتئم مع الولادات المتتابعة من النبي ﷺ؛ فقد ولدت أربع بنات وأربعة أولاد وقيل ثلاثة وقيل اثنان وبعضهم أثبت لها القاسم وحده وبه تكتى (٤) وهذا بعيد طبعاً وعادة عن ابنة الأربعين فلا بد من كونها أقل عمراً من ذلك، ولعل الأرجح بل الصحيح ما أثبتته الحاكم في المستدرک عن محمد بن إسحاق قال: وكان لها يوم تزوجها ثمان وعشرون سنة... (٥) وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنه من أنه تزوجها وهي ابنة ثمانين وعشرين سنة (٦).

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢١٩/٩.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، السيرة النبوية، ص ٦٥.

(٣) سبل الهدى والرشاد، ١٦٦/٢، ط دارالكتب العلمية - بيروت، ١٤١٤.

(٤) ذكر السيد الأمين أقوالاً خمسة حول ذلك:

١ - لم يولد لها من النبي إلا القاسم

٢ - أنها ولدت له القاسم والطاهر

٣ - أنها ولدت له القاسم وعبدالله والثاني يلقب بالطيب والطاهر

٤ - أنها ولدت له القاسم والطيب والطاهر

٥ - أنها ولدت له عبدالله ثم زينب فرقية فالقاسم فالطاهر فالطيب فالطيب (أعيان الشيعة، ٣١١/٦)

(٥) المستدرک، ١٨٢/٣.

(٦) بحار الأنوار، ١٣٥/٦، ط طهران ١٣٢٣.

وقال في سبل الهدى والرشاد: وقيل: كان عمرها رضي الله تعالى عنها أربعين سنة وصحَّحه في الغرر، وقيل: خمساً وأربعين، وقيل: ثلاثين، وقيل: ثمانية وعشرين^(١).

وأكثر الواقدي من ذكر سنِّي عمرها ولم يقطع بأحدها فقال: وعمرها أربعون، وقيل: ست وأربعون، وقيل: ثمان وأربعون، وقيل: خمسون، وقيل: أربعون، وقيل: ثلاثون، وقيل: ثمان وعشرون سنة، فأقامت معه عليها السلام أربعاً وعشرين سنة منها قبل الوحي خمس عشرة سنة، وكان عمره عليه السلام إذ تزوّجها إحدى وعشرين وقيل كان ابن خمس وعشرين سنة وشهران وعشرة أيام وهو الأكثر وقيل ابن ثلاثين^(٢).
ولو نظر في عدد أولادها من رسول الله عليه السلام لرفض الأقوال كلّها، بخاصة القول الرابع، إذ كيف يتزوجها وهي في الخمسين ثمّ تقيم معه أربعاً وعشرين سنة وتموت وهي ابنة خمس وستين سنة.

وهذه الأقوال المضطربة المنقولة بصيغ التمريض من المؤرخين كافة بما فيها قول الأربعين، فقد قطع به المقرئزي حين نقله أولاً على طريقة الجزم ثمّ ما لبث أن عاد فنقله أيضاً بصيغة التمريض فقال: أربعون، وهذا كلّه بضميمة قرينة البطون المتعددة الألى أنجبتهم عليها السلام من رسول الله عليه السلام يؤكد عمر الثامن والعشرين الذي نقله المجلسي في البحار عن الكليني رضي الله عنهما، والكليني ثقة الإسلام وإلى قوله تنتهي الأقوال كلّها، فتحصل لدينا أنّ عمرها الشريف لم يبلغ الثلاثين حين تزوجها النبي عليه السلام، وهذا هو المطابق لمقتضى حالها من حيث ولادتها أولاداً وبناتٍ عدّةً منه عليه السلام ... وهو لا يلام ارتفاع السن.

مهزلة التفضيل ..

لسنا نلوم أحداً على مهزلة التفضيل من رواية ومؤرخين بعد وقوعنا على مصدرها الأول أنها أم المؤمنين عائشة، وأتباعها وأعوانها من الأمويين. والتفضيل لا يراد منه إعلاء أحد بقدر ما يراد منه الإسائة إلى أهل البيت بتفضيل من لا يستحقّ

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ١٦٦/٢.

(٢) المقرئزي، إمتاع الأسماع، ٢٨/٦.

ذلك عليهم أو مساواته بهم .

وما من ضرورة تقضي بتجسّم الإستدلال على المسئلة والقرائن تحكم بذلك ، ومنها أنّ هذه البدعة تدور على محور فئة معيّنة ولا تتجاوزها إلى غيرها ، فلا تفضيل بين مطلق الأصحاب إنّما هو مقصور على الخلفاء الثلاثة ومن لهم هوى فيه كخالد بن الوليد وأبي عبيدة وسعد وأمثالهم كما أنّ فيض الأحاديث المشيدة والمؤيدة وقف على هؤلاء وحدهم فهل أنّ المسألة عفوية أو أنّ وراء الأكمة ما ورائها؟! وهكذا يقال عن التفضيل بين نسائه أنه وقف على عائشة وخصومها فلم يشمل أم سلمة أو زينب بنت جحش أو صفية بنت حيي ، بل ظلّ يدور بين عائشة ومن تبغض من آل النبي ..

وقد عرفت ما كانت تتباهى به بين الناس من خلال السبع أو التسع أو العشر والتي ولدت كل خلّة خلافاً حتى أصبحت من أغنى خلق الله بقطعان الخلال هذه ... وجاء أتباعها والمتمذهبون بمذهبها فحرّروا البحوث وعقدوا الفصول حول المسئلة حتى أصبحت نشازاً في تاريخ الإسلام ، تحيّر العقول إذ لا موجب يدعوا لها ، كما لا قاعدة تأوي إليها . جاء في كتاب «سبل الهدى والرشاد» ما يلي :

قال في الروضة : ويفضل زوجاته على سائر النساء .

وقال السبكي في الحلبيّات : المراد بسائر الباقي لا الجميع لئلا يلزم من تفضيلهنّ على أنفسهنّ لأنهنّ من جملة النساء والذي يحمل السؤال التردد بين مجموع الباقي وبين كلّ فرد منه وجه الإكمال أنّ النساء جمع معرّف وهو محتمل لذلك ، إذ دلالة العموم ترجيح كلّ فرد وكذا الإحتمالات في زوجاته ، لأنه جمع مضاف والظاهر الحمل على كلّ فرد من المفضّل والمفضّل عليه ، ولأنه نصّ في جانب المفضّل عليه ، وهو ﴿ لستنّ كأحد من النساء إن اتقيتنّ الله ﴾ ^(١) .

وعبارة القاضي عليه السلام : قال الحسن : نسائه أفضل نساء العالمين .
والمتولى : نساء خير نساء هذه الأمة ، المذكورة يحتملها ، والآية محتملة أيضاً لظاهر العموم وقد يحتج له بأنّ هذه أمة خير الأمم فنساءها خير نساء الأمم ، والتفضيل

على الأفضل تفضيل على من دونه بطريق الأولى^(١).

ولا إعتراض لنا على هذا الكلام فإن فضل نساء النبي على من عداهن ثابت عند الفرق كافة ولا يستثنى فرقة منها، إلا أن القضية لم تتوقف عند هذا الحد وإنما تركزت حول تفضيل عائشة والموضوع أساساً محرّز من أجلها، كما أن الموضوع تفضيل الصحابة محرر من أجل أبيها، ولذلك تراهم يختلقون الأسباب في حشر عائشة في قضية التفضيل وإن لم تستدع الحال ذلك، يقول ابن قَيِّم الجوزية:

وكل أولاده توفي قبله إلا فاطمة، فإنها تأخرت بعده بستة أشهر فرجع الله لها بصبرها واحتسابها من الدرجات ما فضلت به على نساء العالمين، وفاطمة أفضل بناته على الإطلاق، وقيل: إنها أفضل نساء العالمين، وقيل: بل أمها خديجة، وقيل: بل عائشة، وقيل: بل بالوقف في ذلك^(٢).

والذي أراه أن ابن القَيِّم يذهب إلى تفضيل عائشة على خديجة يتجلى لنا ذلك من ملاحظة ترجمته لهما، استمع إليه يقول عن خديجة عليها السلام:

وهي التي آزرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها، وأرسل الله إليها السلام مع جبرئيل وهذه خاصة لا تعرف لامرأة سواها وماتت قبل الهجرة^(٣).

واستمع إليه يترجم لعائشة فيقول:

ثم تزوج بعدها أم عبد الله عائشة الصديقة بنت الصديق، المبرأة من فوق سبع سماوات، حبيبة رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق وعرضها عليه الملك قبل نكاحها في سرقة من حرير وقال: هذه زوجتك. تزوج بها في شوال وعمرها ست سنين وبنى بها في شوال السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين، ولم يتزوج بكراً غيرها، وما نزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، ونزل عندها من السماء، واتفقت الأمة على كفر قاذفها، وهي أفقه نساؤه وأعلمهن، بل أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إلى قولها ويستفتونها، وقيل أسقطت من النبي سقطاً ولم يثبت..^(٤)

(١) سبل الهدى والرشاد، ١/٣٢٤.

(٢) ابن القَيِّم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ١/١٠٤، ط مؤسسة الرسالة ١٤١٤.

(٣) نفسه، ص ١٠٥.

(٤) نفسه، ص ١٠٦.

وما ذكر ابن القيم هذه الخلال اعتباراً، بل لتفضيلها على الصديقة وأمتها، بقريته كونها بكرةً وأنها الأعلم والأفقه والوحي في لحافها. وإذا كانت أعلم وأفقه من كل نساء الأمة فقد قال الله تعالى: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .
دع ذا عنّا فليست ساعة حساب وإلا لأريناهم نجوم ليل ظهراً، ولكن هل هو صحيح اتفاق الأمة على كفر قاذفها؟ فإن كان صحيحاً فإن أباهم ممن قذفها، أنظر إلى الرواية التالية ثم احكم بما تشاء:

فبلغ رسول الله - في مصيبة الإفك - أن عائشة قد بلغها الأمر فجاء إليها فدخل عليها وجلس عندها وقال: يا عائشة إن الله قد وسّع التوبة فازددت شرّاً إلى ما بي فبيننا نحن كذلك إذ جاء أبو بكر فدخل عليّ فقال: يا رسول الله، ما تنتظر بهذه التي خانتك وفضحتني؟ قالت: فازددت شرّاً إلى شر.. وابن شبيه ذكر لأبي بكر هذا القول وقولاً آخر هو: والله لوددت أنني لم أرك قط، وددت أن لو كنت حيضة، والله ما قيل ذلك في الجاهلية فكيف في الإسلام^(١).

أقول: هل أبقى أبوها شيئاً من أمر القذف بعد أن رماها بثالثة الأثاني ألا وهي الخيانة الزوجية في قوله للنبي ﷺ «خانتك» يقطع بذلك ويجزم جزم المطلع الخبير، فلماذا حاد التكفير عنه إلى الراضة الذين برأوها وكفروا قاذفها على أن النبي لم يبرئها في كلامه معها بل جعل خطأها احتمالاً واقعاً ولذلك أمرها بالتوبة إن كانت تشعر من نفسها شيئاً بقوله: يا عائشة إن كنت قارفت أو ظلمت... ولذلك سارع ابن العربي إلى الاعتذار عن ذلك فقال: قول النبي ﷺ يا عائشة إن كنت قارفت أو ظلمت لم يرد به النبي ﷺ قط الفاحشة ومن قال ذلك فقد كفر كفرأً مبيناً فإنه ما بغت امرأة نبي قط وما كان الله ليلسط على فراش رسوله من يلطخه وهو قد صانه من أن تنكح أزواجه من بعده، فكيف من أن يتمكّن من الفاحشة فيهن^(٢).

وإذا كان النبي ﷺ ينظر بنور الوحي ويعلم براءتها وإنما ماشى ظاهر الحال بقوله: وصحّ عذر ابن العربي عنه فما يقول في أبيها الذي قذفها بالخيانة، وليته سلك

(١) راجع الكتب التالية: الطبراني، المعجم الكبير، ١٧/٢٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢٢٩/٩؛ ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، ٣٢١/١ و٣٢٤.

(٢) أبو بكر العربي، عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذي، ٥٢/١٢ الفائدة ٢٢.

مع ابنته سلوك أبي أيوب حين أحسن بها الظن فقد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ إقال: بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك! قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك^(١).

ونرجع إلى بدعة التفضيل الذي وضعوه من أجل تفضيل عائشة على أهل البيت وسرت فيهم صاغراً عن كابر.

زرت القاهرة بمعينة سيدي الوالد عليه السلام وأوينا إلى مسجد الإمام الحسين لانكاد نغادره في أداء الفريضة إلى غيره، وذات ليلة وهي ليلة الثلاثاء بالتحديد رأينا امرأة هالنا يجري في المسجد وفيه الرقص والغناء والتصفيق وكان ذلك أول عهدنا بالطرق الصوفية وفي القاهرة وحدها ثلاثمائة طريقة وأهمها طرق الرشاد الشاذلية. وبينما نحن نحملق بالراقصين والدهشة تعلقو وجوهنا إذ بصرنا بشاب تغلب عليه الصفرة وقد أرخى لحيته على صدره ينظر إلينا متبسماً فابتسمنا له وكان فاتحة اللقاء، ولما كَلَمناه أجبنا بعريّة ملحونة عرفنا من خلالها أن الرجل أجنبي عنها وعرف نفسه بالدكتور سليمان الأفغاني عبدالعزيز الذي يعد لرسالة الدكتوراه في الحديث النبوي، وكَلَمناه بالفارسية فردّ علينا بها ولم تكن في فمه أسعد من سابقتها وبعد حديث قصير طلب الإجتماع بنا على أن يتم في جناح الأفاغنة بالجامع الأزهر.

ولم نوفق للوصول إلى الجناح في الموعد المقرر لأنّ سكنانا في حيّ العجوزة ويبعد عن الجامع الأزهر بعداً يستدعي قتل الساعات حتّى نبلغه. ولما وافيناه بعد تجاوز الموعد قال لنا رفيقه: أيس منكم وذهب إلى أداء فريضة المغرب، ولم يكن مسجد الإمام الحسين عليه السلام يبعد عن الأزهر كثيراً بل هما متقابلان في ميدان واحد، وقادتنا إليه الصدفة بعد اليأس من لقائه، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث وابتدأت الكلام فقلت له: إنني أشعر بانجذاب خاص نحو هذا المسجد لما يزخر فيه من الروحانية النادرة. قال: وهذا طبيعي في المساجد الأثرية بخاصة المزخرفة منها، هل تعلم بأنّ مساجد القاهرة ثروة طائلة لا تقدّر بثمن وهي الهاجس الرباني الذي يضيف على هذا البلد ذي الألف مسجد عبقاً فوّاحاً من الأراج الإسلامي النافع. قلت: هذا صحيح من جانب، وهناك جوانب أخرى أهم أغفلتها. قال: إنّي أراها في هذا الطراز

البدیع والذوق الرفیع من إنشاء وخلق وهندسة وإبداع .

قلت : وأنا أراها في ذلك المرقد المطهر الذي يرمز إلى رأس الإمام الحسين عليه السلام بل إلى وجدان الأمة الثائر في ذلك المرقد الدال على التوسعة الحسينية فإن عملاق النهضة احتضن العالم الإسلامي شرقه وغربه ، شماله وجنوبه ؛ فجسده بكر بلاء من آسيا ، ورأسه بمصر من أفريقيا ، وما بينهما أراضي إسلامية رواها الإمام الحسين بالثورة وكانت ظمئى إلى صليل السلاح غب الغفوة بفعل المخدر الأموي ، وإني إذ أنسب الحسين دماً وتاريخاً أراه غنياً بالأمجاد فله هو من رجل بدء عظيمًا إذ تلقفته أحضان النبوة وانتهى عظيمًا إذ ضمته أحضان الثورة التي قادها ضد الطغيان الأموي المقيت . هذا هو الحسين أبو الثورة البكر والشهادة العظمى فلم لا يكون مسجد ينتسب إليه ويقوم باسمه بهذه الروحانية الزاخرة .

قال لي : إن الحسين رجل من المسلمين لا يستحق كل هذا الشناء .

أجبتة - وقد بدأت روحه المريضة وعقده الأموية تطل من عينيه - : أفرضه من المسلمين أليست درجات المسلمين متفاوتة وللحسين أعلاها من حيث سمو نفسه وشرف ذاته وكمال طبعه ؟

قال : إنك تبالغ في هواك مهملاً من حسابك ، ما يقابلك من الإعتقاد الذي لا يرى في الحسين ما تراه أنت .

قلت : إن أردت الحق فأنا من مدرسة تحترم رأي الخصوم وترى ذلك من الفروض الأخلاقية والرأي منسوباً إليها صواب يحتمل الخطأ ورأي الخصم خطأ يحتمل الصواب ، ولكن الحسين عليه السلام مستثنى من الحسابات البشرية .

قال : أنتكر أن في الصحابة من له في تاريخ الجهاد سجل حافل ؟ ولعل المقارنة بين الحسين وبينهم تجعل لهم الميزة عليه في الجهاد .

قلت : لا أنكر ذلك ولكن مهما قلنا وبالغنا عنهم فإن للحسين عليه السلام السهم الأوفر والقدح المعلى من نصيب الجهاد ، وطال الحوار بيني وبينه ، حتى انجز إلى أم المؤمنين عائشة وإذا به يفاجئني بهذا القول المريب والرأي الغريب قائلاً : كان الواجب على علي احترام السيدة أم المؤمنين عائشة ولكنّه لم يفعل ذلك !!

قلت له : إنك لا تخلو من واحدة من ثلاث :

فإما أن تكون جاهلاً وعليك حينئذ أن تصغي للحقيقة لكي تذوق حلاوتها فإن

عقل الجاهل كضم المريض يجد مرأً به الماء الزلال حتى يشفى من علته ولن تعرف طعم الحق حتى تعافى من جهلك .

وإما أن تكون متعصباً بالباطل وعليك حينئذٍ أن تنبذ بعيداً هذه العصبية لأنها الحائل بينك وبين معرفة الحق إذ هي جدار صفيق يحجب ما ورائه فاهدمه لكي تبصر الأمر على حقيقته .

وإما أن تكون ناصبياً عدواً لأهل البيت ويكون شأنك شأن الأمم التي عادت أنبياءها وحاربتهم وحينئذٍ لا ينفع معك علاج ولا ينجع دواء لأن الناصبي نفساً أبعد ما تكون عن تناول يد الشفاء .

زعمت أن علياً لم يحترم عائشة ، فقد افترت على الله وجانبت الحق وتعاميت عن الواقع ونبذت الصدق وخرقت إجماع الأمة التي اتفقت كلمتها على أن علياً عليه السلام أجل عائشة إجلالاً لا من أجلها ولكن من أجل مشرفها ، بل المؤرخون كلمة واحدة ثناءً على إنسانية علي مع خصومه الذين لو ملكوا منه ما ملكه منهم لما رحموه ، حتى عائشة نفسها ترحمت على علي حين رأت من رفقها بها وكانت تستحق العقاب فعفى عنها ولم تملك نفسها أن نطقت بالحق واعترفت بفضله عليها .

وهنا قال متأثراً بما أقول متأثراً سلبياً: إنك لا تنكر أن عائشة أم علي بن أبي طالب والأم خير من ولدها؟

قلت له : هذا هو مبرط الفرس . إن قياسك هذا جهل مركب وهو عقدة أموية لا عقيدة إسلامية وسأنقضه على رأسك كما ينقض البناء المتهرء . إذا كانت الأم أفضل من ولدها وعائشة أفضل من علي لأنها أمه فتكون مريم ابنة عمران وأمنة ابنة وهب عليهما السلام أفضل من ولديهما .

قال : ذانك أنبياء والنبي لا يقاس عليه .

قلت : إذا صح قياسك هذا فلم لا تكون عائشة أفضل من عمر بن الخطاب وهي أمه أيضاً ولم فضلت علياً عليه السلام وحده ؟!

فلم ينس بنت شفة وتابعت أقول ووجهه يتمعر : وإذا صح قياسك هذا فتكون أم رومان أفضل الأولين والآخرين لأنها أمها .. بناءً على أن الأم أفضل من الولد وعائشة أفضل المسلمين بالأمومة وأمها تفضلهم باعتبارها أمماً لعائشة ، ليس هذا فقط ، بل تكون أم رومان أفضل الأمم لأن من فضل الأفضل يفضل الأدون لزوماً .
فألقم حجراً ووقع على باقعة .

متى كان أبو عائشة أيها الرجل يقارن بعلي بن أبي طالب حتى تقارن به هذه الوصلة المستعارة «يا الله وللمسلمين متى اعترض في الرب مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر لكنني أسففت إذ أسفوا وطرت إذا طاروا..» .

وبعد أن تبين لي جهله المطلق وجهت إليه السؤال الأخير لأختم به المناظرة التي استغرقت وقتاً لا يستهان به من الليل وأخذت مني جهداً مضيقاً: أنت تحب عائشة لأنها ابنة أبي بكر لا لأنها زوجة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو أنصفت الحق وتعلقت بالسبب الصحيح لواليت بضعته الطاهرة لأنها منه في الصميم وقد قال فيها: فاطمة بضعة مني من أذاها فقد أذاني ، وهو متفق عليه عند القوم .

قال : هذا حديث مكذوب على النبي موضوع وهنا زجرته زجرة أثارت انتباه الطلبة الذين يحاضرون في المسجد لقرب الإمتحان ، فأقبل علينا ثلاثة منهم يلومونا على ارتفاع أصواتنا في بيت الله . قلت للشبان الثلاثة : معذرة إلى الله وإليكم فإن هذا المتعصب العنيد أنكر حديث البضعة وسماه موضوعاً . فقالوا : لقد قرّر علينا في الثانوية ، فناداهم وقد جحطت عيناه وانتفخ سحره : إن مخاطبتكم يكفرون الشيخين ويبرأون منهما ، فصاحوا بصوت واحد : نعوذ بالله . وهنا عرفنا الفتنة تكاد تقع فقمنا وأنا أقول له : لا تحاول إثارة المشاعر ضدنا ، أزم سمة الأدب واعرف بأننا لا نساوم على عقائدنا مهما كان الثمن ثم خرجنا من المسجد .

وفي اليوم الثاني أقبلنا إلى خان الخليلي لشراء ما يلزم لرحلة العودة وإذا بشاب يقف على باب حانوت وهو يناديني : يا شيخ يا شيخ لم تترك الرجل الليلة وانصرفت ، لقد كان عليك أن تقنعه أو تقنع بأقواله ، قلت له : كنا نتناظر في أغصان الزيتون فانقلب غصن الزيتون إلى سيف فانصرفنا ، وإن الرجل يفضل عائشة على الإمام علي عليه السلام ، فقال : وما أدراك لعلها أفضل وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . قلت : وأنت بليّة أخرى ، وأي فضل لأبيها على أدنى المسلمين قدراً ليكون لها الفضل على سيدهم ؟ قال : بقول النبي فيها : خذوا نصف دينكم من حميراء ...

قلت له : هذا الحديث باطل وموضوع وإليك أقوال العلماء فيه : قال السخاوي : قال شيخنا - يعني ابن حجر - : في تخريج ابن الحاجب من إملائه لا أعرف له إسناداً ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير ذكره في مادة ح م ر ، ولم يذكر من خرّجه ، ورأيت أيضاً في كتاب الفردوس لكن بغير لفظه ، وذكره من حديث أنس بغير إسناد أيضاً ولفظه : خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء ، ويبيض له صاحب

مسند الفردوس فلم يخرج له إسناداً وذكر الحافظ عماد الدين في تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب: وهو حديث غريب جداً بل هو منكر، سألت عنه شيخنا المزي فلم يعرفه وقال: لم أقف له على سند إلى الآن، وقال شيخنا الذهبي: هو من الأحاديث الواهية التي لا يعرف لها إسناد، إنتهى. وقال القاري: لكن في الفردوس من غير إسناد... ولكن معناه صحيح. ثم قال: وقد اشتهر أيضاً حديث كلمتين يا حميراء، وليس له أصل عند العلماء، وقال ابن الفريس: رأيت في الأجوبة على الأسئلة الطرابلسيّة لابن قيم الجوزيّة أنّ كلّ حديث فيه يا حميراء أو ذكر الحميراء فهو كذب مختلق كحديث يا حميراء لا تأكلي الطين فإنه يورث كذا وكذا، وحديث خذوا شطر دينكم عن الحميراء، والحميراء تصغير حمراء... (١)

وإذا كان حال الحديث بهذه الصفة فكيف يؤخذ به وإذا ثبت هذا الحديث فإن عائشة تكون به أفضل الصحابة جميعاً حتى أبوها فلم فضّلت عليّ وحده، أضف إلى ما تقدّم أنّ النبي قال في حقّ عليّ حديثاً ثبتت صحّته ورواه الأئمة الثقات وألف العلماء فيه الكتب المستقلّة وهو حديث أنا مدينة العلم وعليّ بابها، وقد كتب فيه الإمام المجتهد الحافظ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسيني كتاباً سمّاه: «فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم عليّ» وقد طبع مرتين في مصر الثانية عام ١٣٨٩ ط مطبعة السعادة وهذا الكتاب رفيع المضمون شريف المحتوى نادر الوجود، وينبغي لكلّ مسلم قرائته. أقول بعد هذا: فما بال النواصب عموا عن هذا الحديث وصمّوا؟

وهنا لم يحر الشاب جواباً وعطف الحديث بسرعة نحو وجهة أخرى فقال: أصبح ما يقال عنكم من أنّكم تكفرون الشيخين؟ قلت له: نحن وأنتم اتفقنا في الله ومحمد واختلفنا في الخلفاء الثلاثة فمن منهما الأقوى؟

قال: الله ومحمد.

قلت: فلم فرقنا الأضعف ولم يجمعنا الأقوى.

أقول: أطلت في ذكر هذا الحوار بعد حذف أكثره لأهميته ولأنّه يتضمّن شيئاً

(١) العجلوني، كشف الخفاء، ١/٤٤٩ و٤٥٠. وبالطبع لم أحاوره بكل ما ذكرت أعلاه وإنما اقتصر قولي معه على ما قاله ابن قيم الجوزية عن وضع الحديث وذكرت ما مرّ للقارئ.

من شعور النواصب في بدعة التفضيل التي ابتدعها معاوية واحتضنتها عائشة، استمع إليه وهو يعلن عن هذا التفضيل في كتاب كتبه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والكتاب قليل من كتب كثيرة في مضمونه وردت الإمام عنه . كتب إليه يقول :

فإن الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجعله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ، واجتبي له من المسلمين أعواناً أئده بهم وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة من بعده ثم خليفة الخليفة ثم الخليفة الثالث المظلوم...^(١)

وعلى هذا النهج الأموي المبتدع في الإسلام سار القوم أمس واليوم ولا جرم فإن في الأمة من يضرب بهذا عرض الجدار ويذهب المذهب الصحيح .

التخلص ..

ومن خصائصه عليها السلام تفضيل بناته على زوجاته وزوجاته على سائر نساء العالمين وأن ثواب زوجاته وعقابهن مضاعف ، قال الحافظ ابن حجر : ومما يستدل به على تفضيل بناته على أزواجه ما أخرجه أبو يعلى عن ابن عمر أن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : تزوج حفصة خير من عثمان وتزوج عثمان خيراً من حفصة ..^(٢) قال الإمام العراقي رحمته الله : إن فاطمة وأخاها إبراهيم أفضل من الخلفاء الأربعة بالاتفاق . وقال الإمام مالك رحمته الله : ما أفضل على بضعة النبي أحداً . وقال الشيخ ابن حجر العسقلاني رحمته الله : فاطمة أفضل من خديجة وعائشة بالإجماع ثم خديجة ثم عائشة ، واستدل السهيلي بالأحاديث الدالة على أن فاطمة رضي الله عنها بضعة رسول الله ﷺ على أن شتمها رضي الله عنها يوجب الكفر...^(٣)

أبو بكر يشتم الزهراء

لمّا سمع خطبتها شقّ عليه مقالها فصعد المنبر وقال : يا أيها الناس ! ما هذه

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب، ٤٣٧/١ نقلاً عن العقد الفريد، ٢٣٣/٢؛ وصبح الأعشى،

٢٢٨/١؛ وشرح ابن أبي الحديد، ٤٠٧/٣.

(٢) حجة الله على العالمين، ٦٤/١، ط حلب - مكتبة دارالفلح.

(٣) الأحمدي، جامع العلوم، ٩/١، ط بيروت - مؤسسة الأعلمي، ١٣٩٥.

الرعة إلى كلِّ حالة؟! أين كانت هذه الأمانى في عهد رسول الله ﷺ؟ ألا من سمع فليقل ومن شهد فليتكلم، إنَّما هو ثعالة شهيدة ذنبه^(١) مرب لكل فتنة، هو الذي يقول: كزَّوها جذعة بعد ما هرمت يستعينون بالضعفة ويستنصرون بالنساء، كأَم طحال أحب أهلها إليها البغي^(٢)، ألا إني لو أشاء أن أقول لقلت ولو قلت لبحت إني ساكت ما تركت ثمَّ التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهاؤكم^(٣) وأحق من لزم عهد رسول الله ﷺ أنتم، فقد جاءكم فأويتم ونصرتم، ألا إني لست بأسطاً يداً ولا لسائناً على من لم يستحقَّ ذلك ممَّا ثمَّ نزل، فانصرفت فاطمة إلى منزلها^(٤)، ودخلت على الإمام وهي قائلة:

يا بن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين وقعدت حجرة الضنين، نقضت قادمة الاجدل فخانك ريش الأعزل، أضرعت خدك يوم أضعت جدك، افترستك الذئاب وافترشت التراب، ماكفت قائلاً ولا عنيت باطلاً، هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغته ابني والله لقد أجهد في ذلّامتي وألذ في خصامي، حتى منعتني القبلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغصت الجماعة دوني طرفها، فلا مانع ولا دافع خرجت والله كاظمة وعدت راغمة ولا خيار لي، ليتني متَّ وتوقيت قبل منيتي.

عذيري والله فيك حامياً ومنك داعياً، ويلاي في كلِّ شارق ويلاي في كلِّ غارب، مات العمد ووهن العضد، شكواي إلى ربِّي وعدواي إلى أبي، اللهم أنت أشدُّ قوّة.

فأجابها أمير المؤمنين عليه السلام: لا ويل لك بل الويل لسانك، نهني عن وجدك يا بن الصفة وبقية النبوة، فوالله ما ونيت في ديني ولا أخطأ-مقدوري فإن كنت تريدن البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون وما أعد لك خير ممَّا قطع منك فاحتسبي. فقالت: حسبي الله ونعم الوكيل.

(١) الدلالة في هذه الألفاظ معلومة كما أنَّ المعنى بهما هما علي وفاطمة عليهما السلام، وأم طحال امرأة كانت تجمع على الفاحشة في الجاهلية.

(٢) نفسه.

(٣) هذه المقالة أتهم هتفوا لعلي عليه السلام فأوجس الخليفة في نفسه خيفة على عرشه.

(٤) شرح النهج، ٢١٥/١٦.

المجلس الثامن مناقب خديجة وفضلها عليها السلام

«.. إنا فقدناك ..»

وقائل لي رفّه عن حشاك ولي
فقلت لم يشجني نأي الخليط ولا
لكن أذاب فؤادي حادث جلال
يوم قضى المصطفى في صبحه وعلى
قادوا أخاه ورَضُوا ضلع بضعته
لم أنسها وهي تنعاه وتندبه
تقول يا والدي ضاق الفضاء بنا
قد كان بعدك أنباء وهنبة
إننا فقدناك فقد الأرض وابلها

وجد إذا ما نزا بالقلب يضطرب
ربع محت نصبه الأعوام والحقب
تنمى إليه الرزايا حين تنتسب
الأعقاب من بعده أصحابه انقلبوا
بجورهم ولها البغضاء قد نصبوا
وقلبها بيد الأرزاء منتهب
لما مضيت وحالت دونك الترب
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
واختل قومك فاشهدهم فقد نكبوا^(١)

خديجة عليها السلام الصديقة الأولى؛ فضلها على نساء العالمين

لم يتقدّمها في الفضل والمنزلة إلا ابنتها الصديقة الكبرى عليها الصلاة والسلام،
ولها فضائل ثابتة ليست لأحد من النساء، وإليك جملة منها:

أول من أسلم خديجة عليها السلام

روى الطبراني برجال ثقات عن بريك رضي الله تعالى عنه قال: خديجة أول من
أسلم مع رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب.
وروى الطبراني بإسناد لا بأس به عن قتادة بن زعامة رحمه الله تعالى قال: توفيت
خديجة رضي الله تعالى عنها قبل الهجرة بثلاث سنين وهي أول من آمن بالنبي ﷺ

(١) الشيخ حسن الحلبي، والبيتان الأخيران ينسبان للصديقة الطاهرة عليها السلام، راجع: المقرّم، وفاة الصديقة

من النساء والرجال .

وقال عبدالله بن محمد بن عقيل رضي الله عنه قال : كانت خديجة أول الناس إيماناً بما أنزل الله .

وقال ابن شهاب رحمه الله تعالى : كانت خديجة أول من آمن بالله وصدق رسول الله قبل أن تفرض الصلاة ، رواهما أبو بكر بن أبي خيثمة .

وقال أبو عمر بن عبدالبر : اتفقوا على أن خديجة رضي الله عنها أول من آمن .

وقال أبو الحسن بن الأثير : خديجة أول خلق الله إسلاماً بإجماع المسلمين ؛ لم يتقدمها رجل ولا امرأة .

وأقره الحافظ الناقد أبو عبدالله الذهبي ، وحكى الإمام الثعلبي اتفاق العلماء على ذلك ، وإنما اختلافهم في أول من أسلم بعدها بعد .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : إنه الصواب عند جماعة من المحققين

قال : فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ فكان لا يسمع بشيء يكرهه من الرد عليه فيرجع إليها فتبته ، وتهون عليه ^(١) .

رأي الشيعة ..

قال السيد الأمين رضي الله عنه : والذي ترويه الشيعة أن علياً رضي الله عنه أسلم قبل خديجة ثم

أسلمت خديجة ، لكنهم رَوَوْا أن رسول الله ﷺ بعث يوم الإثنين وأسلم علي رضي الله عنه يوم

الثلاثاء ، فإن صح الخبر المتقدم أن خديجة أسلمت آخر يوم الإثنين ^(٢) كان إسلامها

متقدماً على إسلامه بليلة ، والإعتبار يقضي بأن لا يتقدم إسلامها لأنها وإن كانت زوجته

لم تكن أشد خلطة به من علي ، ولا أطوع له منه ، ولم يكن ليؤخر رسول الله دعوته

لعلي إلى الإسلام ولم يكن علي ليتأخر عن إجابته إلى ذلك ، ولعل رواية تقدم إسلامها

كانت ممن لم يتركوا وسيلة للغضب من علي إلا توسلوا بها ، وكيف كان فخديجة أول

من أسلم من النساء وعلي أول من أسلم من الرجال ، ولم يسبق علياً وخديجة أحد إلى

الإسلام ؛ فلم يكن في الأرض من يعبد الله إلا ثلاثة : رسول الله ﷺ وعلي رضي الله عنه

(١) راجع : محمد بن يوسف الصالح ، سبل الهدى والزهاد . ١٥٦/١١ و١٥٧ .

(٢) الخبر : صلى رسول الله ﷺ يوم الإثنين وصلت خديجة آخر يوم الإثنين ؛ راجع الإستيعاب .

وخديجة رضوان الله عليها؛ فكان يصلي رسول الله وعلي عن يمينه متأخراً وخديجة عن يمين علي متأخرة عنه.. (١)

والواقع أنّ علماء الشيعة لم يقطعوا بتقدّم إسلام الإمام عليه السلام، فهذا ابن شهر آشوب يقول: فأسلم علي وخديجة ثم زيد ثم جعفر، ولم يعطف بثم بين علي وخديجة ممّا يدلّ على توقّفه في الترتيب (٢)

ويمكن أن يقال عن تقدّم إسلامها على علي عليه السلام أنّه لا يصحّ فيه قول أوّل من أسلم لأنّه لم يكن مشركاً ليصدق فيه هذا القول، أليس هو القائل: ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة؟ هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّه الوصيّ للنبي ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله نبياً وآدم بين الماء والطين، فكذلك القول في وصيّته.

عن ميسرة الفخر قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: متى كنت نبياً؟ قال: وآدم بين الرّوح والجسد. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصحّحه الذهبي أيضاً.

وللحديث سياق آخر وفيه: بين الماء والطين، وبين خلق آدم ونفخ الرّوح فيه.. (٣) فيكون حال وصيّته مثل حاله صلى الله عليهما وآلهما بمقتضى الحديث النبوي الشريف.. أنا وعليّ من شجرة واحدة والناس من أشجار شتى. ولحديث: يا علي الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة. والحديث: عليّ منّي وأنا من عليّ، وعليّ وليّ كلّ مؤمن بعدي. والحديث: لا تقع في عليّ فإنّه منّي وأنا منه وهو وليّكم بعدي (٤).

والحقيقة التي اعترف بها أفاضل المؤرّخين أنّ الإمام أمير المؤمنين ما فارق

(١) سيّدنا الأمين، أعيان الشيعة، ٣١١/٦.

(٢) المناقب، ٤٣/١.

(٣) راجع للحديث المصادر التالية: المستدرک، ٦٠٩/٢؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٢٩٢/١٤؛ طبقات ابن سعد، ٩٥/١، ٤١/٧؟ كنز العمال، ٣١٩١٧ و٣٢١١٧؛ وإتحاف السادة، ٤٥٣/١؛ زاد المسير، ٣٥٥/٦؛ الحاوي للفتاوي، ٢٦٠/٢؛ الدرر المنثّرة، ص ١٢٦؛ تنزيه الشريعة لابن عراق، ٣٤١/٢ وغيرها.

(٤) راجع: المتقي الهندي، كنز العمال، ٦٠٨/١١؛ وأخرج البخاري بعض الحديث هكذا: يا علي أنت منّي وأنا منك، البخاري، ١٦٨/٣.

النَّبِيِّ ﷺ قبل النبوة ولا بعدها «... فلم يزل عليّ مع محمد حتى بعثه الله تبارك وتعالى رسولاً نبياً، فأتبعه عليّ ﷺ وأمن به وصدّقه ... وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصّلاة - وهي التّعبد قبل أن تفرض الصّلاة ليلة الإسراء - خرج إلى شعاب مكة وخرج معه عليّ بن أبي طالب فيصليان، فإذا أمسيا رجعا...»^(١).

أما سيّدة الأمة الأولى الصديقة خديجة ﷺ فكانت تخرج معهما إلى البيت العتيق للعبادة، فيكونون أمة تتألف اليوم من ثلاثة أفراد، وغداً تفتح لهم ولدوتهم ولصلاتهم الدّنيا.

عن عفيف بن عمرو قال: كنت امرئاً تاجراً وكنت صديقاً للعبّاس بن عبدالمطلب في الجاهليّة، فقدّمت لتجارة، فنزلت على العبّاس بن عبدالمطلب، فجاء رجل فنظر إلى الشمس حين مالت، فقام يصلي، ثمّ جاءت امرأة فقامت تصلي، ثمّ جاء غلام حين راهق الحلم فقام يصلي، فقلت للعبّاس: من هذا؟ فقال: هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن أخي، يزعم أنّه نبيّ ولم يتّبعه على أمره غير هذه المرأة وهذا الغلام، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد امرأته، وهذا الغلام ابن عمّه عليّ بن أبي طالب. قال عفيف الكندي -وأسلم وحسن إسلامه -: لوددت أنّي كنت أسلمت يومئذ فيكون لي ربع الإسلام، وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد معتبر من أولاد عفيف بن عمر، وصحّحه الذهبي أيضاً^(٢).

وكان مع هؤلاء الثلاثة عليهم الصّلاة والسّلام ثلاثة آخرون هم خير من على وجه الأرض وهم طلائع الإسلام وخيرة الله من خلقه وهم: سيّدتنا فاطمة ابنة أسد، وسيّدنا أبوطالب، وسيّدنا جعفر عليهم الصّلاة والسّلام.

«... أمّا فاطمة بنت أسد فأسلمت، فكانت أوّل امرأة تسلم بعد أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنهما، ثمّ إنّ أباطالب وابنه جعفر أتيا النّبِيّ عليه الصّلاة والسّلام في داره، فوجداه يتعبّد وعن يمينه علي، فقال أبوطالب لابنه جعفر: صل جناح ابن عمّك، فصلّى عن يساره. على أنّ أباطالب كتم إسلامه ايثاراً للسلامة ولكيلا يصطدم بشراسة الملأ من قريش الذين كانوا يرون في الدّين الجديد خطراً كبيراً، لا لأنّه

(١) الأستاذ الكبير عبدالرحمن الشرقاوي، علي إمام المتّقين، ١٤/١.

(٢) المستدرک، ١٨٣/٣ وتلخيص الذهبي بهامشه.

يخرجهم عمّا ألفوه وعمّا وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام والأوثان فحسب ، بل لأنه سيفسد عليهم أمر الكعبة والتجارة ... ولم يعد أبو طالب يتعبّد للأصنام والأوثان ، وإن ظلّ على كتمان إسلامه ، ولكنه بسط حمايته على ابن أخيه محمّد^(١) .

وبقي هؤلاء السنّة على الإسلام ردها من الزّمن لم يشركهم فيه غيرهم حتّى عرف النّاس فضل الدين الجديد فسارعوا إليه ، وظلّ أولئك وعلى رأس القائمة سيّدة الأمة الأولى عليها السلام : ﴿ السّابِقون السّابِقون ﴾ * أولئك المقربون ﴿ .

أحاديث في فضلها صلوات الله عليها أولاً: الأحاديث الواردة عن طريق أهل السنّة والجماعة:

الحديث الأول:

عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبدالله بن أبي أوفى: أكان رسول الله صلى الله عليه وآله بشراً خديجة ببيت في الجنّة؟ قال: نعم بشراً ببيت في الجنّة من قصب؛ لا صخب فيه ولا نصب ..» . أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

الحديث الثاني:

أبو هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام - أو طعام أو شراب - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومنّي وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب؛ لا صخب فيه ولا نصب . أخرجه البخاري ومسلم .

الحديث الثالث:

عائشة قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وآله ما غرت على خديجة قطّ ، وما رأيتها قطّ ، ولكن كان يكثر ذكرها ، ورّما ذبح الشاة ثمّ يقطعها أعضاء ثمّ يبعثها في صدائق خديجة ، ورّما قلت له: كأنّه لم يكن في الدنيا امرأة إلّا خديجة ، فيقول: إنّها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد .

وفي رواية قالت: وتزوّجني بعدها بثلاث سنين وأمره ربّه يبشّر ببيت في الجنّة من قصب .

(١) علي إمام المتّقين ، ١٥/١ ، بيروت - مؤسّسة الوفاء ، ١٤٠٥ .

وهذا الحديث قطعه الرواة أو الراوية الأول أوصالاً وغيروا كثيراً من ألفاظه وذكروه بسايقات عدّة ليخففو وطئته على عائشة ، وإليك بعض ما ذكروه :
وفي رواية : وأمره الله عزّوجلّ أن يبشّرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهنّ .

وفي رواية : وكان إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة ، قالت : فأغضبته يوماً فقال : إنّي رزقت حبّها ..

وفي أخرى قالت : استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة - على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة ، فارتاع لذلك ، فقال : اللهمّ ، هالة بنت خويلد ، فغرت ، فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها . أخرجه البخاري ومسلم .

أنظر تلاعبهم بالسنة ، فقد بتر الرواة والمخرجون الحديث وأهملوا جواب النبي ﷺ لعائشة لأنه لا يبقى ولا يذر ، ولعلّ الذي حذفه هو صاحب المصلحة الكبرى في كتمان الحقّ أعني عائشة حيث لا تكون بعده أحبّ نسائه إليه .

ولمسلم : قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لكثرة ذكره إيّاها ، وما رأيتهما قطّ ، وقالت : لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتّى ماتت .

وفي رواية الترمذي قالت : ما غرت على أحد من أزواج النبي ﷺ ما غرت على خديجة ، وما بي أن أكون أدركتها ، وما ذاك إلاّ لكثرة ذكر رسول الله ﷺ لها ، وإن كان ليذبح الشاة فمتبع بها صدائق خديجة فيهدى بها لهنّ .

وفي أخرى قالت : ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوّجني رسول الله ﷺ إلاّ بعد ما ماتت وذلك أنّ رسول الله ﷺ بشّرها ببيت في الجنة من قصب - يعني : من قصب اللؤلؤ - ؛ لا صخب فيه ولا نصب ^(١) .

وتقطع الحديث الذي جرى على يد ابن الأثير ومن قبله على يد البخاري وأضرابه يحمل شاريتين :

الأولى : يشعر القارئ أو السامع أنّ هذه الأبعاض زيادات ليس لها قيمة الحديث الأول من حيث الرتبة .

(١) راجع ابن الأثير الجزري ، جامع الأصول ، ٧٩/١ ، طبع دار إحياء التراث العربي .

الثانية: في الحديث عبارات تدل على غضب النبي ﷺ على عائشة وردّه عليها رداً يساوي سوء الأدب أزاء السيدة خديجة وستلوه عليك تاماً لتعرف الحق فيها.

نقول: كانت الغيرة من سيّدة المؤمنين وأمّهم خديجة تمزق أضلاعها وكانت تغيب عن الوعي وتنقلب إلى صنف آخر عندما تسمع باسمها، وربما عاتبها بأمر غير مستنكرة بين يدي النبي ﷺ فينهاها ويغضب منها ويهجرها من أجل ذلك فلا تزداد إلا تمادياً فيما نهاها عنه.

عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت لو أنك نزلت وادياً فيه شجرة قد أكل منها ووجدت شجرة لم يؤكل منها فأيهما كنت تُرتع بعيرك؟ قال: الشجرة التي لم يؤكل منها. قالت: فأنا هي؛ تعني أنّ رسول الله لم يتزوج بكرةً غيرها^(١).

وترتكز نظرتها إلى نفسها وغيرها من أمّهات المؤمنين على نظرة لها أخرى في النبوة، أنّ النبي إنسان عادي يصيبه المنظر الحسن وشباب المرأة كسائر الناس، ولا أرب له في أمر وراء ذلك، كالصفات التي كانت عند سيّدتنا خديجة عليها السلام من الإيمان والعزم والمساعدة وشدّ الأزر والتقوى والفداء والتضحية بالنفيس والأنفس في سبيل الله والدين.

وأما الحديث الذي قسّمه البخاري ومسلم والترمذي أبعاضاً وتحملوا إصر ذلك ليطرحوا منه جواب النبي ﷺ لعائشة فقد أخرجه أحمد بن حنبل بالسياق التالي:

عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أتني عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد أبدلك الله - عزّ وجلّ - بها خيراً منها. قال: ما أبدلني الله - عزّ وجلّ - خيراً منها؛ قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله - عزّ وجلّ - إذ حرمني أولاد الناس^(٢).

(١) أخرجه البخاري في التّكاح باب نكاح الأبكار، ١٠٤/٩؛ وراجع الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦٤/٢.

(٢) مسند أحمد، ٤٢٩/٩.

فهذا الجزء المحذوف من الحديث الشريف لم يحذف عفواً بل القصد منه أن تبقى أم المؤمنين عائشة محتفظة بمستواها المعنوي الذي صنعتها لنفسها أو صنعه لها أوليائها من كونها أحب نساء النبي إليه .

فقد أخرج الطبراني عن أم سلمة أنها قالت في عائشة : إن النبي ﷺ كان لا يتمالك لها حباً .. (١)

لقد اكتشفت الأسرار المغلقة في الدنيا وأسفرت المعميات المخبأة عن حقيقتها وبقي هذا السرّ الغريب لم يكتشف لحدّ الآن : ما معنى هذا الحبّ من رجل لا تعدل الدنيا عنده شيئاً وسوف يعطيه الله في الآخرة حتّى يرضى ؟ وهل يتصوّر من هذا الكلام الذي ردّته عائشة بصيغ وأساليب متعدّدة ورددته معها أوليائها إلاّ الحبّ الجسدي؟! أكان رسول الله ﷺ أمين الله على وحيه بمثابة العامة حين يتهاكون على الرونق ويزدهيمهم المنظر الحسن ويصطببهم جمال المرأة؟! لست أدري !!

ومن حسن حظّ الحق أنّ عائشة تعترف بالحقّ أحياناً ويكون باستطاعتنا الإتّصال به على بعد المدى ، فلقد أخبرتنا عن الحالة التي تدرك النبي من الألم والغضب الشديد عندما تذكر خديجة حتّى لتقارنها بالحالة التي تعتربه عند نزول الوحي عليه .

... عن موسى بن طلحة عن عائشة : أنّ رسول الله ﷺ ذكر خديجة ، فقلت : لقد أعقبك الله عزّ وجلّ من امرأة . قال عقّان : من عجوزة من عجائز قريش من نساء قريش حمراء الشدقين هلكت في الدّهر . قالت : فتمعر وجهه تمعراً ما كنت أراه إلاّ في نزول الوحي أو عند المخيلة حتّى ينظر أرحمة أم عذاب (٢) .

وهذه الحالة تعبّر عن أقصى الألم الذي كانت تتيجحه له عائشة من ذكرها الصديقة الأولى بالسوء حسداً ومنافسة منها ، أو كما سمّتها هي غيره ..

الحديث الرابع : خديجة خير النساء

عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خير نساءها مريم ابنة عمران ، وخير نساءها خديجة بنت خويلد . أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، ٤٥/٢٣ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ، ٤٨٨/٩ .

زاد مسلم في روايته: قال أبو كريب: وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

وفي الحديث زيادة عن رزين أعرضنا عنها لأنه لا بد من مناقشتها وهي مخرجة لنا عن الموضوع أو مضيئة إلى حجم الكتاب ما لا يحتمله.

أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وأسية امرأة فرعون. أخرجه الترمذي ^(١).

وتقديم مريم ابنة عمران في الحديث مشعر بتفضيلها عليها، والواقع أن التقديم والتأخير حادث من الرواة ومخرّجي الأحاديث النبوية. وجاء الحديث بتقديم خديجة على مريم رضي الله عنها؛ ففي رواية الترمذي تقديم خديجة على مريم رضي الله عنهما، وللبزار والطبراني: فضّلت خديجة على نساء أمّتي كما فضّلت مريم على نساء العالمين.

قال الشيخ منصور علي ناصف: وتفضيل هاتين لعظم بلائهما وجميل صبرهما وجيل ما صنعا من أعمال صالحة وأثار نافعة قيّمة، وإن كان أصل الفضل من الله يؤتیه من يشاء.. ^(٢)

وأقول للشيخ الأزهرى: أحسنت فيما فهمت به من الحقّ، وإذا كان للتفضيل سبب كما تفضّلت به فما هو السبب الذي فضّلت به عائشة حتى اختلف المسلمون: هل هي أفضل أو خديجة؟ وتوقف بعضهم فما قطع بتفضيل إحداهما على الأخرى. ومهما قال الخصوم والأولياء في حقّ عائشة فإنّها لا تعدو طورها من كونها امرأة كسائر النساء لم تتميزّ عنهنّ بأمر خاصّ صارت به صديقة أو حبيبة رسول الله أو غير ذلك، بل هي واقفة عند حدودها الطبيعية كسائر نساء الأمة، وتاريخها المكتوب يدلّ على ذلك. بقي شيء واحد أن يكون لها تاريخ كأطراف الشمس لم نطلع عليه نحن أيّها البسطاء به صارت صديقة، فذاك ما لم يتعبّدنا الله به.

(١) ابن الأثير، جامع الأصول، ١٠/٨١.

(٢) منصور علي ناصف، التاج الجامع للأصول، ٣/٣٧٩، الطبعة الرابعة - بغداد، ١٩٨٦، دار الفكر - بيروت.

ثانياً: الأحاديث الواردة في فضلها عن طريق أهل البيت ﷺ

عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر ﷺ قال : حدث أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : إنَّ جبرئيل ﷺ قال لي ليلة أُسري بي حين رجعت وقلت : يا جبرئيل هل لك من حاجة ؟ قال : حاجتي أن تقرأ علي خديجة عليها السَّلام من الله ومَنِّي السَّلام ، وحدثنا عند ذلك أنها قالت حين لقينا نبيَّ الله ﷺ فقال لها الذي قال جبرائيل ، فقالت : إنَّ الله هو السَّلام ، ومنه السَّلام ، وإليه يعود السَّلام ، وعلى جبرئيل السَّلام .

وروي أنَّ جبرئيل أتى النبيَّ ﷺ فسأل عن خديجة فلم يجدها ، فقال : إذا جاءت فأخبرها أنَّ ربَّها يقرؤها السَّلام^(١) .

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ السَّلام تكرر من لدن الله الله سبحانه على خديجة ﷺ .

عن ابن عباس قال : خطَّ رسول الله ﷺ أربع خطط في الأرض وقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله ﷺ : أفضل نساء الجنَّة أربع : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون .

عن أبي الحسن الأول ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إنَّ الله اختار من النِّساء أربعاً : مريم وآسية وخديجة وفاطمة .

عن الصادق ﷺ قال : لما توفيت خديجة رضي الله عنها جعلت فاطمة تلوذ برسول الله ﷺ وتدور حوله وتقول : أبه أين أمِّي ؟ قال : فنزل جبرئيل ﷺ فقال له : ربِّك يأمرُك أن تقرء فاطمة السَّلام وتقول لها : إنَّ أمَّك في بيت من قصب كعابه من ذهب وعمده ياقوت أحمر ، بين آسية ومريم بنت عمران . فقالت فاطمة ﷺ : إنَّ الله هو السَّلام ومنه السَّلام وإليه السَّلام^(٢) .

وعن عليّ ﷺ : ذكر النبيُّ ﷺ يوماً وهو عند نساءه فبكى ، فقالت عائشة : ما

(١) بحار الأنوار ، ١٣٣/٦ ، ط طهران ، ١٣٢٣ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٣١/٦ و ١٣٢ ، ط طهران ، ١٣٢٣ .

بيبيك على عجوز حمراء من عجائز بني أسد؟ فقال: صدقتني إذ كذبتهم وآمنت بي إذ كفرتم وولدت لي إذ عقمتهم. قالت عائشة: فما زلت أتقرّب إلى رسول الله بذكرها.. (١) وروى أنّ عجوزاً دخلت على النبي صلى الله عليه وآله فلاطفها، فلما خرجت سألته عنها عائشة رضي الله عنها، فقال: إنّها كانت تأتينا زمن خديجة وإنّ حسن العهد من الإيمان. وروى أنّ آدم عليه السلام قال: إنّني لسيد البشر يوم القيامة إلا رجل من ذرّتي نبيّ من الأنبياء يقال له أحمد فضل عليّ باثنتين: زوجته عاونه و كانت له عوناً، وكانت زوجتي عليّ عوناً، وإنّ الله أعانه على شيطانه فأسلم وكفر شيطاني (٢).

المناقب لابن شهر آشوب: واعلم أنّ الله تعالى ذكر انتى عشرة امرأة في القرآن على وجه الكناية ﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (٣) حواء.. ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط﴾ (٤).. ﴿إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ (٥) امرأة فرعون.. ﴿وامراته قائمة﴾ (٦) لإبراهيم.. ﴿وأصلحنا له زوجة﴾ (٧) لذكرتيا.. ﴿الآن حصحص الحق﴾ (٨) زليخا.. ﴿وآتيناه أهله﴾ (٩) لأيوب.. ﴿وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ (١٠) حفصة وعائشة.. ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ (١١) بلقيس.. ﴿إني أريد أن أنكحك﴾ (١٢) لموسى.. ﴿وجدك عائلاً﴾ (١٣) خديجة عليها السلام.. ﴿مرج البحرين﴾ (١٤) فاطمة عليها السلام.

(١) نفسه، ص ١٣٤.

(٢) الأربلي، كشف الغمة، ١٣٠/٢ و ١٣٤.

(٣) سورة البقرة: ٣٥.

(٤) التحريم: ١٠.

(٥) التحريم: ١١.

(٦) هود: ٧١.

(٧) الأنبياء: ٩٠.

(٨) يوسف: ٥١.

(٩) الأنبياء: ٨٤.

(١٠) التحريم: ٣.

(١١) النحل: ٢٣.

(١٢) القصص: ٢٧.

(١٣) الضحى: ٨.

(١٤) الرحمن: ١٩.

ثم ذكرهنّ بخصال التوبة من حواء ﴿ قالوا ربّنا ظلمنا ﴾ ^(١) .. والشوق من آسية ﴿ ربّ ابن لي عندك بيتاً ﴾ ^(٢) .. والضيافة من سارة ﴿ وامراته قائمة ﴾ ^(٣) .. والعقل من بلقيس ﴿ إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ ^(٤) .. والحياء من امرأة موسى ﴿ فجاءته إحداهما تمشي ﴾ ^(٥) .. والإحسان من خديجة ﴿ ووجدك عائلاً ﴾ ^(٦) .. والنصيحة لعائشة وحفصة ﴿ يا نساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء - إلى قوله - وأطعن الله ورسوله ﴾ ^(٧) .. والعصمة من فاطمة ﷺ ﴿ ونساءنا ونساءكم ﴾ ^(٨) .

وإنّ الله أعطى عشرة أشياء لعشر من النساء : التوبة لحواء زوجة آدم ، والجمال لسارة زوجة إبراهيم ، والحفاظ لرحمه زوجة أيّوب ، والحرمة لآسية زوجة فرعون ، والحكمة لزليخا زوجة يوسف ، والعقل لبلقيس زوجة سليمان ، والصبر لبرخانة أمّ موسى ، والصفوة لمريم أمّ عيسى ، والرضى لخديجة زوجة المصطفى ، والعلم لفاطمة زوجة المرتضى .

والإجابة لعشرة : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ ^(٩) .. ﴿ فاستجاب له ربّه فصرّف عنه كيدهنّ ﴾ ^(١٠) يوسف .. ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما ﴾ ^(١١) موسى وهارون .. ﴿ فاستجبنا له ﴾ ^(١٢) يونس .. ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرر ﴾ ^(١٣) أيّوب .. ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى ﴾ ^(١٤) زكريّا .. ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾ ^(١٥)

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) التحريم : ١١ .

(٣) هود : ٧١ .

(٤) النمل : ٣٤ .

(٥) القصص : ٢٥ .

(٦) الضحى : ٨ .

(٧) الأحزاب : ٣٢ - ٣٣ .

(٨) آل عمران : ٦١ .

(٩) الصافات : ٧٥ .

(١٠) يوسف : ٣٤ .

(١١) يونس : ٨٩ .

(١٢) الأنبياء : ٨٨ .

(١٣) الأنبياء : ٨٤ .

(١٤) الأنبياء : ٩٠ .

(١٥) المؤمن : ٦٠ .

للمخلصين .. ﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ ﴾ ^(١) للمضطرين .. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ﴾ ^(٢) للذاعين .. ﴿ فَاسْتَجَابْ لَهُمْ رَبِّي ﴾ ^(٣) فاطمة وزوجها .
 وكان رسول الله ﷺ يهتم لعشرة أشياء فأمنه منها وبشره بها: لفراقه وطنه
 فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ^(٤) .. ولتبديل القرآن
 بعده كما فعل بسائر الكتب فنزل: ﴿ إِنَّا مَن نُّزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(٥) .. ولأمنته
 من العذاب فنزل: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ ^(٦) .. ولظهور الذين فنزل:
 ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ^(٧) .. وللؤمنين بعده فنزل: ﴿ يَثْبُتَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ
 الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٨) .. والشفاعة فنزل: ﴿ وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْحَمِي ﴾ ^(٩) ..
 وللفتنة بعده على وصيه فنزل: ﴿ فِيمَا نَذَبْتَ بِكَ فَأِنَّا مِنْهُمْ مَنَّتُمْ ﴾ ^(١٠) يعني
 بعلي عليه السلام .. ولثبات الخلافة في أولاده فنزل: ﴿ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١١) .. ولابنته
 حال الهجرة فنزل: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا ﴾ ^(١٢) الآيات .
 وراس التوابين أربعة: آدم ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ ^(١٣) .. ويونس قال:
 ﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١٤) .. وداود: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ^(١٥) .. وفاطمة:
 ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا ﴾ .

(١) النمل: ٦٢.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) آل عمران: ١٩٥.

(٤) القصص: ٨٥.

(٥) الحجر: ٩.

(٦) الأنفال: ٣٣.

(٧) براءة: ٣٣.

(٨) إبراهيم: ٢٧.

(٩) الضحى: ٥.

(١٠) الزخرف: ٤١.

(١١) النور: ٥٥.

(١٢) آل عمران: ١٩١.

(١٣) الأعراف: ٢٣.

(١٤) الأنبياء: ٨٧.

(١٥) ص: ٢٤.

وخوف أربعة من الصّالحات : آسية عذّبت بأنواع العذاب فكانت تقول : ﴿ ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ﴾ (١) .. ومريم خافت من النّساء وهربت : ﴿ فناداها من تحتها ألا تحزني ﴾ (٢) .. وخديجة عذّلها النّساء في النّبي ﷺ فهجرنها .. فقالت فاطمة : أما كان أبي رسول الله؟! ألا يحفظ في ولده؟ أسرع ما أخذتم وأعجل ما نكصتم .
ورأس البكائين ثمانية : آدم ، ونوح ، ويعقوب ، ويوسف ، وشعيب ، ودادود ، وفاطمة ، وزين العابدين ﷺ .

قال الصادق ﷺ : أمّا فاطمة فبكت على رسول الله ﷺ حتّى تأذّى بها أهل المدينة فقالوا لها : قد آذيتنا بكثرة بكاءك ؛ إمّا أن تبكي بالليل وإمّا أن تبكي بالنهار ؛ فكانت تخرج إلى مقابر الشّهداء فتبكي .. (٣)

وهذا الإستنباط الرائع من صاحب المناقب يستمدّ لمعانه وأشعته من الأحاديث الصحيحة في فضل سيّدة الأُمّة الأولى خديجة الكبرى ﷺ ، فقد وضعتها السنّة المعصومة في الرتبة اللائقة بجنابها حيث النّساء العظيمات اللواتي تركن الآثار الخالدة على الوجود البشري من أوّل يوم أشرقن به في التاريخ وإلى يومنا هذا ونذكر على سبيل المثال بالحديث السابق الذي ذكر كَمَل النّساء وعَدَهنّ أربعاً وأولهنّ سيّدتنا خديجة ﷺ ، وهؤلاء النّسوة في مرتبة واحدة عند الله تعالى ، لكنّ خديجة ﷺ تتميّز عنهنّ بما اختصّها الله به من كونها قرينة سيّد المرسلين ، وأنها شاركت في بدء الإسلام مشاركة ليس لها نظير حتّى أظهر الله الإسلام ..

«... وكان رسول الله ﷺ يعارض خديجة ويخبرها بما يأتيه من قبل أن يتنبأ به وما يراه في منامه ، وتخبره هي بقول ورقة ، فلمّا أتاه الوحي من عند الله عزّ وجلّ بالرسالة أخبرها بذلك ودعاها إلى الإسلام فأسلمت ، فكانت أوّل من أسلم ، ثمّ دعا عليّاً ﷺ من غد فأسلم ، وقد مضى ذكر خبر إسلامه ﷺ ...» (٤) .

وكان رسول الله ﷺ في ابتداء أمره إذا دعا قومه فكذبوه ونالوا منه وهمّوا به منعه منهم عمّه أبو طالب ؛ وكان سيّداً مطاعاً فيهم ، وكان يأتي خديجة مغموماً لما يناله

(١) التحريم : ١١ .

(٢) مريم : ٢٤ .

(٣) عوالم العلوم والمعارف والأحوال ، ص ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ .

(٤) القاضي النعمان بن محمّد المغربي ، شرح الأخبار ، ١٦/٣ .

منهم فتهدئه وتصبره ، وتهون عليه ، وبذلت مالها له ، فكان ذلك ممّا يعزّبه .. (١)

بهذا الموقف الصامد منها سلام الله عليها شدّ الله أزر رسولها وخفّف عنه أعباء الدّعوة ، وسهّل عليه حملها الثقيل الذي عجزت الجبال الشّم عن حمله ، من هنا بوأها الله غرف الجنان في أفضل موقع وأطهر بقعة .

عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام أنه قال : قال رسول الله ﷺ لفاطمة عليها السلام : إنّ جبرئيل عليه السلام عهد إليّ أنّ بيت أمك خديجة في الجنّة بين بيت مريم ابنة عمران وبين بيت آسية امرأة فرعون ، من لؤلؤ ، جوفاء ؛ لا صخب فيه ولا نصب .

عن رسول الله ﷺ أنه أهدى إليه لحم جمل أو لحم جزور ، فأخذ بيده لحمًا فأعطاه رسول الله وقال : إذهب إلى فلانة - أوقال : إلى فلان - فقالت عائشة : يا رسول الله لم غمرت يدك ، قد كان فينا من يكفيك ؟ قال : ويحك إنّ خديجة أوصتني بها - أوقال : أوصتني به - يعني من أرسل ذلك اللحم إليه ، فأدرت الغيرة لذكر خديجة فقالت : كأن ليس في الأرض امرأة إلاّ خديجة ، فخرج رسول الله ﷺ وهو غضبان ، فلبث ما شاء الله أن يلبث ثمّ دخل عليها وعندها أمّها أمّ رومان ، فقالت : يا رسول الله ما لعائشة ؟ إنّها حدثت وهي غيراء ، فأخذ رسول الله ﷺ بشدق عائشة ثمّ قال : ألسنت القائلة : كأنّ ليس في الأرض امرأة إلاّ خديجة ؟! لقد آمنت بي إذ كفر بي قومك ، وقبلتني إذ رفضني قومك ، ورزقت منّي الولد إذ حرمت منّي . قالت عائشة : فما ترك شدقي حتّى ذهب من نفسي كلّ شيء كنت أجده على خديجة .. (٢)

ومن حقّ الباحث أن لا يمرّ ببعض فقرات هذه الرواية مرور الكرام ، كالأخذ بشدق عائشة ، وهذا بجانب للخلق النبويّ العظيم ، فما كان ﷺ يسلك مع عياله وآله سلوك البداهة الجافي ، بل كان خلقه كما أخرجت عنه عائشة القرآن ، فكيف يقسو هذه القسوة من أجل كلمة قالتها صرّة غيراء على ضرّتها ؟ وطالما سمع منها أمثالها فلم يزد على نهيها وإرشادها إلى الأحسن والأفضل ، من جانب آخر ، فإنّ الرواية تنسب إلى عائشة قولاً ما كانت لتقوله ولو قطعوها بالسكاكين ، بل كانت تصدر منها أقوال معارضة تماماً لهذا القول وهو قولها : حتّى ذهب من نفسي كلّ شيء ... والواقع أنّ

(١) شرح الأخبار ، ١٦/٣ ، ١٧ .

(٢) شرح الأخبار ، ١٧/٣ ، ١٨ .

نفسها ظلّت موقرة بإصر ثقيل من بغض خديجة وابنتها وابنيها وأبيها حتّى زارت حفرتها .

التخلص ..

وكيف تقول عائشة هذا عن نفسها وهي التي شممت بعليّ عليه السلام حين أتاها نعيه .
ذكر ابن الأثير : لمّا بلغ عائشة قتله قالت :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالأياب المسافر

ثمّ قالت : من قتله ؟ فقيل لها : رجل من مراد . فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه نعيّ ليس في فيه التراب

فقالت زينب بنت أمّ سلمة : أتقولين هذا في عليّ ؟! فقالت : إنني أنسى فإذا نسيت فذكروني .

ومعنى قولها : ليس في فيه التراب أي لا يقال للمخبر بقتله : بفيك التراب ..^(١)
وهذا المصاب الذي شممت به عائشة اقشعرّ له الوجود حزناً ، وجلبب الأرض حداداً ، وبكت لها السماء دماً .

وعلى الأفق من دماء الشهداء علي ونجلاه شاهدان

فهما في أواخر الليل فجران وفي أولياته شفقان^(٢)

المجلس التاسع خديجة ؛ المال والبنون

«.. علل الدنيا ..»

ألا هل إلى طول الحياة سبيل وأنى وهذا الموت ليس يحول

وإني وإن أصبحت بالموت موقناً فلي أمل من دون ذلك طويل

وللدهر ألوان تروح وتغتدي وإن نفوساً بينهنّ تشيل

(١) سالم بن حمد الأباضي ، العقود الفضية ، ص ٤١ و ٤٢ .

(٢) الشعر لأبي العلاء المعري .

لكل امرئ منها إليه سبيل
 وكلّ عزيز ما هناك دليل
 وصاحبها حتى الممات عليل
 فهل لي إلى من قد هويت سبيل
 وقد مات قبلي بالفراق جميل
 أضرب به يوم الفراق رحيل
 وكلّ الذي دون الفراق قليل
 دليل على أن لا يدوم خليل
 لعمرك شيء ما إليه سبيل
 وليس إلى ما يبتغيه سبيل
 ولكن رزء الأكرمين جليل
 وفي القلب من حرّ الفؤاد غليل..^(١)

ومنزل حق لا معارج دونه
 قطعت بأيام التعرّز ذكره
 أرى علل الدنيا عليّ كثيرة
 وإنّي لمشتاق إلى من أحبه
 وإنّي وإن شطّقت بي الذار نازحاً
 فقد قال في الأمثال في البين قائل
 لكل اجتماع من خليلين فرقة
 وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد
 وكيف هناك العيش من بعد فقدهم
 ... يريد الفتى أن لا يموت حبيبه
 وليس جليلاً رزء مال وفقده
 لذلك جنبي لا يواتيه مضجع

ثروة سيّدتنا خديجة عليها السلام ..

ذكر المؤرّخون والرواة عن خديجة أنّها كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار... وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً...^(٢)
 وفي الإصابة: وكانت خديجة امرأة شريفة^(٣) كثيرة المال.. وقال الثبّي لعائشة وقد أخذتها الغيرة من ثنائه على خديجة: وواستني بمالها إذ حرمني الناس^(٤).
 وفي الإستيعاب: واستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً، الحديث.

(١) شرح الأخبار، ٣/٧١، والشمع منسوب للإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة، ٥/٤٣٥.

(٣) كلمة مطموسة لم أهدت إليها.

(٤) ابن حجر، الإصابة، ج ٤ ص ٢٨٢.

وفي صيغة أخرى من صيغ الحديث : وأشركتني في مالها حين حرمني الناس^(١) .

ودلالة هذه العبارة على بذل المال للنبي ﷺ منها أوضح مما قبلها ، لأن الشركة في المال يكون الشريك فيها حرّاً فيما يأخذ ويدع منه ، أما المواساة فقد تكون في القليل كما تكون في الكثير .

وذكر الذهبي في تاريخ الإسلام أنها كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، وكانت تستأجر الرجال في مالها ...^(٢)

وفي مجمع الزوائد : وواستني بمالها إذ حرمني الناس ...^(٣)

وفي سير أعلام النبلاء : وكانت متمولة فعرضت على النبي أن يخرج في مالها ...^(٤) وقال ابن جرير الطبري - وساق عبارة ابن أبي إسحاق ذاتها - : وكانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه ...^(٥) والعبارة واحدة في الكامل لابن الأثير^(٦) .

وهذه النصوص القيمة تتحدّث عن ثروة خديجة الطائلة ، وأنها كانت تستأجر الرجال وتضاربهم مالها ، ومثلها نصوص أخرى أعرضنا عنها ، لتأديتها المعنى ذاته فلم يبق للباحث أدنى شك في ما كانت تتحلّى به سيّدتنا الطاهرة من الثروة وميسور الحال . ويلخص لنا السيّد الحسن بن ثروتها البالغة فيقول : ... أتفتت - المرويات - على أنّ زوجته الأولى خديجة بنت خويلد ، كانت من أفضل نساء القرشيين والمكّيين في خلقها وخلقتها وجميع مواهبها ، وهي مع ذلك من أثرياء مكّة وتجارها الذين يستوردون ويوردون من الشام وإليها كلّ ما يدخل الحجاز من إنتاج اليمن والأحباش وغيرهما من البلاد المتاخمة للحجاز ، وتستعين بذوي الخبرة فترسلهم مع تجارتها

(١) الإستيعاب ، ٣٨٤/٤ .

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، السيرة النبوية ، ص ٦٣ .

(٣) مجمع الزوائد ، ٢٢٤/٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء ، ١١٤/٢ .

(٥) تاريخ الطبري ، ٢٨٠/٢ ، ط دار المعارف ثانية ؛ وراجع : الروض الأنف ، ٢١٢/١ السيرة النبوية .

(٦) الكامل في التاريخ ، ٢٤/٢ .

بقسم من الأرباح أو بأجر تحدده لهم. وأضاف أكثر المؤرخين في سيرة الرسول إلى ذلك أن خديجة بنت خويلد التي جمعت إلى جانب ثروتها المادية الشرف والعفة والصون والكرم، أصبحت تعدّ السيدة الأولى في مكة في ذلك العصر^(١).

ولم يذكر المؤرخون مبلغ هذا المال ولا مقداره بالعدد بدرجة مضبوطة، يمكن أن تستميل الباحث وإن كان بترجيح قول على قول. أجل، في بعض المرويات غلوة بالغ تعدى الخيال الجامح في هذه الثروة الخيالية، وإليك جانباً من بعض المرويات عن كتاب بحار الأنوار الجزء السادس طبع طهران ١٣٢٣، يقول صاحب البحار: ثم إن خديجة قالت لعمها ورقة^(٢)!! وسر بها إلى محمد عليه السلام وقل له: إن هذه جميعها هدية له وهي ملكه يتصرف فيها كيف شاء، وقل له: إن مالي وعبيدي وجميع ما أملك وما هو تحت يدي فقد وهبته لمحمد عليه السلام إجلالاً وإعظماً له، فوقف ورقة بين زمزم والمقام ونادى بأعلى صوته: يا معشر العرب إن خديجة تشهدكم على أنها قد وهبت نفسها ومالها وعبيدها وخدمها وجميع ما ملكت يمينها والمواشي والصدقات والهدايا لمحمد عليه السلام وجميع ما بذل لها مقبول منه وهو هدية منها إليه إجلالاً وإعظماً ورغبة فيه، فكونوا عليها من الشاهدين، ثم سار ورقة إلى منزل أبي طالب عليه السلام وكانت خديجة قد بعثت جارية ومعها خلعة سنية وقالت: أدخلها إلى محمد عليه السلام فإذا دخل عليه عمي ورقة يخلعه عليه ليزداد فيه حباً، فلما دخل ورقة عليهم قدم المال إليهم وقال الذي قالته خديجة، فقام النبي عليه السلام وأفرغ عليه الخلعة وزاده خلعة أخرى، فلما خرج ورقة تعجب الناس من حسنه وجماله.

ثم أخذت خديجة في جهازها وأعدت صواني الذهب والفضة، وفيها الطيب والمسك والعنبر، فلما كانت الليلة الثالثة دخل عليها عمات النبي عليه السلام واجتمع السادات والأكابر في اليوم الثالث كعادتهم، ونهض العباس وهو يقول: أبشروا بالمواهب، يا آل فهر وغالب، أفخروا يا آل قومنا بالثناء والرغائب، شاع في الناس فضلكم وعلا في المراتب، قد فخرتم بأحمد زي كل الأطياب، فهو كالبدر نوره،

(١) السيد هاشم معروف الحسني، سيرة المصطفى نظرة جديدة، ص ٥٧، دارالعلم - بيروت، أولى

١٩٧٥.

(٢) الصحيح أنه ابن عمها.

مشرق غير عائب ، قد ظفرت خديجة بجليل المواهب ، بفتى هاشم الذي ماله من مناسب ، جمع الله شملكم فهو رب المطالب ، أحمد سيّد الورى خير ماشٍ وراكب ، فعليه الصّلاة ما ، سار عيسى براكب .

ثم إنّ خديجة قالت : إعلموا إنّ شأن محمّد ﷺ عظيم وفضله عميم وجوده جسيم ، ثمّ نثرت عليهنّ من المال والطيب ما دهش الحاضرين ، وشجرة طوبى تنثري الجنة على الحور العين ، فجعلن يلتقطن الثّار ثمّ يتهادينه . ثمّ إنّ خديجة أنفذت إلى أبي طالب غنماً كثيراً ودنانير ودراهم وثياباً وطيباً وعمل أبو طالب وليمة عظيمة ووقف النّبى ﷺ وشدّ وسطه وألزم نفسه خدمة الجميع ، وأقام لأهل مكة الوليمة ثلاثة أيّام ، وأعمام النّبى ﷺ تحته في الخدمة ، وأنفذت خديجة إلى الطائف وغيره ودعت أهل الصّنائع إلى منزلها وصاغت المصاغ والحلي وفضّلت الثياب وعملت الشمع بالعنبر على هيئة الأشجار ، وأجرت عليه الذهب وعملت فيه تماثيل من المسك والعنبر . ولم تزل تعمل في شغل العرس ستّة أشهر حتّى فرغت من جميع ما تحتاج إليه ، وعلقت ستور الدّيباج المطرّز ونقشت فيها صورة الشمس والقمر ، وفرشت المجالس ووضعت المائدة والوسائد من الديباج والخز ، وفرشت لرسول الله ﷺ على سرير تحت الأبريسم والوشي والسرير من العاج والأبنوس مصفّح بصفايح الذهب الوهاج ، وألبست جواربها وخدمها ثياب الحرير والديباج المختلفات الألوان ، ونظمت شعورهنّ باللؤلؤ والمرجان ، وصوّرتهنّ ووضعت في أعناقهنّ قلائد الذهب ، وأوقفت الخدّام بأيديهنّ المجامر والدفوف من الذهب ، وفيها الطّيب والعنبر من البخور والعود والند ، وجعلت في يد كلّ واحدة من الخدم مراوح منقوشة بالذهب مفضضة بالفضة وأوقفتهنّ عند مجلس رسول الله ﷺ ، ودفعت إلى بعضهنّ الدفوف والشموع ، ونصبت في وسط الدار شمعاً كثيراً على أمثال النخيل .

فلما فرغت من ذلك دعت نسوان أهل مكّة جميعهنّ فأقبلن إليها ورفعت مجلس عمّات النّبى ، ثمّ أرسلت إلى أبي طالب ليحضر وقت الزفاف ، فلما كان تلك الليلة أقبل النّبى ﷺ بين أعمامه وعليه ثياب من قباطي مصر وغرامة حمراء وعبيد بني هاشم بأيديهم الشموع والمصابيح ، وقد كثر النَّاس في شعاب مكّة ينظرون إلى محمّد ومنهم من وقف على السّرادقات والنّور يخرج من بين ثناياه ومن جبينه ومن تحت ثيابه ، فلما وصلوا إلى دار خديجة دخل هو صلوات الله عليه وآله وهو كأنه القمر

في تمامه قد خرج من الأفق، وأعمامه محدقون به كأنهم أسود الشرى في أحسن زينة وفرحة، يكبرون الله ويحمدونه على ما وصلوا إليه من الكرامة، فدخلوا جميعاً إلى دارها وجلس النبي ﷺ في المجلس الذي هُيئ له في دار خديجة رضي الله عنها، ونوره قد علا نور المصابيح، فذهلت النساء ممّا رأين من حسنه وجماله ...

وبعد أن ساق المؤلف عبارات كثيرة من قبيل ما تقدّم قال: أقول: إنّما أوردت تلك الحكاية: لاشتمالها على بعض المعجزات والغرائب، وإن لم نشق بجميع ما اشتملت عليه لعدم الإعتماد على سندها كما أوامنا إليه، وإن كان مؤلفه من الأفاضل والأماثل.. (١)

والرواية موضوعة ما في ذلك ريب، ولكنها تُنبئ عن أصل هذا المال، وأنه يعتبر ثروة طائلة، دلّ على ذلك كثرة من كانت تضاربهم مالها وتستأجرهم لذلك، ومهما كان هذا المال فإنها حكمت النبي فيه ووضعت تحت يده ينفق منه ما شاء ويدع ما شاء، ومن مظاهر هذا الإنفاق زيد بن حارثة رضي الله عنه فقد ملكته خديجة بأربعمائة درهم اشتراه لها حكيم بن حزام بن خويلد بسوق عكاظ بأربعمائة درهم، فسأل رسول الله ﷺ خديجة أن تهبه له وذلك بعد أن تزوّجها، فوهبته له، فأعتق رسول الله ﷺ زيداً بن حارثة (٢).

ولم يكن زيد في الأصل مملوكاً، فقد زارت سعدى أمّه قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد فاحتملوا زيداً وهو غلام يفقه قد أوصف، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوّجها رسول الله ﷺ وهبته له فقبضه رسول الله ﷺ وقد كان أبوه حارثة ابن شراحيل حين فقده قال:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل	أحيي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإن كنت سائلاً	أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعري هل لك الدهر رجعة	فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل

(١) بحار الأنوار، ١٥٤/٦ و ١٥٥.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ٤٩٧/١.

تذكّرنيه الشمس عند طلوعها وتعرض ذكره إذا قارب الطفل
وان هبّت الأرواح هيّجن ذكره فياطول ما حزني عليه ويا وجل!
سأعمل نصّ العيس في الأرض جاهداً ولا أسام التطواف أو تسأم الأبل
حياتي أو تأتي عليّ منيتي وكلّ امرئٍ فانٍ وإن غرّه الأمل
وأوصي به قيساً وعمراً كليهما وأوصي يزيداً ثمّ من بعدهم جبل
يعني جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر من زيد، ويعني زيداً أخا زيد لأُمّه،
وهو يزيد بن كعب بن شراحيل .

قال : فحجّ ناس من كلب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه فقال : بلغوا أهلي هذه
الآبيات فإنّي أعلم أنّهم قد جزعوا عليّ ، وقال :

الكني إلى قومي وإن كنت نائياً بأنّي قطين البيت عند المشاعر
فكفّوا من الوجد الذي قد شجاكم ولا تعملوا في الأرض نصّ الأباعر
فإنّي بحمد الله في خير أسرة كرام معد كابراً بعد كابر

قال : فانطلق الكلبيون وأعلموا أباه ، فقال : ابني وربّ الكعبة ، ووصفوا له
موضعه وعند من هو ، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل بفدائه ، وقدما مكّة فسألا عن
النّبي ﷺ فقيل : هو في المسجد ، فدخلا عليه فقالا : يا بن عبد الله ، يا بن عبد المطلب ،
يا بن هاشم ، يا بن سيّد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته تفكّون العاني
وتطعمون الأسير ، جئنناك في ابننا عندك ، فامتن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإنّا سنرفع
لك في الفداء . قال : من هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : فهل لغير
ذلك ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : دعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني
فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً . قالوا : قد زدتنا على النصف وأحسنت .
قال : فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟! قال : نعم . قال : من هما ؟ قال : هذا أبي وهذا
عمّي . قال : فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك ، فاخترني أو اخترهما ، فقال زيد : ما
أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت منّي بمكان الأب والأم . فقالوا : ويحك يا زيد أتختار
العبودية على الحرّيّة وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك ؟! قال : نعم ، إنّي قد رأيت من هذا
الرّجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً . فلمّا رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجّه إلى
الحجر فقال : يا من حضر أشهدوا أنّ زيداً ابني أرثه ويرثني ، فلمّا رأى ذلك أبوه وعمّه

طابت أنفسهما وانصرفا، فدُعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام^(١).
ونال زيد أفضل درجات الإسلام، فكان صديقاً شهيداً، بفضل خديجة التي
دفعت أربعمئة درهم من مالها ثمناً لبنوته لسيد الخلق أولاً وإيمانه بنبوته ثانياً.
ومن مظاهر إنفاقها المال على النبي ﷺ ما أعطته لمرضعة النبي حليمة
بأمرة ﷺ.

عن شيخ من بني سعد قال: قدمت حليمة بنت عبد الله على رسول الله ﷺ مكة
وقد تزوج خديجة فشكت جذب البلاد وهلاك الماشية، فكلم رسول الله ﷺ
خديجة فيها فأعطتها أربعين شاةً وبعبيراً موقعاً للضعينة وانصرفت إلى أهلها^(٢).
ومن مظاهر هذا الإنفاق ما كانت تقدمه عبارة عن هدايا لبنات النبي في أول
عهدهن بالحياة الزوجية.

عن عائشة أن أبا العاص بن الربيع كان فيمن شهد بدرًا مع المشركين فأسره
عبد الله ابن جبير بن النعمان الأنصاري، فلما بعث أهل مكة في فداء أسارهم قدم في
فداء أبي العاص أخوه عمرو بن الربيع وبعثت معه زينب بنت رسول الله ﷺ وهي
يومئذ بمكة بفلاذة لها كانت لخديجة بنت خويلد من جزع ظفار وظفار جبل باليمن،
وكانت خديجة بنت خويلد أدخلتها بتلك الفلاذة على أبي العاص بن الربيع حين بنى
بها فبعثت بها في فداء زوجها أبي العاص، فلما رأى رسول الله ﷺ الفلاذة عرفها
ورق لها وذكر خديجة وترحم عليها وقال: .. إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا إليها
متاعها فعلتم. قالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوا أبا العاص بن الربيع وردوا على زينب
فلاذتها، وأخذ النبي ﷺ على أبي العاص أن يخلي سبيلها إيه، فوعده ذلك،
ففعل^(٣).

وأنا أرتاب في جنس الفلاذة وكونها من جزع، ، ولولا ارتفاع ثمنها لما وضعت
لفداء أسير، وكان الفداء في الأسرى على قدر أموالهم، وكان من أربعة آلاف إلى ثلاثة
آلاف درهم إلى ألفين إلى ألف^(٤).

(١) ابن سعد، الطبقات، ٤١/٣ و٤٢.

(٢) الطبقات، ١١٣/١ و١١٤.

(٣) الطبقات، ٣١/٨.

(٤) السيرة الحلبية، ١٩٣/٢.

والحلي سكت عن جنس القلادة ولعله اعتمد على التبادر، فإن المتبادر إلى الذهن من هذا اللفظ كونها من الذهب وأحسبه اقتدى بابن إسحاق، إلا أن ابن إسحاق لم يقتصر عليها بل ضم إلى القلادة مالا فقال: ... بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها^(١).

وعلى أية حال فالقلادة لا تقل عن أدنى مستويات الفداء وهو الألف قيمةً. وهذا يدل على الكثير من فعل سيدتنا خديجة ونحن نكتفي بالمثل ولا نستقصي، وصفوة القول أن سيّدة الأمة الأولى أوقفت مالها بين يدي النبي بل وهبته إياه كما مر في رواية البحار، وكان ينفق ﷺ عن سعة.

وما كان النبي يرضى بأخذ كل مال، فهذا المغيرة ابن شعبة جاءه بمال استلبه من رفقاته بعد قتلهم فقال النبي ﷺ: نقبل إسلامك ولا نريد مالك فهو مال غدر، ولا خير في الغدر.

ولما أذن الله له بالهجرة جاء بيت أبي بكر ظهراً «... فلما رأى أبو بكر جاء ظهراً قال له: ما جاء بك يا نبي الله إلا أمر حدث؟ فلما دخل عليهم النبي ﷺ البيت قال لأبي بكر: أخرج من عندك. قال: ليس علينا عين، إنما هما ابتناي. قال: إن الله قد أذن لي بالخروج من المدينة. فقال أبو بكر: يا رسول الله الصحابة الصحابة قال: الصحابة، قال أبو بكر: خذ إحدى الراحتين وهما الراحتان اللتان كان يعلفهما أبو بكر يعدهما للخروج إذا أذن لرسول الله ﷺ، فأعطاه إحدى الراحتين فقال: خذهما يا رسول الله فارتحلهما، فقال النبي ﷺ: قد أخذتها بالثمن^(٢).

قال الواقدي: ثمنهما ثمانمائة درهم، وأن المأخوذة كانت هي القصوى، وأنها كانت من نعم بني قشير، كان اشتراها أبو بكر منهم وأنها عاشت حتى ماتت في خلافة أبي بكر الصديق!! وكانت مرسله ترعى في البقيع، وكذا في طبقات ابن سعد أن ثمنها كان ثمانمائة درهم، كذا في الوفاء^(٣).

(١) السيرة النبوية في الروض الأنف، ٥٨/٣، وراجع في قيمة الفداء أيضاً.

(٢) تاريخ الطبري، ٢٧٥/٢ و٢٧٦؛ والذهبي، تاريخ الإسلام، السيرة النبوية، ص ٣٢٠.

(٣) الديار بكرى، تاريخ الخميس، ٣٢٣/١.

قال الحلبي: أي لتكون هجرته ﷺ إلى الله تعالى بنفسه وماله وإلا فقد أنفق على النبي ﷺ أكثر ماله (١).

وسننظر في هذا المال المزعوم قريباً إن شاء الله تعالى لنوقفك على الحقيقة . وقال ابن سعد: قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي إحدى راحلتي هاتين . فقال رسول الله ﷺ: بالثمن ، وكان أبو بكر اشتراها بثمانمائة درهم من نعم بني قشير ، فأخذ ﷺ حدهما وهي القصواء (٢).

ويقول المقرئ: فأخذ إحداهما من أبي بكر بالثمن ، وقد كان أبو بكر قد أعدهما قبل ذلك (٣).

وابن كثير ذكر الراحلة في بدايته وبترا الخبر بترأ وترك القارئ في حيرة هل أخذها النبي بثمان أو بغيره ، وكان سكوته مقصوداً للتعمية (٤).

أمّا في سيرته فقد ذكرها في موردين أيضاً وفي المورد الأول عمى فلم يذكر الثمن ، ونصّ العبارة مشعر بعدمه .. فابتاع أبو بكر راحلتين فحبسهما في داره يعلفها إعداداً لذلك . قال الواقدي: اشتراها بثمانمائة درهم ... وبعد كلام طويل قال: ثم قال أبو بكر: يا نبي الله إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا وانتهى الحديث .

وقال في رواية أخرى: فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورقّ السمرو وهو الخبط أربعة أشهر وذكر بعضهم أنه علفها ستة أشهر . إلى أن يقول: قال أبو بكر: فخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله ﷺ: بالثمن (٥).

هذه حقيقة الراحلة برواية هؤلاء الأعلام وكلهم يوالي الأب وابنته ، ولكن القوم كما هي عادتهم أبوا إلا إدراج الراحلة في حسناته ومناقبه وإضافة مناقب أخرى إليها كما ورد ذلك في الحلبيّة ، قال الحلبي: أقول: ولا ينافي كونه ﷺ أخذ إحدى ناقتي أبي بكر بالثمن ما رواه أبان ابن عبيّاش أحد التابعين عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول

(١) السيرة الحلبيّة، ٣٢/٢.

(٢) طبقات ابن سعد، ٢٢٨/١.

(٣) المقرئ، إمتاع الأسماع، ٥٨/١.

(٤) البداية والنهاية، ٧٧/٣.

(٥) ابن كثير، السيرة النبويّة، ٢٣٣/٢ و٢٤٥.

الله ﷺ لأبي بكر رضى الله تعالى عنه : ما أطيب مالك ، منه بلال مؤذني وناقتي التي هاجرت عليها وزوجتني ابنتك وواسيتني بمالك كأني أنظر إليك على باب الجنة تشفع لأمتي ، لأن أبان بن أبي عياش معدود في الضعفاء وقد قال شعبة : لأن أشرب من بول حمار حتى أروى أحب إلي من أن أقول حديثاً عن أبان بن أبي عياش . وقال فيه مرة أخرى : لأن يزني الرجل خيراً من أن يروي عن أبان ، وقد طلب من شعبة أن يكف عن أبان هذا فقال : الأمر دين وهذا يكذب على رسول الله ﷺ (١).

أبان بن أبي عياش ..

حاول قوم تعديله ليصح ما رواه في الراحلة ويأبى الله إلا أن يفضح الكاذبين . ذكره العقيلي في الضعفاء وجاء بكلام يقرب من الاعتذار عنه ، ومثله فعل ابن حبان .

ابن إدريس قال : ذكرت شعبة أبان ابن أبي عياش فقلت : ما تقول في مهدي ابن ميمون ؟ فقال : صدوق . فقلت : فإن مهدي حدثني عن سلم العلوي أنه رأى أبان يكتب العلم عند أنس بن مالك . قال ابن إدريس : فلمأ رأني أخذت عليه في مهدي ولم يكن إليه السبيل ، قال : سلم ذلك الذي كان يرى الهلال قبل الناس (٢).

وهذا يدل على حسن مذهب ابن إدريس في أبان ، ولذا قال عنه من قال : هو رجل صالح في نفسه ، والإجماع حاصل على ضعفه من أجل عدم تمييزه وغفلته ووهمه وخطئه (٣).

وترجم له البخاري في الكبير وما زاد على قوله : كان شعبة سيئ الرأي فيه (٤) . وذكر الذهبي في المغني عن ابن حنبل أنه قال : تركوا حديثه (٥) . وقال : كنى النسائي أي قال : أبو إسماعيل ، وقال : ليس بثقة (٦) .

(١) السيرة الحلبية ، ٣٢/٢ .

(٢) العقيلي ، الضعفاء الكبير ، ٣٩/١ .

(٣) نفسه ، ص ٣٨ .

(٤) التاريخ الكبير ، ٤٥٠/١ .

(٥) المغني في الضعفاء ، ١٣/١ .

(٦) نفسه ، ١٤/١ .

ومهما كانت الحال فإنّ أباناً متروك، لا يوثق بحديثه، وأقل ما يقال فيه أنه سيئ كما قال سفيان الثوري.. (١)

ولكن هل نلقي بثقل الإصر على أبان وحده ونعفي منه الأوائل؟ الذي أراه أنه ربّ متهم وهو بريء وربّ بريء متهم، ولسنا على شيء من التمييز ما لم نؤاخذ الأوائل ونحاسبهم كما حاسبنا من روى عنهم، والمتهم الأوّل في حديث الراحلة هي عائشة، فقد كانت تقصّ القصص عن أبيها وما كان يدور في خلدّها أنّ هذه الحكايات سوف تكون ديناً في يوم من الأيام وسوف تؤلّف فيها المطولات وسوف يقام إيمان المسلم على أساس الإيمان بها، ولو علمت لتحرّرت الحقيقة وجانبت الخيال. وكانت توحى للناس أنّ مهرها كان من مال أبيها، من هنا جاء في الرواية قولها: ما أطيب مالك منه؛ بلال مؤذني، وناقتي التي هاجرت عليها، وزوجتني ابنتك، وهذا العمل بأباه أدنى الناس مروءة ناهيك بسيد الخلق أجمعين.

وأما الراحلة فقد مرّ عليك نبأها، وقول مؤرّخي المسلمين أنّ النبي صلى الله عليه وآله أخذها منه بثمانها غير أنّ المقرزي لم تملأ عقله هذه الأقوال حتّى قال: كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله ناقته القصواء من نعم بني قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر، ويقال: من نعم بني الحريش بن كعب ابتاعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه!! بأربعمائة درهم فأخذها النبي صلى الله عليه وآله منه بذلك الثمن، والثبت أنه وهبها له فقبلها وتاجر عليها، فلم يزل عنده حتّى مات. ويقال: ماتت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وكانت تضمّر بالنقيع، ويقال: بنقيع الخيل، وهي تسمّى أيضاً الجدعاء والغضباء (٢).

وحتّى هذه الراحلة لم تسلم للرجل وإن كان باعها على النبي صلى الله عليه وآله. يقول مولانا الأميني رحمته الله: على أنّ للنظر في رواية الراحلتين مجالاً واسعاً بما رواه ابن الصبّاغ في الفصول المهمّة والحلبي في السيرة ٤٤/٢ من أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أسماء بنت أبي بكر أن تأتي عليّاً وتخبره بموضعها وتقول له: يستأجر لهما دليلاً ويأتي معه بثلاث من الإبل بعد مضي ساعة من الليلة الآتية وهي الليلة الرابعة، فجاءت أسماء إلى عليّ كرم الله وجهه فأخبرته بذلك، فاستأجر لهما رجلاً يقال له الأريقط بن

(١) العقيلي، الضعفاء الكبير، ٤٠/١.

(٢) المقرزي، إمتاع الأسماع، ٢٣٣/٧، تحقيق النميس، ط بيروت ١٤٢٠.

عبدالله اللّيثي وأرسل معه بثلاث من الإبل فجاء بهنّ إلى أسفل الجبل ليلاً، فلمّا سمع النبي ﷺ رغاء الإبل نزل من الغار هو وأبوبكر فعرفاه؛ وفيه صراحة بأنّه لم تكن هناك راحلتان لأبي بكر معبأتين بركوبهما، وإنّما جيء بالرواحل مستأجرة، وقد جمع الحلبي بين هذا وبين حديث الرّاحلتين بأنّ المراد باستيجار علي عليه السلام إعطاءه الأجرة، وهذا الجمع يأباه لفظ الحديثين كما ترى (١).

ولو حكّمنا العقل تكون رواية ابن الصّبّاغ والحلبي أقرب إلى القبول من تلك، لأنّ من كان بمنزلة النبي وفي مثل مهمّته وكثرة أسفاره وإزماعه على الهجرة بعد بيعة العقبة، لا يعقل أن لا تكون له راحلة في بيته معدّة للسّفر ومهيّأة للخروج به ساعة يشاء، ولذلك جاء في الرّواية: ويأتي معه بثلاث من الإبل، وهذه العبارة تدلّ على أنّ الإبل الثلاثة كانت في بيت النبي ﷺ على أهبة الإستعداد.

ويعضده ما جاء في السّير عن لقاحه وأنّها ثلاث القصوى وهي التي هاجر عليها إلى المدينة والعضباء والجدعاء، ولم يكن بها غضب ولا جدع وإنّما سمّيتا لذلك وقيل: كان بأذنها غضب وقيل العضباء والجدعاء واحدة، والعضباء هي التي كانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فشقّ ذلك على المسلمين فقال عليه الصّلاة والسّلام: إنّ حقّاً على الله ألا يرفع شيئاً من هذه الدّنيا إلّا وضعه (٢).

فهل تجد فيما تقدّم ذكر لأبي بكر، ولو كان هو صاحب العضباء لسارع القوم إلى إثبات ذلك بكثير من النعت والمبالغة، وها هو سعد ابن عبادة يرسل إلى النبيّ بلفاح فيسارع المؤرخون إلى ذكرها فيقول العاصمي: .. وكانت له خمسة وأربعون لقحة أرسل بها إليه سعد بن عبادة.. (٣)

ولعلّ هذا السّبب حمل القوم على التخيّل فتارة يقولون القصواء، وأخرى يقولون الجدعاء، لأنّ الرجل لم يعط لا هذه ولا تلك، ومع فرض صحّة الخبر فإنّ النبي ﷺ ترك أخذها من أبي بكر إلّا بالثمن، وهذا من أعلام نبوّته، لعلمه بما يؤلّ إلى أمر أبي بكر من بعده وأنّ هذا القليل سوف يقدر بالكثير من المناقب الموضوعه وهم

(١) مولانا الأمين علي، الغدير، ٥٢/٨.

(٢) عبد الملك العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٢٣/٢.

(٣) سمط النجوم العوالي، ٢٤/٢.

يختلفون مناقب لا أساس لها من الصحة لرفع منزلة الشيخ فكيف لو كان لها نسب في الواقع ، ولو كان كنسب من قال لصاحبه : بالذي بيني وبينك من الرحم ، فأجابه : وأية رحم بيننا ويحك وأنت من قوم وأنا من آخرين ؟ فردّ عليه : كان أبي قد خطب المرحومة أمك ولو تزوّجها لكنت أخي وكنت أخاك . وربما كانت صلة المناقب ببعض المنسوبة إليهم كصلة الرحم هذه ولكنها تضخّمت بمرور الأيام واللّيالي حتّى رفعت أصحابها على الملائكة .

وكان النبي يعلم أنّ الراحلة سوف تستحيل إلى طامة على الأمّة لأنّ الرّجل بالوهم صار أمنّ للنّاس على النبي ﷺ ، فكيف لو تجسّد بعضه إلى واقع ، من هناردّ على أبي بكر لما قال له : يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين ، قال : بالثمن ، لا أركب بعيراً ليس هو لي . قال : فهو لك . قال : لا ولكن بالثمن الذي ابتعتها به . قال : أخذتها بكذا وكذا ، قال : أخذتها بذلك . قال : هي لك . وعند البخاري في غزوة الرجيع أنّها الجدعاء ، وأفاد الواقدي أنّ الثمن ثمانمائة ..^(١)

وسلوك رسول الله ﷺ مع أبي بكر ورفضه ماله بدون مقابل يُنبئ عن حال أبي بكر وأنّ النبي ﷺ على علم بما يؤول إليه أمره ، فلم يكن من خلق النبي ﷺ رفض هبات أصحابه ، بل كان يقبلها منهم ويدعو لهم ويعدّهم العادات الشريفة منه ومن الله سبحانه ؛ أنظر إلى قوله هبات سعد بن عبادّة وقارنها بموقفه من أبي بكر يتجلّى لك الحقّ ؛ كان سعد مشهوراً بالجود هو وأبوه وجدّه وولده ، وكان لهم أطم ينادي عليه كلّ يوم من أحبّ الشحم واللحم فليات أطم دليم بن حارثة وكانت جفنة سعد تدور مع النبي ﷺ في بيوت أزواجه وكانت معه راية الأنصار في المواطن كلّها ، وقد دعى له النبي في بيته قائلاً : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادّة وأشرك الأنصار جميعاً بالدعاء ، وأفرد سعداً وعبدالله بن عمرو بن حرام ، وكان سعد ينطلق وحده بثمانين من أهل الصفة ولم يبلغ أحد مبلغه ..^(٢)

يقول ابن الأثير : وكان يحمل إلى النبي ﷺ كلّ يوم جفنة مملوءة ثريداً ولحمًا تدور معه حيث دار ...

(١) محمّد بن يوسف الصالحى ، سبل الهدى والرشاد ، ٣/٢٣٩ .

(٢) الإصابة ، ٢/٣٠ .

عن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال : السّلام عليكم ورحمة الله ، فردّ سعد ردّاً خفياً ، قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ قال : دعه يكثر علينا من السّلام ، فقال رسول الله : السّلام عليكم ، ثمّ رجع رسول الله وأتبعه سعد فقال : يا رسول الله إنّي كنت أسمع تسليمك وأردّ عليك ردّاً خفياً لتكثر علينا من السّلام ، فانصرف معه رسول الله ، فأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثمّ ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ، ثمّ رفع رسول الله يديه وهو يقول : اللّهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة^(١) .

وقال سهل بن سعد : أنّ النّبي ﷺ كان يخطب المرأة ويصدقها صداقها ويشترط لها صحفة سعد تدور معي إذا درت إليك ، وبلغ من برّه بالنّبي ﷺ أنّه أرسل إلى النّبي صحفة مملوءة مخاً وحين استفسره النّبي ﷺ عنها قال له : نحرت أربعين ذات كبد فأحببت أن أشبعك من المخ فأكل النّبي ودعا له بخير .

وقال إبراهيم بن حبيب : سمعت أنّ الخيزران حدّثت بهذا الحديث فقسمت من مالها على ولد سعد بن عبادة وقالت : أكافئ به ولد سعد على فعله برسول الله ﷺ^(٢) .

وأقام سعد بن عبادة - يعنبي في غزوة الغابة - في ثلاث مئة من قومه يحرسون المدينة خمس ليالي حتّى رجع النّبي ﷺ ، وبعث إلى النّبي ﷺ بأحمال تمر ، وبعشر جزائر ، بذئ قرد وكان في النّاس قيس بن سعد على فرس له يقال له الورد ، وكان هو الذي قرّب الجزر والتمر إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : يا قيس بعثك أبوك فارساً وقوّى المجاهدين وحرس المدينة من العدو ، اللّهم ارحم سعداً وآل سعد ، ثمّ قال رسول الله ﷺ : نعم المرء سعد .

وجاء سعد بن عبادة وابنه قيس بن سعد بزاملة تحمل زاداً يؤمان رسول الله ﷺ يعني يوم ضلّت زاملته في حجّة الوداع حتّى يجدا رسول الله ﷺ واقفاً عند باب منزله قد أتى الله بزاملته ، فقال سعد : يا رسول الله ، بلغنا أنّ زاملتك أضلّت مع الغلام وهذه زاملة مكانها ، فقا رسول الله ﷺ : قد جاء الله بزاملتنا فارجعاً

(١) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٢/٢٨٣ .

(٢) مختصر تاريخ دمشق ، ٩/٢٣٦ و ٢٤١ و ٢٤٢ .

بزاملتكما بارك الله عليكما ، أما يكفيك يا أبائنا ما تصنع بنا في ضيافتك منذو نزلنا المدينة ؟ قال سعد : يا رسول الله المنة لله ولرسوله ، والله يا رسول الله للذي تأخذ من أموالنا أحبّ إلينا من الذي تدع . قال : صدقتم يا أبائنا ، أبشر فقد أفلحت ، إنّ الأخلاق بيد الله فمن أراد أن يمنحه منها خلقاً صالحاً منحه ولقد منحك الله خلقاً صالحاً ، فقال سعد : الحمد لله هو فعل ذلك ^(١) .

وهذا كله يفعله سعد ويثني عليه النبي ثناءً عاطراً وهو يرى أنّ المنة لله ولرسوله عليه ، وقد صدق فإنّ الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا يَمْتَنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ... ﴾ الآية ، فكيف يكون أبو بكر آمنّ الناس على رسول الله ﷺ ؟؟ وبماذا صارت له المنة بالراحلة وقد عرفت حالها أم بالمال ؟ وسيأتيك نبأه لتعرف أنّ هذه الأكاذيب إن هي إلاّ شنشنة من أخزم ، إنّما حيكت لنضاهي الأموال التي أنفقت سيّدتنا خديجة في سبيل الله والآن معي عزيزي القارئ إلى :

مال أبي بكر ؛ الوهم والحقيقة ..

غالى القوم في ثروة أبي بكر ، وبلغوا بها أرقاماً قياسية ، ومستندهم الوحيد روايات ابنته عائشة ، فهي التي تحدّثت عن هذا المال وأطالت وفخرت به وصالت ، وأخرج روايتها النسائي في سننه الكبرى في كتاب «معاشرّة النساء» ^(٢) .

وكان لا بدّ من الرجوع إلى السنن الكبرى للتأكد من صحّة النقل ، ويا للخيبة حين فتننا الكتاب المذكور فلم نثر على الرواية فعلمنا حينئذٍ أنّ يد الدسّ والتزوير والتحريف امتدّت إليه فحذفها ، والطبعة التي في حيازتي من نشر دار إحياء التراث العربي وقد كتب على غلاف النسخة : «صحّحت هذه الطبعة بمعرفة بعض الأفاضل العلماء وقوبلت على عدّة نسخ قرئت في المرّة الأخيرة على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسن محمّد المحمودي» ولعلّ هذا البعض الذي كتّموا اسمه هو الذي تصرّف فيها بالحذف ، والذي يدلّك على أنّ الحذف متعمّد وعن سابق إصرار أنّ

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٢٤٢/٩ و٢٤٣.

(٢) راجع : جامع المسانيد والسنن ، ٦٤ و٦٣/٣٥ و٦٤ : وتحفة الأشراف ، ١٩/١٢ و٢٠ .

محقق جامع المسانيد و السنن الدكتور عبدالمعطي أمين فلعجي أهمل الرواية كما بترها ابن كثير، فلم يشر إلى مصادرها وقد جرت عاداته الإشارة إلى ذلك في روايات الباب كلها، وابن كثير اقتصر على قول عائشة فخرت بمال أبي في الجاهلية ثم ترك تنمة الحديث وخاض في ذكر رجال السنن وقال آخره : ورفعه بأسره واكتفى به وقفز إلى الحديث الثاني وهو عن هجرة زينب رضي الله عنها ^(١).

والذي حملنا على الإرتياب في القوم هو أن دأبهم وديندهم خيانة الأمانات في نصوص الديانات، وأنهم متى أخرجتهم كلمة أو جملة حذفوها وقد يتعدى ذلك إلى حذف غير واحد من الأحاديث الثابتة الصحيحة لأنها تعفي على مذهبهم كما أن وازعهم عن الكذب ضعيف، فهم إذا أرادوا شيئاً التجئوا إلى الكذب أو تبديل كلمة بأخرى وذلك لتسلم لهم قواعدهم ونحن كشاهد على ما نقول نشير إلى مثال واحد من تل كبير من الأمثلة وهو رسالة أحمد بن حنبل إلى الإصطخري، ولا يسعنا ذكر الرسالة كلها وإنما نشير إلى مصدرها ومورد الشاهد منها :

فقد وردت في كتاب «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل» تأليف الشيخ عبدالقادر البدران الدمشقي وتصحيح الدكتور عبدالله عبدالمحسن التركي، وجاء في الرسالة : قال الإصطخري : قال أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل : هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن اصحاب النبي إلى يومنا هذا... إلى آخر الرسالة . يقول المصحح عن هذه الرسالة : في هذه الرسالة كلمات تنبوع من نهج السلف رضوان الله عليهم مما سيرد معلقاً عليه في صفحة ٩١ و٩٢ مما يدعو إلى الإسترابة في صحة نسبة الكلمات إلى الإمام أحمد رضي الله عنه وهو حامل راية السلف والتمسك في باب أسماء الله وصفاته وأفعاله بالنصوص الصحيحة، ولعل ما جاء فيها من ذلك هو الذي دعا الإمام الذهبي رضي الله عنه أن يقول بعد أن روى رسالة الإمام أحمد إلى عبيدالله بن يحيى عن أبي نعيم في الحلية : رواة هذه الرسالة عن أحمد أئمة أثبات، أشهد بالله العظيم أنه أملاها على ولده وأما غيرها من الرسائل المنسوبة إليه كرسالة الإصطخري ففيها نظر والله أعلم على أن الرسالة قد تصح عن الإمام أحمد ولكنه أقحم فيها فيما بعد الألفاظ التي تخالف

مشرب الإمام أحمد رحمته الله (١).

فمن الذي أقحمها ليت شعري إن لم يكن تلك الأيدي الأثيمة التي حدّثناك عنها .

شاهد آخر على تلاعبهم بالتّصوص :

قال أبو حيّان الأندلسي الحافظ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ (٢) : وقد قرأت في كتاب لأحمد بن تيمية هذا الذي عاصرناه ، وهو بخطه سمّاه كتاب العرش : «إن الله يجلس على الكرسي وقد أخلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

تحليل عليه محمّد بن عبد الخالق وكان من تحيله أنه أظهر أنه داعية له ، جنى أخذ منه الكتاب وقرأنا ذلك فيه كما ترى في النسخ المخطوطة من تفسير ابن حيّان ، وليست هذه الجملة بموجودة في تفسير البحر المطبوع ، وقد أخبرني مصحح طبعه بمطبعة السعادة أنه استفظعها جداً وأكبر أن ينسب مثلها إلى مسلم فحذفها عند الطبع لئلا يستغلها أعداء الذين ورجائي أن أسجل ذلك هنا استدراكاً لما كان منه ونصيحة للمسلمين (٣) .

وذكرنا هاذين الشاهدين لندعم بهما ما قلناه والشواهد لا تعد ولا تحصى . وقد حدّثنا سيّدنا الوالد رحمته الله قال : رزقت حجّ بيت الله الحرام وحركة الإخوان على أشدها وقد نشط دعواتهم نشاطاً ملحوظاً فكانوا يرمون المسلم بالشرك لأثفه الأسباب يقول رحمته الله : وذات مرّة وأنا أزور قبر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وضعت يدي فلامست بعض حوائط القبر وإذا بأحد الوهابية الموكّلين بطرد الناس يرميني بالشرك ، ويدفعني بعيداً عن القبر ، فقلت له : أتق الله يا عبد الله ، فإنّ الصّحابة كانوا يفعلون هذا ، فردّ عليّ كذبت ! من من الصّحابة يفعله ؟ قلت له : عبد الله بن عمر ، وكنت قد عثرت على رواية أوردها السمهوي في وفاء الوفاء أنّ ابن عمر زار قبر النبي فقبّل القبر ثمّ قال : السّلام عليك يا رسول الله إلى آخره .

(١) بدران ، المدخل ، ص ٨٦ .

(٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) الكوثري ، تكملة الردّ على نونية ابن القيم المطبوع بهامش السيف الصقيل ، ص ٩٧ و٩٦ ، ط القاهرة -

مكتبة زهران .

وخرجت من عنده وذهبت توأ إلى إحدى المكاتب القريبة من الحرم النبوي واشترت الكتاب في طبعته الجديدة المحققة، وكانت نسختي قديمة الطبع، وفرحت بذلك وأسرعت إلى تقليب الكتاب طمعاً في الحصول على الرواية المذكورة، وبأ لخبيتي حين وجدت الرواية قد حذفت من الطبعة الجديدة.

ولك أن ترجع إلى كتاب «حياة محمد» لهيكل، فإنك تجد في الطبعة الأولى الرواية التي قال فيها النبي ﷺ لأمير المؤمنين بعد أن جمع عشيرته الأقربين على طعام: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي، الحديث، ولكنك لن تجدها في الطبعة الثانية، لأن المؤلف حذفها بعد أن وعدته وزارة الإرشاد المصرية بشراء خمسمائة نسخة مكافئة له على ذلك، وهذا بلاء يطول شرحه، وفيما تقدّم غيظ من فيض.

والرواية التي حذفوها من وفاء الوفاء أثبت الرواة نظيرها لأحمد بن حنبل، فقد كان يرى جواز مس المنبر والقبر بقصد التقرب إلى الله سبحانه.

عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: سألته - أي أحمد أباه - عن الرجل يمس منبر النبي ﷺ ويتبرك بمسه ويقبله ويفعل بالقبر مثل ذلك أو نحو هذا يريد بذلك التقرب إلى الله عز وجل فقال: لا بأس بذلك... (١)

بعد الذي مرّ عليك، وقد أسهبنا في ذلك لكي يتجلى الحقّ لذي عينين.

لسائل أن يسأل: وما هو سبب حذف رواية أم المؤمنين عن مال أبيها وفخرها

به؟!

ويأتيك الجواب من ذوي الألباب: أن الرواية تجرّ إلى كفر عائشة وكذبها، لأنّ الفخر على رسول الله، نبيّ آخر الزمان وخاتم الأنبياء بما دة موهومة زائلة وقد نزل القرآن بردّ ذلك وحصر الفضل بشيء واحد وهو التقوى: ﴿إِنَّ أكرمكم عندالله أتقاكم﴾ يؤدّي إلى كفر صاحبه لا محالة، ثمّ إنّ المبالغة بثروة أبي بكر وأنها ألف كرسي من الذهب نضدت عليها عائشة ألف حلّة كلّ حلّة بألف دينار لا يشكّ عاقل بل ولا أحقّ أنّه كذب محض ومردّه الخيال الجامع الفج، ونحن لكي نثبت للقارئ خلوّ سنن النسائي من الرواية سحنا في كتاب عشرة النساء واستخرجنا رؤوس رواياته واحدة

(١) الجامع في العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل، رواية عبدالله بن أحمد ابنه والمرزوي والميموني وأبو الفضل صالح بن أحمد ابنه، ٣٢/٢، طبع مؤسسة الكتاب الثقافية، ١٤١٠.

واحدة ثم ذكرنا نصّ الرواية من مصدر آخر وإليك بيان ذلك بالأرقام :
كتاب عشرة النساء :

١ - عن ثابت بن أنس : حَبَّ إليّ من الدّنيا النّساء ، الحديث .

٢ - الرواية مكرّرة .

٣ - عن قتادة عن أنس : لم يكن شيء أحبّ إليّ رسول الله ﷺ ، الخبر .

ميل الرّجل إلى بعض نساته

٤ - عن أبي هريرة : من كان له امرأتان ، الحديث .

٥ - عن عبد بن يزيد عن عائشة : كان رسول الله يقسم بين نساته ثمّ يعدل ،

الخبر .

حَبّ الرّجل بعض نساته أكثر

٦ - عن ابن شهاب قال : أخبرني محمّد بن عبد الرّحمن أنّ عائشة قالت : أرسل

أزواج النّبي .. الخبر .

٧ - الرواية مكرّرة عن الزّهري وشيخه عن عائشة ..

٨ - أيضاً - مكرّرة عن الزّهري عن عروة عن عائشة .

٩ - عن أبي موسى عن النّبي ، فضل عائشة على النّساء كفضل الثريد على الطّعام .

١٠ - الرواية مكرّرة عن أبي سلمة عن عائشة .

١١ - عن هشام بن عروة عن أبيه : يا أمّ سلمة لا تؤذيني في عائشة ... الحديث .

١٢ - عن رميثة عن أمّ سلمة : أنّ نساء النّبي كلّمنها أن تكلم النّبي ، الخبر .

١٣ - الرواية مكرّرة عن هاشم بن عبدالله عن عائشة .

١٤ - عن صالح بن ربيعة بن هدير عن عائشة قالت : أوحى الله إليّ النّبي ﷺ ،

الخبر .

١٥ - الرواية مكرّرة عن الزّهري عن عروة عن عائشة .

١٦ - أبو سلمة عن عائشة ، الرواية نفسها .

باب الغيرة

١٧ - عن أنس : كان النّبي عند إحدى أمّهات المؤمنين فأرسلت أخرى بقصعة

فيها طعام فضربت يد الرّسول فسقطت القصعة فانكسرت ، فأخذ النّبي ﷺ

الكسرتين فضمّ إحداهما إلى الأخرى فجعل يجمع فيها الطعام ويقول : غارت أمّكم ،

كلوا ، فأمسك حتى جاءت بقصعتها التي في بيتها فدفع القصة الصحيحة إلى الرسول وترك المكسورة في بيت التي كسرتها .

وإنما ذكرنا الرواية كلها فلأن الراوي ومخرّجها في سننه تعمّد ستر الحقيقة فلم يصرّح باسم المرأة التي كسرت الإئاء ، وهذه بليّة أخرى تضاف إلى أخواتها ، إن دأب القوم وديدنهم محاربة الحقيقة أينما كانت ، فتارة بالتعمية والإيهام كهذه الرواية ، وأخرى بالحذف ، وثالثة بالتغيير ، وهم إذا أعتبهم الحيلة أنكروها أو ضعفوها ، وهكذا يتلاعبون بالنصوص التاريخية والسنن النبوية والمآثر التراثية ، لتسلم لهم قواعدهم التي أقاموها بأيديهم ثم عبدوها صنع أسلافهم بأصنامهم ، والمرأة التي أيهموا اسمها وحلّ محلّه الضمير هي عائشة ، وقد صرّحوا باسمها في الرواية الثانية .

١٨ - الرواية مكرّرة عن أبي المتوكّل عن أم سلمة ومصرّح فيها باسم المرأة كاسرة الإئاء .

١٩ - عن جصرة بنت دجاجة وعن عائشة وفيها رواية الطعام والإئاء المكسورة وهو في هذه الرواية لصفية .

٢٠ - عن عطاء أنه سمع عبيد بن عمير يقول : سمعت عائشة تزعم أن رسول الله كان يمكث عند زينب بنت جحش ... الخبر .

٢١ - عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطأها .. الخبر .

٢٢ - عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت أن عائشة قالت : التمسّت رسول الله ... الخبر .

٢٣ - ابن أبي مليكة عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ... الخبر .

٢٤ - الرواية مكرّرة عنه عن عائشة .

٢٥ - محمد بن قيس عن عائشة : ألا أحدثكم عن النبي ﷺ وعني ، الخبر .

٢٦ - الرواية بسياق آخر عن محمد بن قيس بن مخزومة عن عائشة ...

وبها انتهى الكتاب وأسقطت اليد الأئيمة فخر الصديقة بمال الصديق أبيها في الجاهلية علماً من الحاذق أن بقاءها لا يبقى على الصديقات ولا يذر ، ومن كان هذا شأنها فكيف صارت صديقة ، وبآية ماثرة حازت هذه الرتبة النبوية ؟ لا شك أنها حازتها بشديد عداوتها لأهل بيت النبي ﷺ ، وهذه ظاهرة في حياة النواصب ، يميّزون الأكثر عداً لأهل البيت بعناية أكبر .

والرواية عثرنا عليها في كتاب مولانا الأميني الغدير وقد أخذها مولانا من كتاب الذهبي: ميزان الإعتدال ج ٢ ص ٣٤١ وتهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣٢٥، والظاهر أنَّ مولانا الأميني عليه السلام لم يجدها في سنن النسائي، ولذا قال: كما جاء فيما أخرجه النسائي وأشار إلى المصدرين المذكورين ولم يحل على النسائي وهو الذي أخرجها^(١).
.. عن عائشة قالت: فخرت بمال أبي في الجاهلية وكان ألف ألف أوقية^(٢)، ونصّدت له ثلاثمائة وستين كرسيّاً في داره وأسدت على كلّ كرسيّ حلّة من بألف دينار^(٣).

وبملاحظة واقع الشيخ في الجاهلية والإسلام ندرك أنَّ ابنته أو من روى عنها اتخذت مذهب الشعراء أسلوباً في مدح أبيها «أكذبه أعذبه» وكانت تستحل في رفع مقام أبيها وإعلاء شأنه رواية الروايات الموضوعية، من دون أن تأخذ ملاساتها بنظر الإعتبار، وشاهدنا فخرها هذا بشيء موهوم، بل لا تصدّق عليه حتّى هذه العبارة، فكيف نصّدت الكراسي وأسدت الحلل عليها في الجاهلية، وهي إنّما ولدت بعد البعثة بأربع أو خمس سنين، ولو أننا أقلناها من هذه الرواية وأعفينا من روى عنها كعمر بن عبد الله وعروة جدّه ومن لَفَّ لَفْهُمَا فكيف يا ترى تتغاضى عن علماء السنّة الذين أخرجوها أمثال النسائي والذهبي وابن حجر.

ومن أجل أن ندنو من الواقع ولو بمقدار بوصة واحدة نقول للأولياء والخصوم إنَّ كلّ مآثر القوم ومناقبهم من نمط هذا الفخر وقس على مال الرجل ماله من فضائل أخرى، والآن لنوال الحديث عن المال كي نظفر بالحقيقة المبتغاة.

سبر مال الصديق ..

يقال أنَّ الشيخ يلقب «ذاالخلال» وذوالخلال أبو بكر الصديق عليه السلام لُقّب به لأنه لما حثَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الصدقة، تصدّق بجميع ماله كله فسأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما تركت لأهلك، فقال: الله ورسوله، وقد خلّ كسائه وهي عباءة كانت عليه بخلال وقال

(١) مولانا الأميني عليه السلام، الغدير، ٤٩/٨ - ٥٠.

(٢) الأوقية: أربعون درهماً.

(٣) مولانا الأميني عليه السلام، الغدير، ٤٩/٨ - ٥٠.

له طارق بن شهاب رضي الله عنه يا ذاالخلال... (١)

والقوم إن تمدّحواب هذه الخلة بعد فرض صحّتها طبعاً ولا أراها تصحّ ، فهي إلى الذمّ والمنقصة أقرب ، لأنها بمبعدة عن روح الخلق الإسلامي ، لأنّ الإسلام لا يحلّ للمسلم أن يتصدّق بماله كلّه ويترك عياله للصدقة يتكفّفون الناس .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنيّ ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول (٢) .

لقد كان أهل بيته أولى بصدقته ، وقوله : تركت لهم الله ورسوله ، فإنّهما أيضاً لمن تصدّق عليهم أم أنّه يراهما وفقاً على أمّ رومان وأولادها .

وعن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : تصدّقوا . فقال رجل : يا رسول الله عندي دينار . قال : تصدّق به على نفسك . قال عندي آخر . قال : تصدّق به على زوجتك . قال : عندي آخر . قال : تصدّق به على ولدك . قال : عندي آخر . قال : تصدّق به على خادمك . قال : عندي آخر . قال : أنت أبصر (٣) .

فأين ذهب عن ذي الخلال هذه الخلال الإسلامية؟!

وفسر العلماء قول النبي صلى الله عليه وآله : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنيّ» أي ما وقع من غير محتاج إلى ما تصدّق به لنفسه ، أو من تلزمه نفقته . قال الخطابي : لفظ الظهر يزداد في مثل هذا إشباعاً للكلام ، والمعنى : أفضل الصدقة ما أخرجها الإنسان من ماله بعد أن يستبقى منه قدر الكفاية ولذلك قال بعده : وابدء بمن تعول... (٤)

وهذا حقّ لا مرية فيه ، لأنّ حاجة الإنسان إلى ما يلزمه من الطعام ضرورية ، فإذا كان الرّجل قد تصدّق بماله كلّه فماذا ترك لجوع عياله ، فهل تصدّقوا عليه كما تصدّق ؟ فما معنى هذا الدور العجيب!؟

قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله متواترة بأنّ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنيّ وابدأ بنفسك ثمّ بمن تعول ، وافترض الله على الأزواج

(١) الزبيدي . تاج العروس ، ج ٧ ص ٣٠٧ ، مادة خلل .

(٢) سنن النسائي ، ٦٢/٥ .

(٣) سنن النسائي ، ج ٥ ص ٦٢ .

(٤) شرح السيوطي على النسائي ، ٦٢/٥ .

نفقة أهاليهم وأولادهم ، وقال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت .. »^(١).

فهل يكون مدحاً لذي الخلال أن ضيِّع أمَّ رومان وأولادها؟!
وفيما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى تتجلى صدقة أبي بكر على حقيقتها:
عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنّا عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل بمثل بيضة من ذهب ، فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها . فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثمَّ أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثمَّ أتاه من ركنه الأيسر ، فأعرضه عنه ، ثمَّ أتاه من خلفه ، فأخذها رسول الله ﷺ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته ، فقال رسول الله ﷺ : يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة ثمَّ يقعد يستكف الناس ، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى^(٢).

وفي محاضرات الأدباء: أنّ كعب بن مالك أراد أن يتصدّق بماله كلّه فنهاه النبي ﷺ وقال له: أمسك عليك مالك ، فإنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس ..^(٣)

وهذا يكفي في ردّ تلك المأثرة المزعومة على أنّ الرّجل كان بمنأى عن روح الإنفاق ولم يعرف بشيء مما روي عنه في الجود والنفقة ، كان يقول: إني لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد^(٤).

وفي رواية المحاضرات: إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد^(٥).

وربّما قيل إنّ ما أنفقه أبو بكر يختلف عن سائر الأنفاق لأنه في سبيل الله وقد أعطى النبي ﷺ ماله كلّه وفوّض أمره إليه ، لكن التحقيق أثبت أنّ الرجل لم ينفق في سبيل الله درهماً واحداً ولا أعطى النبي ﷺ فلساً فما دونه ، وقرائن حاله في مكّة والمدينة تدلّ

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ١٣٢/١٩ .

(٢) البيهقي ، السنن الكبرى ، ١٥٤/٤ ، بيروت - دارالمعرفة .

(٣) الراغب الإصفهاني ، محاضرات الأدباء ، ٤٩٦/١ .

(٤) النويري ، نهاية الإرب ، ٣٢٢/٣ ، القاهرة ، مصوّرة عن طبعة دارالكتب .

(٥) محاضرات الأدباء ، ٤٩٥/١ .

على ذلك ، ولم يرصد لنا التاريخ حتى شاهداً واحداً على هذا المدعى ، فها هو النبي بأمره بعنق سعد غلامه فيأبى حتى وعده النبي العوض أي بسبي يأتيه ، وسكتت الرواية فما ندري إن كان فعل أو لم يفعل .

عن الحسن عن سعد مولى أبي بكر وكان يخدم النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يعجبه خدمته فقال : يا أبابكر اعنق سعداً . فقال : يا رسول الله مالنا ما هن غيره . قال : فقال رسول الله ﷺ : أعنق سعداً ، أنتك الرجال ، قال أبو داود : يعني السبي (١) .

بعد هذا البيان المتقدم ثبت لنا أن أبابكر ما كان صاحب مال في يوم من الأيام لكي ينفق أو لا ينفق منه ، بل تبرع جماعة من البكرية وعلى رأسهم أمهم فوضعوا له أرقاماً خيالية عن ثروته ، والغرض من ذلك مضاهاة مال سيدتنا خديجة الذي أنفقته في سبيل الله ونوّه به النبي مراراً وتكراراً في وجه عائشة وفي مواطن أخرى . وأخيراً نقول للقوم : ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ .

مال سيدتنا خديجة ؛ مقداره ومصدره

أجمعت الأمة على أن سيدتنا خديجة ؓ كانت جليلة القدر ، شريفة المنزلة ، رفيعة المقام في قريش ، كثيرة المال ، والذي يراجع سيرتها يثبت له كثرة ثروتها ، سواء قدروها بمقدار معين أو لا .

مرّ بنا فيما تقدم أنها كانت تهب بناتها وغيرهنّ الهبات السنّية ، فقد وهبت ابنتها زينب فلادة يوم زفافها على أبي العاص كما وهبتها داراً ابنتى بها زوجها فيها وصارت في زمن العباسيين إلى جعفر بن يحيى البرمكي «بفوهة أجياد» عمّرها جعفر بن يحيى بالحجر المنقوش والسّاج ، اشتراها جعفر من أم السائب بنت جميع الأمويّة بثمانين ألف دينار ، وكانت هذه الدار لأبي العاص من خديجة ؓ فلما أسلم وهاجر أخذها بنو عمّه مع ما أخذوا من رباغ المهاجرين (٢) .

وهذه الهدية الثمينة تدلّ على ثروة خديجة ؓ البالغة ، وقد جرى المؤرخون على خطين متقابلين في تعيين هذه الثروة : فمنهم من اكتفى بالإجمال عن التفصيل

(١) أحمد بن حنبل ، المسند ، ١٩٩/١ ، ط دارالفكر .

(٢) الأزرقي ، تاريخ مكّة ، ٢٤٣/٢ .

وذكر مواساتها للنبي ﷺ ولكنه لم يذكر مبلغها ولم يعلن موضعها اتباعاً للسنة المعصومة حيث أجملت القول إجمالاً، ومنهم من ذكر ثروتها مبالغاً بها حتى أوصلها إلى أرقام خيالية، كما رأيت في رواية البحار.

والذي يدرکه العقل قبل النقل من مجموع ما قيل حول ذلك، أن أصل الثروة متيقن بل يمكن المتتبع أن يلم بأشياء تفصيلية مبنوثة في السيرة هنا أو هناك، كما أن بذلها لهذه الثروة في سبيل الله لا مجال للنقاش فيه، ولكن الإعتبار في معرفة المقدار ولم يضبط بعدد معين، صرح به نقل صحيح، أو توصل إليك استنباط معقول، اللهم إلا أمر واحد حام المؤرخون حوله وهو قولهم أن سيدتنا خديجة عليها السلام كانت تملك منفردة ما يملكه قريش مجتمعين.

وقد ذكر مستشرق غربي يدعى «جان ناس» في كتابه «تاريخ جامع أديان» والكتاب مترجم إلى اللغة الفارسية أن رأس المال القرشي كان عبارة عن «خمسين ألف مثقال من الذهب» وحينئذ يمكننا أن نرسم صورة قريبة من الواقع لثروة سيدتنا، وإن كان من الصعوبة بمكان إثبات ذلك، ولكن يغنينا اللازم عن الملزوم إذ أن لازم هذه المبالغة هو ضخامة ثروة سيدتنا خديجة عليها السلام، ودعك بعد ذلك من التفاصيل إذ الأرقام وإن أغرت الباحث باعتقاد الدقة إلا أنها تقريبية على كل حال، وغالباً ما تكون من أجل بعث التصور لموضوع ما.

ويكفي هذا الفهم في تحديد هذه الثروة وقد أحصاها الله لسيدتنا واثابها عليها بيتاً من قصب في جنة المأوى، خلا أن في المسألة ثغرة أخرى لم أجد في المؤرخين ولا في الرواة والأخباريين من ملأها على كثرة تجوالهم بخيلهم العراب في هذا المضمار، تلکم هي مصدر هذه الثروة، فمن أين لسيدتنا هذا المال الطائل الذي لم يحصل لأحد من أهلها بدءاً بوالدها خويلد وختاماً بأعمامها وأبنائهم؟ وكيف ملكته ولا يزال والدها على قيد الحياة فلم يكن إرثاً جاءها من أحد، ولو قلنا إنها ورثته من أمها فينبغي أن يشركها فيه شقيقاتها أو من زوجها كما ذكر ذلك بعض المؤرخين فينبغي أن تكون الحصّة الكبرى منه لأبنائها.

ومهما قلبنا وجوه الرأي فلن يطمئن القلب إلا لأمر واحد وهو أن تكون هذه الثروة قد دخلت عليها من التجارة، ولعلها بدأت برأس مال بسيط ثم تنامت حتى بلغت هذا الرقم القياسي بالنسبة إلى أمثالها، وليس من الضرورة أن يستوي التجار

بالربح وإن اتَّفَقوا بالفعاليَّة ، فربَّ حركة تجاريَّة يبارك الله بها فتكون أعظم ربحاً من غيرها .

وسيدتنا خديجة اختلفت عن وسطها التجاري في مَكَّة بكثرة حفظها للمال إلا في الوجوه الخيرة ، أمَّا تجار مَكَّة فإنهم أوجلهم بعبارة أدقَّ يبذِّدون المال في ملاذهم وشهواتهم . ومهما كانت الحال فعلينا الإيمان بما صحَّح من النَّقل ونكل غيره إلى الله وإلى التحقيق في فرصة أخرى إن شاء الله تعالى ، فلا نخوض فيما سكت عنه الأوائل إلا بعد وثوقنا بالنتيجة الصحيحة .

التخلص ..

وكما هانت الدنيا على مولاتنا صديقة الإسلام وسيدة الأمة الأولى خديجة الكبرى عليها الصلاة والسلام فأنفقتها في سبيل الله والدعوة إلى دينه ، هانت على ابنتها الصديقة الكبرى صلى الله عليها فأنفقتها على الغرثي والمعوزين ، فكأن ذلك وراثة كريمة حظيت بها من سيدة الأمة والدتها ﷺ .

بركة عقد ..

يقول جابر بن عبد الله الأنصاري : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر ، فلما تنفَّل جلس في قبلته ، والناس حوله ، فبينما هم كذلك إذ أقبل شيخ من مهاجرة العرب إليه ، وعليه سمل قد تهلَّل ، وأخلق ، وهو لا يكاد يتمالك ضعفاً وكبراً ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ يستحثه الخبر ، فقال الشيخ : يا رسول الله أنا جائع الكبد فأطعمني ، وعاري الجسد فاكسني ، وفقير فأرثني .

فقال رسول الله ﷺ : ما أجد لك شيئاً ولكن الدال على الخير كفاعله ، انطلق إلى ابنتي فاطمة .. ثم قال : يا بلال قم فقف به على منزل فاطمة ، فانطلق الأعرابي مع بلال ، فلما وقف على باب فاطمة نادى بأعلى صوته : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ومختلف الملائكة ومهبط جبرائيل الروح الأمين بالتنزيل من عند رب العالمين . فقالت فاطمة ﷺ : وعليك السلام ، ممن أنت يا هذا ؟ فقال : من العرب أقبلت على أبيك سيد البشر مهاجراً من شقة ، وأنا يا بنت محمد عاري الجسد ، جائع الكبد ، فارحميني يرحمك الله .

وكان لعلِّي وفاطمة عليهما السلام ثلاثاً ما طعموا منها طعاماً، فعمدت فاطمة عليها السلام إلى جلد كبش مدبوغ بالقرصى، كان ينام عليه الحسن والحسين عليهما السلام، فقالت: خذ هذا أيها الطارق عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه.

قال: يا بنت محمد، أنا شكوت إليك الجوع فناولتيني جلد كبش، فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب؟! فعمدت فاطمة عليها السلام إلى عقد في عنقها -أهدته إليها فاطمة بنت عمها الحمزة- فقطعته من عنقها ونبذته إلى الأعرابي فقالت: خذ هذا أيها الطارق عسى الله أن يتيح لك ما هو خير منه.

أخذ الأعرابي العقد وانطلق إلى مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والنبي جالس ومعه أصحابه، فقال: يا رسول الله أعطني فاطمة هذا العقد وقالت: بعه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بعه وكيف لا يصنع الله لك به خيراً وقد أعطتك فاطمة بنت محمد؟ سيّدة بنات آدم. فقام عمّار بن ياسر وقال: يا رسول الله أتأذن لي بشراء هذا العقد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اشتريه يا عمّار، فلو اشترك فيه الثقلان ما عذبهم الله بالنار. وقال عمّار للأعرابي: بكم تبيع هذا العقد يا أعرابي؟! فقال الأعرابي: بشبعة من الخبز واللحم، وبردة يمانية أستربها عورتى وأصلي لربي، ودينار يبلغني أهلي. فقال عمّار عليه السلام: لك عشرون ديناراً ومائتا درهم هجرية وبردة يمانية وراحلة تبلغك أهلك وشبعك من الخبز واللحم، وكان عمّار قد باع سهمه الذي نقله رسول الله من خيبر.

فقال الأعرابي: ما أسخاك بالمال أيها الرجل. وانطلق عمّار بالأعرابي فوقاه ما ضمن له وعاد الأعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: أشبعت واكتسيت؟ فقال: نعم واستغنيت بأبي وأمي. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فأجز فاطمة بصنعها معك خيراً. فقال الأعرابي: اللهم أنت إله ما استحدثناك، ولا إله لنا فنعبده سواك، وأنت رازقتنا فأعط فاطمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ فأمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على دعائه.

وأقبل النبي على أصحابه وقال: إن الله قد أعطى فاطمة ذلك؛ أنا أبوها وما في العالمين مثلي، وعلي بعلها ولولا علي ما كان لها كفؤ أبداً، وأعطاهما الحسن والحسين وما للعالمين مثلهما سيّدا شباب أسباط الأنبياء وسيّدا شباب أهل الجنة، وقال: أزيدكم؟.. فقال سلمان وعمّار والمقداد - وكانوا إلى جنبه -: نعم. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أتاني الروح الأمين وقال: إنّها إذا قبضت ودفنت يسألها الملكان في قبرها من ربك؟ فتقول: الله ربي. من نبيك؟ أبي. من وليك؟ فتقول هذا القائم على قبري علي بن أبي طالب.

وقال رسول الله ﷺ: ألا أزيدكم؟ فقالوا: نعم زدنا. فقال ﷺ: إن الله وكل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها وهم معها في حفرتها يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلمها وبنيتها..

يقول جابر بن عبد الله ﷺ: ثم إن عمّاراً عمد إلى العقد فطّبه بالمسك ولقّه في بردة يمانية وكان له عبد اسمه (أسهم) ابتاعه من ذلك السهم الذي أتاه من خيبر فدفع العقد إلى العبد وقال: انطلق إلى رسول الله ﷺ بهذا العقد وأنت له مع العقد. جاء العبد وبیده العقد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، فقال له: إذهب إلى ابنتي فاطمة وأنت والعقد لها.

جاء العبد إلى فاطمة ؓ فأعطها العبد وأخبرها بقول النبي ﷺ، فأخذت العقد وقالت: إذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى.

ضحك العبد.. فقالت: ممّن تضحك؟ قال: أضحكنتي بركة هذا العقد؛ أشيع جائعاً، وكسى عرباناً، وأغنى فقيراً، وأعتق مملوكاً، ورجع إلى أهله..

ما كان لله ينمو، وأهل البيت عباد الله المخلصون، وحياتهم ومماتهم لله سبحانه... (١)

المجلس العاشر

أولاد النبي ﷺ

«... بضعة المصطفى...»

الشيخ حسين الطرفي

ليس يزري بها من القوم رفض
وعلى حبّها النبيّ يحض
قال عنها بأنّها منه بعض
سماء ومن أقلّته أرض
المصطفى حيث أنّه منه محض

إنّ من حبّها من الله فرض
بضعة المصطفى وأمّ أبيها
حبّها حبُّه وناهيك فيمن
لا يساوي بها غلاً من أظّلته
ما عدا بعلمها فذلك نفس

كم أراهم من فضل فاطم ما لا
 رفع الله بيتها فتحدى الرفع
 ما نأى عهده ولا الذكر قد أخلق
 أضرموا عند بابها النار تذكى
 من رضا الله من رضاها أيرضى
 أغضبوه إذ أغضبوها فأوحى
 وتمادوا في غيهم وتنادوا
 واستراحوا لجحد فاطم حقاً
 صدعتهم بحجة وبراهين
 بصرتهم لو أبصروا النور لكن
 ثم جاءوا يستعطفون فؤاداً
 فأبت ما أبى لها الله من أن
 وانثنوا خائبين لم يستطيعوا
 رفضتهم فانهار ما شيده
 واغتنى قلبها يقاسي شجوناً
 يا لهال الله من نوائب باتت
 يالقلب تحكّم الغم فيه
 ولصدرٍ قد ضاق بالهم درعاً
 ولجسم تناهتته الرزايا
 فمضت بنت سيّد الرسل غضبى
 وخبأ نورها وملاً حشاها
 وخلا بيتها فأظلم لو لم
 فلك الله يا عليّ فهذا
 فمصاب النبى أعظم خطب
 وعزاء لابنك منى وإن

أبصروا رشدهم لما عنه غصوا
 منهم لذلك البيت خفض
 منه وخطبه بعد غص من
 من لظى شئبها عداء وبغض
 عن أناس ضلع البتولة رصوا
 الله في الظالمين ﴿يوم يعص﴾
 فتناجوا فكان للقوم خوض
 كان من ربها لها فهو فرض
 بها للذي قد احتج دحض!!
 كان فيهم عمى البصائر مرض
 فيه من ناب شيخي القوم عص
 يجدوا للرضا طريقاً فيفضوا
 غسل عار لم يجدهم فيه رخص
 ولما أبرموه في الرفض نقض
 ضاق عنها طول الفضاء وعرض
 وبها مضجع البتول يقص
 عاد فيه للحزن بسط وقبض
 ولضلع فيه جراح تمص
 حيث لم يبق في قوى الجسم نبض
 من أناس قد اسخطوها ليرضوا
 للقاء الرسول شوق ورمض
 يبق من ذكرياتها فيه ومض
 ثاني اثنين من خطوب تقص
 ومصاب البتول منه أمص
 قلّ عزاء أن يهجر العين غمض

أولاد النبي ﷺ

ولدت خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى ﷺ والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، أما بناته فكلمهم أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ (١).

وقد أحصى القسطلاني أولاده الذين ذكرهم الرواة فقال: فتحصّل من جميع الأقوال ثمانية ذكور؛ اثنان متفق عليهما: القاسم وإبراهيم، وستة مختلف فيهم: عبدمناف وعبدالله والطيب والمطيب والطاهر والمطهر. قال: والأصح أنهم ثلاثة ذكور أربع بنات متفق عليهنّ وكلهم من خديجة بنت خويلد إلا إبراهيم (٢).

وأولاده الثلاثة هم القاسم وعبدالله صاحب اللقبين أي الطاهر والطيب وإبراهيم وهو من مارية القبطية. والظاهر أنهم موضع اتفاق المسلمين، فقد ذكرهم السيد الأمين رضي الله عنه في أعيانه ولم يشر إلى خلاف فيهم، قال: أولاده: ١- القاسم وبه كان يكنى، عاش حتى مشى ومات بمكة. ٢- عبدالله ويلقب بالطيب والطاهر لولادته بعد الوحي، ولد بمكة بعد الإسلام ومات بها، وبعضهم يعدّ الطيب والطاهر اثنين. ٣- فاطمة وهي صغرى بناته تزوّجها علي رضي الله عنه بعد الهجرة. ٤- زينب وهي كبراهنّ، تزوّجها قبل الإسلام أبو العاص القاسم. قال المرزباني في معجم الشعراء: وهو الثبت ويقال: لقيط، ويقال: مهشم بن الربيع بن عبد شمس بن عبدمناف وهو ابن أخت خديجة، أمه هالة بنت خويلد فحمد النبي ﷺ صهره. ٥- رقية. ٦- أم كلثوم، وزوّجها النبي من عتبة وعتيبة ابني عمّه أبي لهب، فلمّا جاء الإسلام بلغ من عداوة قريش للنبي ﷺ أن قالوا: فرغتم محمّداً من همّه بتزويج بناته فقالوا لأبي العاص: طلق ابنه محمّد ونزوّجك بنت من أردت من قريش، فأبى، وطلبوا مثل ذلك إلى عتبة وعتيبة فطلقا زوجتيهما فتزوّجها عثمان واحدة بعد واحدة، وأمّ الكل خديجة. ٧- إبراهيم ابن مارية القبطية ولد بالمدينة ومات وهو ابن ثمانية عشر شهراً.. (٣)

(١) تاريخ الطبري، ٢/٢٨١؛ والكامل في التاريخ، ٢/٢٥٠.

(٢) المواهب اللدنية، ٤/٣١٦.

(٣) سيدنا الأمين رضي الله عنه، أعيان الشيعة، ١/٢٢٣.

وما أقرب رواية السيد مّا ذكره النووي حيث قال: له عليها السلام ثلاثة بنين: القاسم وبه كان يكنّى، ولد قبل النبوة، وتوفي وهو ابن سنتين، وعبدالله وسُمّي الطيّب والظاهر لأنّه ولد بعد النبوة وقيل الطيّب والظاهر غير عبدالله والصّحيح الأوّل، والثالث إبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان ومات بها سنة عشر وهو ابن سبعة عشر شهراً وثمانية عشر، وكان له عليها السلام أربع بنات: زينب تزوّجها أبو العاص بن الزّبيع ابن عبدالعزّى بن عبد شمس وهو ابن خالتها وأمه هالة بنت خويلد، وفاطمة تزوّجها عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ورقية وأمّ كلثوم تزوّجها عثمان بن عفّان، تزوّج رقية ثمّ أمّ كلثوم وتوفيتا عنده ولهذا سُمّي ذا التورين، توفيت رقية يوم بدر في رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وتوفيت أمّ كلثوم في شعبان سنة تسع من الهجرة فالبينات أربع بلا خلاف، والبنون ثلاثة على الصّحيح، وأوّل من ولد له القاسم ثمّ زينب ثمّ رقية ثمّ أمّ كلثوم ثمّ فاطمة، وجاء أنّ فاطمة عليها السلام أسنّ من أمّ كلثوم؛ ذكر ذلك علي بن أحمد بن سعيد بن محرم أبو محمّد الحافظ، ثمّ في الإسلام عبدالله بمكّة ثمّ إبراهيم بالمدينة وكلّهم من خديجة إلّا إبراهيم فإنّه من مارية القبطية، وكلّهم توفوا قبله إلّا فاطمة فإنّها عاشت بعده ستّة أشهر على الأصحّ^(١).

وما ذكره الأمين والنووي موضع اتفاق، وهناك روايات كثيرة العدد ولكنّها عند التمهيص قليلة، تزيد وتنقص من الذكور، ولا خلاف في البنات، العدد والأسماء وإن اختلفوا في صغراهنّ، أمّا الكبرى فقد أجمعوا على أنّها زينب عليها السلام ونحن نذكر شذرة تاريخية مفيدة لأولاده.. عليه وعليهم السّلام ليكون ذلك موضع إفادة المفيد والمستفيد، ونبدأ بالقاسم عليه السلام.

القاسم عليه السلام

هو أوّل ولد ولد له عليه الصّلاة والسّلام قبل النبوة، وبه كان يكنّى، وعاش حتّى مشى وقيل عاش سنتين...

وقال ابن فارس اللغوي: بلغ ركوب الدابة، ولعلّه مراد من قال بلغ سنّ التمييز... وفي مسند الفريابي ما يدلّ على أنّه توفّي في الإسلام، فإنّه أخرج هو والطيالسي

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ٢٦/١، بيروت - دارالكتب العلميّة، عن إدارة الطباعة المنيريّة.

والحريي وابن ماجة عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام عن أبيها: لَمَّا مات القاسم قالت خديجة: يا رسول الله دَرَّتْ لبنة القاسم فلو كان الله أبقاه حتَّى يتمّ رضاعه، قال: كان تمام رضاعه في الجنة. قالت: فلو أعلم ذلك يا رسول الله لهوّن عليّ أمره، فقال: إن شئت دعوت الله فأسمعك صوته.. فقالت: بل أصدّق الله ورسوله^(١). وهو أوّل من مات من ولده^(٢).

عن محمّد بن عليّ بن الحسين رضي الله عنهم قال: كان القاسم بلغ أن يركب الدابة ويسير على النجيب، فلَمَّا قبض قال العاص بن وائل السهمي: لقد أصبح محمّد أبتراً؛ فنزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي عن مصيبتك يا محمّد. قال العلامة محمّد الشامي: فهذا يدلّ على أنّ القاسم مات بعد البعثة، خلاف ما تقدّم أنّهم ماتوا قبلها يعني البنين الثلاثة^(٣).

واختلف في القائل لَمَّا مات القاسم: إنّ محمّداً أبتراً، فقيل: العاص بن وائل السهمي، كما سبق وجزم به خلائق، وقيل: أبو جهل، وقيل: كعب بن الأشرف، فإن قلنا: أنّه العاص بن وائل؛ فالعاص له عقب وهو عمرو وهشام، فكيف يثبت له البتر وانقطاع الولد؟ والجواب أنّ العاص وإن كان ذا ولد فقد انقطعت بينه وبينهم فليسوا بأتباع له، لأنّ الإسلام قد حجزهم عنه فلا يرثهم ولا يرثونه^(٤). وهذا جواب متهافت لأنّه يلزم منه أن لا يكون عمر ولدًا للخطّاب ولا عثمان لعقّان ولا صخر ابناً لحرب وهكذا.

والصّحيح في الجواب أنّ عمرأ ليس ابناً للعاص وإنّما نسبته إليه أمّه، وقد كان يدعى لأربعة طبقاً لما كان سائداً في الوسط الجاهلي من الأنكحة، وقد غلب عليه شبه أبي سفيان حتّى قال فيه القائل:

أبوك أبو سفيان لاشكّ قد بدت لنا فيك منه بيّنات الشمائل
ففاخر به إمّا فخرت ولا تكن تفاخر بالعاص الهجين بن وائل

(١) الزرقاني، شرح المواهب، ٤/٣١٧.

(٢) ذخائر العقبي، ص ١٥٢.

(٣) العاصمي، سمط النجوم، ١/٤٩١.

(٤) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ٢٠/١١.

وقال عثمان بن الحويرث بن أسد يهجو عمراً:

له أبوان فهو يدعى إليهما وشزّ العباد من له أبوان
وقد حكما فيه لتصدق أمه وكان له علم به ببيان
فقال صراحاً وهي تعلم غيره ولكنها تهذي بغير لسان..^(١)

يشير هذا الشاعر إلى نكاح من أنكحة العرب كان معمولاً به بينهم في الجاهلية وذلك حين يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم بصيها أي يطؤها وذلك إنما يكون عن رضاً منها وتواطؤ بينهم وبينها، فإذا حملت ووضعت ومزّ ليالي بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان؛ سمي من أحببت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. قيل: هذا إن كان ذكراً وإلا لا تفعل ذلك^(٢).

وكان آل العاص مولودين على فراش من هذه الشاكلة، وقد أخبر القرآن تلميحاً عنهم، وهذا من دلائل صدق النبي ﷺ حين أخبره الله عن أمر مكتوم، مضى به زمان سحيق في القدم، فكشف واقعه القرآن وأبان عن زيف نسبة عمرو وأولاده إلى العاص وهو أبت، لأنهم ليسوا منه وإن نسبوا ادّعاءً إليه، والدّعي يعتبر في حكم الحقّ أجنبياً وإن ألصق بأبيه المدعى، وهذا هو الوجه الصحيح لا ما زعمه المؤلف.

زينب ابنة رسول الله ﷺ

ذكرها سيّدنا الأمين في أعيان الشيعة فقال: قال ابن عساكر في تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٩٢ و٢٩٣: ولدت قبل النبوة وتوفيت بعد النبي ﷺ بستة أشهر، وصلى عليها العباس بن عبدالمطلب، ونزل في حفرتها وهو علي والفضل بن العباس..^(٣) والمعروف عن وفاتها في غير هذا التاريخ، فقد قال ابن الأثير: هي أكبر بناته ولدت لرسول الله ﷺ ثلاثون سنة وماتت سنة ثمان في حياة رسول الله ﷺ...^(٤)

(١) شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ٣.

(٢) الآلوسي، بلوغ الأرب، ٤/٢.

(٣) أعيان الشيعة، ١٤١/٧.

(٤) أسد الغابة، ٤٦٧/٥.

وقال في مكان آخر من ترجمتها: وتوفيت بالمدينة في السنة الثامنة ونزل رسول الله ﷺ في قبرها وهو مهموم محزون، فلمّا خرج سري عنه وقال: كنت ذكرت زينب وضعفها فسألت الله تعالى أن يخفّف عنها ضيق القبر وغمّه ففعل وهون عليها، ثمّ توفي بعدها زوجها أبو العاص، أخرجها الثلاثة^(١).

وقال ابن حجر العسقلاني: توفيت في أول سنة ثمان من الهجرة^(٢).

وقال المقرئزي: وكانت زينب رضي الله عنها عند أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، وأمّه هالة ابنة خويلد فهو ابن أخت خديجة لأبيها وأمها، وابن خالة زينب، وكان رسول الله ﷺ محبباً في زينب أسلمت وهاجرت حين أبى زوجها أبو العاص أن يسلم، وقد ولدت منه علياً وأمامة وتوفيت سنة ثمان من الهجرة وغسلتها سودة بنت زمعه وأمّ سلمة رضي الله عنهما^(٣).

.. وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وتجارة وأمانة، فقالت خديجة لرسول الله ﷺ زوجة وكان عليه الصلاة والسلام لا يخالفها، وذلك قبل أن ينزل عليه، فزوجه زينب رضي الله عنها، فلمّا أكرم الله نبيّه بنبوته آمنت خديجة وبناتها، فلمّا نادى رسول الله ﷺ قريشاً بأمر الله تعالى ودينه، أتوا أبا العاص ابن الربيع هذا فقالوا: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأيّ امرأة شئت، فقال: لا والله لا أفارق صاحبتي وما يسرني أن لي بها أفضل امرأة من قريش^(٤).

هجرتها..

وأبو العاص زوجها اسمه مقسم بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، كان فيمن شهد بدر مع المشركين، فأسر، فلمّا بعث أهل مكة في فداء أسأراهم، قدم في فداء أبي العاص أخوه عمرو بن الربيع وبعثت معه زينب في فداء أبي العاص بمال فيه قلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حتّى بنى عليها، فلمّا رآها رسول الله ﷺ رق لها رقّة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذي لها، فأطلقوه وردّوا عليها الذي لها.

(١) نفسه، ص ٤٦٨.

(٢) الإصابة، ٣١٢/٤.

(٣) المقرئزي، إمتاع الأسماع، ٣٤٣/٥.

(٤) سبط النجوم، ٤٩٨/١؛ وينظر السيرة النبوية؛ تاريخ الطبري؛ الكامل في التاريخ.

ومرّ في السيرة النبوية أنّ النبي ﷺ لما أطلق أبا العاص شرط عليه أن يبعث إليه زينب، فبعث بها مع أخيه كنانة بن الربيع حميها، فأسرع هبار بن الأسود فروّعها وطعن هودجها برمحه، وكانت حاملاً فأسقطت، فنثل حموها كنانته وحلف لا يدنو منها أحد إلا رماه، وبلغ الخبر أباسفيان فجاء وقال لكنانة: إنك خرجت بها جهاراً على أعين الناس وأقنعه أن يردها ويخرج بها ليلاً، وأهدر النبي ﷺ دم هبار وأرسل من أحضرها من مكة إلى المدينة.

فقال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: ألا تنطلق تجيئني بزینب؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فخذ خاتمي، فأعطاه إيّاه، فانطلق زيد وبرك بعيره، فلم يزل يتلطف حتى لقي راعياً فقال: لم ترعى؟ فقال: لأبي العاص. فقال: لمن هذه الأغنام؟ قال: لزینب بنت محمد، فسار معه شيئاً ثم قال له: هل لك أن أعطيك شيئاً تعطيه إيّاها ولا تذكره لأحد؟ قال: نعم، فأعطاه الخاتم، فانطلق الراعي فأدخل غنمه وأعطاه الخاتم، فعرفته، فقالت: من أعطاك هذا؟ قال: رجل. قالت: فأنى تركته؟ قال: بمكان كذا وكذا، فسكتت حتى إذا كان الليل خرجت إليه ^(١).

من مواقفها المحمودة..

عن الحارث الغامدي قال: قلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء قوم اجتمعوا على صابئ لهم، قال: فأشرفنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله والإيمان به وهم يؤذونه، حتى ارتفع النهار وانتبذ عنه الناس، فأقبلت امرأة تحمل قدحاً ومنديلاً قد بدى نحرها، تبكي، فتناول القدح، فشرب ثم توضأ ثم رفع رأسه إليها فقال: يا بني خمرى عليك نحرك ولا تخافي على أبيك غلبةً ولا ذلاً، فقلت: من هذه؟ فقالوا: هذه ابنته زينب ^(٢).

وهذا موقف محمود لها، أن تكون عوناً لرسول الله ﷺ في ظرف قاطعه فيه الدني والقصي، وكثر عدوه، ولكنها ما كانت تملك أزاء عنجهية قريش إلا وجيب القلب ودموع العين، فبشّرها رسول الله بالعاقة الفاضلة له ولدعوته، ليهدأ روعها ويطمئن جأشها، وأخبرها عن النصر والعزة المنتظرين له ولآله ﷺ والعاقة للمتقين.

(١) أعيان الشيعة، ١٤١/٧.

(٢) أسد الغابة، ٣٢١/١.

وقال سيدنا الأمين ﷺ في ختام ترجمتها: وقال صاحب كتاب الإستغاثة كما مرّ في رقية أنّ زينب ورقية لم تكونا ابنتي رسول الله ﷺ وإنما كانتا ابنتي أختها هالة، وأبوهما رجل من بني تميم، يقال له أبو هند، وإنما نسبتا إلى رسول الله ﷺ وخديجة لأنهما ربيتا في حجرهما، وكان أبوهما قد ماتا قريباً فنسبا إلى رسول الله ﷺ وإلى خديجة جرياً على سنة العرب في أنّ من ربي صغيراً ينسب إليه مضافاً إلى أنّ اسم خديجة كان نابهاً معروفاً واسم هالة خاملاً ومجهولاً، إلى آخر ما مرّ تفصيله هناك... قال السيد: ولكن هذا خلاف المشهور المعروف بين العلماء^(١).

وستطلع على حقيقة الوضع في موقف مسهب مع سيدنا الفاضل السيد جعفر مرتضى العاملي وقفناه حول كتابه «بنات النبي أم ربابه» إنشاء الله تعالى.

عبدالله بن النبي ﷺ

مات صغيراً بمكة، ويقال له: الطيب والظاهر، ثلاثة أسماء وهو قول أكثر أهل السير والعلم، قاله أبو عمرو، وقال الدارقطني: هو الأثبت ويسمى عبدالله بالطيب والظاهر لأنه ولد بعد النبوة^(٢).

إبراهيم بن النبي ﷺ

من مارية القبطية بنت شمعون - بفتح الشين المعجمة - أهداها له المقوقس القبطي صاحب مصر والإسكندرية، وأهدى معها أختها سيرين - بكسر السين المهملة وسكون المثناة التحتيّة وكسر الراء - وخصياً يقال له مأبور وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً لئناً من قباطي مصر وبغلة شهباء هي دلدل وحماراً وهو عفير - بعين مهملة - ويقال يعفور، وعسلاً من عسل نبيها، فأعجب النبي ﷺ العسل ودعا في عسل نبيها بالبركة. واسم المقوقس جريح بن مينا القبطي، وكان النبي ﷺ قد أرسل إليه سنة سبع كتاباً، فلما وصله كتاب المصطفى قال: إنا نجد من نعته أن لا يجمع بين أختين، ويقبل الهدية لا الصدقة، وجلسائه المساكين، فلم يجد في مصر أحسن ولا أجمل من مارية

(١) أعيان الشيعة، ١٤٢/٧ و١٤٣.

(٢) سمط النجوم، ٤٩٢/١؛ وسبل الهدى والرشاد، ١١/١٦.

وأختها فأهداهما وخصيماً يقال له مأبور، وكان شيخاً كبيراً أخوا مارية .

وروى ابن شاهين عن عائشة عن البرّار عن عليّ أنّه ابن عمّ مارية .

وللطبراني عن أنس : كان نسيباً لها فأسلم وحسن إسلامه .

وبعث المقوقس إليه أيضاً بمال صدقة ودعا رجلاً عاقلاً وأمره أن ينظر من جلسائه وإلى ظهره هل فيه شامة كبيرة ذات شعر، ففعل ذلك وقدم الهدية وأعلمه أنّها هدية والصدقة فأعلمه، فقبل صلى الله عليه الهدية وردّ الصدقة، ولمّا نظر إلى مارية وأختها أعجبتهما وكره أن يجمع بينهما، فوهب سيرين لحسان بن الثابت وهي أمّ عبد الرحمن بن حسان، وعرض حاطب بن أبي بلتعة وكان المقوقس قد أرسل الهدية معه على مارية الإسلام ورغبها فيه فأسلمت وأسلمت أختها، فأنزلها عليها السلام في العالية وكان يطأها بملك اليمن، وضرب عليها مع ذلك الحجاب، فحملت منه ووضعت في ذي الحجة سنة ثمان وتوفيت في خلافة عمر ودفنت بالبيع .

ولمّا ولد إبراهيم عليه السلام سمّاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إبراهيم وعقّ عنه بشاة يوم سابعه، وحلّق راسه، وتصدّق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض، وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته بأنّ مارية قد ولدت غلاماً فجاء أبو رافع إليه عليه الصلاة والسلام فبشّره فوهب له عبداً . وغار نساء رسول الله منها واشتدّ عليهنّ حين رزق منها الولد^(١) .

والواقع أنّ رمي أمّهات المؤمنين بالغيرة جميعاً ظلم، ولم يغر منها سوى عائشة، ولكنّ الراوي لم يفردها لثلاث تعلّق بها تهمة قذف مارية رضي الله عنها، لأننا وجدنا عائشة في الحديث عن نفسها أصدق من أوليائها، وهي التي روت حديث هذه الغيرة كالتالي :

عن عائشة : ما غرت على امرأه إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنّها جميلة فأعجب بها صلى الله عليه وآله وسلم وكان أنزلها أولاً بجوارنا فكان عامّة الليل والنهار عندها، ثمّ حوّلها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان أشدّ علينا^(٢) .

(١) سمط النجوم، ٤٩٣/١ .

(٢) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، ٤٥٩/٤ .

ولعل النبي ﷺ حوّلها إلى العالية لعلمه بما كانت تبين لها الغيورة^(١).
ومع ذلك لم تسلّم من شرّها ولا بدّ من إحاطة القارئ علماً بذلك وإن كان يحزّ
في نفس المسلم.

غيرة عائشة إلى أين؟!

مهما تكلفنا العذر أو توسعنا به عن أمّ المؤمنين فإنّها تعتبر بادرة سوء منها تجاه
ضرائرها، وإثم كبير ترتكبه في قذف امرأه أحسن الله فرجها بالنبي حين قذفها بما لا
يليق تسطيره بالقاذفة والمقدوفة. ونحن يعزّز علينا حتّى مجرد الإشارة إليه، ولكنّها
الأمانة العلميّة في أعناقنا ولا يمكننا تخطيها أو التفریط فيها، ولا حرج من ذكره في
كتاب محدود الانتشار، وتقرأ فئة قليلة، بعد أن جاب هذا الزمان الطويل يضطرب في
كتب الرواية والحديث المهمّة على السنة الملايين من الأجيال المتجدّدة.
لقد قُذفت سرّيّة رسول الله ﷺ مارية القبطيّة التي أثنى الرواة على دينها،
ووصفوها بالخير.

يقول عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أصيبعة: وكانت حسنة الدّين^(٢).
فمن الذي قذفها؟ استمع إلى هذه الرواية والتي يليها ثمّ حاول أن تعرف
القاذف..

عن عليّ بن أبي طالب قال: كثر على مارية أمّ إبراهيم في قبطي ابن عمّ لها
يزورها ويختلف إليها، فقال لي رسول الله ﷺ: خذ هذا السّيف فانطلق فإن وجدته
عندها فاقتله. قال: قلت: يا رسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكّة المحمّاة لا
يشينني شيء حتّى أمضي لما أمرتني به أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ قال: بل
الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فأقبلت متوشّحاً السّيف فوجدته عندها، فاخترطت
السّيف، فلمّا رأيته أقبلت نحوه عرف أنّي أريده فأتى نخلة، فرقى ثمّ رمى بنفسه على
قفاه ثمّ شغّر برجله، فإذا هو أجب أمسح ماله قليل ولا كثير، فغمدت السيف ثمّ أتيت
رسول الله فأخبرته فقال: الحمد لله الذي يصرف عنّا أهل البيت. رواه البرّار وفيه ابن

(١) تقول عائشة: فجزعت فحوّلها إلى العالية؛ الإصابة، ٤/٤٠٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد، ١١/٢١.

إسحاق وهو مدلس ولكنه ثقة وبقية رجاله ثقات، وقد أخرجه الضياء في أحاديثه المختارة على الصحيح^(١).

وقال ابن الأثير: وأما ما بور فهو الخصي الذي أهده المقوقس مع مارية وهو الذي آتهم بمارية فأمر النبي ﷺ علياً أن يقتله - إلى أن يقول: - فرآه مجبوراً ليس له ذكر...^(٢)

وكان شيخاً كبيراً أخوا مارية، وروى ابن شاهين عن عائشة والبرار عن علي أنه ابن عم مارية، وللطبراني عن أنس كان نسيباً لها، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يدخل على أم إبراهيم...^(٣)

ولكي نعرف القاذف الأول الذي أطلق الإشاعة ضد أم إبراهيم رضي الله عنها فينبغي علينا أن نتجاوز الرواية الأولى أي رواية مجمع الزوائد، فإنها تلقي التبعة على مجهول حيث تقول: «كثر على مارية الخ» على شكل ما لم يسم فاعله، وحينئذ ليس أمامنا إلا الرجوع إلى الروايات الأخرى، وعندها يكون الظفر بالقاذف الحقيقي سهلاً. عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: أهديت مارية إلى رسول الله ﷺ ومعها ابن عم لها، قالت: فوقع عليها وقعة فاستمرت حاملاً. قالت: فعزلها عند ابن عمها. قالت: فقال أهل الإفك والزور: من حاجته إلى الولد ادعى ولد غيره، وكانت أمة قليلة الالبن فابتاعت لها ضائنة لبون، فكان يغذى بلبنها فحسن عليه لحمه. قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل به عليّ النبي ﷺ ذات يوم فقال: كيف ترين؟ فقلت: من غذي بلحم الضأن يحسن لحمه. قال: ولا الشبه. قالت: فحملني ما يحمل النساء من الغيرة، أن قلت: ما أرى شهباً. قالت: وبلغ رسول الله ﷺ ما يقول الناس، فقال لعليّ: خذ هذا السيف فانطلق فاضرب عنق ابن عم مارية حيث وجدته، قالت: فانطلق، فإذا هو في حائط على نخلة، يخترف رطباً، قال: فلما نظر إلى عليّ ومعه السيف استقبلته رعدة. قالت: فسقطت الخرقه فإذا هو لم يخلق الله عز وجل له ما للرجال شيء ممسوح^(٤).

(١) راجع: مجمع الزوائد، ٣٢٩/٤؛ وسبل الهدى والرشاد، ٢١٩/١١.

(٢) أسد الغابة، ٥٤٣/٥ و٥٤٤.

(٣) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، ٤٦٠/٤؛ الإصابة، ٤٠٥/٤.

(٤) الحاكم، المستدرک، ٣٩/٤، وسكت عنه الذهبي في تلخيصه...؛ راجع مسند أحمد، ٢٨٤/٩.

في الرواية قرائن واضحة تدلّ على أنّ القاذف عائشة، أنظر كيف تهوّن وطأ النبي لها بملك اليمين بقولها: «فوقع عليها وقعة» ومفادها أنّها لا تكفي للعلوق، فهي إمّا اعتذار منها لمن يعرف مبدأ الإشاعة الباطلة، وإمّا محاولة لوضع السبب لها ليعذر السامع أصحابها، أي أنّ الإشاعة لم تنطلق جزافاً بل هناك شبهة وهي «الوقعة الواحدة» التي لا تكفي للعلوق فتشبت بها الناس. وهذا قول من له ضلع قوي في صدور الإشاعة. ومن جهة أخرى ففي رواية رواها القسطلاني في المواهب وابن حجر في الإصابة أنّ سبب وضعها عند ابن عمّها هو عائشة لأنها تقول: «فجزعت فحوّلها إلى العالية»^(١). وبالطبع من مظاهر جزعها قذف ضرائرها.

وحين نتوغل في الرواية نجد أصابع الاتهام تركّز على عائشة لأنها أنكرت أن يكون إبراهيم منه حين أجابت النبي: من غذي بلحم الضأن يحسن لحمه. قال: ولا الشبه؟ قالت: فحملني ما يحمل النساء من الغيرة، أن قلت: ما أرى شبهاً... فماذا أبقت عائشة من الإفصاح عن القاذف الأوّل أنّه هي أمّ المؤمنين، وانظر كيف يحتال أوليائها لصرف ذلك عنها:

عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أنّه لما ولد إبراهيم ابن النبي ﷺ من مارية جاريته كان يقع في نفس النبي ﷺ منه! حتّى أتاه جبريل عليه السلام فقال: السّلام عليك أبا إبراهيم، وفي رواية الفقيهي يا أبا إبراهيم^(٢).

وهذه الرواية محاولة من أنصار عائشة أبعاد التهمة في قذف السيّد مارية عنها ونسبتها إلى رسول الله وحاشاه ذلك، ولست أدري متى حدث هذا في نفس النبي ﷺ أحين غمرته الفرحة بمولده ووهب لمن بشره عبداً؟ أم حين عقّ عنه بشاة يوم سابعه وحلق رأسه وتصدّق بزنة شعره فضّة على المساكين؟ أم حين أودعه عند إحدى نساء الأنصار وتدعى أم بردة بنت المنذر لترضعه... فكان يكون عند أبويه في بني النجّار ويأتي رسول الله ﷺ أم بردة فيغتسل عندها ويؤتى بإبراهيم وأعطى رسول الله ﷺ أم بردة قطعة نخل؟ أم حين كان يكثر من شمّه وتقبيله حتّى قال أنس: ما رأيت أحداً أرحم بعياله من رسول الله ﷺ، كان ابنه مسترضعاً في عوالي المدينة،

(١) الإصابة. ٤٠٥/٤.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة، ١/١٦٤.

فكان يأتيه ونحن معه فيدخل البيت وإته ليدخن ، وكان ظنره قيناً فيأخذه فيقبله... (١)
 حاشا نبي الرحمة أن يدورشيء من هذا الباطل في خلد الشريف ، ولكنها غير عائشة
 التي تحدث عنها وقذفت على أساس منها ضرائرها وسراري النبي وغيرهن كثير .
 وفي رواية الحاكم اقتصر على قول أنس : لمّا ولد إبراهيم ابن النبي عليه السلام أتاه
 جبريل فقال : السّلام عليك يا أبا إبراهيم... (٢) وهذا دليل على براءة النبي ممّا نسب
 إليه عليه السلام .

وما حاجة من يراوحوه الوحي ويفاديه إلى مساورة الظنون والأوهام ؟ كلاً ولكن
 يدخل هذا في نطاق خطة الدفاع عن أيّمتهم وإن أدت إلى التضحية بالدين ، ثم إن هذا
 القذف لم يكن غريباً على مزاج عائشة فهاهي تقذف حتّى أمّ أيمن !
 عن عروة عن عائشة أنّها قالت : إنّ النبي عليه السلام دخل عليّ مسروراً بترق أسارير
 وجهه قال : ألم تري أنّ مجزراً نظراً أنفأ إلى زيد بن حارثة وأسامة فقال : إنّ بعض الأقدام
 لمن بعض (٣) .

وفي سنن أبي داود جاء بعد ذكره الخبر قوله : كان أسامة أسود شديد السواد مثل
 القار وكان زيد أبيض مثل القطن (٤) .

أقول : والخلاف باللون هو الذي جرّ القاذف على الذنب وكان اللون عندهم
 يحمل على الشكّ حتّى أرجعهم هدي النبوة إلى الصواب .
 عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنّ رسول الله عليه السلام جاءه رجل أعرابي فقال : يا رسول الله إنّ
 امرأتي ولدت غلاماً أسود . فقال له النبي عليه السلام : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : ما
 ألوانها ؟ قال : حمرة . قال : هل فيها من أورك ؟ قال : نعم . قال : فأتى كان ذلك ؟ قال : أراه
 عرفاً نزعته . قال رسول الله عليه السلام : لعلّ ابنك هذا نزع عرق... (٥)

وقال القرطبي بعد أن ذكر الخبر : قال الإمام أبو عبد الله المازري : كانت الجاهلية
 تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد ، وكان زيد أبوه أبيض من القطن ،

(١) سمط النجوم ، ٤٩٣/١ و ٤٩٤ : الطبقات ، ١٣٦/١ .

(٢) المستدرک ، ٦٠٤/٢ وسكت عنه الذهبي في التلخيص .

(٣) مسند أحمد ، ٣٦٥/٩ وشرح معاني الأخبار ، ١٦٠/٤ : الطبقات ، ٦٣/٤ .

(٤) سنن أبي داود ، ٢٨٠/٢ .

(٥) السنن الكبرى للبيهقي ، ٢٦٥/١٠ ، وفي نفس الصفحة خير مجزر عن أسامة .

هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح... (١)
والجاهلية لا تعتدّ بالأنساب حتى تنفي أو تثبت ويكفيها من الولد أن يستلحقه
أبوه ليكون أباً حقيقياً له وإن كان بين لونيها بعد ما بين السماء والأرض ولذلك نسب
بعضهم القول إلى بعض المنافقين (٢).

ونحن بالاستنطاق روح النص نجد النبي ﷺ اختصّ عائشة من دون بقية
الناس بالخبر السارّ، لأنّ لها ضلعاً في المسألة ولم يكن الأمر عفويّاً، ثمّ إنّ النبي ﷺ
ليعلم علم اليقين قبل مجيء القائف أنّ أسامة بن زيد من زيد حَقّاً، فلم تكن حاجة إلى
شهادة القائف حتى تبرق أساريه ﷺ بالفرح وإنما سرّ فرحه هو لكبح نشاط عائشة
في هذا المجال وكفّ غائلة لسانها عن هذه الإمراة الشريفة أعني أمّ أيمن.

والحديث يقودنا إلى التوغّل في نشاط عائشة في هذا السبيل المعوج فنراها
بهتت غير أمّ أيمن من أمّهات المؤمنين، ورمت الأمة بداهية دهماء من هذا اللسان الذي
يجوب الأعراض الشريفة فلا يبقى ولا يذر، وهي تعتذر دائماً بالغيرة!!

حكى ابن تيمية عن بعض إخوانه المنافقين وهو أبو بكر بن أبي داود صاحب
السنن: إنّ عليّاً عليه السلام حفيت أظافره من التسلّق على أزواج رسول الله بالليل (٣)، وكان
أبو بكر قد تنصل منه، وقال: لا أجعل في حلّ من نسبه إليّ (٤).
والواقع أنّ هؤلاء جميعاً غير مؤاخذين بالرواية ولا عروة الذي يرويها عن
عائشة، ولكنّ المؤاخذ الأوّل عائشة.

ولقائل أن يقول: ما الموجب إلى ذكر هذا؟!
وأجيبه: لا بدّ من ذكره لأنّ منازلتنا بدأت مع القوم بعد طبع كتاب عقائد الشيعة
الأمامية وبعد أن خلعنا رداء التقيّة وإلى الأبد إن شاء الله تعالى.
وصدق رسول الله ﷺ حين جعل عائشة مصدر كلّ فتنه في الإسلام، فقد
أخرج البخاري عن نافع بن عبد الله بن عوف: قال: قام النبي ﷺ خطيباً فأشار نحو مسكن

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢٥٨/١٠، ٢٥٩.

(٢) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ١١٥/١.

(٣) أحمد الغماري، علي إمام العارفين، ص ٥٦.

(٤) نفسه، ص ٥٦.

عائشة فقال: هاهنا الفتنة - ثلاثاً - من حيث يطلع قرن الشيطان... (١)

وهل حيكمت فتنة من وضع وكذب ومؤامرة على أهل البيت إلا من ذلك المسكن، وإني أدعو المسلمين إلى تقييم جديد لذلك المسكن حتى تُنقى دنيا الإسلام مما علق بها من الأوضار وكانت سبباً في تباطي الدعوة إلى دين الله.

والظاهر أنّ الحديث باقعة حلت بدار القوم لذلك حاولوا ستره جهد الطاقة فيها هو خادم السنة المطهرة كما يسمي نفسه محمد السعيد بن بسبوني زغلول، حذفه من موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف... (٢)

بل أزيدك عزيزي القارئ اطلاعاً أنّ أفضل شراح البخاري الحافظ ابن حجر هرب من الحديث هروباً ذكياً فقال في باب الخمس وسيأتي شرحه في الفتن (٣)، ولما بلغ الفتن ركس فيها حتى شحمة أذنيه ولم يشر إلى عائشة معتذراً أو منكرراً أو مفنداً على جاري عاداته حتى بحرف واحد، وبماذا يعتذر المعتذرون وهاهي عائشة ثبت مدلول الحديث بما قامت به من الفتن بدءاً بحرب الجمل ومروراً بالأجلاب على نعثل وختاماً بالوضع في سنة النبي مالمس منها..

وللعيني موقف جدّ طريف من الحديث الشريف فقد تجاوز معناه وشرع في تحقيق معنى إضافة مسكن إلى عائشة حتى استنفد كل قواه العقلية واستنفد ورقه أيضاً ولما بلغ السطر الأخير طار بأجنحة العقاب وتجاوز المسكن وصاحبه وحط الشيخ بأرض الرافدين فقال: «هنا الفتنة» أي جانب المشرق وهو العراق وهذا مثال الفتنة... (٤) ولو رجع العيني إلى الحق وإلى حرف التنبيه «ها» لعلم أنها للإشارة إلى غير البعيد والتبني أفصح من نطق بالضاد، فكيف يشير للبعيد بلفظ قريب وهذا منافٍ لفصاحته الكاملة؟! مضافاً إلى أنّ أول فتنة قامت بالعراق كانت من صنع صاحبة المسكن والحمد لله رب العالمين..

وهاهي تتحين الفرص حتى والتبني على قيد الحياة لتوجد فتنة ما تشغل بها رسول الله ﷺ وهذا خلق جبلت عليه وكلّ مسر لما خلق، ثم إن من لطف الله بنا أن

(١) محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ٤/٤٦٤، ط بيروت - دارالفكر، ١٤٠١ - ١٩٨١ م.

(٢) راجع إن شئت ج ١٠ منه الأحرف، ن، و، هـ، ص ١٩٣.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، ٦/٢٤٤.

(٤) العيني، عمدة القاري، ١٥/٣١.

جعلها سبحانه تعترف بطرف مما جرى على يديها من الفتن؛ ألم تعترف بما كانت تحوكم لمارية رضي الله عنها أم إبراهيم ﷺ فتقول: وفجزعت فحوّلها إلى العالية..^(١) والله وحده العالم بما قالت وما فعلت تحت وطأة هذا الجزع، يقول صاحب الطبقات: وغرن عليها ولا مثل عائشة^(٢)!!

وفاة سيدنا إبراهيم ﷺ

مات إبراهيم ﷺ سنة عشر من الهجرة، قاله الواقدي جازماً وقال: يوم الثلاثاء لعشر خلون من ربيع الأول^(٣).

عن عبد الرحمن بن عوف قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فانطلق بي إلى النخل الذي فيه إبراهيم فوضعه في حجره وهو يوجد بنفسه، فذرفت عيناه فقلت له: أتبكي يا رسول الله! أولم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن التّوح عن صوتين أحققين فاجرين: صوت عند نعمةٍ لهُو ولعب ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبةٍ خمش وجوه وشقّ جيوب ورثة شيطان.

قال: قال عبد الله بن نمير في حديثه: إنّما هذا رحمة ومن لا يرحم لا يرحم، يا إبراهيم لولا أنه أمر حقّ ووعد صادق وأنها سبيل مآتية وأنّ آخرنا ستلحق أولانا لحزناً عليك حزناً هو أشدّ من هذا وأنا بك لمحزونون، تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ عزّ وجلّ.

أخبرنا قتادة أنّ إبراهيم ابن نبيّ الله ﷺ توفي، فقال نبيّ الله: إنّ العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إن شاء الله إلا خيراً وأنا عليك يا إبراهيم لمحزونون! وقال: تمام رضاعه في الجنة^(٤).

عن عمرو بن سعيد قال: لما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: إنّ إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي وإنّ له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة.

عن عامر عن البراء قال: صلّى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم بن القبطية

(١) الإصابة، ٤٠٥/٤.

(٢) الطبقات، ١٣٥/١.

(٣) سطر النجوم، ٤٩٤/١.

(٤) الطبقات، ١٣٨/١، ١٣٩.

ومات وهو ابن ستة عشر شهراً، وقال: إن له ظئراً تتم رضاعه في الجنة وهو صديق .
 عن محمود بن لبيد قال: انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس: انكسفت الشمس لموت إبراهيم، فخرج رسول الله ﷺ حين سمع ذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد، ودمعت عيناه فقالوا: يا رسول الله تبكي وأنت رسول الله! قال: إنما أنا بشر تدمع العين ويخشع القلب ولا نقول ما يسخط الرب، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون! ومات وهو ابن ثمانية عشر شهراً، وقال: إن له مرضعاً في الجنة^(١).
 عن أنس: لما قبض إبراهيم ابن النبي ﷺ قال لهم: لا تدرجوه في أكفانه حتى أنظر إليه، فأتاه، فانكب عليه وبكى^(٢).

وحزن المسلمون جميعاً لموت إبراهيم عليه السلام إلا عائشة فقد أبطنت شماتة وإن أظهرت كآبة..^(٣)

ودفن إبراهيم عليه السلام في البقيع وحمل على سرير صغير، وصلى عليه رسول الله ﷺ بالبقيع.. وقال: ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون، ومضى -الفرط والفرط، المتقدم للقوم والأصل فيه المتقدم إلى الماء ليرتاد لهم وليهياً لهم الدلاء والأرشية الحبال - وروت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دفن ابنه إبراهيم ولم يصل عليه ونزل في قبره الفضل وأسامة والنبي ﷺ على شفير القبر، ولما دفن رث قبره وعلم بعلامة قال أهل العلم بالتاريخ: مات وله ستة عشر شهراً وقيل ثمانية عشر شهراً^(٤).
 وإلى هنا تقتصر على ترجمة أبناء النبي الثلاثة: القاسم وعبدالله وإبراهيم، لأنهم موضع اتفاق الأمة، ثم نأخذ في ترجمة غيرهم من بناته سلام الله عليهم أجمعين.

سیدتنا رقیة عليها السلام

ولدت عليها السلام لرسول الله ﷺ وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وسماها رقیة،

(١) الطبقات، ١/١٤٣؛ وانظر كذلك: فتح الباري، ٣/٥٢٦ و٥٢٧؛ وسبل الهدى والرشاد، ١١/٢٢.

(٢) سمط النجوم، ١/٤٩٥؛ وذخائر العقبى، ص ١٥٥.

(٣) شرح ابن أبي الحديد، ٩/١٩٥.

(٤) ذخائر العقبى، ص ١٥٥ بتصرف.

وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعته حين بايعه النساء (١) .

وجاء في أعيان الشيعة : توفيت بالمدينة في شهر رمضان رأس ١٧ من الهجرة . ونقل عن ذيل المذيل ص ٦٥ : أمها خديجة وكان النبي ﷺ زوجها قبل أن يوحى إليه عتبة بن أبي لهب ، فلما بعث النبي وأنزل الله عز وجل عليه ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال له أبوه : رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنة محمد ، ففارقها ولم يدخل بها وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعت رسول الله ﷺ حين بايعه النساء ، فتزوجها عثمان بن عفان ، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً وأسقطت في الهجرة الأولى من عثمان سقطاً ، ثم ولدت له بعد ذلك ابناً فسماه عبد الله ، وهاجرت إلى المدينة بعد زوجها عثمان حين هاجر رسول الله ﷺ ، ومرضت ورسول الله ﷺ يتجهز إلى بدر ، فخلّف رسول الله ﷺ عثمان ، فتوفيت ورسول الله بدر ، وقدم زيد بن حارثة من بدر بشيراً حين سوى التراب عليها ، إنتهى .

وتابع السيد الأمين يقول : وروى الكليني في الكافي بسنده عن أحدهما عليه السلام : لما ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : ألحقي بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون وأصحابه ، الحديث .

وفي دعاء شهر رمضان : اللهم صل على رقية بنت نبيك الخ .

وفي إعلام الوري للطبرسي وربع الشيعة لابن طاوس : أمّا رقية بنت رسول الله ﷺ فتزوجها عتبة بن أبي لهب فطلقها قبل يدخل بها ، وتزوجها بعده في المدينة عثمان بن عفان فولدت له عبد الله ومات صغيراً نقر ديك على عينه فمرض فمات ، وتوفيت بالمدينة سنة بدر ، فتخلّف عثمان على دفنها .

وفي قرب الإسناد بسند فيه مسعدة بن صدقة عن الصادق عن أبيه عليه السلام قال : ولد لرسول الله ﷺ من خديجة القاسم والطاهر وأم كلثوم ورقية وفاطمة وزينب .

وفي تكملة نقد الرجل : السند ضعيف بمسعدة .. إنتهى .

ثم شرع السيد في نقل قول صاحب التكملة عن أبي القاسم العلوي الكوفي نفي كون زينب ورقية بنتي رسول الله (٢) ، ونرجأ الحديث إلى المجلس القادم حيث نلتقي

(١) ذخائر العقبى ، ص ١٦٢ : سمط النجوم ، ٥٠٧/١ .

(٢) أعيان الشيعة ، ٣٤/٧ و ٣٥ .

مع السيد جعفر مرتضى حول هذا المعنى إنشاء الله تعالى .
ولما عزي النبي ﷺ برقية قال : الحمد لله دفن البنات من المكرمات .
قال بعض العلماء : هذا ورد مورد التسلية عن المصيبة وحاشاه أن يقوله كراهة
للبنات كما يظنه الجهلة ^(١) .

سَيِّدَتْنَا أُمَّ كَلْثُومٍ عليها السلام

ترجم لها سيدنا الأمين في الأعيان فقال : توفيت في شعبان سنة ٩ من
الهجرة ^(٢) ، أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين أدركت الإسلام وهاجرت ، تزوجها
عثمان بن عفان وماتت عنده ، وجاء في بعض أدعية شهر رمضان عن الأئمة أهل
البيت عليهم السلام : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى رَقِيَّةٍ وَأُمِّ كَلْثُومٍ بَنَتِي نَبِيِّكَ ... الخ .
وفي مجمع البحرين : كان لرسول الله من خديجة أربع بنات كلهن أدركن
الإسلام وهاجرن وهن : زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم .
وقال الطبرسي في إعلام الوری وغيره أن أم كلثوم بنت رسول الله تزوجها
عثمان بعد أختها رقية وتوفيت عنده ، ومثله عن ربيع الشيعة لابن طاوس ... ^(٣) وحضر
النبي ﷺ دفن أم كلثوم ولم يحضر دفن رقية لأنه ﷺ كان مشغولاً بوقعة بدر .
وقال محمد بن يوسف الصالحی : قال في العيون : إنها ماتت في شعبان سنة
تسع من الهجرة .. وجلس رسول الله في قبرها ، ونزل في حفرتها علي والفضل وأسامة
رضي الله عنهم ، ولم تلد من عثمان شيئاً رضي الله تعالى عنها .. ^(٤)
ولم يدخل حفرتها عثمان لأنه كان قد قارب ليلة وفاتها ، وقد نهى النبي أن
يقرب دفنها .

(١) شرح الزرقاني على المواهب ، ٤/٣٢٤ .

(٢) والظاهر أنها ولدت بعد سيدتنا رقية بسنة أو أكثر بقليل ، فلم ينص على عام ولادتها أحد ..

(٣) أعيان الشيعة ، ٣/٤٨٦ و ٤٨٧ . أين السيد عن أقوال هؤلاء الأعلام وما باله ركن إلى أقوال صاحب
الإستغاثة وحده وستطلع على ما في المجلس التالي من ردنا على السيد مرتضى العاملي .

(٤) سبل الهدى والرشاد ، ١١/٣٦ .

اللعب بالسنة من أجل عثمان ..

أخرج البخاري في صحيحه في باب الجنائز باب الميت يعذب بكاء أهله وباب من يدخل قبر المرأة ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٤٤ بالأسناد من طريق فليح بن سليمان عن أنس بن مالك قال : شهدنا بنت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس على القبر ، فرأيت عينيه تدمعان ، فقال : هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة ؟ فقال أبو طلحة «زيد بن سهل الأنصاري» : أنا ، قال : فانزل في قبرها . قال : فنزل في قبرها فقبرها . قال ابن المبارك : قال فليح : أراه يعني الذنب . قال أبو عبد الله يعني البخاري نفسه : ليقترفوا ليكتسبوا . وفي مسند أحمد : قال سريح : يعني ذنباً^(١) .

لسنا بحاجة إلى الكلام الطويل حول هذا الحديث ، ولكن نريد أن نشير إلى أن أهل السنة والجماعة بل علمائهم على التحقيق لا دين لهم على الإطلاق وهم كأسلافهم اليهود والنصارى الذين حرّفوا الكلم عن مواضعه ، أنظرهم كيف عمدوا إلى لفظه قارف الوارد في الحديث فصخّفوها إلى فارق ..^(٢) فكذبوا على النبي عامدين ، لأنه لم يقلها ﷺ ، ثم ما كفاهم ذلك حتى شرعوا في التأويل الغث البعيد رعاية لخواطر سيدهم نعثل حتى لا ينقص أحد نوريه وليثبت في حقه بزعمهم ما كذبه على النبي من أن تزويجه بأمة كلثوم كان بأمر من الله ، فحوّلوا المقارفة إلى المفارقة ، بل جاء الحديث بلفظ قارب فحوّلوا تصحيحاً مقصوداً إلى قارف ثم سخّفوها عامدين إلى فارق وهكذا ... وجعلوا معناها الذنب واستشهد أبو عبد الله البخاري على ذلك بآية من كتاب الله ، ولم يجنبوا من ذلك إلا الفضيحة لهم ولأمامهم وليس للكاذب على النبي غير الإفتراس في الدنيا والمقعد العتيد مع إبليس وأنصاره في الآخرة .

وجزم ابن حزم بالأول أي بمعنى الجماع ، وقال : معاذ الله أن يتبجح أبو طلحة عند رسول الله ﷺ بأنه لم يذنب تلك الليلة . وقال السهيلي : وهو خطأ من فليح ، لأنه ﷺ كان أولى بهذا . قال الحافظ ويقويه أن البخاري في التاريخ والحاكم ورواه

(١) ارجع إلى مولانا الأميني رحمه الله ، الغدير ، ٢٣٢/٨ ، فقد أشبع المسألة بحثاً وأرشد بالتفصيل إلى الكتب التي أخرجتها ..

(٢) المواهب وشرحها للزرقاني ، ٣٢٧/٤ .

بلفظ : لا يدخل القبر أحد قارف أهله البارحة ، فتنحى عثمان . وزعم الطحاوي أن يقارف تصحيف ، والصواب لم يقاول أي ينازع غيره في الكلام ، لأنهم كانوا يكرهون الحديث بعد العشاء ، وتعقب بأنه تغليط للثقة بلا مستند وكأنه استبعد أن يقع من عثمان ذلك لحرصه على مراعاة خاطر الشريف ، ويجب باحتمال أن مرض المرأة طال واحتاج إلى الوقاع ولم يظن موتها تلك الليلة وليس في الحديث ما يقتضي أنه واقع بعد موتها ولا حين احتضارها ... وحكى ابن حبيب أن عثمان جامع بعض جواريه ليلتئذ فتلطف عليه السلام في منعه من قبرها بغير تصريح (١) .

قال ابن بطال : أراد النبي عليه السلام أن يحرم عثمان النزول في قبرها وقد كان أحق الناس بذلك لأنه كان بعلمها وقد علقاً لا عوض منه لأنه حين قال عليه السلام : أيكم لم يقارف الليلة أهله ؟ سكت عثمان ولم يقل أنا ، لأنه كان قد قارف ليلة ماتت بعض نسائه ولم يشغله الهم بالمصيبة وانقطاع صهره من النبي عليه السلام عن المقارفة فحرم بذلك ما كان حقاً له وكان أولى من أبي طلحة وغيره وهذا بين في معنى الحديث ، ولعل النبي عليه السلام قد كان علم ذلك بالوحي فلم يقل له شيئاً لأنه فعل فعلاً حلالاً غير أن المصيبة لم تبلغ منه مبلغاً يشغله حتى حرم ما حرم من ذلك بتعريض غير تصريح والله العالم (٢) .

أقول : هذه حقيقة عثمان كشفها تصرفه بعد وفاة ابنة النبي وانقطاع أشرف صهره وأكرمه عنه ، وأراد شيعته حفظ ماء وجهه ولكن الله أبى إلا أن يجعل الباطن زهوقاً ويبوء الكاذب على النبي بمقعده من النار .

التخلص ..

ولما ماتت رقية بنت النبي عليه السلام قال النبي عليه السلام : الحقي بسلفنا عثمان بن مظعون ، فبكت النساء على رقية ، فجاء عمر الخطأب فجعل يضربهن بسوطه ، فأخذ النبي بيده ثم قال : دعهن يا عمير يبكين وإياكن ونعيق الشيطان فإنه مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان ، فقعدت فاطمة على

(١) شرح المواهب ، ٣٢٧/٤ ، ٣٢٨ .

(٢) مولانا الأميني عليه السلام ، الغدير ، ٣٢٢/٨ .

شفير القبر إلى جنب النبي ﷺ فجعل رسول الله يمسح الدمع عن عينها بطرف ثوبه^(١).

والصحيح أنه قبر سيدتنا أم كلثوم ابنة النبي ، أما رقيه فقد ذهبت إلى الرفيق الأعلى والنبي مشغول بحرب بدر ، وجاء المدينة وقد فرغ من دفنها في البقيع ، اللهم إلا أن يقال أن النبي قال ذلك بعد وقوفه على قبرها ، والله العالم .

أقول : إذا كان عمر بهذه الجراءة بحضرة النبي فيضرب النساء بسوطه وفيهن سيده النساء فاطمة أتراه ينثني عن ضربها أو حرق دارها والنبي في جوار ربه ؟ كلاً والله .

ومجمعي حطب على البيت الذي لم يجتمع لولاه شمل الدين
والقائدين إمامهم بنجاده والطهر تدعو خلفه برنين
خلوا ابن عمي أو لاكشف للدعا رأسي ولاشكو للإله شجونني...
تم المجلس العاشر والحمد لله

المجلس الحادي عشر وقفة مع السيد جعفر مرتضى العاملي في كتاب «بنات النبي أم ربائبه»

«.. بضعة البضعة ..»

الشيخ حسين الطرفي

وكفى تلك نسبة للمكارم	بضعة البضعة البتولة فاطم
إليه إن قيل يابنة هاشم	بك يعتز هاشم حين تعزين
الله رسولاً وللنبيين خاتم	يابنة المصطفى الذي اختاره
لابنة نمتها الأعظام	وابنة المرتضى علي وأسمى والد
لك أخت العباس بدر الهواشم	ثم يا صنوة الإمامين طوبى
لمستأذن على الباب جاثم	إذني يا عقيلة الطالبين

يبتغي الإذن في اقتحام رحاب
 حرم لا يحوم فيه سوى المأذون
 آية الإذن عنده أن سيهدى
 ليقول الذي له أنت أهل
 شفعي فيه حبه وولاه
 خصك الله باصطفائك رداً
 قد أقام السبب القوائم للدين
 رامك السبب للبناء وللهدم
 شدت ما أسس الحسين و
 يالذاك اللسان يفرغ عما
 مقول طاح بالعتاة فأودى
 واغتندى في الشام معول هدم
 وأحلت الغرور فيه انهزاماً
 لك قلب ما ضاق وسعاً برزء
 فبكاه من في السماء ومن
 ولكم كنت إذ تحسين ضعفاً
 وتجودين كلما تستطيعين
 لك عين ترى اليتامى وتبكي
 بين حرص على العيال وجود
 ولقد أذهل العقول وقوف
 معك الحائرات قد حمن من
 ففررتن للصريع على الرمضاء
 وشهدت الذي جرى من عظيم
 وتحملت ترك شلو حسين
 وتهيأت للتحمل فيما
 ما نسيت الحسين للموت حتى

من مزاياك واضحات المعالم
 منكم بأن يرى في المحارم
 لصواب المقال فيك الناظم
 أسعفيه يسعد بك المتشائم
 ورجاه في أن يكون الخادم
 لإمام على الشريعة قائم
 ليعلو وكنت إحدى القوائم
 لك الله من مشيد هادم
 هدت بك مما شاد الطغاة دعائم
 بين لحيي أبيك سيفاً صارم
 بابن مرجانة البغيض الظالم
 ثل فيه عرش الكفور الحاكم
 حين في داره أقمت المآتم
 لم تطق حمله قلوب العوالم
 في الأرض حتى لقد بكته البهائم
 من لغوب تبدين أقوى العزائم
 ببذل القوى لحفظ الفواطم
 للأيامى وما اعتدت عين نائم
 بدموع سخية وسواجم
 لك عند الحسين والفكر هائم
 حولك ذعراً كما تحوم الحمام
 يشكو الظما عن الماء صائم
 الخطب لم يجبر مثله في العظام
 عارياً والمسير فوق السوائم
 سوف يأتي به القضاء القادم
 مت والقلب فيه ما الله عالم

بنات النبي لا ربائبه

رأيت من تمام الخدمة في هذه الإضمامة عن مولاتنا الصديقة الطاهرة عليها الصلّاة والسّلام أن أناقش السيّد الفاضل والعالم الجليل ذا الخدمات الثقافية الموقّعة في مذهب أهل البيت السيّد جعفر مرتضى العاملي في كتابه صغير الحجم «بنات النبي أم ربائبه» بما وسعني علمه والإطّلاع عليه من هذا الموضوع ...

فلقد رأيت السيّد حفظه الله في بحثه المستعجل انساق وراء أبي القاسم العلوي الكوفي فأيدّه على ما ذهب إليه ، تأييداً غير ناظر إلى مسائل هامة في البحث لم يناقشها السيّد ، وهي ذات دخل جوهرى بالموضوع ، ومنها آية ﴿أدعوهم لآبائهم﴾ كما أنّ سيّدنا لم يعرض من رأي علماء الشيعة إلا رأي الشيخ المفيد وحده ، مع العلم بأنّ الشيخ الكليني أقرّ بنسب السيّدات من النبي وروى فيهنّ أحاديث من الكافي تؤكّد نسبهنّ إلى النبي ﷺ ، وكذلك لم يعرض لما قاله الطبرسي في إعلام الورى ولا لابن طاوس في ربيع الشيعة ، ومثله فعل الحميري في قرب الإسناد ، وكان على السيّد أن يشيع الموضوع بحثاً من هذه الناحية وينظر في الروايات الواردة عن طريق أهل البيت سنداً ومنتأ ثم يرى هل تؤيدّه على ما ذهب إليه من النفي أو أنّها على طرفي نقيض مع صاحب هذه المقولة .

والظّاهر أنّ سيّدنا كان على جناح السّرعة ولذلك لم يستند إلا إلى اضطراب الروايات العامة عنهنّ وهو على علم تامّ بأنّ المروي من ذلك الطريق لا يمكن التعويل عليه سلباً ولا إيجاباً ما لم تقم القرائن على صحّته ، لأنّ أيدى القوم لعبت في التاريخ والسنة حتّى شوّهتهما ، فبدّلت كثيراً من الحقائق وغيّرت الوجه المشرق للتاريخ حتّى رهقته من فعلهم الأثم قتره ، وبإلها من قتره .

وينبغي على الباحث في مثل هذه الدهاليز المظلمة أن يلجأ إلى نور القرآن ويعشوا إلى ضوئه ، ففيه النجاة من كلّ هلكة ، والسلامة من كلّ مضلّة ، والقرآن سدّ في وجوه النافين منافذ القول حين أنزل فيه قوله تعالى : ﴿أدعوهم لآبائهم﴾ ولو كان السيّدات عليهنّ الصّلاة والسّلام لغير النبي ؛ سواء كنّ لتيميّ أو قرشيّ لما جاز للمسلمين بل ولا للنبيّ تسميتهنّ ببنات النبي ، ولو جبت نسبتهنّ إلى أبيهنّ الحقيقي كما كانت الحال مع زيد بن محمّد ﷺ قبل نزول الآية ، ثمّ ردّوه إلى الحارثة بعد

نزولها فقيل: زيد بن حارثة، وسنعرض للآية بالتفصيل في مستقبل البحث إنشاء الله .. ولما رأيت السيد الفاضل لم يُعنَ بالمسئلة عناية تامّة بل لم ينظر إليها نظرة جدية والآ لتجرّد لها ببحث موضوعي، جدير بالقبول والإحترام، وسيدنا العالمي والحمد لله من خيرة رجالات الشيعة في هذا المضمار وطالما جلّى والحمد لله في ميادين سبق ونال الغاية .

أقول: لما رأيت بحث السيد في هذا الموضوع يرجع في أكثره إلى قول صاحب الإستغاثة وضممت ذلك إلى صغر حجم الكتاب وإلى الرسم الساخر على غلافه، فليس من اللائق أن يُرمز إلى أشرف سلالة عرفنها البشرية برسوم ثلاث توحى بالضحك للنّاظر وكان على السيد أن يأخذ روح عصرنا بنظر الإعتبار، وأنا على يقين من أنّ المسئوليّة تقع على النّاشر قبل وقوعها عليه .

لهذا وذاك رأيت أن لا يفوتني هذا الموضوع الهام وأنا أسوح في رحاب سيّدة النساء والرّجال ما عدا أباهَا ويعلمها فاطمة الزهراء صلّى الله عليها وعلى بنيتها الطاهرين، فأحببت أن أدلي بدلوي وأعرض لنقاط هامة لاحظتها بعد قراءة كتاب السيد، وهذا البحث ليس على شكل ردّ بل هو إلى التذكير أقرب، والسيد أيّده الله أجل من أن تفوته الحقائق ولكنه الإتياع وحسن الظنّ بالعلوي الكوفي عليه السلام .

بنات النبي عليه السلام

اتفقت كلمة الأمة على أنّ بنات النبي عليه السلام أربع: أكبرهنّ زينب، ومن بعدها رقيّة، ثمّ أمّ كلثوم، وصغراهنّ سيّدتنا فاطمة عليها السلام. ولم يشذ أحد عن ذلك لافي عددهنّ ولا في أسمائهنّ، اللهمّ إلا اختلافاً يسيراً في سنّ بعضهنّ وفي المتقدّم والمتأخّر منهنّ؛ فمن قائل أنّ أمّ كلثوم أسنّ من رقيّة، وآخر أنّ الصديقة عليها السلام أسنّ من رقيّة؛ وهو قول مخالف للمشهور وقد ردّه العلماء وأثبتوا ما هو شائع مشهور من كون الزّهراء عليها السلام أصغرهنّ .

ووقع الخلاف في الذكور من أولاد النبي عليه السلام؛ فمن بين مقلّ ومكثّر، فالمقلّ أوصلهم إلى اثنين: القاسم وإبراهيم، والمكثّر أوصلهم إلى ثمانية أو تسعة أو إثني عشر وهكذا، ومن المؤرّخين من أضاف إليهم اثنين هما عبد مناف وعبد العزّي،

ولكنه أسكت بعد أن فلجته الحجّة (١).

وربما قيل: إنّ سبب هذا الإضطراب هو في عدّ الصفة اسماً؛ فالطيب والطاهر صفتان لعبد الله لأنه ولد في الإسلام، وصاحب هذا القول يراهم واحداً ذاصفتين، وبعضهم يذهب إلى أنهم ثلاثة حين اعتبر الطيب والطاهر اثنين، ومن هنا نشأ الخلاف.

ولم أجد لإجماع المؤرخين على عدد بنات النبي وأسماهن وتاريخهن نظيراً، ونحن نركز على هذا الجانب وحده ونتفهم عن موضوع زواج سيدتنا خديجة الكبرى قبل النبي ﷺ لما فيه من اختراق ذلك الحرم القدسي الممنع ولما فيه من مجافاة الأدب، ولا يترتب أثر يعتد به على هذه المسألة وإذا ما ثبتت نسبة السيدات إلى بنوة النبي فما علينا بعد ذلك، إن كانت مولاتنا قد تزوجت قبل النبي أو لم تتزوج. ولم أعر في ما عندي من المصادر على مؤرخ واحد من القدماء زعم أنّهن ربائب النبي، والإجماع حاصل على أنّهن بناته حقاً وصدقاً، اللهم إلا ثلاثة: متقدم مبتدع، ومتأخر متبع، ومتوسط غافل.

ونبدأ بالمتوسط وهو المقرضي، فقد أشار إشارة عابرة تدل على أنّها هفوة غير مقصودة إلى سيدتنا زينب بأنها ربيبة النبي، وإليك نص عبارته تحت عنوان: فصل: في ذكر من كان في حجر رسول الله ﷺ من أولاد نسائه، يقول في مطلع الفصل: واعلم أنّ الربيبة بنت الرجل من غيره، وتجمع على ربائب، سميت بذلك لأنها يربّيها في حجره فهي مربوبة، فعيلة بمعنى مفعولة، ثم يبدأ بعدهم إلى أن يقول: فزينب بنت رسول الله من قبل خديجة رضي الله عنها (٢).

وهذه هفوة واضحة لا يرتاب فيها، لأنّ المؤلف سبق أن ذكرها في بنات النبي ﷺ فقال: زينب بنت رسول الله ﷺ، وكانت زينب عند أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وأمّه هالة ابنة خويلد فهو ابن أخت خديجة لأبيها وأمّها وابن خالة زينب وكان رسول الله محبباً في زينب أسلمت وهاجرت حين أبى زوجها

(١) راجع: شرح المواهب اللدنية، ٣١٥/٤ و٣١٦؛ وسط النجوم، ٤٨٨/١؛ وسبل الهدى والرشاد، ١٦/١ وغيرها.

(٢) إمتاع الأسماع، ٢٩٥/٦.

أبو العاص أن يسلم.. (١)

والذي أظنه - والله العالم - أنه يريد زينب ابنة أبي سلمة ربة رسول الله ﷺ من قبل أم سلمة رضي الله عنها، وكان اسمها برة فسمّاها رسول الله ﷺ زينب، فسبق القلم منه أو من الناسخ إلى زينب ابنة النبي ﷺ.

وأما المتقدم فهو صاحب الإستغاثة رضي الله عنه واسمه الكامل كما جاء في ترجمته: علي بن أحمد من ذرّة الإمام محمّد الجواد عليه السلام، ويكنّى أبا القاسم، ويلقّب بالعلوي، كما أن نسبته إلى الكوفة فيقال له الكوفي، وهو الذي ابتدع القول بحق السيّدات ولم يسبق به وإلا أشار إليه اعتضاداً به كما لم يتابعه عليه أحد، واعتبر مذهبه شاذّاً، وأشار إليه الشيخ المفيد إشارة عابرة ولم يصرح باسمه لضعف قوله واكتفى عن عناء رده بنسبته إلى الشذوذ، ولكنّ ابن شهر آشوب ذكر في مناقبه أنّ البلاذري والمرتضى في الشافي ذهباً هذا المذهب؛ أمّا سيّدنا المرتضى فقد تصفّحت كتابه الشافي فلم أعر فيه على عين ولا أثر من ذلك، والبلاذري نصّ على أولاد النبي في أنساب الأشراف واحداً بعد الآخر فقال: تزوّج رسول الله ﷺ خديجة بن خويلد بن أسد بن عبد العزّاء بن قصي... فولدت منه القاسم بن رسول الله ﷺ وبه كان يكنّى ومات وقد مشى وهو ابن سنتين، وولدت أيضاً زينب بنت رسول الله وهي أكبر بنات رسول الله ﷺ... وولدت خديجة لرسول الله ﷺ رقيّة بنت رسول الله ﷺ... وولدت خديجة لرسول الله ﷺ أمّ كلثوم أيضاً... وولدت خديجة لرسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها... وولدت خديجة لرسول الله ﷺ أيضاً عبدالله وهو الطاهر وهو الطيّب وسمّي بهذين الإسمين جميعاً لأنّه ولد بعد المبعث في الإسلام وتوفي بمكّة... (٢)

فأين ما قاله شيخنا ابن شهر آشوب رضي الله عنه، ولعلّ البلاذري شخص آخر غيره، أو أنّ الكتاب تصرّف به النساخ؟ وعبارة ابن شهر آشوب هكذا: أولاده: ولد من خديجة القاسم وعبد الله وهما الطاهر والطيّب، وأربع بنات: زينب ورقية وأمّ كلثوم وهي آمنة وفاطمة وهي أمّ أبيها، ولم يكن له ولد من غيرها إلا إبراهيم من مارية... إلى أن يقول: وفي الأنوار والكشف واللمع وكتاب البلاذري أنّ زينب ورقية كانا ربيّتيه من جحش

(١) إمتاع الأسماع، ٣٤٣/٥.

(٢) أنساب الأشراف، ٢٣/٢ - ٣٤.

فأمّا القاسم والطيّب فماتا بمكّة صغيرين^(١).

وأنت ترى أنّ ابن شهرآشوب لم يهتم بهذا القول وذكره استطراداً، ولو كان معتبراً عنده لأبان عن معنى عبارته «ربيبته من جحش» فمن جحش هذا حتّى السيّد جعفر العاملي حيّرتَه هذه الكلمة فقال: ولم نفهم المقصود من كلمته الأخيرة: «من جحش» فهل هي تصحيف كلمة هند، أو هالة أو نحو ذلك؟ أم أنّ العبارة كانت هكذا: «ربيبة ابن جحش»؟ فصحفت كلمة «ابن» فصارت «من»؟! كل ذلك محتمل، ولا بدّ لترجيح أيّ من الإحتمالات من شاهد ودليل...^(٢)

ولن يصيب هذا الشاهد ولو نخل الكتب كما تنخل الطحينية، وكان عليه أن يرجع إلى الكتب التي نسب إليها هذا القول فيتعرف على «جحش». ويمكن أن يقال: إنّ أبا القاسم الكوفي لم يتابعه أحد على مذهبه الشاذ هذا وانفرد به أمس حتّى قيّض الله له في هذا العصر السيّد جعفر مرتضى العاملي فشدّ أزره وسقى بذرتَه ولكنّها لم تخضّر لأنّها في أرض سبخة..

وأحبّ أن أقول: إنّ نسب أهل البيت عليهم السلام مؤيّد من الله سبحانه، فما لأحد القدرة وإن أوتي الحول والطول على نفى الثابت منه لمجرّد شبهة عرضت نعوذ بالله من الخذلان، وليت صاحب الإستغاثة أرشدنا إلى الوجه الصحيح من آية أو رواية أو قول قطعيّ استند إليه في نفى السيّدات عليهنّ السّلام من بنوّة النبي صلى الله عليه وآله لذلك يمكن ردّ قوله هذا إلى اعتبار «العداء الأسيري» أو «حسد الأرحام» فإنّ عبارة أبي القاسم يطغى عليها جانب الإنفعال الحاد حين اعترض أحد أحفاد خديجة وراح يصرّح له عن محضه بردّ نسبه إليها، وليس بعيداً بأن يكون مرجع ذلك كلّهُ إلى الدعوة - بكسر الدال - التي رمي بها فإنّ نسب الكوفي لم يثبت وقد ردّه كثير من العلويّين، وعبارة النجاشي عنه تدلّ على ذلك فقد قال عنه: علي بن أحمد أبو القاسم الكوفي، رجل من الكوفة، كان يقول أنّه من آل أبي طالب...^(٣)

ولا جرم فإنّ وضعاً كهذا ينعكس من خلال عقده الّتي تحدث في النفس على

(١) ابن شهرآشوب، المناقب، ١/١٦١ و١٦٢، ط قم المطبعة العلميّة.

(٢) بنات النبيّ أم ربابه، ص ٨٧.

(٣) القهباني، مجمع الرجال، ٤/١٦٢.

سلوك صاحبه فيعبّر عنه بنحو من الأنحاء، ونحن من أجل إيضاح الأمر ووضوح القارئ على الواضحة ننقل نصّ عبارته من كتاب الإستغاثة ففي ذلك نصفه لنا وله: إن رقية وزينب زوجتي عثمان لم يكونا ابنتي رسول الله ﷺ ولا ولد خديجة زوجة رسول الله ﷺ وإنما دخلت الشبهة على العوام فيهما لقلّة معرفتهم بالأنساب وفهمهم بالأسباب وذلك أنا نظرنا في الآثار المختلفة فيهما وما يصحّ به معرفتهما فوجدنا الإجماع من أهل النقل على أنّ رسول الله ﷺ قد كان زوج هاتين المرأتين المنسوبتين عند العوام إليه في الجاهليّة من أبي العاص بن الربيع ومن عتبة بن أبي لهب، فكانت زينب عند أبي العاص ودخل بها وهي في منزله، وكانت رقية متزوجة بعتبة بن أبي لهب ولم يكن دخل بها وهي في منزله، فلمّا أظهر رسول الله دعوته ودعا إلى نبوّته وظهرت عداوة قريش له على ذلك قالت قريش لعتبة بن أبي لهب: طلق رقية بنت محمّد حتّى نزوّجك بمن شئت من نساء قريش ففعل ذلك، وقالوا لأبي العاص مثل ذلك فلم يفعل وقال: ما أريد بأهلي بدلاً فبقيت زينب عنده على حالها... ثمّ أخذ الكوفي في بيان دعاء النبي على عتبة بأن يسلّط عليه كلباً من كلابه فاستجيب له وساق حكاية الأسد الذي أكله^(١).

وأهمل الكوفي ذكر أمّ كلثوم عليها السلام فلم يشر إلى وجودها ولا إلى عدمه، ولم يظهر من كلامه رأيه في صحّة نسبها، وهل انفردت دونها بذلك أو أنّ حالها كحال أختيها، أو أنّه ينكر وجودها من رأس، وبما أنّ السيّد جعفر العاملي تابعه على رأيه فقد شكك في وجود أمّ كلثوم أيضاً فقال: ... إن أمّ كلثوم التي يدّعي أنّها بنت النبي ﷺ وطلّقتها ابن أبي لهب في مكّة ثمّ تزوّجها عثمان في المدينة بعد الهجرة بعدة سنوات لم نجد لها ذكراً حين الهجرة إلى المدينة، بل المؤرخون يقتضون على القول بأنّ عليّاً عليه السلام قد حمل معه الفواطم وأمّ أيمن وجماعة من ضعفاء المؤمنين، وليس ثمة أية إشارة إلى أمّ كلثوم إطلاقاً، فهل هاجرت قبل ذلك أو بعده؟ ومع من؟! ولماذا؟! أم أنّها جعلت في جملة الضعفاء؟! فلماذا إذن أفردت عن أختها فاطمة وعن أمّ أيمن وجعلت في جملة ضعفاء المؤمنين^(٢)؟!

(١) الإستغاثة، ص ٧٦ و ٧٧.

(٢) جعفر مرتضى العاملي، «بنات النبي أم ربائبه»، ص ٧٦ و ٧٧، ط مركز الجواد - بيروت، أولى.

أقول: وهذا شكٌّ لا موضع له، فإن كان السيّد كصاحبه الكوفي يرى وجود أم كلثوم مخترعاً من الرّواة فإنّ الذي اخترعه على شاكلته المعلومة لا يصعب عليه أن يضيف إليه هجرةً مخترعة أيضاً، وإن ثبت لها وجود من الولادة إلى الوفاة تناقله المؤرخون كافة بخاصة يوم وفاتها وما جرى ساعة الدفن من حرمان عثمان من دخول قبرها لأنّه قارف ليلة وفاتها، فإنّ غياب فصل هجرتها عن بقية فصول حياتها لا يضرّ شيئاً، فما كلّ من هاجر بعد النّبي من أهله أو من غيرهم ثبتت له حكاية في السّيرة، وإنّما أثبت المؤرخون هجرة زينب عليها السلام فلأجل ما نالها من شرّ هبار ابن الأسود وما فعل النّبي صلى الله عليه وآله من هدر دمه، ولولا ذلك لكان شأنها شأن أمّ كلثوم عليها السلام.

ونعود بعد ذلك إلى نصّ عبارة الكوفي، قال: فلمّا كان الأثر موجوداً من غير خلاف في تزويجها في الجاهليّة من رجلين كافرين لم يخلّ الحال في ذلك من أن يكون الرسول صلى الله عليه وآله في زمن الجاهليّة على دين الجاهليّة أو كان مخالفاً لهم بالإيمان بالله، فإن قال قائل: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان على دين الجاهليّة كفر بالله ورسوله لأنّ الله تعالى يقول في الإمامة حين قال في قصّة إبراهيم عليه السلام: ﴿إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريّتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ ومن كان كافراً كان أكبر الظالمين لقوله تعالى: ﴿إنّ الشّرّك لظلم عظيم﴾ ومن كان كذلك كان عابداً للأصنام ومن كان عابداً للأصنام كان محالاً أن يتّخذّه الله عزّ ذكره نبياً أو إماماً بحكم هذا الوجه، ولو جاز أن يكون الله يجعل كافراً أو مشركاً نبياً أو إماماً لجاز في حكم النظر أن يكون نبيّاً أو إماماً يرجعان عن النبوّة والإمامة مشركين كافرين، وكما جاز أن ينقل كافراً مشركاً إلى الإيمان فيصير بعد أن كان مؤمناً كافراً وكذلك يجب في النّظر أن يكون حال الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، ولو كان يجوز أن ينقل الله من كان كافراً مشركاً فيصير نبيّاً أو إماماً لجاز ذلك فلمّا فسد ذلك في حكمة الله جلّ اسمه أوجبنا على من يقول أنّ الرّسول كان في زمن الأصنام الكفر والإلحاد، ولمّا وجب ذلك كذلك ثبت أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله كان في زمن الجاهليّة على دين يرتضيه الله منه غير دين الجاهليّة، وقد شرحنا من هذا الحال في كتاب الأنبياء ما فيه كفاية لأولي الأبواب. ولمّا وجب ما وصفناه وثبتت حجّته كان محالاً أن يزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله ابنتيه من كافرين من غير ضرورة دعت إلى ذلك وهو مخالف لهم في دينهم، عارف بكفرهم وإلحادهم، ولمّا فسد هذا بطل أن تكون ابنتيه

وصحّ لنا فيهما ما رواه مشايخنا من أهل العلم عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام... (١)
وبهذا القياس المبني على مقدمات باطلة نفى نسب السيدات عليهنّ السّلام،
وهو أقوى ما يملك من الأدلّة، وأحسب السيّد العاملي خدع بقياسه هذا، فأتبعه على
مذهبه الباطل .

ونجيبه على قياسه هذا بالنقض عليه أولاً بحكاية نبيّ الله لوط عليه السلام فقد عرض
بناته لقومه المشركين حين قال لهم ليصرفهم عن ضيفه: ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي ﴾ وانظر
الحكاية كما جاءت في كتاب الله تعالى: ﴿ وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا
يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزوني في ضيفي
أليس منكم رجل رشيد ﴾ (٢).

قال شيخنا الطوسي رحمته الله بعد أن ساق تفسير الآية: لمّا رآهم همّوا بأضيافه
عرض عليهم التّكاح المباح، وأشار إلى نساء فقال: ﴿ هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم ﴾ قال
قتادة: كنّ بناته لصلبه . وقال مجاهد: كنّ بنات أمته فكنّ كالبينات له، فإنّ كلّ نبيّ أبو أمته
وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ..

ويقول شيخ الطائفة رحمته الله: وقيل في وجه عرض المسلمة على الكفّار قولان: قال
الحسن إنّ ذلك كان جائزاً في شرع لوط وفي صدر الإسلام أيضاً ولذلك زوج
النبيّ صلى الله عليه وآله بنته بأبي العاص قبل أن يسلم ثمّ نسخ بقوله: ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتّى
يؤمنوا ﴾ والثاني: قال الزجاج: إنّ ذلك عرض بشرط أن يؤمنوا، على ما هو شرط
النكاح الصحيح (٣).

وما قاله الحسن البصري أقرب إلى إطلاق اللفظ ممّا قاله الزجاج .
وجاء في مجمع البيان: واختلف في كيفيّة عرضهنّ ف قيل بالتزويج وكان يجوز
في شرعه تزويج المؤمنة من الكافر وكذا كان يجوز في مبتدأ الإسلام وقد زوج
النبيّ صلى الله عليه وآله بنته من أبي العاص بن الربيع قبل أن يسلم ثمّ نسخ ذلك (٤).

(١) الإستغاثة، ص ٨٩، ٨٠.

(٢) هود: ٧٨.

(٣) شيخ الطائفة، التبيان، ٤٠/٦، ٤١، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي، ط مكتبة الأمين -
النجف الأشرف.

(٤) مجمع البيان، ١٨٤/٣.

وقد توسّعت الرواية من طرفنا حتّى جاء في بعضها أنّه أباح لهم من بناته ما جاءوا من أجله .

عن الحسين بن علي بن يقطين قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن إتيان الرجل المرأة من خلفها قال : أحلتها آية في كتاب الله قول لوط : ﴿ هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم ﴾ وقد علم أنّهم ليس الفرج يريدون .. (١)

والذي يدلّك على إباحة زواج المؤمنة من المشرك في صدر الإسلام ما نزل من القرآن بعد ذلك من حضره ، فقد قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمننّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتّى يؤمنوا ولعبدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى التار والله يدعو إلى الجنّة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلّهم يتذكرون ﴾ (٢) ؛ وهذا يدلّ على أنّه كان سائغاً قبل التحريم معمولاً به ، ولكنّ الله تعالى منعه وحرّمه على المسلمين في قضية مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين ، وكان شجاعاً ، فدعته امرأة يقال لها : «عناق» إلى نفسها فأبى وكانت خلّه في الجاهليّة ، فقالت : هل لك أن تتزوّج بي ؟ فقال : حتّى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلمّا رجع استأذن في التزويع بها فنزلت الآية .. (٣)

بعد الذي تقدّم نقول لصاحب الإستغاثة ومن تبعه : ما تعتذرون به عن نبيّ الله لوط نعتذر به عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

ثانياً : لو افترضنا جدلاً أنّ زينب ورقية ليستا بنتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ المحذور من زواج المؤمنة بالمشرك ما يزال قائماً ولم ينقص منه شيء بنفيهنّ من النسب الشريف ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إن لم يكن أباهنّ فإنّه يملك أمرهنّ بالتبني .. وحينئذٍ كيف ساغ له بماله من الولاية عليهنّ أن يزوّجهنّ من مشرك ، اللهمّ إلّا أن يقول الكوفي ومن لفّ لفّه أنّ ذلك محرّم عليه من بناته ، أمّا إذا كنّ بنات غيره فلا وإن ملك أمرهنّ ، وحينئذٍ تكون الأحكام الفقّيّة مهزلة ولا ترجع إلى ضوابط يكون بالإمكان الرجوع إليها .

(١) السيد هاشم البحراني ، البرهان ، ٢/٢٣١ .

(٢) البقرة : ٢٢١ .

(٣) مجمع البيان ، ١/٣١٧ .

ثالثاً: ظلت بعض الأعراف والتقاليد الجاهلية سارية المفعول إلى فترة معينة بعد النبوة ومنها أعراف النكاح حتى نزل القرآن بحضرها ناهيك بها قبل النبوة، فقد كانت تعتبر تلك المرحلة مرحلة الفترة وكان النبي ﷺ يمارس فيها الحياة العادية مع مجتمع الشرك، وقد حمّاه الله لما يريد به من الخير من آثامهم وشروهم، ولم تدنسه جاهليتهم بأدناسها خلا أنه كان يبائعهم ويشاريهم ويجلس بأنديتهم ويعاشرهم في حياتهم الإجتماعية التي لا تعارض عصمة النبوة معاشرة تناقلها الرواية في كتب السيرة، ومنها التزويج فقد زوّجهم بناته وحضر مجالس زواج اعمامه وأبنائهم من غيربناته، ولو كان ذلك محرماً قبل النبوة لما حضره أو فعله.

أضف إلى ذلك أنه من أين يكون الحضر والإباحة إذالم يكن شرع ولم يحدث ذلك إلا بعد النبوة وكان على الكوفي وأتباعه أن يأخذوا بعين الاعتبار ذلك الشرع الذي يطالب به النبي قبل النبوة أن يجري في حياته على أحكامه أهو شرعه ﷺ؟! ولم ينزل بعد!! أم هو شرع غيره؟! ومن هو الغير هذا؟! أهو موسى؟! أم عيسى؟! وما كان النبي يدين بشرعها بعد تغييرها على أيدي القسس والرهبان والأتباع، أم هو شرع إبراهيم؟! عليهم الصلاة والسلام جميعاً، فقد كانت قريش فيما تزعم لنفسها أنها تدين بدين أبيها إبراهيم، ولم يكن شرعه معلوماً لديها، وإنما هي قواعد وطقوس وتقاليد حازتها بالتوارث صاغراً عن كابر، من ثمّ اعتبرت هذه المرحلة من الزمن مرحلة الفترة، وكانت أمور هذه الفترة مباحة، ولما جاء الإسلام حضرها على أتباعه ولم يؤاخذهم بما كانوا يفعلونه فيها، حتى نكاح المقت فإن الإسلام اعتبره ذنباً عظيماً وحبواً كبيراً وأشدّد في حرمة ولكنه أقرّ ما حدث قبل الإسلام على وضعه ولم يغيّر منه شيئاً بقوله تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ وكان زواج بنات النبي من مشركين جارٍ على الإباحة حتى نزل القرآن بتحريم ذلك؛ فكيف يُجعل هذا الأمر حجة على دفع نسب بنات النبي صلى الله عليه وعلى بناته وآله وسلّم؟ وبهذا يبطل قول الكوفي: كان محالاً أن يزوّج رسول الله ﷺ ابنتيه من كافرين من غير ضرورة دعت إلى ذلك... (١)

وأضيف على ما تقدّم أنه لا دليل على نفي الضرورة إذ لعلها كانت موجودة ذلك الوقت، وكان النبي يتعرّض لطائلة غداثهم وإيذائهم إذا امتنع عن تلبية رغبتهم في

الزواج وهذا كثيراً ما يحدث في مجتمع الأسرة الواحدة فكيف نفاها الكوفي من غير ما نظر إلى هذا الإعتبار .

ويقول صاحبنا الكوفي: وصحّ لنا فيهما ما رواه مشايخنا من أهل العلم عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وذلك أنّ الرواية صحّت عندنا عنهم أنه كانت لخديجة بنت خويلد من أمّها أخت يقال لها هالة قد تزوّجها رجل من بني مخزوم فولدت بنتاً اسمها هالة ثمّ خلف عليها بعد أبي هالة رجل من بني تميم يقال له أبو هند، فأولدها ابناً كان يسمّى هنداً بن أبي هند، وابنين فكانتا هاتان الإبتنان منسوبتين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله زينب ورقية من امرأة قد ماتت... (١)

وهذا كلام غريب متهافت، ولنا عليه:

أولاً: يقال في المثل: لا عطر بعد عروس. والرجل هنا في مقام خرق إجماع الأئمة وكان عليه أن يشير إلى مشايخه من أهل العلم هؤلاء من هم، وأين توجد رواياتهم عن الأئمة؟ ومنّ من الأئمة الإثنى عشر عليهم السلام رويت عنه هذه الروايات؟ وعليه لإثبات مدّعه أن يسمّي واحداً من المشايخ أو من الأئمة أو الروايات على أقلّ تقدير؟! ولما عزّ عليه أن يذكر ذلك علمنا أنّه مدّع لا غير كسائر ادّعاءاته.

ثانياً: إذا كانت زينب ورقية ابنتي هالة فكيف تزوّجت زينب أبا العاص وهو ابن هالة أيضاً فيكون أباها من أمّها وقد اعترف الكوفي بذلك فقال: على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد كان زوج هاتين المرأتين المنوسبتين عند العوام إليه في الجاهلية من أبي العاص ومن عتبة بن أبي لهب، فكانت زينب عند أبي العاص ودخل بها وهي في منزله... (٢)

وقال العلماء عن أبي العاص هذا: أبو العاص بن الربيع بن عبد العزّي بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي العبشمي صهر رسول الله صلى الله عليه وآله زوج ابنته زينب أكبر بناته.. وأمّه هالة بنت خويلد بن أسد أخت خديجة لأبيها وأمّها... (٣)

والمؤرخون والرواة وأصحاب الأنساب والتراجم أجمعين أكتعين أبصعين

(١) الإستغانة، ص ٨٠.

(٢) الإستغانة، ص ٧٦.

(٣) ابن عبد البر، الإستيعاب، ٢٦٤/٤.

أبتعين على هذا من أن أمه هالة شقيقة خديجة عليها السلام فكيف إذن زوجها رسول الله ﷺ من أخيها لأمها إن كان يرجع هذا الكوفي إلى عقل يحجزه عن الإفتاء على رسول الله ﷺ وابنته زينب عليها السلام، وإن تعجب فعجب أمر من أتبعه وراح يؤيد أقواله الباطلة بكتابة الكتب وتحضير المقالات .

ثم راح هذا المرتفع المخمس يجري به الخيال الجموح فقال : ومات أبو هند وقد بلغ ابنه مبالغ الرجال والإبتنان طفلتان، وكان في حدثان تزويج رسول الله ﷺ بخديجة بنت خويلد، وكانت هالة أخت خديجة فقيرة وكانت خديجة من الأغنياء الموصوفين بكثرة المال، فأما هند ابن أبي هند فإنه لحق بقومه وعشيرته بالبادية وبقيت الطفلتان عند أمهما هالة أخت خديجة فضمت خديجة أختها هالة مع الطفلتين إليها وكفلت جميعهم ^(١).

إلى أن يقول : ثم نسب أخوهما هند إلى خديجة إذ كان اسم خديجة ثابتاً معروفاً وكان اسم أختها هالة خاملاً مجهولاً، فظنوا لما غلب اسم خديجة على اسم هالة أختها في نسب ابنها أن أباهند كان متزوجاً بخديجة قبل رسول الله ﷺ فانتسبوا إليها لذلك وتحقق في ظنهم بجهلهم بأمهم أخت خديجة أن هنداً كان قد عمر حتى لحق أيام الحسين صلوات الله عليه وآله، فقتل بين يديه وهو شيخ، فقال الناس : قتل خال الحسين عليه السلام هند بن أبي هند التميمي، وأنه كان هند ابن خالة فاطمة أم الحسين عليها السلام على ما شرحناه فلم يميز العوام هذا القول وقدّر السامع له أن هنداً كان ابن خديجة، ولم يجعلوا أباهند التميمي أنه والد هند لبلوغ هند قبل موت أبي هند، وجهلهم اسم أم عند حملها مع ظهور اسم خديجة فجعلوا اسم خديجة وجهلوا اسم هالة أختها أم هند بن أبي هند التميمي .. ^(٢)

وأقل ما يقال بحق هذا الكلام أنه من دون مستند وهو أوهى من بيت العنكبوت، فليس الكوفي ثقة في نفسه حتى يعول عليه فيما يقول، ولا هو أشار إلى من أخرجه عنه لينظر في حقه، وعلى أساس من هذا النظر يمكن تقويمه، بل الراوي والمروي عنه والمخرج والمخرج عنه واحد وهو الكوفي، وليس للكوفي من الحسنات إلا كتابه

(١) الإستغانة، ص ٨١.

(٢) الإستغانة، ص ٨٢.

«الإستغاثة» ومع شديد احترامنا لأكثر ما جاء في هذا الكتاب إلا أن ذلك لا يشكل خلفيّة للمؤلف وعلى أساسها يفوز بالتعديل المطلق، ونحن من صفائنا اللازمة غير المفارقة أننا نقول لمن أحسن أحسنت، فإذا أساء فإنّ إحسانه المتقدّم لا يقلّب إسنائه حسنة بل نردّها عليه كائنه ما كانت، ولو كان مع الكوفي في هذا الكلام الواهي آخر ولو من طراز هيّان بن بيان لسارع إلى ذكره، ولكنّه انفرده به، وألقاه علينا إلقاء المسلّمات، وكان عليه أن يذكر سنده أو مصدره، فإذا أفلس من الإثنين فأئني لنا بقبول هذا المرسل، وبين قائله وزمان وجوده ما يقرب من أربعة قرون.

ولا تعجب من مؤلف الإستغاثة، ولكن اعجب من سيّدنا العاملي وهو الغيور على المذهب والموثوق به فيما يرويه ويقوله من تاريخنا كيف انساق ورائه، وإني بقدر اعتزازي بسيدي جعفر المرتضى العاملي أربأ بجنبانه أن يميل مع هذا الغالي الموتور.

استجلاء الحقيقة من منطق الكوفي ..

ليس أدلّ على هذه الحقيقة الضائعة من اختبار منطق أبي القاسم فإنّه يكشف لنا السرّ الذي حمله على مخالفة الأئمة والخروج على ما أجمعت عليه من نسب بنات النبي ﷺ وعددهنّ والثابت القطعي من تاريخهنّ، فإنّك واجد السرّ واضحاً من خلال أقواله التالية :

ولمّا وقع بيني وبين من نسب إلى هند من ولده مجادلات ومناظرات فيما ينتسبون إليه من خديجة وما يجهلون من جدّتهم هالة أخت خديجة ولما عرفتهم الصحيح من ذلك اشتدّ عليهم وجادلوني أشدّ مجادلة في أنّهم من ولد خديجة فأعلمتهم أنّ ذلك جهل منهم بنسبهم وأنّ خديجة لم تتزوّج بغير رسول الله ﷺ وذلك أنّ الإجماع من الخاص والعام !!! من أهل الآثار ونقله الأخبار على أنّه لم يبق من أشرف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم إلا من خطب خديجة ورام تزويجها فامتنعت على جميعهم من ذلك فلمّا تزوّجها رسول الله ﷺ غضب عليها نساء قريش، وهجرنها وقلن لها: خطبتك أشرف قريش وأمرأهم فلم تتزوّج أحداً منهم وتزوّجت محمّداً بئيم أبي طالب فقيراً لا مال له، فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن تكون خديجة يتزوّجها أعرابي من تميم وتمتنع من سادات قريش وأشرافها على ما

وصفناه ، ألا يعلم ذو التمييز والنظر أنه من أبين المحال وأفزع المقال ، ولما وجب هذا عند ذوي التحصيل ثبت أنّ خديجة لم تتزوج غير رسول الله ﷺ ... (١)

في إعتقادي أنّ الرجل مصاب بعقدة نفسية مزمنة أصيب بها من انتحاله النسب العلوي الشريف وأنّ أهله دفعوه عنه ، ورموه بالدعوة ممّا أدى إلى حدوث ضعف داخلي وانهيار نفسي عنده جرّه إلى هذه المعاناة الصعبة .

ولعلّ من نافلة القول أن نشير إلى أنّ زمن أبي القاسم كان زمن ضبط الأنساب العلوية ، إذ ليس من المعقول مع وجود النقابة على الأنساب وهي سلطة مهمّة في العصر العباسي وامتدّت فاعلة في بلاد الإسلام إلى زمن محمّد بن عيسى بن كتان أي القرن الثاني عشر الهجري .

يقول هذا المؤلف : وكان في زمن الخلفاء العباسية يقع ذلك على نقابة الطالبين ، وكان يضاف إلى عهده النظر على جميع أموالهم . قلت : والآن هي كذلك في دولة بني عثمان على أسلوب العباسيين ، والله أعلم .. (٢)

أقول : من غير الممكن أن يشدّ من المجتمع فرد فيدعي الدخول في النسب الشريف في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، مع وجود هذه النقابة .. فيدفع إذا كان منهم دون أن تتدخل النقابة فتقرّه أو تنفيه ، ولو كان أبو القاسم صحيح النسب لما أغفلته النقابة وألقت به إلى ذلّ «الدعوة» تخوض فيه ألسنة الناس ، وإنما وضعت النقابة أساساً : لحفظ أنسابهم من داخل فيها وليس منها ، أو خارج عنها وهو منها ، فيلزمه حفظ الخارج منها كما يلزمه حفظ الداخل فيها ، ليكون النسب محفوظاً على صحّته ، معزواً إلى جهته .

الثاني : أن يميّز بطونهم ومعرفة أنسابهم حتّى لا يخفى عليه منهم بنو أب فيذكره على تمييزاً أنسابهم وعند الماوردي : لا يخفى عليه منهم بنو أب ولا يتداخل نسب في نسب ، ويثبتهم في ديوانه على تمييز أنسابهم .

الثالث : معرفة من ويولد من ذكورهم وإناتهم فيثبته ومعرفة من مات منهم

(١) الإستغاثة ، ص ٨٢ و ٨٣ .

(٢) حدائق الياسمين ، ص ١٦٥ و ١٦٦ تحقيق عباس صباغ ، ط دار الفانس ، أولى ١٤١٢ .

فيذكره ، حتى لا يضيع نسب المولود إن لم يثبت ، ولا يدعى نسب الميت غيره إن لم يذكره .

وهذه حقوق ثلاثة من ضمن اثني عشر حقاً من حقوق النظر تلزم كل من يتولى النقابة على أهله وقد ذكرها القاضي أبو يعلى الفراء وأبو الحسن الماوردي .. (١)
كما ذكر طرفاً من ذلك كل من تعرّض للكتابة في الأحكام السلطانية ومنهم محمد بن عيسى بن كنان في كتابه حدائق الياسمين (٢) .

فكيف يمكن أن يعتزّي إلى النسب الشريف من ليس منهم دون أن يتعرّض لطائفة العقاب وأخفها السخرية منه والطرده ، وهذا ما حصل لأبي القاسم الكوفي ، ومن العجيب أن الرجل لم يحفظ نسبه فتذبذب بين موسى بن الإمام الجواد وهارون عمه ابن الإمام الكاظم عليه السلام ، وقد ذكر مترجمه في صدر كتاب الإستغاثة واسطتين بينه وبين الإمام الجواد عليه السلام ولا يصحّ ذلك لأنّ بين وفاة الإمام الجواد في سنة مائتين وعشرين للهجرة ووفاة أبي القاسم الكوفي في سنة ثلاثمائة واثنين وخمسين هجرية قرناً واثنين وثلاثين سنة فكيف يكون أبوه أحمد حفيداً للإمام الجواد عليه السلام .

وقال الشيخ النوري في أحد الأمرين الذين نبّه عليهما :

الأول : في أنه سيّد رضوي ينتهي نسبه إلى موسى بن محمد الجواد عليه السلام كما صرح به في عيون المعجزات أو موسوي ينتهي نسبه إلى هارون بن الإمام الكاظم عليه السلام كما أشار إليه في الخلاصة (٣) .

وهذا الذي حمل ابن الغضائري على ردّ نسبه ورميه بالدعوة فقد قال : إنّه مدّعي العلوية كذاب غالٍ صاحب بدعة ومقالة ، رأيت له كتباً كثيرة لا يلتفت إليه (٤) .

والمقدّس الأردبيلي لعنه ضمناً في المخمسة بعد أن أثبت انتمائه إليهم فقال : أقول : وهو المخمّس صاحب البدع المحدثه ، وادّعى أنّه من هارون بن الإمام

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء والأحكام السلطانية للماوردي ، ص ٩٠ و ٩٦ .

(٢) حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ، ص ١٦٥ و ١٦٦ .

(٣) مستدرک الوسائل ، ٣/ ٢٢٣ ، ط ١٣٢١ هجرية ، إيران ، تصوير إسماعيليان بدون تاريخ .

(٤) جامع الرواة ، ١/ ٥٥٣ .

الكاظم عليه السلام ومعنى التخميس عند الغلاة لعنهم الله أن سلمان الفارسي والمقداد وعمار وأباذر وعمرو بن أمية الضمري هم الموكّلون بمصالح العالم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١).

وأسأل الفاضل الذي ترجم له في صدر الإستغاثة فقال: أطراه الأعلام في المعاجم المؤلفة في تراجم العلماء والمؤلفين وأثنوا عليه ثناءً جميلاً^(٢)، أكان قول المقدّس الأردبيلي الحجّة في الرجال والذي لا يتّهم على شيء من أمر الدين من هذا الثناء الجميل؟ كلاً بل يا لشقاء من لعنه الأردبيلي رضوان الله عليه، ولكي نكون على صلة بالكوفي أكثر فعلياً أن نلّم بشيء من أخباره، ونطلّع على مذهبه الغالي الذي صار إليه بعد الصيانة والستر والإعتدال.

علي بن أحمد الكوفي ..

اعتزى بالنسب إلى أهل البيت، وتذبذب بين هارون بن الإمام الكاظم عليه السلام وموسى بن الإمام الجواد عليه السلام، وكان لكل من السيّدين ولد يدعى أحمد^(٣). يقول ابن حزم: فولد محمّد صهر المأمون موسى وعلي فولد موسى هذا: علي وأحمد، لهما عقب... وولد هارون بن موسى: هارون بن هارون وأحمد بن هارون^(٤). وأحسبه استغلّ وجود هذين الإسمين في أعقاب السيّدين فأدعى النسبة إليهما لتشابه الإسمين مع اسم أبيه، وقطع مقدم كتابه الإستغاثة بنسبه من موسى بن الإمام الجواد وأوصله بواسطة واحدة فقال: هو السيّد أبو القاسم علي بن أحمد بن موسى بن الإمام الجواد الخ، وهذا لا يصحّ قطعاً لأنّ الإمام الجواد عليه السلام قبض ببغداد في ذي القعدة سنة عشرين ومائتين وله يومئذٍ خمس وعشرون سنة^(٥)، وتوفي الكوفي في جمادى الأولى سنة ٣٥٢^(٦) فكيف يكون بينه وبين موسى واسطة وبينه وبين الإمام واسطتان

(١) الأردبيلي عليه السلام، جامع الرواة، ٥٥٢/١ و٥٥٣، ط انتشارات جهان - طهران.

(٢) الإستغاثة، ص ١.

(٣) راجع ابن حزم، جمهرة النسب، ص ٦١ و٦٤.

(٤) نفسه.

(٥) انظر: الشيخ المفيد، الإرشاد، ٢٧٣/٢، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الأولى ١٤١٣.

(٦) مقدمة الإستغاثة آخر صفحة.

والمدة بينه وبينهما قرن وثلاث وثلاثون سنة؛ ولذلك لم يؤيده على نسبه هذا أحد وكل من عزاه إلى النسب الشريف نسب القول إليه، وأول من أشار إلى ذلك فيما أعلم النجاشي فقال: كان يقول أنه من آل أبي طالب..^(١)

وما رأيت واحداً ممن ترجم له عزاه إلى النسب بطور القطع واليقين ما عدى الميرزا عبدالله أفندي الإصبهاني ومدح كتابه الأخلاق وقال: ولكن يظهر من كتب رجال الأصحاب أنه قد صار في آخر عمره غالباً مجسماً.. وسيأتي بعنوان الشريف أبي القاسم علي بن أحمد إلى آخره.

ثم قال: واعلم أن الأليق حينئذ على قول علماء الرجال أن لا يذكر هذا الرجل إلا في القسم الثاني من كتابنا هذا^(٢) لكن لم يثبت عندي ذلك فلذلك أوردته مرتين، مرة في القسم الثاني، ومرة في هذا المقام من القسم الأول أيضاً.

ولا أهتدي إلى السبب الذي حمل المؤلف على التشكك في أمره ولم يبق أحد من الأوائل أو الأواخر لم ينص على غلوه وانحرافه ويكفي في اثبات ذلك ما قاله سيد علماء الرجال النجاشي فقد قال عنه: غلافي آخر عمره وفسد مذهبه. وقال عن كتابه: «تناقض أحكام المذاهب الفاسدة» تخليط كله.. إلى أن قال: وهذا الرجل تدعى له الغلاة منازل عظيمة^(٣).

على أن الأفندي لم يشر ولا بحرف واحد إلى ردّ نسبه بل أصرّ على كونه سيداً أجل حين ترجمه في باب الكنى من كتابه وقال عنه معاصراً للصدوق وهو مؤلف كتاب البدع المحدثّة المعروف بكتاب الإغاثة في بدع الثلاثة^(٤).

وأحسب أن صلة ما، قامت بينه وبين أبي القاسم الكوفي بعد قرائته كتابه الأخلاق، ألم تره كيف نعته بأنه «حسنة الفوائد» كذا وأحسب أن الكوفي اظهر فيه إعجاز تخليطه إن كان للإخلاط إعجاز ممّا حمل الأفندي على كيل المدح له بالصاع الأوفى، والذي يظهر من مزاح صاحب الرياض أنه: العلامة في العلوم العقلية

(١) انظر: القهپائي، مجمع الرجال، ١٦٤/٤.

(٢) رياض العلماء وهذا الكتاب في عشرة أجزاء للخاصة وخمسة للعامّة.

(٣) القهپائي، مجمع الرجال، ١٦٢/٤ و١٦٣.

(٤) رياض العلماء، ٥٠٢/٥، من تمّ ترجم له مرتين، راجع ج ٣ ص ٣٤٠، والقسم الآخر من الكتاب ليس موجوداً لتطلع على رأيه فيه ولكنّه ترجمه في باب الكنى تحت أبو القاسم الكوفي، راجع ٥٠٢/٥.

والنقلية^(١)، ولبئتنا في القوم أنهم يبذلون محاولات صعبة في سبيل تطعيم عقائدنا بفلسفتهم وأكثرها آراء غير ناضجة، وبعضها إلحادية مترجمة من فلاسفة لا يمتنون إلينا بصلة، ويجعلون هذه الآراء مقياساً في تمييز أقدار الرجال.

ومما يدل على ضئالة شأن الكوفي أن معاصريه وهم كوكبة صالحة من خيرة علماء الشيعة لم يهتموا به ولا اعتنوا بكتبه على كثرتها وتنوعها، فهذا معاصره الشيخ الصدوق عليه السلام لم يشر إليه في كتبه بحرف واحد، ولا روى عنه رواية واحدة، مع أنهما عاشا في زمن واحد ومكان واحد، وبقي الصدوق حياً بعده إلى سنة ٣٨١ حيث لبي نداء ربّه في هذا العام، ومثله فعل الشيخ المفيد عليه السلام، فلم يشر إليه حين ذكر زينب ورقية في المسائل الحاجبية إلا بالمخالف وجعله شاذاً بخلافه^(٢)، وهذا غاية في عدم الإهتمام.

وشاهد آخر على أنه مطرّح من الأسناد مبعد عن الوثاقة أن له مشايخ ولكن ليس له رواة عنه، ومقدم كتابه الإستغاثة وإن عنوان الفصل بقوله: «مشايخه في الرواية والرايون عنه..» إلا أنه لم يستطع أن يتحفنا براو واحد عنه، أجل نقل نصاً معزواً إلى الأندلي في رياض العلماء وفيه: فإنه قد يروي الحسين بن عبد الوهاب في كتابه عيون المعجزات الخ، ولم أعر على هذا النص في الجزءين اللذين ترجم له فيهما؛ الثالث والخامس، ومهما كان أمر الحسين بن عبد الوهاب هذا، فإنه لم يعرف إلا بكتابه عيون المعجزات الذي كتبه تميماً لكتاب الكوفي تثبيت المعجزات، وفيه يروي عن ولده أبي محمد الأديب بثلاث وسائط وهذا يروي عن أبيه أبي القاسم الكوفي، ولك أن ترجع إلى أعيان الشيعة فستجد فيها نصوصاً منقولة عن الرياض تتضمن حديثاً عنه وعنه كتابه^(٣)، ومن هذا الجهة اعتبر من الرواة عنه، ثم لا عبرة برواية ابنه عنه، وأما أبو عمران الكرمانلي^(٤) فلم أعر له على عين ولا أثر.

وقلة الرواة عن الكوفي دليل صارخ على تفاهة شأنه، إذ الدواعي متوفرة على

(١) رياض العلماء، ١٤/١ المقدمة.

(٢) بنات النبي أم ربائيه، ص ٢٢.

(٣) أعيان الشيعة، ٨٣/٦.

(٤) راجع مقدمة الإستغاثة بقلم كاتب فإنه ذكر هؤلاء الثلاثة الرواة عن أبي القاسم الكوفي، وأهمل تعريفهم.

إقبال الرواية عليه من قبيل نسبه وعلمه، لو صحَّ هذا أو ذاك، ولكننا لانجده إلا مطروداً مزرباً به، مبعداً عن حضيرة العلماء، لما يحمل بين جانحين من الشذوذ والإلتواء. قال عنه شيخ الطائفة في الفهرست بعد ذكر ما له من الكتب: ثمَّ خلط وأظهر مذهب المخمَّسة وصنَّف كتباً في الغلو والتخليط وله مقالة تنسب إليه^(١). وهذا يدلُّ على أنه رأس في المخمَّسة، ونقل العلامة في الخلاصة عبارة الطوسي عنه وما قاله النجاشي في كتابه عنه أيضاً.

وأقول أخيراً: يكفي ما تقدّم في كشف حقيقته وأنه لا يعتدُّ به ولا بأرائه وليس غريباً على شخص مظلم، متداعي النفس، يعيش في الإلتواء ويعتمد على المذاهب الباطلة أن يكون رأيه في بنات النبوة على طرف السلب، ويمكن أن نلتمس رأيه هذا في تضايف شخصيته فهو مهزوز الشخصية، مردود النسب إلى أهل البيت، يحمل في نفسه عقداً مزمنة جرى في آرائه واعتقاداته على أساس منها. وأحسب أن منشأ هذه العقدة هو من طموحه إلى أن يحصل على مائة يقف عليها في النسب الشريف، ولما وجد عقبة كنداء وقفت في وجهه وجوبه بالتكذيب والطرْد بل السخرية منه أحياناً عمد إلى تسليط الشذوذ على بعض الفروع الفاضلة من أهل البيت، ولم يجد أو طأ كنفاً ولا أسهل على الإدعاء من أسرة سيّدتنا خديجة عليها السلام فشرع في إيجاد المضايقات لهم فيما يقول وفيما يكتب وسمّاها «مجادلات ومناظرات»^(٢).

ويمكن أن يلتمس نسبه في مكانين عند غير العرب، ولعلّ من المؤيّد لذلك ما هو عليه من التخميس فإنّ أبناء القوميات الأخرى غالباً ما يميلون إلى مثل هذا الإلتجاه، أو أنّه من أبناء الجوّاري اللواتي يلدن الأولاد للأشراف ثمَّ يأنف هؤلاء من نسبتهم إليهم بسبب ما عليه وضع أمهاتهم، وقد ضاعت أنساب كثيرة في هذا المجال، وليس من البعيد أن يكون أبو القاسم علويّاً من هذه القوارير.

وعلى أية حال فإنّ آرائه جلّها منسوب إلى مشاعره تجاه المجتمع وهذه المشاعر هي التي تحجّرت في نفسه واستحالت إلى عقدة نقص مزمنة، وعلى أثرها أنكر نسبة زينب ورقية إلى بنوة النبي، كما أنكر أن يكون علي الأكبر القتيل في الطف

(١) مستدرک الوسائل، ٣/٣٣٢.

(٢) الإستغانة، ص ٨٢.

أكبر بل زعم أنه صغير السن ، قال بعد عرض النزاع بين أولاد الحسين عليه السلام فيمن الأصغر من العليين من ولديه عليه السلام : فمن كان من ولد الحسين الأكبر وأنه هو الباقي بعد أبيه وأنَّ المقتول هو الأصغر منهما وهو قولنا وبه نأخذ وعليه نعول وأنَّ علي بن الحسين الباقي كان في اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام من أبناء الثلاثين وأنَّ ابنه محمداً الباقر كان يومئذ من أبناء خمسة عشرة سنة ، وكان المقتول هو علي بن الحسين الأصغر من أبناء اثنتي عشرة سنة جاهد بين يدي أبيه حتى قتل ، ثم ذكر بعد هذا الكلام قول الزيدية ومن لا يقول بالنص .. وفسده ، وعزى القول بفساده إلى أهل العلم من الإمامية من العلوية وغيرهم من الشيعة^(١) .

تقييم هذه الأقوال

لنا عليها تعقيب لا بد منه في النقاط التالية :

أولاً قسم العلماء كتب الكوفي إلى قسمين : ما ألّفه بعد الإرتفاع أي بعد وقوعه في مذهب الغلو ، واعتبروها ساقطة ، لما فيه من تخليط كثير ، وما ألّفه قبل ذلك وعدّوا منها كتاب الإستغاثة ، لكنّ فحص هذا الكتاب بدقّة يكشف لك عن أنّ الإرتفاع لم يكن ليفارقه وربما بدأ مغالياً ولكنّه كان يتستّر . وفي هذا الكلام بصيص ضوء خافت يدل على ذلك ، لأنّه اعتبر الإمامة لا تكون إلّا للأكبر من الأولاد ونسب هذا القول إلى القائلين بالنص وهو افتراء واضح ، لأنّ بعض الأئمة لم يكونوا كذلك كالإمام الكاظم عليه السلام ، وهذه المقالة هي مقالة الإسماعيلية وبها ردّوا على إمامة الكاظم عليه السلام ، لأنّه أصغر من إسماعيل أخيه ، فالكوفي يقرّر فيما يقول مذهب المغالين والباطنية من غير علم منه أو مع علمه بذلك .

ثانياً : إذا كان مولد الإمام علي بن الحسين عليه السلام سنة ثمان وثلاثين بالمدينة ، ووقعة الطف وقعت في سنة واحد وستين ، فكيف يكون عمره الشريف ثلاثين سنة^(٢) ؟ ومثله يقال في حقّ الباقر عليه السلام : فإذا كان مولده في المدينة سنة سبع

(١) الإستغاثة ، ص ٨٣ و٨٤ .

(٢) الإرشاد ، ١٣٧/٢ و١٥٨ .

وخمسين^(١) فإنّ عمره يوم الطف لا يتجاوز الرابعة ، فكيف يزعم أنّه من أبناء الخامسة عشرة ؟

ثالثاً : إذا صحّ ما زعمه من عمر الإمام الباقر عليه السلام وعمر علي الأكبر الشهيد عليه السلام فما الذي جعل الباقر يتأخّر عن الشهادة ويتقدّم عليه ابن الثانية عشرة ؟ ولو قلنا أنّ الله صانه من أجل الإمامة فما بالنالم نسمع له كلمة واحدة في حلّ أو ترحال عن الواقعة وكان باستطاعته أن يروي لنا تفاصيلها حدثاً حدثاً لأنّه شاهد عيان وهؤلاء رواة الواقعة وأصحاب المقاتل لم يرووا عن الإمام الباقر إلاّ أموراً لا تتعلّق بالحرب بل لا تدلّ على أنّه رآها أو شاهدها أو أنّها وقعت على قرب منه .
وأخيراً نقول : أنّ هذا وأمثاله حملنا على ردّ الكوفي جملة وتفصيلاً ..

كتابه الإستغاثة

والحق يقال : أنّ الكتاب جيّد جدّاً وعلى جانب كبير من الأهميّة ، لولا هنات فيه ، من قبيل قوله في حدّ الخمر ، وأنّ من يخرج النبي من العرب يكفر ، وعن وضع إسماعيل للغة العربيّة وغير ذلك ، وهو في مجموعة صرخة مظلوم في وجه الظالم وسوف تصل إلى كلّ سمع إن أحسن استخدامها ، لكن الكوفي أفسد هذا العمل الجليل بردّ نسب السيّدتين عليهما السلام ، وقد تحمّل وحده كبر هذه البدعة ، ولم تؤثر عن أحد قبله وكلّ من قال بها من بعده فقد حاك على نوله وافتنى أثره .

وأحسب أنّ الله سبحانه ردّ عمله هذا لهذا السبب حيث جنح إلى الغلو وارتفع إلى التخميس فانخفض عند الله لأنّ المعصية بعد الطاعة دليل على ردّ الطاعة ، وبقي على غلوه بل سمّه ارتداداً لا غلواً حتّى هلك في عام ٣٥٢ بالقرب من شيراز في مكان يدعى «كرمي» بقرب الخان والحمام أول ما يدخل من ناحية شيراز ، ذكر ذلك النجاشي في الفهرس ...^(٢)

وقد أثبتت شبهة عن الكتاب أنّه ليس له بل هو من كتب الشيخ ميثم البحراني

(١) نفسه .

(٢) راجع مقدمة الكاتب ، ص ك من كتاب الإستغاثة .

ونسب إلى غيره أيضاً^(١)، ولا يعنينا ذلك بكثير أو قليل، فليكن الكتاب له أو فليكن لغيره، فإنَّ حقايقه الناصعة للأمة بأجمعها، هذا بعد حذف فضوله طبعاً، ونسأل الله أن يلفظ بمؤلفه ويخفف عنه إن كان أهلاً لذلك ..

لا يجوز أتباع الكوفي على مذهبه

فيما سلف كشفنا للقارئ والخطيب حقيقة هذا المبتدع في تاريخ الإسلام ما ليس منه .. وتجلّى أيضاً لهما بأنه أول من نفى ابنتي رسول الله عليهما السلام: زينب ورقية من أبيهما، ولم يسبقه إلى ذلك إلا من نفى الصديقة الطاهرة عليها السلام من إرثها واستحقَّ قول مهيار الديلمي رضي الله عنه:

يا ابنة الراقي إلى السدرة	في لوح السكّاك
لهف نفسي وعلى	مهلك فلتبكي البواكي
قد زوى الله عن الرحمة	زنـديقاً زواك
ونفى عن باباه الو	اسع شيطاناً زواك

وحينئذٍ لا يجوز أتباع الكوفي على مذهبه، وإني لأعجب وأحار حيرة تكاف تخنفتي ممّن قلّده في رأيه وأتبعه على مذهبه الباطل، وأخصّ بالذكر منهم الفاضل السيّد جعفر مرتضى العاملي حفظه الله مع فضله وعلمه وجهاده في سبيل إعلاء كلمة الحقّ، ولا غرو فالجواد يكبو، والحسام ينبو.

مع السيّد العاملي في كتابه «بنات النبي أم ربائيه»

بدأ السيّد كتابه بمسألة عزوف الباحثين عن الخوض في أمور، فلما تطرح على بساط البحث وقلما تعرّض للتحقيق والتمحيص، ثمّ راح يقلّب وجوه الكلام لعلّه يقع على سرّ ذلك ..

وفات سيّدنا الجليل أنّ المسألة التي نحن فيها ليست من مناهج البحث عند علمائنا، لأنّ البحث عن الأنساب الثابتة الصحيحة لم يدخل في نطاق همّهم لسببين: الأول: أنّ ذلك لا موجب له، لأنّ الأصل في كلّ نسب الصّحة، ما لم يكن

(١) راجع الذريعة، مادة استغاثه؛ ومستدرک الوسائل، ٣/٢٢٣.

صارف يصرف عن هذا الأصل .

الثاني : أنّ الأنساب ليست بمنزلة الكتب التي يراد تحقيقها ، حيث لا بدّ من فصل خاص بإثبات نسبتها إلى مؤلفها ليتمّ التحقيق في منهجه ، وليس من اللازم أن يخوض البحث في كلّ ولد ينسب إلى والد ، ولو فعلوا ذلك لسرى الشك في الأنساب جميعاً ، إذ توجد في أكثر الأنساب ثغرات صعبة الردم ، وإذا اتخذنا اختلاف الأقوال ذريعة إلى الشك فما من مسألة من مسائلنا التاريخية أو الإعتقاديّة إلّا وفيها أكثر من قول واحد . أضف إلى ذلك أنّ المسألة مورد البحث ذات شقّين .. شقّ أجمعت الأمة على صحّته ولم يخالجها ريب في أصله ، وشقّ خالفها به واحد من الناس ولم يفصح عن مصدره الذي رجع إليه في هذا الخلاف بل ألقاه إليها إلقاء المسلمات .. مع احتمال أن تكون الدوافع إليه خاصّة وقد أفصح عنها هذا الواحد في عرضه للمسألة حين اعترف بما دار بينه وبين من يهّمه الأمر من جدال ومشادّة ، زائداً أنّ هذا الواحد مجروح عند علمائنا ، وقد مرّ ذلك بصورة وافية .

فنقول لسيّدنا العاملي : بأية حجة مال إلى هذا القول الشاذ وترك الإجماع ورائه ظهريّاً ؟ حتّى الشيخ المفيد لم يسلم من هذه الفتنة وإن بعد زمّته فقد رماه السيّد بثالثة الأثاني وأعني به الإنسياق بدون تبصّر وراء ما شاع واشتهر وإن كان خطأ ، ورماه أيضاً بالغفلة والإتباع واعتذر عنه بعذر غريب لا أراه ينسجم مع ما عليه الشيخ المفيد في تبخّره في دائرة اختصاصه ودقّته في تعيين الحق من مسائل الخلاف بين الشيعة وخصومهم أو الشيعة والشيعة ، فقد قال عنه :

على أننا لانملك الدليل القاطع على أنّه قد أخطأ الصواب ، حتّى في الموارد التي هي من الأخطاء الشائعة ، إذ كان من الممكن أن يكون قد ساق الكلام فيها على سبيل التسليم الفرضي ، والمجاراة في البحث لا من منطلق القناعة والقبول بمضمونها واقعاً^(١) ...

وهذا غريب عن مثل الشيخ المفيد ، أتراه يعلم شيئاً ويظهر خلافه ؟ أم تراه لا يعلم شيئاً ولكنّه يخبط خبط عشواء وراء آراء الرجال بحيث ينفق طاقات من فكره وعقله على مسائل سبق التسليم بها فرضاً على خطأها ثمّ لا يملك استقلاليّة تحول

(١) بنات النبي أم ربابه ، ص ١٩ .

بينها وبين إنفاق عقله على مسائل لا واقع لها؟ إن هذا لا يصح أن يقال في حق أدنى العقلاء فضلاً عن العلماء، على أن السيد والحمد لله شمل بحكمه التعسفي هذا جملة العلماء حين قال: وهذا النوع من التعامل مع القضايا المطروحة شائع ومعروف، ونجده لدى معظم العلماء في طروحاتهم ومحاوراتهم..^(١)

والظاهر أن المسألة عند الشيخ المفيد أثرت من أطراف خاصة على شكل سؤال واستفتاء حول جواز تزويج النبي لمشرك أو لعثمان من بعده، ومن الناس من اتخذها لمعضلة من المعاضل فلا يراها تحل إلا بإنكار نسب السيدات الثلاث عليهن السلام، فجاء جواب الشيخ المفيد بناءً على ما تقدم، فقد قال عليه السلام: الناس مختلفون، فاثبت الشيخ بنوتهم للنبي عليه السلام وجعل المخالف لذلك شاذاً بخلافه ولعله يشير إلى صاحب الإِسْتِغَاثَةِ، ولو كان ذا شأن علمي في زمنه لصرح باسمه وناقشه الحساب ولكنّه لم يعأ به.

أدلة السيد وشواهد..

ركّز السيد في بحثه على اضطراب الروايات واختلافها اختلافاً لا يكاد يجمعها جامع، واستند السيد في إثبات مدّعه على هذا الاختلاف حيث يصعب الجمع بين رواية وأخرى، خذ على سبيل المثال أن الرواة والأخباريين قول واحد على أن زينب عليها السلام زوج أبي العاص كما أن أم كلثوم زوج عثمان بن عفان، ولكن صاحب المجدي في أنساب الطالبين عكس الأمر فقال وهو يتحدث عن بنات النبي عليه السلام: وأم كلثوم خرجت إلى أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وزينب خرجت إلى عثمان أيضاً...^(٢)

وهذا اشتباه لا ريب فيه، ومثله هفوات كثيرة وقع بها الرواة والمؤرخون حتى صار تاريخنا كالبهر المائج الذي لا يستقرّ السابح فيه على حالة، ومهما كانت الحال، فإن ذلك لا يجعل ذريعة إلى إنكار المسلمات أو الشك فيها.. حيث توجد من خلال هذه الروايات المضطربة نقاط ثابتة التفت عليها الأفكار واطمئنّت إليها العقول،

(١) نفسه، ص ٢٠.

(٢) بنات النبي أم ربابه، ص ٢٩ نقلاً عن المجدي في أنساب الطالبين ص ٧.

وأتفقت الكلمة عليها، ويمكن للباحث أن يرسو عليها بأمان واطمئنان، وليس من الأمانة في شيء أن يحيد الإنسان عنها لما اكتنفها من القرائن المتنافرة وإلا أصبح تاريخنا من أقصاه إلى أقصاه في مهبط الشكوك وأعاصير الظنون، إذ ليس حقيقة فيه إلا وهي عرضة للأقوال الكثيرة بخاصة الولادات والوفيات، فلن تجد علماً واحداً من أعلام الأئمة إلا وللمؤرخين في ولادته ووفاته وتفاصيل حياته أكثر من قول واحد، وحينئذ ليس من المعقول أن ننقض وجوده من الأساس، بل علينا أن نلتمس تلك النقطة مورد الإتفاق من حياته، ثم نتعرف عليه من خلالها، وقد لطف الله بنا فحفظ لنا ثوابت كثيرة لم تعبت بها أيدي الدس والتزوير.

وهذا بالضبط يصدق على ما نحن فيه، فإن أولاد النبي ﷺ كثرت بشأنهم الأقوال، وتعددت المذاهب بخاصة الذكور منهم، ولكن في المسألة ثوابت لم أر من تخطأها من العلماء وهي عدد بناته وترتيب ولاداتهن وأسمائهن وزمن وفاتهن، اللهم إلا اختلاف يسير في صغراهن وجل العلماء إن لم يكن كلهم على أنها الصديقة الزهراء عليها السلام وهناك قول شاذ أعرضوا عنه يزعم أنها لم تكن الصغرى وما عدى ذلك حدث اختلاف في أكثر التفاصيل، ونزاع في أزواج الثلاث منهن، وليس من الإنصاف في شيء أن ننفي نسبهن الثابت القطعي من أجل هذا الاختلاف المذكور.

مورد الإتفاق عند المؤرخين

ونحن لكي نوقف القارئ والخطيب على نقطة الإتفاق عند الرواة والأخباريين والمؤرخين والثوابت التي أشرنا إليها لابد من مرور خاطف على نصوص المؤرخين وأن تكرر فيها نصّ فذلك ممّا يقتضيه السياق، لكي يقف القارئ بنفسه على الثابت الذي وقف عنده علماء التاريخ فلم يردّوه ولا شكك به أحد :

١ - يقول الطبري في تاريخه الجزء الثاني ص ٢٨١: فولدت له ولده كلهم إلا إبراهيم: زينب ورقية واتفم كلثوم وفاطمة والقاسم، وبه كان يكتنى عليه السلام، والظاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه عليه السلام.

٢ - وساق الكامل نفس العبارة ما عدا اختلاف بسيط في الجزء الثاني ص ٢٥.

٣ - ونقل عن الواقدي قوله: وفي هذه السنة - التاسعة - ماتت أم كلثوم ابنة

رسول الله ﷺ في شعبان، وغسلتها أسماء بنت عميس، وصفيّة بنت عبدالمطلب، قال: وقيل غسلتها نسوة من الأنصار فيهنّ امرأة يقال لها أم عطية ونزل في قبرها أبو طلحة. راجع الكامل الجزء الثالث ص ١٢٤.

٤- وفي نفس الجزء من الصفحة ١٦١ قال ابن الأثير: فولدت لرسول الله ﷺ ثمانية: القاسم والطيب والطاهر وعبدالله وزينب ورقية وأم كلثوم، وقد كانت هذه الرواية قد مرّت في الجزء الثاني من الكامل ص ٢٠٩.

٥- أيضاً في الكامل الجزء الثالث منه ص ١٠١ وفي ربيع الأول منها السنة الثالثة تزوّج عثمان بن عفّان أم كلثوم بنت النبي ﷺ وبنى بها في جمادي الآخرة.
٦- وفيه أيضاً الجزء الثاني ص ١٩٩: وفيها - سنة تسع - في شعبان توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ.

٧- وقال المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٢٩١: وكلّ أولاده ﷺ من خديجة خلا إبراهيم، ولد له ﷺ القاسم وبه كان يكنّى، وكان أكبر بنيه سنّاً، ورقية وأم كلثوم، وكانتا تحت عتبة وعتية ابني أبي لهب عمّه فطلقاهما لخبر يطول ذكره، فتزوّجها عثمان بن عفّان واحدة بعد واحدة، وزينب وكانت تحت أبي العاص ابن الربيع، وفرّق الإسلام بينهما، ثمّ أسلم فردّها عليه بالنتكاح الأوّل، وهذا موضع خلاف بين أهل العلم في كيفية ردّه عليها السلام لزينب على أبي العاص، وولدت من أبي العاص أمامة وتزوّجها علي بعد موت فاطمة عليها السلام.

وقال في ص ٢٨٨: وفي سنة اثنين من الهجرة توفيت رقية ابنته، وفي سنة ثلاث من الهجرة كان تزويج عثمان بن عفّان بأم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ.
وقال في ص ٢٩٠: وفي سنة ثمان من الهجرة كانت وفاة زينب بنت رسول الله ﷺ، وقيل غير ذلك من التاريخ.

٨- وقال ابن هشام في الجزء الأوّل من السيرة النبوية ص ٢١٤: أولاده ﷺ من خديجة قال ابن إسحاق: فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلّهم إلا إبراهيم: القاسم وبه كان يكنّى ﷺ، والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. ترتيب ولادتهم: قال ابن هشام: أكبر بنيه القاسم، ثمّ الطيب، ثمّ الطاهر وأكبر بناته رقية ثمّ زينب ثمّ أم كلثوم ثمّ فاطمة. قال ابن إسحاق: فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأمّا بناته فكلهنّ أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ، وانظر تحقيق السهيلي

شارح السيرة نفس الصفحة .

٩- وقال الدياربركري في تاريخ الخميس الجزء الأول ص ٢٧٢: وجملة ما اتفق عليه ستة: ابنان القاسم وإبراهيم، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم، ولا يعرف لها اسم وإنما تعرف بكنيتها وفاطمة وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن معه، واختلف فيما سوى هؤلاء، قيل: لم يكن له عليه السلام سواهم، حكاه أبو عمرو والمشهور خلافه .

قال ابن إسحاق: كان له عليه السلام الطاهر والطيب أيضاً فيكون على هذا جملتهم ثمانية أربعة ذكور وأربع إناث .

وقال الزبير بن بكار: كان له غير إبراهيم والقاسم عبدالله مات صغيراً بمكة، ويقال له: الطيب والطاهر ثلاثة أسماء وهو قول أكثر أهل النسب، قاله أبو عمرو، قال الدارقطني وهو الأثبت، وسمي بالطيب والطاهر لأنه ولد بعد النبوة، فيكون على هذا جملتهم سبعة ثلاثة ذكور، وكذا قاله ابن الجوزي في الحداثق، وقيل: عبدالله غير الطيب والطاهر، حكاه الدارقطني وغيره، فعلى هذا تكون جملتهم تسعة؛ خمسة ذكور وأربع إناث، وقيل: كان له عليه السلام الطيب والطاهر ولداً في بطن، والطاهر والمطهر ولداً في بطن، ذكره صاحب الصفوة، فيكونون على هذا أحد عشر، وقيل: ولد له عليه السلام ولد قبل المبعث يقال له عبد المناف، فيكونون على هذا اثني عشر، وهذا القائل يقول: أولاده كلهم سوى هذا ولدوا في الإسلام بعد المبعث .

وقال ابن إسحاق: ولد أولاده كلهم غير إبراهيم قبل الإسلام، وهلك البنون قبل الإسلام وهم يرضعون .

وقد تقدم من قول غيره أن عبدالله ولد بعد النبوة فلذلك سمي بالطيب والطاهر . فيحصل من مجموع الأقوال على ثمانية ذكور؛ اثنان متفق عليهما: القاسم وإبراهيم، وستة مختلف فيهم: عبد مناف، وعبدالله، والطيب والمطيب والطاهر والمطهر، والأصح أنهم ثلاثة ذكور وأربع بنات متفق عليهن وكلهم من خديجة بنت خويلد إلا إبراهيم ...

فأنت ترى أن في هذه الأقوال المتضاربة أقوالاً ثابتة أكدها جميع المؤرخين واعتبروها قطعية لا يجوز فيها النقاش، والحق يقال أن جل الاختلاف وقع في البنين فإذا ما اتخذ ذرية للنبي فينبغي نفي الذكور من بنوته عليه السلام، وحينئذ يكون في المسألة قول واحد وهو أن خديجة لم تلد للنبي إلا فاطمة عليها السلام، وإنما قلنا هذا لأن نتيجة

بحث السيد جعفر العاملي تؤدّي إلى ذلك .

١٠ - وقال مؤلف السيرة الحلبية في الجزء الثالث ص ٣٠٨ :

١١ - وقال البيهقي في دلائل النبوة الجزء الثاني ص ٦٨ : فلبث رسول الله ﷺ

مع خديجة حتى ولدت له بعض بنيه ، وكان منها القاسم وقد زعم بعض أهل العلم أنها ولدت له غلاماً آخر يسمى الطاهر ، وقال بعضهم : ما تعلمها ولدت له غلاماً إلا القاسم ، وولدت له بنات أربعاً : فاطمة ورقية وأمّ كلثوم وزينب .

١٢ - وقال ابن الوردي في تاريخه ج ١ ص ١٣١ : وأولاده الذكور من خديجة :

القاسم ، وبه يكنى ، والطيب والطاهر وعبدالله ماتوا صغاراً ، والأناث أربع : فاطمة زوج علي ، وزينب زوج أبي العاص ، وفرق بينهما ﷺ بالإسلام ثم ردها إليه بالنكاح الأول لما أسلم ، ورقية ، وأمّ كلثوم تزوج بهما عثمان مرتباً .

وساق نفس العبارة أبو الفداء إسماعيل بن علي في تاريخه : المختصر في أخبار

البشر ، في الجزء الأول ص ٢١٦ إلا في قول ابن الوردي : مرتباً ، فإنّ أبا الفداء قال : واحدة بعد أخرى .

١٣ - وقال الذهبي في تاريخ الإسلام السيرة النبوية ص ٦٦ : وأولاده كلّهم من

خديجة سوى إبراهيم ، وهم : القاسم والطيب والطاهر وماتوا صغاراً رضعاً قبل المبعث ، ورقية وزينب وأمّ كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم .

١٤ - وقال الزبير في نسب قريش ص ٢١ : فولد رسول الله ﷺ القاسم وهو

أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبدالله ، ثم أمّ كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، هم هكذا الأول فالأول .

١٥ - وقال ياقوت في المقتضب ص ٢٨ : فولد النبي ﷺ القاسم وعبدالله وهو

الطيب وهو الطاهر ؛ اسم واحد ، لأنه ولد بعد ما أوحى إليه ﷺ ، وكلّ ولده ولد قبل الوحي غير عبدالله ، وفاطمة وزينب وأمّ كلثوم ورقية وأمّهم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وإبراهيم وأمّه مارية القبطية .

١٦ - وقال ابن قتيبة في المعارف ص ٦١ : وولد لرسول الله ﷺ من خديجة

القاسم وبه كان يكنى ، والطاهر والطيب وفاطمة وزينب ورقية وأمّ كلثوم ، ومن مارية القبطية إبراهيم .

١٧ - وأخرج ابن سعد في الطبقات ج ١ ص ١٣٣ عن ابن عباس قال : كان أول من

ولد لرسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة القاسم، وبه كان يكنى، ثم ولد له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام عبدالله فسّمى الطيب والطاهر وأمههم جميعاً خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي.

١٨- وذكر أولاده الثابت الثقة ابن شهر آشوب في المناقب الجزء الأول ص ١٦١

فقال: ولد من خديجة القاسم وعبدالله وهما الطاهر والطيب، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وهي آمنة وفاطمة وهي أم أبيها، ولم يكن له ولد من غيرها إلا إبراهيم من مارية.

١٩- وقال العاصمي المكي في كتابه «سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل

والتوالي» الجزء الأول ص ٤٨٨: جملة ما اتفق عليه ستة؛ ذكران: القاسم وإبراهيم، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم، وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن معه، واختلف فيما سواهن...

وهذا هو مورد الإتفاق الذي تحدّثنا عنه، ولاريب أن سيّدنا العاملي اطّلع عليه

وعرفه حق المعرفة ولكنّه لسبب غامض أخذ على نفسه تحقيق مقالة الكوفي وتأييدها ودعم ما عجز الكوفي نفسه عن دعمه بالأدلة والشواهد.

٢٠- وذكر المقرئ في كتابه «إمتاع الأسماع» الجزء الخامس منه ص ٣٣٣ أبناء

النبي ونقل جانباً من اختلاف العلماء في عدد أسماء الذكور منهم، وكذلك اختلافهم في ولادتهم ووفاتهم حتى إذا جاء على ذكر الأناث قال وكأنّه يقرّر حقيقة لا محيد عنها: ولدت له خديجة: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى والطاهر والطيب، فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن وهاجرن معه..

٢١- وقال الصالح الشامي في سبل الهدى والرشاد الجزء الحادي عشر

ص ١٦: جملة ما اتفق عليه ستة؛ اثنان ذكور: القاسم وإبراهيم، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله تعالى عنهم، وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن معه ﷺ واختلف فيما سواهن؛ فليل لم يولد له ﷺ سواهم، والمشهور خلافه.

٢٢- وذكر المحبّ الطبري في ذخائر العقبى أولاد النبي ﷺ فقال في صفحة

١٥١: الفصل الأول في كنيّتهم ومواليدهم وما اتفق عليه منهم وما اختلف فيه.. وجملة ما اتفق عليه ستة؛ ابنان: القاسم وإبراهيم، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم

وفاطمة، وكلهنّ أدركن الإسلام وهاجرن معه واختلف فيما سوى هؤلاء ...

٢٣- وقال القسطلاني في المواهب اللدنيّة الجزء الرابع صفحة ٣١٣: اعلم أنّ جملة ما اتّفق عليه منهم ستّة: القاسم وإبراهيم، وأربع بنات: زينب ورقية وأمّ كلثوم وفاطمة وكلهنّ أدركن الإسلام وهاجرن معه.

وانظر شرح المواهب للزرقاني ج ٤ ص ٣١٣.

٢٤- وأفاض البلاذري في أنساب الأشراف بذكرهم وذكر أخباراً كثيرة عنهم

وقال: فولدت خديجة القاسم بن رسول الله ﷺ وبه كان يكتنّى ومات وقد مشى وهو ابن سنتين، وولدت أيضاً زينب بنت رسول الله ﷺ، وذكر طرفاً من أخبارها، إلى أن قال: وولدت خديجة لرسول الله ﷺ رقية بنت رسول الله ﷺ وذكر بعد ذلك زواجها من عتبة بن أبي لهب وما تبع ذلك إلى وفاتها إلى أن قال: ولدت خديجة لرسول الله ﷺ أمّ كلثوم وذكر زواجها من معتب أو عتيبة بن أبي لهب وما آل إليه أمرها من زواجها بعثمان حتّى وفاتها وإقبارها إلى أن قال: وولدت خديجة لرسول الله ﷺ فاطمة تزوّجها عليّ بن أبي طالب ﷺ بالمدينة في سنة اثنين، وهكذا راح يسرد أخباراً عنهما وعن أولادهما وأحفادهما سلام الله عليهم أجمعين من الصفحة ٢٣ إلى الصفحة ٣٦.

واعطف على هذه الكتب السالفة الكتب التالية: سير أعلام النبلاء للذهبي، التنبيه والأشراف للمسعودي، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور، والسيرة النبويّة لابن كثير، والبداية له أيضاً، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، والإشتقاق لابن دريد، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، والنسب لابن سلام، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي وغيرها من كتب التاريخ والسيرة من قبيل المنتظم والصفوة لابن الجوزي.

وممّن ذكر أولاد النبيّ مقتصرأً على مورد الإتفاق السيّد هاشم معروف الحسني في كتابه القيم «سيرة المصطفى» ص ٦٤ فقال: وقد أنجبت له ستّة أولاد ما بين ذكر وأنثى: القاسم وبه كان يكتنّى، وزينب ورقية وأمّ كلثوم وعبدالله وفاطمة، وتوفي القاسم بعد أن بلغ سنّاً يمكنه من ركوب الدابة والسير على النجبية على حدّ تعبير الشيخ الغزالي في كتابه «فقه السيرة» ومات عبدالله وهو طفل صغير وكان يلقّب بالطيّب والطاهر ومات سائر بناته في حياته إلاّ فاطمة فإنّها عاشت بعد أبيها خمسة وسبعين

يوماً كما جاء في رواية الكليني وسنة أشهر كما جاء في أحاديث المؤرخين .
هؤلاء جميعاً اختلفوا في أمور ذكروها واتفقوا على أمور، فلا تكاد ترى اختلافاً واحداً فيها، فما بال سيدنا أعرض عنهم جميعاً وعمد إلى كتاب البدء والتاريخ فجعله أول شواهد^(١) وهو كتاب لم يعرف مؤلفه إلى الآن، فهل هو لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي أو للمطهر بن طاهر المقدسي؟؟ أمّا الأول فلا تصحّ نسبته إليه وقد وجد منسوباً في كتاب كشف الظنون حتى أرشد إلى بطلان ذلك «المسيو هوار» ناشره فقد قال: .. لدى مطالعتي كتاب تاريخ الفرس الذي نشره العلامة «زنتبرج» تحقّق لديّ أنّ مؤلّف البدء والتاريخ هو المطهر بن المطهر المقدسي ألفه سنة ٣٥٥ لا أبو زيد البلخي كما ذكره صاحب كشف الظنون في الجزء الثاني ص ٢٣ رقم ١٦٩٣ والغالب أنّ الحاجّ خلفاً اطّلع على النسخة التي بيدنا وكانت دخلت في ملك الصدر الأعظم داماد إبراهيم باشا وكتب عليها وهماً أنّ مصنفها أبو زيد البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ وممّا يؤيد رأبي أنّ ابن النديم صاحب الفهرست لم يذكر هذا الكتاب في جملة مصنّفات أبي زيد البلخي، والأسف أنّنا لا نعلم شيئاً من حال ابن المطهر القدسي سوى من تأليفه هذا...^(٢)
وإذا كان الكتاب مجهول المؤلف، فكيف يوثق بنقله أو يعتمد عليه في مسألة مهمّة كالتي نحن فيها على أنّ الرجل نسب القول الذي اعتمد عليه العاملي إلى فتادة في معرض ذكره الأقوال في المسألة صحيح أنّه بدء به ولكنّ الصحيح أيضاً أنّه ثنى بقول آخر هو مورد إجماع المؤرخين والعلماء، فقد قال بعد ذكر قول فتادة: وفي كتاب ابن إسحاق: أكبر بنيه القاسم ثمّ الطيّب ثمّ الطاهر، وأكبر بناته رقيّة وزينب ثمّ أمّ كلثوم ثمّ فاطمة، قال: فأما أبنائه فهلكوا في الجاهليّة وأمّا بناته فأدركن الإسلام وهاجرن...^(٣)

وفي عبارة البدء والتاريخ لبس واضح ولكن العاملي تجاهله، والذي أدخل اللبس عليها ذكره لبنات النبي بعد ذكره الغلامين المولودين في الإسلام ويمكن أن تكون العبارة بعده مستأنفة بل هي معطوفة على عبد مناف لا الغلامين وحينئذ تستقيم

(١) راجع ص ٣٢ من بنات النبي أم ربائبه لجعفر مرتضى العاملي .

(٢) البيان سركبس، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، ٢٤١/١ .

(٣) البدء والتاريخ، ١٦/٥ .

العبارة وفقاً للرأي السائد، وفي الكلام قرينة تعين على ذلك وهي في قوله بعد كلام قليل: وأما بناته فأدركن الإسلام وهاجرن... ففي قوله «أدركن» قرينة على ولادتهن في الحقبة الجاهلية، إذ لا يقال للمولود في الإسلام أنه أدرك الإسلام إلا أن يكون موجوداً في عصرين، وهكذا الحال مع بنات رسول الله ﷺ، فكيف اتخذ سيدنا العاملي من العبارة المدخولة شاهداً على مدعاه، على أنه ينبغي بصفته باحثاً في مسألة مهمة أن لا يلجأ إلى كتاب مجهول الكاتب ويترك ورائه المصادر المهمة التي عليها معول العلماء، إذ ليس من المعقول أن يغفل هؤلاء جميعاً قول علي بن أحمد الكوفي فلا يتعرض له واحد ولو برده وتفنيد له لو كان معروضاً على ساحة البحث في عصر من العصور، وإلا اعتبر ذلك تواطؤاً منهم وحينئذ لا تبقى لأي قول من أقوالهم أية قيمة تذكر.

وغريبة أخرى من سماحة السيد العاملي أنه جعل قول القسطلاني قولاً للدياربركي أيضاً، أنظر ص ٣٣، والواقع أن هذا الرجل ذكر قول صاحب الصفوة ابن الجوزي كالمتعجب منه حيث قال: وقيل كان له عليه السلام المطيب والمطيب ولدا في بطن والطاهر والمطهر ولدا في بطن، ذكره صاحب الصفوة فيكونون على هذا أحد عشر، وقيل: ولد له عليه السلام ولد قبل المبعث يقال له عبد مناف فيكونون على هذا اثني عشر، وهذا القائل يقول: أولاده كلهم سوى هذا ولدوا في الإسلام بعد المبعث...^(١) فالدياربركي ذكر الأقوال كلها بصيغة التمرير ايذاناً منه بضعفها، فكيف تنسب إليه والحال هذه؟

ومما يثير الدهشة حقاً أن السيد فهم! من عبارة «القسطلاني»: «وكلهم سوى هذا ولدوا في الإسلام بعد المبعث الخ» أنها تتناول الذكور والإناث معاً بلفظ «كلهم» والواقع أنها لا تتناول إلا الذكور، لأنها موصولة بما تقدمها والحديث عنهم... والشاهد على ذلك أن شارحه لم يتعرض عليه لما في كلامه من التهافت.. إذ بينما هو يزعم أن ولادتهم في الإسلام إذا به يذكر ولادة زينب في سنة ثلثين من مولده ورقية سنة ثلاث وثلثين وبعدها أم كلثوم وهكذا، وسكوت الشارح لعلمه أن القسطلاني يقصد الذكور وحدهم دون الإناث، لأنّ الخلاف واقع في عددهم وأسمائهم وتاريخ ولادتهم، أما الإناث فإن العلماء لم يختلفوا فيهنّ إلا اختلافاً لا يكاد يذكر، ولذا سارع الشارح إلى

تبيين قوله: «كلّهم من خديجة» فقال: وفي نسخة كلّهم تغليباً للإناث لفضلهنّ، أو نظراً إلى أنّ أولاد جمع كثرة فلا يضّرّ عوده على الذكور نحو قامت الرجال...^(١)
 وكان من حقّ هذه العبارة أن تذكر في بداية قوله: وكلّهم سوى هذا ولد في الإسلام، لولا أنّها للذكور دون الإناث.
 أتري السيّد حفظه الله جهل هذا؟ أم تراه لبّس على قارئه؟ أم تراه بحث المسألة على عجل ومن غير جدّيّة؟

وجعل السيّد العاملي من شواهد كتاب «نسب قريش» بهذا الإسم وهو لمصعب الزبيري، والسيّد لا يقصده بل غرضه كتاب الزبير بن بكار «جمهرة نسب قريش وأخبارها» وكان عليه أن يوضح ذلك لئلا يلبس الأمر على القارئ، ثمّ الزبير بن بكار الذي جعله من شواهد لا يوثق به فقد كان ممّن يضع الحديث، قاله أحمد بن علي السليمانى وقال عنه مرّة: منكر الحديث^(٢).

وقال ابن حجر: وهذا جرح مردود ولعلّه استنكر اكناره عن الضعفاء مثل محمّد بن الحسن بن زباله وعمر بن أبي بكر المؤملي وعامر بن صالح الزبيري وغيرهم، فإنّ في كتب النسب عن هؤلاء أشياء كثيرة منكورة. وذكر الخطيب روايته عن مالك واعتمد على رواية منقطعة ولم يلحق الزبير السماع من مالك فإنّه مات والزبير صغير...^(٣)

والزبير بن بكار هذا هو الذي برص بدعاء الطالبى، ذكر ذلك الصدوق في كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام»^(٤).

ورجل مثل هذا كيف يوثق بنقله أو يركن إلى قوله ولو فرضنا صدقه في نفسه، أليس قد مرّ أنّه كان يتوسع في أخبار الأنساب بالرواية عن الضعفاء والظاهر أنّه كان على علاقة جيّدة بإبراهيم بن إسحاق الموصلي، راجع ترجمته وهذا وإن لم يكن ذا دخل بجرحه أو تعديله إلا أنّه يفصح عن توسعه في الرواية حتّى حمل إبراهيم على التعريض به.

(١) الزرقاني، شرح المواهب، ٣١٦/٤.

(٢) الذهبي، ميزان الإعتدال، ٦٦/٢؛ وسير أعلام النبلاء، ٣١٤/١٢.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٢٧٠/٣.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ص ٢٤٣.

وغريبة أخرى من غرائب سيدنا في بحثه المقطوع عن بنات النبي ﷺ أن سيرته في نقل الشاهد الإقتصار على ما يريد وحذفه ما عداه وإن كان متصلاً به، ولا يخلو هذا المحذوف إما أن يكون تتمّة لما اقتطع منه أو مؤكداً أو منافياً أو غربياً وكان عليه نقل العبارة برمتها، ليكون القارئ على بصيرة من أمره انظره حين ينقل قول السهيلي: «كلهم ولدوا بعد النبوة» فهذه العبارة جاءت في الحليّة مقارنة لذكر الذكور من أولاد النبي ﷺ ونحن نذكر عبارة الحلبي لتقف على الحقيقة، قال بعد ذكر الإناث المتقدمّ منهنّ والمتأخّر: وبعد البعثة ولد له ﷺ عبدالله ويسمى الطيب والطاهر، وقيل: الطيب والطاهر غير عبدالله المذكور ولدا في بطن واحد قبل البعثة، وقيل: اللذان ولدا في بطن واحد قبل البعثة الطاهر والمطهر، وقيل: ولد له أيضاً قبل البعثة في بطن واحد الطيب والمطيب، وقيل: ولد له قبل البعثة عبد مناف مات هؤلاء قبل البعثة وهم يرضعون، وأما عبدالله الذي ولد له بعد بعثته ﷺ فكان آخر الأولاد من خديجة رضي الله تعالى عنها، وبهذا يظهر التوقف في قول السهيلي ﷺ: كلهم ولدوا بعد النبوة.. (١)

والملاحظ: أن المقصود بقوله «كلهم» الذكور دون الإناث، وعبارة السهيلي تعين على هذا الفهم، قال: أولاده من خديجة وذكر ولده منها ﷺ فذكر البنات وذكر القاسم والطيب وذكر أن البنين هلكوا في الجاهليّة وبعد ذكره بعض الأقوال في أولاد النبي الذكور قال: واختلفوا في الصغرى والكبرى من البنات غير أن أم كلثوم لم تكن الكبرى من البنات ولا فاطمة والأصح في فاطمة أنها أصغر من أم كلثوم (٢).

فأنت ترى أن حديث السهيلي عن البنين دون البنات لأنّ أحداً لم يختلف في عددهنّ ولا أسنانهنّ ما عدى قول شاذ في الصغرى منهنّ هل هي السيّدة أم كلثوم أو رقية أو الصديقة عليهنّ السلام جميعاً، ولما كان هذا هو الاختلاف الوحيد لذلك ذكره والاختلاف الأكبر والأكثر وقع من الرواة وأصحاب التراجم والمؤرخين في البنين، هذا ما بلغه فهمي القاصر والعلم عند الله سبحانه.

(١) السيرة الحليّة، ٣/٣٠٨.

(٢) الروض الأنف، ١/٢١٥.

في التفسير ..

ذكر سماحة السيّد العاملي في نزول سورة المسد ثلاثة أقوالٍ : الأوّل نزولها في حصار الشعب ، الثاني : نزولها في قصة الإنذار الأولى . ثمّ رجّح السيّد الأوّل والدليل الذي ساقه استثناسيٌّ فقد لا يقتنع به غير صاحبه ، والظاهر أنّه استثنسه ليكون شاهداً على إثبات المدعى أي لمجرّد التشبّث به لدعم المطلوب وعليه فإنّ قوله : ومن الواضح أنّ تعرّض قريش لرسول الله ﷺ بالأذى قد كان بعد نزول آية إنذار العشيرة ، وذلك حينما بدأ يذكر آلهتهم ويسفّه أحلامهم^(١) .

غير أنّ هذا الأذى القرشي كما يصحّ وقوعه من قريش بعد الإنذار بمدة طويلة يصحّ كذلك وقوعه بمدة قصيرة فما المانع من حدوث توتر العلاقة بين النبي وبين قريش بعد نزول آية الإنذار مباشرة ، وبخاصة وقد سبقت من النبي مبادهتهم بأمر جديد عليهم مستغرب لديهم من بعثه بدين جديد . أضف إلى ذلك هل من اللازم أن تكون الآية في السورة محاكاة لقول الخبيث أبي لهب «تّبأله» لم لا يكون هو الذي حاكاها بعد أن نزلت فيه وسمعها تتلى على الإسماع .

أمّا القول الثالث فقد رضيه شيخ التفسير الشيعي العلامة الطبرسي رحمه الله .. فقد قال في سبب نزولها سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : .. صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال فقال : يا صباحاه ، فأقبلت إليه قريش فقالوا له : مالك ؟ فقال : رأيتم لو أخبرتكم أنّ العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدّقوني ؟ قالوا : بلى . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك لهذا دعوتنا ، فأنزل الله هذه السورة^(٢) .

وإذا ما ثبت سبب النزول هذا من أنّ السورة نزلت جواباً لقول أبي لهب «تبأ لك» فإنّها قرينة تحكي لنا شديد عداوته للنبي ﷺ وأنّه ما كان ليسكت عنه وهو يدعوهم إلى الدين الجديد بعد أن استنفرهم ..

فقد روى الطبري في تاريخه عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : لمّا نزلت هذه

(١) بنات النبي أم ربابه ، ص ٣٧ .

(٢) مجمع البيان ، ٥٥٩/٥ .

الآية على رسول الله ﷺ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دعاني رسول الله ﷺ فقال لي: يا علي امر الله أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً، وعرفت أنني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمتُ عليه حتى جاءني جبرئيل فقال: يا محمد، إنك إن لاتفعل ما تؤمر به يعدّ بك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأنا عساً من لبن، ثم اجمع لي بني عبدالمطلب حتى أكلهم وأبلغهم ما أمرت به، ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه: أبوطالب وحمزة والعبّاس وأبولهب، فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله ﷺ حذيةً من اللحم فشقّها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال: خذوا بسم الله، فأكل القوم حتى مالهم بشيء حاجة، وما أرى إلا موضع أيديهم، وأيم الله الذي نفس عليّ بيده وإن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم ثم قال: أسق القوم فجئتهم بذلك العسّ، فشربوا منه حتى رووا منه جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبولهب إلى الكلام فقال: لهذّ ما سحركم صاحبكم، ففتقرّ القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ... (١)

وذكر طرفاً من ذلك السيّد هاشم البحراني في تفسير السورة ج ٤ ص ٤١٩ من

البرهان .

فأنت ترى أنّ عمّه أبالهب لعنه الله ما يكاد يغفل عنه حتى يعارضه أشدّ

المعارضة .

الثالث من أسباب النزول التي ذكرها جعفر مرتضى أنّه كان إذا وفد على النبي ﷺ وفد سألوا عمّه عنه وقالوا: أنت أعلم به، فيقول لهم: إنّه ساحر، فيرجعون عنه ولا يلقونه، فاتاه وفد فقال لهم مثل ذلك، فقالوا: لا تصرف حتى نراه، فقال: إنّالم نزل نعالجه من الجنون فتبّاً له، فأخبر النبي ﷺ بذلك فحزن ونزلت السورة (٢).

وهذا الوجه جعله شاهداً على مذهبه، واستظهر من هذه الأقوال ثلاثة أمور:

الأوّل: بعد زمن نزول السورة التي ترتّب عليها طلاق ابنتي النبي عن زمن زواج ابني

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٣١٩/٢ و ٣٢٠.

(٢) بنات النبي وريابته، ص ٣٧، نقلاً عن التفسير الكبير والجامع لأحكام القرآن.

أبي لهب بهما، ممّا يدلّ على أنّهما كانتا عند ابنيه زماناً ليس باليسير فكيف لم يجر دخول بهما كما فعل عثمان؛ ونقول له: وهذا مجرد استبعاد ذوقي، فإنّ علمه بعدم الدخول من عدم حملهما من ابني أبي لهب وإلاّ فمن أين علم ذلك وهذه أمور تتمّ في الخفاء ولا يتعرّض لنقلها الرواة إلاّ في القليل النادر.. والعادة لا تحيل تأخّر الحمل بعد الدخول مدّة قد لا تقتصر عن العقد من الزمان، هذا إذا كان عدم الحمل دليل السيّد على عدم الدخول، اللهمّ إلاّ إذا علم ذلك من وجه آخر لم يفصح به.

ثانياً: صغر سنّهما عن الزواج، فإذا كانت رقيّة قد ولدت عام ثلاث وثلاثين وأمّ كلثوم بعدها بستّة أو أكثر فكيف بلغا سنّاً تؤهّلهما للزواج، وهذا أمر مقبول من أوّل وهلة ولكننا حين نرجح الرأي بأنّ النّبي بنى على السيّد خديجة الكبرى عليها السلام وهو في سنّ العشرين نكون بعدها في فسحة زمنية مقدارها عشرون عاماً وحينئذٍ يكون الإشكال في تاريخ ولادة السيّدتين فمن غير المستبعد أن يكون ضبطه بثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين غير دقيق، ويلزم أن يكون أبعد من ذلك بحيث يكونان صالحين للزواج في تلك الفترة المؤرّخة.

مضافاً إلى ما تقدّم فإنّ على السيّد أن يلاحظ بدقّة صرف كلمة «طلّق» إلى أيّ وجه؟! فإنّها تؤثر على مجرى الحوادث آنذاك، فقد يكون لها معنى آخر وهو فسخ الخطبة كما هو فسخ النّكاح فقد قيل عن السيّد عائشة بأنّها «طلّقت» قبل أن تزفّ إلى النّبي صلى الله عليه وآله من ابن المطعم^(١) وممّا لا شكّ فيه أنّ الرواية هنا لا تقصد من الطلاق الحقيقة الشرعيّة بل فسخ الخطبة كما سبقت الإشارة إليه، وحينئذٍ لا مانع من أن يكون طلاق السيّدتين من ابني أبي لهب هذا المعنى وبه يرتفع إشكال السن ولا أقول ذلك لإثبات زواجهما من ابني أبي لهب بل لردّ الإشكال الذي وجهه السيّد جعفر حول قصور عمرها عن سنّ الزواج.

﴿ إن شأنتك هو الأبتري ﴾ ..

تجد الإضطراب في الروايات كثيراً جدّاً حول أحداث التاريخ الكبرى فمابالك بالأحداث الصغيرة ذات الشأن القليل، بخاصّة إذا تعدّد الرواة في مسألة منها أو

تعرّضت لمزايدات السياسيّة أو المعتقدات، وحينئذٍ لا مندوحة من توقّف الباحث جهداً ووقتاً لعزل السقيم عن الصحيح، والإعتماد على ما صحّ دون سواه، أو طرح الموضوع من رأس لئلا يختلط بالثابت القطعي، هذا إذا لم يمكن الجمع بين أطراف الموضوع مورد الخلاف، أمّا الإهتمام برواية من أجل راوٍ أو كتاب وردت فيه فهذا أمر لا أظنّ سيّدنا العاملي مع جلاله قدره صائراً إليه، ولكنّي احترت في تفسير انحيازه إلى رواية جاءت في مختصر تاريخ دمشق وترك أخوات لها رويت بنفس السياق .. فإلى جانب الرواية التي صدر بها الفصل الثالث من كتابه .. رواية أخرى عن ابن عبّاس تقول: أنّ القاسم ولد بعد زينب عليها السلام، هكذا: ثمّ ولدت له القاسم، ثمّ ولدت له الطاهر، ثمّ ولدت المطهر، ثمّ ولدت الطيّب ثمّ ولدت المطيّب ثمّ ولدت أم كلثوم، ثمّ ولدت فاطمة، وكانت أصغرهم .. (١)

وفيه رواية عن الزهري تجعل الصديقة عليها السلام هي صغراهنّ موافقة للمشهور، والمسئلة اكتفتها أقوال كثيرة مختلفة وصارت تضطرب في الإختلاف والتضاد، وسيّدنا المرتضى العاملي وُفقّ لحشد شواهد مهمّة منها وبنى عليها مذهبه في ردّ نسب بنات النبيّ الثالث وقد استطاع أن يستأنس قول صاحب الإستغاثة الشاذكما يستأنس الوحش النافر.

وهو والحقّ يقال: قد أحسن في ردّ المسلكة التاريخيّة من كون السيّدتين عليهما السلام تزوّج بهما ابنا أبي لهب ومن بعده عثمان لما وضع من الشواهد المانعة من ذلك وهو إن كان قصد من البحث هذه النتيجة فحيّاه الله وبيّاه، أمّا إذا كان الهدف نفي بنوتهنّ من النبيّ صلى الله عليه وآله فإنّ ذلك لا يتمّ له، لأنّه يؤدّي إلى الشك في وجودهنّ من رأس بل تؤدّي إلى الشك في وجود أبناء النبيّ مطلقاً؛ ذكوراً وإناثاً ما عدا سيّدة النساء عليها السلام، حتّى إبراهيم عليه السلام فقد كثرت فيه أقوال الرواة في سنّه ووفاته وولادته بل من الشائنين من نفى كونه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومن الممكن أن يسري الأسلوب الذي اتّخذه السيّد في كتابه إلى أكثر قضايانا التاريخيّة، فما من قضية إلّا وفيها غير قول واحد، فهذه ولادات الأيمّة عليهنّ السلام ووفياتهم وتفاصيل حياتهم، وفيها عشرات الأقوال من مثبتة ونافية، ناهيك بحوادث زمانهم،

وهذه سيدتنا الصديقة عليها السلام ولا يشك في وجودها إلا معتوه أحق قد تعددت الروايات في ولادتها وشهادتها وقبرها والمدة التي عاشتها بعد رسول الله عليه السلام وموضع قبرها وأبنائها وبناتها وحينئذ لا بد من موقف وسط يحفظ عقولنا من أن تكون في رجرة الزليق وذلك أن نعمد إلى المسألة المجمع عليها أو مورد الإتفاق من الأكثر فتأخذ بها ونترك ما عدا ذلك ولم يتعبدنا إليه في غير أصول الدين بأكثر من هذا .

وأرى السيد يعمد إلى الرواة الشاذة الرواية فيدعم بها رأيه من قبيل زواج سيدتنا خديجة عليها السلام فإن رواية شاذة مردودة من العلماء تقول : إن النبي بنى عليها قبل البعثة بعشر سنين أو خمس سنين أو ثلاث سنين^(١) وهذه أقوال لا شك في ضعفها بل تفاهتها ، ذكرها السيد ليوحي إلى القارئ باستحالة ولادة بنت النبي في هذه المدة القصيرة .. وجعل السيد إمكان ولادتهن فيما إذا كان زواج النبي من خديجة بزمن مبكر .. وقد روى المؤرخون هذا الزمن المبكر من قبيل قولهم أن زواج النبي منها كان قبل البعثة بعشرين سنة ، ولكنه سماه شاذاً^(٢) ليسلم له ما يريد .

ماذا عن هجرة أم كلثوم عليها السلام

يقول السيد جعفر مرتضى عفى الله عنه : ومما يزيد الأمر وضوحاً أن أم كلثوم التي يدعى أنها بنت النبي عليه السلام وطلقها ابن أبي لهب في مكة ثم تزوجها عثمان في المدينة بعد الهجرة بعدة سنوات لم نجد لها ذكراً حين الهجرة إلى المدينة ، بل المؤرخون يقتضون على القول : بأن علياً عليه السلام قد حمل معه الفواطم ، وأم أيمن ، وجماعة من ضعفاء المؤمنين ...^(٣)

ونجيب السيد على هذا : ربما كان السكوت عن ذكر هجرتها لعدم اقترانه بحادثة مهمة كما جرى لزینب أختها عليها السلام من ترويع هبار بن الأسود لها ، وطرحها ما في بطنها ، وكانت حاملاً مقرباً ، وقد أهدر النبي دمه حتى لاذ بعثمان فشفع له عند النبي فعفى عنه ، وهناك كثير من النساء لم تذكر لهن هجرة وإن كنّ هاجرن فعلاً لأن

(١) بنات النبي وربائبه ، ص ٧٤ .

(٢) بنات النبي وربائبه ، ص ٧٣ .

(٣) بنات النبي أم ربائبه ، ص ٧٦ .

هجرتهنّ لم تصحب بحوادث، ثمّ ما الذي يمنع أن تكون من الفواطم، ولكنها لم تفرد بالذّكر لأنّ لفظ الفواطم يشملها وهو من باب التغليب، وإفراد أم أيمن بالذّكر لأنّ لفظ الفواطم لا يستوعبها من حيث كونها أجنبيّة عنهنّ، وسواء قلنا بينوّتها للنبي أم نفينا ذلك كما فعل الكوفي ومن تابعه فإنّ وجودها بالمدينة وموتها ووقوف النبي على قبرها ممّا لا يكاد ينكر، فلا بدّ من كونها قد هاجرت، اللهمّ إلاّ بأن نقول بولادتها في المدينة وهذا لا يقول به أحد من النّاس، أو بنفي وجودها أصلاً كما صار إليه الكوفي وأحسب السيّد تابعه على ذلك كما سبقت الإشارة إليه.

زينب كزّة أخرى ..

وأما عن زينب ابنة النّبّاش التي ذكرها السيّد جعفر قائلاً: إنّ البعض يقول: إنّ خديجة قد ولدت للنّبّاش بن زرارة ثلاثة أولاد هم: هند والحريث وزينب... (١)، فنقول: لو صحّت هذه الرواية فماذا يمنع من كونهما زينبين وقد سمّت خديجة ابنتها من النبي بتلك التي ولدتها من غيره إحياءاً لذكرها، لأننا نحسبها توفّيت لانقطاع ذكرها بعد زواج خديجة من النبي عليه السلام وهذا أمير المؤمنين له زينبان الكبرى والصغرى، وهذا أمر شائع في ذلك العصر من تسمية الأولاد باسم واحد، وتمييزهم بلفظ الأكبر والأوسط والأصغر، وهكذا دواليك، هذا من جهة ومن جهة أخرى فينبغي على السيّد أن لا يعتدّ بهذه الرواية لأنها تخالف مذهبه في ردّ زواج سيّدتنا خديجة بغير النبي عليه السلام فهو وإن كان أشار إلى هذا المعنى ولكنه لم يردّ الرواية بل قبل بعضها وردّ البعض الآخر.

رواية الصنعاني ..

وأما رواية الصنعاني عن عمر بن دينار: إنّ حسن بن محمّد بن علي أخبره أنّ أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف وكان زوجاً لبنت خديجة فجيء به للنبي عليه السلام في قدّ فحلّته زينب بنت النبي عليه السلام الخ؛ فكأنّ هذا التّصّير يريد أن يشير إلى أنّ المتحدّث يرى أنّها كانت بنتاً لخديجة على الحقيقة وأمّا

(١) بنات النبي أم ربائبه، ص ٧٨.

نسبتها إلى النبي ﷺ في ذيل كلامه فلعلّه أراد به البنوّة بالتربية (١). فنقول للسيّد حفظه الله: إنّ هذه إحدى العجائب حين تكون نسبة الولد إلى أمّه إيداناً بنفيه من أبيه، وعليه يكون الفاطميّون الذين حكموا نصف العالم الإسلامي زهاء القرنين والنصف ليسوا من علي عليه السلام لأنّ المؤرخين نسبواهم إلى أمهم فاطمة ولو ذهبنا مذهب السيّد الغريب لارتطمنا بذيل الرواية التي نسبت زينب إلى رسول الله وتوجيه السيّد العاملي يكون المراد منها البنوّة بالتربية ما هو إلّا التلاعب بالألفاظ، والحكم على شيء واحد بحكمين متغايرين لمجرد التشهّي، وإني أربا بمقام السيّد العلمي عن مثل هذا..

ماذا في فصله السادس؟!

وفي الفصل السادس من الكتاب صرّح اللبس عن محضه وصرّح السيّد جعفر عن أستاذه الأوّل في مذهبه هذا وهو أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي فقد لخص مزاعمه في الإستغاثة وهي التي بنى عليها قوله في نفى بنات النبي ﷺ، والكوفي أوّل من ابتدع هذا المذهب الشاذ وتابعه عليه جماعة منهم سيّدنا العاملي، والواقع أنّ مسألة نفى بنوّة بنات النبي يرجع إلى جهة واحدة وهي دحض ما أثبتته الخصوم من منقبة لعثمان صيّروه بها ذنورين وهذا إن حَققت مربط الفرس.. وقد أشار السيّد نعمّة الله الجزائري في الأنوار النعمانيّة إلى ذلك في معرض إيضاحه لما ذكره الإمام فخرالدين الرازي من مسائل تفضيل الإمام علي من عداه، فقال الجزائري ﷺ:

وأما قوله - أي قول الرازي - وأما عثمان فهو وإن شاركه في كونه ختناً، إنتهى . أقول - والقول للسيّد نعمّة الله الجزائري -: الأختان اللتان أخذهما عثمان هما رقيّة تزوّجها عتبة بن أبي لهب فطلّقها قبل أن يدخل بهما ولحقهما منه أذى فقال النبي ﷺ: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فتناول الأسد من بين أصحابه وتزوّجها بعده بالمدينة عثمان بن عفّان فولدت له عبدالله ومات صغيراً نقره ديك على عينيه فمرض ومات، وتوفّيت بالمدينة زمن بدر فتخلّف عثمان على دفنها ومنعه ذلك أن يشهد بداراً وقد كان عثمان هاجر إلى الحبشة ومعه رقيّة، والأخرى أم كلثوم تزوّجها

أيضاً عثمان بعد أختها رقية وتوفيت عنده، وقد اختلف العلماء لاختلاف الروايات في أنهما هل هما من بنات النبي ﷺ من خديجة أو أنهما ريبتاه من أحد زوجيها الأولين فإنه أولاً قد تزوجها عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له جارية، ثم تزوجها أبو هالة الأسدي فولدت له هنداً بنت هالة، ثم تزوجها رسول الله ﷺ، وهذا الاختلاف لا أثر له، لأن عثمان في زمن النبي ﷺ قد كان ممن أظهر الإسلام وأبطن التناق وهو ﷺ قد كان مكلفاً بظواهر الأوامر كحالنا نحن أيضاً، وكان يميل إلى مواصلة المنافقين رجاء الإيمان الباطني منهم، مع أنه ﷺ لو أراد الإيمان الواقعي لكان أقل قليل فإن أغلب الصحابة كانوا على التناق لكن كانت نار نفاقهم كامنة في زمنه فلما انتقل إلى جوار ربّه برزت نار نفاقهم لوصيه ورجعوا القهقري، ولذا قال ﷺ: ارتدّ الناس كلّهم بعد النبي ﷺ إلا أربعة: سلمان وأبوذر وعمّار والمقداد، وهذا ممّا لا إشكال فيه.. (١)

نستفيد من هذا النص أن السيّد الجزائري رحمته الله قاطع ببنوة بنات النبي الثلاثة وقد ذكر ذلك مقدّماً على كلامه اللاحق عن عثمان، وأنه عالم بالقول المخالف الشاذّ، وممّا لا ريب فيه أنه مطلع كذلك على حجج أصحابه فما غيرته من مذهبه لضعفها فليس من المعقول أن لا يخفّ رجل معروف بالتحقيق في مسائل المذهب إلى التدقيق في هذه المسألة وسبر غورها لبلوغ الحق منها ونشره على الناس، وقد ظهر للسيّد من أقوال المخالفين أنهم اضطروا إلى هذا المذهب تنزيهاً للنبي من تزويجه بناته إلى المشركين والمنافقين فأرجعهم إلى الصواب بأنّ ذلك لا يقدر في عمل النبي لأنه عامل عثمان على الظاهر كما كان يعامل أكثر أصحابه ممن كانوا على مذهب عثمان، وهذا هو الحقّ في المسألة، لأنّ القوم خافوا من شرّ فوقعوا في أدهى منه وأعظم بليّة من دفع نسب بنات النبي ﷺ.

ويقول جعفر العاملي: وقال ابن شهر آشوب - وهو يتحدث عن أنّ النبي ﷺ قد تزوج خديجة وهي عذراء -: يؤكّد ذلك ما ذكر في كتاب الأنوار والبدع أنّ رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة (٢).

عبارة العاملي توهم أنّ هذا هو قول ابن شهر آشوب خلا أنّنا بالرجوع إليه

(١) الأنوار النعمانية، ٨٠/١.

(٢) بنات النبي أم ربائيه، ص ٨٦.

وجدناه ينقل قول أحمد البلاذري وصاحب الإستغاثة والمرتضى في الشافعي وأبي جعفر في التلخيص، وهذا القول معطوف على قول آخر ذكره في المناقب من أن خديجة كانت عند عتيق بن عائذ المخزومي ثم عند أبي هالة زرارة بن نباش الأسدي^(١)، وكيف يكون هذا قوله أو يؤلف له مذهباً في المسألة وهو القائل بعده: ولد من خديجة القاسم وعبدالله وهما: الطاهر والطيب، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وهي آمنة وفاطمة وهي أم أبيها، ولم يكن له ولد من غيرها إلا إبراهيم من مارية^(٢).

وهل يكون هذا إلا عين التهافت؟ أترى يصير إليه رجل في وزن ابن شهر آشوب؟! والظاهر أن السيد العاملي لم يعثر على هذا القول في الكتب التي ذكرها ابن شهر آشوب وإلا لسارع إلى إثباتها، وليس من الغريب أن يكون مرجعهم ما عدا البلاذري أبا القاسم الكوفي، فإنه الأصل الأصيل لهذا القول الشاذ.

ومن الشواهد التي اعتبرها السيد في دحض القول بزواج خديجة عليها السلام قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم اضطراب المعلومات حول ذلك بخاصة ضبط أسماء زوجها الأول أبي هالة، فهل اسمه النباش بن زرارة أو زرارة بن النباش أو اسمه هنداً ومالك^(٣)؛ وهذا لا يصح دليلاً على نفي وجود أبي هالة فإن له نظائر في التاريخ، فهذا أبو هريرة، قد اختلف الرواة والمؤرخون في اسمه وكنيته واسم أبيه حتى نيفت أقوالهم على الأربعين، وليس معنى ذلك أن لا يكون لشيخ المضيرة وجود يذكر...

وأما ما ادّعاه أبو القاسم الكوفي من غضب نساء قريش عليها وهجرانهنّ إياها لأنها خالفتهم وتزوجت بـتيم أبي طالب فهذا من دسائس الأمويين وكان على السيد العاملي أن ينشط في ردّه، لأنه يصور النبي منبذاً بين قومه لا يرغب فيه أحد، وقد كان واقع الحال بعكس ذلك تماماً، وبالرجوع إلى طلب يد خديجة وحضور عليه قريش ذلك اليوم في دارها وخطبة أبي طالب وقول أبيها أو عمّها عنه ذلك الفحل لا يجدع أنفه دليل على عظيم شرف بني أسد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتاريخ لم يسجل لنا إلا اعتراضاً

(١) راجع المناقب: ١٥٩/١.

(٢) نفسه، ص ١٦١ و ١٦٢.

(٣) بنات النبي أم ربابه، ص ٨٩.

واحداً من أبيها على القول ببقائه حياً يوم ذاك لأن من المؤرخين من ذكر موته في حرب الفجار وحينئذ يكون هذا الإعتراض المزعوم لا أصل له ، وأما قول أبي القاسم الكوفي كيف لم يعيبرها زعماء قريش .. الخ .

فإن هذه أمور هامشية تطفو على سطح الحياة ، لا يعتد بها المؤرخون ، وعدم وجدانها لا يدل على عدم وجودها ، والتاريخ ليس شريط «ويديو» ليسجل كل ما يدور في حياة أهل مكة يومئذ ، وكم من قضيه كبرى أهملها التاريخ ولم يحط بها علماً فما بالك بمثل هذه القضايا السطحية ، وإذا ما تملك أبا القاسم الكوفي وصاحبه العاملي العجب من زواج امرأة من قريش في وزن خديجة من أعرابي بوال على عقبه لا قيمة له ولا شأن كما نعته ، فإننا نعجب من زواج اختها به وهل هما إلا بمنزلة واحدة وإنما زادت خديجة رفعة على بنات قومها ذلك بما حباها الله من فضل اقترانها بسيد الأنبياء عليه السلام ، فكيف سمحت قريش بزواج هذا الأعرابي من هالة أخت خديجة والكوفي وأنصاره يعترفون بذلك .

دليل آخر لجعفر مرتضى العاملي

جعل هذا الفاضل عفى الله عنه من أدلته على نفي صهر عثمان من النبي عليه السلام وكذلك أبو العاص ما روي عن أبي الحمراء قال : قال النبي عليه السلام : يا علي أتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد ولا أنا : أوتيت صهراً مثلي ولم أوت أنا مثلي ، وأوتيت صديقة مثل ابنتي ولم أوت مثلها زوجة ، وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبي مثلهما ولكنكم مني وأنا منكم ^(١) .

ونقول لسيدنا الجليل : الذي نفاه النبي عليه السلام هو أن يكون أحد مثله صهراً له وإن كان له أصهار ليسوا مثله ، فلم ينف مطلق الصهرية بل الموصوفة بصفات النبي عليه السلام ، وهذا صحيح ، وللإمام وغيره الفخر كل الفخر في صهرية النبي عليه السلام فما واحد منهم مشبهاً رسول الله عليه السلام ليساوي النبي علياً في هذه المكرمة ، فالمنفي بقول النبي ليس وجودهم بل صفة خاصة عنهم وهي ما كانت للنبي عليه السلام من الصفات العظيمة وهذا واضح فأين وجه الحجّة فيه ، ولو صح ما ذهب إليه السيد لكان قول النبي هذا مخالفاً

(١) بنات النبي أم ربابه ، ص ٩٩ و ١٠٠ .

لقول آخر سلف منه يثبت لأبي العاص من أصهاره حين قال له أصحابه: كيف نثق بضمّان كافر فقال: إنّه ليفي فلقد صاهرنا وحمدنا مصاهرته... (١)

ولا تخلوا الحال من إثبات ذلك لأبي العاص من قبل النبي إماماً على طريقة اللهو والهزل وذلك لا يجوز على النبي ﷺ، وإماماً على طريقة الجدّ، وهنا لا تخلو الحال من قول ذلك على المجاز وهذا لا يصار إليه من قول النبي إماماً مع القرينة الصارفة، بل لا يختص ذلك بالنبي والقضية عامة في اللغة لا يصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة، ولا قرينة صارفة في قول النبي فلا بدّ من المصير إلى الحقيقة وإلا أفضى بنا القول إلى تكذيب النبي لثبت مزاعم المخمّس أبي القاسم الكوفي الذي لعنه المقدّس الأردبيلي ضمناً وقد مرّ ذلك.

وأما قول ابن عمر لمن سأله: ما قولك في علي وعثمان؟! قال: أمّا عثمان فكان الله عفى عنه وأمّا أنتم فكرهتم أن تعفو عنه، وأمّا علي فابن عمّ رسول الله ﷺ وأشار بيده فقال: هذا بيته حين ترون (٢) وهذا لا شاهد فيه على المدعى، لأنّ الزهراء عليها السلام ليست سائر بناته، فهي سيّدة نساء العالمين، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها، وهي بعضة رسول الله، وحينئذٍ يكون الزواج فيها مدعاةً للفخر والمباهاة بخلاف غيرها من أخواتها عليهنّ السلام ممّن لسن في منزلتها، وابن عمر يقصد هذا طبعاً، بل صرح بذلك في أحاديث أخرى رويت عنه، وأمّا إشارته إلى بيت الإمام فإنّما يعني بها تلکم المنقبة التي عمل الخصوم المستحيل في صرفها عن الإمام عليه السلام وهي سدّ الأبواب الشارعة في المسجد إلاّ بابه فقد تركه النبي ﷺ على حاله وسدّ الأبواب حتّى باب عمّه العباس، وقال: ما أنا فعلته بل الله فعله، وقال للإمام عليه السلام: وأنت يجوز لك ما يجوز لي فأنزله منزلة نفسه وكفى بها شرفاً.

وقد أبت الأئمة على هذا الباب مفتوحاً تخليداً للمنقبة، حتّى كان زمن الوليد بن عبد الملك فأمر بهدمه وهدم ما جاوره من البيوت حتّى بلغ الهدم در عثمان، فأبقى عليها، وفتح فيها باباً شارعاً على المسجد، وقلّب المنقبة إليه ويأبى الله ذلك والمؤمنون. وهذا أيّ حديث سدّ الأبواب هو المستفاد من إشارة ابن عمر لأنّه من رواية

(١) الكوفي، الإستغانة، ص ٧٨.

(٢) بنات النبي أم ربابه، ص ١٠٤ و ١٠٥.

هذا الحديث الصحيح المشهور الذي قارب أن يكون متواتراً..
وأما قول الإمام عليه السلام لعثمان: «وقد نلت من صهره ما لم ينالا..»^(١) فإن الإمام أثبت
لعثمان كونه صهراً للنبي ونقول فيها ما قلناه في نظيرتها من قول النبي ﷺ وقد تقدم
سلفاً.

ولنا كلمة نقولها بعد ذلك لرفع اللبس:

أولاً: أرجو أن لا يلتبس على الأذهان أننا نريد بما نقول نصرة عثمان وإثبات
صهرته، كلاً فإن ذلك لا يهمنا قيد شعره، وإنما الغرض من ذلك إثبات بنوة بنات النبي
الثلاث، ومن لوازم ذلك إثبات صهرية «نعثل».

ثانياً: إقرار السيد العاملي بصحة هذه الجملة كيف لا يقرها أو ينكرها وهي
واردة في نهج البلاغة.

ثالثاً: لو صح ما قاله من جواز إطلاق الصهر على زوج الربيبة وأن الإمام تجوز
في إطلاق الصهر على عثمان فإن ذلك قبل نزول آية ﴿أدعوهم لآبائهم﴾ وقد كانت
بعض الأعراف القديمة لم ينزل نسخ لها، أما بعد نزول الآية التي نسخت أعراف
الجاهلية في التبني وردت زيد وغيره من المتبنيين إلى آبائهم الحقيقيين فلا يجوز أن
يقال لمن تبناه النبي أنه ابن النبي ولا لمن صاهره أنه صهره بالتبني، وينبغي أن يكون
أبو العاص وعثمان صهري أبي هالة، على مذهب العاملي لا صهري النبي، والسيد
يعلم هذا ولكنه أراد بحسن نيته المعهودة شد أزرابي القاسم الكوفي، أثابه الله وعفى
عنه على حسن نيته..

القول الفصل ..

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن
أمهاتكم وما جعل أديعياكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي
السبيل﴾ أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين
ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً

(١) بنات النبي أم ربابه، ص ١١٥؛ نقلاً عن نهج البلاغة، ٨٥/٢ وغيره من الكتب.

رحيماً ﴿١﴾ هذان الآيتان لم يتركا لمتقوّل على بنات رسول الله ﷺ عذراً ، وأمّاطا اللثام عن وجه الحقّ ، فبدا واضحا لأهل البصائر ، واستمع إلى ما ذكره شيخ الطائفة في التبيان ثمّ ردّه إلى العقل الذي خلص من أسار الهوى يتجلّى لك الحقّ مثل فلق الصبح ، قال الشيخ الطوسي رحمه الله : قال قتادة ومجاهد وابن زيد : نزلت في زيد بن حارثة ، فإنّه كان يدعى ابن رسول الله والأدعياء جمع دعي ، وهو الذي تبناه الإنسان ويبيّن الله تعالى أنّ ذلك ليس بابن علي الحقيقة ولذلك قال في آية أخرى : ﴿ وما كان محمداً أباً أحدٍ من رجالكم ﴾ (٢) وقوله : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعني أنّ قولكم في الدعي أنّه ابن الرجل قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له عند الله ، ثمّ قال : ﴿ والله يقول الحقّ ﴾ فيما بيّنه ﴿ وهو مهدي السبيل ﴾ يعني طريق الحقّ الذي يفضي بكم إلى الثواب ، ثمّ أمر المكلفين بأن يدعو «الأدعياء» «لآبائهم» الذين ولدوهم وينسبونهم إليهم أو إلى من ولدوا على فراشهم «أقسط» أي فإنّ ذلك أعدل عند الله وأقسط بمعنى أسدل ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم ﴾ ولا تعرفوهم بأعيانهم فهم ﴿ إخوانكم في الدين ﴾ أي في الملة فادعوهم بذلك ﴿ ومواليكم ﴾ أي بنو عمّكم أو لكم ولاهم إذا كنتم أعتقتموهم من رقّ ثمّ قال : ﴿ وليس عليكم جناح ﴾ أي حرج ﴿ فيما أخطأتم به ﴾ فنسبتموه إلى من انتمى إليه وإنّ الله لا يؤاخذكم به ﴿ ولكن ما تعمّدت قلوبكم ﴾ فقصدتموه من ذلك وأردتموه ، هو الذي تؤاخذون به وموضع «ما» جرّ تقديره ﴿ ولكن في ما تعمّدت قلوبكم ﴾ ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ يغفر لكم ما لم تتعمّدوا من ذلك ويستره عليكم ويرحمكم بترك مؤاخذتكم به (٣).

وهذا التفسير الذي يتضمّن أسباب النزول يغني عن الجدل في المسألة ، والمهم فيها والذي ينتظم وما نحن به بنسق أنّ الله حرّم نسبة الدعي إلى من تبناه إلّا خطأ والخطأ لا يؤاخذ الله به ولكن يؤاخذ بما تعمّدت القلوب ، وهنا يتجلّى الحقّ إلّا لمن تعمّد العمى ، وذلك لو لم يكن رسول الله ﷺ أباً حقيقياً للسيدات الطاهرات زينب وزقبة وأمّ كلثوم عليهنّ السلام لما جاز لأحد من المسلمين حتّى للنبي أن ينسبهنّ

(١) الأحزاب : ٤ - ٥ .

(٢) الأحزاب : ٤٠ .

(٣) الطوسي ، التبيان ، ٨ / ٢٨٥ .

بالبنوة إليه فيحرم أن يقال لزينب ومثلها أختها بنت رسول الله ، بل تجب نسبتهم إلى أبيهن الحقيقي أبي هالة أو غيره ، فكيف غفل السيد العاملي عن هذه الآية سامحه الله وراح يقتضي أثر الكوفي صاحب النفس المريضة المطرود من النسب الشريف مدعي النسبة إلى آل النبي عليه السلام كذباً وافتراءً ، وهو ما ترك في نفسه عقدة عميقة وعلى أساس منها ألقى هذه الشبهة في أفواه الناس ، ولقد فتشنا في كتب الأنساب عن هذا الدّعي فلم ننع له على عين ولا أثر بخاصه كتاب منتقلة العلوية تأليف الشريف إبراهيم بن ناصر بن طباطبا من أعلام القرن الخامس الهجري ، وقد ذكر أبناء الإمام الكاظم وأحفاده الذين استوطنوا الكوفة وشيراز فلم يكن منهم علي بن أحمد هذا ولا أبوه ولا جدّه ؛ فهو دعي ما في ذلك ريب ، وليس عجيباً ممّن هو على شاكلته أن يأتي بالعجائب ولكنّ العجيب هو سيّدنا العلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي الذي تابعه على مذهبه الشاذّ وراح يحزّر له المقالات ويشقّق له الحجج ويلتمس له الأدلّة والشواهد .

وأخر كلمة أقولها للسيّد وأنا كألذي يحمل قبلة موقوتة في يده عالماً بأنّ أوّل من تنسفه هو حاملها أقول له : إن كان السيّد جاداً فيما يقول عن زينب وأمّ كلثوم ورقية أنّهنّ بنات هالة أخت خديجة وأبوهنّ فلان فهل يفتي بإباحة زواج النبيّ منهنّ أو يرى ذلك حوباً وإثماً كبيراً إن لم يكن كفراً وفسوقاً ؟ اللهمّ إني أعوذ بك من هذا القول وأبرء إليك ممّن قاله أو يقوله وأستغفر الله لي وللسيّد جعفر مرتضى العاملي وإلى الله المشتكى من حكاية الجهّال .

التخلص

لا غرو فليست أوّل مصيبة تدخل على أهل بيت النبيّ وإن كانت أقساها وأمّضاها إبلاماً تلك التي تنفي الولد من أبيه وتنسبه إلى من هو دونه قدرأ ومنزلة ، ولقد ذاق أهل البيت جرّاء هذا وأمثاله من استهانة الأمة بهم حين أبعدتهم عن مشرفهم رسول الله عليه السلام ما هو معروف مسطور في حنايا التاريخ ، فهؤلاء أهل البيت يُقتلون ويؤسّرون في كربلاء وهم ذرّيّة محمّد المصطفى .

كأنما الزهراء ليست لهم أمّا ولا الجدّ ابوالقاسم
مثل مصاييح الذّجيّ ضرّجت وجوههم في الرهج القاتم...

المجلس الثاني عشر ولادة النور

«.. في ولادة الزهراء وزفافها ﷺ ..»

الشيخ حسين الطرفي

باركتها الخضراء والغبراء
الله فهي الإنسيّة الحوراء
بشّرته الملائك الأماناء
عليها فنسلها الأوصياء
نة قلب الرّسول والزهراء
أمّها في حديثها ما تشاء
سمنها فيه من قريرش نساء
ولدت من تغار منها ذكاء
بيوم ترجى له الشفعاء
وتوّالت بها له الآلاء
الله في وحيه له لا الماء
قرّ عيناً بها وطاب اللقاء
من بين من نمت حواء
فأضحى لها السنا والسناء
فاستوت عندها وحلّ الحياء
وبكفّ الزهراء ذاك اللّواء
فهي لولاه والنّبي سواء
إذ به جلّ عن سواه غناء
فازت لديها بنظرة أهواء
ويبكي سليمان ذاك الرّداء
تعالى ومن عداها وراء

هي إنسيّة نمتها السماء
تحفة الله أهديت لرسول
بشّر المصطفى خديجة لَمّا
أنّها النّسلة الّتي بارك الله
إنّها البضعة البتول وريحا
حدّثت أمّها جنيناً فألفت
وجدت سلوة بها عن جفاء
وتباهت بها خديجة إذ قد
ولدت من بها لشيعتها البشري
وتلقّى بها النّبي عطاءً
فهي الكوثر الذي قال عنه
يالبشري الكمال إذ لقيته
إذ بها تمّ أربعاً عدد الكمل
وتباهى بها الجمال بقسميه
وتبارت غرّ الخصال إليها
حشدت عندها ورقّ لواها
وتغذّت بالوحي يأتي أباه
واستعاضت بالله عمّا سواه
وازدردت عينها الحطام فما
أيضيرالزهراء أن ترتدي الصوف
وهي من أسبق العباد إلى الله

واصطفى الله للبتول علياً
فهي لولاه لم تعد ذات كفو
زوجت في السما وأزلفت
ثم زُفّت إلى عليّ على
ونساء النبي يهزجن بشراً
أدخلت بيتها وقد كلّلتها
مذها بالدعاء للطهر للصهر
فاستجاب الله الدعاء فأنمى
وبطه وصهره وبسبطيه

وارتضاها له فتمّ العلاء
حيث ما في الوري لها أكفاء
الجنة فالحور للبتول إماء
الشهباء تمشي بجنبها أسماء
والهتافات مدحة وثناء
من أبيها كفّ له بيضاء
لينمى البنين هذا البناء
الحسنين السبطين ذاك الدعاء
وبالطهر تكشف الأواء

حسين الطرفي / ٢٠ جمادي الثانية ١٤١٥ هـ

«.. ولادة النور ..»

على خلاف ما اعتاده الكتاب والمؤلفون إذ يلتمسون ولادة أعلام من بطون التاريخ، ذهبتم إلى التمس ولادة سيّدتي الصديقة الطاهرة من كتاب الله فوجدتها في آية النور، فهلمّ إلى الآية الشريفة نثير من معانيها ما تتسع له فهمنا وتطيقه حلومنا، فإنّ أفضل علم اكتسب ما كان أقرب إلى الله وما قرّب من الله، ولن نجد ذلك متحقّقاً إلا في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال الله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكلّ شيء عليم﴾^(١).

في الآية الكريمة إشارات عميقة ورموز بديعة تجلّت بأنوارها الغامرة على قلوب العارفين من علماء ومفسّرين، وتناقلها الرواة من حوزة آل محمّد المحصّنة بالعصمة، وتفجّرت من مصدر النور في البيت النبوي الطاهر، ولا بدّ من تقسيم معنى الآية الكريمة إلى فصلين:

الأول : يحتوي على التفسير الظاهر وهو ما أتضح لأذهان العامة من الأمة وأنس به السواد الأعظم منها وكان الغرض منه كشف مغالقات الآية اللفظية لعامة المسلمين ليحصل لهم الأُنس بكتاب ربهم وينالوا نصيبهم من المعنى الذي تدركه عقولهم وتميل إليه أذواقهم .

الثاني : يتصمّن التفسير الخاصّ ، ولا أسمّيه الباطن لئلا ينصرف معناه إلى جهة الغلو حيث ألف النَّاس سماع ذلك من أهله .

التفسير الظاهر

ولمّا كان الغرض من التفسير الظاهر هو كشف معاني الألفاظ وتوضيح دلالات الجمل فلا مانع من أيّ كتاب أخذناه ، وأعجبني التفسير المسمّى «زبدة التفسير» من فتح القدير للدكتور محمّد سليمان الأشقر فأثرت القارئ به ، قال :

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ : النور في اللّغة الضياء وهو الذي يبيّن الأشياء بانعكاسه عنها ودخوله العيون ، والله جعل السّماوات والأرض منيرتين باستقامة أحوال أهلها ، وكمال تدبيره عزّ وجلّ لمن فيها .

﴿ مثل نوره ﴾ : نوره الفاض عنده والذي جعله في قلب عبده المؤمن .

﴿ كمشكاة ﴾ : وهي الكوة في الحائط غير النافذة ، فهي أجمع الضوء الذي يكون

فيها من مصباح أو غيره .

﴿ فيها مصباح ﴾ : وهو السراج ..

﴿ المصباح في زجاجة ﴾ ؛ أي فهو لذلك أشدّ إضاءةً .

﴿ الزجاج كآنها كوكب دري ﴾ : أي يشابه الدرّ . وقال الضحّاك : الكوكب الدرّي

الزهره .

﴿ يوقد ﴾ : المصباح .

﴿ من ﴾ : زيت .

﴿ شجرة مباركة زيتونة ﴾ : قيل : ومن بركتها أنّ ثمرتها إدام ودهان ودباغ

ووقود ، وليس فيها شيء إلا وفيها منفعة .

﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ : لا يسترها عن الشّمس شيء في حال شروقها ولا في

حال غروبها .

﴿ يكاد زيتها يُضيء ولولم تمسه نار ﴾ : لصفاته وجودته . عن ابن عباس قال :
كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على
ضوءه كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم
ازداد هدى على هدى ونوراً على نور .

﴿ نورٌ على نور ﴾ : المصباح نور والزجاجة نور وانعكاسه من المشكاة نور .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ : أي يبيّن الأشياء بأشباهها ونظائرها أي تقريباً

لها إلى الأفهام... (١)

وقال العلامة المحقق السيّد عبدالله شبّر: قيل : المشكاة صدر محمد عليه السلام
والزجاجة قلبه والمصباح النبوة والشجرة المباركة شجرة النبوة وهي لا غربيّة ، لا
نصرانيّة قبلتها المشرق ولا يهوديّة ، قبلتها المغرب تكاد محاسن محمد عليه السلام يظهر
قبل أن يوحى إبراهيم ، لا شريقيّة إليه - كذا - وعن الرضا عليه السلام : نحن المشكاة فيها
المصباح محمد يهدي الله لولايتنا من أحب ، وقيل : المصباح القرآن والزجاجة قلب
المؤمن والمشكاة فمه والشجرة والوحي تكاد حجج القرآن تتضح وإن لم يقرأ ، نور
تزداد به سائر الحجج... (٢)

وبهذا نكتفي عن إيراد المزيد من تفسير الظاهر وإن تخلّله شيء ربّما كان
الأصلح الحاقه بالتفسير الخاص ولكنه لا اختصاره ضارح الأول لذلك ألحقناه به .

التفسير الخاص

للخالق الحكيم سبحانه التصرف في الخلق بما تراه مشيئته وتقتضيه إرادته ،
وما تقتضيه الحكمة الربانيّة في الخلق - وإن أسرارها لمرتكزة على تلكم الحكمة - أن
يعطي الأكمل والأشرف شرف السبق على من عداه ممّن هو دونه في الكمال إلى
الظهور في عرصة الوجود ، وكان سيّد البشر محمداً عليه السلام أشرف المخلوقات وأعلاها
وأكمل الموجودات وأدناها من ساحة قدس الخالق سبحانه ، لذلك قدّمه في الوجود
على الأنبياء ومن دونهم ، جاء في الحديث عن جابر مرفوعاً : يا جابر إن الله قد خلق

(١) زبدة التفسير ، ص ٤٦٣ .

(٢) السيّد عبدالله شبّر ، تفسير القرآن الكريم ، ص ٣٤٢ .

قبل الأشياء نور نبيك من نوره^(١).

وقال القسطلاني: إنه لما تعلقت إرادة الحق بإيجاد خلقه وتقدير رزقه أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية في الحضرة الأحمدية ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها على صورة حكمه كما سبق في سابق إرادته وعلمه، ثم أعلمه بنبوته، وبشره برسالته، وهذا وآدم لم يكن إلا كما قال: بين الروح والجسد، ثم انبجست منه عيون الأرواح.

قال الشارح الزرقاني: أي خالصها كأرواح الأنبياء، وبهذا الإعتبار سمى المصطفى بنور الأنوار وبأبي الأرواح ثم إنه آخر كل كامل إذ لا يخلق الله بعده مثله^(٢).
عن العرياض بن سارية عن النبي ﷺ قال: إني عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، رواه أحمد والبيهقي والحاكم وقال: صحيح الإسناد^(٣).

ألا بابي من كان ملكاً وسيداً	وآدم بين الطين والماء واقف
فذاك الرسول الأبطحي محمّد	له في العلام مجدّ تليد وطارف
أتى بزمان السعد في آخر المدى	وكان له في كل عصر مواقف
أتى لانكسار الدهر يجبر صدعه	فأثنت عليه ألسن وعوارف
إذا رام أمراً لا يكون خلافه	وليس لذاك الأمر في الكون صارف

وجاء هذا الشعر على مقتضى الحديث الصحيح عن العرياض وقد مرّ. وعن ميسرة الضبي قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: وآدم بين الروح والجسد. هذا لفظ رواية الإمام أحمد، ورواه البخاري في تاريخه وأبو نعيم في الحلية وصححه الحاكم.. وفي مضمون هذا الحديث أحاديث جمّة تؤكد تقدمه ﷺ على الخلائق وتصدّره عالم الوجود، وانبثاق الحقائق من حقيقته المحمدية من قبيل كنت أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً. وقد أجاب الغزالي عن إشكال مقدّر في قوله «خلقاً» بأن المراد بالخلق هنا التقدير دون الإيجاد، ولكنّ السبكي أجاب بجواب أوقع في النفس وأقرب إلى الرضا والقبول منه حيث قال: «...إنه قد جاء أنّ الله خلق الأرواح قبل

(١) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، ٥٤/١.

(٢) المواهب اللدنية، ٥٣/١ و٥٤، وشرحه وتصرفنا بكلام الشارح بالتقديم والتأخير.

(٣) نفسه، ص ٦١ و٦٢.

الأجساد فقد تكون الإشارة بقوله: كنت نبياً إلى روحه الشريفة، أو إلى حقيقة من الحقائق، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها ومن أمده الله بنور إلهي، ثم إن تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء فحقيقة النبي ﷺ من حيث خلق آدم آتاه الله ذلك الوصف بأن يكون خلقها متهيئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت، فصار نبياً وكتب اسمه على العرش، وأخبر عنه بالرسالة، ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده، فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتّصف بها وأصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية وإنما يتأخر البعث والتبليغ. وكل ما له من جهة الله ومن جهة أهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيه وكذلك استنبأه وإتيانه الكتاب والحكم والنبوة وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ (١).

بدء الخلقة النبوية وتمثلها في الطينة الشريفة

لمّا أراد الله تعالى أن يخلق محمّداً ﷺ أمر جبرئيل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها. قال: فهبط جبرئيل في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيع الأعلى فقبض قبضة رسول الله ﷺ من موضع قبره الشريف، وهي بيضاء منير، فعجنت بماء التنسيم في معين أنهار الجنة حتى صارت كالدرّة البيضاء لها شعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي وفي السماوات والأرض والجبال والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق سيّدنا محمّداً وفضله قبل أن تعرف آدم عليه الصّلاة والسّلام (٢).

وكون طينته الشريفة من موضع قبره ينبغي التوقّف في قبوله، وقد وردت روايات عدّة في هذا الشأن، منها الرواية التالية التي أسندها ابن الجوزي عن كعب الأحبار: لمّا أراد الله عزّ وجلّ أن يخلق محمّداً ﷺ فعجنت بماء التنسيم ثمّ غمست في أنهار الجنة وطيف بها في السماوات والأرض فعرفت الملائكة محمّداً وفضله قبل

(١) المواهب اللدنية، ٧٣/١ و٧٤.

(٢) المواهب اللدنية، ٨٢/١.

أن تعرف آدم ﷺ... (١)

لم توضع هذه الرواية من أجل النبي بل لرفع مستوى أبي بكر وعمر بجعلهما من طينة منها رسول الله ﷺ .

عن يزيد الجريري قال : سمعت ابن سيرين يقول : لو حلفت حلفت صادقاً بآراً غير شاكٍّ ولا مستثن أن الله تعالى ما خلق نبيّه ﷺ ولا أبابكر ولا عمر إلا من طينة واحدة ثم زدّهم إلى تلك الطينة ..

ولسنا بصد مناقشة هذا المذهب لسقوطه ، ولكننا نقول لهم على كل حال : ينبغي أن يكون رسول الله ﷺ وأبوه عبدالله من طينتين لأنهما دفنا في أرضين نائيتين ، كما ينبغي أن يكون ابنه إبراهيم ليس من طينته أيضاً ومثله يقال في سيّدة النساء التي قال فيها النبي : بضعة مني ، وبناءً على هذا تكون رواية الرواية السالفة تكذيباً للنبي ، ولعل كعب الأخبار قصد منها ذلك ، وهي تصادم رواية ابن عباس حبر الأمة ﷺ فإنه قال : أصل طينة رسول الله ﷺ من سرّة الأرض بمكّة ، فقال بعض العلماء : هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض إلا درّة المصطفى محمد ﷺ ومن موضع الكعبة دحيت الأرض ، فصار رسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين ، والكائنات تبع له ، وقيل : لذلك سُمّي أمياً لأن مكّة أم القرى ودرّته أم الخليقة .

فإن قلت : تربة الشخص مدفنه (٢) فكان مقتضى هذا أن يكون مدفنه عليه الصلاة والسلام بمكّة حيث كانت تربته منها .

فقد أجاب عنه صاحب عوارف المعارف أفاض الله علينا من عوارفه وتعطف علينا بعواطفه بأنه قيل : إن الماء لما تموج رمى بالزبد إلى النواحي فوقت جوهره النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة فكان ﷺ مكياً مدنياً حينه إلى مكّة وتربته بالمدينة (٣) .

وفي المولد الشريف لابن طغريك : يروى أنه لما خلق الله آدم ألهمه أن قال : يا

(١) وفاء الوفاء ، ٣٢/١ .

(٢) بناءً على ما أخرجه الحاكم في مستدركه قال : مرّ النبي ﷺ عند قبر فقال : قبر من هذا؟ فقالوا : فلان الحبشي يا رسول الله . فقال : لا إله إلا الله سبق من أرضه وسمائه إلى التربة التي منها خلق .. راجع

السمهودي ، وفاء الوفاء ، ٣٢/١ .

(٣) المواهب اللدنيّه ، ١/٨٤ و ٨٥ .

رَبِّ لَمْ كَتَبْتَنِي أَبَا مُحَمَّدٍ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَرَأَى نُورَ مُحَمَّدٍ عليه السلام فِي سَرَادِقِ الْعَرْشِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا هَذَا النُّورُ؟ قَالَ: هَذَا نُورُ نَبِيِّي مِنْ ذَرَّتِكَ اسْمُهُ فِي السَّمَاءِ أَحْمَدُ وَفِي الْأَرْضِ مُحَمَّدٌ، لَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ وَلَا خَلَقْتُ سَمَاءاً وَلَا أَرْضاً^(١).

ويشهد لهذا ما رواه الحاكم في صحيحه أَنَّ آدَمَ عليه السلام رَأَى اسْمَ مُحَمَّدٍ مَكْتُوباً عَلَى الْعَرْشِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: لَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ، وَاللَّهُ دَرَّ مِنْ قَالَ:

وَأَثَابَ شَمَلَ الْأَنْسِ مَحْكَمَةَ السَّدَى	وَكَانَ لَدَى الْفَرْدُوسِ فِي زَمَنِ الصَّبَا
يَزِيدُ عَلَى الْأَنْوَارِ فِي الضُّوْءِ وَالْهَدَى	يَشَاهِدُ فِي عَدَنِ ضِيَاءاً مَشْعُشاً
جَنُودَ السَّمَاءِ تَعَشَوْا إِلَيْهِ تَرَدُّدَا	فَقَالَ إِلَهِي مَا الضِّيَاءُ الَّذِي أَرَى
وَأَفْضَلَ مِنْ فِي الْخَيْرِ رَاحٍ أَوْ اغْتَدَى	فَقَالَ بَنِي خَيْرٍ مِنْ وَطْئِ الثَّرَى
وَالْبَسْتَهُ قَبْلَ النَّبِيِّينَ سُوْدَا	تَخَيَّرْتَهُ مِنْ قَبْلِ خَلْقِكَ سَيِّدَا
مِطَاعاً إِذَا مَا الْغَيْرِ حَادٍ وَحَيْدَا	وَأَعَدَدْتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَافِعاً
وَيَدْخُلُهُ جَنَاتُ عَدَنِ مَوْحَدَا	فَيَشْفَعُ فِي إِنْقَادِ كُلِّ مَوْحَدَا
وَلَكُنْتُ أَحَبَّيْتُ مِنْهَا مُحَمَّدَاً	وَإِنَّ لَهُ اسْمَاءَ سَمِّيْتَهُ بِهَا
تَكُونُ عَلَى غَسْلِ الْخَطِيئَةِ مَسْعَدَا	فَقَالَ إِلَهِي أَمِنَ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ
خَصَصْتَ بِهَا دُونَ الْخَلِيقَةِ أَحْمَدَا	بِحَرَمَةِ هَذَا الْإِسْمِ وَالزَّلْفَةِ الَّتِي
عَدُواً لِعَيْنَا جَارٍ فِي الْقَبْصِ وَاعْتَدَى	أَقْلَنِي عَثَارِي يَا إِلَهِي فَإِنَّ لِي
جِنَايَةَ مَا أَخْطَاهُ لَا مَتَعَمَدَا ^(٢)	فَتَابَ عَلَيْهِ رَبُّهُ وَحَمَاهُ مِنْ

فذلکة من المؤلف

قد يكبر على البعض أن يخلق الوجود كله من أجل الواحد، ويؤدّي به ذلك إلى ردّ الحديث ويترتب على ذلك مضاعفات كثيرة في الاعتقاد، والحديث وإن لم يكن من قسم الصحيح سنداً أو متناً فإن شهرته تقوم بتصحيحه، كما أنّ عليه شواهد كثيرة من أقوال أئمة أهل البيت عليهم السلام وعلمائهم، والحديث لا بدّ من فهمه، وقد تجلّى لي

(١) المواهب اللدنية، ٨٦/١.

(٢) المواهب اللدنية، ٨٧/١ و٨٨.

جانب من ذلك وهو: أن الله تعالى خلق الأرض وأودع فيها أسرار الخلق وحشدها بأطياب الحياة وفجرها بكل ما لذ وطاب من النعم، مضافاً إلى جعلها قابلة للإعمار، سهلة مطواعة، وخلف إنساناً على ظهرها وملاً نفسه بالقابليات الحياتية وفوض إليه أمر خلافته ليصنع منها جنّة تضارع في سلامها وأمنها جنّة عدن.

وليس بدعاً أن يكون مبتداء خلقه منمها وأن تكون مسقطاً لرأس أبيه من أجل ذلك، فقد فتح الإنسان الأول عينه على الخير البعيد عن الشر غير الممزوج فيه، ليصفها لأولاده فيصنعون من الحياة على كرتهم مثلما هي عليه في موطنهم الأول، ثم يصفها الكابر للصاغر وهكذا، وهذا إن حَققت هو الهدف الأسمى من الخلق الذي أرادها الله سبحانه أن تجري على شاكلته وتسير وفقاً لقواعده ومثالياته.

ولكننا نرى الحياة جرت على خلاف هذه السنن حتى استحالت إلى غابة كبيرة تغطّي الكرة الأرضية من جهاتها الأربع وأصبح تنازع البقاء فيها سائداً حتى راح الإنسان الناشد للحياة المثلى والباحث وراءها والساعي إلى تحقيقها، يتسائل هذا التسائل المرعب: أمن أجل هذا خلق الله الحياة؟! فبئست هي من غاية وكان الأحرى أن لا يخلقها لئلا تؤدي إلى ما وصلت إليه من الكوارث، وارتفع الإنسان بشكّه إلى خالقها وجوداً وصفات، ولكن الله بفضلته ورحمته أذخر للإنسان رصيذاً كبيراً غالباً وجعل علاج ذلك الوضع الشاذ الذي اتخذته الأرض بفعل أبنائها على يديه وتحقق الهدف الأسمى بسببه وهو إن لم يتحقق ذلك في القريب العاجل فإن تحققه حتمي لا ريب فيه ..

ذلك الرصيد المنظور هو محمد وأهل بيته عليهم السلام ومن ثم أنزل على النبي خيرة الشرايع وخيرة الكتب وأودع فيها القوانين المحكمة التي تتكفل للبشرية بتحقيق الهدف السامي الذي من أجله خلقت وبسببه أوجدت، وأحاط الشريعة والكتاب بظروف حية فاعلة في بقائهما على قيد الحياة وإن طال الزمن ومن هذه الظروف الموجودة في ذاتيتهما كونهما قابلين للتطبيق في كل زمان ومكان ولكل إنسان ومنها وجود جذوة تتقد بالقوة منها لتفجر فيهما طاقات الحياة من أجل البقاء ويتحقق ذلك في أمرين مهمين وهما عقول العلماء وثورات الشهداء وتمدّد هذه الثورات بالوهج الساطع الثورة الحسينية القائدة، ويبقى محمد وأهله بيته عليهم السلام ومثلهما العلياء الموحى بها فاعلة في الزمن إلى أن تنهياً البشرية حضارياً لقبول الهدف الأسمى الذي خلقت من

أجله فهي تشده وانحصر تحقيق هذا الهدف بمحمد وأهل بيته عليهم السلام وسوف تكون رجعتهم من أجله، لهذا أشارت الأحاديث الكثيرة إلى أن الوجود كله خلق من أجلهم نظراً إلى هذا السبب الذي ذكرناه، فليس فيه أمرٌ غير معقول أو مخالفاً للعقول، فعلى من توقّف في قبول الأحاديث المذكورة أن يرجع إلى مثل هذا التأويل ليعرف بعض الأسرار فيها.

نور النبي ونور بضعته ونور أهل بيته واحد

ولمّا كانت الصديقة الطاهرة بضعة من أبيها فإنّ جميع ما ذكرنا ممّا مرّ على القارئ الكريم يشملها ويحتوي على معناها وهي معنيّة ومقصودة به كأبيها، وكذلك الأئمة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله... قد يفسّر التور في قوله تعالى: ﴿مثل نوره﴾ بالأئمة الطاهرين الإثنى عشر من آل محمد صلى الله عليه وآله فإنّهم نور الله في بلاده وعباده وحجّته في سمائه وأرضه مثلهم كمشكاة فيها مصباح.

روى عبد الله بن جندب: كتبت إلى أبي الحسن الرضا أسأله عن تفسير قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ فكتب إليّ الجواب: أمّا بعد؛ فإنّ محمدًا كان نور الله في خلقه فلمّا قبض كُنّا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام وما من فئة تضلّ مائة وتهدي مائة إلّا ونحن نعرف سائقها وقائدها وناعقها، وإنّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق، وإنّ شيعتنا مكتوبون بأسمائهم وأسامي آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا، ويدخلون مدخلنا، نحن الآخذون بحجزة نبينا ونبينا أخذ بحجزة ربّه، والحجزة التور وشيعتنا آخذون بحجرتنا، من فارقتنا هلك ومن تبعنا نجى، والجاحد ولايتنا كافر ومتّبعا ومتّبِع أولياءنا مؤمن، لا يحبّنا كافر، ولا يبغضنا مؤمن، ومن مات وهو يحبّنا كان حقاً على الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا، وهدى لمن اهتدى بنا، ومن لم يكن منّا فليس من الإسلام في شيء، بنا فتح الله وبنّا يختم وبنّا أمنكم الله من الغرق في بحركم ومن الخسف في برّكم، مثلنا في كتاب الله؛ ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾؛ ﴿المصباح﴾ محمد رسول الله ﴿في زجاجة﴾ من عنصره الظاهر ﴿كأنّها كوكب دريّ يوقد من شجرة مباركة﴾ إبراهيميّة ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ لا مدعية ولا منكرة ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ القرآن ﴿نور على نور﴾

إمام بعد إمام ، النور علي ﴿ يهدي الله ﴾ لولايته من أحب ، حقّ على الله أن يبعث ولياً مشرقاً وجهه منيراً برهانه ظاهرة عند الله حجّته ، حقّ على الله أن يجعل ولينا مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا ، فشهدائنا لهم فضل على الشهداء بعشر درجات ، ولشهاد شيعتنا أفضل من كلّ شهيد من غيرنا بتسع درجات ، نحن أفرط الأنبياء وأبناء الأوصياء ، ونحن المخصوصون بكتاب الله وأولى الناس برسول الله ، ونحن الذين شرع الله لنا من دينه ما وصّى به نوحاً ووصّى إبراهيم بنيه ويعقوب ﴿ يا بني إنّ الله اصطفى لكم الدين ﴾ قد علمنا وبلغنا ما علمنا واستودعنا فنحن ورثة أولي العزم من الرسل والأنبياء ﴿ أن أقيموا الدين ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون ﴾ ، وإن كبر على المشركين ما تدعوهم إليه من ولاية أمير المؤمنين ينفعكم الله في حياتكم وفي قبوركم وفي محياكم وعند الصراط وعند الميزان وعند دخولكم الجنان وقد بعثت إليك بكتاب فيه هدىّ ونور وشفاء لما في الصدور^(١).

رجع إلى نور النبي ﷺ

قال صاحب الرقّ المنشور: نور القمر آخر ظهورات نور نبينا ﷺ ومنتهى تطوّراته ونسبته إلى أصل التور بدوّ الأطوار أقلّ من نسبة القطرة إلى الأبحر السبعة وبه تقوم المواقيت والشهور وانتظم أمور العالم لقوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ﴾ فكيف بأصل التور الذي خلق من بعض أشعّاته ولمعاته عرش الرّحمن الذي هو سور العالم ومنتهاه ومنبع الفيوض الإلهية ومصدر الأثار الرحمانية الواصلة إلى إجراء العالم فصّح القول بكونهم قوام ملك الوجود على وجه الحقيقة ..

توجيه النسبة ..

وتوجيه النسبة التي ذكرنا أنّ القمر أحد المستنيرات من الشمس وهي جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، والعرش جزء من أشعة نور نبينا ﷺ ، ففي حديث في خلفة نوره رواه الشيخ

(١) الرقّ المنشور ولوامع الظهور في تفسير آية التور ، اللعة السابعة والعشرون ، ص ٣٣٣ و ٣٣٤ ؛ تفسير

الطوسي قال لعَمَّه العَبَّاس : فلمَّا اراد الله أن ينشئ الصنعة فتق نوري وخلق منه العرش فالعرش من نوري ونوري من نور الله ، وهذه الإضافة للتشريف كبيت الله ، و النور مخلوق له تعالى وهو الصادر الأول والوجود الأشرف الذي له أطوار في الأنوار والأرواح والأشباح .

وكون العرش من نوره صلوات الله عليه وآله بحسب المادة ممَّا استفاضت به الأخبار، إنَّما الكلام في صورته النوعية التي امتاز بها عن الأجسام العلوية ، وقد استند الشيخ أحمد القليوبي في كتابه «النوادر» إلى رواية أنه من ياقوتة حمراء وقيل خضراء ونقل في صفة العرش عن وهب : خلق الله العرش قبل الكرسي بألفي عام ، وخلق له ثلاثمائة برج ، بين كلَّ برجين ثلاثمائة عام ، وطول كلِّ برج ألف عام ، وبينهما ملائكة كالإنس والجنّ يستغفرون لعصاة أمة محمد صلى الله عليه وآله .

وقال النسفي : خلق للعرش ثلاثمائة وستون قائمة ، كلُّ قائمة قدر الدنيا ، وفي رواية طول كلِّ قائمة اثناعشر ألف عام ، وبين كلِّ قائمتين سبعون ألف مدينة ، في كلِّ مدينة سبعون ألف قصر ، في كلِّ قصر سبعون ألف صنف من الملائكة ، وليس لطوه ولا لعرضه منتهى ...

أقول -والقول لصاحب الرق المنشور :- أي منتهى يعرفه الخلق بالإنتهاء إليه ، لأنَّ العالم متناه لتناهي الأبعاد كما أثبتته برهان اللمّ ، ويكسى في كلِّ يوم سبعون ألف ثوب من النور لا يقدر أحد أن ينظر إليه وهو كالبقعة على العالم ، وفي دوائره قناديل معلّقة لا يعلم عددها إلا الله ، وفيه تماثيل جميع المخلوقات من حيوان وغيره .

أقول -ولا زال القول له :- يقرب من هذا ما ذكره الشيخ الأجل البهائي عليه السلام في مفتاح الفلاح عند تأويل ما ورد في الدعاء : يا من أظهر الجميل وستر القبيح عن الصادق عليه السلام أنه قال : ما من مؤمن إلا وله مثال في العرش فإذا اشتغل في الركوع أو السجود ونحوهما فعل مثاله مثل فعله ، فعند ذلك تراه الملائكة فيصلون ويستغفرون له ، وإذا اشتغل العبد بمعصية أرحى الله تعالى على مثاله سترًا لئلا تطلع الملائكة عليها فهذا تأويل يا من أظهر الجميل ...^(١)

فهذا العرش وما فيه من عجيب الخلقه وبديع الصنعة وتناهي الأمثلة في اللطف

(١) الرقّ المنشور، اللمعة الثامنة، ص ١١١ و ١١٢ .

والدقة مخلوق من نوره، وبما أن نور بضعته قيس من ذلك التور وهو مماثل لما اقتبس منه وكلّ متماثلين حكمهما واحد فإنّ ما نسب إلى الأصل فهو منسوب إلى الفرع بالتبع.

نور الصديقة ﷺ

وعبر الله تعالى عن فاطمة الزهراء صلوات الله عليها بالمشكاة تارة كما ذكرناه وتارة بالكوكب الدرّي كما روى علي بن إبراهيم عن صالح بن سهل الهمداني قال: سمعت أبا عبد الله يقول في قوله الله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ الآية المشكاة فاطمة ﴿فيها مصباح﴾ الحسن المصباح، الحسين في زجاجة، ﴿الزجاجة كأنها كوكب درّي﴾ كأنّ فاطمة كوكب درّي بين نساء أهل الأرض، ﴿توقد من شجرة مباركة﴾ إبراهيم ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ يعني لا يهودية ولا نصرانية ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ يكاد العلم يتفجّر منها ﴿ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ إمام منها بعد إمام ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ إلى الأئمة من يشاء يدخله في نور ولايتهم مخلصاً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس والله بكلّ شيء عليم﴾ (١).

ما يتجلّى من توحد نورهم وكونه الأصل في وجود العالم

قد يتناول هذه الحقيقة المصرّح بها في سنّة المعصومين من آل النبي فيلسوف حادّ الذهن مرّ على الحوار، يستخرج الحقائق من أعماق الأسرار، بصبر ونفس طويل، كالفائض تحت الأمواج بحثاً عن اللؤلؤ، وربّما يخطئ الهدف، وأحياناً يصيبه بتوفيق وتسديد، ولا أرى موجباً لخوض غمار العقول بحثاً عن الحقائق في أسرار آل محمّد ﷺ ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، كما يكفيننا ضوء بنير للسالك دربه في عالم الأسرار، يغنيه عن التماس الشمس أو انتظارها حتّى تشرق في راتعة النهار، ولكي نجيب عن السؤال الذي عنواناً به الفصل بيسر واختصار ووضوح، علينا بالرجوع إلى كتاب الله العزيز، فقد قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .. ويكمن السرّ العجيب في هذه الرحمة واليك بيانها: لمّا بنى الله الوجود كلّه على

(١) الرقّ المنشور، اللمعة ٢٦ ص ٣٢٥؛ وتفسير فرات الكوفي، ص ٢٨٢ تحقيق محمّد الكاظم، ط طهران

هذه الرحمة التي قسمها النبي في واحد من أحاديثه الكريمة إلى مائة درجة رحمة وقال: وضع منها درجة في الأرض بها تعطف الأمهات على أولادها وأذخر لعباده تسعاً وتسعين يوم القيامة^(١).

أقول: وجعل نبيّه ﷺ رحمة تحيط بالعالمين بما فيها العرش والكرسي وسائر الموجودات العلوية والسفلية، فقد كانت الرحمة فيه سابقة لجميع الرحمات متقدّمة عليها في علم الله لاكتقدّم المادّي على نظيره بل كتقدّم المشيئات الربانيّة وإرادات الخلق بعضها على بعض في الإمكان والزمان، وليس من قسم الممتنع تقدّم إرادة ربانيّة على مثلها كتقدّم إرادة خلق السّماء والأرض على إرادة خلق الماء، وإرادة خلق الملك على الإنسان، وإرادة خلق الأب على الولد، والسبب على المسبّب، وهكذا من ثمّ ندرك معنى كون نور النبي وأهل بيته الأصيل في خلق العالم؛ أي من حيث كونهم رحمة للعالمين وإرادتها في جودهم متقدّمة على إرادتها في سائر الموجودات الأخرى بما فيها العرش، هذا ما تجلّى لي فهمه أو ما اتّسع له عقلي الكليل، والله أعلم.

وإني والحمد لله حصلت القناعة لي بالأحاديث المحرّرة في هذا الكتاب وأنّ الكثير منها صحيح سنداً ومتناً، وسمّ هذه القناعة كقناعة العجوز بدليل المغزل حين سئلت عن الدليل على وجود الله فأجابت: مغزلي إن تركته من غير حركة بقي ساكناً حتّى تديره يدي، فمن يدير هذا الوجود كلّهُ؟ إنّه الخالق سبحانه، ويكفي العجوز أنّها آمنت برّبها وازدادت هدئاً بدليلها ثمّ لا عليها أن لا تكون بمنزلة سقراط أو أفلاطون أو المعلم الأول أو الثاني، وما أحبّ البساطة في كلّ شيء إلى النفس وما أقربها إلى القلب حتّى في عرض الدين والمذهب، فما يمنعنا من اعتمادها كركن أساسي في عرض مسائلنا الدينيّة والمذهبيّة إلى النّاس.

بدو وجود الزهراء عليها السلام

قال العلماء من أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام: إنّها كانت نوراً مخلوقاً من نور

(١) الحديث مشهور ولا يحضرني الآن مصدره، وقد رويته بالمعنى فقد أكون أسقطت بعض ألفاظ أو غيرتها، والعلم عند الله سبحانه.

رسول الله ﷺ المخلوق من نور العظمة ، وخلق من نور فاطمة السماوات والأرض - ويقال في هذه المسألة ما قيل فيما سبقها من مسألة نور النبي وأن خلق الأكوان منه ربما يكون بالنظر إلى الرحمة المودعة في ذاته التي رحم الله بها العالمين ، وأنها محيطة بالوجود كله علوية وسفلية ، وأنها الأتم والأكمل ومنها تستمد كل رحمة توجد في كل الوجود ..

يقول صاحب الرق المنشور: كما قال النبي لعمة العباس في حديث طويل وقد ذكرناه بتمامه في اللمعة التاسعة قال : ثم فتق نور ابنتي فاطمة فخلق منه السماوات والأرض ؛ فالسماوات والأرض من نور ابنتي ، ونور ابنتي فاطمة من نور الله عز وجل ، وابنتي فاطمة أفضل من السماوات والأرض ، وساق الحديث إلى أن قال ﷺ : ثم أمر الله الظلمات أن تمرّ السحاب الظلم فاطلمت السماوات على الملائكة فضجت الملائكة بالتسبيح والتقدس وقالت : إلهنا وسيدنا منذ خلقتنا وعزفتنا هذه الأشباح لم نر بؤساً فبحق هذه الأشباح إلا ما كشفت عنا هذه الظلمة ، فأخرج الله من نور فاطمة فتاديل فعلقها في بطنان العرش فأزهرت السماوات والأرض ثم أشرقت بنورها فلأجل ذلك سميت الزهراء ، فقالت الملائكة : إلهنا وسيدنا لمن هذا النور الزاهر الذي أشرقت به السماوات والأرض ؟ فأوحى الله إليها : هذا نور اخترعته من نور جلالي لأمتي فاطمة بنت حبيبي وزوجة وليي وأخي نبوي وأبي حججي على عبادي ، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد جعلت ثواب تسبيحكم وتقديسكم لهذه المرأة وشيعتها ومحبيها إلى يوم القيامة ، جعلنا الله من شيعتها ومحبيها إنشاء الله .

تكوّن نورها في تفاحة الجنة

في البحار بأسانيد ينتهي إلى فاطمة ؑ قالت : يا أبا الحسن ، إن الله تعالى خلق نوري وكان يسبح الله جلّ جلاله ثم أودعه بشجرة من شجر الجنة فأضاءت ، فلمّا دخل أبي الجنة أوحى الله إليه إلهاماً أن اقتطف الثمرة من تلك الشجرة وأدراها في لهواتك ففعل فأودعني : الله صلب أبي ثم أودعني خديجة بنت خويلد فوضعتني وأنا من ذلك النور ، أعلم ما كان وما يكون وما لم يكن ، يا أبا الحسن المؤمن ينظر بنور الله (١) .

(١) المازندراني، الكوكب الدرّي، ص ١٢٢، ط المطبعة الحيدريّة، ١٣٧٤ هـ ق .

وَحَقَّ لِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام أَنْ يَفْخِرَ بِهَذِهِ الْقَرِينَةِ الَّتِي لَمْ يَحْظَ بِمِثْلِهَا أَحَدٌ؛ لَا فِي الْأَوَّلِينَ وَلَا فِي الْآخِرِينَ.

يروى عنه في خبر طويل أنه قال: أنا زوج البتول سيّدة نساء العالمين، فاطمة التّقيّة المهدّبة الزكيّة حبيبة حبيب الله وخيرة بناته وسلالته... (١)

اعتزال خديجة مبالغاً بالعناية بهذا النور

في البحار: بينا رسول الله جالس بالأبطح ومعه عمّار بن ياسر وأبو بكر وعمر وعليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبدالمطلب وحمزة بن عبدالمطلب إذ هبط عليه جبرئيل في صورته العظمى قد نشر أجنحته حتّى أخذت من المشرق والمغرب فناداه: يا محمّد العليّ الأعلى يقرء عليك السّلام وهو يأمرُك أن تعتزل عن خديجة أربعين يوماً، فشقّ ذلك على النّبي عليه السلام وكان لها محبباً وبها وامقاً، فبعث إلى خديجة بعمّار بن ياسر وقال: قل لها يا خديجة لا تظنّي أنّ انقطاعي عنك هجرة ولا قلبي ولكن ربّي عزّوجلّ أمرني بذلك لينفذ أمره فلا تظنّي يا خديجة إلّا خيراً، فإنّ الله عزّوجلّ ليباهي بك كرام ملائكته كلّ يوم مراراً فإذا جنّك اللّيل فأجيفي الباب وخذي مضجعك من فراشك فإنّي في منزل فاطمة بنت أسد.

فجعلت خديجة كلّ يوم تحزن مراراً لفقد رسول الله، فأقام النّبي أربعين يوماً يصوم النّهار ويقولم اللّيل حتّى إذا كان في آخر أيامه تلك يعني فلما كان في كمال الأربعين هبط جبرئيل فقال: يا محمّد العليّ الأعلى يقرء عليك السّلام وهو يأمرُك أن تتأهّب لتحيّته وتحفته. قال النّبي: يا جبرئيل وما تحفته ربّ العالمين؟ وما تحيته؟ قال: لا أعلم. قال: فبينما النّبي كذلك إذ هبط ميكائيل ومعه طبق مغطّى بمنديل سندس أو استبرق، فوضعه بين يدي النّبي، وأقبل جبرئيل على النّبي وقال: يا محمّد يأمرُك ربّك أن تجعل اللّيلة إفطارك على هذا الطّعام.

فقال عليّ بن أبي طالب: كان النّبي إذا أراد أن يفطر أمرني أن أفتح الباب لمن يريد الإفطار، فلما كان في تلك اللّيلة أقعدني النّبي على باب المنزل وقال: يا بن أبي طالب إنّه طعام محرّم إلّا عليّ. فقال عليّ عليه السلام: فجلست على الباب وخلا النّبي بالطّعام

وكشف الطَّبِقَ فإذا عذق من رطب وعنقود من عنب ، فأكل النَّبِيّ منه شبعاً وشرب من الماء ريثاً ومدَّ يده للغسل فأفاض الماء عليه جبرئيل وغسل يده ميكائيل ومنذله إسرافيل ، فارتفع فاضل الطعام مع الإناء إلى السَّماء ، ثمَّ قام النَّبِيّ ليصلي فأقبل عليه جبرئيل وقال : الصَّلَاةُ محرَّمة عليك في وقتك حتَّى تأتي إلي منزل خديجة ... فإنَّ الله عزَّ وجلَّ آلى على نفسه أن يخلق من صلبك في هذه الليلة ذرِّيَّة طيِّبة ؛ فوثب النَّبِيُّ إلى منزل خديجة .

قالت خديجة : وكنت قد ألّفت الوحدة ، فكان إذا جنتني الليل غطيت رأسي وأسجفت ستري وغلّقت بابي وصلّيت صلاتي أو وردي وأطفأت مصباحي وآويت إلى فراشي ، فلمّا كان في تلك الليلة لم أكن بالنائمة ولا بالمنتبهة إذ جاء النَّبِيّ ففرع الباب ، فنادت : من هذا الذي يقرع حلقة لا يقرعها إلاّ محمّد ؟ قالت خديجة : فناداني النَّبِيُّ بعدوبة كلامه وحلاوة منطقه : افتحي يا خديجة فأني محمّد ، فقمّت فرحة مستبشرة بالنَّبِيّ وفتحت الباب ودخل النَّبِيُّ المنزل وكان إذا دخل المنزل دعا بالإناء فتطهّر للصلاة ثمَّ يقوم فيصلّي ركعتين يوجز فيهما ثمَّ يأوي إلى فراشه ، فلمّا كان في تلك الليلة لم يدعُ بالإناء ولم يتأهّب للصلاة غير أنّه أخذ بعضدي وأقعدي على فراشه ... فلا والذي سمك السَّماء وأنبع الماء ما تباعد عني النَّبِيّ حتّى أحسست بثقل فاطمة في بطني .. (١) .

الحدث السعيد؛ ولادة الصديقة ﷺ

أمّا وجودها في هذا العالم المتوسط فإنّها تكوّنت من تَفَاحَةِ الجَنَّةِ ، فلمّا حملت أمّها خديجة بها كانت فاطمة تحدّثها من بطنها وتصبرها على ما غمّها حيث هجرتها نساء مكّة فكنّ لا يدخلن عليها لمّا تزوّجت برسول الله ﷺ (٢) ، وكانت خديجة تكتّم أمر فاطمة وحديثها من رسول الله ﷺ ..

قال الصادق عليه السلام كما في الأمالي : فدخل رسول الله فسمع خديجة تحدّث

(١) الكوكب الدرّي، ص ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤؛ وعوالم العلوم والمعارف، ص ١٥؛ والمعرّم، وفاة الصديقة الزهراء، ص ١٥.

(٢) والواقع أنّ هجرتهنّ إبّانها حدث بعد النبوة لا بعد التزويج وإلاّ فإنّ لخديجة بنات وبنين غير الزهراء ﷺ وقد كنّ يحضرنها ويقبلنها، فلمّا تنبأ النَّبِيُّ وسبّ أصنامهم هجروا أهله .

فاطمة ، فقال لها : يا خديجة من تحدّثين ؟ قالت : الجنين الذي في بطني يحدّثني ويؤنّسني . قال : يا خديجة هذا جبرئيل يبشّرني أنّها أنثى وأنّها النسلة الطاهرة الميمونة ، وأنّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها وسيجعل من نسلها أئمة وسيجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه ، فلم تزل خديجة عليها السلام على ذلك إلى أن حضرت ولادتها ، فوجّهت إلى نساء قريش وبني هاشم أن تعالين لتلين منّي ما تلي النساء من النساء ، فأرسلن إليها أنت عصيتنا ولم تقبلي قولنا وتزوجت محمداً يتيماً أبي طالب فقيراً لا مال له فلنسنا نجياً ولا نلي من أمرك شيئاً^(١) .

أقول : كآني أشمّ في قول هؤلاء النسوة رائحة أموية ، والخبر يوشك أن يكون موضوعاً لتهودين شأن النبي وحاشاه ذلك قبل النبوة وأنه كان في مركز اجتماعي متدنّ في قريش بحيث لا تميل إلى الزواج منه امرأة ، ولو صحّت هذه المزعة فمن ولي أمرها أو من قبلها في سائر بنيتها وبناتها قبل ولادة الزهراء !؟

أجل إنّ النساء هجرنها ، حاشا نساء بني هاشم بعد بعثة النبي وما جرى منه عليه السلام من عيبهم وسبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم وما شعروا به من الخطر الموجه إلى مركزهم من سدانة البيت ، والزعامة الدينيّة في العرب وقارن ذلك ولادة الزهراء عليها السلام لولادتها بعد النبوة ، أضف إلى ذلك أنّ خديجة عليها السلام ما كانت بحاجة إلى استدعاء نساء من قريش وعندها من نساء بني هاشم من تغنيها عنهن كفاطمة ابنة أسد وأمّ هانئ ابنتها وأمّ الفضل زوجة العباس وغيرهنّ كثير .

كيفية الولادة

أمالي الصدوق : أحمد بن محمّد الخليلي ، عن محمّد بن أبي بكر الفقيه عن أحمد بن محمّد النوفلي عن إسحاق بن يزيد عن حماد بن عيسى عن زرعة بن محمّد عن المفضّل بن عمر قال : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : كيف كان ولادة فاطمة عليها السلام ؟ فقال : نعم ، إنّ خديجة عليها السلام لمّا تزوّج بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هجرتها نسوة مكّة فكنّ لا يدخلن عليها ولا يسلمن عليها ولا يتركن امرأة تدخل عليها فاستوحشت

(١) الرقّ المنشور، للعبة السادسة والعشرون، ص ٣٢٧ و٣٢٨؛ والكوكب الدرّي، ص ١٢٤؛ وعوالم العلوم والمعارف والأحوال، ص ١٥.

خديجة لذلك وكان جزعها وغمها حذراً عليه ﷺ ، فلما حملت بفاطمة كانت فاطمة ﷺ تحدّثها من بطنها وتصبرها ، وكانت تكتم ذلك من رسول الله ﷺ ، فدخل رسول الله يوماً فسمع خديجة تحدّث فاطمة ﷺ ، فقال لها : يا خديجة من تحدّثين ؟ قالت : الجنين الذي في بطني يحدّثني ويؤنّسني . قال : يا خديجة هذا جبرئيل يبشّرني أنّها أنثى وأنها النسلة الطاهرة الميمونة وأنّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها وسيجعل من نسلها أئمةً ويجعلهم خلفائه في أرضه بعد انقضاء وحيه .

فلم تزل خديجة ﷺ على ذلك إلى أن حضرت ولادتها فوجّهت إلى نساء قريش وبني هاشم أن تعالين لتلين منّي ما تلي النساء من النساء ، فأرسلن إليها : أنت عصيتنا ولم تقبلي قولنا وتزوجت محمّداً يتيم أبي طالب فقيراً لا مال له فلسنا نجىء ولا نلي من أمرك شيئاً ، فاغتمت خديجة ﷺ لذلك .

فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال كأنهنّ من نساء بني هاشم ، ففزعت منهنّ لمّا رأتهنّ ، فقالت إحداهنّ : لا تحزني يا خديجة فإنّنا رسل ربك إليك ، ونحن أخواتك : أنا سارة ، وهذه آسية بنت مزاحم وهي رفيقتك في الجنّة ، وهذه مريم بنت عمران ، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران ، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء من النساء ، فجلست واحدة عن يمينها ، وأخرى عن يسارها ، والثالثة بين يديها ، والرابعة من خلفها ، فوضعت فاطمة ﷺ طاهرة مطهّرة .

فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها النور حتّى دخل بيوتات مكّة ، ولم يبق في شرق الأرض ولا غربها موضع إلّا شرق فيه ذلك النور ، ودخل عشر من الحور العين كلّ واحدة منهنّ معها طشت من الجنّة وإبريق من الجنّة وفي الإبريق ماء من الكوثر ، وأخرجت خرفتين بيضاوين ؛ أشدّ بياضاً من اللّبن وأطيب ريحاً من المسك والعنبر فلقتها بواحدة ، وقتعتها بالثانية ، ثمّ استنطقتها فنطقت فاطمة ﷺ بالشهادتين وقالت : أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ أبي رسول الله سيّد الأنبياء وأنّ بعلي سيّد الأوصياء وولدي سادة الأسباط ، ثمّ سلّمت عليهنّ وسلّمت كلّ واحدة منهنّ باسمها وأقبلن يضحكن إليها .

وتباشرت الحور العين ، وبشّر أهل السّماء بعضهم بعضاً بولادة فاطمة ﷺ ، وحدث في السّماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك ، وقالت النسوة : خذيها يا خديجة طاهرة مطهّرة زكيّة ميمونة بورك فيها وفي نسلها ، فتناولتها فرحة مستبشرة

وألقمتها ثديها فدرّ عليها فكانت فاطمة عليها السلام تنمي في اليوم كما ينمي الصبي في الشهر وتنمي في الشهر كما ينمي الصبي في السنة^(١).

التخلص..

وإنما حدث في السماء نور لم تره الملائكة من قبل فلأن الزهراء عليها السلام الصديقة كالمشكاة الساطعة المتلثلة والكوكب الدرّي في غاية السطوع والظهور من حيث الأنوار الباطنية والأسرار الربانية والإشراقات الصورية والمعنوية، وكانت تزهر لأهل السماء كما تزهر النجوم لأهل الأرض، وسميت نوراً يوم تزويجه كما سمى كفوه علي نوراً كما في الأمالي عن موسى بن جعفر عليهما السلام يقول: بينا رسول الله جالس إذ دخل ملك له أربعة وعشرون وجهاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حبيبي جبرئيل لم أرك في مثل هذه الصورة. فقال الملك: لست بجبرئيل أنا محمود بعثني الله عزّ وجلّ أن أزوج التور من التور. فقال: من ممّن؟ فقال: فاطمة من علي عليه السلام. فلما ولي الملك إذا بين كتفيه: محمد رسول الله عليّ وصيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: منذوكم كتب هذا بين كتفيك؟ فقال: من قبل أن يخلق الله عزّ وجلّ آدم باثنين وعشرين ألف عام. وكانت إذا تقوم في محرابها تزهر نوراً.

وفي الأمالي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أمّا ابنتي فاطمة فهي سيّدة نساء العالمين، وإنّها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من الملائكة المقربين وينادونها بما نادى به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة إنّ الله اصطفاك على نساء العالمين، وكانت تضمحلّ بشرّيتها عند نورانيّتها حتّى خلت عن الأكدار وما تلزم النساء في هذه الدار...

عن أسماء بنت عميسى قالت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّي لم أر لفاطمة دماً في حيض ولا نفاساً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ ابنتي فاطمة طاهرة مطهّرة لا يرى لها دم في طمث ولا ولادة.

أقول: ما أدري حين أنبت الرجل المسمار في صدرها وعصرها بين الحائط

(١) راجع عوالم العلوم والمعارف والأحوال، ص ١٧ و ١٨ و ١٩ نقلاً عن البحار وأمالى الصدوق؛ وراجع الرق المنشور، للمعة ٢٦ ص ٣٢٨؛ ووفاة الصديقة للمقرّم، ص ١٧ و ١٨.

والباب ورُصَّت منها الأضلاع ألم تجر الدماء منها تلك الساعة؟ أجل جرت حتى خضبت ثيابها وأبصرتها فضة على تلك الحالة، وبالها من مصيبة جلّت عن الوصف وعظمت عن البيان.

وبرضّ ذاك الضلع رصّت أضلع في طيها سرّ الإله مصون

تحذير

تركنا الأحاديث التي مرّت عن نور سيّدتنا الصديقة وحمل أمها بها وولادتها من غير تعليق لتألا يجمع بنا العقل القاصر عن بلوغ هذه الأسرار إلى ما لا يلتئم مع الحقيقة وما علينا إلا التسليم بما ورد عن أهل بيت العصمة عليهم السلام والعلم الإجمالي حاكم بصحة ما ورد ونترك التفصيل إلى علم الله سبحانه، وأحذّر إخواني أن يقفوا موقف المتهيب من قبول هذه الأسرار فإنها بمجموعها حق لا مرية فيه، والعلم عند الله سبحانه.

المجلس الثالث عشر

«لمن هذا كله»؟!

عراها من الأسي ما عراها؟	ما لعيني قد غاب عنها كراها
ثم فارقتها فلا أغشاها؟	الدار تنعمت منها زماناً
يتجلّى الدجى بضوء مناها؟	أم لحى بانوا بأقمار ليل
بصدق الضمير أو أهواها؟	أم لخود غريرة هي تهواني
أم لصافي المدام من مزّة الطعم عقار مشمولة أسقاها	حاش لله لست أطمع نفسي
آخر العمر في اتباع هواها	بل بكائي لذكر من خصها الله تعالى بلطفه واجتباها
واصطفاه لوحيه واصطفاه	ختم الله رسله بأبيها
الإمامين منه حين حباها	وحباها بالسيّدين الزكّيين
ولفكري في الصاحبين اللذين استحسنا ظلمها وما رعاها	منعاً بعلمها من العقد والعهد
وكان المنيب والأوها	واستبدّاً بإمرة بادراها
قبل دفن النبي وانتهاها	

لبعض أشراف مكة، ونسبها اليعقوبي إلى الشريف قتادة بن إدريس ابن مطاعن من أدباء القرن السابع الهجري^(١).

الطفولة الهائلة ..

من حجر الطاهرة الصديقة إلى صدر النبي الأعظم تقلبت بين عالمين من النور في طفولتها السعيدة الهائلة، حتى ترعرعت مشبعة بأفضل تقويم وتوجيه نالهما إنسان على وجه البسيطة من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة. فلم يقدر لوليدة سواها أن تحيا في كنف الأم الطاهرة، وتحت ظل حمايتها، وفي رعاية الأب المصطفى المختار. واعتبر بمن أسندت إليه مهمة إصلاح أمم الأرض وشعوبها، كيف تكون رعايته لفلذة كبده ويضعته؟

وتراءى لسيد الخلق، وأطلععه عليه الوحي، ما أعدت له بضعته الصديقة، فرأى أفضل كلمة يقولها معبرة عن ذاتها القدسية بأن يفتديها بنفسه ... عن المنهال بن عمرو عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقبل عرض وجه فاطمة وبين ثدييها.

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قبل رأس فاطمة وقال: فذاك أبوك، كما كنت فكوني^(٢).

وإنما أخبر النبي بذلك لظاهر الحال وما يشاهد بينهما من الانفصال، أما الواقع الذي تبصره العقول وتكل عنه العيون، فإنهما شيء واحد ونسبة ما بينهما هي نسبة البعض إلى الجمل، والجزء إلى الكل.

حسن بن زيد عن جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنما فاطمة بضعة مني، من أذاها فقد أذاني، ومن أحبها فقد أحبني، ومن سرها فقد سرتي...^(٣) وللحديث سياقات عدة وصيغ مختلفة وجلها من قسم الصحيح وهو متواتر

(١) راجع المقدم، وفاة الصديقة الطاهرة، ص ١٢٤؛ والبهاني، الدفعة الساكنة، ٣٠٠/١.

(٢) غلام رضا الكسائي، مناقب الزهراء، ص ٩٨.

(٣) القاضي أبو حنيفة، النعمان بن محمد التميمي المغربي، شرح الأخبار، ٣/٣٠، ط بيروت، دار

معنى، وقد رواه أكثر الحفاظ، وسنذكره بالتفصيل إنشاء الله فيما يأتي من البحث .
وبهذه الصلة الوثيقة والعلاقة الدقيقة كانت ﷺ أفضل الخلق بعد أبيها وبعلمها،
وقد شهدت عائشة لفاطمة الزهراء ﷺ :

ما رأيت أفضل من فاطمة، إلا والدها ﷺ (١).

وما كانت مشاعره الجياشة وعواطفه الفيضة تنحصر في علاقة الأب الرقيق
باينته ذات الخلق المتميز، بل يبدو من خلال سلوكه المثالي معها، أن ذلك من النظر
لنظيره، والند لندّه، وكان يرى في ذاتها المقدسة، ذات الأم المفروض احترامها
واللازم تبجيلها والعناية بها، فقد سماها «أم أبيها» (٢).

وبدى لنظري القاصر من ذلك أمران :

الأول: تعبير عما كانت تغمر أباها الأكرم من حنان الأم الرووم وعطفها البالغ،
الذي فاق ما تقدّمه البنات لأبائهن.

الثاني: بيان وكشف عما تحمله في ذاتها من سرّ القداسة الذي يحمل الأب،
وهو الواجب الطاعة واللازم التعزيز والإحترام على تنزيلها منزلة الأم في قدسيّة
الذات ورفيع الصفات .

من ثمّ كان يعاملها معاملة خاصّة من تقبيل يدها، وإفرادها دون بقية أهله عند
كلّ عودة منه إلى المدينة (٣).

روى الحافظ عبدالعزيز الجنازدي المذكور آنفاً في كتابه يرفعه إلى عائشة،
قالت: ما رأيت أحداً أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت
عليه أخذ بيدها وقبّلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فقبّلته
وأخذت بيده فأجلسته في مكانها... (٤)

وأحسب أنّ التباساً حدث في الرواية من عود الضمير في «قبّلها» فمنهم من
أعاده على اليد أي قبّل يدها، وأظنّ - والله العالم - أنّ الضمير يعود على فاطمة ﷺ،
فيكون التقبيل لها، وفي الرواية قرينة تدلّ على ذلك، بقوله: «قامت إليه وقبّلته»

(١) أبو علم، فاطمة الزهراء، ص ١٠.

(٢) أسد الغابة، ٥٢٠/٥.

(٣) أبو علم، فاطمة الزهراء، ص ٦٩.

(٤) الإربلي، كشف الغمة، ٨٠/٢، والكتاب المذكور هو المسند...

وتنكير الضمير يدل على أنّ التقبيل للنبي ﷺ لا ليده، وحينئذ ليس من المعقول في أدب أهل البيت عليهم السلام أن يقبل النبي يد ابنته ثم هي تعرض عن يده فلا تقبلها. ولكن الرواية التي رواها الشيخ الطوسي في أماليه رفعت هذا الإلتباس، فقد روى بإسناده عن عائشة قالت: ما رأيت أحداً من الناس أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله من فاطمة عليها السلام؛ كانت إذا دخلت عليه رَحَبَ بها وقَبِلَ يديها وأجلسها في مجلسه، فإذا دخل عليها قامت إليه فرحبت به وقبّلت يديه... (١)

وقد أخطأ أبو علم خطأ فادحاً حين ردّ أصل ذلك إلى عقدة اليتيم الذي عاناه النبي ﷺ في صغره حيث تستبدّ آثاره بالطفل فتحمله على البحث عن حنان امرأة أخرى تحل محلّ أمه فتعوضه عمّا فقدته من حنانها، لأنّ هذه العقدة إن صدقت مع الإنسان العادي فهي باطلة قطعاً مع الإنسان المعتنى به من الله سبحانه وتعالى، حيث خلقه الله سوياً للنبوّة ولا تجري عليه قوانين الحياة العامّة، فلا يقع تحت تأثير الوضع الخاص من البيّنة أو النشأة والسلوك؛ فهو من الإستثناءات التي باينت ما عليه البشر بدءاً وختاماً لأغراض النبوّة وإلّا لتساوى الناس في صدقها عليهم وصحة عروضها لعامّتهم ولم يبق فرق معتد به بين النبي ومن عده.

علماً بأنّ الأنبياء متميّزون في المحتوى النفسي عن غيرهم في مراحل أعمارهم جميعاً، وهم وإن ضارعوا الناس في أصل الخلقة من حيث الأطار الآدمي، إلّا أنّهم انفردوا بكيّفيّات خاصّة، وضعت في ذاتيّتهم لتلائم ما أعدّوا له من الوضع الخاص بالنبوّة.

أضف إلى ذلك ما أنعم الله به على نبينا خاصّة من حسن التأديب وفضل التعليم وما تولّاه سبحانه من صون نشأته عن عوارض الشذوذ والانحراف، وتأثير الظروف الإستثنائية ومما أثر عن فقهاء السيرة النبوّة أنّهم علّلوا سرّ فقدان نبينا لأبويه عليهما السلام أنّ الله صانه من أن يكون لأحد وإن كان أباً أو أمّاً حقّاً لازماً عليه من ثمّ اختارهم إلى ما عنده من الثواب الجزيل والأجر الجميل.

فكيف يُجري هذا الأديب قواعد السلوك النفسي العام على من تعاهده الله بالرعاية والحفظ من كلّ سوء وانحراف.

(١) المولى محمّد باقر البهبهاني، الدفعة السابعة، ١/٢٤٦.

وأحياناً ينعم النَّبِيُّ بجَوْ أُسْرِي طيب مع بضعته فينال من استنشاق عرفها ،
وترصّب وجهها وعينها ما يهفوا إليه الآباء مع الأبناء ، فإنّ هناة الأب لحظاتٍ مع
طفولة ولده السعيدة لا تعد لها ساعة من ساعات العمر مهما كانت مقبولة أو مرتضاهً .
يقول أب مولّه بأبنائه :

وأطيب ساعات عمري اليّا عشيةً أخلو إلى وليّا
إذا جئت بيتي يهتف باسمي الكبير ويحبو الصغير إليّا
وأغزو الشتاء بموقد فحم وأبسط من فوقه راحتيا
وأيةً نجوى كنجواي طفلي يقول أبي فأقول بنيّا
ويقول بدويّ الجبل :

وهل دلت لي الفوطتان لبانةً أحبّ من النعمى وأحلى وأعذبا
وسيماً من الأطفال لولاه لم أخف - على الشيب - أن أنأى وأن أتقرّبا
تود النجوم الزهر لو أنّها دمى ليختار منها المترقات ويلعبا
وعندي كنوز من حنان ورحمة نعيمي أن يغريّ بهنّ وينهبأ
يجور وبعض الجور حلو محبّب ولم أر قبل الطفل ظلماً محبّياً
ويغضب أحياناً ويرضى وحسبنا من الصفوان يرضى علينا ويغضبا
وان ناله سقم تمنيت أنني فداءً له كنت السقيم المعذبأ
ويوجز فيما يشتهي وكأنّه بإيجازه دلاً أعادوا سهبا
يزفّ لنا الأعياد عييداً إذا خطأ وعييداً إذا ناغى وعييداً إذا حبا
كزغب القطا لو أنّه راح صادياً سكبت له عيني وقلبي ليشربا
وأوثر أن يروى ويشيع ناعماً وأظماً في النعمى عليه وأسغبا
والثم في داج من الخطب ثغره فأقطف منه كوكباً ثمّ كوكبا
ينام على أشواق قلبي بمهده حريراً من الوشي اليماني مذهبا
وأسدل أجفاني غطاءً يظلّه وياليتها كانت أحنّ وأحدياً...^(١)

وهاهي السعادة الغامرة ، تهبط على المصطفى من مشيئة اللطف الإلهي في بدء
عمر بضعته كما يهبط عليه الوحي ، فيعيش تلك الأجواء الشّافة العذبة التي يهفو إلى

(١) ديوان بدويّ الجبل ، قصيدة «البلبل الغريب» ، ص ١٥٨ .

مثلها الآباء مع أبنائهم .

ولقد حبا الله بضعته الصديقة من النشأة المتميزة بالتجليات الخاصة بما لم يحب به طفلاً في العالم ، حتى السيد المسيح ، لم يصب في بدء وجوده في حجر أمه العذراء البتول ، ما نالته الصديقة الزهراء في حجر المصطفى الرسول عليه السلام .

عن جابر بن عبدالله قال : قيل : يا رسول الله إنك تلثم فاطمة وتلزمها وتدنيهها منك وتفعل بها ما لا تفعله بأحد من بناتك ؟ فقال : إن جبرئيل عليه السلام أتاني بتفاحة من تفاح الجنة فأكلتها فتحوّلت ماءً أفي صليبي ، ثم واقعت خديجة ، فحملت بفاطمة ؛ فأنا أشمّ منها رائحة الجنة^(١) .

ولقد أثار انتباه عائشة ما كانت تراه من ولع النبي عليه السلام بابنته فاطمة فاستفهمته ذات يوم عن السرّ ، فباح لها به :

عن ابن عباس قال : دخلت عائشة على رسول الله وهو يقبل فاطمة ، فقالت له : أتحبّها يا رسول الله ؟ قال : أما والله لو علمت حبي لها لازددت لها حباً ، إنّه لمّا عرج بي إلى السماء الرابعة ، أذن جبرئيل وأقام ميكائيل ، ثم قيل لي : أذن يا محمد ، فقلت : أتقدم وأنت بحضرتي يا جبرئيل ؟ قال : نعم ، إن الله عزّ وجلّ فضّل أنبيائه المرسلين على ملائكته المقرّبين ، وفضّلك أنت خاصّة ، فدنوت فصليت بأهل السماء الرابعة ، ثمّ التفتّ عن يميني فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، في روضة من رياض الجنة ، وقد اكتنفها جماعة من الملائكة ، ثمّ إنّي صرت إلى السماء الخامسة ، ومنها إلى السماء السادسة ، فنوديت : يا محمد نعم الأب أبوك إبراهيم ، ونعم الأخ أخوك علي ، فلمّا صرت إلى الحجب ، أخذ جبرئيل بيدي فأدخلني الجنة ، فإذا أنا بشجرة من نور ، أصلها ملكان يطويان الحلبي والحلل ، فقلت : حبيبي جبرئيل لمن هذه الشجرة ؟ فقال : هذه لأخيك علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهذان الملكان يطويان له الحلبي والحلل إلى يوم القيامة .

ثمّ تقدّمت أمامي فإذا أنا برطب ألين من الزيد ، وأطيب رائحة من المسك ، وأحلى من العسل ، فأخذت رطبة فأكلتها ، فتحوّلت الرطبة نطفة في صليبي ، فلمّا أن هبطت إلى الأرض واقعت خديجة ، فحملت بفاطمة ؛ ففاطمة حوراء إنسيّة ، فإذا

(١) عوالم العلوم ، فاطمة الزهراء ، ص ٨ ؛ علل الشرايع ، ١٨٣/٢ ؛ بحار الأنوار ، ٤٣/٥ ؛ عيون أخبار

اشتقت إلى الجنة شممت رائحة فاطمة عليها السلام (١).

والذي يظهر لي من اختلاف الروايات في الثمرة التي أكلها النبي فتحوّلت إلى نطفة، أن المقصود من ذلك هو بيان انعقاد النطفة من أكلة أكلها النبي في الجنة، وليست من نوع بعينه، فقد تكون مزيجاً من هذا وذاك.

وما كانت عائشة لتجهل حقّ الزهراء وهي ترى حبّ النبي لها وولعه بها، والإشادة بمناقبها وفضلها، فقد اعترفت بتقدّمها على النساء كافة عنده عليها السلام.

روي في البحار قالت عائشة: فوالله ما كان أحد من الرجال أحبّ إلى رسول الله من علي، ولا من النساء أحبّ إليه من فاطمة.. (٢)

وحديث الثمرة التي تحوّلت إلى نطفة مشهور معروف من حديث أهل البيت عليهم السلام:

يقول الإمام الرضا عليه السلام: قال النبي عليه السلام: لَمَّا عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، أَخَذَ بِيَدِي جِبْرِئِيلُ عليه السلام فَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ فَنَاوَلَنِي مِنْ رَطْبِهَا، فَأَكَلْتَهُ، فَتَحَوَّلَ ذَلِكَ نُطْفَةً فِي صُلْبِي، فَلَمَّا هَيْطَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ وَقَعَتْ خَدِيجَةَ فَحَمَلَتْ بِفَاطِمَةَ عليها السلام؛ فَفَاطِمَةُ حَوْرَاءُ إِنْسِيَّةٌ، فَكَلَّمَا اشْتَقَّتْ إِلَى رَائِحَةِ الْجَنَّةِ شَمِمَتْ رَائِحَةَ فَاطِمَةَ عليها السلام (٣).

وانظر إلى ما شمل الله سبحانه بضعة حبيبه من الميزة الخاصة على البنين والبنات في نموّها ومنشأها.

عن ابن عباس قال: لم تزل فاطمة تشبّ في اليوم كالجمعة، وفي الجمعة كالشهر، وفي الشهر كالسنة، فلما هاجر رسول الله عليه السلام من مكة إلى المدينة وابتنى بها مسجداً، وأنس أهل المدينة به، وعلت كلمته، وعرف الناس بركته، وسار إليه الركبان، وظهر الإيمان، ودرس القرآن، وتحدّث الملوك والأشراف، وخاف سيف نقمته الأكاير والأشراف، وهاجرت فاطمة مع أمير المؤمنين، ونساء المهاجرين... (٤)

ويسير مع هذه النشأة المتميّزة جنباً إلى جنب سموّ في الأدب، وارتفاع في الخلق العظيم، فهاهي تتوقّف في ما تخاطب به النبي بعد نزول الآية: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ

(١) علل الشرايع، ٢/١٨٤؛ عوالم العلوم، ص ١٠.

(٢) المازندراني، الكوكب الدرّي، ص ١٤٣.

(٣) عوالم العلوم، فاطمة الزهراء، ص ١٠.

(٤) نفسه، ص ٢٠.

الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً... ﴿^(١)﴾ .

عن الإمام الصادق عليه السلام : قالت فاطمة عليها السلام ، لَمَّا نزلت : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً... ﴾ هبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أقول له : يا أبة ، فكنت أقول : يا رسول الله ، فأعرض عني مرّة أو اثنتين أو ثلاثاً ، ثمّ أقبل عليّ فقال : يا فاطمة إنّهالم تنزل فيك ، ولا في أهلِكَ ، ولا في نسلِكَ ، أنت منّي وأنا منك ، إنّما نزلت في أهل الجفَاء والغلظة من قريش ، أصحاب البذخ والكبر ، قولي : يا أبة ، فإنّها أحيى للقلب ، وأرضى للرب ^(٢) .

إنّ عالم النبوة في كون النبوة الرحب ، أبى إلسماع ذلك الجرس الشهي العذب تتنعم فيه بضعته بكلمة « يا أبتاه» .

وحملت سيّدة النساء هذا الحب الطاهر في قلبها ، فكانت وهي في بيت الزوجية تهفو إليه كأنما تريد الإستئثار به كالعابد الذي لا يؤثربعبادته على نفسه أحداً ، إنّه الحبّ البنوي الطهور ، ومن ذا الذي لا يريد الفوز به على من عداه أو نيل القسط الأكبر منه .

ولمّا شاهد الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بوادر هذا الحب ، تنطلق من الأشعاع النبوي فتغمز وجود الصديقة قولاً وعملاً ، تقدّم إلى النبيّ مستوضحاً عمّا ترك له هذا الحب من منظومة القلب النبوي الكبير ، فسأله عليه السلام يوماً : يا رسول الله أنا أحبّ إليك أم فاطمة ؟ فقال : أنت عندي أعزّ منها ، وهي أحبّ منك ... ^(٣)

وهذا هو القسطاس المستقيم الذي أعطى لكلّ منهما ما يلتئم بنسق مع رتبتها المعنوية ؛ فالزهراء سيّدة النساء وبضعة الرّسول ، والحلقة الموصلة بين النبوة والإمامة ، وواسطة العقد التي أشرقت على جيد الإسلام ، ودار عن يمينها والشمال ، أغلاق الحق والعدل والإمامة في تناسق بديع ، حتّى ازدان بها ذلكم الجيد ، واعتلى بها على سائر الأديان والنحل ..

ولكنّها قبل هذا وذاك ولد من الأولاد ، ينحو القلب بحبّه نحوها ، ويميل بالطبع

(١) النور : ٦٣ .

(٢) المناقب ، ١٠٢/٣ ؛ البحار ، ٣٢٢/٤٣ ؛ عن عوالم المعالم ، ص ٤٠ .

(٣) الإربلي ، كشف الغمة ، ٩٠/٢ ؛ والكوكب الدرّي ، ١٤٣/١ .

إليها، من تمّ منحها الحب، فكانت أحبّ إلى النبيّ من بعلمها عليه وعليها السّلام .
وبعلمها هو الإمام الأوّل في منظومة النبوة، وهو القائد بعد النبيّ، ورائد الإسلام
الأوّل، وحامل اللواء، وبه تمّت النعمة على الأُمّة، وكمل الدين، واستقرّ الحق على
الصيغة الثابتة التي لا تحول ولا تزول، إلى يوم القيامة، ثمّ هو الوصيّ على الدّين وعدل
الكتاب، ومعجزة الإسلام الثانية، ودليل الركب الإسلامي بعد وفاة نبيّه، فله من قلب
النبوة من الإكبار والتقدير ما يلتئم، وهذه الدرجات الرفيعة من تمّ نال العزّة من النبيّ
فكان أعزّ عليه من حليلته عليها وعليه السّلام .

لمعة مضيئة عن سرّ تقدّمها وعلوّ مقامها ..

ربّ قائل يقول: ما هو السرّ في تقدّم الزهراء عليها السلام على من سواها من بنات النبيّ
وغيرهنّ من سائر النّساء والمنبت واحد، والمنشأ واحد؟!
فنقول في جوابه:

لله في خلقه شئون، لا يعلمها سواه، ولا يحيط بها إلّاه، فهو الذي أودع هذه
التراكيب العجيبة في الخلفة، وشحنها بالأسرار الغريبة والرموز، المحيرة للألباب،
وأطلعنا بنور العقل على بعضها، فرأينا رأي العين كيف ما يزين بذرة وبذرة في تربة
واحدة، وتسقى من ماء واحد، فاختلفت في الشكل والطعم والخواص الأخرى .
الا ترى ثمر النخل الباسق كيف تميّز عن بعضه البعض في الحلاوة والنكهة
والشكل، فهذا البلح من هذه النخلة مستدق طويل، وهذا من تلك منضمّ في حجمه
مستدير، وهذا كذا وكذا وذاك كيت وكيت، وهكذا دواليك، والكل يمتصّ غذائه
ومائه من تربة واحدة بحسبان واحد، إلّا أنّ لكلّ نوع خواصّه التي أودعها الله في سرّ
خلقته، وما يقال في الشجر يقال في البشر، وهذه أسرار لا تتوصّل إليها العقول وإن
كبرت .

فأيّ عقل مهما أوتي من سعة الإدراك يستطيع أن يقع على السرّ في اختيار
محمد صلى الله عليه وآله من بين البشر والعرب وأهل مكّة وقريش وبنو هاشم فيصطفيه دون
هؤلاء جميعاً برسالة السماء، ويفيض عليه من أنوار النبوة ما يرفعه فوق البشر؟
والمّ بطرف ممّا قلناه ابن الجوزي ولكنّه سمّاه اختيار القدر، فقال في المدهش:
كان للنبيّ صلى الله عليه وآله بنات، فضلتهم فاطمة، وزوجات سبقتهم عائشة، وذلك أنّ اختيار

القدر لا يحايى في التساوي ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل .. ﴾ (١). وهذا الكلام على علاقته التفاتة ذكية من صاحبه، وإن كان فاته أن يرشد إلى سبق عائشة أين؟ وبماذا؟ ... ونحن في أحد فصول الكتاب أشرنا إلى جانب من مسألة التفضيل، وأثبتنا الوجه الصحيح فيها، والحمد لله.

وكم حام العقل حول علة مأنوسة، يعتمدها في إيضاح هذه الأسرار، وكشف غوامضها لكي يفني من هذا التطواف إلى سكينه الاعتقاد، ولكنه يرتطم بعجزه النابع من الإمكانات المحدودة للعقول.. وطالما فلسف وعلل، وظن أنه بلغ الشيطان ولكنه تجلّى له سراب الخيال، فرجع عوده على بدئه، مفوضاً أمر ذلك كله إلى عالم الخفيات، المحيط بأسرار الخلقة كلها، وليس لنا بعد الإعراف بالعجز إلا القول، بأن سرّ الإختيار مختصّ بخالق البشر، العالم بأسرارهم وخباياهم ودخائلهم ... ولا جرم، أن للزمان والمكان والسلالة والطينة دخلاً في هذا الإختيار، كما أن ما يدخره الغيب فيما يستجدّ من حالاتهم وصفاتهم، أثراً مباشراً فيه، ولا يعلم ذلك منهم إلا الله سبحانه.

واختيار الزهراء على النساء وتفضيلها عليهنّ على الإطلاق يعود إلى فضيلة تلك الأسرار التي رفعت أباهما عليهما السلام إلى رتبة الإصطفاء وأعطته سبق على الأنبياء، ونحن أزاء هذه الحقائق الغائبة الحاضرة، كالواقف على المحيط يراه ويستشعر هيئته ويحسّ أمواجه تصطفق في نفسه، ويملاها جلاله وهيبه، ولكنه يعجز عن الإحاطة بأسراره، وكيف يحيط المتناهي بما لا يتناهي وإن كان نظراً إلى حدود ذاتهما؟

ولقد حام أعلامنا الأوائل حول هذا المعنى، وتركوا لنا تراثهم على شكل خطرات تعرض لهم فتثير خواطرهم، وتملاً قلوبهم بعمق الولاء، وحينئذ تنطلق قرائحهم معبّرة عن الودّ والتسليم، ومع ذلك لا يفوتهم الإستدلال على صحّة ما ذهبوا إليه، وما بنوا عليه نظرتهم المطمئنة برّبهم، مفوضين الأمر إليه.

وعليتنا نحن كذات متناهية أن نجري عقولنا في هذا المضمّار، وأن نحاول فتح الممكن من الأسرار، وندع المغاليق التي استأثر الله بعلمها، وما أكثر الأسرار الممكنة.

الطفولة الخاتمة .. تحديد الولادة

في المسألة أقوال للشعبة ومثلها لأهل السنّة والجماعة .. وإليك نبذة صالحة من ذلك :

ذكر الأربلي في كشف الغمة عن ابن الخشّاب في تاريخ المواليذ ووفيات أهل البيت ، نقله عن شيوخه ، يرفعه عن أبي جعفر محمّد بن علي قال : ولدت فاطمة بعد ما أظهر الله نبوة نبيّه ، وأنزل عليه الوحي بخمس سنين ، وقرش تبني البيت ... (١)

وفي هذا القول نظر ، لأنّ بناء البيت كان قبل النبوة وليس بعدها ، وحضره النبيّ وهو ابن خمس وثلاثين سنة كما جزم به ابن إسحاق وغير واحد من العلماء ، وقيل : ابن خمس وعشرين سنة كما جزم به موسى بن عقبة في مغازيه وابن جماعة في منسكه ونقله مغلطاي عن تاريخ يعقوب بن سفيان (٢) .

وهو الذي وضع الحجر الأسود في مكانه بعد اختلاف قرش فيمن يضعه حتّى كاد يقع بينهم شرّف فنداركهم النبيّ ﷺ وسلموا ببركته من الإقتتال ، وكان النبيّ آنذاك في سنّ توّهله للحكم بمثل هذا الأمر الخطير .. ولو كان في عهد نبوّته لما حكّمته قرش به لعدائها له .

وزعم عباد بن عبدالرحمن الأعرج مولى ربيعة بن الحارث قال : حدّثني من لا أتهم عن حسان بن ثابت ، وكان قد شهد بناءها قال : رأيت عبدالمطلب بن هاشم جالسا على سور الكعبة ، وهو شيخ كبير ، قد ربط له حاجباه ، وهم يختصمون في الركن ليرفعوه إليه ، فلمّا قضى فيه رسول الله ما قضى ، ووضعته قرش في الثوب حتّى وضعه رسول الله بيده ، فرفعه إلى عبدالمطلب ، وكان هو الذي وضعه بيده .

فقال له محمّد بن علي حين حدّثه : والله ما سمعت هذا من أحد من أهل بيتي ، وما سمعت أحداً يذكر إلا أنّ رسول الله ﷺ وضعه بيده .

قال عثمان : قال محمّد : وحدّث عن بعض أهل العلم أنّ عبدالمطلب أخذ بيده وجعلت قرش أيديهما تحت يده ثمّ رفعوا حتّى انتهوا به إلى موضعه ، فوضعه النبيّ

(١) كشف الغمة ، ٧٦/٢ .

(٢) تقي الدين القاسي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ١٥٤/١ ، ط دار الكتاب العربي - لبنان ، ١٤٠٥ .

بيده، كل ذلك قد سمعناه في الركن، إنتهى^(١).

وقد ذكر وضع الحجر موضعه شعراً هبيرة بن وهب المخزومي :

تشاجرت الأحياء في فصل خطبة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد موثة	وأوقد ناراً بينهم شرُّ موقد
فلما رأينا الأمر قد جدَّ جدّه	ولم يبق منا غير سلّ المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع	يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجاناً هذا الأمين محمّد	فقلنا رضينا بالأمين محمّد
بخير قريش كلّها أمس شيمة	وفي اليوم مع ما يحدث الله في غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله	أعمّ وأرضى في العواقب واليد
فقال ارفعوا حتّى إذا ما علت به	أكفهم وافئ به غير مسند
وكلّ رضينا فعله وصنيعه	فأعظم به من رأي هادٍ ومهتد
وتلك يد منه علينا عظيمة	يروح لها هذا الزمان ويغتدي... ^(٢)

وهذا خبر ثابت معروف، وقد أجمع المؤرخون على نقله، وقد حدث قبل النبوة، فلا يصحّ قول القائل: إن ولادة الزهراء عليها السلام كانت بعد البعثة وقريش تبني البيت. وقيل: إن العباس عليه السلام دخل على عليّ وفاطمة - رضي الله عنهما - وأحدهما يقول للآخر: أينا أكبر؟ فقال العباس: ولدت يا علي قبل بناء قريش البيت بسنوات، وولدت أنت يا فاطمة وقريش تبني البيت^(٣).

وهذا لا يصحّ أيضاً، فما كان أمير المؤمنين عليه السلام ليجهل سنّه أو سنّ ابنة عمّه ليحتاج إلى من يخبره عن ذلك، وإن كان عمّه العباس عليه السلام.

وذكر ابن عبد البر سنّ الصديقة عليها الصلاة والسلام، وقارب قول الشيعة في ذلك، فقال: ولدت فاطمة رضي الله عنها سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ وأنكح رسول الله فاطمة عليّ بن أبي طالب بعد وقعة أحد، وقيل: إنّه تزوّجها بعد أن ابنتي رسول الله بعاشة بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد تزويجه إياها بتسعة أشهر

(١) تقي الدين الفاسي، شفاء الغرام، ١٥٦/١.

(٢) أبو علم، فاطمة الزهراء، ص ٧٥ و٧٦.

(٣) أبو علم، فاطمة الزهراء، ص ٧٤.

ونصف ، وكان سنّها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمس وخمسة أشهر ونصفاً ، وكان سنّ عليّ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر^(١) .

وقول ابن عبد البرّ قريب من قول الشيخ الطوسي في مصباح المتهدّد ، فقد قال عليه السلام : قيل : إنّها ولدت بعد المبعث بسنتين .

قال ابن حجر : واختلف في سنة مولدها ، فروى الواقدى من طريق أبي جعفر الباقر قال : قال العباس : ولدت فاطمة والكعبة تبنى ، والنبيّ ﷺ ابن خمس وثلاثين سنة ، وبهذا جزم المدائني ...^(٢)

وقد مرّت رواية ابن الخشاب عن أبي جعفر أنّ ولادتها كانت بعد ما أظهر الله نبوّته ... الخ .

ونترك القول الفصل لأهل البيت ، فهم أدرى بما فيه ، وليست العبرة بما نسب إليهم ، بل بمن روى عنهم .

قال حبيب السجستاني : سمعت أبا جعفر يقول : ولدت فاطمة عليها السلام بنت محمّد ﷺ بعد مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، وتوفّيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً .

وقال في الكافي : ولدت الزهراء فاطمة عليها السلام بعد مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، وتوفّيت ولها ثمان عشرة سنة وسبعون يوماً ، وبقيت بعد أبيها ﷺ خمسة وسبعين يوماً ..^(٣)

وبمثل هذا جاءت رواية أخرى في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام : أنّها ولدت بعد مبعث رسول الله بخمس سنين ، وبعد الإسراء بثلاث سنين ، وأقامت مع رسول الله ﷺ بمكّة ثمان سنين ، ثمّ هاجرت معه ﷺ إلى المدينة فزوّجها من عليّ بعد مقدمهم المدينة بسنة ، وقبض النبيّ ﷺ ولفاطمة يومئذ ثمانى عشر سنة ..^(٤)

وبهذا ظهر بطلان القول بأنّ النبيّ زوّج فاطمة من عليّ في غزوة أحد ، لأنّ

(١) الإستيعاب ، ٤/٤٤٨ .

(٢) الإصابة ، ٤/٣٧٧ .

(٣) الفيض الكاشاني عليه السلام ، الوافي ، ١/١٧٣ ، ط مكتبة المرعشي - قم ، ١٤٠٤ .

(٤) الشيخ السماوي ، تواريخ المعصومين في مختصر مواليد ووفيات الأنمة الطاهرين عليهم السلام ، ص ١٣ . ط بغداد - مطبعة العرفان ، ١٣٦٦ هجرية .

هذه الغزوة وقعت في شوال سنة ثلاث ، وعند ابن سعد على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مهاجره ^(١) .

وما ذكر أبو الفرج في المقاتل يتفق وهذا القول فقد ذكر أن تزويج الإمام إياها في صفر بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة وبنى بها بعد رجوعه من غزاة بدر ^(٢) .

وذكر صاحب اللمعة البيضاء أن ولادة الزهراء كان بالحساب الواقعي ، بأربع سنين وعشرة شهور وخمسة وعشرين يوماً بعد البعثة ، أو ثلاثة أيام بدل الخمسة والعشرين .

ولست أعرف مراده بالحساب الواقعي ، ولعله استخراج بالنظر إلى وفاتها ومبلغ عمرها الشريف .

وقال : وبالجمله كان زمان ولادتها عليها السلام أيام حكومة يزدجرد بن شهريار من ملوك العجم ، الذي كان دار سلطنته قلعة الجلولاء قرب بغداد دارالسلام ، وكان أمر سلطنته مستقراً في تلك الأيام إلى أن انهزم في عصر عمر من جيش الإسلام .

ويقول أيضاً : وقد ولدت عليها السلام يوم الجمعة وقت الصبح ، أي في آخر جزء من ليلة الجمعة ، وهي الساعة الأخيرة التي هي أفضل الساعات ، ومحلّ استجابة الدعوات .. ووجه اختصاص تولدها بتلك الساعة لعله أن تكون مستورة عن عيون الأجانب ، وبها عليها السلام فسّر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ فيها يفرق كل أمر حكيم ... ﴿ ^(٣) أي إنا أنزلنا نور فاطمة عليها السلام في ليلة الجمعة ، أو أنزلنا نور الإمامة في فاطمة الزهراء عليها السلام ، وهي الليلة المباركة ؛ فالضمير في «إنا أنزلناه» راجع إلى نور الإمامة ، ولذا ورد استحباب قراءة سورة القدر عشر مرّات في تلك الساعة من كل ليلة ، خصوصاً ليلة الجمعة وليلة القدر أيضاً ، هي تلك الليلة المباركة ^(٤) .

وجاء في البرهان خبر طويل ، وفيه سؤال النصراني من الإمام الكاظم عليه السلام عن الليلة المباركة في الآية ، فقال عليه السلام : وأما الليلة ففاطمة عليها السلام ، وأما قوله تعالى : ﴿ فيها

(١) ابن سيّد الناس ، عيون الأثر ، ٥/٢ ؛ وانظر الطبقات ، ٣٦/٢ .

(٢) مقاتل الطالبين ، ص ٤٨ .

(٣) الدخان : ٣ - ٤ .

(٤) المولى محمّد على القراچه داغي التبريزي ، اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء عليها السلام ، ص ٢٢٨

يفرق كلّ أمر حكيم ﴿ يقول : يخرج منها خير كثير؛ فرجل حكيم ورجل حكيم ورجل حكيم ... إلى آخر الخبر^(١) .

وهذه الأحاديث من أسرار آل محمد ﷺ ، وليس لنا من الأمر إلا تصديق ما صحّ عنهم ، وقبول ما جاء عنهم برتبة أدنى ، حتى يثبت خلافه ونرضى به ، وإن ضاقت عقولنا عن استيعابه .

عن شعيب الحدّاد قال : سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول : إنّ حديثنا صعب مستصعب ، لا يحتمله إلا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبدًا امتحن الله قلبه للإيمان ، أو مدينة حصينة .

قال عمرو : فقلت لشعيب : يا أبا الحسن وأي شيء المدينة الحصينة ؟ قال : فقال : سألت أبا عبد الله ﷺ عنها ، فقال لي : القلب المجتمع^(٢) .

وليس عجباً أن يأتي ذكر سيّدة النساء ، ومشكاة الأنوار ، وبضعة المختار ، في القرآن بطريق الرمز والكناية والإشارة «فهي سليلة النبوة ، ورضيعة درّ الكرم والأبوة ، ودرة صدف الفخار ، وغرة شمس النهار ، وذبالة مشكاة الأنوار ، وصفوة الشرف والجود ، وواسطة قلادة الوجود ، نقطة دائرة المفاخر ، قمر هالة المثائر ، الزهرة الزهراء ، والغرة الغراء ، العالية المحل ، الحالة في رتبة العلاء ، السامية المكانة المكيّة في عالم السماء ، المضيئة النور ، المنيرة الضياء ، المستغنية باسمها عن حدّها ووسمها ، قرة عين أبيها ، وقرار قلب أمّها ، الحالية بجواهر علاها ، والعاطلة من زخرف دنيها ، أمة الله ، وسيّدة النساء ، جمال الآباء ، شرف الأبناء ، يفخر آدم بمكانها ، ويبوح نوح بشدة شأنها ، ويسمو إبراهيم بكونها من نسله ، وينجح إسماعيل على إخوته إذ هي قرع أصله ، وكانت ريحانة محمد ﷺ بين أهله ، فما يجاريها في مفخر إلا مغلب ، ولا يباريها في مجد إلا مؤتب ، ولا يجحد حقّها إلا مأفون ، ولا يصرف عنها وجه إخلاصه إلا مغبون ...»^(٣) .

(١) السيّد هاشم البحراني ، البرهان ، ١٥٨/٤ .

(٢) الصدوق ، معاني الأخبار ، ص ١٨٢ .

(٣) الأربلي ، كشف الغمة ، ٨١/٢ .

التخلص ..

وأخذ الأربلي باشتقاق المعاني المفصلة من حديث عائشة القائلة: لَمَّا مرض رسول الله ﷺ دعا ابنته فاطمة فسارها فبكت، ثم سارها فضحكت، فسألته عن ذلك، فقالت: أَمَا حَيْثُ بَكَيتُ فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ مَيِّتٌ فَبَكَيتُ، ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ لِحَقِّقًا بِهِ فَضَحَكْتُ .. (١)

قال الأربلي: وبيان ذلك وتفصيل جملة أن الطباع البشرية مجبولة على كراهة الموت، مطبوعة على النفور منه، محبة للحياة، مائلة إليها، حتى الأنبياء عليهم السلام على شرف مقاديرهم، وعظم أخطارهم، ومكانتهم من الله تعالى، ومنازلهم من محال قدسه، وعلمهم بما توّل إليه أحوالهم، وتنتهي إليه أمورهم، أحبوا الحياة، ومالوا إليها، وكرهوا الموت ونفروا منه، وقصة آدم عليه السلام مع طول عمره وامتداد أيام حياته معلومة. قيل: إنّه وهب داود عليه السلام حين عرضت عليه ذرّيته، أربعين سنة من عمره، فلمّا استوفى أيامه، وحانت منيته، وانقضت مدة أجله، وحمّ حمامه، جاءه ملك الموت بقبضة نفسه التي هي وديعة عنده، فلم تطب بذلك نفسه، وجزع وقال: إنّ الله عزّني مدة عمري وقد بقيت منه أربعون سنة. فقال: إنك وهبتها ابنك داود، فأنكر أن يكون ذلك، قال النبيّ: فجحد فجحدت ذرّيته.

ونوح عليه السلام كان أطول الأنبياء عمراً، أخبر الله تعالى عنه أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلمّا دنى أجله قيل له: كيف رأيت الدنيا؟ فقال: كدار ذات بابين، دخلت في باب وخرجت من باب؛ وهذا يدلّ بمفهومه على أنه لم يرد الموت، ولم يؤثر مفارقة الدنيا، ولا استئطال أمد الإقامة فيها.

وإبراهيم عليه السلام روي أنه سأل الله تعالى أن لا يميته حتى يسأله، فلمّا استكمل أيامه التي قدر له، خرج فرأى ملكاً على صورة شيخ فانٍ كبير، قد أعجزه الضعف، وظهر عليه الخراف، ولعابه يجري على لحيته، وطعامه وشرابه يخرجان من سبيله من غير اختيار، فقال له: يا شيخ كم عمرك؟ فأخبره بعمر يزيد على عمر إبراهيم سنة، فاسترجع وقال: أنا أصير بعد سنة إلى هذه الحال، فسأل الموت.

وموسى عليه السلام لما جاءه ملك الموت ليقبض روحه لطمه فأعوره^(١)، كما ورد في الحديث، فقال: رب إنك أرسلتني إلى عبد لا يحب الموت، فأوحى الله إليه أن ضع يدك على متن ثور ولك بكل شعرة وارتها يدك سنة، فقال: ثم ماذا؟ فقال: الموت، فقال: إنته إلى أمر ربك، في كلام هذا معناه، فإن الحديث لم يحضرني في وقت نقل هذا الموضوع فأثبتته بصورة ألفاظه.

فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام وهم ممن عرفت شرفهم وعلا شأنهم، وارتفاع مكانهم ومحلهم في الآخرة، وقد عرفوا ذلك، وأبت طباعهم البشرية إلا الرغبة في الحياة، وفاطمة عليها السلام امرأة حديثه عهد بصبي، ذات أولاد صغار، وبعل كريم، لم تقض من الدنيا إرباً، وهي في غضارة عمرها، وعنفوان شبابها، يعرف أبوها أنها سريعة اللحاق به، فتسلوا موت أبيها عليه السلام وتضحك طيبة نفسها بفراق الدنيا وفراق بنيتها وبعلمها، فرحة بالموت، ماثلة إليه، مستبشرة بهجومه، مسترسلة عند قدومه، وهذا أمر عظيم، لا يحيط الألسن بصفته، ولا تهتدي القلوب إلى معرفته، وما ذاك إلا لأمر علمه الله من أهل هذا البيت الكريم، وسرّ أوجب لهم مزية التقديم، فخصّهم بباهر معجزاته، وأظهر عليهم آثار علايمه وسماته، وأيدهم ببراهينه الصادقة ودلالاته، والله أعلم حيث يجعل رسالته...^(٢)

المجلس الرابع عشر

« الإرث المغتصب »

وأنت فاطم تطالب بالإرث	من المصطفى فما وراثها
ليت شعري لم خولفت سنن	القرآن فيها والله قد أبداهها
رضي الناس إذ تلوها بما لم	يرضى فيها النبي حين تلاها
نسخت آية المواريث منها	أم هما بعد فرضها بدلاها

(١) هذه رواية باطلة، وقد رواها الشيخان عن أبي هريرة وهي من الموضوعات، وقد فندها الإمام شرف الدين عليه السلام في كتابه القيم «أبو هريرة» فارجع إليه إن شئت، فستجدها مفصلة في ص ٧٠، ط دار التعارف - بيروت.

(٢) الأربلي، كشف الغمة، ٢/ ٨١ و ٨٢ و ٨٣.

أم ترى آية الموءدة لم تات
 ثم قالاً أبوك جاء بهذا
 قال للأنبياء حكم بأن
 أفبنت النبي لم تدر إن كان
 بضعة من محمد خالفت ما قال
 سمعته يقول ذاك وجاءت
 هي كانت لله أتقى وكانت
 أو تقول النبي قد خالف القرآن
 سل بإبطال قولهم سورة النمل
 فهما ينبئان عن إرث يحيى
 فدعت واشتكت إلى الله من ذاك
 بوذ الزهراء في قريها
 حجة من عنادهم نصبها
 لا يورثوا في القديم وانتهراها
 نبي الهدى بذلك فإها
 حاشا مولاتنا حاشاها
 تطلب الإرث ضلة وسفاها
 أفضل الخلق عفة ونزاه
 ويح الأخبار ممن رواها
 وسل مريم التي قبل طها
 وسليمان من أراد انتباها
 وفاضت بدمعها مقلتها^(١)

مناقب الزهراء عليها السلام؛ الأسماء ومعانيها

لا بد في أسماء المقرّبين من مطابقة حقيقتي بينها وبين مسميّاتها، ومن الأسماء ما يضعها الواضع بالإلهام بإزاء معانيها، فتكون من حيث المطابقة كأنها أنزلت من السماء، ومنها ما هي صفات، يطلقها المجتمع على ذويها ثم تكتسب الشهرة بين الناس فتحل محلّ الإسم الأول، وتشيع بعد أن يهجر ذلك الإسم، وهذا يصحّ في جريانه بين عامّة الناس، أمّا الذوات المقدّسة المصطفّاة، وهي المعدّة في أصل وجودها، ليمثّل البشر مقاييسها، ويزن حقيقته بموازينها، والتي هي موازين المثل والمعاني بمثابة موازين التجارات، فإنّ أسماءها تنزل من السماء مطابقة لمعانيها، ويصحّ حينئذ أن يقال عن أسماءها بأنّها ذاتها، حيث أنّ من معاني الأسماء أيضاً ذات الشيء.

قال ابن عطية: يقال: «ذات ومسمّى وعين، واسم بمعنى»^(٢).

من ثمّ كانت أسماء الزهراء عليها السلام مطابقة لذاتها، وتكثرت أسماءها لتكثر حقايقها

(١) المقرم، وفاة الصديقة الزهراء، ص ١٢٥.

(٢) الكفوي، الكلّيات، ص ٨٤.

الشريفة فتحت كل إسم ، حقيقة نورانية ، أضيفت إلى ذاتها على شكل صفة غير مفارقة .
 روى الكليني عليه السلام عن أبي جعفر عليه السلام قال : لَمَّا ولدت فاطمة عليها السلام أوحى الله إلى ملك فأنطق به لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فسمّاها فاطمة ، ثم قال : إني فطمتك بالعلم ، وفطمتك من الطمث .

ثم قال أبو جعفر عليه السلام : والله لقد فطمها الله بالعلم وعن الطمث في الميثاق ^(١) .
 عن عبدالله بن الفضل الهاشمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عليه السلام قال :
 كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم جالساً وعنده علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، فقال : والذي بعثني بالحق بشيراً ، ما على وجه الأرض خلق أحب إلى الله عزّوجلّ ولا أكرم عليه منّا ، إنّ الله تبارك وتعالى شقّ لي إسماً من أسماء ؛ فهو العليّ الأعلى وأنت علي ، وشقّ لك يا حسن إسماء من أسماء ؛ فهو المحسن وأنت حسن ، وشقّ لك يا حسين اسماً من أسماء ؛ فهو ذوالإحسان وأنت حسين ، وشقّ لك يا فاطمة إسماً من أسماء ؛ فهو الفاطر وأنت فاطمة .

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم إني أشهدك أنني سلم لمن سالمهم ، وحرب لمن حاربهم ، ومحبّ لمن أحبهم ، ومبغض لمن أبغضهم ، وعدوّ لمن عاداهم ، ووليّ لمن والاهم ، لأنهم منّي وأنا منهم ^(٢) .

وفي خبر آخر عن طاووس عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ بن أبي طالب عليه السلام : لَمَّا خلق الله - عزّوجلّ ذكره - آدم ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنّته ، وزوّجه حواء أمته ، فرفع طرفه نحو العرش ، فإذا هو بخمسة سطور مكتوبات . قال آدم : يا ربّ من هؤلاء ؟ قال الله عزّوجلّ له : هؤلاء الذين إذا تشفّع بهم إليّ خلقي شفّعتهم . فقال آدم : يا ربّ بقدرهم عندك ما اسمهم ؟
 قال تعالى : أمّا الأوّل فأنا المحمود وهو محمد ، والثاني فأنا العالي وهو علي ، والثالث فأنا الفاطر وهي فاطمة ، والرابع فأنا المحسن وهو الحسن ، والخامس فأنا ذوالإحسان وهو الحسين ، كلّ يحمد الله عزّوجلّ ^(٣) .

(١) الفيض الكاشاني عليه السلام ، الوافي ، ١٧٢/١ .

(٢) الصدوق ، معاني الأخبار ، ص ٥٢ و ٥٣ .

(٣) نفسه ، ص ٥٥ و ٦١ .

وأما عن سرّ تسمية الصديقة بالإسم المبارك :

فقد روى يحيى بن أبي كثير عن أبيه عن أبي هريرة قال : إنما سميت فاطمة فاطمة لأنّ الله عزّ وجلّ فطم من أحبّها من النّار^(١) .

والظاهر أنّ هذا الإسم الشريف تعدّدت معانيها لتعدّد الجهات في مسمّاه : فمن هذه المعاني ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال : سميت فاطمة فاطمة لأنّ الله تبارك وتعالى علم ما كان قبل كونه ، فعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يتزوّد في الأحياء ، وأنّهم يطمعون في وراثة هذا الأمر من قبله ، فلمّا ولدت فاطمة سمّاها الله تعالى فاطمة لما أخرج منها من ولدها ، فجعل الوراثة في أولادها ، فقطع غير أولادها عمّا طمعوا ؛ فهذا سميت فاطمة أي فطمت طمعهم وقطعت^{(٢)(٣)} .

وعلى هذا الحديث شواهد من فعل خصوم أهل البيت عليهم السلام ، وعلى خصومهم غضب الله ، فقد بذلوا غاية الجهد ، وسعوا حثيثاً لإخراج الحسنين عليهم السلام من أبناء النّبى صلى الله عليه وآله ، والغاية من ذلك أن يخلو لهم وجه الخلافة حين يفقد النّبى الوارث ، ولكن الله سبحانه ، أدال منهم وأفلح حجّتهم .

عن أبي الجارود قال : قال أبو جعفر عليه السلام : يا أبا الجارود ما يقولون في الحسن

والحسين ؟

قلت : ينكرون علينا أنّهما أبناء رسول الله .

قال : فبأيّ شيء احتججتم عليهم ؟

قلت : بقوله في عيسى بن مريم ﴿ ومن ذرّيته داود - إلى قوله - من الصّالحين ﴾

فجعل عيسى من ذرّية إبراهيم ، واحتججنا عليهم بقوله تعالى : ﴿ قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ .

قال : فأبى شيء قالوا ؟

قال : قلت : قد يكون ولد البنت من الولد ، ولا يكون من الصلب .

قال : فقال أبو جعفر : والله يا أبا الجارود لأعطينكها من كتاب الله ، تسمّى لصلب

(١) نفسه .

(٢) علل الشرايع ، ١٧٨/٢ ؛ واللعة البيضاء ، ص ٩٥ و ٩٦ عنه .

(٣) واشتقاق فاطمة من الفطم وهو القطع ، ومنه فطم الصبي إذا قطع عنه اللبن ؛ الإشتقاق ، ص ٣٣ .

رسول الله، لا يردّها إلا كافر.

قال: قلت: جعلت فداك وأين؟

قال: حيث قال الله: ﴿وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم﴾ وسلمهم يا أبا الجارود وهل يحلّ لرسول الله ﷺ نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا نعم؛ فكذبوا والله، وإن قالوا لا؛ فهما والله أبناء رسول الله ﷺ لصلبه، وما حرّمت عليه إلا للصلب... (١)
والذي جرّأ القوم على هذا القول الباطل في الحسنين ﷺ، إنّما هي عائشة: فقد أخرج صاحب الطبقات عن عكرمة قال: كانت عائشة تحتجب من حسن وحسين. قال: فقال ابن عباس: إنّ دخولهما عليها لحل.. (٢)

ولأظنّ عائشة تجهل هذا الحكم، ولكنها ترمي إلى أمرهم ممّا تبادر إلى ذهن ابن عباس، كما لا أظنّ أنّه يجهل مرامها، ولكنه أراد أن يكشف واقع حجابها ببيان حكمه الشرعي.. (٣)

ولي ملاحظة على الحديث الشريف، وهي: أنّ القوم وإن فطم الله طمعهم بالزهراء إلا أنّ الخلافة صغت لهم دون أصحابها الشرعيين، فما معنى هذا الفطم وهذا القطع؟

والذي أراه - والله سبحانه العالم - أنّ الله قطع طمعهم بإقامة الحجّة على الناس في ثبوتها لهم إذ لولا ذرّيّة الزهراء عليها وعليهم السلام لاستطالوا بها على الناس، واعتبروها هبة من الله لهم، وحقّاً من حقوقهم، وحينئذ يتضاعف شرّهم، ويزداد ظلمهم، فيتخذون الناس خوفاً، والأموال دولاً بينهم. وليس معنى القطع هو الحيلولة بينهم وبين الوصول إلى الخلافة، لأنّ واقع الحال ينفي ذلك.

ورد تفسير اسم «فاطمة» بهذا المعنى في أحاديث كثيرة ثابتة، ولم يقتصر المعنى عليه، فهناك معان سامية أخرى اكتنفت هذا الإسم الشريف، ومنها هذا المعنى: الحسن بن عبد بن يونس بن ظبيان قال: قال أبو عبد الله ﷺ: لفاطمة ﷺ تسعة أسماء عند الله عزّ وجلّ: فاطمة، والصديقة، والمباركة، والظاهرة، والزكيّة، والراضية،

(١) المؤلف، منية الخطيب، ص ١٤٧.

(٢) طبقات ابن سعد، ٧٣/٨.

(٣) منية الخطيب، ص ١٤٠.

والمرضية ، والمحدثة ، والزهراء .

ثم قال : أتدري أي شيء تفسير فاطمة عليها السلام ؟

قلت : أخبرني يا سيدي .

قال : فطمت من الشر .

قال : ثم قال : لولا أن أمير المؤمنين عليه السلام تزوجها ما كان لها كفؤ إلى يوم القيامة

على وجه الأرض ؛ آدم فمن دونه ^(١) .

فاطمة أيضاً ..

عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : يا فاطمة

أتدريين لم سميت فاطمة ؟

فقال علي عليه السلام : يا رسول الله لم سميت ؟

قال : لأنها فطمت هي وشيعتها من النار .

عن محمد بن مسلم الثقفي قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : لفاطمة عليها السلام وقفة

على باب جهنم ، فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كل رجل مؤمن أو كافر ؛ فيؤمر

بمحب قد كثرت ذنوبه إلى النار ، فتقرأ فاطمة بين عينيه محباً ، فتقول : إلهي وسيدي

سميتني فاطمة وفطمت بي من تولائي وتولئي ذرئتي من النار ، ووعدك الحق وأنت لا

تخلف الميعاد .

فيقول الله عز وجل : صدقت يا فاطمة ، إني سميتك فاطمة وفطمت بك من

أحبك وتولاك وأحب ذرئتك وتولاهم من النار ، ووعدني الحق ، وأنا لا أخلف

الميعاد ، وإنما أمرت بعبدني هذا إلى النار لتشفعني فيه فأشفعك ولتبيّن لملائكتي

وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي ؛ فمن قرأت بين عينيه

مؤمناً فخذني بيده وأدخله الجنة .. ^(٢)

وفي خبر آخر : أنها سميت فاطمة لأنها فطمت شيعتها من النار ، وفطمت

أعداءها عن حبها ..

(١) الصدوق ، علل الشرايع ، ١٧٨/٢ .

(٢) الصدوق ، علل الشرايع ، ١٧٩/١ .

وفي البحار عن الصادق عليه السلام أنه قال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ الليلة فاطمة ،
والقدر الله ؛ فمن عرف فاطمة حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر ، وإنما سميت فاطمة
لأن الخلق فطموا عن معرفتها .

وفي الحديث القدسي : إنني خلقت فاطمة واشتقت لها اسماً من أسمائي ؛ فهي
فاطمة وأنا فاطر السماوات والأرض ^(١) .

وفي الأدعية المشهورة : إلهي بحق محمد وأنت المحمود ، وبحق علي وأنت
الأعلى ، وبحق فاطمة وأنت فاطر السماوات والأرض ، وبحق الحسن وأنت
المحسن ، وبحق الحسين وأنت قديم الإحسان ^(٢) .

العصمة ومعنى الفطم ؛ أي القطع

ذكر صاحب اللعة البيضاء تنبيهاً جديراً بالذكر والمناقشة ، آثرت ذكره هنا
للفائدة ، ولدفعه في الأذهان ، أما عرض لها ، قال :

تنبيه : بقي هنا شيء وهو أن معنى الفطم يستلزم ثبوت المفطوم عنه في
المفطوم ، بل رسوخه حتى يفطم عنه بشيء آخر يجعل بدله ، واعتبار هذا المعنى
يستلزم عدم المعصومية في الحالة السابقة .

ووجه دفع الإشكال على نحو الإجمال أن معنى الفطم وإن كان كذلك في أصل
اللغة إلا أنه يستعمل كثيراً - ولو من جهة القرائن الخارجية - فيما كان ثبوت هذا المعنى
فيه بالشأن والقوة لا بالفعل ، ولما كانت فاطمة عليها السلام من جهة أفراد الممكنات وماهية
الممكن من حيث هي من شأنها الظلمة وصدور المعصية كما قيل :

سياه روئی زمکن در دو عالم جدا هرگز نشد والله اعلم

ومن جهة ما أشير إليه كانت معصومية المعصومين إختيارية ، يستحقون بها
الحمد والفضيلة لا جبرية وقهرية ، وإلا لم يبق لهم الفضيلة في العصمة ، ولكانت
مستندة على الجبر ، ولا فضيلة في العصمة القهرية .

ويمكن أن يكون ذلك بملاحظة ما كان الناس يتصورونه من جواز صدور

(١) اللعة البيضاء ، ص ٩٧ و ٩٨ : عن تفسير الإمام الحسن العسكري ، وعنه البحار .

(٢) نفسه .

المعصية عنهم عليهم السلام مثلاً كما هو شأن البشرية، ولو من جهة الشبهة، حيث أنهم رأوهم في صورة البشر فتوهموا كونهم متّصفين بلوازم البشرية .
إلى أن يقول :

ونظير ذلك دلالة آية التطهير على الطهارة الخلقيّة الأصليّة، كما استدّلوا بها على ذلك، أي إثبات طهارتهم الذاتيّة ونظافتهم الجبليّة مع أنّ ظاهر التطهير أيضاً هو طرؤ الطهارة بعد الخبائث سيّما بملاحظة قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ بذكر الإرادة والإذهاب بصيغة المضارع، ويشعر بل يدلّ على نظافتها الأصليّة أنّ تسميتها بفاطمة، إنّما وقعت في زمان الولادة، وفي هذه الحالة لا تكليف ولا معصية البتّة، حتّى ترد الشبهة لأنّه إذا حصل الطهارة بالظم عن الشر أيام الطفولة فلا يبقى معنى لطرؤ الطهارة المستلزم لسبق الخيانة.. (١)

وهذا القول من المؤلّف لا يلتئم مع ما رواه في ص ٩٧ عن الكافي والصدوق في العلل وكشف الغمّة، والمحجّة البيضاء، عن الباقر عليه السلام أنّه قال : والله لقد فطمها الله تعالى بالعلم، وعن الطمّث، في الميثاق .. لأنّ التي طهرت في عالم الذرّ من الأخباث والأدناس ما بها حاجة إلى أن تطهّر في أيام الطفولة ...

ولكنّ المؤلّف جرى على ظاهر الحال وغفل عن الواقع المأثور عن أهل بيت العصمة . ويمكن أن يقال بملاحظة رواية الميثاق أنّها بصورة خاصّة وأهل بيتها المطهّرين بالذكر فطموا في ذلك العالم المضيء أعني عالم الذرّ والميثاق من جنس البشر كآفة، واقتطعوا من تلك الجماعة والحياة المعدّة لهم بعد التصوير بأن كوّن الله لهم حياة في العصمة والطهارة تختلف عمّا أعدّ لأمثالهم البشر من الحياة المألوفة، وبهذا يرتفع الإشكال الناشئ من اشتقاق كلمة «فاطمة» ومعناها .

ويمكن أن يضاف إلى ما تقدّم أنّ القطع بمعنى الصرف، فيقال : قطع فلان عن كذا أي صرف عنه، وحينئذ لا يلزم تلبّسه بما صرف عنه .

وعلى كلّ حال، فالمسألة لا تستدعي هذه الشدّة، ولكنّ العلماء من مدرسة أهل البيت عليهم السلام درجوا على ملاحظة المسائل من كافّة وجوها حتّى البعيد منها ..

(١) اللعة البيضاء، ص ١٠٢ و ١٠٣ .

الزهراء ..

عن جعفر بن محمد عن عمارة عن أبيه قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فاطمة لم سميت زهراء ؟

فقال : لأنها كانت إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض ^(١).

وجاء في علل الشرايع عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : لم سميت فاطمة الزهراء زهراء ؟

فقال : لأن الله عز وجل خلقها من نور عظمته ، فلما أشرقت أضاءت السماوات والأرض بنورها ، وغشيت أبصار الملائكة ، وخرت الملائكة لله ساجدين وقالوا : إلهنا وسيدنا ما لهذا النور ؟ فأوحى الله إليهم : هذا نور من نوري ، أسكنته في سمائي ، خلقته من عظمتي ، أخرجته من صلب نبي من أنبيائي ، أفضله على جميع الأنبياء ، وأخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمرى ، يهدون إلى حقي ، وأجعلهم خلفائي في أرضي ، بعد انقطاع وحيي .

وفيه أيضاً عن أبان بن تغلب قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : يا ابن رسول الله لم سميت الزهراء عليها السلام زهراء ؟

فقال : لأنها تزهو لأمير المؤمنين في النهار ثلاث مرّات بالنور ؛ كان يزهر نور وجهها صلاة الغداة والناس في فرشهم فيدخل بياض ذلك النور إلى حجراتهم بالمدينة فتبييض حيطانهم فيتعجبون من ذلك ، فيأتون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسألونه عمّا رأوا ، فيرسلهم إلى منزل فاطمة عليها السلام فيأتون منزلها فيرونها قاعدة في محرابها تصلي والنور يسطع من محرابها من وجهها ، فيعلمون أنّ الذي رأوه كان من نور فاطمة عليها السلام .

فإذا انتصف النهار وترتبت للصلاة زهر وجهها عليها السلام بالصفرة ، فتدخل الصفرة حجرات الناس ، فتصفر ثيابهم وألوانهم ، فيأتون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسألونه عمّا رأوا ، فيرسلهم إلى فاطمة عليها السلام ، فيرونها قائمة وقد زهر وجهها عليها السلام بالصفرة ، فيعلمون أنّ الذي رأوا كان من نور وجهها .

(١) الصدوق ، معاني الأخبار ، ص ٦٢ .

فإذا كان آخر النهار وغربت الشمس احمرَّ وجه فاطمة عليها السلام فأشرق وجهها بالحمرة فرحاً وشكراً لله عزَّ وجلَّ، فكان يدخل حمرة وجهها حبرات التوم، وتحمرَّ حيطانهم، فيعجبون من ذلك ويأتون النَّبِيَّ ويسألونه عن ذلك، فيرسلهم إلى منزل فاطمة، فيرونها جالسة تسبِّح الله وتمجِّده، ونور وجهها يزهر بالحمرة، فيعلمون أنَّ الذي رأوا كان من نور وجه فاطمة عليها السلام.

فلم يزل ذلك النَّور في وجهها حتَّى ولد الحسين عليه السلام، فهو يتقلَّب في جوهنا إلى يوم القيامة في الأيِّمة منَّا أهل البيت؛ إمام بعد إمام.

وفي خبر آخر عن جعفر بن محمَّد بن عمارة عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فاطمة لم سمِّت الزهراء؟

فقال: لأنَّها كانت إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السَّماء كما تزهر نور الكواكب لأهل الأرض^(١).

وعن الصادق عليه السلام: سمِّيت فاطمة الزهراء لأنَّ لها في الجنَّة قبة من ياقوتة حمراء، ارتفاعها في الهواء مسيرة سنة، متعلِّقة بقدرة الجبَّار، لا علاقة لها من فوقها فتمسكها، ولا دعامة لها من تحتها فتلزمها، لها ماء ألف باب، وعلى كلِّ باب ألف من الملائكة، يراها أهل الجنَّة كما يرى أحدكم الكوكب الدرِّيَّ الزاهر في أفق السَّماء، فيقولون: هذه الزهراء لفاطمة...^(٢)

وهذه الأحاديث يلزمنا التسليم لها، وإن خفيت علينا معانيها، والحديث الصحيح حجَّة على العقل لا العكس.

ويمكننا العثور على جانب من معنى هذا النور الذي أزهَرَ لأهل الأرض بما انبثق عنه من الأعلام، وهم الأيِّمة والعلماء والشهداء الذين أشرق بنور هدايتهم سماء الأُمَّة حتَّى أبصرت الحق معزولاً عن الباطل فاتبعته، ولولا ذلك النَّور لأطبقت ظلمة الباطل على عقول الأُمَّة فسارت على هواها ولم تبصر هداها. ومن فضل هذا النور ذلك الصرح العلمي الذي أقيمت دعائمه على ضوء سناه، وراح منذو مئات السنين يحمل اسم الزهراء عليها السلام، متفجِّراً بالعلم، تتقدَّ جذوته أحقاباً وأحقاباً، ولم تخمد

(١) الصدوق، علل الشرايع، ١٧٩/١ و١٨٠ و١٨١.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب، ٣/٣٣؛ عنه للعبة البيضاء، ص ١٠٦.

شعلته، إنّه أزهَر الفاطميين الذي أقامه أبناء الزهراء في أرض الكنانة .

الأزهر الفاطمي ..

أقامه الفاطميون بعد فتحهم لمصر في عهد المعزّ لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ودخلت الجيوش الفاطميّة مدينة مصر (الفسطاط) بقيادة جوهر الصقلي في السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ .

ودخل الجيش الفاتح الفسطاط ليلاً، وفي نفس الليلة أوّل خطّة لإقامة مدينة القاهرة لتكون لهم في مصر قاعدة ومعقلاً، وأقيم بالعاصمة الجديدة مسجد جامع، وبدء بإنشائه في ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ .

ولم يكن ذلك المسجد الجامع الذي أنشأه جوهر الصقلي في القاهرة المعزية إلى جانب القصر الفاطمي سوى ذلك الجامع الشهير- الجامع الأزهر- الذي قدّر له أن يشاطر المدينة العظيمة حياتها المديدة، وأن يبقى أثراً خالداً للدولة التي شادته .

وتّم بناء الجامع الأزهر في عامين وثلاثة أشهر، وافتتح للصلاة في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٥١ هـ .

ومنذو ذلك الحين وإلى هذا اليوم والأزهر قائم في قلب العالم الإسلامي، يؤدّي رسالته العلميّة، وتصدر عنه إشعاعات العلم والمعرفة، فتضيء دنيا الإسلام بالوهج الثقافي الساطع، ولقد أتحف الأزهر العالم الإسلامي بخيرة العقول من أبنائه العلماء والمثقفين، وقد بلغ عددهم منذو نشأته وحتى مطلع القرن الواحد والعشرين مئات الألوف من العلماء والدارسين والمثقفين .

وقد تمّ إحصاءهم في العقد الرابع من القرن العشرين أي قبل قيام الجامعة الأزهرية فبلغوا في سنة ١٩٣٨ / ١١٧٩ أي مائة ألف وأحد عشر ألفاً وسبعمائه وتسعون طالباً؛ منهم سبعمائة طالب من الغرباء من مختلف الأمم^(١) .

وهذه لمعة مضيئة من أنوار الزهراء عليها السلام التي تحدّثت عنها الروايات، وأنها كيف كانت تزهر لأهل الأرض، وما زالت هذه اللمعة تزهر في حواضر الإسلام، وتبثّ العلم والمعرفة بفضل أبناء الزهراء العلماء .

(١) نقلنا هذه المعلومات عن الأزهر من دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة، بتصرّف .

البتول ..

وذكر الصدوق في معاني الأخبار خبراً طويلاً، وفيه :

عن عمر بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب قال: إن النبي صلى الله عليه وآله سئل ما البتول؟
فإننا سمعناك يا رسول الله تقول: إن مريم بتول، وفاطمة بتول.

فقال: البتول التي لم تر حمرة قط، أي لم تحض، فإن الحيض مكروه في بنات الأنبياء^(١).

وربما كان من الأسباب الخاصة بسيدة النساء أن كونها حوراء إنسيّة، رفع عنها عادة الطمث في النساء، لأن الحوراء لا تطمث.

أبو صالح المؤذن: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله ما البتول؟

قال صلى الله عليه وآله: التي لم تر حمرة قط، ولم تحض، فإن الحيض مكروه في بنات الأنبياء.

وقال عليه السلام لعائشة: يا حميراء إن فاطمة ليست كنساء الآدميين؛ لا تعتل كما تعتلن^(٢)..

وينبغي أن يلتبس السبب لهذه الظاهرة، فإن الطمث أمر طبيعي في النساء كافة، وليس نقصاً في المرأة أن تكون لها طبيعة مستوية وخلق مشابه لبنات جنسها.. ولكن الذي يظهر لي أن الصديقة عليها السلام جنبها الله سبحانه هذه العادة فلائها تمنع من العبادة فتكون نقصاً من هذه الجهة، لذلك طهرها الله من ذلك، لئلا تحرم من فضل العبادة، والتبتل في محرابها أيام الطمث.

وإذا كان التكليف ساقطاً عنها لمكان الدم، فلا يتوجه إليها نقص بسقوطه، فإن عبادة المقرّبين والأولياء تباين ما عليه عامة الناس بالكم والنوع، فإن عليهم وراء التكليف عبادة خاصة يؤدونها، لا يستطيعها سواهم ولا يدركها من عداهم، ولا شك أن فضل العبادة من النوع الخاص مع الطهر أكثر منه مع الدم والإعتلال.

ولا يسم «بتول» معاني أخرى أفصحت عنها الروايات.

(١) معاني الأخبار، ص ٦٢.

(٢) المناقب، ١١٠/٣؛ والعوالم عنه؛ والبحار، ١٦/٤٣.

قال في النهاية : امرأة بتول ، منقطعة عن الرجال لاشهوة لها فيهم ، وبها سميت مريم أم عيسى عليه السلام ، وسميت فاطمة عليها السلام البتول لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى ، ونحو ذلك قاله الفيروزآبادي ^(١) .

وفي المناقب لابن شهر آشوب : قال عبید الهروي في الغريبين : سميت مريم بتولاً لأنها بتلت عن النظر ^(٢) .

الطاهرة ..

وهذا اللقب الشريف شاركتها فيه أمها الطاهرة الكبرى عليها الصلاة والسلام ، فقد كانت تدعى في الوسط المكي بالطاهرة ، وقد مرّ ذلك في ترجمتها .
وأما العلة في إطلاقها على سيّدة النساء عليها السلام فعن الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال :
إنما سميت فاطمة بنت محمد الطاهرة لطهارتها من كلّ دنس وطهارتها من كلّ رفس ، وما رأيت قط يوماً حمرة ولا نفاساً .

وفي المناقب لابن شهر آشوب عن الصادق عليه السلام قال : حرّم الله النساء على علي ما دامت فاطمة حيّة لأنها طاهرة لا تحيض ^(٣) .

وهي طاهرة من الأرجاس ، مطهّرة منها ، بنص الآية الشريفة ، وهذا اللقب مشترك بينها وبين من عنتم آية التطهير .

والطاهرة تنتظم مع الزكيّة بوجه وجيه ، فكأنّ أحد اللقبين مكمل للآخر :
« .. لأنّ معناه المطهّرة عن الذنوب ، وسوء الخلق ، وجميع الأرجاس الظاهرية والباطنية ؛ فالطاهرة عن الظاهرية ، والزكيّة عن الباطنية ، أو كلّ في كلّ ، وفي إطلاق لفظ الطاهرة إشارة إلى طهارتها في الأصل ، دون أن يعرض لها الطهارة بعد الخيانة ... » ^(٤) .

(١) عوالم المعالم ، ص ٣٤ : المناقب ، ١١٠/٣ .

(٢) نفسه .

(٣) المناقب ، ١١٠/٣ : العوام عنه .

(٤) اللمعة البيضاء ، ص ٢٠٥ .

المحدثة ..

عن إسحاق بن جعفر بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إنما سميت فاطمة محدثة لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما تنادي مريم بنت عمران فتقول : يا فاطمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ - يَا فَاطِمَةَ - اقْنَتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ فتحدّثهم ويحدّثونها ، فقالت لهم ذات ليلة : أليست المفضّلة على نساء العالمين مريم بنت عمران ؟

فقالوا : إنّ مريم كانت سيّدة نساء عالمها ، وإنّ الله عزّ وجلّ جعلك سيّدة نساء عالمك وعالمها ، وسيّدة نساء العالمين ؛ الأوّلين والآخريين ..

عن إسماعيل بن بشار قال : حدّثنا علي بن جعفر الحضرمي بمصر منذ ثلاثين سنة قال : حدّثنا سليمان ، قال محمد بن أبي بكر لمّا قرأ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا مَحْدُثٍ ﴾ وهل يحدّث الملائكة إلاّ الأنبياء ؟

قال : مريم لم تكن نبيّة وكانت محدّثة ، وأمّ موسى بن عمران كانت محدّثة ولم تكن نبيّة ، وسارة امرأة إبراهيم قد عاينت الملائكة فبشّروها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ولم تكن نبيّة ، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كانت محدّثة ولم تكن نبيّة .

قال مصنّف هذا الكتاب - الصدوق - : قد أخبر الله عزّ وجلّ في كتابه بأنّه ما أرسل من النساء أحداً إلى النّاس ، في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ... وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ ولم يقل نساء المحدّثون ليسوا برسل ولا أنبياء .

وقد روي أنّ سلمان الفارسي كان محدّثاً ، فسئل الصادق عن ذلك ، وقيل له : من كان يحدّثه ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين ، وإنّما صار محدّثاً دون غيره ممّن كان يحدّثانه لأنّهما كانا يحدّثانه بما لا يحتمله غيره من مخزون علم الله ومكنونه ^(١) . ولا بدع ، فإنّ القوم يروون عن عمر أنّه كان محدّثاً ، وقد كثرت الرواية عندهم حول ذلك ؛ ومن آثار ذلك أنّه كان في المدينة وسارية يقاتل في نهاوند ، فقال له : يا

(١) الصدوق ، علل الشرايع ، ١/١٨٢ و ١٨٣ .

ساريلة الجبل - في حديث ذكره المؤرخون ومنهم الطبري وابن الأثير - فكيف يستكثرون على بضعة المصطفى أن تكون محدثة..!؟

وكنت بمعينة سيدي الوالد ﷺ في زيارة لمصر، وطلب مني الوالد أن يُجرى فحصاً لعينيّه عند أطباء العيون في القاهرة، وعثرنا بعد الإستقراء والتتبع على الدكتور أحمد بهي الدين شلش، وفي عيادته أدركتنا فريضة العشائين، فرأينا أن نُؤدّيها ما دامت نوبتنا لم تأت بعد، وكانت عيادة الدكتور في بناية عمر أفندي الواقعة في ميدان التحرير، وهو من أشدّ ميادين القاهرة ازدحاماً إن لم يكن أشدّها، وسألنا عن مسجد يكون قريباً منّا، فأرشدونا إلى مصلاية تقع تحت البناية التي نحن فيها... ووقفنا لتأدية الفرض، وكانت تضيق بالمصلّين..

فتأخّرت وراء رجل يصلي، وكان مديد القامة، حالك اللون، يقوم ويقعد في حركة سريعة، كأنه يؤدّي لعبة الكاراتيه، وتوقّف عن الحركة وآثرتي بمكانه، قائلاً: هلمّ فإنّي أتركّع.. والظاهر أننا أثرتنا انتباه الرجل، فسألني بعد الفراغ عن الوطن والجنس والانتماء والمذهب، وهكذا أجرى لنا جرّداً سريعاً، وهو مستقبل القبلة، ولما علم أننا شيعة أو روافض - كما سمّانا - ألقى علينا هذا السؤال وهو واثق من صحّته: لماذا تزعمون أنّ جبرئيل غلط في الرسالة، فقد بعث إلى عليّ ولكنّه خان وأنزلها على محمّد؟

وأخذت أميط عن ذهنه ما علّق به من هذا الوضّر المتراكم، وأخيراً قلت له: بل أنتم تقولون ذلك وهي مقالاتكم، وقد صحّ فيكم المثل القائل: رمتني بدائها وانسلت. فاستشاط غضباً، واحولّت عيناه، وانتفخ سحره، وعلا صوته، وهمهم مع نفسه، فعلمت أنّها شيمة أخفاها، وأجابني وهو مأخوذ بما قلت له: وكيف ذلك؟! فقلت له: روى حفاظكم في الصحيح أنّ التّبيّ قال: كنت أظنّ إذا انقطع عنيّ جبرئيل أنّه ذاهب إلى عمر، أو كما قال.. أليس هذا من سنخ ذاك القول ولكن بتحسين بسيط، وهذا الحديث الموضوع إن لم يرم جبرئيل بالخيانة فإنّه يحتملها فيه، فليس غريباً أن يخون بصرف النبوّة إلى عمر...

وحينئذ هدأ روعه، وقال: لم أسمع بهذا قط.

قلت له: فأسمعه الآن ثمّ أرم به الأبرياء من المذاهب الأخرى.

الجفر ومصحف فاطمة عليها السلام

ويدخل تحت اسم محدثة معنى الجفر والمصحف المنسوب إلى الصديقة عليها السلام. ذكر حماد بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: تظهر الزنادقة سنة ثمانية وعشرين ومائة، وذلك لأنني نظرت في مصحف فاطمة.

قال: فقلت: وما مصحف فاطمة؟

فقال: إن الله تعالى لما قبض نبيه عليه السلام دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل إليها ملكاً يسألها عنها غمها، ويحدثها، فحكّت ذلك إلى أمير المؤمنين، فقال لها: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت، قولي لي، فأعلمته، فجعل عليه السلام يكتب كلما سمعت، حتى أثبت من ذلك مصحفاً.

قال: ثم قال: أمّا إنه ليس فيه من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون... وعن أبي عبيدة قال: سأل أبا عبد الله بعض أصحابنا عن الجفر، فقال: هو جلد ثور مملوء علماً.

فقال له: ما الجامعة؟

قال: تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج، فيها كل ما يحتاج إليه الناس، وليس من فضية إلا وفيها حتى أرش الخدش.

قال له: فما مصحف فاطمة؟

فسكت طويلاً ثم قال: إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون؛ إن فاطمة مكثت بعد رسول الله عليه السلام خمسة وسبعين يوماً، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبرئيل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطبّب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك؛ فهذا مصحف فاطمة.

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام: مصحف فاطمة فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرّات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد، وليس فيه من حلال وحرام، ولكن فيه علم ما يكون^(١).

(١) راجع الكافي، بصائر الدرجات؛ عنه البحار والموالم؛ واللعة البيضاء، ص ١٩٦ و ١٩٧.

وليس حديث الملك مع الصديقة من شاكلة وحي الأنبياء، بل هو حديث خاص يقرب من الإلهام الذي يلهمه العبد الصالح، ويختلف عنه بشدة وضوحه وظهور مصدره وهو الملك، يدل على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام للصديقة عليها السلام: إذا أحسست بذلك الصوت... ولم يقل إذا رأيت صاحبه، فهو من قبيل الإحساس، وهذا ليس غريباً حدوثه للناس كافة، فضلاً عن الأولياء المقربين.

ولكن إحساس هؤلاء يختلف عن أولئك بوضوح الرؤية والثقة بالمصدر والصدق، وربما تصاحبه حالات خاصة عندهم لا يدركها البشر العادي، وبهذا يرتفع عن الأذهان ما يلصقه بها المنافقون والضالون ودعاة المادية..

وأما الجفر فهو من هذا القبيل أي الحديث الذي كانت تسمعه سيدتنا فاطمة من الملك وكانت تكتبه حتى حصل عندها صحيفة مشتملة على أربعين ورقة، فلما تمت جعلتها في ظرف من الأديم فختمته بخاتمها الكريم، ومن جملة العلوم الموجودة في هذا الأديم - الطلسمات - والنيرنجات والإخفاء وطبي الأرض، والكيمياء والليمياء والسيمياء والريمياء، والنصيب والعزل والقبض والبسط والعقد والحل والتصرف في الحياة والممات والرزق والرمل، والأعداد، والجفر...^(١)

وكان الشيخ أحمد الإحسائي، ينسب إلى نفسه أكثر هذه العلوم، ولعلّه يشير من ظرف خفي إلى حصوله على الجفر.

لقد عجبوا لأهل البيت لما
أتاهم علمهم في جلد جفر
ومرأة المنجم وهي صفري
تريه كل عامرة وقفر

المنصورة..

موسى بن علي بن موسى بن عبد الرحمان المحاربي معنعناً عن أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي عليهما السلام عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: معاشر الناس تدرون لما خلقت فاطمة؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: خلقت فاطمة حوراء إنسية لا إنسية.

(١) ذكر هذا كله صاحب اللمعة البيضاء في حديث طويل نقلنا منه هذه الجملة، انظر ص ١٩٨ و ١٩٩.

وقال : خلقت من عرف جبرئيل ومن زغبه .

قالوا : يا رسول الله استشكل ذلك علينا ؛ تقول : حوراء إنسيّة لا إنسيّة ، ثم تقول :

من عرف جبرئيل ومن زغبه .

قال : إذا أنبتكم ؛ أهدى إليّ ربّي تَفَاحَة من الجنّة ، أتاني بها جبرئيل عليه السلام فضمّها إلى صدره ، فعرق جبرئيل وعرفت التَفَاحَة ، فصارع عرقهما شيئاً واحداً ، ثم قال : السّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . قلت : وعليك السّلام يا جبرئيل . فقال : إنّ الله أهدى إليك تَفَاحَة من الجنّة ، فأخذتها وقبّلتها ووضعها على عيني وضممتها إلى صدري ، ثم قال : نعم قد أمرت بأكلها فأفلقتها فرأيت منها نوراً ساطعاً ، ففرغت من ذلك النّور ، قال : كُُلْ فَإِنَّ ذَلِكَ نور المنصورة ، وفي الأرض فاطمة . فقلت : يا جبرئيل ! ومَن المنصورة ؟ قال : جارية تخرج من صلبك واسمها في السماء المنصورة وفي الأرض فاطمة . فقلت : يا جبرئيل : ولم سمّيت في السماء المنصورة وفي الأرض فاطمة ؟ قال : سمّيت فاطمة في الأرض لأنه فطمت شيعتها من النّار ، وפטّموا أعداءها عن حبّها ، وذلك قول الله في كتابه : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ... ﴾ بنصر فاطمة عليها السلام (١) .

وقفه على شاطئ فرات

هذه الرواية التي سلفت توّاً ، جاءت في تفسير فرات الكوفي ، وهو فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي ، من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام ، له تفسير كبير ، قال عنه في البحار : لم يتعرّض الأصحاب لمؤلّفه بمدح ولا ذمّ ، ويكفيه فخراً أن يروي الصدوق عنه ، وإن كان بواسطة الحسن بن محمّد بن سعيد الهاشمي ، وروى عنه الحاكم أبو القاسم الحسكاني في شواهد التنزيل وغيره (٢) .

وقد زعم محقق كتابه التفسير ، أنه من أعلام الغيبة الصغرى (٣) وكيف يكون كذلك وهو من أصحاب الإمام الرضا كما مرّ عليك من قول الأمين رحمه الله تعالى ؟

(١) تفسير فرات الكوفي ؛ عنه عوالم العلوم ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢) الأمين ، أعيان الشيعة ، ٣٩٦/٨ ، بتصرف .

(٣) تفسير فرات الكوفي ، المقدمة ، بقلم محمّد كاظم ، ص ١٠ .

وكيف كان فإنَّ محقِّق الكتاب يعترف أنَّ صفحات التاريخ لم تنقل إلينا من حياته شيئاً ، ولم تفرد له الكتب الرجاليَّة التي بأيدينا له ترجمة ؛ لا بقليل ولا كثير ، ولم تذكره حتَّى في خلال التراجم ^(١) .

وقد نصَّ الثقة الثبت على عن أصحاب الإمام الرضا والجواد والهادي عليهم السلام ^(٢) ، وهذا يُثبت قول محقق كتابه ، والذي يؤخذ على مؤلف الكتاب أنه يروي عن مشايخه البالغين إلى نيِّف ومائة كلَّهم من رواة أحاديثنا بطرقهم المسندة إلى الأيِّمة الأطهار عليهم السلام وليس لأكثرهم ذكر ولا ترجمة في أصولنا الرجاليَّة ، ولكن من المؤسف أنه عمد بعض إلى إسقاط أكثر الأسانيد واكتفى بقوله مثلاً فرات عن حسين بن سعيد معنعناً عن فلان ، وهكذا في غالب الأسانيد ، واكتفى بقوله معنعناً إلى أنَّ الرواية التي ذكرها فرات كانت مسندة معنعة وإنَّما تركها للاختصار ^(٣) .

وهذا لا يكفي الباحث في الحكم على الرواية لأنَّ ذهاب السند محلٌّ في رتبة الرواية ، وعلى كلِّ حال فإنَّ بعض ما ورد في تفسير فرات يحتمل المناقشة كهذه الرواية ما زة الذكر ، بخاصَّة ما ورد فيها ممَّا يحتاج إلى استيضاح ، منها هذا التقابل بين إنسيَّة ولا إنسيَّة . ومنها خلق الصديقة عليها السلام من عرف جبرئيل وزغبه ، فما معنى عرق الكائن النوراني المجرَّد ؟ ... وهل يزيد الزهراء وهي الأفضل من الملائكة شرفاً أن تُخلق من هذين ؟! ألا يكفيها أنَّها بضعة من سيِّد الخلق ؟ ثمَّ ما سرُّ فرغ النَّبيِّ من تَفَاحة أمرها كلها بعد أن فلقها ورأى نورها ؟ وهل يفزع من نور تَفَاحة من عُرج به إلى السَّماء ورأى الملاء الأعلى بأَمِّ عينيه ؟

كلُّ هذا ومثله يحملنا على قبول كثير من الروايات بتحفظ شديد ، وليس لنا إلى الإنكار سبيل ، ما دامت هناك محامل لا يمتنع حمل الرواية عليها ، وممَّا لا ريب فيه أنَّ متشابهة السِّنة نكل علمه إلى الله وإلى الراسخين في علمها ، وعلينا أن نقول : أمنا .

(١) نفسه .

(٢) أغا بزرك الطهراني ، الذريعة ، ٢٩٨/٤ .

(٣) الذريعة ، ٢٩٨/٤ .

حوراء إنسيّة ..

في خبر عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : دخلت الجنة في ليلة الإسراء ، فأدناني جبرئيل من شجرة طوبى ، وناولني من ثمارها ، فأكلته ، فحوّل الله ذلك ماءً في ظهري ، خلق منها فاطمة ، فما قبلتها قط إلا وجدت رائحة شجرة طوبى منها ..^(١)

والخبر في هذا المعنى مشهور مستفيض ، وقد ذكرنا جانباً منه فيما تقدّم .. ويمكن تقريب هذا التقابل العجيب إلى عقولنا ، بأن نطفة الصديقة عليها السلام تخلقت بين المجردات في عالم الرضوان ، حين كان أبوها ﷺ في السماوات العلى عند سدرة المنتهى ، ومن هذه الجهة اعتبرت مشتملة على طبيعة الحور ، وهي طبيعة النورانية والتجريد .

ثم هبط النَّبِيُّ ﷺ إلى الأرض ، فجرت على النطفة المجردة أحكام الأرض حين اشتملت عليها سيدتنا خديجة الكبرى ، فتخلقت في ذلك الرحم الأمين والقرار المكين .

فهي من جهة تكوّن النطفة حوراء مجردة حين كانت تجري في صلب النَّبِيِّ ﷺ ، وهي من جهة تخلقتها في رحم خديجة عليها السلام إنسيّة ؛ فكانت حاوية للطبعتين ، مشتملة على الخلقين ...

الصديقة . المباركة الراضية المرضية ..

هي آيات على ما اتّسمت به عليها السلام من الصدق والبركة والرضا والطمأنينة ..^(٢) ومعنى أنها صديقة ، الصديق على وزن فعيل ، للمبالغة ، والصديق المداوم على التصديق بما يوجب الحق ، وقيل : الصديق الذي عادته الصدق ، فكلاهما صادقان هاهنا يعني تلازم الصدق فيما تكلمت ، أو التصديق فيما جاء به الأنبياء . وفي الخبر : فاطمة صديقة ، ولم يكن بعلمها إلا صديق ، ومريم كانت صديقة في قوله تعالى : ﴿ وَأُمّه صديقة ﴾ إلا أنّ فاطمة هي الصديقة الكبرى .

(١) اللعة البيضاء ، ص ١١٤ ؛ وتفسير القمي ، ١/٣٦٥ سورة الرعد ؛ وعنه البحار والعوالم .

(٢) أبو علم ، أهل البيت ، ص ١١٢ .

وسميت بالمباركة يعني يجعل الله البركة في نسلها، وهي المسماة على لسان الجليل في الإنجيل بالمباركة .

قال عبدالله بن سليمان: قرأت في الإنجيل في وصف النبي: نكاح النساء، ذوالنسل القليل، إنما يكون نسله من ابنة له مباركة؛ يعني هي التي أعطى الله البركة في نسلها بحيث أن الكفرة والفجرة كلما اجتهدوا في أن يبيدوا نسلها عن جديد الأرض أبقى الله ذلك .

وفي بعض التفاسير: ﴿ إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكُوْثَرَ ﴾ يعني الخير الكثير من فاطمة، وهو كثرة الذراري، ولذا قال ﷺ: ذرية كل نبي من صلبه وذريتي من ابنتي فاطمة . وسميت الطاهرة، قال الباقر عليه السلام: سميت فاطمة بنت محمد بالطاهرة لطهارتها من كل دنس، وطهارتها من كل رث، وما رأت حمرة قط، ولا نفاساً، ومن أجل ذلك كانت النساء محترمة على علي ما دامت فاطمة حية، لأنها طاهرة لا تحيض، ومعنى أنها زاكية؛ فهي زاكية النفس كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾؛ فهي ممن زكَّاهَا الله .

وسميت بالراضية والمرضية، فهي الراضية من الله، والمرضية عنده، وهي ممن قال الله فيها: ﴿ .. رضي الله عنهم ورضوا عنه .. ﴾ ولا يخفى أن درجة الرضا درجة ليس فوقها درجة، كما قال الله تعالى: ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

وقيل: السبب في أنها سميت بالراضية والمرضية ولقبت بها هو أنها طلبت من أبيها خادمة، فعلمها التسبيح، فقالت: رضيت عن الله ورسوله ..

هذا مجمل أسماءها الشريفة، وهي حاملة لصفاتها وخصائصها الذاتية الكريمة، ولها أسماء أخرى جاءت عن أهل البيت الطاهر عليه السلام، ومنها: الحصان، الحرّة، اليسرة، النورية السماوية، الحانية، مريم الكبرى، الصديقة الكبرى .. وهكذا..^(١) وهذه الأسماء كلها مشتقة من ذاتها الشريفة، ومنتزعة من صفاتها الكريمة، وليست مرتجلة كباقي الأسماء، كما أنها ليست لمحض الحب والرضا .

كناها.. أم أبيها

وهذه الكنية كَنَّاها بها رسول الله ﷺ.

في مقاتل الطالبين بإسناده إلى جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام أن فاطمة عليها السلام كانت تكتنى «أم أبيها».

وفي المناقب لابن شهر آشوب: كناها: أم الحسن، أم الحسين، وأم المحسن، وأم الأيمّة، وأم أبيها...^(١)

وذكر الفاضل المجلسي رحمته الله قال: إن لها عليها السلام خمس كنى هي: أم الحسن، وأم المحسن، وأم الحسين، وأم الأيمّة، وأم أبيها.

وذكر بعضهم أن من جملة كناها: أم الخيرة، وأم المؤمنين، وأم الأخيار، وأم الفضائل، وأم الأزهار، وأم العلوم، وأم الكتاب، وعليه أول بعضهم قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ .. ﴾^(٢)

وفي كشف الغمّة: كان النبي ﷺ يعظم شأنها، ويرفع مكانها، وكان يكتئبها بـ «أم أبيها» ويحلّها من محبته محلاً لا يقاربه فيها أحد، ولا يوازئها^(٣).

والسرّ في كنيته بذلك واضح أشدّ الوضوح، وقد مرّ شيء من ذلك سلفاً، ونقول عوداً على بدء:

أولاً: يريد النبي ﷺ إعلاء شأنها ورفع مقامها وإظهار منزلتها في المسلمين، فأعطاها رتبة الأم من حيث الحقّ والواجب، وعظم المقام ولا جرم، فحقّ الأمّ مقدّم على كلّ حقّ ما عدا حقّ الله ورسوله.

ثانياً: كانت الزهراء في حبّها لأبيها وحبها عليه ورعايتها له فاقت الحدود المتصوّرة لحبّ الأبناء إلى آبائهم، فكان حبّها في جوهر ذاته هو حبّ أمومي رؤوم، ولقد أتاحت لأبيها أن ينعم بظل هذا الحب، الذي فقدّه بعد أن فقد سيّدتنا أمانة ابنة

(١) مقاتل الطالبين، ومناقب ابن شهر آشوب؛ عنهما معالم العوالم، ص ٣٧.

(٢) اللعة البيضاء، ص ١٢٢ و ١٢٣.

(٣) كشف الغمّة، ص ٩٠.

وهب عليها الصلاة والسلام، كما أنّ حبّ الصديقة نظير ومشابه بل هو عين الحب الذي كانت تشيعه سيّدتنا خديجة الكبرى في ذلك الجو الأسري الكريم، ولم يفقد النبي ﷺ منه شيئاً وإن فقد صاحبتة .

ثالثاً: لما كان النبي ﷺ هو والأئمة من أولاده نفس واحدة، وبما أنّ الصديقة الطاهرة هي أمّهم، فكانها أمّ أبيها من هذه الجهة .

وهناك جهات أخرى لو أردنا إثارتها من هذه الكنية لعثرنا على معاني جليّة ومرامٍ شريفة، ولكن لا موجب لذلك الآن، وقد أطال صاحب اللمعة البيضاء في التماس الوجوه والتأويلات بما أخرجته عن حدّ الإعتدال وأصقته بالفلسفة، وقد عقد بين الكنية الشريفة «أمّ أبيها» وبين المعاني التي استخرجها منها، بعلاقة واهية جداً، وطاف في فكره محلّقاً حول المعاني فتصوّر أنّ من من معاني أمّ أبيها أنّ الضمير يعود إلى آدم فتكون الزهراء أمّ العالم .

واستشهد ببيت شعر واهي القوي، ضعيف، ونسبه إلى الإمام أمير المؤمنين، وكنا ونحن صغار نحاجي به الأقران في ساعات اللهو البريء . والبيت هو :

ولدت أمّي أباهما إنّ ذا من عجبات

وأبسي طفل صغير في حجور المرضعات

يقول : فجعلها أمّاً لنفسه ولأبيها؛ فالظاهر إرادة كونها أمّها .. (١)

وليس من داع يقتضي هذا التأويل الغثّ، وإنّ من بليّتنا في هذه العقول الجامحة أنّها تنقلت في تأويلها فتأتي بالعجائب والغرائب، وتسيء إلى المذاهب، وتحسب أنّها تحسن صنعاً .

ولم يحالف صاحب اللمعة البيضاء في جعل سيّدة النساء أمّ أبيها آدم التوفيق الذي حالف العمري في جعل بعلمها أباً لآدم حيث قال :

يا اباالأوصياء أنت لطفه صهره وابن عمّه وأخوه

إنّ لله في معانك سرّاً أكثر العالمين ما علموه

أنت تأتي الآباء في منتهى الدور وأبائه تعدّ بنوه

(١) راجع اللمعة البيضاء، ص ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ .

خلق الله آدمًا من تراب فهو ابن له وأنت أبوه^(١)
 وأمّا باقي كنى الصديقة الطاهرة فهي واضحة بيّنة لا نحتاج إلى إعمال رويّة
 وعقل في تتبّع معناها .

التخلص

وقد ذكر صاحب اللمعة البيضاء لباقي كناها معانٍ مقبولة من قبيل قوله :
 وأمّا الكنى الأخيرة للزهراء ممّا أضيف فيها الأم إلى لفظ الخيرة والمؤمنين
 والأخبار ونحو ذلك حيث جعلت فاطمة أمّاً لهم ؛ فهم في الظاهر المؤمنون من هذه
 الأمة ، وأمّا في الحقيقة فعام شامل لجميع الأنبياء والأولياء والصدّيقين والشهداء
 والصالحين ، ومن دونهم من المؤمنين من الأوّلين والآخريين ، بل الملائكة أجمعين .
 وأمّ الفضائل أي مجمعها ، وأمّ الأزهار أي مبدأها ومنشأها ، وأمّ العلوم أي
 مأخذها ، وأمّ الكتاب أي التدويني والتكويني حيث أنّها مشتملة على ما فيها من
 تفاصيل^(٢) ... تجدها في مظانّها .

أمّ الحسن وأمّ الحسين ، هما السبطان سيّد شباب أهل الجنّة .
 وأمّ المحسن ؛ هو الجنين الذي أسقطته بين الحائط والباب بضرب الرجل ، حين
 هجم هو وجماعته على البيت وأحرقوا الباب ، عاشت بعد ذلك أياماً قليلة كما أخبرها
 المصطفى صلى الله عليه وآله ، ثمّ لحقت به في الرفيق الأعلى ، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر .

قد بقيت بعد أبيها المصطفى	شهرًا وعشرًا فعلى الدنيا العفا
وقيل شهرين ونصف شهر	قد بقيت بعد أبيها الطهر
وقيل تسعين من الأيام	وخمسة تكون بالتمام
وقيل في ذلك أقوال آخر	وما ذكرناه هو الذي اشتهر
هذا ولكن أوّل الأقوال	أنسبها بمقتضى الأحوال
فإنّها لاقت من الأهوال	وسيّئ الأحوال والأفعال
ما لم يلاقٍ بعضه الجبالا	لزلزلت من وقعته وزالا

(١) ديوان الباقيات الصالحات ، ص ٤٧ .

(٢) اللمعة البيضاء ، ص ١٣١ .

يكفي لموتها من الأخطار وقعة بين الباب والجدار
في دارها قد هجموا عليها قد رَوَّغوها وأخافوا ابنيها

المجلس الخامس عشر

«.. جرَّعها من بعد والدها الغيظ ..»

ثمَّ قالت فنحلة لي من وا لدي المصطفى فلم ينحلاها
فأقامت بها شهوداً فقالوا بعلمها شاهد لها وابناها
لم يجيزوا شهادة ابني رسول الله هادي الأنام إذ ناصباها
لم يكن صادق عليّ ولا فا طمة عندهم ولا ولداها
كان أتقى لله منهم عتيق قَبَّح القائل المحال وشاها
جرَّعها من بعد والدها الغيظ مراراً فبئس ما جرَّعها
أهل بيت لم يعرفوا سنن الجو ر التبأساً عليهم واشتباها
ليت شعري ما كان ضرهما الحفظ لعهد النَّبِيِّ لو حفظاها
كان إكرام خاتم الرسل الهادي البشير النذير لو أكرماها
إنَّ فعل الجميل لم يأتيه وحسان الأخلاق ما اعتمداها
ولو ابتيع ذاك بالثمن الغالي لما ضاع في اتِّباع هواها
أترى المسلمين كانوا يلومونها في العطاء لو أعطياها؟
كان تحت الخضراء بنت نبيِّ صادق ناطق أمين سواها؟
بنت من؟ أم من؟ حليلة من؟ ويل من سنَّ ظلمها وأذاها^(١)

مناقب الزهراء .. الأحاديث الواردة في حقِّها عليها السلام

الأحاديث في حقِّ سيِّدة النساء كثيرة، رواها الحفاظ من الفريقين، وحفلت بها صحاحهم ومسانيدهم، ومنها صحيحا البخاري ومسلم. ونحن نسوق جملة نافعة

(١) المقدم، وفاة الصَّدِّيقة الزهراء، ص ١٢٦ و ١٢٧.

منها إنشاء الله سرداً، إلا إذا اقتضت الحاجة التعليق منّا، فإننا لآنألو جهداً في بيان ما يعرض لنا من النكات المفيدة بإذن الله وحسن توفيقه، ونبدأ بحديث «البضعة». روي هذا الحديث بسياقات مختلفة، وغير فيه الرواة وتصرف فيه محرّجوه، وممن تصرف فيه البخاري، وإليك جملة منه مع الإشارة إلى موضع التغيير والتحريف:

١ - عن المسور بن مخرمة أنّ رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني.

أخرجه البخاري في الجزء الخامس من كتابه ص ٢٦ وص ٣٦ مطابِع الشعب، مصر ١٣٧٨.

وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة بالسياق التالي:

عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله ﷺ: إنّما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها^(١).

تصرف البخاري في كلمتين منه، وهما «يؤذيني ما آذاها» فاستبدل بهما جملة أخرى، تعتبر أدنى في التعبير عن الألم منهما، وهي «من أغضبني أغضبها»، ونحن نستوفي السياقات الأخرى للحديث ثم نوقفك على السبب إنشاء الله تعالى. في رواية البيهقي: فاطمة مضغة مني يقبضني ما قبضها، ويبسطني ما بسطها، وإنّ الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري^(٢). وله سياق آخر وفيه الجملة المحذوفة:

.. عن المسور بن مخرمة أنّ رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني.

وقال البيهقي: رواه البخاري في الصحيح عن أبي الوليد، ورواه مسلم عن أبي معمر عن سفيان، والظاهر أنّ السياق عندهما واحد، كما هو عند البيهقي، ولكن يداً أخرى امتدّت إلى الحديث قصداً، فحرّفت الكلم عن مواضعه، أو أنّ البيهقي اكتفى

(١) صحيح مسلم، ١٩٠٣/٤، ط دار إحياء الكتب العربيّة ودار الكتب العلميّة، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي.

(٢) سنن البيهقي الكبرى، ٦٤/٧.

بتطابق المعنى عند البخاري دون اللفظ، ذلك محتمل أيضاً .
 وفي المستدرک : فاطمة مضغة مني فمن آذاها فقد آذاني (١) .
 وسارع الذهبي فرماه بالإرسال، وهي شنشنته المعروفة في كل حديث لا يتفق
 ومذهبه، وأطلق القول ولم يقيد الإرسال بسند الحاكم، والحديث فضلاً عن كونه
 صحيحاً فهو متواتر معني، ولفظاً، كما هو متفق عليه عند القوم .
 وفي كنز العمال : إنما فاطمة بضعة مني ومن آذاها فقد آذاني .. (٢)
 وعند البغوي في شرح السنة : فإتما هي بضعة مني يريني ما أرابها ويؤذيني ما
 آذاها (٣) .

وفي مشكاة المصابيح عن المسور بن مخرمة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال :
 فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني .
 وفي رواية : يريني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها .
 قال البغوي : متفق عليه (٤) .

هذه المصادر ومثلها معها اتفق على إخراج جملة «من آذاها فقد آذاني» أو ما
 يؤدي نفس المعنى بتغيير بسيط، راجع على سبيل المثال :
 المغني عن حمل الأسفار للعراقي، وتفسير ابن كثير، وسلسلة الأحاديث
 الصحيحة للألباني، ومسند الإمام أحمد، وفتح الباري، ومجمع الزوائد وغيرها، تجد
 الحديث وفيه الجملة التي بترت منه .
 وكذلك راجع كشف الخفاء، وجواهر البحار، ومصادر أخرى تعدد بالعشرات،
 إن لم تكن بالمثات .
 خلا أن الأيدي المغرضة، امتدت إلى الحديث الشريف فاقتلعت هذه الجملة
 لغاية في النفس، سوف نتحدث عنها بإذن الله .

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ١٥٩/٣ .

(٢) كنز العمال، ١١١/١٢، رقم التسلسل : ٣٤٢٤١ .

(٣) البغوي، شرح السنة، ١٥٦/١٤ .

(٤) ملأ علي القاري، مرقاة المفاتيح، ١٠/٥١٣ و٥١٤ .

لماذا بتروا الجملة المذكورة..؟!

من المعلوم تاريخاً، الثابت واقعاً، أنّ خصوم الزهراء الذين آذوها وأغضبوها هم أئمة القوم، وإنّ للقوم علقه خاصّة بهم، مضافاً إلى كونهم يؤثفون أس الهيكل العقيدى لأهل السنة والجماعة، وتصرفهم بعد وفاة النبي يدلّ على أمرين لا ثالث لهما:

أولهما: أن يكون هذا التصرف أملاه عليهم، إنحراف أهل البيت عليهم السلام عن جادة الصواب، فكان من حقّ الصحابة أن يقفوا منهم تلك المواقف الصلبة القاسية ليردوهم إلى حضيرة الحق بعد انحرافهم عنها.

والحقّ خلاف ذلك، فما من مسلم وإن كان نصيبه من الإيمان نزرأ وأعطف عليه المنافق أيضاً يستطيع أن يدعي هذه الدعوى التي يكذبها شاهد الحال، بل لم يقل بها أحدٌ لحدّ الآن، وإئتما نفرضها فرضاً كفرض المحال ليتسّق لنا الجدل وتستقيم الحجّة في المناظرة.

الثاني: أن يكون الإنحراف أتى من جهة الأصحاب وهو الإنقلاب الذي حدّره الله منه ونهاهم عنه.

وكان سلوكهم مع أهل البيت بخاصّة بضعة النبي جافياً وقاسياً، ممّا جرّ أشدّ الدوهي تفاقماً على هذه الأمة حيث استهانت جرّاء موقف الصحابة الأول بهم دماً وكرامة، وأنزلت بهم من الدوهي ما لم تنزله بأحد من خصوم الإسلام الذين حاربوهم في عهود الإسلام كافّة.

وقصد القوم من أهل بيت النبي بضعته ووديعته في الأمة، فغضبوا إرثها، وصادروا نحلّتها، وهجموا عليها خدرها، وأحرقوا بابها، وانتهكوا حرمتها، وبقيت بعد أبيها طيلة عمرها الذي لم يتجاوز الشهور في همّ دائم وحزن دائم، كثيرة البكاء، عظيمة الشجا، متواصلة الأسى، تدعو فلا تجاب، وتستغيث فلا تغاث، وتبكي فلا تُرحم.

وكانت عليها السلام غاضبة عليهم، مشيحة بوجهها الكريم عنهم، وقد جابهتهم بخطب نارية، نكّدت عليهم عيشتهم، وسفّحت حلومهم، وأفلجت حجّتهم، وأبطلت دعواهم، كلّ هذا والقوم لا يزدادون إلاّ صمماً وعمى، وكانت تقول لأولهم:

دونكها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك ، حيث الحكم الله والخصم رسوله ، والموعود القيامة .

وتسمي ثالثهم «أحيول قريش» وما كانت لتقول هذا مع الأخيار والأبرار ، باعتبارها منزّهة عن الحقد بنص الآية الشريفة ﴿ وَيَطْهَرُكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، ومن حيث كونها سيّدة نساء العالمين ، كما وصفها أبوها .

وإنما أرادت أن تعبر عن أقصى الألم والأذى والغضب منهم وعليهم ، فإذا ثبت أنهم آذوا الزهراء ، فقد آذوا أباهما كذلك ، وقد بينت الآية حال من آذى النبي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (١) .

وأثبت الحديث مورد الذكر ، أنّ أذاية أهل البيت ؛ فاطمة وبعلاها وابنيها ومن دونهم منهم أذاية للنبي ﷺ لأنهم بضعة منه بوسائط ، جعلنا الله تعالى ممن يحترم جانبه الشريف نسباً وسبباً... (٢)

وقد أفنى المسلمون كافة بكفر ولعن من تقصد أذاية النبي ﷺ :
سأل رجل القاضي أبابكر بن العربي عن رجل قال : إنّ أبوي النبي ﷺ في النار ، فأجاب بأنّه ملعون لأنّ الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ قال : ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبويه أنّهما في النار .

ونظم محمّد العاقب هذه الفتوى فقال :

ومن يقل في النار والد النبي فهو لعين قاله ابن العربي
ومن يقل بالنار ربي يحرق أم النبي كافر يحرق... (٣)

ومعلوم أنّه استحقّ ذلك ، لأنّه يؤذي النبيّ وحينئذ ألا يمتدّ لسان من هذا اللهب فيتناول من آذى الزهراء ﷺ ، من هنا ركّز القوم على الجملة مورد البحث فحذفوها لكلاً تطال القوم الذين ظلموا الزهراء وآذوها ، ولكن فاتهم أنّ الذي أبقوا ليس أخف ممّا حذفوا ، لأنّ الله يغضب لغضب الزهراء ، وحال من غضب عليه الله معلوم .

(١) الأحزاب : ٥٧ .

(٢) الشيخ عبدالله بن عبدالقادر التليدي ، جواهر البحار ، ٤٩٧/٢ .

(٣) زاد المسلم ، ٥/٢ .

لمن تشير أصابع الاتهام؟!

جرت عادة القوم على التصرف بالنصوص الدينية، لتساير المذاهب والإتجاهات، وربّ جملة في رواية أو حديث لم ترق للقوم، فاعملوا فيها مشارطهم ولا أقول أقلامهم، فاستأصلوها من الأصل، وأبدلوها بأخرى، تنفق مع المراد، وتنسجم مع الشهوات، وعذرهم أنّ رواية الحديث كانت بالمعنى، فالتصرف في الألفاظ، إذا كان لا يؤثر على المعنى، لا ضير فيه، وهذه خدعة الصبي عن اللبن، لأنّ الحال إن كانت على ما ذهبوا إليه، فإنّ السنّة عندئذٍ، تصبح في مهبّ الأهواء، يستحيل والحال هذه أن يفيد منها المسلم، وتكون عرضة للزيادة والنقصان، ويكون لكل مدّع أن يزيد في الحديث ما شاء وينقص منه ما شاء، ليلائم مجال ادّعائه، فلا يكون الحكم لها على الأهواء، بل للأهواء عليها.

وهذه ضربة قاضية توجه إلى السنّة بعد تلك الضربة التي وجهها عمر بإحراقها ومنع تدوينها ونهي المسلمين عن روايتها..

وكان المبرز في هذا الميدان محمّد بن إسماعيل البخاري، فقد كان يقول: ربّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، وربّ حديث بالشام كتبته بمصر! فليل له: يا أبا عبد الله، بكماله؟ فسكت.

وقال أحمدر بن أبي جعفر والي بخارى: قال لي محمّد بن إسماعيل يوماً: ربّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، وربّ حديث سمعته بالشام كتبته بمصر. فقلت له: يا أبا عبد الله بتمامه؟ فسكت.

وقال محمّد بن الأزهر السجستاني: كنت في مجلس سليمان بن حرب والبخاري معنا يسمع ولا يكتب، فليل لبعضهم: ماله لا يكتب؟ فقال: يرجع إلى بخارى ويكتب من حفظه.

وقال ابن حجر العسقلاني: من نوادر ما وقع في البخاري أنّه يخرج الحديث تامّاً بإسناد واحد بلفظين^(١).

وقد أكثر القوم في نعت حفظه والمبالغة فيه حتّى أخرجهم ذلك إلى الخيال،

(١) راجع: أبو رية، أعضاء على السنّة المحمّدية، ص ٣٠٠.

ومهما قالوا فيه فإنَّ حافظته لا بدَّ أن تخونه في يوم من الأيام^(١).

وكان في منهجه في كتابه تقطيع الحديث ، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر شارح كتاب الصحيح ، واعتد منه كعاداته ، فقد قال عنه :

وأما تقطيعه للحديث في الأبواب تارة واختصاره منه على بعضه أخرى فذلك لأنه إن كان المتن قصيراً أو مرتبطاً ببعضه ببعض وقد اشتمل على حكمين فصاعداً فإنه يعيده بحسب ذلك مراعيّاً مع ذلك عدم إخلائه من فائده حديثية ... إلى أن يقول :

فإن كان المتن مشتملاً على جملي متعدّدة لا تعلق لإحداها بالأخرى فإنه يخرج كلّ جملة منها في باب مستقل فراراً من التطويل ، وربّما نشط فساقه بتمامه ، فهذا كلّه في التقطيع ..^(٢)

وهذا العذر من ابن حجر عن الشيخ لا يدفع عنه تهمة التصرف بالنصّ كيفما يحلّوه ، ونحن نجزم أنّ الرّجل لا يرتكب ذلك عفواً ، بل عن سابق إصرار ، ولغاية في نفسه ، وينحصر جلّها في صيانة الشيخين ، وثالثهما أن يوجّه لهما لومٌ أو نقد ، وحدث البضعة من ذلك ، فقد عدى على الجملة التي تحيف بالقوم فحرّفها عن موضعها واضعاً مكانها جملة أخرى ، هي في نظره أخفّ وطنة وأقلّ ضرراً .

ولكنّها إن حققت ، أشدّ وأعظم ، لأنها بضميمة الحديث الآخر وهو قول النبيّ « يغضب الله لغضب فاطمة .. » وثبوت غضبها على القوم الذين ظلموها وأذوها ، يكون الله قد غضب عليهم ، وبإيثار من غضب الله عليه .

.. خير النساء ..

عن قتادة عن أنس رضي الله عنه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمّد .

(١) الدكتور الحسيني عبدالمجيد هاشم ، الإمام البخاري محدثاً وفقياً ، ص ٥٥ ، فقد روى عن حفظة أحاديث مستغربة .

(٢) ابن حجر العسقلاني ، مقدمة فتح الباري ، ص ١٧ .

قال الحاكم : هذا الحديث في المسند لأبي عبد الله أحمد بن حنبل هكذا..^(١)

خير نساء العالمين ..

عن أنس : قال رسول الله ﷺ : خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون .

أخرجه الحاكم في المستدرک وقال : صحيح ، والترمذي كتاب المناقب باب مناقب فضل خديجة رضي الله عنها وقال : حسن صحيح .

سيدات نساء الجنة أربع : مريم ، وفاطمة ، وخديجة وآسية^(٢) .

وعن ابن عباس : أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون^(٣) .

وأوردها الهيثمي بالسياق التالي :

عن ابن عباس قال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط ، فقال :

أتدرون ما هذا ؟

فقالوا : الله ورسوله أعلم .

فقال رسول الله ﷺ : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة

محمد ﷺ ، ومريم ابنة عمران ، وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون .

رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والطبراني ، ورجالهم رجال الصحيح^(٤) .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : حسبك من نساء العالمين مريم بنت

عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون .

(١) مستدرک الحاكم ، ١٥٧/٣ . وإليك الكتب التي أخرجت الحديث من أهل السنة والجماعة مضافاً إلى

المستدرک .

مصنّف ابن أبي شيبة ، ١٣٤/١٢ ؛ البداية والنهاية لابن كثير ، ٥٩/٢ ؛ مسند أحمد بن حنبل ، ١٣٥/٣ ؛

مصنّف عبدالرزاق ، ٤٣٠/١١ ؛ رقم التسلسل ٢٠٩١٩ ؛ الدرّ المنثور ، ٢١٣/٢ ؛ ٣٣٨/٥ ؛ شرح السنة ،

١٥٧/١٤ ؛ كنز العمال ، تسلسل ٣٤٤٠٣ ؛ حلية الأولياء ، ٣٤٤/٢ ؛ شرح مشكل الآثار ، ٥٠/١ ؛ مشكاة

المصابيح ، رقم ٦١٨١ ؛ تفسير القرطبي ، ٢٠٤/١٨ .

(٢) راجع : كنز العمال ، ١٤٤/١٤ و١٤٣ .

(٣) نفسه .

(٤) مجمع الزوائد ، ٢٢٣/٩ .

أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب فضل خديجة رضي الله عنها، وقال : صحيح^(١).

منافسة من نوع رخيص ..

الروايات التي سلفت أجمع الحفظ على صحتها، ومثلها روايات أدنى رتبة منها، أعرضنا عنها لثلاثا يقدح بها منهم أحد إذ يكفينا الصحيح عن غيره، وهو كثير والحمد لله .

ولم يهدء للقوم بال ، ولم يرتح لهم ضمير إلا بالدس والتحايل والتحريف ، فقد عمدوا إلى الحديث الشريف فحذفوا وأضافوا له ، وهي شنشنتهم من جدّهم أخزم ، مع الأحاديث في فضل أهل البيت خاصّة ، ونبدأ بذكر الحديث المحرّف :

فقد روى «أمير المؤمنين في الحديث» أبو عبدالله البخاري في الجزء الرابع من صحيحه ص ١٩٣ الرواية التالية ، عن مرّة الهمداني ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية ابنة مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

ومثله عن عليّ رضي الله عنه ص ٢٠٠ ، وأخرجه أيضاً في فضل عائشة الجزء الخامس ص ٣٦ ، وفعل مثل ذلك في باب الثريد الجزء السابع ص ٩٧^(٢) .

وهذا الحديث روي بطرق مختلفة ، وأخرجه جملة من الحفاظ ، وهو والحديث الذي سبق واحد إلا أنه محرّف ، وقد أدرج فيه القوم جملة «فضل عائشة كفضل الثريد ..» .

والغرض معلوم ، ونقول لمن خفي عليه الغرض : إن عمليّة التحريف أُجريت عليه لإدخال الوهن على الحديث السابق ، وهو حيث «الكمل الأربع» ، ولكنّ الباطل كان زهوقاً ، فقد ترك المحرّف مساحب أذيال له ، تدلّ على تصرفه في الحديث وتبرّء

(١) كنز العمال ، ١٤٣/١٤ .

(٢) راجع على سبيل المثال الكتب التالية : صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ، ١٨٨٦/٤ ؛ ومسنّد أحمد ، ٣٩٤/٤ و٤٠٩ ؛ وشرح السنّة ، ١٦٤/٤ ؛ وحلية الأولياء ، ٩٩/٥ .

ساحة النبوة المعصومة المسددة مما فيه من الخطأ الفاحش ..

بيان ذلك أن حصر الكمال فيهما يدل على أمرين :

الأول : أنهما نبيتان ، لأن أكمل الإنسان الأنبياء ثم الأولياء والصدّيقون والشهداء .

الثاني : فلو كانتا غير نبيتين للزم أن لا يكون في النساء ولية ولا صدّيقة ولا

شهيدة غيرهما .

والأول باطل بنص الكتاب ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا

رجالاً ﴾ ؛ فليس في النساء نبية ، ولو كانت لقص الله أخبارها في القرآن أو وصلتنا عن

طريق السنة المعصومة ، وقد أجمع المسلمون على عدم نبوة النساء ، ولا يقدر في هذا

الإجماع ما نقل عن الأشعري من نبوة حواء وسارة وأم موسى وهاجر وأسية وأم

موسى ، وقد نبّه على هذا الإشكال ابن حجر ^(١) .

ولم يجد في التخلّص منه ما أجاب به الكرمانى من أنه لا يلزم من لفظ الكمال

ثبوت نبوتها لأنه يطلق لتمام الشيء وتناهيه في بابها فالمراد بلوغها إليه جميع

الفضائل التي للنساء .

أقول : إن أجدى هذا القول في دفع الإشكال الأول فإنّ الثاني باقٍ على حاله .

الثاني باطل بنص العقل ، فإنّ العلم الإجمالي حاكم على أنه ليس من المعقول أن

يخلو جنس النساء من الكمال ما عدا هاتين الإنتين ، بخاصة إذا استقرنا الأحاديث

النبوية الأخرى التي تثبت الكمال لغيرهما مثل الصدّيقة الكبرى ، وسيدة النساء عليها

الصلاة والسلام .

ولو ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله قالهما معاً لكان يقول الشيء وخلافه ، وهذا قدح في

العصمة ، فلا بدّ من بطلان أحدهما وبملاحظة ما تقدّم من امتناع الحصر في اثنتين من

جنس النساء يثبت البطلان للحديث الحاصر في اثنتين .

ولقائل أن يقول : ما الفرق بين حصر الكمال في اثنتين أو أربع إلا في هذا الزائد ؟

فإننا نقول : إنّ المفهوم من الكمال المحصور في هذا العدد ليس هو المطلق ، بل

فائدة ذكرهنّ بطريق الحصر اختصاصهنّ بكمال لم يشركهما فيه أحد من بنات

جنسهنّ ، وهذا القول لا يصحّ في مريم وأسية عليهما السلام لثبوت الكمال لغيرهما ممّن

أشركهما النَّبِيَّ ﷺ معهما في الكمال، وهما خديجة وفاطمة عليهما السلام.

أضف إلى ما تقدّم، أنّ ذكر عائشة مع الكاملتين إظهار لتقصها، وليس إشعاراً بفضلهما بخاصّة، وقد شبّهت بطعام ليس من مفاخر الأطعمة، وقد أساء إليها من حيث أراد أن يحسن، من ذكرها بعد ذكر مريم وآسية، فإن قصد القائل رفعها عليهما، فقد كذب ما قاله أولاً، وإن قصد نزول درجتها عنهما فقد ذمّها ولم يرفعها، لأنّ الأمر دائر بين دخولهما في سائر الطعام فتفضلهما عائشة، أو خروجهما من النساء فمن أيّ جنس هما ليست شعري؟!

ولعلّ الباحث المنقّب لا يعدم الحافز الذي حمل القوم على الوضع والتحريف حين يلاحظ ما قاله ابن كثير في كتابه البداية والنهاية:

ويحمل قوله: وفضل عائشة على النساء، أن يكون محفوظاً فيعمّ النساء المذكورات وغيرهنّ، ويحتمل أن يكون عاماً فيما عداهنّ، ويبقى الكلام فيها وفيهنّ موقوف يحتمل التسوية بينهنّ فيحتاج من رجح واحدة منهنّ على غيرها إلى دليل من خارج، والله أعلم^(١).

لقد صرح اللبّين عن محضه، أجل، إنّ تحريف السنّة وتغييرها بالألفاظ الغريبة هو من أجلّ ترجيح كفة عائشة أو مساواتها مع مريم وآسية، وليس هذا مربط الفرس، بل الغرض المهم هو تفضيلها على الصديقتين فاطمة وأمّها عليهما السلام، والعملية أوضح من أن تخفى على ذي اللبّ الرشيد، والذكيّ النابه، فقد حذف محرّفوا السنن السيّدتين من الحديث ليكون لهما وضع كوضع سائر النساء، لا فضل ولا كمال، ثمّ جيء بعائشة إلى خوان الثريد وسائر الطعام لتتخذ الوضع الذي حكاه السلالة الأموية ابن كثير الدمشقي، ولكن لماذا كلّ هذا التحريف ولأية غاية هو؟!

وقال ابن كثير: وهذه مسألة وقع النزاع فيها بين العلماء قديماً وحديثاً، ويجانبها طرفاً يقتصر عليها أهل الشيع وغيرهم لا يعدلون بخديجة أحداً من النساء لسلام الربّ عليها، وكون ولد النَّبِيَّ جميعهم إلّا إبراهيم منها، وكونه لم يتزوَّج عليها حتّى ماتت؛ إكراماً لها وتقدير إسلامها، وكونها من الصديقات ولها مقام صدق في أوّل البعثة، وبذلت نفسها ومالها لرسول الله ﷺ، وأمّا أهل السنّة فمنهم من يغلو أيضاً ويثبت

لكل واحد منهما من الفضائل ما هو معروف .

ولكن تحملهم قوّة التسنن^(١) على تفضيل عائشة لكونها ابنة الصديق ، ولكونها أعلم من خديجة ، فإنه لم يكن في الأمم مثل عائشة في حفظها وعلمها وفصاحتها وعقلها ، ولم يكن الرسول يحبّ أحداً من نسائه كمحبّته إياها ، ونزلت براءتها من فوق سبع سماوات ، وروت بعده عنه عليه السلام علماً جمّاً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، حتّى قد ذكر كثير من الناس الحديث المشهور «خذو شطر دينكم عن حميراء» ، والحق أنّ كلّاً منهما لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهره وحيره ؛ والأحسن التوقّف في ذلك إلى الله عزّ وجلّ...^(٢)

هذا النصّ يشهد قبل كلّ شيء بضعف دين صاحبه ، بل يمكن أن يقال : إنّ دين صاحبه ليس الإسلام بل هو دين لا يُعرف يقوم أساسه على تفضيل أبي بكر على النبيّ ، وشاهده الولاء لعائشة لأنها ابنته كما مرّ ، ولو فضل النبيّ لوالى ابنته الصديقة الطاهرة ، ولم يقدّم عليها أحداً من العالمين ، وكيف يتوقّف من دينه الإسلام في تفضيل الزهراء وهي بضعة الرسول وسيّدة نساء العالمين أو سيّدة نساء أهل الجنّة من يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها !!! أو في تفضيل أمّها وهو الذي روى في حقّها وفي بدايته بالذات قول النبيّ ردّاً على عائشة وقد قالت له : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين ، قد أبدلك الله خيراً منها ، قال : ما أبدلني الله خيراً وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدّقتني إذ كذّبني الناس ، وآستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد الناس...^(٣)

ومع ما في هذا الحديث من الصراحة الواضحة في تفضيل خديجة فإنه يتركه إلى حديث يرويه البخاري إلى قول عائشة : أبدلك الله خيراً منها ، وهو محرّف مبتور ، ما في ذلك ريب ، فيستند عليه في تفضيل عائشة ويقول :

وهذا ظاهر في التقرير على أنّ عائشة خير من خديجة إمّا فضلاً وإمّا عشرة ، إذا لم ينكر عليها ولا ردّ عليها ذلك كما هو ظاهر سياق البخاري...^(٤)

(١) دقّق في معنى هذا الكلام يتجلّى لك الحقّ الصّراح إنشاء الله .

(٢) البداية والنهاية ، ١٢٧/٣ .

(٣) البداية والنهاية ، ١٢٦/٣ . وقال : تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به .

(٤) نفسه .

من ثمّ أدركنا أنّ دين القوم شيء خارج عن الإسلام، ولو أرادوا الإسلام لوجدوه واضحاً مشرق المناهج، لاحب الطرق، على الواضحة كما سمّاه النبي ﷺ، ولم يتركوه إلى دهاليز المحذّنين المظلمة، ومن هذه الدهاليز الحديث عن حميراء الّذي سمّاه مشهوراً وهو يعلم وضعه، ولكنّه التّصّب الّذي يفضح أهله، لأنّ الله خذلهم بما أتبعوه وقالوه من الباطل، وإنّ الباطل كان زهوقاً..

وموضوع الحميراء ولا ينبغي أن يطلق عليه لفظ حديث، أثبت الحفظ بلا إستثناء وضعه، وقد سمّاه ابن كثير في بدايته دساً وتحايلاً مشهوراً، وهو القائل: سألت الحافظ المرّي والذهبي عنه فلم يعرفاه، وقد تكلمنا عن هذا الحديث الموضوع بما فيه الكفاية في أحد فصول الكتاب، فلا نعيد، ولك أن ترجع إلى الكتب التالية الّتي أثبتت وضعه وتبرّئت منه ومن واضعه:

كشف الخفاء للعجلوني ١/٤٤٩ و ٤٥٠، والأسرار المرفوعة لعلي القاري ص ١٩٠ و ٣٨٩ و ٤٣٤، والفوائد المجموعة للشوكاني، وتذكرة الموضوعات للفنّني ص ١٠٠، والدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي الحلبي ص ٧٩، والشذرة في الأحاديث المشتهرة لابن طولون ص ٢٧٠.

هذه الكتب بأجمعها نصّ أصحابها على بطلان حديث حميراء، وأثبتوا وضعه، ولكنّ ابن كثير تجاوز هذا كلّه بل تجاوز نفسه كذلك ليتشبّه بالطحلب في إثبات تقدّم ابنة مولا الصّدّيق، ولك أن تردّد بعد هذا مع من قال:

ما المسلمون بأمة لمحمّد لكنّما هم أمة لعتيق
جاءتهم الزهراء تطلب إرثها فتقاعدوا عنها بكلّ طريق
وتألّبوا لقتال آل محمّد لما دعتهم ابنة الصّدّيق
فعودهم في نصر ذي ونهوضهم في نصر ذي يغني عن التحقيق

ألا أبشرك ..

قالت عائشة رضي الله عنها لفاطمة عليها السلام: ألا أبشرك؟ إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيّدات نساء أهل الجنّة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمّد، وخديجة

بنت خويلد ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون^(١) .

معي في درجتي

ونقلت من مسند أحمد بن حنبل رضي الله عنه وقد تقدّم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بيد الحسن وحسين وقال : من أحببني وأحبّ هذين وأباهما وأمّهما كان معي في درجتي في الجنة يوم القيامة^(٢) .

أول وآخر ..

عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة ، وإذا قدم من سفر كان أول الناس عهداً به فاطمة رضي الله عنها^(٣) .

سيّدة نساء العالمين

ومن المسند عن حذيفة بن اليمان قال : سألتني أمي : متى عهدك بالنبي صلى الله عليه وآله ؟ قال : فقلت لها : منذ كذا وكذا . قال : فنالت مني وسبّتنِي . قال : فقلت لها : دعيني فأني أتى النبي صلى الله عليه وآله فأصلي معه المغرب ، ثم لا أدعه حتّى يستغفر لي ولك . قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وآله فصلّيت معه المغرب ، فصلّى النبي صلى الله عليه وآله العشاء ثم انفتل فتبعته ، فعرض له عارض ، فواجه ، ثمّ ذهب ، فاتبعته ، فسمع صوتي ، فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة . قال : مالك ؟ فحدّثته بالأمر . فقال : غفر الله لك ولأمك .

ثمّ قال : أما رأيت العارض الذي عرض لي قبل ؟ قال : قلت : بلى .

قال : هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربّه عزّ وجلّ أن يسلم عليّ ويُسّرني أنّ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ، وأنّ فاطمة سيّدة نساء العالمين^(٤) .

(١) الأربلي ، كشف الغمّة ، ٧٧/٢ .

(٢) كشف الغمّة ، ٧٨/٢ .

(٣) المستدرک ، ١٥٦/٣ ؛ وكشف الغمّة ، ٧٨/٢ . وفيه زيادة على ما في المستدرک .

(٤) والأحاديث في معناه كثيرة ، وراجع كشف الغمّة ، ٧٩/٢ .

جهاد ومؤازرة..

عن ابن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ؓ، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم تشتتهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاثاً، وإذا سأل، سأل ثلاثاً.

ثم قال: اللهم عليك بقريش - ثلاث مرّات ..

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته.

ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمّية بن خلف وعتبة بن أبي معيط، وذكر السابغ ولم أحفظ.

فوالدي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القلب، قلب بدر.

أقول: ورواه البخاري أيضاً في صحيحه في كتاب بدء الخلق في باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين...^(١)

وكذلك أخرجه في كتاب الوضوء باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد صلاته^(٢).

إشراف واختيار..

وروي مرفوعاً إلى عليّ ؓ قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة ؓ: يا بنتي إن الله

(١) الفيروزآبادي، فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ١٣١/٣ و ١٣٠. وقال: رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير.

(٢) محمّد فؤاد عبدالباقى، اللؤلؤ والمرجان، ٢٢٧/٢.

أشرف على الدنيا فاخترني على رجال العالمين ، ثم اطلع ثانية فاخترت زوجك على رجال العالمين ، ثم اطلع ثالثة فاخترت على نساء العالمين ، ثم اطلع رابعة فاخترت ابنيك على شباب العالمين^(١) .

وفي المستدرک عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالت فاطمة رضي الله عنها : يا رسول الله زوجتني من علي بن أبي طالب وهو فقير لا مال له ؟ فقال : يا فاطمة أما ترضين أن الله عز وجل اطلع إلى أهل الأرض فاختر رجلين ؛ أحدهما أبوك والآخر بعلك^(٢) .

وأحسب أن أبا هريرة تصرّف بالحديث والآفة الزهراء عليها السلام لا يهتمها المال ، ولا ذووه ، وكيف تفعل ذلك وهي تعلم بأنها ما نالت السيادة على نساء العالم بالمال ، وقد شاهدت من آداب النبوة ما يزهدها بالدنيا ، وإن كانت أخلافها تدرّ عليها لبناً وعسلاً ؟ عن ثوبان . مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سافر آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة عليها السلام . قال : فقدم من غزاة ، فأتاها فإذا هو بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين عليهما السلام قلبين من فضة ، فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك فاطمة ظنّت أنه لم يدخل عليها من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيّين فقطعتهما ، فبكى الصبيان ، فقسمته بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهما يبكيان ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهما وقال : يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان أهل بيت في المدينة واشتر لفاطمة فلادة من عصب وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طبيّاتهم في الحياة الدنيا^(٣) . فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسعى في تأديب أهل بيته على نهج الزهد في الدنيا وترك طبيّاتها ، فكيف يا ترى تشكو إليه بضعته عدم زوجها أمير المؤمنين وقلة ذات يده ؟ إن هذا التهج ولا رب يعود إلى عشاق المضيرت ، الذين طالما حدّثتهم قدرها بالأحاديث المرفوعة ليمتصوا الصديد والسحت بها من ظلم بني أمية .

(١) كشف الغمّة ، ٩٣/٢ .

(٢) المستدرک ، ١٢٩/٣ .

(٣) كشف الغمّة ، ٧٨/٢ و٧٩ .

غضبها ﷺ ورضاها ..

عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: يا فاطمة إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك .

قال السيّد السمهودي بعد إيراد هذا الحديث: فمن آذى شخصاً من أولاد فاطمة أو أبغضه فقد جعل نفسه عرضة لهذا الخطر العظيم، ويضدّه لمرضاتها في حبّهم وإكرامهم كما يؤخذ ممّا تقدّم .

وقال السهيلي: هذا الحديث يدلّ على أنّ من سبّها كفر، ومن صلّى عليها فقد صلّى على أبيها .

واستنبط أنّ أولادها مثلها لأنهم بضعة منها، وفكّ الفرع من أصله هو فكّ الشّيء من نفسه وهو غير ممكن ومحال باعتبار أنّ ذلك الفرع هو الشخص المعمول من مادّة ذلك الأصل ونتيجته المتولّدة منه، إنتهى كلام السهيلي^(١) .

والحديث الشريف كثر مخرّجوه والكتب التي أخرجته وقد أحصى السيّد علي بن عاشور في تحقيقه على رشفة الصادي عدداً منها فارجع إليها إن شئت تجدها في ص ١٠٩ و ١١٠ .

وقال الحاكم النيسابوري عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٢) . ولكنّ الذهبي أعلّه بحسين بن زيد^(٣) وقال عنه: منكر الحديث لا يحلّ أن يحتجّ به، على جاري عادة الذهبي في مناقب أهل البيت ﷺ .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وإسناده حسن^(٤) .

من هو الحسين بن زيد؟

ولكي نوقفك على ضلال الذهبي ومن لفّ لفّه وآتاه والتواصب على شاكلته توقّفوا على جحد مناقب أهل البيت وسخّروا لذلك كلّ ما يملكون من جهد ومال

(١) راجع شهاب الدين العلوي الحضرمي، رشفة الصادي، ص ١٠٩ و ١١٠ .

(٢) المستدرک، ١٥٤/٣، راجع التلخيص في هامشه .

(٣) نفسه .

(٤) مجمع الزوائد، ٢٠٣/٩ .

نصباً وعداوة لله ولرسوله وأهل بيته الطيبين ، نضع بين يديك ترجمة ضافية لهذا السيد الجليل الملقب بذي الدمعة ، لتعرف مقدار ورعه وفضله ، وأن قول الذهبي في حقه ما هو إلا قول ناصبي خائب ، والحمد لله .

ترجم له النجاشي وقال : روى عن أبي عبدالله وأبي ، وسُمِّي بذي الدمعة لكثرة بكائه ، ولد بالشام سنة ١١٤ ، وكان أبو عبدالله عليه السلام تبناه ، ورباه ، وزوجه أم كلثوم بنت الأرقط محمد بن عبدالله الباهر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكانت ذات مال وخدم ، فحسنت حاله ببركة الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام ، وصار معدوداً في أهل الثروة والمال ، ويكنى أبا عبدالله ، وأبا عاتقة ، وإنما لقب بذي الدمعة لبكائه في تهجده ، وكان ورعاً ، واستفاد من أبي عبدالله عليه السلام علماً كثيراً ، وأدباً جمّاً ، ونال بسببه خيراً شاملاً ...

قال الشيخ عباس عليه السلام : يروي عنه الثقتان الجليلان ابن أبي عمير ويونس بن عبدالرحمن وغيرهما . وقال : ومن أحفاده أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين ذي المدعة قتيل شاهی في أيام المستعين . قال ابن الطقطقي : كان يحيى بن عمر قدم من خراسان في أيام المتوكل وهو في ضائقة وعليه دين ، فكلم بعض أكابر أصحاب المتوكل في ذلك فأغلظ له وجسه بسامراً ، ثم كفله أهله فأطلق وانحدر إلى بغداد ، فأقام بها مدة على حاله غير مرضيه من الفقر ، وكان عليه السلام ديناً خيراً عملاً حسن السيرة ، فرجع إلى سامراء مرة ثانية وكلم بعض أمراء المتوكل في حاله ، فأغلظ له وقال : لأي حال يعطى مثلك ؟ فرجع إلى بغداد وانحدر منها إلى الكوفة ، ودعا الناس إلى الرضا من آل محمد عليهم السلام فنبعه ناس من أهل الكوفة من ذوي البصائر في التشيع ، وناس من الأعراب ، ووثب في الكوفة وأخذ ما في بيت مالها ففرقه على أصحابه وأخرج من في السجون ، ورد عن الكوفة عاملها ، وكثرت جموعه ، فأرسل إليه أمير بغداد محمد بن عبدالله بن طاهر عسكرياً فالتقوا بشاهي ، وهي قرية قريبة من الكوفة ، فكانت الغلبة لعسكر بن طاهر ، وانكشف الغبار ويحيى بن عمر قتيل ، فحمل رأسه إلى محمد بن عبدالله بن طاهر ببغداد ، فجلس محمد للهنا بذلك ، فدخل الناس عليه أفواجاً يهتئونه ، وفي جملتهم رجل من ولد جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فقال له : أيها الأمير إنك تهناً بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حياً لعزى به ؛ فأطرق محمد ساعة ثم نهض وصرف الناس ، إنتهى .

أقول: الرجل المذكور هو أبو هاشم الجعفري، وقال في ذلك شعراً:

يا بني طاهر كلوه وبيئاً
 إن لحم النبي غير مريء
 إن وترأ يكون طالبه الله
 لوتر بالفوت غير جريء

وكان ذلك في حدود سنة ٢٥٠ ورتاه الشعراء، منهم ابن الرومي بقصيدة جيميّة

أولها:

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج
 طريقان شتّى مستقيم وأعوج
 وقال بعض الشعراء:

بكت الخيل شجوها بعد يحيى
 وبكاه المهند المصقول
 إلى أن قال:

كيف لم تسقط السماء علينا
 وبنات النبي يندبن شجواً
 قطعت وجهه سيوف الأعادي
 بآبي وجهه الوسيم الجميل
 قتله مذكّر لقتل عليّ
 وحسين ويوم أودي الرّسول
 صلوات الإله وقفاً عليهم
 ما بكى موجع وحنّ ثكول...^(١)

نرجع إلى ترجمة ذي الدمة فنقول: لا تجد في الكتب التي ترجم له أصحابها

إلا الثناء عليه.

في مستدركات الوسائل: رتاه الصادق عليه السلام فأورثه علماً جمّاً، وكان زاهداً.
 في الفهرست: أشار شيخ الطائفة إلى وثاقته، ويكفي له تبني الصادق إياه وتربيته
 له، وهذا غاية المدح.

وذكر الشيخ النوري في المستدركات عن رياض العلماء قول مؤلفه: فلا مجال
 للتأمل في وثاقته وذلك لرواية هؤلاء الأجلء عنه، وكان قد ذكرهم.

وعن كتاب عيون الرجال: الحسين بن زيد ثقة جليل، روى عن الصادق
 والكاظم عليهما السلام.

وعن مشجّر نسب العبيدلي: الحسين بن زيد الشهيد، محدث جليل ورع.
 وفي كتاب غاية الإختصار: ومن أعاضهم أي بني زيد الشهيد، الحسين

(١) الشيخ عباس القمي رحمته الله، الكنى والألقاب، ١/٢٢٤ و٢٢٥ و٢٢٦.

ذوالدمعة ، لكثرة بكائه ، كان سيّداً جليلاً شيخ أهله ، وكريم قومه ، وكان من رجال بني هاشم لساناً وبياناً وعلماً وزهداً وفضلاً وإحاطة بالنسب .

وفي كتاب الفخري للشريف عزّ الدين الديباجي المروزي : الحسين بن زيد ذوالدمعة أو العبرة ، العالم المحدّث الناسك ، مات وله ٧٦ سنة ، وكان رجل بني هاشم لساناً وبياناً وجمالاً^(١) .

والذي مرّ توّاً هو قول علمائنا فيه ، وبقي علينا أن نتعرّف على أقوال الخصوم فيه ونعرف سبب ذلك :

روى عنه علي بن المدني وقال : فيه ضعف .

وقال أبو حاتم : يُعرف ويُنكر .

وقال ابن عدي : وجدت في حديثه بعض النكرة وأرجو أنه لا بأس به^(٢) .

وقال ابن حجر في التقريب : صدوق ، ربّما أخطأ..^(٣)

وقال عبدالرحمن بن أبي حاتم : قلت لأبي : ما تقول فيه ؟ فحرّك يده وقلبها ،

يعني تعرف وتنكر^(٤) . أي الأحاديث التي يرويها .

وقولهم هذا ليس بشيء لأنهم حصروا النكارة في الأحاديث المروية في أهل

البيت ، نصباً وعداءً لآل الله .

وقال ابن حجر : روى عنه علي بن المدني وقال : فيه ضعف .

وقال ابن معين : لقبته ولم أستمع منه وليس بشيء ، ووثقه الدارقطني^(٥) .

ويكفي للردّ على هؤلاء النواصب قول السيّد ابن عقيل عليه السلام فإنه قال بعد نقل

أقوالهم في الحسين بن زيد عليه السلام : أقول : تأمل يرحمك الله هذا الجرح المبهم ، والقبح

المظلم ، ومنه يظهر لك شدة التحامل المشين على هذا الفاضل الكامل ، وأنه لم يرقبوا

فيه محمداً عليه السلام ولم يعرفوا له فضل العلم والصلاح ، ولم تشفع له عندهم فضيلة

القرون المفضّلة ، لأنه عليه السلام توفيّ لنحو تسعين من الهجرة ، ولم يراعوا فيه الولادة ولا

(١) أعيان الشيعة ، ٢٤/٦ .

(٢) الذهبي ، ميزان الإعتدال ، ٥٣٥/١ ؛ وانظر الكاشف له أيضاً ، ١٨٥/١ .

(٣) الحافظ المزي ، تهذيب الكمال ، ٦٥/٤ .

(٤) نفسه .

(٥) تهذيب التهذيب ، ٢٩٤/٢ .

القرابة، وليس ذلك يبيح لهم تنقيصه والإزاء به، فما هي تلك النكارة التي وجدها ابن عدي وأين هي؟ إنَّ النكارة الواضحة الجليَّة موجودة فيما قالوه فيه وفي أمثاله، وفيما قبلوه من النواصب وما أشبع مقالة ابن معين، وإلى الله إياهم وعليه حسابهم... (١)

ولا أظنَّ أنَّ غرض القوم فات سيدي الجليل فلم يعرفه، فهو أجلُّ شأنًا وأعظم إدراكًا من ذلك، إنَّ النكارة جاءت من روايته حديث النَّبِيِّ في جدِّته الصَّدِيقَةُ الطاهرة، ألا ترى الذهبي قال بعد نقله قول ابن عدي: وجدت في حديثه بعض النكارة: ثمَّ قال - أي ابن عدي -: أنبأنا أبو يعلى، أنبأنا عبد الله بن محمد بن سالم، حدَّثنا حسين بن زيد، عن علي بن عمر بن علي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدِّه عن الحسين بن علي، عن أبيه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لفاطمة: إنَّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك... (٢)

هاهنا نكارة ابن عدي المزعومة، وقد توجه سيِّدنا الأمين إلى خبثهم فقال: ولعلَّ ذلك كلُّه لروايته هذا الحديث الَّذي نقله الذهبي في ميزانه (٣).

ولو كان الحديث في عائشة لفلعلوا المستحيل في تصحيحه، وانظر كيف يرذون الصحيح في فضل أهل البيت ويروون المخاريق ويختلقون الأكاذيب في حقِّ عائشة ليضاهي قدرها قدر فاطمة وأمها ﷺ.

عن أبي هريرة: لمَّا دخل رسول الله ﷺ المدينة مهاجرًا من مكَّة أشعث أغبر، أكثر اليهود عليه المسائل والنَّبِيُّ ﷺ يجيبهم جواباً مداركاً بإذن الله، وكانت خديجة ماتت بمكَّة، فلمَّا أن دخل النَّبِيُّ ﷺ المدينة استوطنها طلب التزويج فقال لهم: أنكحوني، فاتاه جبرئيل بخرفة من الجنة طولها ذراعان في عرض شبر، فيها صورة لم ير الراؤون أحسن منها، فنشرها جبرئيل فقال: يا محمد إنَّ الله يقول لك: تزوج ابنة أبي بكر، فمضى إليه، فقال: يا أبا بكر إنَّ الله أمرني أن أصاهره، وكان له ثلاث بنات، فعرضهنَّ علي رسول الله ﷺ، فقال: إنَّ الله أمرني أن أتزوج بهذه الجارية، وهي عائشة، فتزوجها.

رواه الخطيب البغدادي في تاريخه وقال: رجاله ثقات غير محمد بن الحسن

(١) السيِّد ابن عقيل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، العتب الجميل، ص ٦٣.

(٢) ميزان الإعتدال، ١/٥٣٥.

(٣) أعيان الشيعة، ٦/٢٥.

ابن الأزرهر، ونراه من عمله، وإنما تزوج رسول الله ﷺ عائشة بمكة.

قال السيوطي: وكذا قال الذهبي في الميزان، هذا الحديث كذب (١).

أقول: أصل هذه الموضوعة مروية في الصحيحين من أن النبي أرى عائشة قبل أن يتزوجها في سرقة حرير، وقال: إن يرد الله شيئاً يمضه، ولم تزد هذه على تلك إلا بتقدير الخرقه ونعت الصورة.

عن عائشة: دخل عليّ الحسن والحسين فوهبت لهما ديناراً، وشققت مرطي بينهما بشقة فرحين مسرورين يضحكان، فتلقاهما رسول الله ﷺ كفة كفه فقال: قرّة العين من كساكما بردين ووهب لكما ديناراً؟ قالوا: أمنا عائشة. قال: صدقتما هي والله أمكما وأم كل مؤمن. قالت: فوالله إنه أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

رواه الخطيب، وفيه ثلاثة كذبة أسيد بن زيد الجمال، وعمرو بن شمر، وجابر

الجعفي... (٢)

وهذه غيضة من فيض ما روي في عائشة وأبيها وصححه القوم وعلى أسايس منه فضّلوها على نساء الأرض قاطبة.

وجاءوا إلى مناقب أهل البيت الثابتة الصحيحة فأحجموا عن روايتها وأعلّوها بأشياء تافهة ورموها بالوضع وآتهم روايتها بمختلف التهم، ولا بدّ والحال هذه من إعادة التقييم لكل ما رويوا وقالوا، ومن هذا الذي قالوه جرح الأبرار من أهل البيت كذي الدمة مثلاً بتفاهات ابن المدينة وابن معين ومن لّف لّفهما ولا فرق عندنا بين من جرحهم بلسانه ومن قتلهم بسيفه كلا الفاعلين أساء إلى رسول الله فأذاه وأغضبه، ورحم الله شاعراً قال في رثاء يحيى شقيق ذي الدمة عليه السلام:

ليس بعين الله ما تصنعونه	عشيّة يحيى موثق في السلاسل
ألم تر ليثاً ما الذي حتمت به	لها الويل في سلطانها المتخادل
لقد كشفت للناس ليث عن استها	أخيراً وصارت ضحكة في القبائل
كلاب عوت لا قدّس الله أمرها	فجاءت بصيد لا يحلّ لأكل (٣)

(١) الكتاني، تنزيه الشريعة المرفوعة، ٤٢١/١.

(٢) نفسه، ٤٢٢/١.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ١٥٥.

شبهه أكيد ..

قالت عائشة : ما رأيت أحداً أشبه سمناً ودلاً وهدياً برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها وأجلسها في مجلسه وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها^(١) .

النور الواحد، يخطف بصر الجاحد ..

قال جابر بن عبد الله الأنصاري : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عز وجل خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين من نور فعصر ذلك النور عصرة فخرج منه شيعتنا، فسبحنا فسبحوا، وقدسنا فقدسوا، وهللنا فهللوا، ومجدنا فمجدوا، ووحدنا فوحدوا، ثم خلق السماوات والأرضين وخلق الملائكة فمكثت الملائكة مائة عام لا تعرف تسيحاً ولا تقديساً، فسبحنا فسبحت شيعتنا فسبحت الملائكة، وكذلك في البواقي ؛ فنحن الموحدون حيث لا موحد غيرنا، وحقيق على الله عز وجل كما اختصنا واختص شيعتنا أن ينزلنا وشيعتنا في أعلى عليين، إن الله اصطفانا واصطفى شيعتنا من قبل أن نكون أجساماً، فدعانا فأجبنا فغفر لنا ولشيعتنا من قبل أن نستغفر الله تعالى...^(٢)

كلمات آدم ..

عن ابن عباس قال : سألت النبي ﷺ عن الكلمات التي تلقى آدم من ربه فتاب عليه ؟
قال : سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت علي ، فتاب^(٣) .

(١) الفيروزآبادي ، فضائل الخمسة ، ١٢٧/٣ نقلاً عن صحيح الترمذي وأبي داود والحاكم في مستدرکه البخاري في الأدب المفرد وابن حجر في الفتح وقال : رواه ابن حبان .

(٢) كشف الغمة ، ٨٥/٢ و٨٦ .

(٣) نفسه ، ٩٣/٢ و٩٤ .

شوق الجنة ..

وروي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: اشتاقت الجنة إلى أربع من النساء: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون وهي زوجة النبي في الجنة، وخديجة بنت خويلد زوجة النبي في الدنيا والآخرة، وفاطمة بنت محمد (١).

تعريف وتشريف ..

وروي عن مجاهد قال: قال النبي ﷺ - وهو أخذ بيد فاطمة عليها السلام - فقال: من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد، وهي بضعة مني، وهي قلبي وروحي التي بين جنبي؛ فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله (٢).

فهم رباني ..

روي عن علي عليه السلام قال: كنّا عند رسول الله ﷺ، فقال: أخبروني أي شيء خير للنساء؟ فعيينا بذلك كلنا حتى تفرّقنا، فرجعت إلى فاطمة عليها السلام فأخبرتها الذي قال لنا رسول الله ﷺ، وليس أحد منا علمه ولا عرفه، فقالت: ولكني أعرفه؛ خير للنساء أن لا يرين الرجال ولا يراهن الرجال.

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله سألتنا أي شيء خير للنساء وخير لهنّ، أن لا يرين الرجال ولا يراهن الرجال.

قال: من أخبرك؟ فلم تعلمه وأنت عندي.
قلت: فاطمة.

فأعجب ذلك رسول الله وقال: إنّ فاطمة بضعة مني (٣).

«وإنّ أولادها بضعة منها فيكونون بضعة منه ﷺ بالواسطة.

بل قد جاء أنّه لمّا رأت أمّ الفضل رضي الله عنها في المنام أنّ بضعة من

(١) نفسه.

(٢) كشف الغمة، ٢/٩٤.

(٣) نفسه.

جسده ﷺ وضعت في حجرها ، فولدت الحسن فوضع في حجرها ، فقد جعله ﷺ بضعة منه ، وإن كان بواسطة فاطمة رضي الله عنها .

وجاء عنه ﷺ قوله : اللهم إنيهم مني وأنا منهم .

وقوله ﷺ : خلقوا من لحمي ودمي ..

وقد ذكر هذا المعنى أو قريباً منه الإمام جمال الدين الحسيني الخالصي بن عنقاء الموسوي الحسيني الشافعي رَوَّحَ اللهُ روحه من أثناء أبيات طويلة تتضمن الردَّ على سائبي أهل البيت في واقعة حاليَّة ، قال فيها :

فقل لي يا ذاالحجاء الرجاء	وإد صَحَّ أَنَّهُمْ بَضْعَةٌ
لعمري هذا محال مطاح	أيدخل بعض النَّبِيِّ الجحيم
من الغادة الغرَّ شَمَّ المراح	ومن هاهنا قال كم جهبذ
سلالة أفصح كلِّ الفصاح	من المستحيلات كفر الشريف
وما قاله فالصواب الصراح	عليه الصلاة معاً والسَّلام
ولو كان ما كان فهو المطاح	إد الكفر لا يغفر الله منه
فكفرهم مستحيل طيِّاح	وقد ثبت العفو عن ذنوبهم
بحكم ذه الدار دار المكاح	وهذا بحكم القيامة لا
بوفوق الشريعة دون انقماح	لهذا عليهم أقمنا الحدود
فقدرهم فوق هام الضراح ^(١)	وما ذاك من قدرهم واضعاً

أحصنت فرجها ..

عن أبي عبدالله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريَّتها على النَّار .

قال حمَّاد بن عثمان : قلت لأبي عبدالله ﷺ : ما معنى هذا الحديث ؟

فقال : المعتقون من النَّار ولد بطنها الحسن والحسين وأم كلثوم ..

وسئِلَ عليها السلام عن قول النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ لَيَغْضَبُ لَغَضْبِ فَاطِمَةَ وَيَرْضَى لِرِضَاهَا، قال: فما تنكرون من هذا؟ فوالله إنَّ اللَّهَ لَيَغْضَبُ لَغَضْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، وَيَرْضَى لِرِضَاهُ^(١).

والحديث أخرجه الحاكم وصحَّحه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وإسناده حسن، وقد مرَّ عليك قول الذهبي فيه وما أجبناه به.

الزهراء في محرابها..

وروى عن جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن علي بن الحسين عن فاطمة الصغرى عن الحسين بن علي عن أخيه الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال: رأيت أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام قامت في محرابها ليلة الجمعة، فلم تزل راکعة وساجدة حتَّى انفجر عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بنيّ الجار ثمّ الدار..^(٢)

حديث الدينار..

عن أبي سعيد الخدري قال: أصبح علي عليه السلام ذات يوم فقال: يا فاطمة عندك شيء تغذّينيه؟ قالت: لا والذي أكرم أبي بالنبوّة وأكرمك بالوصيّة ما أصبح اليوم عندي شيء أغذّيكه، وما كان عندي شيء منذو يومين إلّا شيء كنت أوترك به على نفسي وعلى ابنيّ هذين حسن وحسين.

فقال علي عليه السلام: يا فاطمة ألا كنت أعلمتني فأبغيتكم شيئاً؟ فقالت: يا أبا الحسن إنّي لأستحي من إلهي أن تكلف نفسك ما لا تقدر عليه. فخرج عليها السلام من عند فاطمة عليها السلام واثقاً بالله، حسن الظنّ به عزّ وجلّ، فاستقرض ديناراً، فأخذه ليشتري لعياله ما يصلح، فعرض له المقداد بن الأسود في يوم شديد

(١) كشف الغمة، ٢/٩٥.

(٢) نفسه، ٢/٩٦.

الحرّ قد لَوّحت الشمس من فوقه وأذّته من تحته ، فلَمَّا رآه عليّ عليه السلام أنكر شأنه ، فقال : يا مقداد ما أزعجك هذه الساعة من رحلك ؟

فقال : يا أبا الحسن خلّ سبيلي ولا تسألني عمّا ورائي .

قال : يا أخي لا يسعني أن تجاوزني حتّى أعلم علمك .

فقال : يا أبا الحسن رغبت إلى الله عزّ وجلّ وإليك أن تخلّي سبيلي ولا تكشفني

عن حالي .

فقال : يا أخي إنّه لا يسعك أن تكتمني حالك .

فقال : يا أبا الحسن ، أمّا إذا أبيت فوالذي أكرم محمّداً بالنبوّة وأكرمك بالوصيّة ما

أزعجني من رحلي إلّا الجهد ، وقد تركت عيالي جياً ، فلَمَّا سمعت بكاءهم لم تحملي الأرض فخرجت مهموماً راكباً راسي ؛ هذه حالي وقصّي .

فانهملت عينا عليّ عليه السلام بالبكاء حتّى بليت دموعه لحيته ، فقال : أحلف بالذي

حلفت به ما أزعجني إلّا الذي أزعجك ، وقد اقترضت ديناراً ، فهاكه فقد أتركت على

نفسي ؛ فدفع الدّينار إليه ، ورجع حتّى دخل المسجد ، فصلّى الظهر والعصر

والمغرب ، فلَمَّا قضى رسول الله صلى الله عليه وآله المغرب مرّ بعليّ عليه السلام وهو في الصّف الأوّل ،

فغمزه برجله ، فقام عليّ عليه السلام فلحقه في باب المسجد ، فسلم عليه ، فردّ رسول الله صلى الله عليه وآله

وقال : يا أبا الحسن هل عندك عشاء تعشينا فتميل معك ؟

فمكث مطرفاً لا يحير جواباً حياءاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد عرف ما كان من أمر

الدّينار ؛ من أين أخذه ، وأين وجهه ، بوحي من الله إلى نبيّه ، وأمره أن يتعشى عند

عليّ عليه السلام تلك الليلة ، فلَمَّا نظر إلى سكوته ، قال : يا أبا الحسن مالك لا تقول لا

فأنصرف ، أو نعم فأمضي معك .

فقال : حياءاً وتكرماً ، فاذهب بنا ؛ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد عليّ عليه السلام فانطلقا

حتّى دخلا على فاطمة عليها السلام وهي في مصلاها ، قد قضت صلاتها ، وخلفها جفنة تفور

دخاناً ، فلَمَّا سمعت كلام رسول الله صلى الله عليه وآله خرجت من مصلاها فسلمت عليه . وكانت

أعزّ الناس عليه - فردّ السّلام ومسح ببديه على رأسها وقال لها : يا بنتاه كيف أمسيت

رحمك الله ؟

قالت : بخير .

قال : عشينا رحمك الله ، وقد فعل .

فأخذت الجفنة فوضعتها بين يدي رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام، فلما نظر علي عليه السلام إلى الطعام وشمّ ريحه رمى فاطمة ببصره رمياً شحيحاً، قالت له فاطمة: سبحان الله ما أشخّ نظرك وأشدّه؟ هل أذنبت فيما بيني وبينك ذنباً أستوجب به منك السخط؟

فقال: وأيّ ذنب أعظم من ذنب أصبتيه؟ ليس عهدي بك اليوم الماضي وأنت تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاماً منذو يومين؟
قال: فنظرت إلى السماء وقالت: إلهي يعلم ما في سماءه وأرضه، أني لم أقل إلا حقاً.

فقال لها: يا فاطمة أني لك هذا الطعام الذي لم أنظر إلى مثل لونه، ولم أشمّ مثل رائحته، ولم أكل أطيب منه؟

قال: فوضع رسول الله ﷺ كفه المباركة بين كتفي علي عليه السلام فغمزها ثم قال: يا علي هذا بدل عن دينارك، هذا جزاء دينارك من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. ثم استعبر النبي ﷺ باكياً ثم قال: الحمد لله الذي أبى لكما أن تخرجا من الدنيا حتى يجريك يا علي مجرى زكريا، ويجري فاطمة مجرى مريم بنت عمران. قلت -الأربلي-: حديث الطعام قد أورده الزمخشري في كشفه عند تفسير قوله تعالى: ﴿كلّمها دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً...﴾^(١).

وما في الكشّاف يختلف من حيث التفصيل عمّا في كشف الغمّة، ولا يبعد تكرار الحادثة مرّتين، وإليك الرواية من الزمخشري وقد عزاها صاحب البحار إليه. عن النبي ﷺ أنه جاع في زمن قحط، فأهدت له فاطمة رضي الله عنها رغيفين وبضعة لحم أثرته بها، فرجع بها إليها وقال: هلمّي يا بنية، فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوءٌ خبزاً ولحمًا، فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله، فقال لها ﷺ: أني لك هذا؟

فقال: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيّدة نساء بني

إسرائيل.

(١) الأربلي، كشف الغمّة، ٢/٩٧ و ٩٨ و ٩٩: الدفعة السابعة، ١/٢٦٥.

ثمّ جمع رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته فأكلوا حتّى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها^(١).

الصدّيقة في بيتها

وفي الخراج روي أنّ سلمان قال: كانت فاطمة جالسةً، قدّامها رحى طحن بها الشعير، وعلى عمود الرحى دم سائل، والحسين في ناحية الدار يتصوّر من الجوع، فقلت: يا بنت رسول الله، وبرت كفاك، وهذه فضة. فقلت: أوصاني رسول الله ﷺ أن تكون الخدمة لها يوماً، فكان أمس يوم خدمتها.

قال سلمان: قلت: إنّي مولى عتاقه^(٢)؛ أمّا أنا أطحن الشعير أو أسكّت الحسين. فقلت: أنا بتسكّيته أوفق، وأنت تطحن الشعير. فطحنت شيئاً من الشعير، فإذا أنا بالإقامة، فمضيتُ صلّيت مع رسول الله ﷺ، فلمّا فرغت قلت لعلّي ﷺ ما رأيت، فبكى وخرج ثمّ عاد فتبسّم، فسأله عن ذلك رسول الله ﷺ قال: دخلت على فاطمة ؑ وهي مستلقية لقفاها، والحسين نائم على صدرها، وقدّامها رحى تدور من غير يد. فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: يا عليّ إنّ لله ملائكة سيّارة في الأرض يخدمون محمّداً وآل محمّد إلى أن تقوم الساعة^(٣). أقول: أين هؤلاء الملائكة يوم الطف لينصروا صاحب المهد كما نصروا جدّه في بدر..؟

لاجرم أنّهم عرضوا عليه النصرة ولكنّه أصرّ على الشهادة.
إن كان دين محمّد لم يستقيم إلّا بقتلي يا سيوف خذيني

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤٢٧/١.

(٢) المولى عند العرب دون الحرّ الصريح، وفوق العبد الرقيق في المرتبة، والمولى كالقريب ينزل منزلة ابن العمّ، يجب على صاحبه أن ينصره ويرثه إذا مات، ولا وارث له، ومنه حديث الزكاة: «مولى القوم منهم»، والمولى هو الصحاب والقريب والجار والحليف، والجمع الموالى، ويكون المولى مولى عتاقه ومولى تبعه، فمولى العتاقة هو الذي يكون عبداً أو أسيراً فيعتقه صاحبه فيصبح المعتق للمعتق مولى، ومولى التباعة هو من يصطنع أو يحالف أي يستنبح. [أمراء البيان، ص ٩]

(٣) الدفعة الساكبة، ٢٦٤/١.

المجلس السادس عشر

«.. جنة الفردوس ..»

الشيخ حبيب شعبان

ويا جنة الفردوس دانية القطف
ليالي أصفي الود فيها لمن يصفي
قلوب على ما في المودة والعطف
لمنتقد شمل الأحبة بالصرف
ونحن نشاوى لا نمل من الرشف
تمر علينا وهي طيبة العرف
بزهرك الأرياح أودت بما تسفي
فذكرتني قبر البتولة إذ عفي
بشجو إلى أن جرعت غصص الحنف
لدى كل رجس من صحابته جلف
عليها وخانوا الله في ذلك الحلف
حديثاً نفاه الله في محكم الصحف
تعثر بالأذيال مثنية العطف^(١)

سقاك الحيا الهطال يا معهد الألف
فكم مر لي عيش حلا فيك طعمه
بسطنا أحاديث الهوى وانطوت لنا
فشتتنا صرف الزمان وإنه
كأن لم تدر ما بيننا أكؤس الهوى
ولم نقض أيام الصبا وبها الصبا
أيا منزل الأحباب مالك موحشاً
تعفيت يا ربيع الأحبة بعدهم
رمتها سهام الدهر وهي صوائب
شجاها فراق المصطفى واحتقارها
لقد بالغوا في هظمها وتحالفوا
وما ورثوها من أبيها وأثبتوا
فأبت وزند الغيظ يقدح في الحشا

الزواج السعيد

ولما تمت كلمة الله في بضعة حبيبه، ونضج الغراس الذي سقاه النبي عذب
أخلاقه وزكي آدابه واكتملت في هذا المناخ الطاهر صفات الزهراء، أذن الله لحبيبه
المصطفى صلى الله عليه وآله أن يقرن الثورين، ويجمع الشمسين برباط الحق، المعقود عند ذي
العرش في محضر ملائكته وعمار سماواته، وأمره سبحانه أن يزوج فاطمة من
علي عليه السلام.

(١) المقرم، وفاة الصديقة الزهراء، ص ١٥١ و ١٥٢.

عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني ملك، فقال: يا محمد إن الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك: إني قد زوجت فاطمة ابنتك من عليّ بن أبي طالب في الملاء الأعلى، فزوجها منه في الأرض.

خرّجه الإمام عليّ بن موسى الرضا في مسنده.

وعن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد إذ قال لعليّ عليه السلام: هذا جبرئيل يخبرني أنّ الله زوجك فاطمة، وأشهد عليّ تزويجها أربعين ألف ملك، وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثري عليهم الدرّ والياقوت، فنثرت عليهم الدرّ والياقوت، فابتدرت إليه الحور العين يلتقطن في أطباق الدر والياقوت، فهم يتهادون بهنّهم إلى يوم القيامة.

أخرجه الملاء في سيرته.

وعن عبد الله رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة حين وجّهها إلى عليّ: إنّ الله أمرني أن أزوّجك من عليّ، وأمر الملائكة أن يصطفّوا صفوفاً في الجنّة، ثمّ أمر شجر الجنان أن تحمل الحلبي والحلل، ثمّ أمر جبرئيل فنصب في الجنّة منبراً، ثمّ صعد جبرئيل واختطب، فلمّا فرغ نثر عليهم من ذلك، فمّن أخذ أحسن أو أكثر من صاحبه افتخر به إلى يوم القيامة، يكفيك يا بنيّة هذا.

أخرجه النسائي.

وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني ملك فقال: يا محمد إنّ الله تعالى يقول لك: إني قد أمرت شجرة طوبى أن تحمل الدرّ والياقوت والمرجان وأن تنثره عليّ من قضى عقد نكاح فاطمة من الملائكة والحور العين وقد سرّ بذلك سائر أهل السماوات، وإنّه سيولد بينهما ولدان سيّدان في الدنيا وسيسودان عليّ كهول الجنّة وشبابها، وقد تزّين أهل الجنّة لذلك، فأقرّ عيناً يا محمد فإنك سيّد الأولين والآخريّن ﷺ.

خرّجه الإمام عليّ بن موسى الرضا^(١).

(١) راجع: المحب الطبري، ذخائر العقبى، ص ٣١ و ٣٢.

المزوج والخاطب ..

روي عن جابر بن عبد الله قال: لما زوّج رسول الله ﷺ فاطمة من علي عليه السلام كان الله تعالى مزوّجه من فوق عرشه، وكان جبرئيل الخاطب، وكان ميكائيل وإسرافيل في سبعين ألفاً من الملائكة شهوداً، وأوحى الله إلى شجرة طوبى أن انثري ما فيك من الدرّ والياقوت واللؤلؤ، وأوحى الله إلى الحور العين أن التقطنه فهنّ يتهادينه إلى يوم القيامة فرحاً بتزويج فاطمة علياً... (١)

عن أبان بن تغلب عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إنّما أنا بشر مثلكم؛ أتزوج فيكم وأزوجهكم، إلا فاطمة فإنّ تزويجها في السماء... (٢)

عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله تبارك وتعالى أخى بني وبين علي بن أبي طالب وزوجه ابنتي من فوق سبع سماواته وأشهد على ذلك مقرّبي ملائكته وجعله لي وصياً وخليفة؛ فعلي منّي وأنا منه، محبّه محبّي، ومبغضه مبغضي، وإنّ الملائكة لتتقرّب إلى الله بمحبّته... (٣)

الكفوء علي عليه السلام

عن النبي ﷺ أنّه قال: لولا علي لم يكن لفاطمة كفوء.. (٤)

وكان الإمام عليه السلام يفتخر بهذه الكفائة، ولقد قال في إحدى خطبه وهو يشرح للناس خصائصه ومزاياه:

أنا زوج البتول سيّدة نساء العالمين، فاطمة التقية المهذّبة الزكية حبيبة حبيب الله وخيرة بناته وسلالته (٥).

عن علي عليه السلام قال: جاء رسول الله ﷺ يطلبني، فقال: أين أخي يا أم أيمن؟ قالت: ومن أخوك؟

(١) كشف الغمّة، ٤٧٢/١؛ عنه العوالم؛ البحار، ١٤٢/٤٣.

(٢) الكافي، ٥٦٨/٥؛ عنه العوالم، ص ١٤١.

(٣) أمالي الصدوق، ص ٢٢٣؛ عنه العوالم، ص ١٣٨.

(٤) العوالم، ص ١٣٨.

(٥) المحتضر، ص ٤٢.

قال : علي .

قالت : يا رسول الله تزوجه ابنتك وهو أخوك !؟

قال : نعم ؛ أما والله يا أم أيمن لقد زوجتها كفواً شريفاً وجيهاً في الدنيا والآخرة
ومن المقرين... (١)

روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال : لولا أن الله تعالى خلق أمير المؤمنين
لفاطمة عليها السلام ما كان لها كفؤ على وجه الأرض ؛ آدم فمن دونه .

عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله : يا علي إن الله عزوجل زوجك فاطمة وجعل
صداقها الأرض ؛ فمن مشى عليها مبغضاً لك مشى حراماً... (٢)

خيبة غير الأكفاء ..

ولمّا تضاءل مقام غير علي عليه السلام عن العروج إلى تلك الرتبة العلية والسدة
المقدسة النبوية ، ردّهم رسول الله صلى الله عليه وآله خائبين لم ينالوا بغيتهم ، وكانوا يطمعون في
مصاهرة نبي الله صلى الله عليه وآله .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خطب أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة ، فقال
النبي صلى الله عليه وآله : يا أبا بكر لم ينزل القضاء بعد . ثمّ خطبها عمر رضي الله عنه مع عدة من قريش ، كلهم
يقول له مثل قوله لأبي بكر .

فقبل لعلي : لو خطبت إلى النبي صلى الله عليه وآله لخليق أن يزوجهها .

قال : وكيف وقد خطبها أشرف قريش فلم يزوجهها !؟

قال : فخطبتها ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : قد أمرني ربي عزوجل بذلك .

قال أنس : ثمّ دعاني النبي صلى الله عليه وآله بعد أيام فقال لي : يا أنس إخرج أدع لي أبا بكر
الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي
وقاص وطلحة والزبير وبعده من الأنصار .

قال : فدعوتهم ، فلمّا اجتمعوا عنده كلهم وأخذوا مجالسهم ، وكان علي عليه السلام
غائباً في حاجة للنبي صلى الله عليه وآله ، فقال النبي صلى الله عليه وآله :

(١) أمالي الطوسي ، ٣٦٤/١ ؛ عنه عوالم المعالم ، ص ١٤٠ .

(٢) كشف الغمة ، ١٠٠/٢ .

الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع بسلطانه ، المرهوب من عذابه وسطواته ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميّزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، إنّ الله تبارك اسمه وتعالّت عظمته جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً أو شج به الأرحام والأزم الأنام ، فقال عزّ من قائل : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾ فأمر الله يجري إلى قضائه وقضائه يجري إلى قدره ، ولكلّ قضاء قدر ، ولكلّ قدر أجل ، ولكلّ أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب ، ثمّ إنّ الله أمرني أن أزوّج فاطمة بنت خديجة من عليّ بن أبي طالب فاشهدوا أنّي قد زوّجته على أربعمئة مثقال فضّة إن رضي بذلك عليّ بن أبي طالب .

ثمّ دعى بطبق من بسر فوضعت بين أيدينا ، ثمّ قال : انتهبوا ، فانتهبنا ، فبيننا نحن تنتهب إذ دخل عليّ عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فتبسّم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في وجهه ثمّ قال : إنّ الله قد أمرني أزوّجك فاطمة على أربعمئة مثقال فضّة إن رضيت بذلك .

قال : قد رضيت بذلك يا رسول الله .

قال أنس : فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : جمع الله شملكما ، وأسعد جدّكما ، وبارك عليكما ، وأخرج منكما كثيراً طيباً .

قال أنس : فوالله لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

أخرجه أبو الخير القزويني الحاکمي ... (١)

الخطبة من فم أهلها ..

عليّ بن موسى بن جعفر عليهما السلام قال : حدّثنا أبي عن أبيه جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه قال : قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : لقد هممت بالتزويج ، فلم أجترئ أن أذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنّ ذلك اختلج في صدري ليلي ونهاري ، حتّى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال لي : يا عليّ .

قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : هل لك في التزويج ؟

(١) الطبري ، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ، ص ٢٩ و ٣٠ و ٣١ .

قلت : رسول الله أعلم ، وظننت أنه يريد أن يزوّجني بعض نساء قريش ، وإني لخائف عليّ فوت فاطمة ، فما شعرت بشيء إذ دعاني رسول الله ﷺ فأتيته في بيت أم سلمة ، فلما نظر إليّ تهلّل وجهه وتبسّم حتى نظرت إلى بياض أسنانه يبرق ، فقال لي : يا عليّ أبشر ، فإنّ الله تبارك وتعالى قد كفاني ما كان همّي من أمر تزويجك .

قلت : وكيف كان ذلك يا رسول الله ؟

قال : أتاني جبرئيل ﷺ ومعه من سنبل الجنة وقرنفلها .. فناولنيها فأخذتهما وشمتهما وقلت : يا جبرئيل ما سبب هذا السنبل والقرنفل ؟

فقال : إنّ الله تبارك وتعالى أمر سكّان الجنان من الملائكة ومن فيها أن يزئبوا الجنان كلّها بمغارسها وأنهارها وثمارها وأشجارها وقصورها ، وأمر رياحها فهبّت بأنواع العطر والطيب ، وأمر حور عينها بالقراءة فيها طه وطس وحمعسق ، ثمّ أمر الله عزّ وجلّ منادياً فنادى : ألا يا ملائكتي وسكّان جنّتي إشهدوا أنّي قد زوّجت فاطمة بنت محمّد ﷺ من عليّ بن أبي طالب ، رضئ منّي بعضهما لبعض . ثمّ أمر الله ملكاً من ملائكة الجنّة يقال له : راحيل ، وليس في الملائكة أبلغ منه ، فخطب بخطبة لم يخطب بمثها أهل السماء ، ولا أهل الأرض ، ثمّ أمر منادياً فنادى : ألا يا ملائكتي وسكّان جنّتي باركوا على عليّ بن أبي طالب ﷺ حبيب محمّد ﷺ ، وفاطمة بنت محمّد ﷺ ، فإنّي قد باركت عليهما .

فقال راحيل : يا ربّ وما بركتك عليهما أكثر ممّا رأينا لهما في جنانك ودارك ؟ فقال الله عزّ وجلّ : يا راحيل إنّ من بركتي عليهما أن أجمعهما على محبّتي ، وأجعلهما حجّتي على خلقي ، وعزّتي وجلالي لأخلقنّ منهما خلقاً ولأنشأنّ منهما ذرّيّة أجعلهم خزّاني في أرضي ، ومعادن لحكمي ؛ بهم أحتجّ على خلقي بعد النبيّين والمرسلين .

فابشر يا عليّ فإنّي قد زوّجتك ابنتي فاطمة على ما زوّجك الرّحمن ، وقد رضيت لها بما رضي الله لها ، فدونك أهلك ، فإنّك أحقّ بها منّي ، ولقد أخبرني جبرئيل ﷺ أنّ الجنّة وأهلها مشتاقون إليكما ، ولولا أنّ الله تبارك وتعالى أراد أن يتخذ منكما ما يتخذ به على الخلق حجّة ، لأجاب فيكما الجنّة وأهلها ، فنعم الأخ أنت ، ونعم

الختن أنت ، ونعم الصاحب أنت ، وكفأك برضاء الله رضا .
 فقال علي عليه السلام : ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي .
 فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : آمين .

عتاب مردود ..

عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا علي لقد عاتبني رجال من قريش في أمر فاطمة ، وقالوا : خطبناها إليك فمنعتنا ، وزوّجت علياً؟! فقلت لهم : والله ما أنا منعتكم وزوّجته بل الله تعالى منعكم وزوّجه ؛ فهبط عليّ جبرائيل عليه السلام فقال : يا محمّد إنّ الله جلّ جلاله يقول : لو لم أخلق عليّ بن أبي طالب عليه السلام لما كان لفاطمة ابنتك كفو علي وجه الأرض ؛ آدم فمن دونه ..

مهر الزهراء عليها السلام ..

عن علي عليه السلام قال : قالت لي مولاة لي : هل علمت أنّ فاطمة قد خطبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ؟
 قال : لا .

قالت : فقد خطبت فما يمنعك أن تأتي رسول الله صلى الله عليه وآله يزوّجك ؟

قلت : وعندي شيء أتزوّج به ؟

فقلت : إنّك إن جئت رسول الله صلى الله عليه وآله يزوّجك .

فوالله ما زالت ترجّيني حتّى دخلت علي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله جلاله وهيبه ، فلمّا قعدت بين يديه أفحمت ، فوالله ما أتكلّم ، فقال : ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟!

فسكّئ .

فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟

قلت : نعم .

قال : وهل عندك من شيء تستحلّها به ؟

قلت : لا والله يا رسول الله .

فقال : ما فعلت الدرع التي سلحتكها ؟

فقلت : عندي ، والذي نفس علي بيده ، إنه الحطمية ما ثمنها أربعمئة درهم .
 قال : زوّجتكها ، فابعت بها فإن كانت لصادق فاطمة بنت رسول الله ﷺ .
 أخرجه ابن إسحاق وأخرجه الدولابي ... (١)
 وفي أخرى : قال علي عليه السلام : فقلت : تزوّجني فاطمة ؟
 قال : وعندك شيء ؟
 فقلت : فرسي وبدني .

قال : أمّا فرسك فلا بدّ لك منها ، وأمّا بدنك - الدرع - فبعها ؛ فبعته بأربعمئة
 وثمانين ، فجنّته بها ، فوضعها في حجره ، فقبض منها قبضة فقال : أي بلال ابتع لنا بها
 طبيباً ، وأمرهم أن يجهّزوها ، فجعل لها سرير مشروط ووسادة من آدم حشوها ليف .. (٢)

المهر من فم أهل البيت عليه السلام ..

ثم إنّ الأخبار في قدر مهرها مختلفة ؛ ففي بعضها أنّ صداقها كان أربعمئة مثقال
 فضة - كما مرّ - ، وفي بعضها أنّه كان درعاً له باعها من عثمان بن عفّان بأربعمئة درهم
 سود هجرية ، أو أنّه باعها من شخص أعرابي في ظاهر الصورة وهو جبرئيل في
 الحقيقة بخمسائة درهم - كما يأتي ، وفي بعضها أنّه كان درعاً بأربعمئة وثمانين
 درهماً قطرية ، والقطر قرية ببحرين .

وفي بعضها عن الصادق عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ زوّج علياً فاطمة على درع له
 حطمية تسوي ثلاثين درهماً ، وسمّيت بالحطمية لكونها تحطم السيوف أي تكسرها ،
 أو أنّها كما قيل الدرع العريضة الثقيلة ، وقيل : هي منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال
 له حطمة بن محارب كانوا يعملون الدرّوع .

وفي رواية أخرى : أنّ صداقها كان درعاً حطمية وإهاب كبش أو جدي ، كانا
 يفرشانه وينامان عليه .

وفي بعضها أنّ مهرها كان برد جرد وإهاب شاة .
 وفي الرواية المشهورة أنّ صداقها كان خمسمائة درهم وعليه ما ورد في خبر

(١) ذخائر العقبى ، ص ٢٧ .

(٢) نفسه ، ٢٨ .

تزوج أبي جعفر الثاني أنه قال: إنَّ محمد بن علي بن موسى يخطب أم الفضل بنت عبد الله المأمون ويذل لها من الصداق مهر جدته فاطمة عليها السلام وهو خمسمائة درهم جياذ . قال صاحب اللعة البيضاء: وهو الأصح المشهور، وهو يومئذ خمسون ديناراً من حيث القيمة، إذ كان كل درهم يومئذ عشر المثقال الشرعي الذي هو الدينار الشائع في هذه الأزمنة، ولعل هذا المبلغ كان قيمة الدرع المذكورة في أكثر الأخبار المأثورة، والظاهر دخول الدرع في الصداق على أي تقدير كان؛ سواء كانت وحدها أو مع شيء آخر، والإختلافات في القدر إنما هي بملاحظة حالة القيمة ..

ما وراء الظاهر ..

هذا كله هو حال المهر بحسب الظاهر، وأمّا في الباطن فورد أنه: لمّا زوج رسول الله ﷺ علياً فاطمة، دخل عليها وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فوالله لو كان في أهل بيتي خير منه زوجتك إياه، وما أنا زوجتك ولكن الله زوجك، وأصدق عنك الخمس ما دامت السماوات والأرض ..

وفي رواية أخرى: إنَّ الله أصدق عنها طوبى وهي شجرة في بيت علي عليه السلام . وفي خبر آخر: إنَّ مهر فاطمة شجرة طوبى والخمس إلى يوم القيامة . وفي الخبر الآخر: أنَّ مهرها في السماء خمس الأرض .

وفي رواية أخرى: تمام الأرض؛ فمن مشى عليها مبغضاً لها ولولدها مشى عليها حراماً إلى أن تقوم الساعة .

وفي رواية أخرى عن الباقر عليه السلام: إنَّ جبرئيل لمّا نزل بالوحي إلى النبي ﷺ في تزويج فاطمة، فقال في جملة ما أوحى به من قول الله تعالى: إنّي جعلت نحلته من علي خمس الدنيا ما دامت السماوات والأرض وثلاث الجنة، وجعلت لها في الأرض أربعة أنهار: الفرات، ونيل مصر، ونهروان، ونهر بلخ؛ فزوجها أنت يا محمد بخمسمائة درهم تكون سنّة لأمتك .

وفي بعض الروايات: أنَّ الله أمهرها ربع الدنيا؛ فربعها لها، وأمهرها الجنة والنار، تدخل أعداءها النار وأولياؤها الجنة، وهي الصديقة الكبرى، وعلى معرفتها دارت القرون الأولى .

وبالجملة فلمّا تفرّق مجلس المعاقدة وانصرف الطوائف المجتمعة قال

النَّبِيِّ ﷺ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا أَبَا الْحَسَنِ انْطَلِقِ الْآنَ فَبِعِ دَرَعِكَ وَأَتْنِي بِمَنْهَا حَتَّى أَهَيَّا لَكَ وَلَا بِنْتِي فَاطِمَةَ مَا يَصْلِحُكُمْمَا .

وَلَمَّا أَخَذَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّرْعَ إِلَى السُّوقِ لِيَبْعَهَا عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لَقِيَهُ شَخْصٌ أَعْرَابِيٌّ ، فَقَالَ : يَا عَلِيُّ تَبِيعَ الدَّرْعَ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : هَذِهِ ثَمِينَةٌ ؟

فَقَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : بِكُمْ ؟

قَالَ : بِخَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ .

فَأَخْرَجَ الْأَعْرَابِيُّ مِنْ كَمِّهِ خَمْسَمِائَةَ دِرْهَمٍ وَأَعْطَاهَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخَذَ الدَّرْعَ وَذَهَبَ .

فَلَمَّا جَاءَ عَلِيُّ بِالْدِرْهَامِ وَطَرَحَهَا بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا عَلِيُّ مِمَّنْ بَعْتَ الدَّرْعَ ؟

قَالَ : لِأَعْرَابِيٍّ لَمْ أَعْرِفْهُ .

قَالَ ﷺ : لَمْ يَكُنْ هُوَ أَعْرَابِيًّا وَأَتَمَّا كَانَ هُوَ جَبْرِئِيلُ ، وَقَدْ أَتَى بِالْدَّرْعِ إِلَيَّ قَبْلَكَ ، فَهَا هِيَ دَرَعُكَ وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْكَ .

وَبِالْجُمْلَةِ ؛ فَلَمَّا سَبَكَ الدِّرْهَامَ - كَذَا - بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ - وَعَلَى الرَّوَايَةِ الْآخَرَى : فِي حَجْرِهِ - قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا قَبْضَةً وَأَعْطَاهَا بِلَالًا وَقَالَ : ابْتِغِ بِهَا لِفَاطِمَةَ طَيِّبًا .

وَرَوَى أَنَّهُ ﷺ أَعْطَى هَذِهِ الْقَبْضَةَ لِأُمِّ أَيْمَنَ أَوْ لِأَسْمَاءَ بِنْتِ عَمِيْسٍ ، وَأَعْطَى قَبْضَةً أُخْرَى لِأُمِّ سَلْمَةَ لِتَشْتَرِيَ بِعَظْمٍ مَا يَصْلِحُ لِلْمَرْأَةِ ، وَقَبِضَ قَبْضَتَيْنِ أَعْطَاهُمَا أَبَا بَكْرٍ وَقَالَ : ابْتِغِ لِفَاطِمَةَ مَا يَصْلِحُهَا مِنَ الثِّيَابِ وَأَثَانِ الْبَيْتِ وَغَيْرِهَا ، وَأَرْدَفَهُ بِسَلْمَانَ وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ وَبَعْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَكَانَ الدِّرْهَامُ الَّذِي أَعْطَانِيهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ الْمَصْلُحَةِ ثَلَاثَةَ وَسِتِّينَ دِرْهَمًا ، أَوْ تِسْعَةَ وَسِتِّينَ دِرْهَمًا .

فَحَضَرُوا السُّوقَ وَاشْتَرَوْا مَا أَمَرُوا بِهِ ، فَكَانَ مِمَّا اشْتَرَوْهُ قَمِيصٌ بِسَبْعَةِ دِرْهَامٍ ، وَخِمَارٌ بِأَرْبَعَةِ دِرْهَامٍ ، وَقَطِيفَةٌ سَوْدَاءُ خَيْبَرِيَّةٌ ، وَسُرِيرٌ مَزْمَلٌ بِشَرِيْطٍ ، وَفَرَاشِيْنٌ مِنْ

خيش مصر حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من جزّ الغنم، وأربع مرافق من آدم الطائف حشوها إذخر، وستر من صوف، وحصير هجري، ورحاء اليد، ومخضب من نحاس، وسقاء من آدم، وقعب للبن، وشنّ للماء، ومطهرة مزفتة وجرة خضراء، وكيزان خزف، ونطع من آدم، وعباء قطواني .

فحمل أبو بكر بعض المتاع، وسائر الأصحاب البعض الآخر فجاءوا بها إلى رسول الله ﷺ وهو في حجرة أم سلمة، فلمّا وضع الأمتعة عنده، فجعل يقلّب المتاع بيده، ويقول: بارك الله لأهل البيت فيه، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم بارك لأقوام جلّ آبئتهم من الخزف، اللهم بارك لآل محمد في جهازهم، وسلم ﷺ ما بقي من الدراهم لأم سلمة، وقال: احفظيها لأمر زفاف عليّ وفاطمة...^(١)

وما أقرب ابن الجوزي من الحق هذه المرّة حين استنبط من فصول هذا الزواج العظيم معاني كريمة، ومثلاً عالية، استحوذ بها على لبّ القارئ فقال: لمّا نهض علي لخطبتها، طرق بأنامل رجائه أرجاء باب الخطبة، فمشى إليه الأذن بالأذن، على عجل العمل، فنقد صدق الرغبة قبل نقد الصداق، فعقد العقد على درع، لينبّه على جهاد الهوى، وجّهزت بالإجهاز على عدد الزهد، ولم يرض لها جهاز الدنيا، لموافقة البضعة التي هي منه فحلّاه الرسول بحلية «فاطمة بضعة منّي» وعقد لها عقداً، خرزات نظامه «إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»^(٢)، وبعث بين يديها وصائف غصّوا

(١) راجع اللمعة البيضاء، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٥٩.

(٢) هذا الحديث الذي زعم ابن حجر الذهبي أنّ فيه نكارة، وجرحوا من أجله سيّدنا الحسين بن زيد ذاللمعة ﷺ ترى ابن الجوزي يرسله هنا إرسال المسلّمات ولم يكن ليتساهل في حديث في أهل البيت، وإنّه ليُعَلّ الحديث بالأمر التافه، وربما حكم عليه بالوضع لسبب غير وجيه حتّى عاب عليه المتأخرون طريقته كأبي الصلاح وابن حجر والسيوطي وغيرهم . وكان ابن حجر شديداً عليه لرميه أحاديث صحاحاً، سنداً ومتناً بالوضع . وقال القوم عن كتابه الموضوعات إنّه باقعة لا تبقى ولا تذر، وهو الذي صمّف حديث الباب وزعم أنّ الشيعة وضعت مضاهاة لما ورد في الصحيحين من باب أبي بكر أو خوخته وناقشه ابن حجر الحساب وسقّه رأيه، وحكم بصحّة الحديث، وما أكثر الأحاديث التي زعم لها الوضع وهي صحيحة كحديث أنا مدينة العلم وعلي بابها، وهنا يذكر الحديث «إنّ الله يغضب» الحديث، كأنه مسلمّ الصحة لا نقاش فيه مع ما أثار من تشدّده في الباب .

أبصاركم ..^(١) ونصب لها سدّة «الأترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمة»^(٢)، وأدخلها على الزوج في حلل الحالية، عليها قناع القناعة، تسعى في فضاء الفضائل، إلى خلوة الخلّة حتّى أجلست على منصّة النص، فأمر الله تعالى ليلة عرسها شجر الجنان، فحملت حلاًّ وحلياً، فنثرته على الملائكة، وليس المراد بذلك الملك ولكن ليعلم رضا الملك، يا عجباً نثرت الحلل لأجل من فراشه جلد كبش، هلاًّ حلّت له منها حلّة كلّاً، مركب الملك أحلى من أن يُحلى، فدخل عليها الرّسول، فاستدعى بإناء من ماء، فدعا فيه بالبركة، ثمّ رشّ على حبيبين بلا غشّ، فلمّا طاب لعلّيّ ذلك الوقت، سأل الرّسول سؤال سكران من شراب الوصل^(٣): يا رسول الله أنا أحبّ إليك أم هي؟ ففصل الحاكم بين خصوم الحب، فقال: هي أحبّ إليّ منك وأنت أعزّ عليّ منها^(٤).

فلمّا حازت بما حازت قناطر الفضل، صين وجه الكمال بخال الخلل في العيش فأقوى على الأقوى قفر القفر، فصيح بفصيح، خطاب الشرع يا علي، قم لكسب قوت الوقت، فخرج يسعى على أرض الرضا بين أعلام الصبر، فبات يسقي نخلاً إلى الفجر، بشيء من الشعير على وجه الأجر، فلمّا جاء به وأصلح للأكل قام سابل على باب البذل فنادى: يا أهل نادي الندى والفضل، أطعموا أطعمكم الله من الفضل، فثارت رياح الإرتياح للإيثار فأثارت سحاباً يقطر من قطرته قطر جود الجود، فسال سيّله بقدر وادي الود، فلمّا تروّت بالماء أشجار الأنس صدحت على ورقها ورق القدس، وأغنى عن غرائب صدح المدح ﴿ويطعمون الطّعام على حبّه﴾ ثمّ أخبر الحقّ عن مضمون القصد ﴿إنّما نطعمكم لوجه الله﴾ فلو رأيت القوم يوم القيامة في ظلّ ﴿فوقاهم الله﴾ وقد اكتست أجساد وكست بكسا الضنك غضارة العيش، على حلل الخفض،

(١) يشير إلى الحديث الصحيح: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء حجاب: يا أهل الجمع غصّوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمّد عليها السلام حتّى تمرّ.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. [انظر: المستدرک، ١٥٣/٣]

(٢) يشير إلى عدد من الأحاديث ومنها قوله عليه السلام: ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء العالمين وسيّدة نساء هذه الأمة وسيّدة نساء العالمين.

قال الحاكم: هذا إسناده صحيح ولم يخرجاه هكذا. [المستدرک، ١٥٦/٣]

(٣) وهذا التعبير الصوفي سوء أدب من ابن الجوزي يا للأسف.

(٤) مرّ الكلام بالترتيب عن هذا الحديث الشريف.

واستراحت أيدي تفرق أيدها، من طحن الرحاء نزع الدلو، وبراحة «متكئين فيها» هذا حصاد بذر النذر، ولقد عجب العلماء من شرح هذا الأجر، واستظرفوا عدم ذكر الحور في هذا الذكر، فبقوا متحيرين في حير الفكر، فنودوا من بطنان وادي الفضل بأن ذلك لفضل فضل زهراء الأنس، غير عليها من ذكر الغير وإنما أثرا على الطفلين لأنهما غصنان من شجرة «أبيت يطعمني ربي» وبعض من جملة «بضعة مني» وفرخ البط سابح وذكاة الجنين من ذكاة أمه^(١).

وفي هذا النص بعض التكلف من صناعة البديع، وفيه عبارات لم يتضح معناها لتشاكلها مع بعضها وعدم ضبطها بالحركات، نكلهما إلى فطنة القارئ، والمجموع جيد مفيد، وإنما أثرنا نقله هنا لأجل ما فيه من الأخبار الصحيحة عندنا، ولكن القوم شككوا بها من قبيل نزول هل أتى فيهم، فقد أنكر ذلك جماعة منهم، وردّ عليهم الشيخ الطبرسي في مجمع بيانه؛ ردّاً مفحماً. وذكر ابن الجوزي في هذا الفصل من كتابه نزولها فيهم بقوله: فلما جاء به وأصلح للأكل الخ. وحلّى ألفاظه بآيات من السورة، وأخيراً ذكر السبب الذي خلّت من السورة من ذكر الحور العين مع احتوائها على كافة متع الجنة، بقوله: واستظرفوا عدم ذكر الحور الخ.

.. الإعداد ليلية المباركة ..

قال علي عليه السلام: فأقمت بعد ذلك شهراً أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وأرجع إلى منزلي، ولا أذكر شيئاً من أمر فاطمة استحياءً من رسول الله صلى الله عليه وآله مع غاية شوقي عليها، واشتغال قلبي بها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله كلما لقيني قال: زوّجتك خير النساء، ونعم الزوجة زوجتك، وكنت كذلك إلى أن قال لي أخي عقيل وغيره: ألا تطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله دخول فاطمة عليك لتقرّ عيوننا باجتماع شملكما؟

فقلت: أستحي أن أواجه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو أعلم بالحال. إلى أن قلن لي أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك، فأجبت بمثل الجواب، فقلن: نحن نطلب ذلك لك من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: إفعلن، فدخلن عليه، فقالت أم أيمن وأم سلمة: يا رسول الله أقرّ عين فاطمة ببعلاها واجمع شملهما وقرّ عيوننا بذلك.

(١) المددش، ص ١٢٩ و ١٣٠، ط الآداب - بغداد، ١٣٤٨.

وفي رواية أخرى: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى اجْتِمَاعَ النِّسَاءِ عِنْدَهُ، قَالَ: لِمَ اجْتَمَعْتُنَّ؟

قلن: لأمر لو كانت خديجة في حال الحياة لقرت عينها بذلك.

فلما سمع النَّبِيُّ ﷺ اسم خديجة قال: وأين مثل خديجة؟ صدقتني مع تكذيب النَّاسِ لي، وأنستني عند استيحاش النَّاسِ مِنِّي، وقوتني على دين الله، وواستني في سبيل الله وساعدتني بأموالها وأسرتني بأحوالها -كذا- وأوحى الله إليَّ أن أبشرها بدار لها في الجنة من الزمرد الأخضر وأخرى من قصب كعابها من الذهب ليس فيها تعب ولا نصب.

فقالت النساء: يا رسول الله كانت خديجة أفضل ممَّا ذكرت، وأجمل ممَّا وصف، إلا أنها اختارت جوار رحمة ربها، فحشرنا الله تعالى معها، يا رسول الله إن علياً أخوك وابن عمك يريد أن تجمع شمله بفاطمة ابنتك.

قال ﷺ: فما بال علي لا يطلب هو مني زوجته، فقد كنَّا نتوقَّع منه هذه المسألة؟

قلن: يا رسول الله، الحياء يمنعه من ذلك.

فقال ﷺ: يا أم أيمن إدع لي علياً؛ فدعوته وهو مترصد للجواب، وإته ما يقول النَّبِيُّ ﷺ في هذا الباب، فأتت أم أيمن بالخبر، فجاء عليُّ عليه السلام، فجلس بين يديه، وهو مطرق من الحياء غير رافع رأسه إلى السماء، فقال ﷺ: يا علي أتريد أن أعطيك زوجتك؟

قال: بلى يا رسول الله، حباً وكرامة.

فقال: فما منعك عن طلب ذلك؟

فقال عليُّ عليه السلام: الحياء يا رسول الله ﷺ.

فالتفت رسول الله ﷺ إلى النساء وقال: هيئن لابنتي وابن عمي بيتاً في حجري.

فقالت أم سلمة: في أي حجرة يا رسول الله ﷺ؟

فقال رسول الله ﷺ: في حجرتك يا أم سلمة.

وأمر النساء أن يزيّن ويصلحن من شأن فاطمة عليها السلام، فقال النَّبِيُّ ﷺ: إيتيني

بالدراهم التي أعطيتكها لأمر علي وفاطمة، فجاءت بها، فقبض النَّبِيُّ ﷺ قبضة منها وأعطها علياً، وقال: إشتريها سمناً وزيتاً، واصنع لأهلك طعاماً فاضلاً، فعليك السمن

والتمر، ومن عندنا اللحم والخبز، وأعطى عليها السلام قبضة منها لعمر وقال: إشتربها طيباً وألبسة، فذهبا إلى السوق للشراء، فاشتريا وأتيا بما أمر وأمر هو من عنده بكبش سمين وخبز كثير، فأمر علياً عليه السلام بذبح الكبش واشتغل بشدخ التمر في السمن لاتخاذ الحيس حتى حضر الطعام، فأمر بدعوة الناس للإطعام^(١).

وليمة العرس بلغة أخرى ..

عن بريدة قال: قال نفر من الأنصار لعلي: عليك فاطمة؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما حاجة علي؟

قال: يا رسول الله ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

مرحباً وأهلاً، لم يزد عليها.

فخرج على أولئك الرهط من الأنصار كانوا ينتظرونه، قالوا: ما وراءك؟

قال: لا أدري إلا أنه قال لي: مرحباً وأهلاً.

قالوا: يكفيك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدهما، أعطاك الرحب وأعطاك الأهل.

فلما كان بعد ما زوجته قالوا: يا علي إنه لا بد للعرس من وليمة.

فقال سعد: عندي كبش، وجمع له رهط من الأنصار أصعاً من ذرة...

وخرّج أحمد منه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: لا بد للعرس من وليمة.

فقال سعد: عليّ كبش، وقال فلان: عليّ كذا، وقال فلان: عليّ كذا.

وعن أسماء قالت: أولم عليّ على فاطمة فما كان وليمة في ذلك الزمان أفضل

من وليمته رهن درعه عند يهودي بشطر شعير، وكانت وليمته وأصعاً من شعير وتمر وحيس.

خرّجه الدولابي.

عن جابر قال: حضرنا عرس عليّ وفاطمة فما رأيت عرساً كان أطيب منه،

حشونا البيت طيباً وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا.

خرّجه أبو بكر بن فارس^(٢).

(١) اللمة البيضاء، ص ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦١.

(٢) ذخائر العقبى، ص ٣٣ و ٣٤.

وليمة أخرى في الرفيق الأعلى ..

ومن كتاب الآل مرفوعاً إلى مالك بن حمامة قال : طلع علينا رسول الله ﷺ مبتسماً يضحك ، فقام إليه عبد الرحمن بن عوف ، فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، ما الذي أضحكك ؟

قال : بشارة أتتني من عند الله عز وجل في ابن عمي وابنتي ، أن الله تعالى لما زوج فاطمة ؓ أمر رضوان فهز شجرة طوبى ، فحملت رقاقاً - يعني بذلك صكاً - بعدد محبينا أهل البيت ، ثم أنشأ من تحتها ملائكة من نور من بعد ، فأخذ كل ملك رقاً ، فإذا استوت القيامة بأهلها ماجت الخلائق والملائكة فلا يلقون محباً لنا أهل البيت محضاً إلا أعطوه رقاً فيه براءة من النار ، فنثار أخي وابن عمي وابنتي فكاك رقاب رجال ونساء من أمتي من النار .

هذا الحديث ذكرته في أخبار عليّ ؓ وذكرته هنا لما فيه من ذكر فاطمة ؓ ، وكان ذكره عند تزويجه بها ؓ أولى ، وأينما ذكر فهو دال على شرفهما صلى الله عليهما ... (١)

على مائدة الخير ..

أبو بكر بن مردويه في حديثه : فكث عليّ تسعاً وعشرين ليلة ، فقال له جعفر (٢) وعقيل : سله أن يدخل عليك أهلك ، فعرفت أم أيمن ذلك وقالت : هذا من أمر النساء ، وخلت به أم سلمة فطالبته بذلك ، فدعاه النبي ﷺ وقال : حباً وكرامة ، فأتى الصحابة بالهدايا ، فأمر بطحن البرّ وخبزه ، وأمر علياً ؓ بذبح البقر والغنم ، فكان النبي ﷺ يفصل ولم يرد على يديه أثر الدم ، فلما فرغوا من الطبخ ، أمر النبي ﷺ ينادي على رأس داره : أجيئوا رسول الله ، وذلك كقوله : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ ؛ فأجابوا من النخلات والزروع فبسط التطوع في المسجد ... (٣)

(١) كشف الغمة ، ٨٤/٢ و ٨٥ .

(٢) لم يكن جعفر حاضراً آنذاك ، بل كان مهاجراً في الحبشة ، والرواية نقلناها دون مناقشة .

(٣) لم يكن النبي ﷺ ليرضى بوضع الموائد في المسجد ، وكان مسجده متمحضاً للعبادة ، وكان لا يرضى حتى يشدان الضالة فيه ، فيكف يرضى بأن يولم لابنته في مسجده ؟

وصدر الناس وهم أكثر من أربعة آلاف رجل ، وسار نساء المدينة ، ورفعوا منها ما أرادوا ولم ينقص من الطعام شيء ، ثم عادوا في اليوم الثاني وأكلوا ، وفي اليوم الثالث مبعوثه أبي أيوب ^(١) .

ثم دعا رسول الله ﷺ بالصحاف فملئت ، ووجه إلى منازل أزواجه ، ثم أخذ صحيفة وقال : هذا لفاطمة وبعلمها عليها السلام ، ثم دعا فاطمة وأخذ يدها فوضعها في يد علي وقال : بارك الله لك في ابنة رسول الله ، يا علي نعم الزوج فاطمة ، ويا فاطمة نعم البعل علي ^(٢) .

ساعة الزفاف

وكان النبي ﷺ أمر نساءه أن يزيّننها ويصلحن من شأنها في حجرة أم سلمة فاستدعين من فاطمة عليها السلام طيباً ، فأتت بقارورة ، فسئلت عنها ، فقالت : كان دحية الكلبي يدخل علي رسول الله ﷺ فيقول : يا فاطمة هاتِ الوسادة ، فاطرحيها العمك ^(٣) ، فكان إذا نهض سقط من بين ثيابه شيء ، فبأمرني بجمعه ، فسئِل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : هو عنبر يسقط من أجنحة جبرئيل ، وأتت بماء ورد فسئِلت أم سلمة عنه فقالت : هذا عرق رسول الله ﷺ كنت آخذه عند قيلولة النبي ﷺ عندي .

وروي أنّ جبرئيل أتى بحلّة قيمتها الدنيا ، فلما لبستها تحيّرت نسوة قريش منها ، وقلت : من أين لك هذا ؟ قالت : هذا من عند الله .

تاريخ الخطيب وكتاب ابن مردويه وابن المؤذن وشيرويه الديلمي بأسانيدهم عن علي بن الجعد عن ابن بسطام عن شعبة بن الحجاج وعن علوان بن عتبة عن أبي حمزة الضبعي عن ابن عباس وعن جابر : أنّه لما كانت الليلة التي زفّت فاطمة إلى علي عليه السلام ، كان النبي ﷺ أمامها ، وجبرئيل عن يمينها ، وميكائيل عن يسارها ، وسبعون ألف ملك من خلفها يسبحون الله ويقدمونه ، حتّى طلع الفجر .

كتاب مولد فاطمة عن ابن بابويه في خير : أمر النبي ﷺ بنات عبدالمطلب

(١) قيل : إنّ أبا أيوب أتى يومئذ بغنم ومأة رطل تمر ومثله فعل الأصحاب . [راجع : اللعة البيضاء ،

للإستزادة من هذا الموضوع ، ص ٢٦١ ..]

(٢) راجع : عوالم العلوم ، ص ١٥٢ .

(٣) وهذا من غفلة الرواة سامحهم الله ، فإنّ الملائكة كانوا يخدمونهم ولا يستخذمونهم .

ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة عليها السلام وأن يفرحن ويرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقلن ما لا يرضي الله .

قال جابر: فأركبها على ناقته - وفي رواية الشهباء - وأخذ سلمان زمامها وحولها سبعون حوراء ، والنبي ﷺ وحمزة وعقيل وجعفر وأهل البيت يمشون خلفها ، مشهّرين سيوفهم ، ونساء النبي ﷺ قدّامها يرجزن ، فأنشأت أمّ سلمة :

سرن بعون الله جاراتي	واشكرنه في كلّ حالاتي
واذكرن ما أنعم ربّ العلى	من كشر مكروهه وأفات
.. وسرن مع خير نساء الورى	تفدى بعّمات وخالات
يا بنت من فضله ذوالعلى	بالوحي منه والرسالات

ثمّ قالت عائشة :

يا نسوة استترن بالمعاجر	واذكرن ما يحسن في المحاضر
واذكرن ربّ الناس إذ حضينا	بدينه مع كلّ عبد شاكر
والحمد لله على إفضاله	والشكر لله العزيز القادر
سرن بها فأنه أعطى ذكرها	وخصّها منه بطهر طاهر

ثمّ قالت حفصة :

فاطمة خير نساء البشر	ولمن لها وجه كوجه القمر
فضلك الله على كلّ الورى	بفضل من خصّ بأيّ الزمر
زوّجك الله فتىً فاضلاً	أعني علياً خير من في الحضر

ثمّ قالت معاذة أمّ سعد بن معاذ :

أقول قولاً فيه ما فيه	وأذكر الخير وأبديه
محمّد خير بني آدم	ما فيه من كبر ولا تيه
بفضله عرفنا رشدنا	فأنه بالخير يجازيه
ونحن مع بنت نبيّ الهدى	دي شرف قد مكّنت فيه
في دروة شامخة أصلها	فما أرى شيئاً يدانيه

وكانت النسوة يرجعن أوّل بيت من كلّ رجز ، ثمّ يكبرن ، ودخلن الدار ، ثمّ أنفذ رسول الله ﷺ إلى عليّ ودعاه إلى المسجد ، ثمّ دعا فاطمة فأخذ يديها ووضعها في

يده ، وقال : بارك الله في ابنة رسول الله (ص) .

ملاحظة لا محيص عنها ..

ربّما ألمّ القارئ بالسبب الذي حملني على ترك مناقشة هذه الروايات ، وإن كانت مفتوحة للمناقشة الحامية ، بخاصة وقد وردت فيها أمور ليس من الصّلاح أن نمرّ بها مرور الكرام من قبيل حضور جعفر وعقيل حفلا زفاف ومما لا ريب فيه أنّ عقيلاً كان من أسرى بدر ، فليس من المعقول أن يحضر زفاف الزهراء عليها السلام كما أنّ جعفرأ عليه السلام كان يوماً مهاجراً في الحبشة ولم يعد إلّا في حرب خيبر ، ولم يكن النّبيّ قد بنى على حفصة ، حتّى تكون من ضمن الهازجات بالشر يومذاك ، فقد تزوّجها رسول الله عند أكثرهم في سنة ثلاث من الهجرة (٢) .

أضف إلى ذلك ما تخلل الروايات من الأخطاء المعنوية ، من قبيل وضع الزهراء عليها السلام الوسادة لعمّها دحية ، وهو في حقيقته جبرئيل قد تصوّر بصورة دحية ، وحينئذٍ ما حاجة الملك إلى الوسادة .

هذا من جانب ومن جانب آخر مخالفة الواقع الذي كان عليه وضع مسجد النّبيّ ، فقد كان خالصاً للعبادة فكيف يأذن النّبيّ صلى الله عليه وآله لبسط الأنطاع فيه ، ويجتمع المسلمون لتناول طعام الوليمة في داخله ؟ إنّ هذا ممّا يخالفه واقع الحال ، وسيرة النّبيّ صلى الله عليه وآله ..

ونحن آثرنا نقل روايات الزفاف على ضعفها المتناهي ، فلكونها داخله في المأثور الشعبي للشيعه ، وأنّ النّاس في الأعصر الخوالي كانوا يقرءونها على شكل مجموعات بتلحين خاص مبتهج في حفلات الزواج تفادياً لما كان يلجأ إليه بعض النّاس من استعمال الطرب المحظور شرعاً ، ثمّ إنّ نقل الخبر الضعيف لا ضير منه إذا لم يبح محظوراً أو يحظر مباحاً ، وإذا توخّى الناقل فائدة تدرأ مضرة ما ، ونحن لهذه الغاية ولغايات معها ، نقلنا هذه الأخبار على علّاتها من دون تعليق إلّا عند الضرورة ، وتكفينا الإشارة إلى الكتاب الذي أخرجها وتركنا العهد والتبعة عليه .

(١) عوالم العلوم ، فاطمة الزهراء .

(٢) ابن عبد البر ، الإستيعاب ، ٢٦١/٤ .

إجراء حكيم..

وقال النَّبِيُّ ﷺ: إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتاك، فجاءت مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت، وأنا في جانب، ورسول الله ﷺ، فقال ها هنا أخي .
قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك؟
قال: نعم .

ودخل رسول الله ﷺ البيت، فقال لفاطمة: إيتيني بماء، فقامت إلى قعب في البيت فأتت فيه بماء، فأخذه النَّبِيُّ ﷺ ومج فيه، ثم قال لها: تقدّمي، فتقدّمت فنضح بين ثدييها وعلى رأسها، وقال: اللهم إني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال رسول الله ﷺ: ايتوني بماء .

قال عليّ: فعلمت الذي يريد، فقمّت فملأت القعب ماءً وأتيته به، وأخذه فمَجّ فيه وصنع بعليّ كما صنع بفاطمة، ودعا له بما دعا به لها، ثم قال: أدخل بأهلك بسم الله والبركة.. (١)

عن أسماء بنت عميس قالت: كنت في زفاف فاطمة بنت رسول الله ﷺ فلما أصبحنا جاء النَّبِيُّ ﷺ إلى الباب فقال: يا أم أيمن إُدعي لي أخي .

فقلت: هو أخوك وتنكحه؟

قال: نعم يا أم أيمن .

فجاء عليّ فنضح النَّبِيُّ ﷺ من الماء ودعا له، ثم قال: إُدعي لي فاطمة .

قالت: فجاءت تعثر من الحياء، فقال لها رسول الله ﷺ: إسكني فقد

أنكحتك أحب أهل بيتي إليّ .

قالت: ونضح النَّبِيُّ ﷺ عليها من الماء، ثم رجع رسول الله ﷺ فرأى

سواداً بين يديه، فقال: من هذا؟

فقلت: أنا أسماء .

قال: أسماء بنت عميس؟

قلت : نعم .

قال : جئت في زفاف ابنة رسول الله ؟

قلت : نعم ؛ فدعالي ^(١) .

وفي ذخائر العقبى ^(٢) أنه قال لفاطمة : إني لم آل أن أنكحتك أحب أهلي

إلي ... وقال لأسماء : إني بنت رسول الله ﷺ جئت كرامة لرسول الله ﷺ ؟

قالت : نعم ؛ فدعالي دعاءً أنه لأوثق عملي عندي .

قال : ثم خرج ثم قال لعلي : دونك أهلك ، ثم ولى في حجره ، فما زال يدعو

لهما حتى دخل في الحجرة .

التعريف بالزوج الشريف ..

وهنا قبل أن ينصرف الرسول ﷺ من البيت أراد ﷺ أن يعرف الزهراء منزلة ابن عمها لتكون قريرة العين بهذا الزواج السعيد ، ولتقوم بحقوقه الزوجية التي يجب على المرأة القيام بها ، ولا سيما بعد أن تعرف مقامه الرفيع في نظر النبي المستمد من الله عز وجل ، وها هو ﷺ نراه مرة يخبرها بأن علياً أحب أهله إليه ، فيقول : أنكحتك أحب أهل بيتي إلي ، ومرة يقول لها : يا ابنتي والله ما أردت أن أزوجك إلا خير أهلي ، وأراد أن يزيد معرفته بمنزلة ابن عمها ، فقال لها : زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة ، وإنه لأول أصحابي إسلاماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حليماً . وإذا كان علي سيداً في الدارين وكان أكثر أصحابه علماً وحليماً وأسبقهم إلى الإسلام فلا شك أنه خيرهم ، لأنه من السابقين والسابقون السابقون أولئك هم المقربون ، فعلي إذاً خير أهله ، وخير أصحابه جميعاً ، وهو خيرهم في كل صفاته وسائر مميزاته لذلك كان مختاراً عند الله ومصطفى عند الرسول لمثل هذا الزواج الذي له مقامه ومنزلته عند الله تعالى شأنه .

وهناك حديث نبوي يشيد بفضل علي أعظم الإشادة ، ويعرف الزهراء أن بعلمها إمام مفترض الطاعة لأنه وصي بوحي من الله عز وجل ، يقول ﷺ مخاطباً

(١) المستدرک علی الصحیحین ، ٣/ ١٥٩ .

(٢) ص ٢٨ .

للزهراء: أما علمت أن الله عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ على أهل الأرض فاختر منهم أباك فبعثه نبياً، ثمَّ اطَّلَعَ ثانيةً فاختر بعلك فأوحى إليَّ فأنكحته واتَّخذته وصياً؛ وهذا واضح الدلالة على أن علياً عليه السلام بعد النَّبِيِّ صِفوة خلقه، وخيرة عباده، لذلك اصطفاه للوصية وخصه بالولاية، وأوحى إلى نبيِّه أن يتَّخذه وصياً على أُمَّته وبعلاً لبضعته. وهكذا يعرف النَّبِيُّ الزَّهراء بشخصية ابن عمِّه ومنزلته، لتزداد حباً له، ولتعرف حقَّه كما يجب أن تعرفه، فتوطِّد بذلك الروابط الودَّية وتتأكَّد بهذا العلاقات الزوجية، ويسود الزوجين جوٌّ مفعم بالود والإخلاص وروح التفاهم.

ثمَّ التفت النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله إلى أخيه عليٍّ وقال له: هذه بنتي؛ فمن أكرمها فقد أكرمني، ومن أهانها فقد أهانني، ودعا لهما بأن يبارك الله لهما، وأن يرزقهما ذريةً صالحةً طيبةً، ثمَّ ودَّعهما وانصرف مسروراً لأنه أصاب لها خير أهل وزوجها أفضل بعل.

زيارة في الصباح السعيد..

وزارهما صلى الله عليه وآله عند الصباح فسلم عليهما واستأذنهما بالدخول، فدخل، ثمَّ قال لعليٍّ عليه السلام: كيف وجدت أهلِكَ؟؟
فقال: نعم العون على طاعة الله.
وسأل فاطمة، فقالت: خير بعل يا أبتاه.

فرفع الرسول كفيه بالدعاء وقال: اللَّهُمَّ اجمع شملهما، وألف بين قلبيهما، واجعلهما وذريتهما من ورثة الجنة، وارزقهما ذريةً طيبة طاهرة مباركة، واجعل في ذريتهما البركة واجعلهما أئمةً يهدون بأمرِك إلى طاعته..^(١)

وقد استجاب الله لنبيِّه دعائه في بضعته وبعلهما عليهما السلام، فكانا في الصميم من الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

(١) محمد صادق الصدر، حياة أمير المؤمنين عليه السلام، ص ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ عن الكتب التالية: منتخب الكنز، ص ٣١؛ خصائص النسائي، ص ٣٢؛ الإستهجاب، ٣/٣٦؛ كفاية الطالب، ص ١٦٢ و ١٦٧.

الشجرة الطيبة ..

عن ميناء بن أبي ميناء مولى عبدالرحمن بن عوف قال: خذوا عني قبل أن تشاب الأحاديث بالأباطيل؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا الشجرة، وفاطمة فرعها، وعليّ لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، وشيعتنا ورقها، وأصل الشجرة في جنة عدن، وسائر ذلك في سائر الجنة.

قال الحاكم: هذا متن شاذ وإن كان كذلك، فإن إسحاق الدبري صدوق^(١)، وعبدالرزاق وجده وأبوه ثقات، وميناء مولى عبدالرحمن بن عوف قد أدرك النبي ﷺ وسمع منه، والله أعلم^(٢).

وفي حديث أخرجه ابن عدي: فالشجرة أصلها من جنة عدن، والأصل والفرع واللقاح والورق والثمر في الجنة، وزعم ابن عدي أنه موضوع، قال: وأتهموا به ميناء^(٣).

وما أتهموه لكذبه وقد ذكره ابن حبان في كتاب «الثقات»، وقال: يروي عن أبي هريرة، روى عبدالرزاق عن أبيه عنه^(٤).

ولكنهم أتهموه لتشييعه. قال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: أنكر الأئمة حديثه لسوء مذهبه. وقال أحمد بن عدي: وتبين على أحاديثه أنه يغلو في التشيع^(٥).

وقال علي بن محمد الكناني: وأتهم ميناء بن أبي ميناء بوضعه، لأنه كان غالباً في التشيع^(٦).

ومثله قال ابن الجوزي في الموضوعات، ورماه بالغلو بالتشيع، وقال أيضاً:

(١) هؤلاء الذي ذكرهم الحاكم هم رجال السنن، والدبري يفتح الدال وإسكان الباء، هذه نسبة إلى الدبر وهي قرية من قرى صنعاء اليمن.

(٢) نفسه.

(٣) اللثالي المصنوعة، ٤٠٥/١.

(٤) الثقات، ٤٥٥/٥.

(٥) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ٥٦٦/١٨.

(٦) تنزيه الشريعة المرفوعة، ٤١٤/١.

وهو المتهّم به عندي ، ولكنّه زعم أنّ ابن حبان قال عنه : لا تحلّ الرواية عنه إلاّ اعتباراً^(١) .

وقد عرفت أنّه ترجم له في كتاب الثقات ...

ومن أجل تشييعه لأهل البيت وميله عن عدوّهم قال فيه ابن معين : ومن مينا الماص بظرائمه حتّى يتكلّم في الصحابة^(٢) ؟

لقد نضح ما في إناء ابن معين فأفحش القول فيه ، والفحش أدب أموي لا يسلم منه الراع في سبّ الأُمويّة ، وهو نقيض ما يريد الله من المسلم ﴿ وقولوا للنّاس حسناً ﴾ وما للبحث العلمي وبذائه السوقة وولغة الغوغاء والعامّة؟! ولكنّه الأدب الأموي أدرك ابن معين فنضح بما فيه وسأتلو عليك منه ذكراً .

دخل الوليد بن يزيد يوماً مجلس هشام بن عبد الملك ، وقد كان في ذكره قبل أن يدخل ، فحمّقه من حضر من بني أميّة ، فلمّا جلس قال له العباس بن الوليد وعمر بن الوليد : كيف حبّك يا وليد للروميّات فإنّ أباك كان بهنّ مشغوفاً ؟ قال : إنّي لأحبّهنّ ، وكيف لا أحبّهنّ ولن تزال الواحدة منهنّ قد جاءت بالهجين مثلك - وكانت أمّ العباس روميّة - .

قال : أسكت فليس الفحل يأتي عسبه بمثلي .

فقال الوليد : أسكت يا بن البظراء !

قال : أتفخر عليّ بما قطع من بظر أمّك .

وأقبل هشام على الوليد فقال له : ما شرابك ؟

قال : شرابك يا أمير المؤمنين ، وقام مغضباً ، فخرج .

فقال هشام : أهذا الذي تزعمون أنّه أحمر ؟ ما هو أحمر ولكنّي لا أظنّه على

الملّة ..^(٣)

لقد قيل في المثل : كلام الملوك ، ملوك الكلام ، وإذا كان كلام ملوك الأميّة في

مستوى كلام الوليد فلا بدع أن يكون كلام علمائهم في مستوى كلام ابن معين .

(١) ابن الجوزي ، الموضوعات ، ٥/٢ - ٦ .

(٢) الذهبي ، الميزان ، ٤/٢٣٧ .

(٣) أبو الفرج الأصبهاني ، الأعاني ، ٤/٧ ، ترجمة الوليد بن يزيد .

وأدلى ابن حجر بدلوه في جرح مينا عليها السلام ونسب وضع الحديث إليه بصيغة الترجي، وهذا يدل على عدم جزمه بالوضع أو بالوضع، بل يدل على صحة الحديث كما قاله الحاكم، ولكن القوم تكلفوا رده لأنه في مناقب أهل البيت، ولو كان في غيرهم لنحتوا من الجبل له سنداً وصحّوه.

وانظر إلى السيوطي في موضوعاته كيف عرض الحديث ولم يذكر فيه إلا قول الذهبي ولم ينسب ببنت شفة عنه، وفي ذلك دليل على تقليدهم الذهبي الذي تولى كبر ردّ الحديث، وإن كانوا يقولون بصحّته^(١).

وإني ليعجبني قول السيّد ابن عقيل عليه السلام عن هؤلاء المحدثين، وإن كنت كثيرالعتب عليه وفيما أنقله عنه إشارة واضحة إلى ما نحن فيه، قال: «... بل رأيت فيما جرح بعضهم لبعض الأئمة الطاهرين بما لا يسوغ الجرح به عند المنصفين، أو بما يحتملون ما هو أشدّ منه بمراتب للخوارج والنواصب المبعدين، رأيتهم إذا ترجموا السادات أهل البيت أو لمن تعلّق بهم اختزلوا الترجمة غالباً وأوجزوا، وإذا ترجموا لأضدادهم، أو لأذئاب أعداءهم أطالوا، ولعذرهم أبرزوا، ومن المعلوم ما يوهمه الإختزال وما يفهم من الإسهاب والإسترسال، رأيت فيها توثيقهم الناصبي غالباً وتوهينهم الشيعي مطلقاً، ورأيت ورأيت:

لقد رابني من عامر أن عامراً بعين الرضا يرنو إلى من جفانيا
يجيء فيبيدي الودّ والنصح غادياً ويمسي لحسّادي خليلاً مؤاخيا
فياليت ذاك الودّ والنصح لم يكن وباليته كان الخصيم المعاديا

فهلاني هذا الصنيع وأفضعني ذلك الحكم واستغربته كلّ الإستغراب، وقلت: إنّ هذا الهو التباب.

غير أنّه ظهر لي أنّ الكثير من المتقدّمين بعض أعدار سوّغت لهم ما سوّغت، وقلّدهم المتأخرون هيبة الإنفراد عنهم، وفرقاً من أن ينبزوا بالرفض، وقد كان في بعض الأعصار خير للأنسان أن يتهم بالكفر فضلاً عمّا دونه من أن يتهم بموالة عليّ وأهل بيته^(٢).

(١) السيوطي، اللغالي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، ٤٠٥/١.

(٢) العتب الجميل على أهل الجرح والتعديل، ص ٢٨.

أقول: وجرح مينا ابن أبي مينا رضي الله عنه يجري في هذا المجرى، وينتظم في هذا السلك الخبيث، والعجب من سيدنا ابن عقيل أنه لا يزال يرى القوم على شيء من الدين فيقول في ختام كلامه:

وأقدم قبل الشروع في الإنتقام ثنائي الجميل لأولئك النقاد فلقد جاهدوا أشرف جهاد ولم يزلوا بين مردود وراذ والعصمة لمن اختصه الله بها من صفوة العباد^(١).

الجرح لأتفه الأسباب

إنَّ أهل الجرح والتعديل درجوا على خطّة مرفوضة وهي جرحهم الراوي العادل لأتفه الأسباب ممّا يدلّ على أنّ هوى النفس والميول الشخصية متحكّم في مسائل الجرح والتعديل من جلّهم.

ضعّف شعبة بن الحجاج راوياً فسُئِلَ عن السبب فقال: رأيتَه يركض على برذون.

وضعّف المنهال أيضاً لسماعه من داره صوت القرءات بالتطريب.

وضعّف الحكم بن زاذان فسأله شعبة عن السبب فقال: كان كثير الكلام.

وضعّف جرير بن عبد الحميد سماك بن حرب لأنّه رآه يبول قائماً.

وضعّف بعضهم إسماعيل بن عبد الملك لكونه كان يبيع الزبيق.

وضعّف العجلي إسحاق بن إسماعيل والد إسماعيل القاضي لأنّه كان أميناً على أموال الأيتام.

وضعّف ابن أبي حاتم راوياً سمعه يقرأ بالتلحين.

وضعّف وكيع ويحيى بن سعيد إبراهيم بن سعد لتجويزه سماع الملاهي، وردّه الذهبي بأنّه كان لا يجد دليلاً ناهضاً على التحريم فأذاه اجتهاده إلى الرخصة فكان ماذا؟

وضعّفوا الزهري لكونه لبس زي المبذ وخدم هشام بن عبد الملك، وفي حقّه يقول الذهبي: إذا بلغ قلّتين لم يحمل الخبث..

وتكلم يحيى بن معين في الشافعي لمجرد تعصبه لمذهب الحنفية الذي كان غالباً فيه^(١).

وكان سيئ الرأي فيه^(٢).

وصحّت كلمة ابن الرومي في هؤلاء حين قال: ما رأيت أحداً قط يقول الحق في المشايخ غير يحيى، وغيره كان يتحامل بالقول^(٣).

بل حتّى يحيى هذا لم يسلم من الغمز، فقد كان أحمد بن حنبل لا يرى الكتابة عنه، لأنه امتحن فأجاب، أي أجاب بخلق القرآن^(٤).

وقد أثر عنه بعض الهوى الذي يكفي في جرحه:

الحسين بن فهم: سمعت يحيى بن معين يقول: كنت بمصر، فرأيت جارية بيعت بألف دينار، ما رأيت أحسن منها، صلّى الله عليها، فقلت: يا أبا زكريّا مثلك يقول هذا؟ قال: نعم صلّى الله عليها وعلى كلّ مريح..^(٥)

إنّ هذا يرى الصلوة على الجوّاري ولا يراها تصحّ على أهل البيت، فانظر إلى خبثهم وعظيم تحاملهم على من أوجب الله حبّهم وولائهم عليهم.. وكان على صلة حسنة بحبيّ المدينة، فقد قال لها ذات يوم: أيّ الرّجال أعجب إلى النّساء؟ قالت: الذي يشبه خدّه خدّها^(٦).

وحبيّ هذه كانت مزوّجاً، وكانت نساء المدينة يسمّين حبيّ حواء أمّ البشر، لأنها علّمتهم ضروراً من هيئات الجماع، ولقّبت كلّ هيئة بلقب منها القبع، والغربلة، والنخيز^(٧).

وكان مضافاً إلى ميله للنساء لا يرى تحريم النبيذ:

قال ابن الجنيد: وسمعت يحيى يقول: تحريم النبيذ صحيح ولكن أقف، ولا

(١) أحمد الفخاري الحسني، فتح الملك العلي، ص ١٠١ و ١٠٢.

(٢) سير أعلام النبلاء، ٨٨/١١.

(٣) سير أعلام النبلاء، ٨٢/١١ و ٨٧.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه، ٨٧/١١.

(٦) نفسه، ص ٩٣.

(٧) عمر رضا كحّالة، أعلام النساء، ٢٣٧/١.

أحرّمه ، قد شربه قوم صالحون بأحاديث صحاح ، وحرّمه قوم صالحون بأحاديث صحاح .

ويعنى بمن شربه مولاة عمر بن الخطّاب ، فقد جاء في الموطأ من طريق محمود بن لبيد الأنصاري أنّ عمر بن الخطّاب حين قدم الشام ، شكّا إليه أهل الشام وباء الأرض ونقلها ، وقالوا : لا يصلحنا إلاّ هذا الشراب . فقال عمر : إشرّبوا هذا العسل . قالوا : لا يصلحنا العسل . فقال رجل من أهل الأرض : هل لك أن نجعل لك من هذا الشراب شيئاً لا يسكر؟ قال : نعم ؛ فطبخوه حتّى ذهب منه الثلثان وبقي الثلث ، فأتوا به عمر ، فأدخل فيه أصبعه ثمّ رفع يده فتبّعها يتمطمط ، فقال : هذا الطلاء ، هذا مثل طلاء الإبل ، فأمرهم عمر أن يشربوه ، فقال له عبادة بن الصامت : أحللتها والله يا عمر ، فقال عمر : كلاً والله ، اللهمّ إنّي لا أجلّ لهم شيئاً حرّمته عليهم ولا أحرّم شيئاً أحللته لهم ...^(١)

ونقول لخليفة المسلمين بالهناء والشفاء ، لا نخش أحداً حتّى الله لأنّها :

إذا حرمت يوماً على دين أحمد فخذها على دين المسيح من حلتم

ونقول للقارئ النابه الذكي : أتعرف القائل لعمر من هو ؟ لقد سمّوه رجلاً من أهل الأرض وهو خال المؤمنين !!! معاوية ، وما كان السؤال ولا الطبخ ولا الطلاء ، ولا تمطمط عمر إلاّ له ومن أجله .

أضف إلى ذلك أنّ الشراب لو كان مباحاً لما احتاج إلى كلّ هذه المواقف من عمر ومن الرّجل ومن عبادة بن الصامت .. وهذه كلّها قرائن تشير إلى أنّها ابنة العنب «السارة البازة» بلغة بني أميّة وخالهم معاوية وعمّهم عمر .

يحيى بن معين مجروح

قال إبراهيم بن هانئ : رأيت أبا داود يقع في يحيى بن معين ، فقلت له : تقع في مثل يحيى ؟

فقال : من جرّ ذبول الناس جرّوا ذيله ..^(٢)

(١) سير أعلام النبلاء ، ح ١١ ، الهامش ص ٨٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ٩٤/١١ .

اعتراف يحيى بجرح رجال لا يستحقون ذلك

علي بن الحسين بن الجنيد : سمعت يحيى بن معين يقول : إننا لنظعن على أقوام لعلمهم قد حطّوا رحالهم في الجنّة من أكثر من مائتي سنة .
قال ابن مهرويه : فدخلت على ابن أبي حاتم وهو يقرأ على الناس كتاب الجرح والتعديل ، فحدّثته بهذه الحكاية ، فبكى وارتعدت يداه حتّى سقط الكتاب من يده ، وجعل يبكي ويستعيدني الحكاية أو كما قال ...^(١)

اللهم لا تغفر له !!

قال هارون بن بشير الرازي : رأيت يحيى بن معين استقبل القبلة رافعاً يديه ، يقول : اللهم إن كنتُ تكلمت في رجل وليس هو عندي كذاباً فلا تغفر لي ..^(٢)
ومما لا شك فيه أنه جرح مينا بن أبي مينا لا لكذبه بل لمذهبه في أهل البيت ولتشيّعه لهم ، فلا غفر الله ليحيى بن معين ولا لغيره من النواصب ، الذين استهدفوا أهل بيت النبيّ وشيعتهم في كلّ ما قالوه وفعلوه وجعلوا ذريهم عليهم .

دوحة الخلد .. التخلص

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أنا شجرة وفاطمة حملها وعلى لقاحها والحسن والحسين ثمرها والمحبّون لأهل بيتي ورقها ، هم في الجنّة حقاً حقاً .
قال شهاب الدين الحضرمي : أورده الديلمي في مسنده ..^(٣)

وزعم ابن حجر أنّ في مسنده من يكذب ولعله يشير إلى مينا التابعي ، وجزم هنا بوصفه ، وفي لسان الميزان تردّد بلعلّ كما سبقت الإشارة إليه ، وقد بيّنا أنّ مينا اتهم لتشيّعه لا لكذبه ، فهو أجلّ من أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أتقى ممّن

(١) نفسه ، ٩٥/١١ و ٩٢ .

(٢) نفسه .

(٣) رشفة الصادي ، ص ٨٨ ؛ وراجع فردوس الأخبار للديلمي ، ٨٤/١ .

جرحه وقد بيّنا حال بعضهم .

ولا أعرف العلة التي حملهم على ردّ هذا الحديث الشريف ، أكانوا في شكّ هذه الشجرة ؟ ألم يكن رسول الله أصلها وفاطمة حملها وعلي لقاحها والحسنان ثمرها ففي أيّ جزء من هذه وقع الشكّ منهم ؟
اللهمّ لا أعرفه إلا في الجزء الأخير ، وهم المحبّون لأهل بيته ، وهنا ينبغي أن يصنّف أهل السنّة والجماعة ومنهم أهل الحديث في غير المحبّين لكونهم قد عزلوا أنفسهم عنهم ولو كانوا منهم لعظوا على هذا الحديث بالنواجذ كيف لا وفيه بشارة للمحبّين كافة .

.. يا أهل بيت المصطفى ..

يا أهل بيت المصطفى عجباً لمن	يأبى مديحك من الأقوام
والله قد أثنى عليكم قبلها	وبهديكم شدت عرى الإسلام
الله يحشر كل من عاداكم	يوم الحساب مزلزل الأقدام
ويرى شفاعة جدكم من دونه	ويجيء حوضكم طريد أوام ^(١)

.. الشهادة الهانية ..

لكم آل الرسول جعلت ودي	وذاك أجل أسباب السعاده
ولو أني استطعت لزدت حباً	ولكن لا سبيل إلى الزيادة
أعيش وحبكم فرضي ونفلي	وأحشر وهو في عنقي قلاده
أظل مجاهداً لحليف نصب	أضل ببغضكم أبدأ رشاده
فإن أسلم فأجر لم يغثني	وإن أقتل فتها في الشهاده.. ^(٢)

(١) رشفة الصادي ، ص ١٩٣ ، الشعر لأبي الحسن بن سعيد .

(٢) نفسه ، ص ٢١٠ ، والشعر للحسن بن علي بن جابر رحمة الله عليه .

المجلس السابع عشر
 فريّة مفضوحة ؛ خطبة ابنة أبي جهل : الإفتراء والرّد

«.. انقلاب الأصحاب ، على الأعقاب ..»

للسيد مهدي الأعرجي

فضلت الدنيا له تنتحب
 ولن يضّر الله من ينقلب
 وحول دارها أدير الحطب
 إن كلمتهم رجعوا وانقلبوا
 لادت وراها منهم تحتجب
 ميراثها وللشهود كذبوا
 وهو ببند سييفه ملّتب
 ينصرني وجعفر فيغضب
 أديالها وقلبيها منشعب
 أذعو وفيكم أرضكم تنقلب
 بالسوط وهي بالنبي تندب
 ضئيل تيم بعده ونصّبوا
 بسيفه في الحرب قُدّ مرحب
 عَلِيٌّ لَمَّا غَيَّبْتَكَ التُّرْب
 تراكمت منهم عَلِيٌّ الكُرْب
 تندكّ منها الراسيات الهضب
 حقوقها وفيها مستلب
 وزينب خلفهم تنتحب
 يسمع جهراً صوتها المحجّب
 منها الرداء والخمار تسلب
 أطفالها من الخيام هربوا...

يوم قضى فيه النبيّ نحبه
 وانقلب الناس على أعقابهم
 وأقبلوا إلى البتول عنوة
 فاستقبلتهم فاطم وظنّها
 حتّى إذا خلت عن الباب وقد
 فكسروا أضلاعها واغتصبوا
 وأخرجوا الكرار من منزله
 يصيح أين اليوم مني حمزة
 وخلفهم فاطمة تعثر في
 تصيح خلّوا عن عليّ قبل أن
 فأقبل العبد لها يضربها
 واعتزلوه جانباً وأمروا
 تجاهلوا مقامه وهو الذي
 ولو تراني والعدى تحالفوا
 وجزعوني صحك الصاب وقد
 ولم تزل تجرع مهم غصصاً
 حتّى قضت بحسرة مهضومة
 وأخرج الكرار ليلاً نعشها
 فقال للزكيّ سكّتها فلا
 فلو يراها بالطفوف والعدى
 تجول في وادي الطفوف كي ترى

خطبة ابنة أبي جهل ؛ فرية عدو على الرسول والوصي والزهراء عليهم الصلاة والسلام

بذل العدو غاية وسعه في التفتيش عن غميمة يغمز بها الطاهر المطهر، فلم يعثر على شيء من ذلك في حياة صاحبتها ظروف استثنائية هي عرضة للإصابة بالغمائز .

ولمّا أعجزه ذلك عمد إلى الدس والإختلاق، وافتري «أكذوبة» بلهاء، يبطلها الواقع، ويردّها شاهد الحال، وهي المزعمة الباطلة عن خطبة الإمام لابنة أبي جهل «جويرية» وغضب الصديقة من ذلك، وما جرى بعده من رفع أمرها إلى النبي، وإعلان النبي عنها في ملأ من صحابته .

وراوي «الواقعة» واحد، وهو المسور بن مخزومة الزهري، وجاءت بسياقات مختلفة وطرق متفاوتة ؛ بين الصحة والضعف، وحامل الراية الأول في هذه المسألة هو محمد بن إسماعيل البخاري ؛ مؤلف «الجامع»، والقوم بأجمعهم تبع له، وقد أخرجها في صحيحه في التّكاح في باب ذب الرّجل عن ابنته في الغيرة، وفي الطلاق باب الشقاق، وفي الجمعة باب من قال في الخطبة بعد الثناء أمّا بعد، وفي الجهاد باب ما ذكر من درع النبيّ وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه وفي فضائل أصحاب النبيّ باب مناقب رسول الله ﷺ، وباب ذكر أصحاب النبيّ ﷺ، وباب مناقب فاطمة .

وليس من باب الصدفة والإتفاق أن يكثر البخاري من هذه الرواية الأبواب، ويخرجها من طرق كثيرة لأنه ذكرها للطعن في شخصيّة الإمام من خلال ما دلت عليه من غضب الزّهراء وما تبعه من غضب النبيّ ﷺ، وكم للرجل من مواقف نظير هذا الموقف يطعن بها في شخصيّة الإمام وأهل البيت، وتبعه مسلم فأخرجها في فضائل الصحابة : باب مناقب فاطمة .

وأخرجها كذلك أبو داود في سننه، والترمذي، وابن ماجه، وأخرجها ابن حنبل في المسند أيضاً. وأخرجها الحاكم في المستدرک ج ٣ ص ١٥٨، وجاءت في كنز العمال ج ١٢ ص ١٠٦ و ١٠٧، وفي فتح الباري ج ٩ ص ٣٢٧، وفي المسند ج ٣ ص ٣٢٨، وسنن البيهقي الكبرى ج ١٠ ص ٢٨٨، وحلية الأولياء ج ٧ ص ٣٢٥،

وشرح السنّة للبغوي ج ١٤ ص ١٥٩، وذكرها ابن الأثير في أسد الغابة ج ٤ ص ٣٦٦،
والذهبي في سير الأعلام ج ٣ ص ٣٩٢، وهكذا ترى القوم يتبارون في إخراجها،
وسبب ذلك فيما أعلم هو التخفيف عن أبي بكر لما جرى عليه من غضب الزهراء،
والمرويّ الثابت عن أبيها أنّ الله يغضب لغضبها..

ولذلك نرى الرواية نشطت بعد وفاة النبيّ ونشط مخرجوها ليحوّلوا غضب
الصدّيقة عليها السلام عن أبي بكر صاحبهم إلى جهة أخرى، وسيأتى ذلك حين يطالع
القارئ على وضع الرواية وبطلانها، ونحن نذكر سيقاً واحداً منها، ثمّ نسأل
الأضواء عليه وعلى رواته إنشاء الله، ولا نقصد بذلك إلا وجه الله تعالى، ودحض
الباطل الزهوق.

سياق الرواية من البخاري

أخرجها البخاري، عن ابن شهاب حدّثه أنّ عليّ بن الحسين حدّثه أنّهم حين
قدموا المدينة من عند يزيد بن معاوية مقتل حسين بن علي رحمة الله عليه، لقيه
المسور بن مخزومة، فقال له: هل لك إليّ من حاجة تأمرني بها؟ فقلت له: لا، فقال
له: فهل أنت معطيّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله فأني أخاف أن يغلبك القوم عليه، وأيم
الله لئن أعطيتني لا يخلص إليهم أبداً حتّى تبلغ نفسي، إنّ عليّ ابن أبي طالب خطب
ابنة أبي جهل على فاطمة عليها السلام فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب الناس في ذلك على
منبره هذا، وأنا يومئذ محتلم، فقال: إنّ فاطمة منّي وأنا أتخوّف أن تفتن في دينها،
ثمّ ذكر صهرراً له من بني عبد شمس فأنتى عليه في مصاهرته إيّاه، قال: حدّثني
فصدّقني، ووعدني فوفّي لي، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحلّ حراماً، ولكن والله
لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وبنت عدوّ الله أبداً..^(١)

ويمثله أخرجها مسلمس إلا في قوله آخر الرواية: «مكناً واحداً أبداً»^(٢).

والرواية بطرقها كافّة تدور على رأس المسور بن مخزومة، وهو معروف
بانحرافه عن الإمام أمير المؤمنين وعدائه له، وهو ابن أخت الصهر الذي صغى

(١) صحيح البخاري، ١٠١/٤ و١٠٢، مطابع الشعب، ١٣٧٨.

(٢) صحيح مسلم، ١٩٠٢/٤، ط دار احياء الكتب العربيّة - بيروت.

لصهره مع هنّ وهنّ.. وحينئذٍ لا بدّ من فضح حاله لتتعرّف من خلال ذلك على الحقيقة؛ فمن هو المسور هذا؟..

المسور بن مخرمة الزهري

هو المسور بن مخرمة بن نوفل القرشيّ الزهريّ، ولد بعد الهجرة بسنتين^(١). قال ابن حجر: ولد بعد الهجرة بسنتين، وقدم المدينة في ذي الحجّة بعد الفتح سنة ثمان، وهو غلام أيفع ابن ستّ سنين^(٢). ومات سنة أربع وستين في شهر ربيع الأوّل من حجر أصابه في الحجر أيام محاصرة الحصين بن نمير للبيت في فتنة بن الزبير، وكان المسور من أنصاره^(٣). قال عطاء بن يزيد: كان ابن الزبير لا يقطع أمراً دون المسور بمكّة^(٤). وأمّه عاتكة بنت عوف أخت عبد الرحمن بن عوف، ولم يزل مع خاله في أمر الشورى إلى أن قُتل عثمان.

المسور عثمانيّ الهويّ..

كان المسور عثمانيّ الهويّ، وهواه في عثمان حمله على أن يقدم بريداً منه يستصرخ بمعاوية^(٥). وعرف معاوية له هذه اليد، فكان يحسن صلته إذا وفد عليه، وقد كثرت وفاداته عليه، وفي أحدها قدم على معاوية ففضى حاجته، وبعد كلام طويل لثّقه معاوية للمسور، استحوذ على لّبّه وضمن موادّته، حتّى قال المسور: فعرفت أنّه قد خصمني لما ذكر ذلك.

(١) أسد الغابة. ٤/٣٦٥؛ ومختصر تاريخ دمشق، ٢٤/٣٠٦، وقد أطبقت كلمة مترجمه على ولادته في هذه السّنة.

(٢) الإصابة. ٣/٤١٩.

(٣) راجع ترجمته في طبقات ابن سعد، وتاريخ الإسلام، وسير أعلام النبلاء، ومختصر تاريخ دمشق.

(٤) سير أعلام النبلاء. ٣/٣٩٢.

(٥) سير أعلام النبلاء. ٣/٣٩١؛ وتاريخ الإسلام، ص ٦١ - ٨٠ و٢٤٥.

قال عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه..^(١)

وما ثبتت عن الرجل معارضة لحكم معاوية ليحتاج إلى ما زوّقه معاوية من كلام يقوله ولا يعتقد به، ولو صحّ انقلابه إلى جانب معاوية بفعل تلك الجمل المنمّقة، فإنّ المسور تعدّى حدود الوهميّة إلى الجهل المفرط، والواقع أنّه لا هذا ولا ذاك، حمله على الصلاة على معاوية عند ذكره وإنّما هي الدّنيا وعند معاوية مفاتيحها، حليت في عينه وراقه زبرجها كما راق سلفه من أبنائها، وفعلاً أصاب منها بوفادته على معاوية شيئاً كثيراً حتّى عدّ من أثرياء زمانه.

يقول الزبير بن بكار: كان المسور بن مخزومة ذا مالٍ كثير، فأسرع فيه على إخوانه فذهب، فسأل امرأته، وكانت مؤسرة، فمنعته وبخلت عليه، فخرج يريد بعض خلفاء بني أمية منتجعاً^(٢)، فلمّا كان ببعض الطريق نزل ماءً يقال له: بلاكت، فقال له غلامه: كيف يقال لهذا الماء؟ قال: يقال له: بلاكت، فقال:

بينما نحن من بلاكت بالقاع	سراعاً والعيس تهوي هويًا
خطرت خطرة على القلب من	ذاكرارك وهنأ فما استطعت مضياً
قلت لبنيك إذ دعاني لك	الشوق وللحاديين كراً المطيأ

فقال: هنّ بدن إن لم تكرهن رواجع. قال: قد أشرفن على أمير المؤمنين. قال: هنّ بدن إن لم تكرهن رواجع، فانصرف ودخل المصلّى ليلاً، فوجد رجال قريش حلقاً يتحدّثون، فقالوا له: زاد خير. فقال: زاد خير، حتّى انتهى إلى داره، فقالت له امرأته: زاد خير، فأنشدها الأبيات، قالت: كلّ ما أملك في سبيل الله، إن لم أشاطرك مالي، فشاطرته مالها^(٣).

وسواء أصحّت هذه الرواية أو لم تصحّ، فإنّ ولائه لمعاوية مقطوع به عند من ترجم له من الرواة والمؤرخين، وسواء أوفد على معاوية أو لم يفد، فإنّ صلوات معاوية تأتيه تبعاً كما كانت تأتي إخوانه من الصحابة والتابعين، ممّن إرتهنّ ذمّته عند معاوية.

(١) نفسه، ص ٢٤٦.

(٢) لم يعاصر المسور من خلفاء بني أمية إلا عثمان ومعاوية؛ أمّا عثمان فلا يخرج إليه لوجوده في المدينة معه، وأمّا يزيد فكان كارهاً لحكمه، ومات في زمانه، فلم يبق إلا معاوية.

(٣) العقد الفريد، ٤٧/٦.

المسور خاصة ابن الزبير

مرّ بنا قبل قليل ، أنّ ابن الزبير كان لا يقطع أمراً دون المسور ، وإنه من رجاله المخلصين الذين استبسلوا في القتال معه .

لمّا دنى الحصين بن نمير من مكة ، أخرج المسور بن مخرمة سلاحاً قد حمّله من المدينة ودروغاً ففرّقه في مواليه ؛ كهولٍ ، فرسٍ ، جلد فدعاني - أبو عون الراوي - ثمّ قال لي : يا مولى عبدالرحمن بن المسور ، قلت : لبيك ، قال : إختار درعاً من هذه الأدرع ، قال : فاخترت درعاً وما يصلحها ، وأنا يومئذ شابٌ غلامٌ حدثٌ ، قال : فرايت أولئك الفرس قد غضبوا وقالوا : تخيّر هذا الصبيّ علينا ، والله لولا الجدّ لتركك . قال المسور : لتجدنّ عنده عزماً .

فلمّا كانت الواقعة ، لبس المسور سلاحه ، درعاً وما يصلحها ، فأحدق به مواليه ، ثمّ انكشفوا عنه واختلط الناس ، فالمسور يضرب بسيفه وابن الزبير في الرعيّل الأوّل ، يرتجز قدماً ، ومصعب بن عبدالرحمن معه ، يفعلان الأفاعيل ، إلى أن أحدقت جماعة منهم بالمسور ، فقام دونه مواليه فذبّوا عنه كلّ الذبّ ، وجعل يصيح بهم ، ويكنّيهم بكناهم فما خلصوا إليه ، ولقد قتلوا من أهل الشام يومئذٍ نَفراً ..^(١)

انحرافه عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ..

كان المسور منحرفاً عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، مائلاً عنه إلى أعدائه . ولا بدع فقد تلقّى البغض من خاله عبدالرحمن بن عوف ، والخال أحد الضجيعين ، من ثمّ اعتبره الخوارج منهم .

يقول ابن عبد البرّ : وكان المسور لفضله ودينه وحسن رأيه تغشاه الخوارج وتعظّمه وتبجّل رأيه ...^(٢)

وقال : وقد برأه الله منهم ، فإن كان يقصد بذلك مخالفتهم لهم في المذهب ، فقد صدق ، لأنّ المسور عثمانيّ ورأي الخوارج في عثمان معروف .

(١) طبقات ابن سعد ، ١٥٩/٥ ؛ ومختصر تاريخ دمشق ، ٣٠٩/٢٤ واللفظ له .

(٢) الاستيعاب ، ٤٥٦/٣ .

أما سبب غشيانهم إياه فهو الإنحراف عن علي عليه السلام؛ عدوّ الخوارج الأوّل، وقد كانوا يوالون من عرف بانحرافه عن الإمام وإن لم يكن على مذهبهم. وزعم بعض مؤرّخي الشيعة أنّه كان رسول الإمام إلى معاوية ^(١)، وهذا أمر أغفله المؤرّخون من غير الشيعة كافّة، فلم أعثر على من ذكره من مترجميه، وسكوتهم عنه دليل على عدم ثبوته، وقرائن الحال بأجمعها تنفي ذلك نفيّاً قاطعاً إذ يستحيل إرساله إلى معاوية برسالة الإمام وهو على دين عثمان وقداتهم بنو أميّة وأنصارهم عليّاً عليه السلام بدمه.

وقال الخوئي: عدّه الشيخ تارة في أصحاب رسول الله، وأخرى في أصحاب علي عليه السلام قائلاً: المسور بن مخزّمة الزهري، كان رسوله عليه السلام إلى معاوية... وكيف يكون رسوله وقد اعتزل بيعته وأعلن الخلاف، وصحب أهل الإحن والبغضاء؟

يقول الخوئي أيضاً: روى الشيخ بإسناده عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: لمّا ولي عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أسرع النّاس إلى بيعته المهاجرون والأنصار - إلى أن قال: - وكان عليّ عليه السلام أكثر ما يسكن القنّاة، فبينما نحن في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة فجلسا في ناحية عن عليّ عليه السلام، ثمّ طلع مروان وسعيد وعبدالله بن الزبير والمسور بن مخزّمة فجلسوا، وكان عليّ عليه السلام جعل عمّار بن ياسر على الخيل، فقال لأبي الهيثم بن التيهان ولخالد بن زيد أبي أيّوب ولأبي حيّة ولرفاعة بن رافع في رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: قوموا إلى هؤلاء القوم فإنّه قد بلغنا عنهم ما نكره من خلاف أمير المؤمنين إمامهم والطّعن عليه، وقد دخل معهم قوم من أهل الجفاء والعداوة، وأنّهم سيحملونهم على ما ليس من رأيهم. الحديث، الأمالي: الجزء ٢، مجلس يوم الجمعة الثالث من ذي القعدة سنة سبع وخمسين وأربعمأة، الحديث ٥^(٢).

فها هو من المخالفين للإمام، الطاعنين عليه، المنحازين إلى مروان وزمرته، فكيف ينقلب بقدره قادر إلى رسول للإمام ومن أهل طاعته؟ سرعان ذا إهالة!

(١) الفهائي، مجمع الرجال، ٩١/٦، وقد عدّه من رجال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) معجم رجال الحديث، ١٦١/١٨.

ولقد كان من قبل هذا مع خاله عبدالرحمن في أمر الشورى مقبلاً ومدبراً^(١)، وخاله هو الذي صغى لصهره في أمر الخلافة بغضاً وحسداً للإمام عليه السلام، وطمعاً فيها كما رجى صاحبه من صاحبه، ولكن دقَّ الله بينها عطر منشم ومات ساخطاً على عثمان وذهبت أحلامه في الخلافة أدراج الرياح، والحمد لله ..

وزعم ابن الأثير أنه كان مع خاله في الشورى، وأنَّ هواه مع عليّ^(٢)، وتابعه جماعة على ذلك منهم الشيخ عباس القمي في الكنى والألقاب؛ والمسور نفى بنفسه هذه الفضيلة عن نفسه، وكان يؤكد أنَّ هواه يوم الشورى كان مع خاله وسعد ابن أبي وقاص .

عن أم بكر بنت المسور، عن أبيها قال : لمَّا ولي عبدالرحمن بن عوف الشورى، كان أحبَّ النَّاسِ إليَّ أن يليه، فإن تركه فسعد بن أبي وقاص ...^(٣) وهذا أمر جدَّ طبيعي، فإنَّ انساناً على شاكلة المسور يحبُّ أن يلي الحكم أحبَّ واقرب النَّاسِ إليه، وابن عوف خاله، وكان مقبلاً ومدبراً معه في الشورى فإنَّ فاز بها وإلا فزهري آخر من جذمه وأرومته، ولم يؤت المسور بسطة في الدين لينأى عن خصوصيات النفس البشريَّة إلى نشدان الأهداف العالية والمصلحة العامة .

والعجيب في أمر شيخنا القمِّي وهو الثبت الثقة، فقد جمع في كتابه الضدَّين عن المسور وروى الشيء ونقيضه . يقول عليه السلام : المسور بن مخرمة الزهري، كان رسول أميرالمؤمنين عليه السلام إلى معاوية كما في كتب الرِّجال، ويظهر من خبر أنه كان عثمانياً، وكان لخلافة عليّ عليه السلام كارهاً...^(٤)

ثم يكرِّ الشيخ كَرَّةً أخرى فينقل قول ابن الأثير في أسد الغابة : أنه ولد بمكَّة بعد الهجرة بسنتين، وكان فقيهاً من أهل العلم والدين، ولم يزل مع خاله عبدالرحمن في أمر الشورى، وكان هواه فيها مع عليّ عليه السلام ...^(٥)

وقد عرفت فساد هذا القول فيما مضى، وشيخنا القمِّي لا يتحمَّل تبعته لأنَّه

(١) الاستيعاب، ٤٥٦/٣.

(٢) أسد الغابة، ٣٦٦/٤.

(٣) الطبقات، ١٣٣/٣.

(٤) الشيخ عباس القمي . الكنى والألقاب، ٢٧١/٢ و ٢٧٢.

(٥) نفسه.

ناقل إلا بتركه دونما نقد، وقد سبق منه نقل يدل على خلافه ..
 وجميع ما تقدّم يقطع بانحراف المسور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وحينئذٍ
 لا عجب من روايته .. الفرية الظالمة عن خطبة ابنة أبي جهل، بل العجب أن لا يروها
 وأمثالها، وقد كان الإنحراف عن أهل البيت في زمنه وسيلة لاصطياد الدنيا ونيل
 سحتها من الطغاة الجبابرة .

انفراده بالرواية ..

ومما يحملنا على اليقين بوضع الرواية المزبورة، أن المسور تفرد بروايته،
 فلم يروها غيره، على أنه زعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب بها على المنبر وهو
 محتلم، ولو صحّ ذلك لكثرتناقلوا الخبر نظراً لكثرة سامعيه، واستدعاء الحال لذلك .
 يقول البلقيني عن دلائل الوضع : ومنها : أن يكون خبراً عن أمر جسيم تتوافر
 الدواعي على نقله بمحضر الجمع ثم لا ينقله منهم إلا واحد^(١) .

ورواية المسور من هذا النوع طبعاً، فقد انفرد برواية زعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينطق
 بها خطيباً على رؤوس الأشهاد، ولما انفرد بنقلها دل ذلك على الوضع والانتحال .
 ولعلّ توقيت روايتها والظرف الذي حدّث بها فيه يدل على ذلك دلالة
 جازمة، وكأنه تبرّع من ذات نفسه بالإجزاء على عدوّ الحكم الأمويّ برواية خبر
 يتضمّن الذمّ والتجريح ونسبة ايداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه، ومدح الصهر من بني عبد شمس، ولا
 يريد غير عثمان لأنّ اللفظ المشترك ينصرف عند الإطلاق إلى أظهر أفراده، وعثمان
 أظهر من أبي العاص فلا يريد غيره وإن عزا الرواية ذلك إلى أبي العاص بن الربيع بن
 عبد العزى بن عبد شمس زوج زينب ابنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بخاصّة إذا عرفنا أنّ هوى
 المسور كان وما يزال في عثمان .

والناظر في معنى الخبر ودلالته والظرف الذي وقته لنقل الرواية فيه وهو عودة
 الإمام وأهل بيته من الأسر يتوصّل إلى الغاية من وراء ذلك، وهي : شدّ أزر الأمويين
 وتأيد سلطانهم، وإلا فإنّ ما يطابق مقتضى حال الإمام السجّاد بعد الفاجعة المروعة
 التي ألمّت بآله وأسرته أن يقابل ببذل الودّ وحسن العزاء، وتخفيف لواعج نفسه

(١) السيوطي، تدريب الراوي، ٢٧٦/١ .

الشريفة بكلمات الصبر والحبّ ، لا أن يقابل بكلام يجرح جدّه وينسبه إلى إغضاب النبيّ ويضعته بإحداث ضرة على ابنته سيّدة النساء حتّى اضطرّه إلى أن يعلن للملأ رفضه لذلك وطلبه لطلاق الزهراء ، ولو كانت هذه الرواية صحيحة لما جازت روايتها آنثذ ، إلّا إذا اتّصف الراوي بانعدام الذوق وضلالة الإدراك ، وموت الحسّ ، والقوم وإن عزوا إليه كراهته لحكم يزيد إلّا أنّ ذلك لا يدلّ على حبة لانتصار أهل البيت ، وأحسب أنّ عدائه ليزيد على الأكثر شخصيّ ، فقد قال ذات مرّة فيه إنّه يشرب الخمر ، فبلغه ذلك ، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يجلدّه الحدّ ، ففعل ، فقال المسور :

أيشربها صرفاً يفضّ ختامها أبو خالد ويجلد الحد المسور

ولو كان كرهه ليزيد أساسه الدين ، لسارع إلى حربه مع الحسين كما فعل مع

ابن الزبير ..

لا يقال بأنّ الرجل لا يرى سلّ السيف كبعض أدعياء الفقه يومئذٍ ، فإننا نراه يجيب السائل وقد حلّ الموت بساحته ، حين سأله : يا أبا عبد الرحمن ! كيف ترى في قتال هؤلاء ؟ فقال : على ذلك قتلنا^(١) .

وحيثنذ لنا أن نسائل هؤلاء الأفاقين : كيف حلّ قتال يزيد مع ابن الزبير وحرّم مع الحسين ؟ أو أنّ المسور يرى ابن الزبير أعلم وأتقى من سبط رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنّة ؟ أو لا هذا ولا ذاك ، ولكنّه البغض الذي أكل حشاشة المسور لأهل البيت تلقّفاً لذلك البغض عن أخواله عبد الرحمن وسعد بن أبي وقاص ، ولا تنس أنّ قاتل الحسين زهريّ من جذم المسور وسلالته وهو عمر بن سعد لعنه الله .

نظرة في سنّ المسور ..

أجمع المؤرخون ومن ترجم للمسور ، أنّه ولد بعد الهجرة بسنتين ، وانتقل إلى المدينة سنة ثمان ..^(٢) فهو حينئذٍ في السادسة من العمر ، فكيف تسنى له حضور

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٣/٣٩٤ .

(٢) راجع الاستيعاب ، ٣/٤٥٥ ؛ والإصابة وغيرهما من تب التراجم والتاريخ بلا استثناء .

ذلك المجلس المهيب وهو لم يزل بعد طارئاً على المجتمع المدني وحديث عهد به ، وهذا الذي حمل صاحب الإصابة على التسائل ، فقال : قال يحيى بن بكير : وكان مولده بعد الهجرة بستين ، وقدم المدينة في ذي الحجة بعد الفتح سنة ثمان وهو غلام أيفع ابن ست سنين . قال البغوي : حفظ من النبي ﷺ أحاديث أخرجه البغوي ، وحديثه عن النبي ﷺ في خطبة عليّ بنت أبي جهل في الصحيحين وغيرهما ، ووقع في بعض طرقه عند مسلم ، سمعت النبي ﷺ وأنا محتلم ، وهذا يدلّ على أنه ولد قبل الهجرة ولكنهم أطبقوا على أنه ولد بعدها ، وقد تأوّل بعضهم أنّ قوله : محتلم من الحلم بالكسر لا من الحلم بالضمّ يريد أنه كان عاقلاً ضابط لما يتحمّله ^(١) .

ويظهر لي أنّ لفظة «محتلم» لم تكن موجودة إلّا في نصّ مسلم ، وأنها أضيفت لنصّ البخاري بأخره وإلّا لما قال ابن حجر ووقع في بعض طرقه عند مسلم إلى آخره لأنها واقعة في بعض طرق البخاري أيضاً ، وإّما أضيفت إلى البخاري لتحمل طابع «منفقه عليه» وتكون أمتع من عقاب الجو ، فلا يرقى إليها نقد ناقد .
وأما تأوّل بعضهم «محتلم» من الحلم ضد الجهل ، لا حلم النوم ، فهو عبث من القول لا يركن إليه إلّا مفلس محتال ، إذ ليس عندنا في لغة العرب احتلم بمعنى حلم الرجل بالكسر أي تأثى ، فقد نصّ الجوهري في صحاحه على أنّ العرب تقول : حلم الرجل واحتلم ، أي رأى حلماً في نومه ، والحلم بالكسر الأناة تقول منه ، حلم الرجل بالضم وتحلم أي تكلف الحلم ^(٢) .

نعم ، للقوم أن يغيروا على اللغة فيدمروا قواعدا من أجل تعديل الصحابة وتصديق المسور ، وحينئذ تكون قاعدة «تعديل الصحابة» شراً مستطيراً على اللغة العربية أيضاً .

متى حدثت الخطبة .. ؟

وحين نعود إلى هذه المزعمة ونحاول أن نلتمس لها طرفاً وقعت فيه ، كما

(١) الإصابة ، ٤١٨/٣ .

(٢) الجوهري ، صحاح اللغة ، مادة حلم .

فعل توفيق أبو علم وهو مع ذلك يميل مع النافين برأيه^(١)، فلن يحالفنا التوفيق قط، لأنّ جهداً كهذا يذهب أدراج الرياح حيث صمت المؤرّخون قاطبة ورجال الحديث، فلم يشيروا إلى موعد لها مع تسجيلهم كلّ شاردة وواردة من حوادث تلك الفترة ووضعها أمام الزمن الذي حدثت فيه.

قال أبو علم: وإذا صحّ وقوعها ففي السنة الثانية بعد الهجرة^(٢).
وأقول أنا: فكيف يعقل حضور المسور وهو لم يولد بعد إذ كان قد ولد ولم يمرّ على ولادته إلاّ أيام معدودة!؟

ومن العجيب أنّ الأستاذ أبا علم لم يفتن للمسألة فلم يشر إلى استحالة ذلك. ولو قلنا أنّ المسور كالمسيح أو يحيى بن زكريّا آناه الله العلم بالأخبار وراح يكلم الناس وهو في المهد، فكيف استطاع أن يرى وقوع الحادثة وهو في مكّة لم يقدم المدينة بعد حيث كان قدومه بعد الفتح - أيكون قد فاق أنبياء الله بهذه الظاهرة أيضاً؟ لست أدري!

ولا أستبعد أن يكون الرجل افتعل الحادثة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام درتاً لشّر بني أمية بخاصّة، وقد ألهمت ظهره سباط يزيد وذاق مرارة التشهير، أو تزلفاً إليهم لينال صبيباً من ضروع سحتهم.

وهناك رأي آخر يتّهم أنصار الصّدّيق أبي بكر بوضعها للتخفيف عنه بما أسدئ إلى الزهراء من ألم بغصب نحلّتها وأخذ فدكها والهجوم على دارها، وردّ نسبها بإستناط إرثها، وكيف ماتت غاضبة عليه، ونهت عن حضوره جنازتها والصلاة عليها.

وبالطبع لا تمرّ هذه المآسي على الصّدّيق بسلام، وأنّ الرأي العام لا يهادن على مقدّساته ولم يجنح مع الصّدّيق بعد، إذ لم يجن من خلافته، غير مأساة الردة وحادثة مالك المرّوعة، وما ذاق حلاوة فتوح الشام والعراق، فما زال الرأي العام يعرف لنبيّه وأهل بيته فضلهم العظيم.

من هنا لم يجد أنصار الصّدّيق وسيلة ناجعة بصرف الأذهان عن مأساة الزهراء

(١) أبو علم. فاطمة الزهراء، ص ٢٠٥.

(٢) نفسه، ص ٢٠٤.

الفادحة إلا بالروايات الموضوعية من قبيل ما نحن فيه ، وتركيز غضب الزهراء على غير أبي بكر؛ وهذا رأي وجيه بخاصة إذا علمنا أن وراء فكرة تنزيه أبي بكر ممّا علق به طيلة خلافته ، جهازاً جبّاراً لوضع مناقب حادثة له ، وصرف مناقب غيره إليه ، وقذف التبعات في عنق سواه وإلقائها على عاتق غيره ، وهلمّ جرّاً ، وزعيم هذه الفئة معروف لا نحتاج إلى ذكر اسمه ومهما كانت الحال ، فإنّ استقراء حياة الإمام مع النبي ﷺ تكذيب هذه الفرية من رأس .

أليس عليّ عليه السلام هو المضحّي بنفسه في المواطن التي يقبل فيها المساعد وينكل عنها الصّدّيق ، ومبيته على فراش النبي صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة شاهد صدق على ذلك والمسور من رواة هذا المبيت ؟

.. عن أمّ بكر بنت المسور عن أبيها أنّ رقيقة بنت صيفي بن هاشم بن عبد مناف وهم أمّ مخزومة بن نفل ، حذرت رسول الله ﷺ فقالت : إنّ قريشاً قد اجتمعت تريد بياتك الليلة . قال المسور : فتحول رسول الله ﷺ عن فراشه وبات عليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام ... (١)

التحقيق في الرواية

ولو ذهبنا في تحقيق المسألة إلى شوط أبعد فسوف نصطدم بعقبات تجعل قبولها ولو على نحو متناهي الضعف مستحيلاً ، ونحن نلخصها بالنقاط التالية :

أولاً : يدعي المسور أنّ رسول الله ﷺ كان يعلن هذه الأقوال على أعواد المنبر ، وبين يديه عشرات الأصحاب الواعين الذين يرصدون خطابات النبي كلمة كلمة ، ليلبغها الشاهد الغائب ، فلو صحّ ذلك لنقلها غيره ممّن حضر المشهد ، مع العلم بأنّ الرجل انفراداً بنقلها ولم يروها غيره ، وممّا لا شكّ فيه ، أنّ في الحاضرين قوماً يبغضون الإمام وحينئذٍ لطاروا بها فرحاً ، ولم تسقط من أفواههم آناء الليل وأطراف النهار ، ولنقلها صاغرهم عن كابرهم .

ثانياً : زعم المسور أنّه سمع النبي يخطب بها وهو محتلم والمؤرّخون و مترجموه كلمة واحدة على أنّه ولد بعد الهجرة بستين ، وهاجر في السادسة من

عمره، وقبض النبي وهو ابن الثامنة، فأين هذه السن من الإحتلام؟ وفي اللغة: احتلم الصبي أدرك وبلغ مبلغ الرجال، فهل يقال لمن في سنّه آنذاك: رجل؟ ولذلك حيرت هذه الكلمة مترجموه فتحبطوا في التيه والضلال، وجاروا على الحق، ومسخوا من أجله حتى لغة العرب.

ثالثاً: يزعم أنّ النبي ﷺ قال بعد أن امتدح مصاهرة أبي العاص: وإنّ فاطمة بضعة منّي وإنّما أكره أن تفتنوها، وإنّه والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدوّ الله عند رجل واحد أبداً. قال: فترك عليّ الخطبة.

وهذا الموقف يكذّبه شاهد الحال من حياة أمير المؤمنين عليه السلام، فما من ضرورة تدعو إلى قيام النبي خطيباً على الملأ العام بقضية خاصّة لا تتجاوز نطاق بيته الكريم، وكان عليه أن يدعو عليّاً فيبصره بواقع الحال ثم يأمره بالغروف عن خطبة ابنة عدوّ الله، وما كان ليعصيه لو كان فعل.

رابعاً: إنّ في كلام المسور جرأة على الله وتجاوزاً على مقام سيّدة النساء، حين زعم أنّ النبي ﷺ قد قال: إنّ فاطمة بضعة منّي، وأنا أتخوّف أن تفتن في دينها، وهذا واضح أنّه ليس ممّا يتفوّه به النبي الكريم، وهو القائل: بأنّها سيّدة نساء العالمين، ومن كانت بهذه المنزلة كيف يتخوّف عليها أن تفتن في دينها؟!

خامساً: روى المسور الحادثة بنقلين يخالف أحدهما الآخر، ففي مختصر تاريخ دمشق عنه: أنّه بعث إليه حسن بن حسن يخطب ابنة له، فقال له: قل له فليلقني في العتمة. قال: فلقيه، فحمد الله تعالى المسور وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد؛ أمّا والله ما من نسب ولا سبب ولا صهر أحبّ إليّ من نسبكم وصهركم، ولكن رسول الله ﷺ قال: فاطمة مضغة منّي، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وإنّ الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وصهري، وعندك ابنتها، ولو زوّجتك لقبضها ذلك فانطلق عاذراً له^(١).

فهذا النقل يخالف ما تقدّم بحذف الخطبة، وليس فيه ذكر لابنة أبي جهل، وكانت الحال تقتضي أن يذكر ذلك للحسن لأنّه مرّ مع أحداث ضرة على ابنة فاطمة عليه السلام فكان عليه أن يُذكره بموقف جدّيّة صلى الله عليهما وآلهما من أمّها عليه السلام

فإن ذلك أدعى إلى عذره وأقرب إلى رضا الحسن عليه السلام .

سادساً: ما كان النبي ﷺ ليغضب من فعل كهذا بعد أن نزل الكتاب بإباحته ، وها هو النبي ﷺ وقد تزوج عدداً من النساء نيفن على العشر، توفي عن تسع منهن ، فكيف يلوم غيره على فعل صدر منه مكرراً وهو مباح في أصل شرعه ، وهو أحق من رضي بأحكام الشريعة وإن كان على خلاف ما يريد . ونقول هذا تدرجاً منا إلى منطق الخصم مع العلم بأن إرادة النبي لا تعارض إرادة ربه سبحانه .

يقول ابن أبي الحديد: ولو تأملت أحوال النبي ﷺ مع زوجاته ، وما كان يجري بينه وبينهن من الغضب تارة والصلح أخرى ، والسخط تارة والرضا أخرى ، حتى بلغ الأمر إلى الطلاق مرة وإلى الإيلاء مرة ، وإلى الهجر والقطيعة مرة ، وتدبرت ما ورد في الروايات الصحيحة مما كنّ يلقينه ﷺ به ، ويسمّينه إياه لعلمت أنّ الذي عاب الحسدة والشائتون علياً عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال فطرة من البحر المحيط ، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله ﷺ وبين تينك الإمرأتين من الأحوال والأقوال حتى أنزل فيها قرآن يُتلى في المحارب ، ويكتب في المصاحف ، وقيل لهما ما لا يقال للأسكندر ملك الدنيا لو كان حياً ، منابذاً لرسول الله ﷺ ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ .

ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ الآيات بتمامها ، ثم ضرب بهما مثلاً امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعليهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وتمام الآية معلوم ، فهل ما روي في الخبر من تعصب فاطمة على علي عليه السلام وغيرها من تعريض بني المغيرة له بنكاح عقيلتهم ، إذا قويس إلى هذه الأحوال وغيرها مما كان يجري ، إلا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس ! ولكن صاحب الهوى والعصبية لا علاج له ^(١) .

وابن أبي الحديد اعتبر هذا الحديث موضوعاً ولذلك ذكره في فصل الأحاديث الموضوعية في ذمّ علي عليه السلام ، وقال : وأما أبو هريرة ، فروى عنه الحديث الذي معناه أنّ علياً عليه السلام خطب ابنة أبي جهل في حياة رسول الله ﷺ فأسخطه ،

(١) شرح نهج البلاغة ، ٤/٦٦ و٦٧ .

فخطب على المنبر وقال : لا ها الله ! لا تجتمع ابنة وليّ الله وابنة عدوّ الله أبي جهل ! إنّ فاطمة بضعة منّي ؛ يؤذيني ما يؤذيها ، فإن كان عليّ يريد ابنة أبي جهل فليفارق ابنتي ، وليفعل ما يريد - أو كلاماً هذا معناه - والحديث مشهور من رواية الكرابيسي . قلت - والقول لابن أبي الحديد :- هذا الحديث أيضاً مخرج في صحيحي مسلم والبخاري عن المسور بن مخرمة الزهري ، وقد ذكره المرتضى في كتابه المسمّى «تنزيه الأنبياء والأئمة» وذكر أنه رواية حسين الكرابيسي وأنه مشهور بالإنحراف عن أهل البيت عليهم السلام وعداوتهم والمناصبه لهم ، فلا تقبل روايته .

ولسيدنا المرتضى في كتابه تنزيه الأنبياء كلام رفيع غاية في النقاسة ، فنّد فيه هذه الفرية بأدلة لا يأتي عليها النقض ولا تقبل الدحض ، ونحن نسوقه بأجمعه لينتفع به القارئ والخطيب إنشاء الله تعالى ^(١) .

قال رضوان الله عليه في الجواب عنها :... قلنا هذا خبر باطل موضوع غير معروف ولا ثابت عند أهل النقل ، وإتما ذكره الكرابيسي طاعناً به أمير المؤمنين عليه السلام صلوات الله عليه وآله ، ومعارضاً بذكره لبعض ما يذكره شيعته من الأخبار في أعدائه ، وهيئات أن يشبه الحقّ بالباطل ، ولو لم يكن في ضعفه إلا رواية الكرابيسي ^(٢) له واعتماده عليه وهو من العداوة لأهل البيت عليهم السلام والمناصبه لهم

(١) ابن أبي الحديد . شرح نهج البلاغة ، ٦٥/٤ .

(٢) الكرابيسي : هو الحسين بن عليّ بن يزيد الكرابيسي ، من أصحاب الشافعي ، وممن روى عنه علمه ، كان مبغضاً للإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، موالياً لعدوّه ، معادياً لوليّه ، وكان ينكر مناقبه ، ولا يرى له فضيلة إلا وفيها مشارك له ، وهذا يعني أنه يساويه بعامّة المسلمين .

يقول أبو البخترى : سمعت الحسين الكرابيسي يقول : ما حَصَّ النبي صلى الله عليه وآله عليّاً بفضيلة إلا وشركه فيها فلان وفلان وجليبيب ، قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وآله في النوم ، فسمعتة يقول : كذب ما هوّوكم ولا محلّه كمحلّهم ولا منزلته كمنزلتهم .. [الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ٦٦/٨]

أذله الله في أيامه الأخيرة فبذعه أحمد بن حنبل ولعنه ابن معين .

قال جعفر بن أبي عثمان الطيالسي : سمعت يحيى بن معين وقيل له : إنّ حسيناً الكرابيسي يتكلّم في أحمد بن حنبل ، فقال : ومنّ حسين الكرابيسي ؟ لعنه الله ، إتما يتكلّم في الناس أشكالهم ، ينظّل حسين ويرتفع أحمد . قال جعفر : ينظّل يعني ينزل وهو الدردي الذي في أسفل الدن . [تاريخ بغداد ، ٦٤/٨ و ٦٥]

وها هنا عجيبة يغضّ لها المسلم بريقه ، وهي أنّ القوم الذين يسمّون أنفسهم أهل السنّة ، يرون أحمد بن

والإجزاء على فضائلهم ومآثرهم على ما هو مشهور لكفى، على أن هذا الخبر قد تضمن ما يشهد ببطلانه ويقضي على كذبه من حيث ادعى فيه أن النبي ذم هذا الفعل وخطب بانكاره على المنابر، ومعلوم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو كان فعل، ذلك على ما حكى، لما كان فاعلاً لمحظور في الشريعة، لأن نكاح الأربع حلال على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والمباح لا ينكره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويصرح؛ بدمه وبأنه متأد به، وقد رفعه الله عن هذه المنزلة وأعلاه عن كل منقصة ومذمة، ولو كان عليه السلام نافراً من الجمع بين بنته وبين غيرها بالطباع التي تنفر من الحسن والقبح، لما جاز أن ينكره بلسانه، ثم ما جاز أن يبالغ في الإنكار، ويعلن به على المنابر وفوق رؤوس الأشهاد، ولو بلغ من ايلامه لقلبه كل مبلغ، فما هو اختص به عليه السلام من الحلم والكظم، ووصفه الله بأنه من جميل الأخلاق وكريم الآداب ينافي ذلك، ويحيله يمنع من إضافته إليه وتصديقه عليه، وأكثر ما يفعله مثله عليه السلام في هذا الأمر إذا ثقل على قلبه أن يعاتب عليه سراً، ويتكلم في العدول عنه خفياً على وجه جميل ويقول لطيف.

وهذا المأمون الذي لا يقاس بينه وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أنكح أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام بنته ونقلها معه إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما ورد كتابها عليه تذكر

❦ حنبل أعظم حرمة من علي بن أبي طالب؛ فهذا ابن معين لعن الكرابيسي لأنه تكلم في أحمد لا ليغضه لعلي وانحرافه عنه، وإليك الخبر التالي يوضح لك الأمر أكثر:

قال أبو الطيب الماوردي: جاء رجل إلى أبي علي الحسين بن علي الكرابيسي، فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال الحسين الكرابيسي: كلام الله غير مخلوق. فقال له الرجل: فما تقول في لفظي بالقرآن؟ قال: لفظك بالقرآن مخلوق، فمضى الرجل إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل فعرفه أن حسينا قال: إن لفظه بالقرآن مخلوق، فأنكر ذلك، وقال: هي بدعة، فرجع الرجل إلى الحسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبدالله أحمد بن حنبل لذلك وقوله: هذا بدعة، فقال له الحسين: تلفظك بالقرآن غير مخلوق، فرجع إلى أحمد بن حنبل فعرفه رجوع الحسين وأنه قال: تلفظك بالقرآن غير مخلوق، فأنكر أحمد بن حنبل ذلك أيضاً، وقال: هذا أيضاً بدعة، فرجع الرجل إلى أبي علي الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبدالله أحمد بن حنبل وقوله: هذا أيضاً بدعة، فقال الحسين: أيش نعمل بهذا الصبي؟ إن قلنا مخلوق، قال: بدعة، وإن قلنا غير مخلوق، قال: بدعة؟ فبلغ ذلك أبا عبدالله فغضب له أصحابه فتكلموا في حسين، وكان ذلك سبب الكلام في حسين والغمز عليه بذلك. [تاريخ بغداد، ٦٥/٨]

أنظر إليهم لم يتكلموا فيه ولم يغمزوا عليه حتى سمي ابن حنبل الصبي، وكان في هذا على شيء من الحق فقد ظل ابن حنبل يطارد الناس بالتبديع على كل حال.. أما انحراف الكرابيسي عن أهل البيت ويغضه للإمام أمير المؤمنين عليه السلام فلا يعدل شيئاً عندهم.

أنه قد تزوج عليها أو تسرى ، يقول مجيباً لها ومنكراً عليها : إنا ما أنكحناه لنحظر عليه ما أباحه الله له ، والمأمون أولى بالإمتعاض من غيره بنته ، وحاله أجمل للمنع من هذا الباب والإنكار له ، فوالله إن الطعن على النبي ﷺ بما تضمنه هذا الخبر الخبيث ، أعظم من الطعن على أمير المؤمنين عليه السلام ، وما صنع هذا الخبر إلا ملحد للطعن عليهما ، أو ناصب معاند لا يبالي أن يشفي غيظه بما يرجع على أصوله بالقدح والهدم ، على أنه لا خلاف بين أهل النقل أن الله تعالى هو الذي اختار أمير المؤمنين عليه السلام لنكاح سيده النساء صلوات الله وسلامه عليها ، وأن النبي ﷺ رد عنها جلّة أصحابه وقد خطبوها ، وقال ﷺ : إني لم أزوج فاطمة علياً حتى زوجها الله إياه في سماءه ، ونحن نعلم أن الله سبحانه لا يختار لها من بين الخلائق من غيرها ويؤذيها ويغمها ، فإن ذلك من أدل دليل على كذب الراوي لهذا الخبر .

وبعد فإن الشيء إنما يحمل على نظائره ويلحق بأمثاله ، وقد علم كل من سمع الأخبار أنه لم يعهد من أمير المؤمنين عليه السلام خلاف على الرسول ، ولا كان قطّ بحيث يكره على اختلاف الأحوال وتقلب الأزمان وطول الصحبة ، ولا عاتبه عليه السلام على شيء من أفعاله ، مع أن أحداً من أصحابه لم يخل من عتاب على هفوة ، ونكير لأجل زلة ، فكيف خرق بهذا الفعل عاداته وفارق سجيته وسننه لولا تخرّص الأعداء وتعدّدهم .

وبعد فأين كان أعدائه عليه السلام من بني أمية وشيعتهم عن هذه الفرصة المنتهزة ؟ وكيف لم يجعلوها عنواناً لما يتخرّصونه من العيوب والقروف ؟ وكيف تحمّلوا الكذب وعدلوا عن الحقّ وفي علمنا بأن أحداً من الأعداء متقدّم لم يذكر ذلك دليل على أنه باطل وموضوع (١) ؟

وهذا كلام مشرق ، ليس عليه لبس أو فتام ، يعطف الأعناق إلى الحقّ بالدليل الناصع والبرهان الجليّ ، فمن تجاوزه إلى التخرّص فقد جنى على عقله حيث صيره عرضة لعبت الأهواء به .

ويمكن أن نضيف على ما قاله سيّدنا المرتضى ، أن بني أمية لم يعفوا عن هذه الفرية ، ولذلك تلقّفها صنيعتهم أبو هريرة ، وراح يحدث الناس بها من كيسه الواسع

الذي جمع شتات الكذب ، وقد مرّ ذلك من قول عبد الحميد بن أبي الحديد ، وشاعت هذه الفرية شيوعاً شمل العصر العباسي أيضاً ، فهذا مروان بن أبي حفصة يذكرها في قصيدة يمدح بها الرشيد ، ويذكر فيها ولد فاطمة عليها السلام وينحي عليهم ، ويذمّهم ، وقد بالغ حين ذمّ علياً عليه السلام ونال منه ، وأولها :

وسلامٌ علىٰ جمال وهيات من جمال ويا حبذا جمل وإن صرمت حبلي
يقول فيها :

عليّ أبوكم كان أفضل منكم أباه ذووالشورى وكانوا ذوي الفضل
وساء رسول الله إذ ساء بنته بخطبته بنت اللعين أبي جهل
فدّم رسول الله صهر أبيكم على منبر بالمنطق الصادع الفصل
وحكم فيها حاكمين أبوكم هما خلعاہ خلع ذي النعل للنعل
وقد باعها من بعده الحسن ابنه فقد أبطلت دعواكم الرثة الحبل
وخلّيتموها وهي في غير أهلها وطالبتموها حين صارت إلى أهل

قال ابن أبي الحديد^(١) : وقد روي هذا الخبر على وجوه مختلفة ، وفيه زيادات متفاوتة ؛ فمن الناس من يروي فيه : مهما ذمنا من صهر فإننا لم نذم صهر أبي العاص بن الربيع ، ومن الناس من يروي فيه : ألا إنّ بني المغيرة أرسلوا إلى عليّ ليزوّجوه كريمتهم ، وغير ذلك .

وعندي أنّ هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قدح ، لأنّ الأمة مجمعة على أنّه لو نكح ابنة أبي جهل مضافاً إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز ، لأنّه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع ، فابنة أبي جهل المشار إليها كانت مسلمة لأنّ هذه القصّة كانت بعد فتح مكّة^(٢) ، وإسلام أهلها طوعاً وكرهاً ... وقد جرى من أمير المؤمنين والنبّي والزهراء صلّى الله عليهما على قيد الحياة التسرّي ، فلم يثر في أحدهما الغضب أو الغيرة بل على العكس من ذلك ، غضب النبيّ على من اتّهمه ولامه أشدّ اللوم وأرشدّه إلى أنّ ما فعله الإمام كان أقلّ من حقّه :

(١) شرح نهج البلاغة ، ٤/٦٥ . أقول : ما اختلفت وجوهه إلّا لأنّه موضوع .

(٢) سبق القول من توفيق أبو علم أنّه احتمل وقوعها في العام الثاني للهجرة ولم يشر إلى علّة الإحتمال هذا .

«... عن بريدة يعني ابن الحصيب ، قال : أبغضت علياً بغضاً لم أبغضه أحداً قط ، قال : وأحببت رجلاً^(١) من قريش لم أحبه إلا على بغضه علياً عليه السلام . قال : فبعث ذلك الرجل على جيش فصحبته ما صحبته إلا ببغضه علياً عليه السلام . قال : فأصننا سبانيا ، فكتب إلى رسول الله ﷺ : إبعث إلينا من يخمسه . قال : فبعث علياً عليه السلام ، وفي السبي وصيفة هي أفضل السبي . قال : فخمس وقسم فخرج ورأسه يقطر ، فقلنا : يا أبا الحسن ما هذا ؟ قال : ألم تروا إلى الوصيفة التي كانت في السبي ، فإني قسمت وخمست فصارت في الخمس ثم صارت في أهل بيت النبي ﷺ ثم صارت في آل علي ، فوعدت بها . قال : فكتب الرجل إلى نبي الله ﷺ ، فقلت : ابعثني مصداً . قال : فجعلت أقرأ الكتاب وأقول : صدق . قال : فأمسك يدي والكتاب وقال : أتبغض علياً ؟ قال : قلت : نعم . قال : فلا تبغضه ، وإن كنت تحبه فازدد له حباً ، فوالذي نفس محمد ﷺ بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة . قال : فما كان أحد من الناس بعد قول رسول الله ﷺ أحب إلي من علي . قال عبدالله - يعني ابن بريدة - : فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي ﷺ في هذا الحديث إلا أبو بريدة^(٢) .

وفي رواية أخرى أن عبدالله قال : فرأيت الغضب في وجه رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ! هذا مكان العائد ، بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه ، ففعلت ما أرسلت به . فقال رسول الله ﷺ : لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه ، وهو وليكم بعدي .

.. وفي الثالثة : إن النبي ﷺ خرج مغضباً ، فقال : ما بال أقوام ينتقصون علياً ، من تنقص علياً فقد تنقصني ، ومن فارق علياً فقد فارقني ، إن علياً مني وأنا منه ، خلقت من طينتي وخلقت من طينة إبراهيم ، وأنا أفضل من إبراهيم ، ذرته بعضها من بعض والله سميع عليم . يا بريدة ! أما علمت أن لعلي أكثر من الجارية التي أخذ ، وأنه وليكم بعدي ؟ فقلت : يا رسول الله ! بالصحبته ، إلا بسطت يدك فبايعتني على الإسلام جديداً . قال : فما فارقتني حتى بايعته على الإسلام^(٣) .

(١) الرجل هو خالد بن الوليد .

(٢) مجمع الزوائد ، ١٢٧/٩ . وقال الهيثمي : في الصحيح بعضه ، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبدالجليل بن عطية وهو ثقة .

(٣) نفس المصدر ، ١٢٧/٩ و ١٢٨ .

وما أحسن ما تذرّع به عبدالله للخروج من مأزقه الذي صنعه لنفسه ، فقد علم من خلال غضب النبيّ أنّ مبعوض عليّ ليس مسلماً ، لذلك عرض على النبيّ إعادة إسلامه ، وفعل النبيّ معه ذلك ...

وهنا يتجلى للباحث الأمر واضحاً ليس عليه لبس من أنّ النبيّ لو كان يغضب من خطبة عليّ لابنة أبي جهل وهي قول مجرد عن الفعل ، لغضب لتسريه على الصديقة ، ولا فرق عند الزوجة أن يرميها زوجها بضرّة أو يتسرّى عليها ، وحكم كليهما في العلاقة الزوجية واحد ...

ولعلّ من الدلائل الإضافية على كذب قصّة الخطبة ما نقل من أنّ الإمام عليه السلام أقدم على خطبة أسماء بنت عميس بعد وفاة زوجها جعفر عليه السلام :

عن أسماء بنت عميس قالت : خطبني عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فبلغ ذلك فاطمة ، فأتت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : إنّ أسماء متزوجة عليّاً ، فقال لها : ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله ..^(١)

ولكي نطلعك على أنّ هذه الرواية تكذب تلك فلا بدّ من القول بأنّ خطبة أسماء لو صحّت - ولا أراها تصحّ - فلا بدّ من حدوثها قبل خطبة جويرية ، حيث أنّ الأولى لا يمكن أن تحدث إلّا بعد فتح مكّة بأشهر على أقلّ تقدير ، لأنّ وقعة مؤتة وفيها استشهد سيّدنا جعفر عليه السلام كانت سنة ثمان من الهجرة في جمادى الأولى ، وفي رمضان من العام نفسه فتحت مكّة^(٢) ، وهي فترة حداد لأسماء لا يمكن أن تقع فيها الخطبة ، اللهمّ إلّا أن يمضي زمن لا يقلّ عن ستّة أشهر ، وهذا هو المألوف في زواج من تأيمت عن مثل جعفر عليه السلام بخاصّة إذا كان الخاطب أخاه .

وإذا صحّ ما قاله ابن أبي الحديد بأنّ خطبة جويرية ابنة أبي جهل لا بدّ من وقوعها بعد فتح مكّة حيث أسلم أهلها ، فإنّ سياق الأحداث يرشد إلى أنّ خطبة أسماء يجب أن تقع مثل ذلك بفترة من الزمن ، وحينئذ كيف لم يغضب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من خطبة أسماء غضبه من خطبة جويرية ؟ وإذا صدر منه النهي للإمام في خطبة أسماء وأظهر الكراهية وسمّى خطبة أسماء ايداء الله ورسوله ، فكيف يقدم الإمام

(١) مجمع الزوائد ، ٢٠٣/٩ .

(٢) الذهبي ، العبر في خبر من غير ، ٩/١ .

ثانية على خطبة ابنة أبي جهل ؟ اللهم إن هذا لا يجوز حدوته بحال من الأحوال ، والأقرب إلى الإحتمال هو كذب القصتين ووضعهما للإساءة إلى النبي والإمام والزهراء عليهم الصلاة والسلام .

وأحسب أن وراء القصتين أنفاس السيّدة عائشة لاهثة ، بخاصة إذا عرفنا أن علاقتها بالسيّدة أسماء كانت دون الصفر ، ومن يدرينا لعلها أرادت أن تحوّل الأنظار عن غضب فاطمة عليها السلام بهذا وشبهه من الروايات الباطلة ، لتصيب في حجر عصفورين ؛ فهي من جهة شفت غيضا من فاطمة حين صورتها وقد استبدت بها الغيرة ، ممّا حدى بها إلى أن تشكو الإمام إلى أبيها ويخرج ذلك الأب العظيم إلى الجمع خطيباً وتحدث كلماته زلزالاً في الناس ، لأنّ الوضع خطير ويستدعي كلّ هذا الإستنكار .

وهي من جهة ثانية رمت عدوّها بثالفة الأثافي حين صورتها مغضباً للنبيّ مسيئاً إليه بالإساءة إلى بضعته ، وكان غضب فاطمة على عليّ أشدّ من غضبها على أبيها ، بل لم تغضب عليه كلاً وإّما كان موقفها مجرد عتاب ثمّ انتظمت الأوضاع بينها وذهب أبوها مبرئاً من أغصاب الزهراء ، والغضب الحقيقي على من أراد أن يؤذيها بضرة من بيت عداء وشنئان للإسلام وأهله .

التخلص

وما درت أنّ الحقّ لها ولأبيها بالمرصاد ، قد انهار ما وضعوه من الإفك والزور وبقي صوت الزهراء عليها السلام في الأحقاب والدهور مخاطباً أبابكر : دونكها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك ، حيث الحكم الله ، والخصم رسوله ، والموعود القيامة .

المجلس الثامن عشر

مشاهد من حياة الأبرار ..

من خلال تتبّعنا لحياة الصديقة واستقراءنا لذلك النور المائل في مشاهد من حياتها في عصر الرسالة ، نجد لها حضوراً جَدَّ فعّال في عمق الحياة النبوية الشريفة التي عاشها النبي ﷺ في مكة والمدينة ، وفي هذا المجلس نذكر شذرات من هذا الحضور الفاعل يُتخذ عبرة لمن أراد الاعتبار من المؤمنين والمؤمنات .

فداها أبوها ..

عن محمد بن قيس قال : كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بفاطمة عليها السلام فدخل عليها فأطال عندها المكث ، فخرج مرّه في سفر فصنعت فاطمة عليها السلام مسكتين من ورق قلادة وقرطين وسترّاً لباب البيت لقدوم أبيها وزوجها عليه السلام .

فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها فوقف أصحابه على الباب لا يدرون يقفون أو ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقد عرف الغضب في وجهه حتّى جلس عند المنبر ، فظنّت فاطمة عليها السلام أنّه إنّما فعل رسول الله ﷺ لما رأى من المسكتين والقلادة والقرطين والستر ، فنزعت قلادتها وقرطبيها ومسكتيها ، ونزعت الستر ، فبعثت به إلى رسول الله ﷺ ، وقالت للرسول : قل له : تقرأ عليك ابنتك السّلام وتقول : اجعل هذا في سبيل الله .

فلما أتاه ، قال : فعلت فداها أبوها - ثلاث مرّات - ليست الدنيا من محمد ، ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء ، ثمّ قام فدخل عليها^(١) .

كسوة الجنة ..

عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفر سلّم

(١) أمالي الصدوق ، ص ١٩٤ ؛ عن عوالم المعالم ، ١١/٦١ .

على من أراد التسليم عليه من أهله ، ثم يكون آخر من يسلم عليه فاطمة عليها السلام فيكون وجهه إلى سفره من بيتها وإذا رجع بدأ بها .

فسافر مرةً وقد أصاب علي عليه السلام شيئاً من الغنيمة ، فدفعه إلى فاطمة ، فخرج فأخذت سوارين من فضة ، وعلقت على بابها سترًا ، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل المسجد فتوجه نحو بيت فاطمة كما كان يصنع ، فقامت فرحة إلى أبيها صباة وشوقاً إليه ، فنظر فإذا في يدها سواران من فضة ، وإذا على بابها ستر ، فقعد رسول الله ﷺ حيث ينظر إليها ، فبكت فاطمة وحزنت وقالت : ما صنع هذا بي قبلها .

فدعت ابنيها ونزعت الستر من بابها وخلعت السوارين من يديها ، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر ، ثم قالت لهما : انطلقا إلى أبي فاقراه السلام وقولا له : ما أحدثنا بعدك غير هذا فشأنك به ، فجاءاه فابلغاه ذلك عن أمهما ، فقبلهما رسول الله ﷺ والتزمهما وأقعد كل واحد منهما على فخذه ، ثم أمر بدينك السوارين فكسرا ، فجعلهما قطعاً ، ثم دعا أهل الصفة - قوم من المهاجرين لم يكن لهم منازل ولا أموال - فقسّمه بينهم قطعاً ، ثم جعل يدعو الرجل منهم العاري الذي لا يستتر بشيء ، وكان ذلك الستر طويلاً ، ليس له عرض ، فجعل يؤزر الرجل ، فإذا التقيا عليه قطعه حتى قسّمه بينهم أزرًا ، ثم أمر النساء لا يرفعن رؤوسهن من الركوع والسجود حتى يرفع الرجال رؤوسهم ، وذلك أنهم كانوا من صغر إزارهم إذا ركعوا وسجدوا بدت عورتهم من خلفهم ، ثم جرت به السنة أن لا يرفع النساء رؤوسهن من الركوع والسجود حتى يرفع الرجال .

ثم قال رسول الله ﷺ : رحم الله فاطمة ، ليكسوتها الله بهذا السّتر من كسوة الجنة ، وليحليتها بهذين السوارين من حلية الجنة ^(١) .

الزهد في العاجل مع حصوله لهم

مصباح الأنوار عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : إنّ فاطمة بنت محمّد وجدت علةً ، فجاءها رسول الله ﷺ عائداً ، فجلس عندها وسألها عن حالها ، فقالت : إني أشتهي طعاماً طيباً .

(١) مكارم الأخلاق ، ص ٩٣ ؛ عن عوالم المعالم ، ١٢١/١١ و ١٢٢ .

فقام النبي ﷺ إلى طاق في البيت، فجاء بطبق فيه زبيب وكعك وأقطف وقطف عنب، فوضعه بين يدي فاطمة عليها السلام، فوضع رسول الله ﷺ يده في الطبق وسمى الله وقال: كلوا باسم الله، فأكلت فاطمة ورسول الله ﷺ وعليّ والحسن والحسين، فبينما هم يأكلون إذ وقف سائل على الباب، فقال: السّلام عليكم! أطعمونا ممّا رزقكم الله. فقال النبي ﷺ: إحصأ. فقالت فاطمة: يا رسول الله! ما هكذا تقول للمسلمين! فقال النبي ﷺ: إنّه الشيطان، وإنّ جبرئيل جاءكم بهذا الطّعام من الجنّة، فأراد الشّيطان أن يصيب منه وما كان ذلك ينبغي له ^(١).

بركة صحفة ..

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال النبي ﷺ لفاطمة: يا فاطمة! قومي فأخرجني تلك الصحفة، فقامت فأخرجت صحفة فيها ثريد وعراق يفور، فأكل النبي ﷺ وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم ثلاثة عشر يوماً، ثمّ إن أمّ أيمن رأت الحسين معه شيء، فقالت له: من أين لك هذا؟ قال: إنّنا لتأكله منذو أيام. فأتت أمّ أيمن فاطمة عليها السلام، فقالت: يا فاطمة! إذا كان عند أمّ أيمن شيء فهو لفاطمة وأولادها، وإذا كان عند فاطمة شيء فليس لأمّ أيمن منه شيء؛ فأخرجت لها منه فأكلت أمّ أيمن ونفذت الصحفة. فقال لها النبي ﷺ: أمّا لولا أنّك أطعمتها لأكلت منها أنتِ وذريّتكِ إلى أن تقوم الساعة. ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: والصحفة عندنا يخرج بها قائمنا عليه السلام في زمانه ^(٢).

الجوع والدعاء ..

عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: خرج رسول الله ﷺ يريد فاطمة عليها السلام وأنا معه، فلمّا انتهينا إلى الباب وضع يده عليه فدفعه، ثمّ قال: السّلام عليكم، فقالت فاطمة عليها السلام: عليك السّلام يا رسول الله. قال: أدخل؟ قالت: نعم، ادخل يا رسول الله. قال: أنا ومن معي؟ قال: ومن معك؟ قال: جابر.

(١) البحار، ٣/٤٧؛ عن المصدر نفسه ص ٩٦.

(٢) الكافي، ١/٤٦؛ عن عوالم المعالم، ١١/٩٧.

فدخل رسول الله ﷺ ودخلت أنا ، وإذا وجه فاطمة أصفر كأنه بطن جرادة ، فقال رسول الله ﷺ : مالي أرى وجهك أصفر؟ قالت : يا رسول الله ! الجوع . قال : اللهم مشيع الجوعة ، ورافع الضيعة ، أشبع فاطمة بنت محمد . فقال جابر : فوالله فنظرت إلى الدم ينحدر من قصاصها حتى عاد وجهها أحمر ، فما جاءت بعد ذلك اليوم^(١) .

بركة جفنة ..

عن جابر بن عبد الله : أن النبي ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه ، وطاف في منازل أزواجه ، فلم يصب عند واحدةٍ منهن شيئاً ، فأتى فاطمة فقال : يا بنية! هل عندك شيء آكله؟ فأنتي جائع . فقالت : لا والله بأبي أنت وأمي^(٢) . فلما خرج من عندها بعث إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها وغطت عليها ، وقالت : لأوترن بها رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسناً وحسيناً إلى رسول الله ﷺ ، فرجع إليها ، فقالت : بأبي أنت وأمي !! فقد آتانا الله بشيء فخبأته . قال : هلمّي ، فأنته فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً ، فلما نظرت إليه بهتت فعرفت أنها كرامة من الله عز وجل ، فحمدت الله وصلت على نبيه ﷺ . فقال : من أين لك هذا يا بنية؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فحمد الله عز وجل ، وقال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء العالمين في نساء بني إسرائيل في وقتهم ، فإنها كانت إذا رزقها الله تعالى فسئلت عنه ، قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فبعث رسول الله ﷺ إلى عليّ ، ثم أكل رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته جميعاً ، وشبعوا ، وبقيت الجفنة كما هي .

(١) الكافي ، ٥٢٨/٥ ؛ والبحار ، ٦٢/٤٣ ؛ عن عوالم المعالم ، ص ٩٦ .

(٢) لا أرى التعبير يستقيم ، إذ كيف تفدي الزهراء عليها السلام أباهاً لأبيها ، ولعل الراوي روى ذلك بالمعنى وهو مذهب معروف عند بعض المحدثين .

قالت فاطمة: فأوسعت منها على جميع جيرانني، وجعل الله فيها البركة والخير كما فعل الله بمريم عليها السلام... (١).

قطع الصلاة..

أبو سعيد الخدري، قال: كانت فاطمة عليها السلام من أعزّ النَّاسِ على رسول الله ﷺ، فدخل عليها يوماً وهي تصلي، فسمعت كلام رسول الله ﷺ في رحلها، فقطعت صلاتها وخرجت من المصلي فسلمت عليه، فمسح يده على رأسها وقال: يا بنية! كيف أمسيت رحمك الله، عَشِينَا غَفَرَ اللهُ لَكَ وَقَدْ فَعَلَ.

وهنا تسكت الرواية عن جواب الزهراء هل عَشْتَهُ، أو اعتذرت منه، ولكن تاليتها عن عبدالله بن الحسن تقول: أَنَّ النَّبِيَّ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَدِمَتْ إِلَيْهِ كَسْرَةً يَابِسَةً مِنْ خَبِزٍ شَعِيرٍ فَأَفْطَرَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا بِنْتِي! هَذَا أَوَّلُ خَبِزٍ أَكَلْتُ أَبُوكَ مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ فَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ تَبْكِي وَرَسُولُ اللهِ يَمْسَحُ وَجْهَهَا بِيَدِهِ (٢).

والظاهر أَنَّ الروایتين واحدة، وَأَنْهُمَا كَانَا فِي سَفَرٍ، وَلَا يَعَارِضُهُ لَفْظُ «أَفْطَرَ» الْوَارِدُ فِي الرِّوَايَةِ، فَالِإِحْتِمَالِ قَوِيٍّ أَنَّهُ بَعْدَ إِمْسَاكِ اضْطِرَّارِيٍّ عَنِ الطَّعَامِ لِفَقْدَانِهِ لَا بَعْدَ صَوْمٍ إِذْ لَيْسَ مِنَ الْبَرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ، هَذَا مِنْ جَانِبٍ.

ومن جانب آخر لقائل أن يقول: كيف جاز للزهراء عليها السلام أن تقطع صلاتها بعد سماع كلام النبي، وقطع الصلاة لا يجوز، إلا لأمر فوتي أو حدوث حاجة ضرورية؟ والجواب: أَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ قَبْلَ الدَّخُولِ فِي الْإِحْرَامِ كَمَا أَنَّهُ وَهُوَ الْأَرْجَحُ يَجُوزُ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ قَدْ دَعَاهَا إِلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ يَجِبُ قَطْعُ الصَّلَاةِ وَإِنْ كَانَتْ قَدْ أَحْرَمَتْ فِيهَا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الآية.

وقد كان النبي ﷺ دعى عبادة بن الصامت فأبطأ عليه، فلما خرج إليه اعتذر بالصلاة، فقال له النبي: فهلاً قطعتها؟ ثم تلا عليه الآية الكريمة، وفعل الزهراء عليها السلام يدلاً على عظيم معرفتها بكتاب الله، وتأدبها مع رسول الله ﷺ.

(١) عوالم المعالم، ١١/٨٤.

(٢) عوالم المعالم، ص ٦٢؛ عن المناقب ٣/١١٢؛ والبحار، ٤٣/٤٠.

أثلاث النور ..

عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : أول شخص يدخل الجنة فاطمة .
 عن النبي ﷺ ، قال : لما خلق الله الجنة خلقها من نور وجهه ثم أخذ ذلك
 النور فقذفه فأصابني ثلث النور ، وأصاب فاطمة ثلث النور ، وأصاب علياً وأهل بيته
 ثلث النور ؛ فمن أصابه من ذلك النور اهتدى إلى ولاية آل محمد ، ومن لم يصبه من
 ذلك النور ضلَّ عن ولاية آل محمد صلوات الله عليهم (١) .

كسوة مباركة ..

عن علي بن الحسين عليه السلام قال : قال علي بن أبي طالب عليه السلام لفاطمة عليها السلام : سألت
 أبك فيما سألت : أين تلقينه يوم القيامة ؟ قالت : نعم ، قال لي : اطلبيني عند
 الحوض . قلت : إن لم أجده هنا ؟ قال : تجديني إذن مستظلاً بعرش ربي ولن
 يستظلَّ به غيري . قالت فاطمة : فقلت : يا أبا ! أهل الدنيا يوم القيامة عراة ؟! فقال :
 نعم يا بنتي . فقلت : وأنا عريانه ؟! قال : نعم ، وأنت عريانه ، وإنه لا يلتفت فيه أحد
 إلى أحد . قالت فاطمة عليها السلام : فقلت له : واسوأته يومئذ من الله عز وجل ، فما خرجت
 حتى قال لي : هبط علي جبرئيل الروح الأمين عليه السلام فقال لي : يا محمد ! اقرأ فاطمة
 السلام وأعلمها أنها استحييت من الله تبارك وتعالى فاستحى الله منها ، فقد وعدتها أن
 يكسوها يوم القيامة حلَّت من نور . قال علي : فقلت لها : فهلاً سألتيه عن ابن
 عمك ؟! فقالت : قد فعلت ، فقال : إن علياً أكرم على الله عز وجل من أن يعزبه يوم
 القيامة (٢) .

البيت السعيد ..

عن الإمام الباقر عليه السلام : أن النسوة قلن : يا بنت رسول الله ﷺ ! خطبك فلان
 وفلان فردهم أبوك وزوجك عائلاً!

(١) عوالم المعالم ، ٦٦/١١ عن المناقب ، ١١٠/٣ و ١٠٦ ؛ والبحار ، ٤٤/٤٣ .

(٢) كشف الغمّة ، ٤٩٦/١ ؛ والبحار ، ٥٥/٤٣ ؛ وعوالم المعالم ، ٦٨/١١ .

فدخل رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! زوّجتني عائلاً! فهزّ رسول الله ﷺ بيده معصمها وقال: لا يا فاطمة! ولكن زوّجتك أقدمهم سلباً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلباً، أما علمت يا فاطمة أنه أخي في الدنيا والآخرة؟ فضحكت وقالت: رضيت يا رسول الله..^(١)

الفقر الهنيء..

عن سويد بن غفلة، قال: أصابت علياً عليه السلام شدة، فأتت فاطمة عليها السلام رسول الله ﷺ فدقّت الباب، فقال: أسمع حسّ حبيبي بالباب، يا أمّ أيمن قومي وانظري، ففتحت لها الباب، فدخلت، فقال ﷺ: قد جئتنا في وقت ما كنت تأتينا في مثله؟! فقالت فاطمة: يا رسول الله ﷺ! ما طعام الملائكة عند ربنا؟ قال: التحميد. فقالت: ما طعامنا؟ قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، ما اقتبس في آل محمد شهراً ناراً، وأعلمك خمس كلمات علمنيهنّ جبرئيل عليه السلام. قالت: يا رسول الله! ما الخمس الكلمات؟ قال: يا ربّ الأولين والآخرين ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين ويا ذاالقوة المتين^(٢).

ورجعت، فلمّا أبصرها عليّ عليه السلام، قال: بأبي أنت وأمي، ما وراءك يا فاطمة؟ قالت: ذهب للدينا وجئت للآخرة. قال عليّ عليه السلام: خير أيامك، خير أيامك^(٣).

والصلح خير..

كان بين عليّ عليه السلام وفاطمة عليها السلام كلام، فدخل رسول الله ﷺ وألقى له مثال، فاضطجع عليه، فجاءت فاطمة عليها السلام فاضطجعت من جانب، وجاء عليّ عليه السلام فاضطجع من جانب، قال: فأخذ رسول الله ﷺ يد عليّ فوضعها على سرتّه، وأخذ يد فاطمة فوضعها على سرتّه، فلم يزل حتّى أصلح بينهما ثمّ خرج، فقيل له: يا رسول الله! دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشري وجهك! قال:

(١) معالم العوالم، ٢٠٦/١١؛ عن المناقب لابن شهرآشوب.

(٢) نقصت هنا واحدة، ولعلّ الأولى هكذا: ويا ربّ الآخرين، فتكون اثنتين.

(٣) عوالم المعالم، ص ٢١٠؛ البحار ٤٣/١٥٢.

وما يمنعني وقد أصلحت بين اثنين أحب من على وجه الأرض إلي^(١).

قال الصدوق عليه السلام: ليس هذا الخبر عندي بمعتمد، ولا هو لي بمعتقد في هذه العلة، لأن علياً وفاطمة عليهما السلام ما كان ليقع بينهما كلام يحتاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإصلاح بينهما، لأنه عليه السلام سيد الوصيين، وهي سيّدة نساء العالمين، مقتديان بنبي الله صلى الله عليه وآله وسلم في حسن الخلق.

ويمكن أن تكون الخصومة المروية بينهما عليهما السلام ليست على نحو الحقيقة، وإنما هي كخصومة الملكين الذين تسوّرا على داود المحراب، واقرأ معي الآيات التالية:

﴿ إذ دخلوا على داود ففرغ منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ إن هذا أخي له تسع وتسعون نجدة ولي نجدة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظنّ داود أنّما فتناه فاستغفر ربّه وخزّ راكعاً وأناب ﴿^(٢).

وهذه الخصومة ليست على حقيقتها، بل افتعلها الملائكة لتبصير نبي الله داود، بوجه الحق من رغباته الخاصّة، وعلم حينئذ أنّهما عرضا به، وأدرك أنّه امتحان من ربّه، وليس بعيداً أن يكون الحال بين الإمام أمير المؤمنين والصدّيقة الطاهرة عليهما السلام جارية على نحو تتمثلها الأُمَّة لتكون قدوة لها في مجاري حياتها كافّة، بخاصّة ما يدور بين الزوجين من علاقة وهي علاقة تعمل بها رياح التغيير وتتأثر بالظروف الخاصّة التي تطرأ على حياة الزوجين، وربّما اعترضتها أزمة فانقلبت من الصفاء والود إلى العدا والبغضاء، وحينئذ تستحيل الحياة إلى شقاء لا يطاق وهو ليس مقصوراً على طرفي الأب والأُمّ، فهناك أطراف أخرى مهمّة تتأثر بها جدّ التأثير كالأولاد وسائر الأقرباء، وتتأثر هؤلاء بمحنة العلاقة بين الأبوين، يكون المجتمع قد أصيب بالصميم من أبنائه، فلا بدّ والحال هذه من وضع الحياة الزوجية تحت مظلة أخلاقية فاضلة تتضمّن مضافاً إلى القواعد السلوكية الكريمة أفراداً ذوي صفات

(١) علل الشرايع، ١٥٦/١.

(٢) سورة ص: ٢٢ - ٢٤.

رفيعة يجرون في حياتهم الأسرية طبقاً للقواعد لكي يكونوا قدوة صالحة للأمة، وما هؤلاء الأفراد إلا النبي وأهل بيته.

وبهذا التوجيه السليم ندرك أنّ الكلام بين الإمام والصديقة عليها السلام وما يتبعه من تأثير العلاقة أو تعرّضها لشكل من أشكال التوتر ليس على نحو الحقيقة والواقع، بل على نحو تعليم الأمة لما ينبغي عليها أن تتّخذه من إجراء عندما تتعرّض لمثل هذه الهزّات في حياتها اليومية، وقد كانت هذه هي الطريقة التي جرى عليها أهل البيت في تعليم الجاهل وإرشاد الضالّ.

روى الرواة أنّ الحسنين عليهما السلام شاهداً شيخاً لا يحسن الوضوء، فقالا له: يا شيخ! إننا اختلفنا في الوضوء فهلّم واحكم لأفضلنا وضوءاً، ثمّ شرعاً في الوضوء، فلمّا رآهما الشيخ، قال: بل أنا الذي لا أحسن الوضوء وينبغي عليّ أن أتعلّمه منكما.

وبهذا فيما أعتقد يرتفع الإشكال الذي استشعره شيخنا الصدوق رضوان الله عليه.

سرور..

دخل الحسن بن عليّ بن عليّ جدّه عليه السلام وهو يتعثر بذيله، فأسرّ إلى النبي عليه السلام سرّاً فرأيته - الراوي - وقد تغير لونه، ثمّ قام النبي عليه السلام حتّى أتى منزل فاطمة، فأخذ بيدها فهزّها هزّاً قوياً، قال: يا فاطمة! إياك وغضب عليّ، فإنّ الله يغضب لغضبه ويرضى لرضاه.

ثمّ جاء عليّ، فأخذ النبي عليه السلام بيده ثمّ هزّها إليه هزّاً خفيفاً، ثمّ قال: يا أبا الحسن! إياك وغضب فاطمة فإنّ الملائكة تغضب لغضبها وترضى لرضائها. فقلت - الراوي -: يا رسول الله! مضيت مذعوراً وقد رجعت مسروراً؟! فقال: يا معاوية! كيف لا أسرّ وقد أصلحت بين اثنين هما أكرم الخلق على الله ^(١).

(١) المناقب، ٣/١١٣؛ والبحار، ٤٣/٤٢؛ وعوالم المعالم، ص ٧٣.

الملائكة السياحون ..

أبوذر الغفاري رضي الله عنه قال: بعثني النبي ﷺ أدعو علياً، فأتيت بيته وناديته، فلم يجبني، فأخبرت النبي ﷺ، فقال: عد إليه فإنه في البيت، فأتيت ودخلت عليه، فرأيت الرحي تطحن ولا أحد عندها، فقلت لعلي: إن النبي يدعوك، فخرج متوشحاً حتى أتى النبي ﷺ، فأخبرت النبي ﷺ بما رايت، فقال: يا أباذر! لا تعجب فإن لله ملائكة سياحون - كذا - في الأرض موكلون - كذا - بمعونة آل محمد . والحسن البصري وابن اسحاق عن عمّار وميمونة: إن كليهما قالوا: وجدت رحي فاطمة تدور، فأخبرت رسول الله بذلك، فقال: إن الله علم ضعف أمته فأوحى إلى الرّحي أن تدور فدارت .

وروي أنها رضي الله عنها ربّما اشتغلت بصلاتها وعبادتها، فربّما بكى ولدها فرئى المهد يتحرّك وكان ملك يحركه ^(١).

باب فاطمة رضي الله عنها ..

عن أبي الحمراء، قال: شهدت رسول الله ﷺ ثمانية أشهر إذا خرج إلى صلاة الغداة مرّ بباب فاطمة رضي الله عنها، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً... ^(٢)

ضمان ..

تفسير العيّاشي: عن سيف، عن نجم، عن أبي جعفر رضي الله عنه قال: إنّ فاطمة رضي الله عنها ضمنت لعلي رضي الله عنه عمل البيت والعجين والخبز وقمّ البيت، وضمن لها علي رضي الله عنه ما كان خلف الباب؛ نقل الحطب وأن يجيء بالطعام. فقال لها يوماً: يا فاطمة! هل عندك شيء؟ قالت: والذّي عظم حقك ما كان عندنا منذو ثلاثة أيام شيء نقرئك

(١) المناقب، ١١٦/٣؛ البحار، ٤٥/٤٣.

(٢) كشف الغمّة، ٤٥٧/١؛ البحار، ٥٣/٤٣، سورة الأحزاب: ٣٣.

به . قال : أفلا أخبرتني ؟ قالت : كان رسول الله ﷺ نهاني أن أسألك شيئاً ، فقال : لا تسألني ابن عمك شيئاً ، إن جاءك بشيء عفو وإلا فلا تسأليه .

قال : فخرج عليها السلام فلقي رجلاً فاستقرض منه ديناراً ، ثم أقبل به وقد أمسى ، فلقي مقداد بن الأسود ، فقال للمقداد : ما أخرجك في هذه الساعة ؟ قال : الجوع والذي عظم حقك يا أمير المؤمنين .

قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : ورسول الله ﷺ حيٌّ ؟ قال : ورسول الله ﷺ حيٌّ .

قال : فهو أخرجني ، وقد استقرضت ديناراً وسأوترك به ، فدفعه إليه ، فأقبل فوجد رسول الله ﷺ جالساً وفاطمة تصلي وبينها شيء مغطى ، فلمّا فرغت اجترت ذلك الشيء فإذا جفنه من خبز ولحم ، قال : يا فاطمة ! أتني لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فقال رسول الله ﷺ : أحدثك بمثلك ومثلها ؟ قال : بلى . قال : مثل زكريّا إذ دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم ! أتني لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فأكلوا منها شهراً وهي الجنة التي يأكل منها القائم عليه السلام وهي عندنا ..^(١)

الكنز الثمين

الكافي : عليّ ، عن أبيه ، عن أبي عمير ، عن اسحاق بن عبدالعزيز ، عن زرارة ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : جاءت فاطمة تشكو إلى رسول الله ﷺ بعض أمرها ، فأعطها رسول الله ﷺ كربة ، وقال : تعلّمي ما فيها ، فإذا فيها : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم صيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت^(٢) .

(١) تفسير العياشي ، ١٧١/١ ؛ والبحار ، ٣١/٤٣ .

(٢) الكافي ، ٦٦٧/٢ ؛ البحار ، ٦١/٤٣ ؛ عو عوالم المعالم ، ص ١٠٣ .

تساويح..

عن عليّ عليه السلام أنه قال لرجل من بني سعد: ألا أحدثك عنّي وعن فاطمة؟ إنّها كانت عندي، وكانت من أحبّ أهله إليه، وإنّها استقت بالقربة حتّى أثر في صدرها، وطحن بالرحى حتّى مجلت يداها، وكسحت البيت حتّى اغبرّت ثيابها، وأوقدت النّار حتّى دكنت ثيابها فأصابها من ذلك ضرر شديد.

فقلت لها: لو أتيت أباك فسألته خادماً يكفّيك حرّاً ما أنت فيه من هذا العمل. فأتت النبيّ صلى الله عليه وآله فوجدت عنده حدّثاً، فاستحت، فانصرفت. قال: فعلم النبيّ صلى الله عليه وآله أنّها جاءت لحاجة. قال: فعدا علينا رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن في لفاعنا، فقال: السّلام عليكم يا أهل اللّفاع، فسكنتنا واستحينا لمكاننا، ثمّ قال: السّلام عليكم، فسكنتنا، ثمّ قال: السّلام عليكم، فخشينا إن لم نرد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك ليسلم ثلاثاً، فإن أذن له وإلا انصرف.

فقلت: وعليك السّلام يا رسول الله، أدخل، فلم يعد أن جلس عند رؤوسنا، فقال: يا فاطمة! ما كانت حاجتك أمس عند محمّد؟ قال: فخشيت إن لم نجبه أن يقوم، قال: فأخرجت رأسي فقلت: أنا والله أخبرك يا رسول الله، إنّها استقت بالقربة حتّى أثرت في صدرها، وجرت بالرحى حتّى مجلت يداها، وكسحت البيت حتّى اغبرّت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتّى دكنت ثيابها، فقلت لها: لو أتيت أباك فسألته خادماً يكفّيك حرّاً ما أنت فيه من هذا العمل.

فقال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم؟! إذا أخذتما منامكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، وأحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا ثلاثاً وثلاثين.

قال: فأخرجت رأسها وقالت: رضيت عن الله ورسوله، رضيت عن الله ورسوله، رضيت عن الله ورسوله، رضيت عن الله ورسوله ^(١).

فاطمة عليها السلام في محرّابها..

عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن عليّ بن الحسين، عن فاطمة الصغرى،

عن الحسين بن عليّ ، عن أخيه الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، قال : رأيت أمّي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها ، فلم تزل راکعة ساجدة حتّى أتضح عمود الصبح ، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ، ولا تدعو لنفسها بشيء ، فقلت لها : يا أمّاه ! لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟! فقالت : يا بنيّ ! الجار ثمّ الدار^(١) .

الزهراء عليها السلام في قلب الجهاد... الهجرة..

لمّا بلغ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أرض يثرب مهاجراً ، تخلف عن دخول المدينة في قباء ، ينتظر قدوم أمير المؤمنين عليه السلام عليه .

قال أبي وابن أبي رافع : ثمّ كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام كتاباً يأمره فيه بالمسير إليه ، وقلة التلوم ، وكان الرسول إليه أبا واقد الليثي ، فلما أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تهبّأ للخروج والهجرة ، فأذن من كان معه من ضعفاء المؤمنين فأمرهم أن يتسلّلوا ويتخفّوا إذا ملأ الليل بطن كلّ واد إلى ذي طوى ، وخرج عليّ بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب ، وقد قيل هي ضباغة ، وتبعهم أيمن بن أم أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأبو واقد رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجعل يسوق بالرواحل ، فأعنف بهم ، فقال عليّ عليه السلام : أرفق بالنسوة أبا واقد ، إنهنّ من الضعاف ، قال : إنّي أخاف أن يدركنا الطلب أو قال لطلب . فقال عليّ عليه السلام : أربع عليك ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي : يا عليّ ! إنهم لن يصلوا من الآن إليك بأمر تكرهه ، ثمّ جعل يعني عليّاً عليه السلام يسوق بهنّ سوقاً رفيقاً وهو يرتجز ويقول :

ليس إلاّ الله فارفع ظنّنا يكفيك ربّ الناس ما أهمكا

وسار ، فلما شارف ضجنان ، أدركه الطلب سبع فوارس من قريش مستلثمين وثامنهم مولى الحرث بن أميّة يدعى جناحاً ، فأقبل عليّ عليه السلام على أيمن وأبي واقد وقد تراءى القوم ، فقال لهما : أنيخا الإبل واعقلاها ، وتقدّم حتّى أنزل النسوة ودنى

(١) علل الشرايع ، ١/١٨١ .

القوم، فاستقبلهم عليّ منتصباً سيفه، فأقبلوا عليه، فقالوا: ظننت أنك يا غدار ناج بالنسوة، ارجع لأبأ لك. قال: فإن لم أفعل؟ قالوا: لترجعن راعماً أو لترجعن بأكبرك شعراً - كذا - وأهون بك من هالك^(١).

ودنى الفوارس من النسوة والمطايا ليثوروها، فحال عليّ بينهم وبينها، فأهوى له جناح بسيفه، فراغ عليّ عليه السلام عن ضربته وتختله عليّ عليه السلام فضربه على عاتقه، فأسرع السيف مضياً فيه حتى مس كاتبة فرسه، فكان عليّ عليه السلام يشدّ على قدمه شدّ الفرس أو الفارس على فرسه، فشدّ عليهم بسيفه وهو يقول: خلّوا سبيل الجاهد المجاهد، آليت لا أعبد غير الواحد..

فتصدّع القوم عنه، فقالوا له: أغن عنا نفسك يا ابن أبي طاب. قال: فيأتي منطلق إلى ابن عمّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيثرب، فمن سرّه أن أفري لحمه وأهريق دمه فليتبّعني أو فليدنّ منّي، ثمّ أقبل على صاحبيه: أيمن وأبي واقد فقال لهما: أطلقا مطاياكما، ثمّ سار ظاهراً فاهراً حتى نزل ضجنان فتلوّم بها قدر يومه وليلته، ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين وفيهم أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصلّى ليلته تلك هو والفواطم، أمّه فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفاطمة بنت الزبير يصلّون لله ليلتهم ويذكرونه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فلن يزالوا كذلك حتى طلع الفجر، فصلّى عليّ عليه السلام بهم صلاة الفجر، ثمّ سار لوجهه فجعل وهم يصنعون ذلك منزلاً بعد منزل يعبدون الله عزّ وجلّ ويرغبون إليه، كذلك حتى قدم المدينة وقد نزل الوحي بما كان من شأنهم قبل قدومهم: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربّهم أنّي لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى﴾؛ الذّكر عليّ عليه السلام، والأنثى: فاطمة، ﴿وبعضكم من بعض﴾ يقول: عليّ من فاطمة أو قال: الفواطم وهنّ من عليّ. ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله وقتلوا وقتلوا لأكفرنّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنّهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾ وتلا صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء

(١) لولا أمانة النقل لكان هناك مندوحة عن نقل مثل هذا الكلام الساقط، والعجيب من الأوائل كيف

استباحوا لأنفسهم نقله!؟

مرضات الله والله رؤوف بالعباد ﴿

قال : وقال له : يا علي ! أنت أول هذه الأمة ايماناً بالله ورسوله ، وأولهم هجرة إلى الله ورسوله ، وآخرهم عهداً برسوله ، لا يحببك -والذي نفسي بيده - إلا مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان ، ولا يبغضك إلا منافق أو كافر^(١) .

عون المجاهد

ولمّا انهزم الناس عن النبي ﷺ في يوم أحد ، وثبت أمير المؤمنين عليه السلام ، قال له النبي ﷺ : مالك لا تذهب مع القوم ؟ قال أمير المؤمنين عليه السلام : أذهب وأدعك يا رسول الله ؟! والله لا برحت حتى أقتل أو ينجز الله لك ما وعدك من النصر . فقال له النبي ﷺ : أبشريا علي ! فإن الله منجز وعده ، ولن ينالوا لنا مثلها أبداً ، ثم نظر إلى كتيبة قد أقبلت إليه ، فقال له : أو حملت على هذه يا علي ؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام عليها ، فقتل منها هشام بن أمية المخزومي ، وانهزم القوم ، ثم أقبلت كتيبة أخرى ، فقال له النبي ﷺ : إحمل على هذه ، فحمل عليهم فقتل منها عمرو بن عبدالله الجمحي ، وانهزمت أيضاً ، ثم أقبلت كتيبة أخرى ، فقال له النبي ﷺ : إحمل على هذه ، فحمل عليها ، فقتل منها بشر بن مالك العامري ، وانهزمت الكتيبة ، ولم يعد بعدها أحد منهم ، وتراجع المنهزمون من المسلمين إلى النبي ﷺ ، وانصرف المشركون إلى مكة ، وانصرف المسلمون مع النبي ﷺ إلى المدينة ، فاستقبلته فاطمة عليها السلام ومعها فيه ماء ، فغسل به وجهه ، ولحقه أمير المؤمنين وقد خضب الدم يده إلى كتفه ، ومعه ذوالفقار ، فناوله فاطمة وقال لها : خذي هذا السيف فقد صدقني اليوم ، وأنشأ يقول :

أفاطم هاك السيف غير سليم	فلست برعديد ولا بمليم
لعمرى لقد أعدرت في نصر أحمد	وطاعة ربّ بالعباد عليم
أميطي لثام القوم عنه فإنّه	سقى آل عبدالدار كأس حميم

وقال رسول الله ﷺ : خذي يا فاطمة ! فقد أدّى بعلك ما عليه ، وقد قتل الله

بسیفه صناید قریش... (١)

الطهر في المعركة ..

لَمَّا وَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ فِي حَرْبِ أَحَدَ، وَفَرَ الْمُسْلِمُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَفْرَادَ قَلَائِلَ «.. صَاحَ ابْلِيسَ لَعْنَهُ اللهُ: قَتَلَ مُحَمَّدٌ، وَرَسُولَ اللهِ ﷺ بِدَعْوِهِمْ فِي أَخْرَاهُمْ! أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَسُولُ اللهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي النَّصْرَ فَإِلَى أَيْنَ الْفِرَارُ، فَيَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلَا يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ، وَذَهَبَتْ صَبِيحَةُ ابْلِيسَ حَتَّى دَخَلَتْ بِيوتَ الْمَدِينَةِ، فَصَاحَتْ فَاطِمَةُ، وَلَمْ تَبْقَ هَاشِمِيَّةٌ وَلَا قُرَشِيَّةٌ إِلَّا وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا، وَخَرَجَتْ فَاطِمَةُ تَصْرُخُ.

قال الصادق عليه السلام: انهزم الناس عن رسول الله ﷺ، فغضب غضباً شديداً، وكان إذا غضب انحدر من وجهه وجبهته مثل اللؤلؤ من العرق، فنظر فإذا علي عليه السلام إلى جنبه، فقال: مالك لم تلحق بني أبيك؟ فقال علي عليه السلام: يا رسول الله! أكفر بعد إيمان؟ إن لي بك أسوة. فقال له: ألا تكفيني هؤلاء؟ فحمل علي عليه السلام فضرب أول من لقي منهم، فقال جبرئيل عليه السلام: إن هذه لهي المواساة يا محمد! قال إنه مني وأنا منه. قال جبرئيل: وأنا منكما...

وفي كتاب أبان بن عثمان: أنه لما انتهت فاطمة وصبية إلى رسول الله ﷺ ونظرتا إليه، قال لعلي عليه السلام: أما عمتي فاحبسها عني، وأما فاطمة فدعها، فلما دنت فاطمة من رسول الله ﷺ ورأته قد شج في وجهه وأدمى فوه ادماء، صاحت وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتد غضب الله علي من أدمى وجه رسول الله ﷺ، وكان يتناول في يده رسول الله ﷺ ما يسيل من الدم فيرميه في الهواء فلا يتراجع منه شيء.

قال الصادق عليه السلام: والله لو سقط منه شيء على الأرض لنزل العذاب.. (٢)

(١) بحار الأنوار، ٦/٦٥.

(٢) بحار الأنوار، ٦/٦٥٢.

علاج الجرح الشريف ..

وباشر النبي ﷺ القتال بنفسه - يوم أحد - ورمى حتى فنيته نبله ، وأصاب شفته ورباعيته عتبة بن أبي وقاص ، ووقع ﷺ في حفرة وضربه ابن قميثة فلم يصنع شيئاً إلا وهن الضربة بثقل السيف ، وانتهى وطلحة يحمله من ورائه ، وعليّ أخذ بيديه حتى استوى قائماً ...

وعن أبي بشير الحارثي : حضرت يوم أحد - وأنا غلام - فرأيت ابن قميثة على رسول الله بالسيف ، فوق علي ركبته في حفرة أمامه حتى توارى ، فجعلت أصيح - وأنا غلام - حتى رأيت الناس ثابوا إليه ويقال : الذي شجّه في جبهته ابن شهاب ، والذي أشطى رباعيته وأدمى شفته عتبة بن أبي وقاص ، والذي دمى وجنتيه حتى غاب الحلق في وجنتيه ابن قميثة ، وسال الدم من جبهته حتى اخضلّ لحيته ، وكان سالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه وهو يقول : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبئهم وهو يدعوهم إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ﴾ الآية .

وذكر أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي حازم ، عن سهل : بأي شيء دووي جرح رسول الله ﷺ ؟ قال : كان عليّ يجيء بالماء في ترسه ، وفاطمة تغسل الدم عن وجهه ، وأخذ حصير فأحرق وحشى به جرحه ...^(١)

وكانت الزهراء عليها السلام هي التي فعلت ذلك ، ولكن ابن حنبل بنى الفعل للمجهول بقوله : أخذ حصير ليستر وجه الفضل عن أهله ، وبأبي الله ذلك ، والقوم تعلقت إرادتهم بإقامة فضائل لأيمتهم على انقراض أهل البيت . فكانت فضائلهم المنتقضة ومناقبهم الزاهقة لأنها الباطل ، وكان الباطل زهوقاً . وحفظ البيت من شاده وصانه من أن يلحق به سوء من أيمّة السوء أو علمائه .

التخلص ..

رحمتها رحمك الله

مجموعة ورّام: بينما النبي ﷺ والناس في المسجد ينتظرون بلالاً أن يأتي فيؤذن، إذ أتى بعد زمان، فقال له النبي ﷺ: ما حبسك يا بلال؟! فقال: إنني اجتزت بفاطمة ؑ وهي تطحن واضعة ابنها الحسن عند الرّحى وهو يبكي، فقلت لها: أيما أحب إليك: إن شئت كفيتك ابنك، وإن شئت كفيتك الرّحى؟ فقالت: أنا أرفق بابني، فأخذت الرّحى فطحنت، فذاك الذي حبسني، فقال النبي ﷺ: رحمتها رحمك الله... (١)

فهلاً اعتبر بهذا من دخل عليها بيتها وأحرق بابها وساق بعلمها ملتباً وهي تدعو ورائه:

خلوا ابن عمي أو لأكشف بالدعا رأسي وأشكوا للإله شجوني
فما رحموها، لا رحمهم الله، ولا رضي عنهم.

المجلس التاسع عشر الثورة الأم

«.. سيّدة أعظم بها سيّدة..»

سليمان ظاهر

هل كان في النساء مثل فاطم	في غابر وحاضر وقادم
أخت البتول مريم التي ارتقى	جلالها عن وصمة اللوائم
في حرم الوحي وفي حجر التقى	قد نشأت في أمنع المحارم
سيّدة أعظم بها سيّدة	كان لها جبريل خير خادم
جوهرة نظمها الرحمن في	سمط العلى أعظم به من ناظم
وحسبها فخراً بأنّ الفخر لا	يعزى إذا يعزى لغير الفاطم

معصومة أمّ لمن نفوسهم
ولو سبيلها سلكن في العلى
ولو تقاسمن تقاها لم يكن
ما كاتنا آسية ومريم
من قاس فيها غيرها كان كمن
مخلوقة من جوهر الفضل الذي
مشتقة من نبعة الوحي ولم
كانت ضياءً قبل أن ينشقّ عن
وحسبها بأنّها خامسة
ومن تكن والدّة السبطين و
أنمة النّاس وجحد فضلهم
إن جهلت أقدارهم فطولهم
والأرض إن تجهل بها أقدارهم
ما كان إلا ناشراً حديثهم
وزوجة الوصي وابنة الذي
وبنت من قد أسلمت وأحمد
فهل لها في الفخر من مشارك
قد ذهب في طرفي كلّ علأ
من لم يكن بها وفي أبنائها
صلّى عليها الله ما أومضت الـ

لم تنو حتى لم المآثم
ما ولدت من آثم وجمارم
لم يلدن غير الأبّي الحازم
في النّاس من يصبوا إلى المحارم
لتدركا في الفخر شأو فاطم
راح يقيس الدوّ بالنعائم^(١)
عنه تشظّى صدف المكارم
تنشأ بغير حرم الفواطم^(٢)
وجه الوجود سُدف الكمام
لخمسة هم خير ولد آدم
التسعة غوث الخلق في العظام
جريمة من أعظم الجرائم
باد على الأشراف والأعظم
ففي السماء كم بها من عالم
وفضلهم في الكون كلّ كاتم
كان لرسّل الله خير خاتم
ليس له في الخلق من مسالم
وفي العلاء المحض من مسالم
ومن مزايا الفضل بالكرائم
معتصماً فما له من عاصم
بروق وانحلّت عرى الغمام^(٣)

(١) الدو: المفازة، والنعائم: منازل القمر تشبه بالنعامة وهي ثمانية أنجم.

(٢) في لسان العرب: الفواطم اللاتي ولدن النبي ﷺ قرشيّة وقيسيّتان ويمانيّتان وأزدية وخزاعيّة.

(٣) الذخيرة إلى المعاد في مدح محمّد وآله الأمام، ص ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠.

الثورة الأم

يحدثنا التاريخ عن مواقف أو أعمال لأشخاص معدودين، تبدو للناظر صغيرة الحجم، قصيرة الأمد، لا يعبأ الناس بحدوثها، محدودة بحدود الزمان والمكان، ولكنها تفتق عن أثر فعال في مستقبل الدنيا.

شأنها شأن تلكم الشعاعة التي تتطاير من اللهب ضئيلة الحجم، تقفز كما يقفز البعوض، فإذا ما صادفت مجالاً تتوهج فيه تنقلب إلى نار حامية تمتد ألسنتها على بعد فتخيف الراكب والماشي والراجل والمقيم.

ولعل من أدنى المشبهات إليها، الأثر الذي خلفه بعض المصلحين من ساسة وأنبياء، فقد اضطرب في الضعف والوهن سنين عدداً ثم تناهت فيه القوة حتى استبدت بالمجتمعات فهدم قواعد منها وأقام صروحاً لها.

إن بقاء المسيح في الدعوة لم يتعدّ السنين الثلاث أو الأربع حتى إذا توفاه الله إليه ورفع عن الأرض، ترك البذرة تحت التربة الدكناء تتفاعل فيها الحياة وتقومها عناصر الخلق، وما هي إلا العقود وإذا بها تبسق كدوحة وأرقة الظل طيبة الثمار، تفيأ ظللالها، واستمرراً ثمرتها شعوب الأرض، لولا ما جنت عليها بيد ذلك البستاني الجاهل المفرض.

وإذا تخطينا البيئة السيكلوجية لدعوات السماء، واعتبرناها مدعومة بإرادة الله سبحانه مسددة منه، وإن من أراد الله وسدده فلا ريب في نجاحه وفوزه على من عداه.

أقول: إذا تخطينا هذا فإننا نعثر خلال بحثنا عن النظائر والأشبهاء على أمور صغيرة طفت على سطح التاريخ كما تطفوا القشة على سطح الماء، كمنظريّة لفيلسوف حكيم، أو كتاب لعالم، مذهبه الإصلاح، كان لهما صدى عميق وأثر فعال أدى إلى تغيير وجه العالم..

إلا أنّهما لم تطل أعمارهما لتجرّدهما عن الحقّ، وإنّ البناء قد يتداعى بعد زمن وإن طال إذا لم يدعمه الحقّ، ولنأخذ مثلاً على ذلك النظريّات التي تزيت بلباس العلم، من قبيل نظرية دارون في النشوء والإرتقاء، أو نظريّة فرويد في تفسير التاريخ بعامل واحد، فإنّ هاتين النظريّتين هيمنتا على العالم ردحاً من الزمن، وكان

العالم يسير في ثقافته بل حضارته كلها على هدي أقوالهما، فما كنت تبصر إلا مردداً لما قالاه في الشرق والغرب، خصوصاً في الأوساط العلمية والثقافية، فأثرا في تاريخ البشرية وقلبا رأساً على عقب، ومثلهما فعل كتاب «رأس المال» ولكنه انهار لبنائه على أساس منهار، بعد أن ملأ العالم دويماً وزعيقاً، وقلب حكومات وأقام مثلها.. ولا عبرة بنفاد أثره بعد وقوعه فإن لكل علة ليس الآن موضع الحديث عنها.

بعد هذه المقدمة، نخلص إلى النتيجة المتوخاة منها، وهي أن في تاريخنا مواقف لأفذاذ من أعلام الأمة - كان طابعها الثورة والنقمة على طغاة زمانها، ولكن ثمرتها لم تجتن إلا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن، وهذا الفصل الزمني الطويل لا يفرق بينها وبين آثارها الفاعلة في الأمة، لأنها معزوة إليها وإن فصل بينها الزمان، بل والمكان أيضاً..

إن موقف الصديقة الطاهرة من سلطة الخلافة وعلى رأسها الخليفة الأول، ما هو بموقف شخص ينحصر في المطالبة بحق قليل ضائع، أو نحلة أفلتت من يدها بفعل الحقد أو الجهل من خصمها، بل هو موقف الثورة الأم، التي كانت الركيزة الأولى لما تلاها من ثورات، ونحن حين نستقرأ الأقوال والأفعال التي افرزتها لتلك الحقبة نزداد يقيناً بها وتمييزاً لملامحها، فثورة الابن والحفيد ما هي إلا امتداد طبيعي لثورة الأم، كذلك هي الصيغة الثورية التي تخلفت نطفتها في المزاج الموروث، واكتملت في ظروف نشأتها الخاصة.

ولست أظن امرءاً أوتي حاسة سليمة للتمييز والحكم، ينظر إلى ما بدر من أحداث ثورية على يد أبناء الزهراء، وتسلسلها في الأحفاد بعفوية فلا بد له أن كان على شيء من الفهم لملايسات الأحداث من ردها إلى جذورها المتوارثة في الأعقاب.

سِرَّ انحصار الثورة في أبناء الزهراء عليها السلام

ومن أجل الوصول إلى اليقين من هذه القضية والوقوف على السر الخفي وإثبات ذلك على وجه سليم، نقول: ناط النبي صلى الله عليه وآله وسلم مهمة القيادة بأهل بيته ونصبهم في موضع الإقتداء، وجمع لهم السلطتين التشريعية والسياسية، الدينية والزمنية، وحضر على المسلمين التطلع إلى مراكزهم إلا أتباعاً مأمّرين، مفوضاً أمر قيادة الأمة

إليهم ، لصعوبة القيام بهذه المهمة إلا لمن أوتي العصمة من أهلها وهم أهلها .
وما أكثر الآيات والسنن التي اعتبرها العلماء براهين دالة دلالة قاطعة على هذا المعنى ، ونحن نذكر حديثاً واحداً من هذه السنن لوضوح دلالاته وإشراقه بيانه ونصوح برهانه ، إذ الاسهاب في هذا الباب يتطلب منا جهداً إضافياً ، ويخرج موضوع الكتاب عمّا أعد له من ترجمة الصديقة ، وإن كان متفقاً معها بنسق واضح ، ولطالب المزيد الرجوع إلى كتب الإختصاص كالشافعي والمراجعات ودلائل الصدق والغدير وهي من خيرة ما كتب أعلام المذهب في هذا الباب ، والحديث هو حديث الثقلين .

حديث الثقلين ..

عن زيد بن أرقم : أنّ النبي ﷺ قال : إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما^(١) .
وعند ابن خزيمة صيغة تحتاج إلى التوضيح ، فقد أخرجها عن يزيد بن حيان ، قال : انطلقت أنا وحصين بن سمرّة وعمرو بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فجلسنا إليه ، فقال له حصين : يا زيد ! رأيت رسول الله ﷺ ، وصليت خلفه ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، لقد أصبت يا زيد خيراً كثيراً ، حدّثنا يا زيد حديثاً سمعت رسول الله ﷺ وما شهدت معه ، قال : بلى ، ابن أخي ، لقد قدم عهدي ، وكبرت سنّي ، ونسيت بعض الذي كنت أعني من رسول الله ﷺ ، فما حدّثتكم فاقبلوه ، وما لم أحدّثكموه فلا تكلفوني .

(١) السيّد محمّد تقي الحكيم ، الفقه المقارن ، ص ١٦٥ و ١٦٦ ، وإليك كتب أهل السنّة والجماعة التي أخرجت الحديث بصيغه المختلفة : مختصر اتحاف السادة المهرة ، ١٠/٥٠٢ و ٥٠٦ و ٥٠٧ ؛ مسند أحمد بن حنبل ، ٣/١٤ و ٤/٣٧١ ؛ ومجمع الزوائد ، ٩/١٦٣ ؛ سنن الدارمي ، ٢/٣٤٢ ؛ سنن البيهقي ، ٢/١٤٨ و ٧/٣٠ و ١٠/١١٤ ؛ وصحيح ابن خزيمة ، ٤/٦٢ و ٦٣ ؛ والمستدرک ، ٣/١٤٨ ؛ المعجم الصغير للطبراني ، ١/١٣١ و ١٣٥ ؛ ومشكل الآثار للطحاوي ، ٤/٣٦٨ و ٣٦٩ ؛ والمعجم الكبير للطبراني ، ٩/١٩٠ و ٢٠٥ و ٢١٠ ؛ مصتف ابن أبي شيبة ، ١١/٤٥٢ ؛ وكذلك رواها مسلم ، ٤/١٨١٨ و ١٨٧٤ من الطبعة الأخيرة وهي بنحو ما رواها أحمد في مسنده ٤/٣٦٧ ، ونصّة نظير النصّ الذي أخرجها ابن خزيمة ، وقد أثرت أن أذكره في متن الكتاب للحاجة إلى بيان ما فيه من اختلاف ، وذكره السيوطي في الدرّ المنثور ، ٢/٦٠ ؛ وفي سنن الترمذي ، ٣٧٨٨ ؛ والشفاء ، ٢/١٠٥ وهكذا .

قال : قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعى خم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال : أما بعد ؛ أيها الناس ! فإنما أنا بشر ، يوشك أن يأتيني رسول ربِّي فأجيبه ، وإني تارك فيكم الثقلين ، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ، ومن تركه وأخطأه كان على الضلالة ، وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي - ثلاث مرّات ..

قال حصين : فمن أهل بيته يا زيد ؟ أليست نساءه من أهل بيته ؟

قال : بلى نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرّم الصدقة .

قال : من هم ؟

قال : آل عليّ وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس .

قال حصين : وكلّ هؤلاء حرم الصدقة ؟

قال : نعم^(١) .

ونصّ الحديث يدلّ على أنّ زيد ابن أرقم اعتبر نسائه من أهل بيته ، ولكنّ السياق يرده ، وإلّا لما صحّ الإستدراك بلاكن بقوله : ولكن أهل بيته من حرم الصدقة ، الحديث .. فإنّما أن يكون جواب زيد لحصين على نحو الإستفهام الإنكاري ، وإنّما أن تكون الأيدي الأثيمة تصرّفت في النصّ ، وهذا الأخير أقرب إلى الحقّ ، بدليل الرواية التي رواها مسلم في صحيحه وفيها ينفي زيد دخول نسائه في أهل بيته .

وفيها : فقلنا : من أهل بيته نسائه ؟

قال : لا وأيم الحقّ ، إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثمّ يطلّقها

فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرّموا الصدقة بعده^(٢) .

ولا أستبعد أن يكون زيد أجاب مرّة على نحو الإستفهام الإنكاري ، ففي

صحيح مسلم أيضاً رواية تخلو من الجواب بـ «بلى»^(٣) ، والعبارة كالتالي :

فقال له الحصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساءه من أهل بيته ؟

قال : نساءه من أهل بيته ، ولكن ... الخ .

(١) صحيح ابن خزيمة ، ٦٢/٤ و٦٣ .

(٢) صحيح مسلم ، ١٨٧٤/٤ ، توزيع دار الكتب العلميّة .

(٣) إذا كان السؤال غير موجب كان الجواب بـ «بلى» ، ولا يجوز ها هنا نعم ، فقد سأله الحصين بن سمرّة :

أليست نساءه من أهل بيته ؟ فأجابه زيد : بلى ، ولم يقل نعم .

وهنا يصح الاستدراك إذا اعتبرنا جواب زيد انكارياً، وهو محتمل لخلوّه من لفظ بلى .

وهذا الحديث الشريف متواتر لفظاً ومعنى، فقد اتّحدت ألفاظه إلاّ اختلافاً يسيراً في بعض سياقاته، كما اتّحد معناه، ولم يتردّد أحد في تواتره، ولكن سيّدنا استقرب تواتره ثمّ أضرب وقطع به حيث قال: وهذا الحديث يكاد يكون متواتراً بل هو متواتر فعلاً^(١).

ولماذا هذا التردّد؟ وقد تمّت فيه شروط التواتر وخلا من الشروط الفاسدة، فقد اشترط فيه العدد بحيث يبلغ في الكثرة إلى أن يمنع اتّفاقهم وتواطئهم على الكذب عادة، وهذا حاصل في حديث الثقلين، فقد أوصله ابن حجر إلى نيّف وعشرين صحابياً، وهم أكثر من ذلك بكثير، كما اشترط فيه أن يكون استناد الرواة إلى الحسن فإنّ خبر جماعة في مثل حدوث العالم لا يفيد قطعاً، والذين رووه عن رسول الله شاهدوه بأعينهم وسمعوه بأذانهم ينطق به في غدير خم وغيره، كما أنّ طرفيه استويا، وكذلك وسطه، فقد بلغ جميع طبقات المخبرين في الأوّل والآخر والوسط، عدد التواتر المفيد لليقين ..

واستشهد سيّدنا الحكيم بقول ابن حجر في كتابه «الصواعق المحرقة» حيث قال: ثمّ اعلم أنّ لحديث التمسك بذلك طرفاً كثيرة وردت عن نيّف وعشرين صحابياً.

وقال الحكيم: وفي غاية المرام وصلت أحاديثه من طرق السنّة إلى (٣٩) حديثاً، ومن طرق الشيعة إلى (٨٢) حديثاً.

والظاهر أنّ سرّ شهرته تكرر النبي ﷺ له في أكثر من موضع .

يقول ابن حجر: ومرّ له طرق مبسوطة في حادي عشر الشبه، وفي بعض تلك الطرق أنّه قال ذلك بحجّة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنّه قاله بالمدينة في مرضه، وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أخرى أنّه قال ذلك بغدير خم، وفي أخرى أنّه قال ذلك لمّا انصرف خطيباً بعد انصرافه من الطائف .

وقال: ولا تنافي إذ لا مانيع من أنّه كرّر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها

اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة.. (١)

وختاماً نقول: إن تواتر مجيء هذا الحديث عن النبي ﷺ لا يحتاج إلى دليل، وإذا لم يمكن إثبات حديث كهذا مع وفرة رواته وصحة أسناده وكثرة طرقه، فلا يمكن إثبات حديث بعده، والمكذّب به مكذّب بالسنة جملة وتفصيلاً، وقد يؤدي رده حتماً إلى رد السنة وهو الكفر الصراح نعوذ بالله من ذلك.

دلالة الحديث على إمامة أهل البيت باعتبار دلالاته على عصمتهم

أولاً: لاقترانهم بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن البديهي أن صدور أية مخالفة للشريعة سواء كانت عن عمد أم سهو أم غفلة تعتبر افتراقاً عن القرآن، والحديث صريح في عدم افتراقهما حتى يردا الحوض.

ثانياً: وبما أن الحديث اعتبر التمسك بهما، عاصماً عن الضلالة، دائماً وأبداً، كما هو مقتضى ما تفيدته كلمة لن التأييدية، وفاقد الشيء لا يعطيه، فلو جاز عليهم الذنب لكان التمسك بهم يعدّ عبثاً، والأمر به إغراء بالضلال، وحاشا النبي من ذلك.

ثالثاً: إن تجويز الافتراق على أهل البيت بمخالفة الكتاب وصدور الذنب منهم، تجويز للكذب على الرسول ﷺ الذي أخبر عن الله عز وجل بعدم وقوع افتراقهما، وتجويز الكذب عليه متعمداً في مقام التبليغ والإخبار عن الله في الأحكام وما يرجع إليها من موضوعاتها وعللها منافٍ لافتراض العصمة في التبليغ وهي مما أجمعت عليه كلمة المسلمين على الإطلاق.

رابعاً: ويدلّ الحديث أيضاً على لزوم التمسك بهما معاً لا بواحدٍ منهما، منعاً من الضلالة لقوله ﷺ فيه: ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا، ولقوله: فانظروا كيف تخلفوني فيهما، ومن الحديث يتضح أن التمسك بأحدهما لا يغني عن الآخر «ما إن تمسكتم بهما».

خامساً: بقاء العترة إلى جنب الكتاب إلى يوم القيامة أي لا يخلو منها زمان من الأزمنة ما داما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض ، وهي كناية عن بقائهما إلى يوم القيامة .

وهذا الأمر لا يتحقق إلا ببناء أعلى مذهب الشيعة القائل بإمامة الأئمة الاثنى عشر، وبقاء ثاني عشرهم حياً إلى أن يأذن الله له بالخروج والفرج .
سادساً: دلالة على تميّزهم بالعلم بكل ما يتصل بالشريعة وغيره ، كما يدل على ذلك اقترانهم بالكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وفي إحدى سياقات الحديث ما يقطع بذلك : وفي رواية صحيحة : إني تارك فيكم أمرين ، لن تضلّوا إن تبعتموهما ، وهما كتاب الله وأهل بيتي . زاد الطبراني : إني سألت الله ذلك لهما فلا تقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم^(١) .

بعد الذي تقدّم لا أظنّ عاقلاً يتوقّف عن القطع بدلالة الحديث على إمامة أهل البيت وقيادتهم للأمة ، ولو كان غرض النبي من النطق بالحديث غير ذلك لكان تلفّظ بكلام يطابق مقتضى حال التابع الذي يراد من متبوعه النظر في حاله والرأفة به وصيانة حقّه ، ولعدل عن هذا السياق الدال على القيادة إلى غيره ، وقد أوتي جوامع الكلم ، ومن ظنّ به إرادة أمر والنطق بخلافه فقد آثمهم ، نعوذ بالله من ذلك .

مَنْ هُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ ﷺ؟

الأهل والأل معناهما واحد . وقال الزمخشري : أصل آل أهل فأبدلت الهاء همزة ثم ألفاً ، يدلّ عليه تصغيره على أهيل . ويختصّ بالأشهر الأشرف كقولهم : القرآن آل الله ، وآل محمّد ، ولا يقال آل الخياط وآل الإسكاف ، ولكن أهل^(٢) .
وقال ابن فارس : الهمزة والواو واللام أصلان ابتداء الأمر وانتهائه ، واستطراد في بحثه الشيق عن هذه المادّة إلى أن قال : وآل الرجل ، أهل بيته ، من هذا أيضاً أي

(١) راجع الصواعق المحرقة ص ١٥٠ . وقد رجعنا في تعيين دلالة الحديث على إمامة أهل البيت ﷺ إلى كتاب الفقه المقارن ، وتصرفنا فيما نقلناه بالإضافة والحذف والتقديم والتأخير ليتفق ذلك وأغراض

كتابتنا ، راجع : ص ١٦٦ إلى ص ١٦٨ .

(٢) الفائق ، ١/ ٦٧ .

من الأصل الثاني وهو الإنتهاء لأنه إليه مآلهم وإليهم مآله .. (١)

والآل مشترك لفظي يطلق على ثلاثة معاني :

أحدها الجند الأتباع ، نحو (آل فرعون) .

والثاني : النفس ، نحو آل موسى وآل هارون وآل نوح .

والثالث : أهل البيت خاصة ، نحو (آل محمد) .

وقصره على هذه المعاني الثلاثة لا يستقيم لإطلاقه على سواها كأطراف

الجبل ونواحيه ..

والآل أهل الرجل وعياله وأتباعه وأوليائه ، وشاهد المعنى الأخير قول

النبي ﷺ : سلمان منا أهل البيت .

ولا أراه يستقيم لأن النبي استثناء حين اختلف فيه المهاجرون والأنصار ، كل

يدّعيه ، فاختصّه النبي ﷺ بهم ، ولو كان قصد التابع والولي لما صحّ الاستثناء ،

لأنهم بأجمعهم أوليائه وأتباعه .

ولما كان الآل من المشترك اللفظي توقف ظهوره في أحد معانيه على القرينة

كقول النبي ﷺ : لا تحلّ الصدقة لمحمد ولا لآل محمد . قال الشافعي رحمه الله

تعالى : دلّ هذا على أنّ النبي ﷺ وآله هم الذين حرمت عليهم الصدقة وعوضوا

منها الخمس ، وهم صليبة بني هاشم وبني المطلب . وسئل النبي : من آلك ؟ فقال :

آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل عباس ، وكان الحسن عليه السلام إذا صلى على

النبي ﷺ قال : اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل أحمد ، يريد نفسه .. (٢)

ويرى الكفوي أنّ المتبادر إلى الذهن دخول أزواج النبي في الآل عند

الاطلاق ، ولكنّ النبي قيّد هذا الاطلاق بالخمس : هو وبضعته وسبطاه

وأئمة المؤمنين عليهم الصلاة والسلام ، وقد نظم في المعنى شعراً :

حقاً بنو هاشم آل الرسول فقط عند الإمام فكم في أمرهم عسسا

أمّا عليّ وابناه وفاطمة من أهل بيت عليهم كان لفّ كسا

لا منع من داخل في حقّ خارجة والنص لا يقتضي أن ليس منه نسا

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة أول .

(٢) تاج العروس ، مادة أول ، ٢١٦/٧ .

وهذا هو الحق، فقد جمع النبي هؤلاء الأربعة تحت كسائه وقال: هؤلاء أهل بيتي، ومن ثم نفى زيد بن أرقم أن يكون نساءه من أهل بيته كما تقدّم، حيث لم يحوّن الكساء، وقد ردّ النبي ﷺ أمّ سلمة عنه، ولكنه بشرها بالخير.

ويعجبني ما نقله الكفوي عن بعضهم حيث قال: الآل هم المختصّون بالقرب منه قرابة أو صحبة أو خلافة عنه في موارثه العلميّة والعملية والحاليّة، وهم ثلاث أصناف:

صنف منهم آل صورة ومعنى وهو خليفته والإمام القائم مقامه حقيقة .
وصنف منهم آله معنى لا صورة كسائر الأولياء الذين هم أهل الكشف والشهود .

وصنف منهم آل صورة طينية لا معنى، كمن صحّت نسبتها الطينية والعنصريّة إليه، وهذا الصنف هم السادات والشرفاء . وقد نظمت فيه :

من خصّ بالقرب مَنّ قد علا نسباً قرب القرابة كالسادات والشرفا
قرب الخلافة أو قرب مصاحبة كالأولياء ومن في العدل كالخلفاء^(١)

وحين نرجع إلى أخبار أهل البيت وهم أعلم بالبيت من سواهم، نراهم قد أوضحوا معاني هذه الألفاظ الشرعيّة، ورفعوا عنها اللبس والغموض، فالآل عند الإمام الصادق عليه السلام ليسوا من حرم الصدقة كما ذهب إلى ذلك الشافعيّ وغيره، بل هم الذين حرمت على النبيّ مناكحتهم ..

عن عبدالله بن ميسرة، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّنا نقول: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد، فيقول قوم: نحن آل محمّد .

فقال: إنّما آل محمّد من حرم الله عزّ وجلّ على محمّد نكاحه...^(٢)

وإذا صحّ هذا الحديث عن الإمام عليه السلام، يكون قد أفرد الإمام أمير المؤمنين عن الآل، حيث لم يحرم ذلك منه على النبيّ ﷺ، فقد زوّجه الصديقة ويباح له أن يتزوّج ابنته من غيرها.

وأظنّ - والله العالم - أنّ القوم الذين عناهم السائل هم العباسيون، والظاهر أنّ

(١) الكفوي، الكليات، ص ١٧١ و ١٧٠ .

(٢) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص ٩٣ و ٩٤ .

الإمام يفرق بين مدلول الآل ومدلول الأهل ، فقد أخرج الصدوق عليه السلام عن محمد بن سليمان المدني عن أبيه عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك ! من الآل ؟ قال : ذرّيّة محمد صلى الله عليه وآله . فقلت : ومن الأهل ؟ قال : الأئمة عليهم السلام . فقلت : قوله عزّ وجلّ : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ﴾ ؟ قال : والله ما عنى إلا ابنته ^(١) .

وهنا لابدّ من إبداء ملاحظتين :

الأولى : إذا كان الآل بناءً على تحديد معناه في من يحرم نكاحه كما ورد في الرواية الأولى ، فإنّ الصلاة على النبي وآله في التشهد وغيره لا تشمل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عليه ، وهذا لا يقول به أحد .

الملاحظة الثانية : إذا كان معنى ﴿ أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ﴾ هي ابنته ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كذاب آل فرعون ﴾ ؟ وفي رواية أخرى يلقي الإمام عليه السلام الضوء على معنى الكلمات : آل ، وأهل البيت ، والعترة ، والأئمة ، فيسأله أبو بصير : من آل محمد صلى الله عليه وآله ؟ قال : ذرّيّته .

فقلت : أهل بيته ؟

قال : الأئمة والأوصياء .

فقلت : من عترته ؟

قال : أصحاب العباء .

فقلت : من أمته ؟

قال : المؤمنون الذين صدّقوا بما جاء به من عند الله عزّ وجلّ المتمسكون بالثقلين اللذين أمروا بالتمسك بهما : كتاب الله عزّ وجلّ وعترته أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وهما الخليفتان على الأئمة بعده عليهم السلام ^(٢) . والذي يظهر لي - والله العالم - أنّ اللفظ المشترك أعني الآل قيّد النبي اطلاقه حين ضمّ الأربعة إليه ، وبسط عليهم رداءه وأشار إليهم بالحصص مشيراً إلى أنّهم هم

(١) معاني الأخبار ، ص ٩٤ .

(٢) معاني الأخبار ، ص ٩٤ .

أهل بيته دون سواهم .

«هؤلاء أهل بيتي» وإدخال أمير المؤمنين معهم ، إشعاراً من النبي أنّ الإطلاق ينسحب عليه أيضاً؛ سواء اتسع مفهوم اللفظ لذلك أو لا ، فإن استعمال النبي اللفظ في أمير المؤمنين وزوجته وابنه ، قرينة على شموله الإمام أيضاً ، ويكون لفظ الآل حقيقة شرعية بناءً على وجودها في هؤلاء الأربعة ومن ولدوا من المعصومين كلفظ الصلاة الموضوع لمطلق الدعاء ، ولكن الشارع نقله إلى كفيّاته الخاصّة .

ولا فرق لغة بين الآل والأهل ، لأنّ أصل الآل أهل أُبدلت الهاء همزة ، فصارت «أأل» توالى همزتان فأبدت الثانية الفاء ، فصار آل وتصغيره أويل وأهيل^(١) .

واختلف في الاستعمال أيضاً فلا يستعمل الآل إلاّ فيما فيه شرف غالباً ، فلا يقال : آل الإسكاف كما يقال : أهله ، وخصّ أيضاً بالإضافة إلى إعلام الناطقين دون النكرات والأزمنة والأمكنة ..^(٢)

لهذا قال النبي ﷺ : «هؤلاء أهل بيتي» لا آل بيتي ، وسيأتي في بحثه إنشاء

الله .

صرف اللفظ عن معناه

أرادت مراكز القوى يومذاك وهم المهاجرون من قريش أن يصرفوا الألفاظ الخاصّة بأهل بيت النبي عن معناها الصحيح إلى معانيّ متّسعة لتشمل أغراضهم أيضاً ، فمنها لفظ آل ، زعم قوم أنّهم بنو هاشم وبنو المطلب ؛ وهو مذهب الشافعي وموافقيه .

ولست أدري ما الذي جعله يتّسع لبني عبدالمطلب ويضيق عن بني عبد شمس وهم في رتبة واحدة ، اللهمّ إلاّ ليكون الشافعي من الآل ، وليس هذا مهمماً بالقياس إلى ما سلخوا من هذا الإدعاء من جعل مذهب الشافعي هو مذهب أهل البيت الذين أمر النبي الأمة بالإقتداء بهم .

يقول عبد الرحمن العتمي اليماني بعد كلام طويل : ... فالشافعي من آل

(١) راجع : جواهر العقدين ، ص ٢١٥ ؛ ومطالب السؤل ، ص ١٠ .

(٢) الزبيدي ، تاج العروس ، ٢١٦/٧ .

إبراهيم ، ثم من كنانة ، ثم من قريش ، ثم من بني المطلب ، الذين هم وبنو هاشم شيء واحد ، ثم ظهر في الإسلام أنهم الصق بالنبي ﷺ من بعض بني هاشم ، ثم فقه :

وهل ينبت الخطيئ إلا وشجّه وتفرس إلا في منابتها النخل

بل قد يقال : إن الله اختص رسوله ﷺ وعشيرته بخصائص كثيرة ، فلا يكاد يوجد لغيرهم فضيلة إلا ولهم من جنسها ما هو أفضل ، وهذه الأمة قد كادت تطبق على أتباع أربعة علماء فيهم رجل واحد من عشيرة النبي ﷺ ؛ فضيئة ما تقدم أن يكون أكمل من بقية الأربعة وقد ذكر بعضهم أن مذهب الشافعي هو مذهب أهل البيت لأنه من بني المطلب الذين كانوا وبنو هاشم شيئاً واحداً..^(١)

وهذه ملهاة تضحك وتبكي ، وهي تحدثنا عن ضلالة دين القوم ، وأنهم اعتبروا الدين ذا الأعيب كالسياسة التي أنبتتهم ، وأن قلب الموازين لصالح هذه السياسة أو تلك لا يكلف أكثر من أن يكون صاحبه صلفاً وقحاً لا يبالي بما يقول أو ما يقال له .

والشافعي هذا على احترامنا له ، ذهب بعضهم أنه لم يكن قرشياً بالنسب ، بل كان قرشياً بالولاء ، فهو مولى لهم وليس منهم ، لأن شافعاً جدّه كان مولى لأبي لهب ، فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش ، فامتنع ، فطلب من عثمان ذلك ففعل ، فعلى هذا التقدير يكون الشافعي من موالي قريش كما ذكر ذلك بعض المالكية والحنفية..^(٢)

وكما ذهب الشافعي إلى ذلك ، ذهب بعض المالكية إلى نحو منه ، وقال : أبو حنيفة ومالك هم بنو هاشم خاصة . قال القاضي : وقال بعض العلماء هم قريش كلها . وقال أصبغ المالكي : هم بنو قصي^(٣) .

ويدخل في هذا النسب الواسع كل من انتمى إلى قصي ، حتى الأمويون

(١) عبدالرحمن العتمي اليمني ، التنكيل بما في تأليف الكوثري من الأباطيل ، ص ٦٣١ .

(٢) الشيخ أسد حيدر ، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، ١٧٧/٢ .

(٣) النووي على مسلم ، ١٧٨/٧ .

وأضرابهم، بل زعم أشهب من أصحاب مالك أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب^(١).

وطال النزاع في المسألة، وتفرقت الأقوال بين أعلام المذاهب، والغاية واحدة، وهي: إبعاد أهل البيت عما أثبتته لهم رسول الله ﷺ من الفضل والحق المترتب على النسب الشريف^(٢).

وإذا صحَّ دخول بني أمية في الآل، فهم جميعاً من أهل الجنة، بدءاً بمعاوية ومروراً بأخيه! زياد وابنه يزيد ومروان وابنه وختاماً بالوليد بن يزيد رامي الصحف، فقد قال عمران بن حصين: قال رسول الله ﷺ: سألت ربي أن لا يدخل النار أحد من أهل بيتي، فأعطاني ذلك^(٣).

وكذلك عمدوا إلى كل لفظ خاص بأهل البيت فوسّعوا مفهومه ليضيع الغرض من إنشائه بدخول غيرهم فيه، وكما تصرّفوا بلفظ الآل تصرّفوا كذلك بذوي القربى. يقول الطبري: وأما قوله ﴿ولذي القربى﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيهم؛ فقال بعضهم: هم قرابة رسول الله ﷺ من بني هاشم.

عن مجاهد، قال: كان آل محمد ﷺ لا تحلّ لهم الصدقة، فجعل لهم خمس الخمس...

وعن ابن الديلمى قال: قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأنفال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسة وللرسول ولذوي القربى﴾؟ قال: نعم. قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم.

عن عطاء، عن ابن عباس أنّ نجده كتب إليه يسأله عن ذوي القربى، فكتب إليه كتاباً: نزعنا إنا نحن هم، فأبى علينا قومنا..^(٤)

والملاحظ على هذه الرواية أنّ عملية الهدم والعبث بالمفاهيم بدأت منذ زمن مبكر أي في بدأ خلافة قريش، واستمرت تفعل في المجتمع لتصادر ما ثبت

(١) هامش رشفة الصادي، ص ١٧.

(٢) ذكر محقق رشفة الصادي السيّد علي عاشور هذه الأقوال بالتفصيل، من ص ١٥ إلى ص ٢٠.

(٣) رشفة الصادي، ص ١٣٨، وانظر الهامش فقد عزاه إلى الفردوس، ٣١٠/٢، وفضل آل البيت للمقريزي، ص ٧٣، وقال: أخرجه الملا وكنز العمال، ٩٥/١٢.

(٤) الطبري، جامع البيان، ٥/١٠.

لأهل البيت كتاباً وسنةً من حقّ على الأمة وكرامة لهم .
وسُئل أنس عن معنى الآل ، فقال : كلّ تقِيٍّ (١) .

بل زاد بعضهم فوسّع مفهوم الآل ليشمل المسلمين أجمع : قيل لجعفر الصادق عليه السلام : إنّ الناس يقولون : إنّ المسلمين كلّهم آل النبيّ ، فقال : صدقوا وكذبوا . فقيل له : ما معنى ذلك ؟ فقال : كذب في أنّ الأمة كافة هم آلّه ، وصدقوا إذا قاموا بشرائط شريعته هم آلّه (٢) .

وكان الإمام عليه السلام عرف منهم أنّهم يقصدون بشمول الآل لهم الوضع اللغوي فكذبهم ثمّ أرشدهم إلى صحّة ذلك من وجه آخر وهو على نهج إنّ أولى بإبراهيم للذين اتّبعوه .

وفي رواية أخرى لابن عبّاس جواباً لنجده عن سؤال ذي القربى أنّه قال : قد كنّا نقول : إنّنا هم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا قريش كلّها ذوو قربى (٣) .

وحان الوقت الآن بعد أن وقفنا على جانب من سياسة القوم حول مفاهيم الشرع ومنها مفهوم أهل البيت ، أن نتعرّف على الجماعة الذين أطلق عليهم هذا اللفظ دون غيرهم : أخذ هذا اللفظ الشريف من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ﴿ إِنَّمَا يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّرهم تطهيرا ﴾ .

وإنّما وقعت هذه الآية عرضه لتعدّد الأقوال ، فلأنّها وردت جزءاً من آية كلّ ضمائرها نون النسوة ، وانفردت عنها بضمير الذكور المخاطبين ، كما أنّها توسّطت عدداً من الآيات تحمل كلّها الخطاب لنساء النبيّ ، ممّا حمل البعض على اعتبارها نازلة فيهنّ وإن اختلف الضمير ، ومن هؤلاء عكرمة ، وقبل الخوض في ذلك نبداً ببيان سبب النزول ..

روى أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة وأمّ سلمة وواثلة بن الأسقع أنّ الآية نزلت في النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، وأهل البيت نصب على النداء أو على المدح ، فروي عن أمّ سلمة أنّها قالت : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان

(١) تاج العروس ، ٢١٦/٧ .

(٢) الكفوي ، الكلّيات ، ص ١٧١ و ١٧٢ .

(٣) جامع البيان ، ٥/١٠ .

في بيتي فاستدعا علياً وفاطمة والحسن والحسين وجللهم بعباء خيبرية، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . فقالت أم سلمة: قلت: يا رسول الله! هل أنا من أهل بيتك؟ قال: لا ولكنتك إلى خير^(١).

وروى نزولها في أهل البيت الخمسة كل من مسلم في صحيحه، والترمذي في سننه، والنسائي في سننه، والخطيب في تاريخ بغداد، وابن عبد البر في الاستيعاب المطبوع بهامش الإصابة، وابن جرير الطبري في تفسيره من عدة طرق، والسيوطي في الدر المنثور، والمالكي في الفصول المهمة، والواحدي في أسباب النزول، والمحب الطبري في ذخائر العقبى، والبغوي في معالم التنزيل، والحاكم في المستدرک، والنيسابوري في ثمار القلوب، وابن حجر الهيتمي في شرح همزية البويصيري عند قوله:

وبأَم السبطين زوج عليّ وبنيتها ومن حوته العبا

وعبد القادر الرافعي في نيل المراد، وابن كثير في تفسيره، وذكر طرق نزولها في الخمسة فقط في خمسة عشر مورداً أحصاها باختصار شيخنا أسد حيدر تغمده الله برحمته، ونحن نذكرها عنه اتماماً للفائدة:

١ - حديث أبي الحمراء: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرَ جَاءَ إِلَى بَابِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ، وَقَالَ: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ، ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَهُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

٢ - حديث شداد بن عمّار، عن واثلة: قال ابن عمّار: إنني جالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشتموه، فلما قاموا، قال: اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه، كنت عند رسول الله ﷺ إذ جاء عليّ وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم، فألقى عليهم كساءه، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

(١) شيخ الطائفة الطوسي، التبيان، ٣٠٧/٨ و٣٠٨.

- ٣- حديث أبي رباح عمن حدّثه عن أم سلمة: أنّها نزلت في الخمسة .
- ٤- من طريق أبي هريرة عن أم سلمة أيضاً .
- ٥- عن حكيم بن سعد: ذكرنا عليّ بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَهُمُ تَطْهِيراً ﴾ .
- ٦- عن عطية عن أبيه عن أم سلمة .
- ٧- عن أبي سعيد عن أم سلمة .
- ٨- عن شهر بن حوشب عن أم سلمة .
- ٩- عن عمر بن أبي سلمة .
- ١٠- عن صفية بنت شيبة: قالت: قالت عائشة: خرج النبيّ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثمّ جاء الحسين فأدخله معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثمّ جاء عليّ فأدخله معه، ثمّ قال ﷺ: ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَهُمُ تَطْهِيراً ﴾ .
- ١١- وعن العوام بن حوشب عن ابن عمّ له: قال: دخلت مع أبي عليّ أمّ المؤمنين عائشة فسألته عن عليّ، فقالت: تسألني عن رجل كان أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت ابنته تحته، رأيت رسول الله ﷺ دعا عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً فألقى عليهم ثوباً، فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فدنوت منهم، فقلت: يا رسول الله! وأنا من أهل بيتك؟ قال: تنحّي إنك على خير .
- ١٢- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبيّ ﷺ أنّها نزلت في خمسة: فيّ وفي عليّ وفاطمة وحسن وحسين .
- ١٣- عن عامر بن سعد عن سعد: قال: إنّ النبيّ ﷺ حين نزلت عليه فأخذ عليّاً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثمّ قال: ربّي هؤلاء أهلي وأهل بيتي .
- ١٤- عن أبي جميلة عن الحسن بن عليّ رضي الله عنه .
- ١٥- عن السديّ عن أبي ديلم عن عليّ بن الحسين رضي الله عنه .
- وأخيراً قال الشيخ أسد حيدر: هذا ما ذكره ابن كثير في تفسيره سلكننا في نقله

طريق الإختصار واعتقد أن المنصف يكتبني بما ذكرنا ولا نحتاج إلى ذكر تفاصيل أخرى حول تخصيص نزول هذه الآية في أهل البيت خاصة فالأمر أجلى من الشمس^(١).

ولا ينبغي أن يكون مع هذا القول قول آخر، بعد الذي مرّ عليك من ثبوته ثبوتاً قطعياً في السنّة النبويّة التي تسالم الحفاظ على نقلها.

ولكننا نجد قوماً استبدّت بعقولهم الشبه فتركوا السنّة ومالوا مع الشبهة وزعموا أنّ الآية نزلت في الخمسة وفي أزواج النبيّ، وزعم بعضهم أنّ الآية عامّة فيمن تحرم عليهم الصدقة، مستدلين بما أخرجه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم: أنّ رسول الله ﷺ قال: أذكّرهم الله في أهل بيتي، فقيل لزيد: من أهل بيته؟ ليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن أهل بيته من حرمت عليهم الصدقة بعده: آل عليّ وآل جعفر وآل العباس^(٢).

وزعم بعضهم أنّ آل العباس أدخلوا فيهم في العصر العبّاسي وما كانوا من مصاديق الآية، ولكنّ الواقع عكس ذلك، فلو صحّ تفسير الآية فيمن تحرم عليهم الصدقة فإنهم داخلون حتماً، لأنّ الصدقة لا تحلّ لهم أيضاً، فقد أتى الفضل بن العبّاس وربيعه بن عبدالمطلب النبيّ ﷺ فتكلّم أحدهما، فقال: يا رسول الله ﷺ! أنت أبرّ الناس وأوصل الناس وقد بلغنا النكاح فجئنا لتؤمّرنا على بعض هذه الصدقات فنؤدّي إليك كما يؤدّي الناس، ونصيب كما يصيبون، فسكت طويلاً حتى أردنا أن نكلّمه، قال: وجعلت زينب تلمع إلينا من وراء الحجاب أن لا تكلمناه، قال: ثمّ قال: إنّ الصدقة لا تحلّ لآل محمّد إنّما هي أوساخ الناس، أدعولي محمّية - وكان على الخمس - ونوفل بن الحارث ابن عبدالمطلب. قال: فجاءه، فقال لمحمية: «أنكح هذا الغلام ابنتك» للفضل بن عبّاس، فأنكحه، وقال لنوفل بن الحارث: «أنكح هذا الغلام ابنتك» يعني ربيعة بن عبدالمطلب، وقال لمحمية: أصدق عنهما من الخمس كذا وكذا^(٣).

(١) الشيخ أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ١/٨٧ و٨٨، وراجع السمهودي، جواهر العقدين، ص ١٩٣ إلى آخره.

(٢) الحضرمي، رشفة الصادي، ص ٢٠.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٨/١٢.

يقول كمال الدين الشافعي : وإذا ظهر ما قيل في تفسير الآل ، فالمعاني كلها مجتمعة فيهم عليهم السلام ، فهم أهل بيته ، ويحرم عليهم الزكاة ، وهم دائنون بدينه ، ومتبعون منهاجه وسبيله ، فاطلاق اسم الآل عليهم حقيقة فهم بالاتفاق ^(١) .

ولو صحّ اطلاق الآل عليهم في أصل الوضع فإنه خصّص في الخمسة في الاستعمال ، وكان الكساء الذي بسطه النبيّ عليهم قرينة على عدم ارادة غيرهم ، ولذلك وردت الإشارة منه ﷺ بقوله : هؤلاء أهل بيتي ؛ أي لا غيرهم ، ونزلت الآية مؤيدة ذلك ومثبتة له ، حتى أن أشدّ الناس إنكاراً لفضل أهل البيت اعترف بذلك . يقول ابن تيمية :

«.... وسنّته ﷺ تفسّر كتاب الله وتبيّنه وتدلّ عليه وتعبّر عنه ، فلمّا قال : «هؤلاء أهل بيتي» مع أنّ سياق القرآن يدلّ على أنّ الخطاب مع أزواجه ، علمنا أنّ أزواجه وإن كنّ من أهل بيته ، كما دلّ عليه القرآن - فإنّ هؤلاء - أي الإمام عليّ والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين أحقّ بأن يكونوا أهل بيته ، لأنّ صلة النسب أقوى من صلة الصهر ، والعرب تطلق هذا البيان للإختصاص بالكمال ، لا للإختصاص بأصل الحكم...» ^(٢) .

وسئل مرّة أخرى عن دخول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في أهل البيت ، فقال : ممّا لا خلاف فيه بين المسلمين وهو أظهر عندهم من أن يحتاج إلى دليل ، بل هو أفضل أهل البيت وأفضل بني هاشم بعد النبيّ ﷺ وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه أداركساه على عليّ وفاطمة وحسن وحسين ، فقال : اللهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً ^(٣) .

ولا بدّ للمسلم العاقل أن يدع عن بعد الذي مرّ بثبوت نزول الآية في أهل البيت الخمسة دون غيرهم ، وأمّا أصحاب الأغراض والنواصب فإنّ اصرارهم على صرف الحقّ عن أهله ودفعهم عنه وتحريف الآيات النازلة فيهم والروايات الواردة بهم فلا يهتمون شيئاً ولا يعدلون عند الله جناح بعوضة فهذا عكرمة ومقاتل وعطاء ، كانوا

(١) مطالب السؤل ، ص ١٢ .

(٢) الدكتور محمد بيومي مهراّن ، الإمامة وأهل البيت ، ١٤/١ ، نقلًا عن «رسالة فضل أهل البيت وحقوقهم» لابن تيمية ، ص ٢٠ و٢١ ، ط ١٤٠٥ ، تعليق أبي تراب الظاهري .

(٣) أسد حيدر ، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، ٨٧/١ ، نقلًا عن الفتاوى لابن تيمية ، ٢٣٠/١ .

يزعمون أن أهل بيته نسائه لا غير.

وقد افترى عكرمة على ابن عباس أنه قال: نزلت في نساء النبي خاصة.

وقال: من شاء باهلهت إنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ.

وأجاب بن كثير عن هذا بقوله: فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون

غيرهن فصحيح وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر فإنه قد وردت

أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك^(١).

وقد مر عليك شطر مضيء من هذه الأحاديث تنفي قول عكرمة، وترد

العموم الذي أشار إليه ابن كثير، وتخصص النزول في الخمسة ﷺ، وحال عكرمة

معروف، فإنه خارجي من أتباع نجده الحروري، وموقف هؤلاء من الإمام علي

خاصة وأهل البيت عامة معروف.

.. فلو التزم بنزول الآية في أهل البيت بما فهم علي لكان عليه القول بعصمته

ولأهار على نفسه، أسس عقيدته التي سوّغت لهم الخروج عليه ومقاتلته وبررت

لهم - أعني الخوارج - قتله. وكما من مظاهر إصرار عكرمة وتبنيه لهذا الرأي أنه كان

ينادي به في السوق وكان يقول: من شاء باهلهت إنها نزلت في أزواج النبي ﷺ

والذي يبدو أن الرأي السائد على عهده كان على خلاف رأيه كما يشعر فحوى ردة

على غيره «ليس بالذي تذهبون إليه، إنما هو نساء النبي ﷺ»...^(٢)

وأما مقاتل فهو الكذاب المعروف:

قال وكيع: كان كذاباً.

وقال النسائي: كان مقاتل يكذب.

وقال البخاري: سكتوا عنه.

وقال الجوزجاني: كان دجالاً جسوراً.

وقال ابن حبان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق

كتبهم، وكان يشبهه الربّ بالمخلوقات، وكان يكذب في الحديث.

وقال أبو معاذ الفضل بن خالد المروزي: سمعت خارجة بن مصعب يقول:

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤٩١/٣ و٤٩٢.

(٢) سيدنا الحكيم، الفقه المقارن، ص ١٥٢ و١٥٣، نقلاً عن الواحدي في أسباب النزول، ص ٢٦٨.

لم أستحل دم يهودي ولو وجدت مقاتل بن سليمان خلوة لشققْتُ بطنه... (١)
ومن كان هذا شأنه في الكذب والدجل، كيف يصدّق على كتاب الله ولو أنّه
فسّر كلام شيخه ابلّيس لأتهمناه.

بعد ثبوت القيادة للمعصومين الذين عيّنتهم الآية بما لا يقبل الشكّ، صار
قول النبي ﷺ: «هؤلاء أهل بيتي» بمثابة قوله ﷺ: هؤلاء هم قادتكم وأيمتكم،
وإنّما كشف عن فحوى هذه الإشارة بذلك الموقف الذي وقفه في غدِير خَمّ،
وقرّنههم إلى كتاب الله فصار حكمهم حكمه، وصاروا هم علمائه، ومستنبطوا
أحكامه، وعلماء تأويله الراسخين في علمه، الذين لا يأتيهم الباطل، كما لا يأتيه،
ولا يجوز أن يعلوا عليهم أحد، كائناً من كان، ومثل هؤلاء لا يجوز أن يكونوا رعية
أحد من النَّاس؛ إذ ليس في المسلمین أحد إلاّ وهو تابع لهم، مأمّر بأمرهم، ولم تنط
بهم هذه المهمّة الصعبة لمحض التّسبب أو بسبب القرب من النبيّ وحده، وإلاّ
لتساوى في هذا الحكم أقربائه جميعاً من غير مرجّح، بل الأمر أبعد من ذلك، وربّما
أمكن ضبطه بملاحظة ما لهم من خصائص امتزجت في تكوينهم الخلقي والخلقي
فمنحتهم القدرة على القيادة طبقاً لموازن التاموس الشرعي الذي يحمله القرآن،
وهي مفقودة في غيرهم، ومنها المزاج الثوري الخاص ومعنى الخاصيّة هذه أن
يكون مع شدّته في الحقّ بمنأى عمّا يمازجه من خلق الظلم والسبعيّة في غيرهم.
وقد عبر إليهم هذا المزاج الثوريّ الخاص من جدّهم ﷺ بواسطة الزهراء
أمّهم، وبهذا يتجلّى لنا السبب الذي جعل النبيّ ﷺ يقرنها إلى مجموعة القيادة
التي ضمّها الكساء من كونها تحمل في ذاتها الفاضلة السرّ المستخفي من حقيقة
الوراثة الوراثة النبويّة المنتقلة إلى الأحفاد بواسطة هذا السرّ.

إنّ الوحدة النوريّة التي جمعت الأشباح الخمسة في بدء الخلق، ليست
للتشريف المجرّد عن الأسرار الإلهيّة في خلق الله سبحانه، وإنّما أتحدت في ذلك
الكون النوراني لتتحد صفاتها عندما يتمّ التعبير عن ذلك الإتحاد في عالم الأرض
تحت الكساء.

ولا يضرّ في وحدة التّور تفرق اتّحاد الصفات في عالم الصياغة الخلقيّة،

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال، ١٧٣/٤ و١٧٤ و١٧٥.

وتكون هذه الذوات المختلفة كالمصاييح التي تتوهج بشعلة واحدة ويصدر منها أثر واحد، وإن اختلفت الأشكال والأحجام أو كالشجرة التي ترجع أجزائها وإن تنوعت هيئاتها وتغايرت، إلى وحدة الجذر وبهذه الوحدة المصاحبة لسائر الأجزاء المتغايرة، أعطت الأغصان ثمرة واحدة في الشكل واللون والطعم والراحة.

إنّ النور الواحد الذي جمع الخمسة في بدء الوجود، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة في السنّة المعصومة، إنّما جمعها من أجل توحيد صفاتها عندما تنتقل من الجذر إلى ما تفرّق من الأجزاء، ولا بدّ حينئذٍ من نسغ ينقل هذه الخصائص بدقّة متناهية يتجلّى فيه إعجاز الخلق، وكان النبي ﷺ ذلك الجذر والصدّيقة ذلك النسغ حامل الخصائص إلى باقي فروع الشجرة حين امتزج بذلك العذب النмир أمير المؤمنين عليه السلام، وتكوّنت المجموعة القياديّة التي نيّطت بها أعباء الأمت والخلافة، ولا نعدم إشارة واضحة معبّرة عن هذه الشجرة في سيرة النبي الأعظم ﷺ.

عن هند بنت الجون: نزل رسول الله ﷺ على خيمة خالتها أمّ معبد، فقام من رقدته فدعا بماء فغسل يديه ثمّ تمضمض ومجّ في عوسجة إلى جانب الخيمة، فأصبحنا وهي كأعظم دوحه، وجاءت بثمر كأعظم ما يكون، بلون الورد، ورائحة العنبر، وطعم الشهد، ما أكل منها جائع إلّا شبع، ولا ظمئان إلّا روي، ولا سقيم إلّا بري، ولا أكل من ورقها بعير ولا شاة إلّا درّ لبنها، فكنا نسمّيها المباركة، وكان من البوادي من يستشفى بها ويتزوّد منها، حتّى أصبحنا ذات يوم وقد تساقط ثمرها، وأصفر ورقها، ففزعنا، فما راعنا إلّا نعي رسول الله ﷺ، ثمّ إنّها بعد ثلاثين سنة أصبحت ذات شوك من أسفلها إلى أعلاها، وتساقط ثمرها، وذهبت نضارتها، فما شعرنا إلّا بمقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فما أثمرت بعد ذلك اليوم، فكنا ننتفع بورقها، ثمّ أصبحنا وإذا بها قد نبع من ساقها دم عبيط، وقد ذبل ورقها، فبينما نحن فزعين مهمومين إذا أتاننا خبر مقتل الحسين عليه السلام، ويبست الشجرة على أثر ذلك^(١).

وليس بمستغرب أن تكون هذه الشجرة بمثابة الرمز إلى تلك المجموعة المباركة، التي انتمت إلى جذر واحد وضمّتها نور واحد، وقد سمّاها الله في محكم

كتابه ، وقال عنها : ﴿ أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ .

وكانت هذه الوحدة القيادية المتناسقة تحمل خصائص المزاج الثوري من أصلها الأول بواسطة الزهراء عليها السلام .

ولا جرم فإنّ ما يلوح من تفرد أبناء فاطمة عليها السلام بالثورة وانتسابها إليهم دون غيرهم من أهل البيت يعزى إلى ما ذكرناه من الأسباب .

إنّ أمانة النسغ حملت إلى الأحفاد خصائص الجذر الكريم ، فقد تحمّلت سيّدة النساء الصديقة الطاهرة عليها السلام من أبيها مزاجها الثوري ، الذي جابهت بها الخلافة القرشيّة ، فكان ذلك الموقف الصامد بحقّ منطلق ما تلاه من ثورات ..

ولا يخفى أنّ هذا المزاج الثوري نقيّ مجرّد عن الأهواء والبواعث الشخصية ، فقد تكوّن وجوده في صاحبه من نور تلكم الوحدة المخلوقة قبل خلق الأرض والسماء ، لذلك سلم من غوغائيّة الأهداف الباطلة ، أو الصغيرة النافهة ، وراح ينبض في هيكل النبوة المعصوم .

وتلقّى الأولاد والأحفاد من هذا المزاج حصصهم الثوريّة ، فلم يثر على الظلم غيرهم ، ومن ثار ممّن عداهم فقد ثار تحت شعار أخلاقهم واقتدى بأثارهم .

وليس من البعيد أن يكون هذا جانب من سرّ وجود الزهراء في منظومة القيادة المجموعة تحت الكساء ، نستشعر ذلك من جواب الإمام الصادق عليه السلام عن أهل البيت ، فقال : الأئمة الأوصياء ، ومن المعلوم أنّ الزهراء عليها السلام ليست من الأئمة ولا الأوصياء ولكنّها من أهل البيت ، فلها دور قيادي يلتئم ومكانتها الأنثويّة الفاضلة ، وهذا الدور ينحصر في توصيل الوراثة النبويّة بما فيها المزاج الثوريّ إلى الأوصياء من بعد النبيّ صلى الله عليه وآله .

من هنا اعتبر موقف الصديقة عليها السلام من سلطة الخلافة أوّل ثورة قامت من أهل البيت ضدّ التحكّم والانحراف ، فهي بحقّ الثورة الأمّ ، ولنصاحب هذه المسيرة الثوريّة المظفّرة في حديثنا القادم .

مصادرة المنصب ..

توفّي النبيّ صلى الله عليه وآله وصودر المنصب الإمامي من صاحبه ، بحجّة الوراثة ، وهي قضية ادّعتها قريش وممثّلوها ورمي بها الشيعة بعد ذلك .

فقد احتج محتج منهم على الأنصار بأنهم عشيرة محمد، ورفع شعار السلطنة بقوله: ليس تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وأولوا الأمر منهم، لنا بذلك الحجّة الظاهرة على من خالفنا، والسلطان المبين على من نازعنا، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ونحن أوليائه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لائم، أو متورط في هلكة، هذا منطلق عمر، ولا يقل عنه منطلق صاحبه أبي بكر، فقد قال: إن رسول الله ﷺ لمّا بعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخالقوه وشاقّوه وخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه، ولم يستوحشوا لكثرة عدوّهم فهم أول من عبد الله في الأرض، وهم أول من آمن برسول الله، وهم أوليائه وعترته، وأحقّ الناس بالأمر بعده، لا يمتازهم فيه إلا ظالم، وليس أحد بعد المهاجرين فضلاً وقدماً في الإسلام مثلكم... (١)

وحين بلغت الإمام هذه الأنباء، قال في جواب قريش: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

وفي كلمة أخرى، قال عليه السلام: إذا احتجّ عليهم المهاجرون بالقرب من رسول الله ﷺ كانت الحجّة لنا على المهاجرين بذلك قائمة، فإن فلجت حجّتهم كانت لنا دونهم وإلا فالأنصار على دعواهم (٢).

وغلب منطلق قريش وتذرعها بالوراثة الأنصار وتذرعهم بالنصرة والبذل على الدعوة وذلك لما كان عليه هؤلاء من الروح القبليّة وسلّموا قريش وامتدّت الأيدي تباع صاحبهم (٣) واستوى له الأمر واستوى على عرش الخلافة، وأوّل خطوة خطاها لتدشين حكمه، مصادرة نحلة الزهراء «فدك» والميراث، وسهم ذوي القربى، واعتبرت خلافته فلتة فتحت على الأمة أبواب الشرّ على مصاريعها، وطرأت عليها أحداث جسام لعبت شخصية الشيخ في وقوعها دوراً هاماً.. وعلينا الآن أن نلّم بهذه الشخصية الغريبة.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٨/٦ و٩.

(٢) نفسه، ٥/٦ و٤.

(٣) تجد تفصيل ذلك في كتب التاريخ والمناظرات وأخصّ كتاب السقيفة وفدك.

أبوبكر

لم يكن الشيخ من حيث البيت والأسرة في المقدمّة، بل كان بيته من بين بيوتات قريش في الحضيض الأوهد، كما أنّ البطن الذي انتمى إليه بنو تيم، هم أذل بيت في قريش. يقول فيهم الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود
وإنك لو رأيت عبيد تيم وتيماً قلت أيهما العبيد
وقال عمير بن الأهلب الضبي الذي قتل مع عائشة في حرب الجمل:
لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم ننصرف إلا ونحن رواء
أطعنا بني تيم لشقوة جدنا وما تيم إلا أعبد وإماء^(١)

وربما نسب إلى كبير بني تيم عبدالله بن جدعان مآثر كإطعام الطعام. وقيل: إن أمية بن أبي الصلت ذكر ذلك في شعره، ولكننا نعثر على شاعر معاصره نفى عنه كلّ خلّة حميدة. يقول خدّاش بن زهير:

ونبتت ذا الضرع بن جدعان سبني وآنني بذي الضرع بن جدعان عالم
أغرّك إن كانت لبطنك عكته وإنك ملقى بمكة ظالم
وترضى بأن يهدى لك العقل مصلحاً وتحنق أن يجنى عليك العظام
أبى لكم أنّ النفوس أدلة وأنّ القرى عن طارق الليل عاتم
وأنّ الحلوم لا حلوم وإنكم من الجهل طير تحته الماء دائم
ولولا رجال من عليّ أعزّة سرقتم ثياب البيت والبيت قائم
يقال لبني كنانة بنو عليّ..^(٢)

أمّا أبوه وأمه فلم يذكرنا بمأثرة تجعل لهما ذكراً في الخبر، بخاصّة أبو قحافة، أجل كان في الجاهليّة عضروماً لابن جدعان أي منادياً على السماط، ذكر ذلك جماعة منهم الكلبي في كتاب المثالب، وهو من علمائهم، فلو كان غنياً لصان

(١) مروج الذهب، ٢/٣٧٠.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٤٦.

أباه.. (١)

وبقي خاملاً منبوءاً في الإسلام، ليس له شأن يذكر، وهو من مسلمة الفتح، ومن عجب أن الوضاعين تجاهلوه فلم يرووا فيه حديثاً يجعله صديقاً، أو فاروقاً، أو ذا أنوار حتى بعد اعتلاء ابنه عرش الخلافة، وأظن أن لعدم رضاه بخلافة ابنه - كما روي ذلك عنه - دخلاً في الموضوع، وكأنه كبر عليه أن يتقدم بني هاشم على صغر حجمه، أو يسبق بظن تيم ببيوتات قريش وهم من هم، وكانوا لا يستحقون الهجو لخستهم.

قيل لفرزدق: وضعت كل قبيلة إلا تيماً؟ فقال: لم أجد حسباً فاضعه ولا بناءً فأهدمه (٢).

ولهوان هذا البطن من قريش هان رجاله أيضاً حتى من نبغ في الإسلام منهم. دخل قيس بن عاصم على النبي ﷺ فقال: إني وأدت اثني عشر بنتاً، فما أصنع؟ فقال: أعتق عن كل موءودة نسمة. فقال له أبو بكر رضي الله عنه!!! فما الذي حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالاً؟ قال: مخافة أن ينكحهنّ مثلك. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد الوبر (٣).

ولو كان قيس ظالماً لأبي بكر لزجره النبي ﷺ ولما تبسم في وجهه تعبيراً عن رضاه بما قال، وأنعم عليه بلقب السيادة، ولبتني أعرف الحالة التي اعترت صديق تيم بعدها، هل اصفرّ أو احمرّ أو بقي على صفته الأولى لعلمه بأن قيساً لم يفتر عليه، وكما هان على قيس فقد هان على رعيتيه، وهو حينذاك في وضع يتزلف فيه الناس إليه.

عن المغيرة بن شعبة قال: كنت جالساً عند أبي بكر إذ عرض عليه فرس له، فقال له رجل من الأنصار: إحملني عليها. فقال أبو بكر: لأن أحمل عليها غلاماً قد ركب الخيل على غرلته أحب إليّ من أن أحملك عليها. فقال له الأنصاري: أنا خير منك ومن أبيك. قال المغيرة: فغضبت لما قال ذلك لأبي بكر، فقمتم إليه فأخذت

(١) البياضي، الصراط المستقيم، ١٠٢/٣.

(٢) الراغب الإصفهاني، المحاضرات، ٣٩٠/١.

(٣) محاضرات الأدباء، ٣٢٦/١.

برأسه، فركبته، وسقط على أنفه.. فكأنما كان عزالي مزاده، فتوعدني الأنصار أن يستفيدوا مني، فبلغ ذلك أبا بكر، فقام فقال: أما بعد؛ فقد بلغني عن رجال منكم زعموا أنني مقيدهم من المغيرة، ووالله لأن أخرجهم من دارهم، أقرب إليهم من أن أقيدهم من وزعة الله الذي يزعون إليه..^(١)

وهنا يلزمنا سير منطق الشيخ، فقد رمى الغلام الأنصاري بثلاثة الأثافي حين سلب منه صفة الفروسية، وهي ترادف الرجولة عندهم، وكأنه لم يسمع قوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾، وقد اعتبرت العرب هذا من أذع الهجو.

ذكروا أن بني سليط بعثوا ربيّة لهم على فرس، فنام الربيّة ونفرت الفرس، فلم يدركيف أخذت وذهبت نازعةً إلى أوطانها، وجاء الجيش الذي كان يتوقعهم بنو سليط، فوجدوا الربيّة نائمةً، فجاوزوه إلى الحيّ فاكتسحوهم، فقال في ذلك جرير: لعمرى لقد نام السليطيّ نومة على حزة ما كان حرّ ينامها لقد نفرت من ريحهم أعوجيّة من الجرد لم يعرف سليطاً لجامها..^(٢) الأعوجيّة: منسوبة إلى أعوج، فرس لبني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت أمّه سبل نعني بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر وكان من أجود خيل العرب.. الخ.

وهجاهم جرير مرّة أخرى وما كان يتجاوز في هجائه جهلهم بالفروسية، وكفى به هجاءاً مخزياً، قال:

أسأل سليطاً إذا ما الحرب أفرعها ما شأن خيلكم تعساً هواديهما

لا يرفعون إلى داع أعنتها وفي جواشنها داء يجافيهما

يقول في صدور بني سليط انتفاخ من الجبن والفرع، فهم لا يثبتون على متون خيلهم، فذلك داءها الذي يجافيهما عن لزوم متون الخيل^(٣).

(١) أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني، ٨٤/١٦.

شرح ما جاء في الحكاية من غريب الألفاظ: قوله: غرلته - بضم الغين - يريد: ركبها في صفه واعتادها قبل أن يختن، والغرلة: القلفة، قوله: غرالي مزاده، يريد: أن أنفه انفجر بالدم كأنه في مزاده. قوله: والوزعة: جمع وازع وهو الذي يكف الناس عن الإقدام على الشر.

(٢) النقاظ، ٣٠/١.

(٣) النقاظ، ١٥/١ و١٦.

وبملاحظة ما تقدّم ندرك أنّ أبابكر هو الذي حمل الأنصاريّ على التناول حين سبّه أقذع السبّ، ثمّ ما دخل ابن شعبة بين المعتدي والمعتدى عليه، وما باله لم يطبّق مبدء القرآن فيجيب الأنصاريّ بمثل ما أجاب به أبابكر، وجزاء سيّئة سيّئة مثلها، هذا من جانب .

ومن جانب آخر أتضح من خلال الملاحظة لهذه الحكاية أنّ أبابكر كان يوزع الألقاب على بطانته، فقد سمّى المغيرة وزعة الله، كما سمّى خالد سيف الله، ثمّ رفعه الرافعون إلى النبيّ، وليس بعيداً أن يكون لقب فاروق وذو النورين من هباته السيّئة، أو هبات جهازه على أقلّ تقدير.

ومن عجيب أنّ الألقاب الفضفاضة لا تدور إلّا في فلك آل قحافة، فهو صدّيق وابنته صدّيقة، وأختها ذات النطاقين، وابن أختها أول مولود في الإسلام، وأمّها مشهود لها بالجنّة، وهكذا دواليك، وهذه ليست المرّة الأولى التي يتناول عليه رعيّته لا لحلمه ولكن لهوانه .

عن أبي برزة الأسلمي أنّه قال: كنّا عند أبي بكر الصّدّيق في عمله، فغضب على رجل من المسلمين فاشتدّ غضبه عليه جداً، فلمّا رأيت ذلك قلت: يا خليفنة رسول الله ﷺ، إضرب عنقه، فلمّا ذكرت القتل صرف عن ذلك الحديث أجمع إلى غير ذلك من النحو، فلمّا تفرّقنا أرسل إليّ بعد ذلك أبو بكر الصّدّيق، فقال: يا أبابرة! ما قلت؟ قال: ونسيت الذي قلت. قلت: ذكّرنيه. قال: أما تذكر ما قلت؟ قال: قلت: لا والله. قال: رأيت حين رأيتني غضبت على الرجل فقلت اضرب عنقه يا خليفنة رسول الله، أما تذكر ذلك، أو كنت فاعلاً ذاك؟ قال: قلت: نعم والله، والآن إن أمرتني فعلت. قال: ويحك أو ويلك! إنّ تلك والله ما هي لأحد بعد محمد ﷺ... (١)

وهذه الرواية تتحدّث عن شدّة غضب أبي بكر، وليس فيها ردّ فعل الرجل، ولكن جواب أبي بكر لأبي برزة يدلّ على أنّ الرّجل سبّه مسبّه أوجبت إثارة أبي برزة، واستأذن بضرب عنقه، وبضميمة رواية سابقه تقول: أغلظ رجل لأبي بكر

الصدّيق ، قال : فقال أبو برزة : ألا أضرب عنقه ...^(١) ندرك استهانة فرد من الرعيّة في راعيه وحاكمه .

والواقع أنّ الرّجل هان حتّى على وزيره وفاروقه .

عن سعيد بن جبّير قال : ذكر أبو بكر وعمر عند عبدالله بن عمر ، فقال رجل : كانا والله شمسي هذه الأمّة ونورها . فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال الرجل : أوليس قد اتلتفا ؟ قال ابن عمر : بل اختلفا لو كنتم تعلمون !! أشهد أنّي كنت عند أبي يوماً وقد أمرني أن أحبس النّاس عنه ، فاستأذن عليه عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقال عمر : دويبة سوء ، وهو خير من أبيه . فأوحشني ذلك منه ، فقلت : يا أبت ! عبدالرحمن خير من أبيه ؟! فقال : ومن ليس بخير من أبيه لا أمّ لك ، إنّذن لعبدالرحمن ، فدخل عليه ، فكلمه في الحطيئة الشاعر أن يرضى عنه ، وقد كان عمر حبسه في شيء قاله ، فقال عمر : إنّ في الحطيئة أوداً فدعني أقومه بطول حبسه ، فالجّ عليه عبدالرحمن ، وأبي عمر ، فخرج عبدالرحمن ، فأقبل عليّ أبي وقال : أفي غفلة أنت إلى يومك هذا عمّا كان من تقدّم أحيمق تيم عليّ^(٢) وظلمه لي . فقلت : لا علم لي بما كان من ذلك . قال : قال : يا بني ! فما عسيت أن تعلم ؟ فقلت : والله لهو أحبّ إلى النّاس من ضياء أبصارهم . قال : إنّ ذلك لكذلك على رغم أبيك وسخطه . فقلت : يا أبت ! أفلا تجلّي عن فعله بموقف في النّاس تبين ذلك لهم ؟ قال : وكيف لي بذلك مع ما ذكرت أنّه أحبّ إلى النّاس من ضياء أبصارهم ! إذن يرضخ رأس أبيك بالجنّدل .

قال ابن عمر : ثمّ تجاسر والله فجسر ، فما وارت الجمعة حتّى قام خطيباً في النّاس ، فقال : أيّها النّاس ! إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقي الله شرّها ، فمن دعاكم إلى مثلها فاقتلوه ...^(٣)

وهذه القصّة تحكي لنا واقع العلاقة بين هذا الثنائي العجيب ، وكان الشيخ يعرف ذلك من نفسه ويدرك أنّه لا يعدل أحداً ممّن وزن به وأنّ الظرف الخاصّ قدّمه بلا سابقة في علم أو دين . وقيل : إنّّه قال حين أرادوه على البيعة : علام تبايعوني

(١) نفسه ، ٩/١ .

(٢) إذا كان حقّاً هذا رأيه في أبي بكر فلا بدع أن تشير إليه إصبع الإتهام بأنّه سمّه فقد مات أبو بكر وعتاب بن أسيد في يوم واحد ، فكان يقال : إنهما سماً . [أنساب الأشراف ، ١٠/٧٤]

(٣) شرح نهج البلاغة ، ٢٨/٢ و ٢٩ .

ولست بأقواكم ولا أتفاكم؟ أقواكم عمر وأتفاكم سالم^(١).

وسالم هذا هو مولى حذيفة بن اليمان الذي تمنى عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤة أن يكون حياً ليوليه الخلافة، وإذا صحَّ هذا القول منهما فقد كذبا أنفسهما بأنفسهما، لأنَّ ذلك يعني على قولهما الذي تذرَّعا به لنيل الخلافة وهو «الأيمَّة من قريش» فسالم لم يكن قريشياً، ولا مولىً لقريش، حتَّى يقال: مولى القوم منهم.

وهذا القول الذي نسبه الراغب إلى أبي بكر يثبت زهده بالخلافة، وكأنَّه لم يقف في السقيفة يلاطم عليها، والنبِّي لم يجهَّز بعد، ولست أدري من الذي ألجأه على قبولها فتحملها بحكم الإضطرار، ولو كان الأمر كذلك لما ندم في السياق، ولما قال: وددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد رجلين: عمر أو أبي عبيدة؛ فكان أميراً وكنت وزيراً^(٢).

وكان الخليفة من حسن حظِّ الأيمَّة يعرف قدر نفسه، فقد تمنى ذات يوم قائلاً: وددت أني خضرة تأكلها الدواب^(٣)، بل تضاءل إلى مستوى الشعرة في صدر مؤمن، فقد قال ذات يوم: وددت أني شعرة في صدر مؤمن^(٤).

ومثلما تمنى هو تمنى وزيره ووليَّ عهده عمر حين أحسَّ بدنوَّ أجله من الطعنة، فقد أخذ بنبتة من الأرض، فقال: يا ليتني هذه النبتة، ليتني لم أك شيئاً، ليت أمِّي لم تلدني، ليتني كنت نسياً منسياً..^(٥)

ولقائل أن يقول: إنَّ هذا القول تواضع منهما لله سبحانه، فأجدر به أن يكون مدحاً لا قدحاً.

وأقول له: لا يصحَّ ذلك حتَّى يصحَّ قول الكافر: ﴿يا ليتني كنتُ تراباً﴾.

ولم يكن أبو بكر حائزاً على صفة في شكله أو محتواه ترفعه إلى أهليَّة القيادة بله قيادة أمة ناهضة فتية كالأمة الإسلاميَّة، وما حازه من نجاح مرده إلى قوَّة الدفع

(١) محاضرات الأدباء، ١/٣٤٩.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ٢/٤٦ و٤٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/١٩٨؛ وأنساب الأشراف، ١٠/٨٤.

(٤) ابن الجوزي، التبصرة، ٢/٢٢٢.

(٥) مختصر تاريخ دمشق، ١٨/٣٣٦.

للدين الجديد ، وما تركه من أثر فعّال في نفوس معتنقيه ، ولنبداً بالشكل وإن لم يكن صفة ضرورية للقيادة ...

... روى الواقدي وغيره : أنّ عائشة رأت رجلاً من العرب ؛ خفيف العارضين ، معروف الخدين ، غائر العينين ، أجناً - ميل الظهر - لا يمسك إزاره ، فقالت : ما رأيت أشبه بأبي من هذا^(١) .

دع ذا ، وهلم إلى العلم وهي من أكثر صفات القيادة لزوماً للقائد بخاصة إذا كان دستور القرآن فقد كان لا يعلم حرفاً من هذا الدستور .

عن ابن أبي مليكة قال : سُئل أبو بكر الصديق عن تفسير حرف من القرآن ، فقال : .. أيّ سماء تظّلني وأيّ أرض تقلّني ! وأين أذهب وكيف أصنع ! إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى ..^(٢)

وأما الشجاعة فلم يعرف بها مطلقاً ، وقد نكص على عقبيه في المواقف كلّها ، وكان في هجرته مع النبيّ يكاد يطير فؤاده هلعاً ، وقد بشره النبيّ بالنجاة والخلاص من قريش بسلام ، ولكنّه ظلّ يتقلّب في حزنه وقد رسمت له الآية صورة طبق الأصل ، وكادت تكون هجرته خزيّاً عليه ، ولذلك لم تجدهم يهتمّون بفضيلة الهجرة ولو سلمت من المنغصات التي ذكرتها الآية لأقاموا من الحبّة قبة للصديق ، من هنا تجدهم يعرضون عن الآية ويصفون له مناقب من كيس أبي هريرة وغيره من أجهزة الوضع .

وأما في حرب بدر ، فلم يكن من رأيه القتال خوفاً على نفسه من أتوك الحرب ، ولسان حاله يقول :

إِنَّ الْبِرَازَ إِلَى الْأَعْدَاءِ أَعْرَفَهُ مِمَّا يَفْرَقُ بَيْنَ الرَّأْسِ وَالْجِسَدِ

وكان وصاحبه كارهين للقتال ، مائلين إلى الدعة والراحة حتّى بكتهما الله في كتابه العزيز ، فقال : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحقّ وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾^(٣) ...

(١) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٦٨/١٣ ؛ وراجع البلاذري ، أنساب الأشراف ، ٥٧/١٠ و ٧٥ .

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٣٤/١ .

(٣) الأنفال : ٥ .

إنّ الذين كرهوا القتال اثنان ومن تبعهما، وهما: أبو بكر، وصاحبه عمر، والآية الكريمة تذكر موقفهما في معرض الذمّ، وكفى بموقفٍ سقوطاً أن يذمه الله تعالى، ولكن المؤرّخين والرواة وشيعة الرجلين وصفا هذا الموقف المذموم بالحسن، وعليك أن تقرأ أي الكتاب لتعرف صلته بالحسن .
 وهل يبقى حسن مع قوله تعالى: ﴿ مجادلونك في الحق كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ (١).

هذا مع ما وعد الله نبيه من النصر على قريش بقوله تعالى: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم وتوّدون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ (٢).

ومن البديهي أنّ سرّ إحجامهما لا يحتاج إلى كشف فهو واضح في وعده بالظفر وعدمه بالنجاة من القتل فخشياً أن تدور الدائرة عليهما وهما أحرص الناس على حياة .

ذكر المؤرّخون أنّ المسلمين حين نديهم النبي ﷺ للحرب انقسموا إلى طائفتين، خفت طائفة وتناقلت أخرى، واعتذر ابن هشام عن الثانية قائلاً: وذلك أنّهم لم يظنّوا أنّ رسول الله يلقي حرباً... (٣)

ويدفع عذر ابن هشام مشاوره النبي أصحابه بعد إقبال أبي سفيان بالعبير، قائلاً: أشيروا عليّ إذ لم يبق إلّا الحرب بعد فوات القافلة، أو العودة من حيث أتوا .
 وعمد المؤرّخون والرواة إلى ستر موقف الرجلين المخزيّ بغشاء شفاف، لا يستر العورة، وذكروا أنّ النبي ﷺ استشار أصحابه وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثمّ قام عمر بن الخطّاب فقال وأحسن، ثمّ قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله! امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون... فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك

(١) الأنفال: ٦.

(٢) الأنفال: ٧.

(٣) سيرة ابن هشام، ٦٠٧/٢.

الغماد لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ^(١) . ولو كان قول الرجلين حسناً لسارع المؤرخون إلى ذكره كما ذكروا قول المقداد ، ولكن ستره يدل على عواره .

والباطل يحيل عقل صاحبه إلى عقل طفل غير مميز ، فقد أراد شيعة صديق تيم أن يبالغوا في ستر قول صاحبهم فنسبوا له أقوالاً أجاب بها النبي ﷺ تردّها قرائن الحال .

ذكر السيوطي في الدر المنثور أنّ النبي ﷺ لما قال : أشيروا علينا في أمرنا ومسيرنا ، أجابه أبو بكر قائلاً : يا رسول الله ! أنا أعلم الناس بمسافة الأرض ، أخبرنا عدي بن أبي الزغباء أنّ العير كانت بوادي كذا وكذا ، فكأنّا وإياهم فرسا رهان إلى بدر ^(٢) .

أقول : أكان رسول الله بحاجة إلى من يذرع له المسافة ويمسح له الأرض ويرسم له خارطة المكان ؟ فما الحاجة إلى قول أبي بكر لو طلبه النبي ﷺ ، وهذا جبرئيل يخبره بالدقة التي تقيس حتى الشعرة عن موضع أبي سفيان ...
عن جابر بن عبد الله : أنّ أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبرئيل النبي ﷺ فقال : إنّ أبا سفيان في مكان كذا ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : إنّ أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فاخرجوا إليه واكتموا... ^(٣)

أكان أبو بكر أعلم من جبرئيل بمساحة الأرض ؟ والواقع أنّ القوم بذلوا جهداً جبّاراً في صقل الرجلين لتبدو لهما صورة حسنة في تاريخ الإسلام ، ولكن واقعهما فرض نفسه رغماً على أنف الحبّ الأعمى والعصبية .
ومهما فعل الأشياع والأتباع فما هي صورتها الحقيقية تقفر بين يدي المشاهد :

أخرج ابن كثير عن أنس بن مالك : أنّ رسول الله ﷺ شاور حين بلغه اقبال أبي سفيان ، قال : فتكلّم أبو بكر ، فأعرض عنه ، ثمّ تكلم عمر ، فأعرض عنه ، فقال

(١) البداية والنهاية ، ٢٦٢/٣ ، وأخرجه البخاري في صحيحه ، ٩٣/٥ .

(٢) الدر المنثور ، ١٦٦/٣ .

(٣) الطبري ، جامع البيان ، ١٤٦/٩ .

سعد بن عباد: إيانا يريد... (١)

أكان رسول الله ﷺ يعرض عنهما لو أنهما أحسنا؟ كلا والله، بل أعرض النبي عن قولهما المتهاك المتداعي الزاهد في الجهاد، المعبر عن الجبن والخور. وأين هذا الموقف من موقف المقداد الذي تمناه جميع المسلمين وغبطوا المقداد عليه.

يقول طارق بن شهاب: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ ممّا عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه.

قال ابن كثير: تفرد به البخاري.. (٢)

ولكي تزداد معرفة بقول الرجلين، وتعرف الإحسان في القول الذي حدّثنا عنه المؤرّخون، وتعرف صدق الألقاب عليهما، استمع إلى قول أبي أيوب: قال لنا: ما ترون في القوم فإنهم قد أخرجوا بمخرجكم؟ فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكننا أردنا العير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك... (٣) هذه هي صيغة احسان الرجلين الصحيحة تكوص على الأعقاب ونكول عن الحرب وطمع في العاجلة.

وفي حرب أحد: هرب الشيخ لا يلوي على أحد، وانهزم مع المنهزمين مخلفاً رسول الله في ساحة القتال تتدافع قوى الشرك لتنال منه مقتلاً، وقد صانه الله بعليّ عليه السلام وبضعة مجاهدين يذبون عنه، ولكن المؤرّخين وشيعته من الرواة أبى لهم الحبّ إلا عمى، إلا تسجيل موقف له في الشجادة فأفرغوا عليه دروع عنتر كما يقول الجواهري عليه السلام.

قال الواقدي: شهد أبو بكر بداراً وأحداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسول

(١) البداية والنهاية، ٢٦٣/٣.

(٢) البداية والنهاية، ٢٦٢/٣؛ وانظر الجامع الصحيح لبخاري، ٩٣/٥.

(٣) البداية والنهاية، ٢٦٣/٣.

الله ﷻ، ودفِع إليه سول الله ﷺ رايته العظمى يوم تبوك، وكانت سوداء، وأطعمه بخبير مائة وسق، وكان فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين ولى الناس (١).

يقول سيّدنا الصدر: وهو الذي فرّ يوم أحد كما فرّ الفاروق، ولم يبايع رسول الله ﷺ على الموت في تلك الساعة الرهيبة التي قلّ فيها الناصر، وتضعضت راية السماء، وبايع رسول الله ﷺ على الشهادة ثمانية: ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار، ولم يكن هو واحداً منهم، كما صرّح بذلك أرباب التاريخ، بل لم يرو له رواية المسلمين جميعاً قتالاً في ذلك الموقف مهما يكن لونه، وإذن فلماذا وقف مع الثابتين إن كان لم يفرّ؟ أليم يكن القتال واجباً مادام المدافعون لم يبلغوا العدد المطلوب لمقابلة العدو الذي أصاب النبي ﷺ بعد إصابات اضطرتّه إلى الصّلاة جالساً (٢).

ويدي سيّدنا العظيم هذه الملاحظة الواعية: ثمّ حدّثني عن حياة الصّدق (رضي الله تعالى عنه) أيام رسول الله ﷺ فهل تجد فيها إلاّ تخاذلاً وضعفاً في الحياة المبدئية والحياة العسكريّة يظهر تارة في التجائه إلى العريش وأخرى في فراره يوم أحد وهزيمته في غزوة حنين وتلكته عن الواجب حين أمره رسول الله ﷺ بالخروج تحت راية أسامة للغزو، ومرة أخرى في هزيمته يوم خيبر حينما بعثه رسول الله ﷺ لاحتلال الوكر اليهودي على رأس جيش فرجع فاراً، ثمّ أرسل الفاروق رضي الله عنه وإذا به من طراز صاحبه (٣).

وهزيمته يوم حنين أشدّ هؤلاء منها يوم أحد، فقد عان المسلمون أي أصحابهم بعينه حين رأى جيشهم الضارب، وقال: لن تغلب اليوم من قلّة، وإذا به في الرعيل الأوّل من المنهزمين، وقد أنزل الله سبحانه في ذلك قرآناً يتلى ولم يصرّح باسمه ولكنّ الصفات المذكورة في الآية كانت صفاته: ﴿يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ الآية.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٠/٦٧.

(٢) فذك، ص ١٠٠ و ١٠١.

(٣) سيّدنا الصدر، فذك، ص ١٠٢ و ١٠٣.

ويوم خيبر رجع مهزوماً بالراية كما هو مسطور عند أرباب التاريخ، وقد حفظته بطون الكتب يجين أصحابه ويجبونه، ومثله فعل صاحبه، وما أحسن قول ابن أبي الحديد فيهما:

وما أنس لا أنس اللذين تقدما وفرهما والفرقد علما حوب
عذرتكما أن الحمام مبعّض وإن بقاء النفس للنفس مطلوب
ليكره طعم الموت والموت طالب فكيف يلذ الموت والموت مطلوب

وبعد فهذا جرد سريع لشخصية أبي بكر في الجاهلية والإسلام، وبقي علينا أن نتعرف على مزاجه العامل الذي حكم به المسلمين فترة من الزمن لا تقل عن العامين يضاف إليهما بضعة أشهر ذاق المسلمين منهما الأمرين، ولولا بهجة الفتوح لكانت فترة حكمه من أفسى الفترات على الأمة.

مزاج أبي بكر العام

يمثل هذا المزاج خير تمثيل قول أبي بكر: إن لي شيطاناً يعتريني فإن استقمتم فأعينوني وإن زغت فقوموني... وهذا القول ثابت عنه مشهور، وذهبوا مذاهب في تأويله:

منها قولهم: قد أخبر الله أن الشيطان أزل آدم وحواء ولم يلزمهما بذلك نقص. فأجابهم البياضي: أزلهما عن مندوب فلا يستويان بمن أخبر عن نفسه باجراء عادته باغراء الشيطان له وطاعته.

إن قيل: لو كان أمرهما مندوباً لم يقصد الشيطان إلى صرفهما عنه لعدم العصيان فيه.

قلنا ومن أين علم الشيطان وجوبه ليس إلا من ظاهر النهي ولا يدل عليه.

إن قيل: قال أبو بكر ذلك على سبيل الاشفاق من الشيطان لا أنه واقع.

قلنا: لو كان كذلك لقال إني لا آمن من كذا وإني لمشفق من كذا..^(١)

والواقع أن هذا الشيطان هو الذي يؤلف مزاجه العام وقد سمته الرواية عن ابن

عبّاس: حدة وغضب.

عن عيسى بن طلحة، قال: قيل لابن عباس: أخبرنا عن أبي بكر، فقال: كان والله خيراً كله على حدة كانت فيه وشده غضب.. (١)

وقال سيدنا الشريف المرتضى ردّاً على من اعتذر عن الشيخ في قوله عن شيطانه: أمّا قول أبي بكر: وليتكم ولست بخيركم، فإن استقممت فأتبعني، وإن اعوججت فقوموني فإن لي شيطاناً يعتريني عند غضبي، فإذا رأيتموني مغضباً فاجتنبوني لا أوثر في اشعاركم وابشاركم... فإنه يدل على أنه لا يصلح للإمامة من وجهين:

أحدهما أنّ هذا صفة من ليس بمعصوم، ولا يأمن الغلط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيته له إذا وقع في المعصية وقد بيّنا أنّ الإمام لا بدّ أن يكون معصوماً مسدّداً.

والوجه الآخر أنّ هذه صفة من لا يملك نفسه ولا يضبط غضبه ومن هو في غاية الطيش والحدة والخرق والعجلة، ولا خلاف أنّ الإمام يجب أن يكون منزهاً عن هذه الأوصاف غير حاصل عليها... (٢)

وذكر ابن أبي الحديد أنّ قول أبي بكر عن شيطانه ورد في إحدى خطبتيه اللتين ذكرهما محمد بن جرير الطبري في كتاب «التاريخ الكبير»، وذكر الخطبتين وفي الثانية شيطان أبي بكر (٣).

وأخيراً قال ابن أبي الحديد معقّباً على ذلك: وأراد بالشيطان الغضب ولم يرد أنّ له شيطاناً من مردة الجنّ يعتره إذا غضب ولو كان له شيطان من الجنّ يعتاده وينوبه لكان في عداد المصروعين من المجانين وما ادّعى أحد على أبي بكر هذا؛ لا من أوليائه ولا من أعدائه... (٤)

ولقد طبع بطابع الحدة والغضب وكان ذلك من سماته التي كوّن مزاجه العصبي.

يقول العقّاد: فمن جملة الملامح والسمات التي وصف بها يتبين لنا أنّه كان

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٧٠/١٠.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ١٥٦/١٧.

(٣) نفسه، ص ١٥٩.

(٤) نفسه، ص ١٦١، بتصرّف.

من أصحاب المزاج العصبي الناشئين في وراثة كريمة^(١).

وقد عرفت حديث الوراثة الكريمة من أبيه العضروط، ومن اسلامه، فقد أسلم يوم الفتح، جاء به ابنه أبو بكر إلى النبي ﷺ وهو شيخ كبير، رأسه كالثفامة البيضاء، فأسلم، فقال رسول الله ﷺ: غَيَّرُوا شَبِيهَتَهُ...^(٢)

فهل ترى تحت هذا الهيكل وراثة كريمة؟! ولا ريب أن الوراثة بالنسبة له هي ذلك الشيء الذي تنائر من ثغامته البيضاء.

وهاهما الأب والولد بقرآن بنوع وراثتهما:

عن أبي هريرة، قال: حجَّ أبو بكر ومعه أبو سفيان بن حرب، فكلم أبو سفيان فرجع صوته، فقال أبو قحافة: اخفض صوتك يا أبا بكر عن ابن حرب. فقال أبو بكر: يا أبا قحافة! إن الله بنى بالإسلام بيوتاً كانت غير مبنية، وهدم بيوتاً كانت في الجاهلية مبنية، وبيت أبي سفيان مما هدم^(٣).

فهو يعترف بقلّة شأن بيته حتّى كأنه لم يكن موجوداً، وإذا لم يكن بيت في البيوت فأين تنبت الوراثة الكريمة التي اكتشفها العقاد فكانت كجاذبية الأرض التي اكتشفها «نيوتن».

ويقول أيضاً: وقد عرف الصديق بالحدّة، وهي أيضاً من خلائق هذا المزاج التي يغالبها من يحرصون على وقارهم ومروئتهم أن يستهدفاً لجرائر الحدّة أو يندفعا في عمل غير حميد^(٤).

ويعد هذا البند الشاعر الطريف راح يعتذر عن صاحبه بما وسعه من العذر، واستعرض بعض افرازات هذا المزاج وهو حرق الفجاءة واعتذر عن ذلك بأنّ الفجاءة مسّه في أحصّ خصائصه.

أقول: قرأت هذا وقد اكتصّ دماغى بمئاسي الحروب المسمّاة بالردة والتي

(١) عبقرية الصديق، ص ٢١٥ و ٢١٦.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ١/١٥٥.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ١٠/٧٩.

(٤) عبقرية الصديق، ص ٢١٧.

هي من نتائج هذا المزاج أيضاً، وإذا بها هول أسود يخيم على دين الإسلام ويطلع خلافة الصحابي الغضوب الحادة المزاجي بطابع الدم القاني، وإليك نبذة قصيرة منها:

تلبس الشيخ المستخلف وقد مرّ على حكمه أيام عشر فقط غضب حين أتته الأبناء تقول: إن قبائل العرب تقول: لا نبايع أبا الفصيل أبداً^(١).

وهذا غاية في الإستخفاف به، وهنا تعتبر الردة عن البيعة لا عن الإسلام، فقد ورد نصّ يقول: فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى بايعوه فجاء بإسلامهم^(٢).

وينبغي أن يدرك المرء أنّ بيعة أبي بكر صارت مرادفة للإسلام، ونفس القول السابق لطبيء رددته قبيلتنا أسد وفزارة: لا والله لا نبايع أبا الفصيل أبداً، فتقول لهم خيل طيء: أشهد ليقاتلتكم حتى تكتوه الفحل الأكبر^(٣).

ولعلّ حوار عمر مع نفر من قريش يكشف جانباً من اسباب هذه المأساة المرّوعة:

أقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو، فمرّ بحلقة وهم في شيء من الذي سمعوا من عمرو في تلك الحلقة: عثمان وعليّ وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد، فلما دنى عمر منهم سكتوا، فقال: فيم أنتم؟ فلم يجيبوه. فقال: ما أعلمني بالذي خلوتم عليه! فغضب طلحة وقال: تالله يابن الخطاب لتخبرنا بالغيب! قال: لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن أظنّ قلت: ما أخوفنا على قريش من العرب، وأخلفهم أن لا يقرّوا بهذا الأمر. قالوا: صدقت، قال: فلا تخافوا هذه المنزلة، أنا والله منكم على العرب أخوف منّي من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش حجراً لدخلته العرب في آثاركم، فاتّقوا الله فيهم...^(٤)

إذن، فالحرب قائمة لأنّ سلطان قريش مهّد، فما هي بردة عن الإسلام بل عن أبي بكر، يتجلّى لنا ذلك أكثر، في قول بني عامر بن صعصعة لصاحبهم قرّة بن هبيرة القشيري حين راح ينعى عليهم زلّاتهم ويحصي ذنوبهم ويحدّزهم من خالد بن

(١) الطبري، ٢٥٣/٣.

(٢) نفسه، ص ٢٥٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٥/٣.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٩/٣؛ الكامل، ٢٣٨/٢.

الوليد وفتكه ، فأبى قومه أن يطيعوه ، ثم قالوا : لا نعطي الدنيّة في ديننا أبداً ، ونحن أحقّ بالخلافة من ابن أبي قحافة .. (١)

تجلّت الحقيقة في هذا القول لطالبيها ، أنّ القوم ارتدّوا عن بيعة الفلتات ، وأبوا أن يمدّوا يداً لشخص ليس بأفضل من غيره فيقدّم لفضله ، واعتبروا بيعته قضية تمسّ الدين «لا نعطي الدنيّة في ديننا» ، وكلّما توغّل الباحث في حروب ما يسمّى بالردة يتجلّى له السرّ الذي أوقد الحرب العوان مخبوءاً في كلمات ، وظلّ طيّ الكتمان تتلظّى به تلكم الكلمات ، فكأنّها صويّ في طريق مضلّة وضعت دلالات على الطريق .

وتقول الرواية : إنّ خالداً أوقع بيني عامر واستأصلهم ، ثمّ تختمّ القول بكلمة تحمل السرّ وهي : «ولمّا فرغ خالد من بيعة بني عامر...» (٢)

تبيّن لنا من هذه الكلمة أنّ الحرب على البيعة لأبي بكر لا على الإسلام .. وزعم المؤرّخون أنّ المرتدّين منعو الزكاة ، فنارت نائرة الشيخ وقال كلمته المشهورة : لو منعوني عقال بعير لقاتلهم عليه .

وأراد الشيخ الهاجج ، أن يلبس الموقف لباس الشرعيّة فاستفتى أصحاب رسول الله فأفتوه بجواز قبول الصلاة دون الزكاة فيخالفهم (٣) .

وكره أصحاب رسول الله وقال عمر : كيف نقاتل النّاس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها عصموا منّي دمايّهم وأموالهم (٤) .

وقال أصحاب رسول الله ﷺ : أهل القبلة ، فتقلّد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدءاً من الخروج على أثره ... (٥)

وبناءً على هذا ، فإنّ المزاج العصبي لأبي بكر هو الذي سيّر دفة الحرب ، وإنّما هاج مزاجه وماجت شحنائه ، فلائهم استخفّوا به ولم يبايعوه ، لذلك أجمعت

(١) الفتوح ، ١٩/١ .

(٢) تاريخ الخميس ، ٢٠٨/٢ .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٤/٤ .

(٤) الدياربكري ، تاريخ الخميس ، ٢٢٤/٢ .

(٥) تاريخ الخميس ، ٢٢٤/٢ .

كلمة الشيخ على التنكيل بهم واستئصالهم، فأوضى خالد: فَإِيَّاكَ والإبقاء عليهم، أجهز على جريحهم، واطلب مدبرهم، واحمل أسيرهم على السيف، وهول فيهم القتل، وأحرقهم بالنار، وإِيَّاكَ أن تخالف عن أمري.. (١)

ورجاه عمر أن يرحمهم ويتألفهم، فقال له قولاً شديداً يدل على ثوره الأعصاب: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك جبّاراً في الجاهليّة خوّاراً في الإسلام، بمّ عسيبت أن أتألفهم؟ بشعر مفتعل أم بسحر مفتري؟ هيهات هيهات، مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وانقطع الوحي، والله لأجاهدّهم ما استمسك السيف في يدي، ولو منعوني عقلاً (٢).

وإذا أردت أن تعرف أثر أعصاب أبي بكر في الموقف، وأنها بمنزلة الفتيل التي أشعلت الجرب، فاستمع إلى قول الإمام السندي في حاشيته على النسائي: قيل: إنهم حملوا قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً..﴾ على الخصوص بقريته إن صلّاتك سكن لهم، فرأوا أن ليس لغيره أخذ زكاة، فلا زكاة بعده (٣).

وهذا عين الصواب في المسألة، فقد أثرت عنهم أشعار وأقوال تدلّ على ذلك، يقول خطيب بن أوس في المعنى شعراً:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا	فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورها بكر إذا مات بعده	وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلاً رددتم وفدنا بإجابة	وهلاً حسبتم منه راعية البكر
فإن الذي سألوكم فمنعتم	لكالتمر أو أحلى لحلف بني فهر (٤)

لا ريب أن هؤلاء متأولون، فما الذي حضر عليهم التأويل وأباحه لخالد في قتل مالك بن نويرة والبناء على زوجته واستئصال أهله؟

وما الذي منع الشيخ أن يطبق عليهم أحكام المتأول كما طبقتها على أنصاره فأهدر لهم الدماء وإباح الفروج، أو كما فعل شيعة في إغدار عائشة ابنته ووزرائها، أم أن تأول الجمل واجتهاده مقبول عند القوم دون المسلم.

(١) نفسه، ٢٣٣/٢.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٧٣.

(٣) سنن النسائي، ١٤/٣.

(٤) شرح ابن أبي الحديد، ٢١٠/١٧؛ وتاريخ الطبري، ٢٤٦/٣.

إنَّ القضيةَ أجلي من الشمس، فلم تتقد الحرب إلا بأعصاب الشيخ وانفعالاته الخاصة على أثر الإستخفاف به وعدم البيعة له^(١).

أعصاب أبي بكر تقسو على الأمة

يوصي أحد أمرائه بكتاب فيقول:

ومن أبي أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحدٍ منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتل، وأن يسبي النساء والذراري.
وفي أخرى يأمر أحد رجاله بأن يفسح المجال للجيش ويرخص له في القتل: ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوهم.

ويقول أيضاً: فإن أظهره الله عليهم قتل منهم كل قتلته بالسلاح والنيران..^(٢)
ويضع الشيخ الحطب الجزل في النار لتزداد اشتعالاً، فيوصي خالد: ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتله ونكلت به غيره، ومن أحببت ممّن حادّ الله أو ضادّه ممّن ترى أنّ في ذلك صلاحاً فاقتله...^(٣)

ولا تخفى الدلالة في قوله: نكلت به غيره أنه الإرهاب وإرعاب الأمة، وكذلك قوله: واقتل «... من أحببت ممّن ترى أنّ في ذلك صلاحاً».

وهذا إمداد لخالد في الغي وإطلاق ليد في الدم الحرام، وعسى أن يكون الذي أحبّ خالد قتله برئياً، والجواب: لا مانع من ذلك إذا أدّى النتيجة المطلوبة وهي التخويف والإرعاب.

وعوفي مزاج الشيخ على يد خالد بن الوليد حين أجرى رغباته في الإرهاب على أشبع صورة عرفها تاريخ الحروب.

فإقام خالد ببزاخه شهراً يصعد ويصوب ويرجع إليها في طلب الذين وصّاه بسببهم الصديق، فجعل يتردد في طلب هؤلاء شهراً يأخذ بثأر من قتلوا من

(١) بوذي أن يقوم أهل الفضل بدراسة الحروب التي شنها جيش أبي بكر على المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ دراسة واعية تضع النقاط على الحروف، وقد كتبت شيئاً من ذلك أرجو أن يوفقني الله لإتمام ذلك، وطبعه إنشاء الله تعالى.

(٢) تاريخ الطبري، ٢٥١/٣ و٢٥٢.

(٣) تاريخ الطبري، ٢٦٣/٣.

المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدّوا، فمنهم من حرّقه بالنار، ومنهم من رضخه بالحجارة، ومنهم من رمى به من شواحق الجبال، كلّ هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة الأعراب.. (١)

إنّ هذا النصّ يعكس عمق المأساة التي حلّت بالأمة من فتك خالد بهم بأمر أبي بكر من أجل إشاعة الرعب في قلوب العرب.

وقال ابن جرير الطبري: ومثّل بالذين عدوا على الإسلام فأحرقهم بالنيران، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار، وخرق بالنبال، وبعث بقره وبالاسارى... (٢)

وصاح خالد: لا يطبخنّ رجل قدراً، ولا يسخننّ ماءً إلاّ أثنيتّه رأس رجل، وأمر خالد بالخطّاء أن تبنى ثمّ أوقد فيها النّار، ثمّ أمر بالأسرى فألقبت فيها، وألقى يومئذ حامية بن سبيع بن الخشخاش الأسدي وهو الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله استعمله على صدقات قومه، فارتدّ عن الإسلام!! وأخذت أم طليحة أحد نساء بني أسد فعرض عليها الإسلام فأبت ووثبت وافتحمت النّار، وهي تقول: يا موت عم صباحا، كافحته كفاحا، إذ لم أجد براحا.

وذكر الواقدي عن يعقوب بن يزيد بن طلحة أنّ خالداً جمع الأسارى في حظائر ثمّ أضرّمها عليهم فاحترقوا وهم أحياء، ولم يحرق أحد من بني فزارة.. وذكر غير يعقوب أنّ خالداً أمر بالأخدود تحفر، فقيل له: ماذا تريد بهذه الأخدود؟ قال: أحرقهم بالنّار، فكلم في ذلك، فقال: هذا عهد أبي بكر الصديق إليّ، اقرءوا في كلّ مجمع: إن أظفرك الله بهم فأحرقهم بالنّار (٣). وصدق خالد، فهذا كتاب الخليفة المزاجي شاهد على ذلك، ومنه: هؤلّ القتل، وأحرقهم بالنّار، وإياك أن تخالف عن أمري (٤).

وقل الآن في مزاج عمل عمل القنبلة الذريّة في بني تميم وغيرهم، هل يصلح لولاية الأمة؟! والمزاج الذي أمر خالداً بحرق العرب، متّهماً إياهم بالردة، هو

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣١٧/٦.

(٢) تاريخ الطبري، ٢٦٢/٣.

(٣) تاريخ الخميس، ٢٠٧/٢ و ٢٠٨.

(٤) تاريخ الخميس، ٢٣١/٢.

نفسه الذي أمر عمر بحرق باب فاطمة عليها السلام.

ولنا أن نسأل شيعته: أياكون خليفة رسول الله الرحمة المهداة إلى العالمين من الله، على هذه الشاكلة؟!

ولعل قائلًا يقول: فكيف استخلف إذن، أما كان القوم يعرفونه حق المعرفة؟ وأقول في الجواب: عولجت هذه القضية على أتم وجه وأحسنه، وكشف المؤرّخون عن الظروف والملابسات التي صاحبت حادثة بيعته، ولك أن تقرأ بعقل حرّ محايد واع كتب التاريخ لتستنبط العلل والأسباب الواقعيّة وما ترتّب عليها من نتائج، وإن أردت سلوك الطريق المختصر، فعليك بكتاب «السقيفة» للإمام المظفر رضوان الله عليه، وكتاب فذك لسيدنا المأسوف عليه الشهيد الإمام الصدر عليه السلام ولعن قاتله، فإنّ فيهما الغنية عن كلّ كتاب.

ونحن نعرض لبعض ما استدلّ به القوم على صحّة خلافة المزاج العصبي بطور الإختصار، ثمّ ندخل في مأساة فذك إنشاء الله. وأهمّ ما استدلّ به القوم أمور ثلاثة: الأول: اختيار الأئمّه له ومبايعته من أهل الحلّ والعقد.

والجواب عن ذلك: هل الأئمّه كلهاهم المحشورون في سقيفة بني ساعدة؟ إذ لم يبايعه إلّا بعض هؤلاء، وبقي آخرون منهم بقيادة سعد بن عبادة لم يبايعوه مترصّين به وبأصحابه ساعة الفتنة ليثوروا عليه ويفوّتوا فرصة الحكم ولم يخلصه من هذه الفتنة إلّا تدبيره بقتل سعد بن عبادة على يد خالد بن الوليد:

يقولون سعد شكّت الجنّ قلبه	ألا ربّما صحّحت دينك بالعدر
وما دنّب سعد إنّه بال قائمًا	ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر
لقد صبرت عن لذة العيش أنفس	وما صبرت عن لذة النهي والأمر.. ^(١)

وبقي خيار الأئمّه لم يبايعه وهم أميرالمؤمنين وبنو هاشم قاطبة، والزيبر بن العوام وأصحابه كافّة، فما قيمة اختيار ليس فيه هؤلاء.. وقس على هؤلاء العرب الذين قاتلوه وأبوا بيعته وسمّوه أبا فضيل واستخفّوا به، ورحم الله شاعراً قال:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم	فأننى بهذا والمشيرون غيّبوا
وإن كنت بالقريى ملكت أمورهم	فغيرك أولى بالنبيّ وأقرب

الثاني: أمره بالصلاة والنبوي على فراش المرض، ومن لازم هذا الأمر الموهوم استنبطوا النص على خلافته.

عن أبي بكر الهذلي، عن الحسن قال: قال علي بن أبي طالب: لما قبض رسول الله ﷺ نظرنا في أمرنا، فوجدنا النبي ﷺ قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدينا ما رضىه رسول الله ﷺ لدينا، فقدّمنا أبا بكر^(١).

ولنا تعقيب على هذا الكلام لا بدّ منه، فنقول:

أولاً: إسناد هذا القول إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام سند بطلانه وزيفه، لأنّ الإمام عليه السلام لم يبايع أبا بكر، وظلّ ناقماً عليه طول حياته، وهو القائل: أما والله لقد تقمّمها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أنّ محليّ منها محلّ القطب من الرّحى، ينحدر عنّي السّيل، ولا يرقى إليّ الطّير... إلى آخر خطبته الشّقشقيّة، فكيف ينسب إليه هذا الكلام الباطل.

ثانياً: إنّ قضيّة الصلاة قضيّة باطلة ما في ذلك ريب، ودليل بطلاتها تضارب الأقوال فيها ومجياها في عدّة روايات لا يجمعها جامع، وتنقل جميعها عن راوٍ واحد، هو ابنته عائشة أو من روى عنها.

وكيف يأمر رسول الله بالصلاة أبا بكر وبقائه في المدينة معصية لأنّه مأمور بالخروج مع جيش أسامة، وقد لعن النبي ﷺ من تخلف عن هذا الجيش، ولا ريب في بطلان صلاة أبي بكر كلّها طيلة المدّة التي قضاها عاصٍ لأمر النبي ﷺ.

وقد نصّ على انضمامه إلى جيش أسامة البلاذري في أنساب الأشراف، ومصعب الزبيري في نسب قريش وغيرهما كثير، واعترف به عروة ابن الزبير كما حدّث الواقدي عن ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان فيهم أبو بكر..^(٢) وأصاب كل من تخلف لعنة النبي، وجاء قول النبي ﷺ على هذه الصيغة: جهّزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عن جيش أسامة^(٣).

فكيف يلعن المتخلف ثمّ يأمره بالصلاة بالصحابة لتكون بعد ذلك هذه الصلاة

(١) أنساب الأشراف، ١٠/٦٦؛ وراجع الطبقات، ٣/١٨٣.

(٢) الصراط المستقيم، ٢/٢٩٧.

(٣) راجع مقالة الإسلاميين، ١/٣٥، الهامش.

الوهمة ذريعة لتطاوله على الأمة وتحكمه في أشعارهم وأبشارهم ودمائهم، إن هذا لا يكون بحال من الأحوال.

الثالث: قاعدة السكوت !!

ويجملها لنا أبو بكر بن عيَّاش، قال: قال لي الرشيد: يا أبا بكر! كيف استخلف الناس أبا بكر الصديق؟ قلت: يا أمير المؤمنين، سكت الله وسكت رسوله وسكت المؤمنون. قال: والله ما زدني إلا عمى. قلت: يا أمير المؤمنين! مرض النبي ﷺ ثمانية أيام، فدخل عليه بلال، فقال: يا رسول الله! من يصلي بالناس؟ قال: مر أبا بكر يصلي بالناس، فصلى أبو بكر بالناس ثمانية أيام، والوحي ينزل، فسكت رسول الله ﷺ وسكت المؤمنون لسكوت رسول الله ﷺ، فأعجبه، فقال: بارك الله فيك^(١).

ومن ثمَّ راح يحمله على الإنتقال من العباسية إلى أهل السنة والجماعة. يقول عبدالله بن عمر: سمعت أبا بكر بن عيَّاش يقول: قلت لهارون: يا أمير المؤمنين! أنظر إلى هذه العصاة الذين يحبون أبا بكر وعمر ويفضلونهم، فأكرمهم يعزُّ سلطانك ويقوى. قال: فقال: أنا والله كذلك، أنا والله كذلك، أنا والله أحبهم وأحب من يحبهم وأبغض من يبغضهم^(٢).

وهذا الحب والإبعاد ما هو إلا لعزُّ السلطان وللوقوف في وجه العلويين أصحاب الحق، لا من أجل الرجلين، فقد كان أسلافه يبرئون منهما، ومنهم أبوه المهدي، أليس الحميري يخاطبه وجهاً لوجه قائلاً:

قل لابن عباس سميَّ محمَّد لا تعطين بني عديَّ درهماً
وامنع بني تيم بن مرة أنهم شرَّ البريةِ آخرأً ومقدماً
منعوا تراث محمَّد أعمامه وابنيه وابنته عديلة مرعما

والظاهر أن قول ابن عيَّاش لم يستأصل شأفة الداء من نفس الرشيد. يقول مالك بن أنس: قال لي أمير المؤمنين هارون: يا مالك! كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من النبي ﷺ؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين قربهما منه في حياته

(١) الكامل في ضعفاء الرجال، ٢٦/٤.

(٢) نفسه، ٢٦/٤.

كقرب مضجعهما بعد وفاته . قال : شفيتني يا مالك ! شفيتني يا مالك! ...^(١)
 وأنا أقول للرشيد ولإمامه مالك : إنَّ هذا الشفاء ما هو إلاَّ خدعة الطبع اللثيم ،
 وإلاَّ فمن قَرَّبهما بعد وفاتهما من رسول الله ؟ هل هو النبيُّ ؟ وما هي الحجَّة في
 دفنهما في أرض ليست لهما؟! إنَّ دفنهما عند النبيِّ أجدر به أن يكون مخبراً عن
 سوء حالهما لا قربهما ..

فهذا مجمل ما استدَلَّ به القوم على إمامة الأوَّل ، وأنت ترى بعده عن الحقِّ
 وقربه من الهجر والهديان ، وكيف يسدُّ فراغ النبوة ، ويشغل ذلك المقام الشامخ
 رجلٌ ، متوتِّر الأعصاب ، حادِّ المزاج ، إذا ركب رأسه لا يرده شيء ، ولا تقنعه حجَّة ،
 وما استطاع أصحاب النبيِّ مع ما أجمعت عليه كلمتهم من بطلان «حرب الردة»
 اقناعه في تجنُّبها ، ومداراة الأعراب ، وهم حديثوا عهد بالإسلام ، وكان النبيُّ عليه السلام
 يرضى منهم بأقلِّ ممَّا عرضه عليه ...

ولاجرم أنَّ مزاج الشيخ العصبي كان وراء جلِّ الأحداث التي وقعت في أيام
 خلافته ، ومنها ذلك الحدث الفضيع والفعل الشنيع ، وهو إحراق بيت
 أمير المؤمنين عليه السلام لما امتنع هو وجماعة من البيعة ، ذكره الواقدي في روايته ،
 والطبري في تاريخه ، ونحوه ذكر ابن عبد ربِّه ، وهو من أعيانهم ، وكذا مصنَّف كتاب
 «أنفاس الجواهر» .

قالوا : له تخويفهم بذلك لأجل البيعة ، قلنا : الإمامة عندكم ليست من أصول
 الدين ولا من فروعه ، فكيف يحرق عليها ، والنبيُّ لم يحرق كتابياً على متابعتة ، وهلَّا
 قصد بيوت الأنصار وغيرهم بذلك ، وأسامة بن زيد لم يبايع إلى أن مات ..^(٢)
 وبقيت هذه الذكرى المؤلمة تراود أمير المؤمنين عليه السلام ، وطالما طفحت لواعجه
 فصرَّح بها حتَّى قال عمرو بن العاص لمعاوية يوم صفِّين حين منع الماء أصحاب
 الإمام عليه السلام : خلَّ بينهم وبين الماء ، فإنَّ عليّاً لم يكن ليظماً وأنت ريّان ، وفي يده أعتة
 الخيل ، وهو ينظر إلى الفرات حتَّى يشرب أو يموت ، وأنت تعلم أنه الشجاع
 المطرق ، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز ، وقد سمعته أنا وأنت وهو يقول :

(١) مختصر تاريخ دمشق ، ٢٤/١٩ .

(٢) البياضي ، الصراط المستقيم ، ٣٠١/٢ .

لو استمكنت من أربعين رجلاً، فذكر أمراً، يعني لو أنّ معي أربعين رجلاً يوم فُتَش البيت يعني بيت فاطمة^(١).

إرهاصات الثورة الفاطمية

لمّا تمّ الأمر لأبي بكر، وبايعه من بايعه، تخلف عنه أنصار الإمام وشيعته وبو هاشم، وفيهم الزبير بن العوام، وكان يعدّ نفسه رجلاً من بني هاشم، واجتمعت إلى بيت عليّ عليه السلام، ولم يبايع منهم أحد.

وذهب عمر ومعه عصابة إلى بيت فاطمة، منهم أسيد بن حضير، وسلمة بن أسلم، فقال لهم: انطلقوا فبايعوا، فأبوا عليه، وخرج إليهم الزبير بسيفه، فقال عمر: عليكم الكلب، فوثب عليه سلمة بن أسلم، فأخذ السيف من يده، فضرب به الجدار، ثمّ انطلقوا به وبعليّ ومعهما بنو هاشم، وعليّ يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله، حتّى انتهوا به إلى أبي بكر، فقيل له: بايع، فقال: أنا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأعطوكم المقادة وسلّموا إليكم الأمانة، وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثلما عرفت الأنصار لكم، وإلاّ فبوئوا بالظلم وأنتم تعلمون.

فقال عمر: إنك لست متروكاً حتّى تبايع، فقال له عليّ: إحلب يا عمر حلباً لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليردّ عليك غداً، ألا والله لا أقبل قولك ولا أبايعه. فقال له أبو بكر: فإن لم يبايعني لم أكرهك. فقال له أبو عبيدة: يا أبا الحسن! إنك حديث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر، ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك، وأشدّ احتمالاً له واضطلاعاً به، فسلمّ له هذا الأمر وارض به، فإنك إن تعش ويطل عمرك فأنت لهذا الأمر خليق، وبه حقيق في فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك.

فقال عليّ: يا معشر المهاجرين! الله الله! لا تخرجوا سلطان محمّد عن داره

وبيته إلى قعر بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم، أما كان منا القارىء لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بالسنة، المضطلع بأمر الرعية، والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى، فتزدادوا من الحق بعداً.

فقال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار، يا علي، قبل بيعتهم لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان، ولكنهم قد بايعوا وانصرف عليّ إلى منزله ولم يبايع، ولزم بيته حتى ماتت فاطمة فبايع^(١).

هذه صورة للهجوم على بيت الزهراء، وقد لطفها الرواة والمؤرخون لتستيفها الأمة، وهناك صورة أخرى أشدّ إيلاًماً.

قال أبو بكر: يا عمر! أين خالد بن الوليد؟ قال: هو هذا. فقال: انطلقا إليهما - يعني علياً والزبير - فأتياني بهما، فانطلقا، فدخل عمر ووقف خالد بن الوليد على الباب من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ قال: أعددته لأبايع علياً، قال: وكان في البيت ناس كثير منهم المقداد بن الأسود، وجمهور الهاشميين، فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة في البيت فكسره ثم أخذ بيد الزبير فأقامه، ثم دفعه فأخرجه وقال: يا خالد! دونك هذا، فأمسكه خالد، وكان خارج البيت مع خالد جمع كثير من الناس، أرسلهم أبو بكر رداءً لهما ثم دخل عمر فقال لعلي: قم فبايع فتلكأ واحتبس فأخذ بيده، وقال: قم، فأبى أن يقوم فحمله ودفعه كما دفع الزبير، ثم أمسكهما خالد وساقهما عمر ومن معه سوقاً عنيفاً، واجتمع الناس ينظرون، وامتألت شوارع المدينة بالرجال، ورأت فاطمة ما صنع عمر، فصرخت وولولت، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميات وغيرها فخرجت إلى باب حجرتها، ونادت: يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله! والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله..^(٢)

(١) شرح ابن أبي الحديد، ١١/٦ و١٢.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ٤٨/٦ و٤٩.

المجلس العشرون ثورة الزهراء ؛ وفدك الرمز والوفاة

«.. تقمص حق الآل شرَّ عصابة...»^(١)

ضللت ضلال العير في المهمة القفر
عدو رسول الله والبضعة الطهر
وان قال قولاً باللسان عن الكفر
ومن يدعي زوراً مقام أولي الأمر
كفعل غريق غاص في ثبج البحر
فسبحان من أخزاه في محكم الذكر
بأن فؤاد الشيخ طار من الذعر
مخاوفه الحمقى إلى دعة الصبر
وأعطاه وعداً بالنجاة وبالنصر
وان كان من قرب الحمام على فتر
نفاق حكمت مكنونه سورة الخمر
يعاقرها صرفاً بقتلاه في بدر
لبليل من الأخطار في عسكر مجر
لفرط الذي يلقي ينام على جمر
بحسن قضاء الله من حيث لا يدري
غداة تساوي في علي أبابكر
يكون بكف الصيرفي من الصفر
فعدت من الأوزار مثقلة الظهر
سيرجع من نيل الخلافة ذا وفر
ولم يجن من هذا الدنو سوى الكبير

أنادب شخص لا يريش ولا يبيري
أتندبه لا در درك إننه
وسميته الصديق وهو مكذب
فلا فرق عند الله ما بين مشرك
أتندب من يطفو ويرسب في لظى
وتهت بأن الذكر سماه ثانياً
وفي قول «لا تحزن» أتى الذكر مخبراً
ولو كان من أهل اليقين لأخذت
وما خوفه؟ والله يكلاً عبده
ولو داق طعم الدين لم يلف جازعاً
لقد رابني من دينه أن دينه
غداة تغني والحميا بكفه
وبات علي في فراش ابن عمه
تقلبه الأحجار حتى كأنه
ولم يثنه خوف وقد بات واثقاً
أتجعل صنو الحق فكاً مزوقاً
وما شئت فاندبه سترجع بالذي
تقمص حق الآل شرَّ عصابة
وكان لها ترساً وظن بأنه
كمغويه نال الطرد بعد دنوه

(١) لبعضهم ، قالها مجيباً شاعراً مدح أعداء أهل البيت عليه السلام .

وكان له المختار خصماً لغدره
 ألم يك من آذى البتولة مؤدياً
 وقد كان آدها وعاشت بغصة
 غداة جرى شذابه البكر إذ رعى
 مولهة حزى الغواد مروعة
 إلى أن قضت مكسورة الضلع لم تجد

ببضعته والنار عاقبة الغدر
 أباه رسول الله في السرّ والجهر
 تجرّعها منهم كطاعمة الصبر
 وما أب إلا بالهوان وبالخسر
 من الرجس والأصحاب مهتوكة الخدر
 مغيثاً سوى سكب الدموع على القبر

انتقال الثورة إلى الزهراء عليها السلام

كانت طبيعة الأحداث تقتضي قيام ثورة مضادة على الخلافة بزعامة أمير المؤمنين عليه السلام.

وهذا ما استلهمه من الموقف الحساس أكثر المسلمين حتى اندفع من كان يترصّ بالإسلام الدوائر إلى شحذ الهمم لتتحقق الفتنة التي يصبوا إليها بفارغ الصبر.

فهذا أبو سفيان يقف على البيت الذي فيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وينشد:

بني هاشم لا تطعموا الناس فيكم
 ولاسيما تيم ابن مرة أو عدي
 فما الأمر إلا فيكم وإليكم
 وليس لها إلا أبوحسن عليّ
 أبا حسن فاشدد بها كفّ حازم
 فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي
 وأي امرئ يرمي قصيًّا ورأيها
 منيع الحمى والناس من غالب قصي

فقال عليّ لأبي سفيان: إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه، وقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهداً فأنا عليه، فتركه أبو سفيان وعدل إلى العباس بن عبدالمطلب في منزله، فقال: يا أبا الفضل! أنت أحقّ بميراث ابن أخيك، أمدد يدك لأبايعك، فلا يختلف عليك الناس بعد بيعتي إليك، فضحك العباس، وقال: يا أبا سفيان! يدفعها عليّ ويطلبها العباس! فرجع أبو سفيان خائباً^(١).

ويرسم الطبري صورة للموقف تدلّ على ظهور إرهابات الثورة في الأفق ممّا حدى بأبي سفيان أن ينجم قرنه طمعاً في الفتنة ويأتي الإمام عليه السلام ويقول له: ما بال هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش! والله لئن شئت لأملأها عليه خيلاً ورجالاً! قال:

(١) شرح ابن أبي الحديد، ١٧/٦، ١٨.

فقال عليّ: يا أباسفيان! طالما عادت الإسلام وأهله فلم تضرّه بذلك شيئاً! إننا وجدنا أبابكر لها أهلاً..

كان الإمام عليه السلام يدرك الغرض من هذه الإثارة، إنّه ليست الغيرة على الحقّ المغصوب، بل هي توجيه ضربة إلى الإسلام من الداخل لتكون أدعى للقضاء عليه، لذلك ردّه ردّاً عنيفاً وكشف عن نواياه السيئة تجاه الإسلام؛ أمس واليوم، وأمّا ما نسب إليه من مدح أبي بكر، فهي ولاشكّ كلمة مقحمة في الرواية، مفتعلة على الإمام، ولو كان أبوبكر أهلاً لها لما عارضه وأبى عليه البيعة.

وفي رواية أخرى: إنّ الناس لما اجتمعوا على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله إنّي لأرى عجاجة لا يطفئها إلّا دم! يا آل عبد مناف فيم أبوبكر من أمورك، أين المستضعفان الأذلان: علي والعبّاس؟! وقال: أبا حسن! ابسط يدك حتّى أبايعك، فأبى عليّ عليه، فجعل يتمثّل بشعر المتملّس:

ولن يقيم على خسف يراد به ألا الأذلان غير الحيّ والوئد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشجّ فلا يرثي له أحد

قال: فزجره علي، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً! لا حاجة لنا في نصيحتك.

ولم تهدأ زوبعته، حتّى جعلوا له نصيباً في هذه اللقمة الدسمة.

عن ثابت قال: لما استخلف أبوبكر، قال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فصيل، إنّا هي بنو عبد مناف! قال: فقيل له: إنّه قد ولّى ابنك. قال: وصلته رحم^(١).

ولم يحرض أبو سفيان عبثاً لو لم يبصر نذر الثورة على أبي بكر تلوح في الأفق، بخاصّة حين تنمى إليه أخبار زعيم آخر اعتزل القوم، استعداداً للثورة عليهم، وكان قد صرّح لهم بذلك، ألا وهو سعد بن عبادة الخزرجي، ولو لم يكن مريضاً يومذاك لتغيّر وجه القوم.

يقول المؤرّخون: وحمل سعد بن عبادة وهو مريض فأدخل إلى منزله، فامتنع من البيعة في ذلك اليوم وفيما بعده، وأراد عمر أن يكرهه عليها، فأشير عليه ألا يفعل، وأنّه لا يبايع حتّى يقتل، وأنّه لا يقتل حتّى يقتل أهله، ولا يقتل أهله حتّى

يقتل الخزرج ، وإن حوريت الخزرج كانت الأوس معها .

وفسد الأمر فتركوه ، فكان لا يصلّي بصلاتهم ، ولا يجمع بجماعتهم ولا يقضي بقضاءهم ولو وجدا عواناً لضرارهم... (١)

فسعد يقود ثورة تحت السطح بتمام معنى الكلمة ، إلا أنّ موقفه ضعيف مهما بدى عليه من كثرة الناصر ، لضعف حجّته عبّر عن ذلك خير تعبير موقف ولده منه . قال أبو الحسن النوفلي : سمعت أبا يقول : ذكر سعد بن عبادَةَ يوماً عليّاً بعد يوم السقيفة ، فذكر أمراً من أمره نسبة أبو الحسن يوجب ولايته ، فقال له ابنه قيس بن سعد : أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول هذا الكلام في عليّ بن أبي طالب ثمّ تطلب الخلافة ، ويقول أصحابك منا أمير ومنكم أمير! لا كلمتك والله من رأسي بعد هذا كلمة أبدأ: (٢)

من هنا أيّ من ضعف موقفه غير المتكّيء على حجّة إلا حجّة الايواء والنصرة وكونهم أهل الدار سهل على القوم تصفيته ، وإن كان شوكة في جنبهم فقد وُصف عمر فريقاً من أعوانه الجنّ وقتلوه وهو في طريقه إلى حوران ، ونسجوا أسطورة تقول : إنّه أغضب الجنّ لأنّه بال قائماً في واديها ، فقتلته ، وارتجرت :

نحن قتلنا سيّد الخزرج سعد بن عبادَةَ

ورمينا به بسهمين فلم نخطيء فؤاده

ولكنّ قوماً زعموا أنّ أمير الشام يومئذٍ كمن له من رماه ليلاً وهو خارج إلى الصحراء بسهمين ، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام ، وقد قال بعض المتأخّرين في ذلك :

يقولون سعد شكّت الجنّ قلبه

وما ذنب سعد إنّه بال قائماً

وقد صبرت عن لذة العيش أنفس

وانطوت صفحة هذه الثورة المضادّة ، ولم يبق في مواجهة القوم إلا صاحب

(١) شرح ابن أبي الحديد ، ١٠/٦ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ، ٤٤/٦ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ، ١١١/١٠ .

الحقّ وهو وإن كَفَّ عن كلِّ شيء وأخذ إلى السّكوت، فإنّ وجوده يعبّر عن ثورة المظلوم على ظالمه.. وذلك واضح في وضع صاحب الحقّ الضعيف الذي يثير مشاعر الحقد والاضطغان والخوف منه عند ظالمه وغاصب حقّه، وإن ألقى القياد إليه ورضي بحكمه وقبل مضطراً زعامته، ولا يهتّىء لغاصبه عيش حتّى يصفّيه، وكان القوم قد عقدوا العزم على ذلك، نجد ذلك ظاهراً في كتاب معاوية إلى محمّد بن أبي بكر عليه السلام، جواباً عن كتابه إليه، يقول فيه: فكان أبوك وفاروقه أوّل من ابتزّه حقّه، وخالفه على أمره، على ذلك اتّفقا، واتّسقا، ثمّ إنّهما دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما فهما به الهموم وأرادا به العظيم^(١).

فما هو هذا العظيم إن لم يكن قتله وتصفيته، لذلك عمد الإمام عليه السلام إلى خطة قديمة ولعلّها وضعت له من قبل النبي صلى الله عليه وآله، بل لا تصحّ الاسترابة في ذلك بعد قول الإمام عليه السلام للقوم، بل اشتملت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة... وهذا دليل ناصع على أنّ الأحداث، ماضيها ومستقبلها بمرصد من الإمام عليه السلام..

وكانت الخطة المنظورة هي إنضاج الثورة على نارٍ هادئة، بحيث لا تضرّ الإسلام الوليد، الذي يخشى عليه من حدوث الانتكاسات في الأمة كما تبقي على نواة الثورة حيّة فاعلة وهم أهل البيت عليهم السلام... وسارت الخطة على جهتين:

الأولى: انصراف أمير المؤمنين عن شئون الخلافة مع فرض رعاية صارمه على ما يجد من أحداث تمسّ الدين عقيدةً أو تشريعاً.
والثانية: توكيل الزهراء عليها السلام في بثّ الروح الثورية في الأمة مع كشف القناع عن حقيقة المتأمّرين على أهل البيت عليهم السلام.

وقامت سيّدة النّساء بهذا الدور الفاعل والمهمّ خير قيام، حتّى كانت ثورتها على القوم بوابة الثورات ومفتاحها، ومنها استقت ثورة الأبناء والأحفاد لبانها الأوّل، وتكوّنت في أجوائها الملتهبة عناصر وجودها.

ولنا شاهد على الأولى من رواية ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة،

يقول: سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن زيد، فقلت له: إني لأعجب من علي عليه السلام كيف بقي تلك المدّة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وكيف ما اغتيل وفتك به في جوف منزله مع تلظّي الأكباد عليه؟!

فقال: لولا أنّه أرغم أنفه بالتراب، ووضع خدّه في حضيض الأرض، لقتل، ولكنّه أحمل نفسه، واشتغل بالعبادة والصلاة، والنظر في القرآن، وخرج عن ذلك الزيّ الأوّل، وذلك الشعار، ونسي السيف، وصار كالفاتك يتوب ويصير سائحاً في الأرض أو راهباً في الجبال، فلمّا أطاع القوم الذين ولّوا الأمر وصار أذلّ لهم من ... تركوه وسكتوا عنه، ولم تكن العرب لتقدم عليه إلاّ بمواطأة من متولي الأمر وباطن في السرّ منه، فلمّا لم يكن لولاء الأمر باعث وداع إلى قتله وقع الإمساك عنه، لولا ذلك لقتل ثمّ الأجل بعدُ معقل حصين...^(١)

ولنا شاهد على الثانية من فعل أمير المؤمنين عليه السلام .. عن أبي جعفر محمّد بن علي رضي الله عنهما أنّ عليّاً حمل فاطمة على حمار، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار، يسألهم النصر، وتسالهم فاطمة عليها السلام الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله! قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، لو كان ابن عمك سبق إلينا أبابكر ما عدلنا به. فقال علي عليه السلام: أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لأجهّزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه.

وقالت فاطمة: ما صنع أبو حسن إلاّ ما كان ينبغي له، وصنعوا هم ما الله حسبهم عليه^(٢).

وبهذه الخطة القويمة من جانب الإمام عليه السلام بدأت الروح الثوريّة تعاود الأمة بما سنطلعك عليه إنشاء الله، بعد أن شلّت حركتها المسيرة الإنحرافيّة، وروح الإنتهازيّة التي تقمّصت عصبه الانقلاب على الأعقاب.

يقول سيّدنا الشهيد الصدر رضوان الله عليه مستخلصاً من الأحداث المتتابعة بعد وفاة النبيّ هذه النتيجة الحتميّة: وإذن فقد كانت الفئة الحاكمة تحاول أن تساوي

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ١٣٩/٢٩؛ عن شرح ابن أبي الحديد ٣/٣٠١ و٣٠٢. قال المحقّق: باختلاف

يسير.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ١٣/٦.

بين بني هاشم وسائر الناس، وترفع برسول الله ﷺ عن الإختصاص بهم تنتزع بذلك الفكرة التي كانت تزود الهاشميين بطاقة على المعارضة، ولئن اطمأنَّ الحاكمون إلى أنَّ علياً لا يثور عليهم في تلك الساعة الحرجة على الإسلام، فهم لا يأمنون من انتفاضه بعد ذلك في كلِّ حين، ومن الطبيعي حينئذٍ أن يسارعوا إلى الإجهاز على كلتا قوتيه الماديّة والمعنويّة ما دامت الهدنة قائمةً قبل أن يسبقهم إلى حرب أكل.

ومن المعقول بعد هذا أن يقف الخليفة موقفه التاريخي المعروف من الزهراء في قضية فدك، فهو موقف تلاقى فيه الغرضان، وتركز على الخطّين الأساسيين لسياسته، لأنَّ الدواعي التي بعثته إلى انتزاع فدك كانت تدعوه إلى الإستمرار على تلك الخطّة ليسلب بذلك من خصمه الثروة التي كانت سلاحاً قوياً في عرف الحاكمين يومذاك، ويعزز بها سلطانه، وإلاّ فما الذي كان يمنعه عن تسليم فدك الزهراء بعد أن أعطته الوعد القاطع بأن تصرف منتوجاتها في سبيل الخير ووجوه المصلحة العامّة إلاّ أنّه خاف منها أن تفسّر وعدها بما يتفق مع صرفها لفلات فدك في المجالات السياسيّة، وما الذي صدّه عن إرضاء فاطمة بالتنازل لها عن حصّته ونصيب الصحابة إذا صحَّ أنَّ فدكاً للمسلمين سوى أنّه أراد أن يقوي بها خلافته.

وأيضاً فإننا إذا عرفنا أنَّ الزهراء كانت مسنداً قوياً لقرينها في دعوته إلى نفسه، ودليلاً يحتجّ به أنصار الإمام على أحقيّته بالأمر، نستوضح أنَّ الخليفة كان موقفاً كلّ التوفيق في موقفه تجاه الزهراء عليها السلام للنحلة، وجارياً على المنهاج السياسي الذي كان يفرضه عليه الظرف الدقيق، إذا اغتتم الفرصة المناسبة لأفهام المسلمين بصورة لبقه وعلى أسلوب غير مباشر بأن فاطمة امرأة من النساء، ولا يصحّ أن تؤخذ آراءها ودعاؤها دليلاً في المسألة بسيطة كفدك، فضلاً عن موضوع كالخلافة، وأنّها إذا كانت تطلب أرضاً ليس لها بحقّ فمن الممكن أن تطلب لقرينها المملكة الإسلاميّة كلّها، وليس له فيها حقّ... (١)

ما هو السبب في انتقال الثورة إلى الزهراء عليها السلام ؟

وقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك الظرف العصيب على مفترق

طريقين ...

الأول: اعلان الثورة عليهم وإحداث بلبلة في الوضع الراهن للخلافة بجمع الأنصار وحشد الأعوان وتوجيه ضربة إليهم، وإن كانت النتيجة غير مضمونة ولا مأمونة العواقب.

مع العلم بأن الضربة التي توجه للعدو لا تضره بقدر ما تضر الإسلام، وتفك قواعده، وتطوح بناثه الجديد.

وقد بدت قرون الشر من رأس كهف النفاق أبي سفيان حيث راح يسر حسواً في ارتقاء، ووجد في لعبة الخلافة فرصته الذهبية السانحة لأخذ الثار من الدين الذي مرغ جاهليته بالوحد، وأذله وأتى على جديده والقديم.

ولو أن الإمام عليه السلام أصغى إليه أو تركه وشأنه، ينفث سموم فتنته هنا أو هناك، لتضرر جزاء ذلك الخصم والولي، وكان الخاسر في كلا الحالين الإسلام، وكان الإمام على علم يقين بأن هذه النعرة التي أطلقها أبو سفيان لم تقتصر عليه وحده، بل هناك السفينائيون الذين وعد الإمام بخيلهم ورجالهم منبئين في أنحاء البلاد الحجازية، ولو أنه تلقى إشارة الإذن من الإمام عليه السلام لسعى سعيه الحثيث حتى يوقد في داخل الإسلام لا معركة واحدة بل معارك، وكان انضم إليه كل عدو للدين الجديد، وإن لم يكن على رأيه، ولكن الإمام عليه السلام رد كيد في نحره، وزجره زجرة كشف بها عن نواياه، وأفهمه أن غرضه لا يخفى على أحد، وعاد عدو الله بخفي حنين، لا لأن نظام حكم الخلفاء لا يجوز الخروج عليه، بل لأن الضربة تقضي على الخصم والولي، وتودي بالحق والباطل.

الثاني: الصبر، وإن كان في العين قذى وفي الحلق شجى، إلا أنه ليس صبر العاجز، ولكن صبر الواهب المتطلع، ثم إحداث خطة قويمة، تؤدى إلى نتيجة صالحة حتمية وإن طال الزمان.

وتلك الخطة هي إيكال أمر الثورة إلى الزهراء، ووضع زمام القيادة بيدها، لتنحو بها نحو آخر، يعطي الثمرة المرجوة، ويوصل إلى النتيجة المطلوبة، ويجنب

الأمة الحرب الضروس الطاحنة التي تؤدي حتماً إلى ضعضة كيان الإسلام ، وإزهاق نفوس أعلام الأمة ، وفناء الأفاضل من أبنائها ، وفي هذه الحالة لا تقوم للإسلام بعدها قائمة ، أضف إلى ذلك أن هذه الخطة القويمة المركزة تحقن دماء أهل البيت وتحميهم من القتل والإستئصال ، إذ أن واقع الحال يدل على أن الحرب لو نشبت بين قريش وقريش ، فإن أهل البيت أول من يصلئ نارها ، وتقتل بها أعلامه .

ولو رحنا نلتمس الدليل على ما قلناه من حال الإمام أو مقاله ، لوجدنا خير شاهد على ذلك ، قوله في خطبته الشقشقية : وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جداء ، أو أصبر على طخية عمياء ، فرايت الصبر على هاتا أحجى ، فصبرت وفي العين قذئ وفي الحلق شجئ ، أرى تراثي نهبا .

يقول الشيخ المغنية رحمته الله : وهذا الكلام واضح الدلالة في أن الإمام عليه السلام لم يعلن الحرب من أجل الخلافة ، ولكنه لم يسكت عن حقّه ، بل استمرّ في الدعوة إلى نفسه هو ومن شايعه كسلمان وأبي ذر وعمّار والمقداد ، بل واجه بذلك أبابكر في بعض موافقه ، وقال له : أفسدت علينا أمرنا ، ولم ترع حقنا ، كما جاء في كتاب السقيفة للشيخ المظفر نقلاً عن مروج الذهب ، وقال في خطبة يأتي شرحها إن شاء الله : قال لي قائل : إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص ، فقلت له : بل أنتم والله أحرص وأبعد ، وأنا أخص وأقرب ، وإنما طلبت حقّي ، وتحولون بيني وبينه ، فلمّا قرعته بالحجة في الملاء الحاضرين هب كأنة بهت لا يدري ما يجيبني به ، ومعنى هب هنا انهزم .

وهذا الكلام يدل بظاهره أنه كان مع أحد الخلفاء الذين تقدّموا على الإمام ، وأنه عليه السلام قد طالبه واحتجّ عليه فهزمه وأفحمه ... وقرأت في كتاب « الدرّة النجفية » شرح نهج البلاغة لعبدالصمد التبريزي : أن أكثر الشيعة قالوا : إن علياً لم يبايع أصلاً ، ومنهم من قال : بايع بعد ستة أشهر ، وقال السنّة : بايع بعد أن تخلف في بيته ودافع طويلاً ... (١)

ولكم وقفت في كلامه عليه السلام « أرى تراثي نهبا » أردده محاولاً فهم معناه ، فما هذا التراث الذي نهبوه ؟ هل هو مادّي ؟ فما ترك النبي غير بغلة اسمها دلدل ، وحمار

(١) الشيخ محمد جواد مغنية ، في ظلال نهج البلاغة ، ١ / ٨٤ و ٨٥ .

اسمه يعفور، ويضع دريهمات أمر إحدى أمتهات المؤمنين أن تعطيه الإمام عليه السلام، أتري أن الإمام عليه السلام يأسى لفقدان هذا وذهاب زينته من بين يديه؟ لا يعتقد ذلك إلا معتوه، فما هو التراث لبت شعري:

أقول باختصار: هو تغيير وجه الحكم في الإسلام، فقد أنزله الله على نبيه، وتضمنه الثابت من شرعه ليكون الحاكم خادماً، يحفظ حقوقهم، ويضمن وصولها إلى ضعيفهم، ويضرب بقوته على يد الظالم والمعتدي، وينصب لهم ميزان الحق والعدل ليحكم بينهم بالحق، ويكون الجميع سواسية في الحقوق والواجبات، ولكي تتكافأ الفرص للجميع ويصون بيضة الإسلام، ويحمي الفضيلة والأخلاق من أن تمسأ، وأخيراً كي يحكم بالقرآن أمه القرآن، إلا أن القوم غيروا وجه الحكم فصار تحكماً في أشعار الأمة وأبشارها، ودمائها وأعراضها، وأموالها وتعالياً عليها، بحيث استحال إلى باقعة حلّت بها، ومصيبة انصبت على يافوخها، وأول من فعل ذلك أبو بكر، فقد مهّد للحكم الاستبدادي، حين تجاوز رأي الصحابة في حرب «مانعي الزكاة»، واستبدّ برأيه وقسر القوم على أتباعه، وانتهاج نهجه في قتلهم والتنكيل بهم، فكان ما كان، من فعل خالد وقادة الجيش الآخرين بهم، ممّا يقشعر لهوله الجلد، ووضع الرواة الروايات تشيّد بطولاته ومناقبه، ومنها رواية تقول: إن الناس جميعاً يحاسبون إلا أبا بكر.. وجاء بعده فاروقه، فصار محدثاً ويروي ابنه عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه..^(١) وإذا كان ذلك كذلك فإن قوله في مرض النبي «النبي يهجر» كان من الحق الذي وضع على لسانه بزعم القوم! يا لله وللمسلمين من هذا القول الذي يحبط العمل.. ويكفر به القائل.. وزعموا أن القرآن كان نزل على مراده..^(٢)

ثم آلت الخلافة إلى عثمان، فازداد الطين بلّة، وزاد في الطنبور نغمة، فكان يرى الاعتراض على الخليفة أيّاً كان هذا الاعتراض إحدى الكبر، وكان يقول: .. فاعلموا أن الإعتراض على الخليفة والطعن عليه ذنب عظيم، فكان الأشر رضوان

(١) مستند أحمد، ٥٣/٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢١٩/٨.

الله عليه يجيبه: فإنّ هذا الكلام صحيح شريطة أن يكون الخليفة عادلاً..^(١)
ولعلّ الأشر يقصد بالخليفة الإمام المعصوم، وإلّا فليس الاعتراض عليه ذنباً، وإن كان عادلاً، لاحتمال خطئه، وهكذا حتّى نزل الحكم إلى دركة يزيد الذي سأله أباه ذات يوم أن يوليّه على الأمّة ولو لأيّام ثلاثة، لأنّه بلغه عن النبيّ من الثقة!! أنّه قال: من وليّ أمّه محمّد ولو ثلاثة أيّام محى الله عنه السيّئات وأثبت له الحسنات، وكان يزيد طامعاً في الحسنات الممزوجة في ابنة العنب، والحسنات الممزوجة في لعب القرود والفهود، والحسنات الممزوجة في نكاح الأخوات والعمّات، وهكذا دواليك، وبقي هذا القول الكاذب يتناعب به الأمويّون حتّى سأله به هشام بن الحكم الزهري، فيقال أنّه ردّه إلى الصواب وأثبت له كذبه وزيفه، في قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض..﴾ الآية.

أقول: لقد مسخ وجه الحكم في الإسلام وقد شرعه الله سبحانه وأخذ على الأئمّة، ألاّ يقاروا على كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم..
وأخذ عليهم كذلك أن يتشبّهوا بضعفة المخلوقين، لئلاّ يتبيخ بالفقير فقره، ولكنّه تبدّل على يد الأول والثاني والثالث، حتّى صار هؤلاء مقدّمة محبوكة السرد أنتجت الحكم الأمويّ، وبهذا نهب تراث أميرالمؤمنين عليه السلام، وكانت البداية شيخ تيم، وحين استتبّ له الأمر، وأمن من المخالف، والتفتّ حوله الأعوان، وصارت السيوف والبنود والمرترقة الذين يحملونها طوعاً بديه، بدأ خطواته الأولى في ظلم أهل البيت النبويّ، وابتدأ بالبضعة الطاهرة، فانترع منها فدك، وأخرج فلاحيتها، وأرسل إليها فلاحيه، فما هي فدك؟ وأين تقع؟

فدك .. (١)

عن الزهري قال: بقيت بقيّة من أهل خيبر تحصّنوا، فسألوا رسول الله ﷺ أن يحقن دمائهم ويسيرهم، ففعل، فسمع ذلك أهل فدك، فنزلوا على مثل ذلك، وكانت للنبي ﷺ خاصّة، لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

قال أبو بكر: وروى محمد بن إسحاق أيضاً: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من خيبر، قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ فصالحوه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطريق، أو بعد ما أقام بالمدينة، فقبل ذلك منهم، وكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة له، لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب^(٢).

وهذا منتهى الإنصاف والعدل من قويّ منتصر لشعب ضعيف مقهور، وكان في الحقّ أن تؤخذ الأرض كلّها منهم، ولكنّ النبي ﷺ فيما أعتقد وضع مدّ بصره الشريف حقيقتين:

الأولى أنّ اليهود شعب مهاجر طارئ على جزيرة العرب، وقد كانت أرض مهجره الأوّل لشحّة مواردها وضيق رقعتها لا تتسع لازدياد عدده المتنامي فقد زاد زيادة مطردة جعلت البلاد تضيق عن أن تسعهم وتنفس لهم في سبيل الحياة. وقد بلغ عددهم في ذلك الحين أربعة ملايين نسمة وهو عدد كبير لا تتسع له بلاد ضيقة فاضطّروا بحكم هذه الزيادة المستمرّة والنموّ المطردان يهاجروا إلى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كمصر والعراق والسودان والجزيرة العربيّة ولا تنس الحرب التي استعر أوارها بين اليهود والرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد، والتي انتهت بخراب فلسطين، ودمار هيكل بيت المقدس وتشتّت اليهود في أصقاع العالم.

(١) أخذنا أخبارها من شرح ابن أبي الحديد، لأنّ الرجل اعتمد على المصادر الموثوق بها، فقد قال: فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من كتب أهل الحديث، لا من كتب الشيعة ورجالهم، لأننا مشترطون على أنفسنا أن لا نحفل بذلك، وجميع ما نورد في هذا الفصل من كتاب أبي بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهري في السقيفة وفدك - إلى أن يقول: - وأبو بكر الجوهري هذا عالم محدّث كثير الأدب ثقة ورع، أثنى عليه المحدّثون، ورووا عنه مصنفاته. [راجع: ٢١٠/١٦]

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ٢١٠/١٦.

يقول المؤرّخ اليهودي يوسف الذي شهد تلك الحرب وكان قائداً لبعض وحداتها: لما ظهر الروم على بني إسرائيل بالشام وقتلوهم وسبوا، فخرج بنو النّظير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين إلى الحجاز، وتبعهم الروم فهلكوا عطشاً في المفازة بين الشام والحجاز^(١).

فاحتما برمال الجزيرة العربيّة من أن تطالهم يد عدوّهم الرومان، ولما استقرّوا في تلك الأصقاع، عمدوا إلى توظيف طبائعهم الفاسدة في الاستيلاء على اقتصاد البلاد، ولم يكن يومئذٍ اقتصاد في الجزيرة العربيّة يدعو إلى العناية وبذل الجهد، اللهمّ إلا شيء من الزراعة تنتشر في الواحات القليلة المحدودة، وأكثرها زراعة النخل، فبذل اليهود جهداً جهيداً في حيازة هذه الواحات، تارة بالحيلة، وأخرى ببذل الدعارة، وثالثة بالرهن، فلم يملكوا واحة منها بوجه صحيح يثبت لهم الحقّ في الأرض نفسها، فكانت ملكيّتهم للأرض على النحو الذي سلف، فهم لهذا لا يملكونها، وينبغي أن تؤخذ منهم؛ وهذه هي الحقيقة الأولى التي بدت للنبي ﷺ للوهلة الأولى.

الحقيقة الثانية: أنهم والحقّ يقال أخذوا الواحات من أصحابها، جرداء قاحلة لا ينبت بها إلا الشيخ والقيصوم، فاستنبطوا لها الآبار، وشقّوا لها الأنهار، واهتزّت بأيديهم بالخضرة والنضرة، وبسقت بها الأشجار، من النخيل والأعناب والرمان وسائر الفواكه الأخرى، وما هي إلا دورة من دورات الزمن، وإذا بتلك الرمال السافية جنّة من جنان الله على الأرض، فكان هذا الجهد منهم محفوظاً مقدّراً عند بني العدل والخير، ولذلك سلك معهم هذا السلوك الفاضل فأخذ منهم نصف الأرض لأنها ليست لهم، ولأنهم ملكوها بالحيلة والكذب وفساد الأخلاق، وأعطاهم نصفها الآخر تقديراً لجدهم الذي بذلوه في إحيائها بالزراعة، وما كانوا يطمعون بهذا من غيره، بل كانوا يعتبرون المنّة عليهم بالحياة دون الاستئصال منتهى العدل والحق.

وكانت فدك من تلك الأراضي التي استردّها الإسلام من اليهود، وحفظ لهم حقّهم في إحياءها، فأخذ النصف وأعطاهم نصفها الآخر... فلم يزل الأمر كذلك حتى أخرجهم عمر بن الخطّاب وأجلاهم بعد أن عوّضهم..

(١) راجع: عبدالمعيف طبّارة، اليهود في القرآن.

ولمّا أجالهم عمر بعث إليهم من يقوم الأموال، بعث أبا الهيثم بن التيهان، وفروة بن عمرو وحباب بن صخر وزيد بن ثابت فقوموا أرض فدك ونخلها، فأخذها عمر، ودفع إليهم قيمة النصف الذي لهم، وكان مبلغ ذلك خمسين ألف درهم أعطاهم إياها من مال أتاه من العراق، وأجالهم إلى الشام^(١).

ويقول سيّدنا الشهيد الصدر رضي الله عنه ولعن قاتله: فدك: قرية في الحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، وهي أرض يهودية في مطلع تاريخها المأثور، وكان يسكنها طائفة من اليهود، ولم يزالوا على ذلك حتّى السنة السابعة، حيث قذف الله بالرعب في قلوب أهلها، فصالحوا رسول الله ﷺ على النصف من فدك، وروى أنّه صالحهم عليها كلّها.

وابتدأ بذلك تاريخها الإسلامي، فكانت ملكاً لرسول الله ﷺ لأنها ممّا لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ثمّ قدّمها لابنته الزهراء، وبقيت عندها حتّى توفي أبوها ﷺ، فانتزعتها الخليفة الأول على حدّ تعبير صاحب الصواعق المحرقة، وأصبحت من مصادر المال العامّة وموارد الدولة يوم ذاك، حتّى تولّى عمر الخلافة، فدفع فدكاً إلى ورثة رسول الله ﷺ وبقيت فدك عند آل محمد ﷺ، إلى أن تولّى الخلافة عثمان بن عفّان فأقطعها مروان بن الحكم على ما قيل، ثمّ يهمل التاريخ أمر فدك بعد عثمان فلا يصرّح عنها بشيء، ولكنّ الشيء الثابت أنّ أمير المؤمنين عليّاً انتزعها من مروان على تقدير كونها عنده في خلافة عثمان كسائر ما نهبه بنو أمية في أيام خليفتهم..^(٢)

ولي ملاحظة قصيرة على قول سيّدنا الصدر رحمته الله بأنّ فدك أصبحت من مصادر المال العامّة وموارد الثروة يوم ذاك.. فأقول: عثرت على نصّين يدلّان على أنّ أبا بكر صادر فدك لنفسه:

الأول: عن أبي الطفيل، قال: لمّا قبض رسول الله ﷺ، أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثت رسول الله أم أهله؟ قال: لا بل أهله. قالت: فأين سهم رسول الله ﷺ؟ قال: فقال أبو بكر: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الله عزّ وجلّ إذا

(١) شرح ابن أبي الحديد، ١٦/٢١٠ و ٢١١.

(٢) الصدر، فدك، ص ٢٠ و ٢١.

أطعم نبيّاً طعمة ثم قبضه جعله للذين يقومون بعده ، فرأيت أن أردّه على المسلمين .
فقلت : فأنت وما سمعت من رسول الله (١) .

ظهر من هذه الرواية أنّ فدكاً تتول بعد النبي لأبي بكر ، يفعل بها ما يشاء ،
وأكدت ذلك الرواية التالية عن عائشة :

عن عروة بن الزبير : أنّ أزواج النبي ﷺ أرسلن إلى عثمان بن عفان يسألنه
مواريثهنّ من سهم رسول الله ﷺ بخيبر وفدك ، فقالت لهنّ عائشة : أما تتقن الله ؟
أما سمعتنّ رسول الله ﷺ يقول : لا نورث ما تركنا صدقة ، إنّما هذا المال لآل
محمد لنائبتهم وضيقتهم ، فإذا متّ فهو إلى والي الأمر بعدي ... (٢)

وتجد في هذا النصّ التصريح بفدك وأنها إلى والي الأمر أي إلى أبي بكر ، من
بعده ، وبعيداً أن لا يكون أمّهات المؤمنين سمعن ما دار بين الزهراء وخصمها من
دعوى الميراث والنحلة وما أجاب به أبو بكر الزهراء ، وقوله فيما أسند إلى النبي من
قول : « لا نورث » ثم جئن بعد هذا كله يسألنه ميراثهنّ إنّ هذا لشيء عجاب .

ولا يخلو الأمر من أنّهنّ علمن بوضع الحديد ، وأنّ النبي لم يقله ، بل قاله من
أراد التخلص من حراجه الموقوف ، ومن أخذ حجّة الزهراء بخناقه ، فلم يجد بداً من
التشبّث بهذا وأمثاله .

وليس بعيداً أن يكون القول برمته استنباطاً من الشيخ بملاحظة ما عليه
النبي ﷺ من الإستهانة بالدنيا وما عليه أهلها فاستخرج هذا القول من حياة النبي
اجتهاداً منه ، وقد كان عصره عصر الإجهادات المختلفة والتأويلات المتضاربة ، فقد
اعتذر عن خالد في قتل مالك بن نويرة والبناء على زوجته من أنّه اجتهد فأخطأ .
وليس بعيداً أن يكون عمر نفسه جازماً باتهام أبي بكر بوضع الحديد في نفي
الإرث ، وإلا لما ردّ فدكاً إلى الإمام عليّ عليه السلام وعمّه العباس حين أقبلتا يتنازعا في
ميراث النبي في خبر طويل ، وفيه أنّ عمر قال لهما : ثمّ جئتماني وكلمتكما واحدة ،
وأمركما جميع ، فجئتني - يعني العباس - تسألني نصيبك من ابن أخيك ، وجاءني
هذا يسألني نصيب امرأته من أبيها ، فقلت لكما : إنّ رسول الله ﷺ قال : لا نورث ما

(١) ابن كثير ، جامع المسانيد والسنن ، ٦٣٠/٩ ، بل المسند الجامع ، ٦٣٠/٩ .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ١٧٣/٢ .

تركناه صدقة ، فلمّا بدّالي أن أدفعها إليكما ، قلت : أدفعها علي أنّ عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل رسول الله ﷺ ، وأيوبكر ، وبما عملت به فيها ، وإلاّ فلا تكلماني ! فقلتما : إدفعها إلينا بذلك ، فدفعتها إليكما بذلك ، أفتلتمسان منّي قضاءً غير ذلك ! والله الذي تقوم بإذنه السّماوات والأرض لا أقضي بينكما بقضاء غير ذلك حتّى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فادفعها إليّ فأنا أكفيكماها^(١) .

وترد على هذا الحديث الذي ساقه ابن أبي الحديد اشكالات جمّة حيرت الرواة وناقليه ، وهو مضطرب يكذب بعضه البعض الآخر ، وقد تصدّى ابن أبي الحديد لنقده ، وسماه بعد أن استوفاه نقداً «أعجب العجائب» وتوقّف عن ردّه بسبب واحد أبان عنه ، بقوله : ولولا أنّ هذا الحديث أعني حديث خصومة عليّ والعبّاس عند عمر مذكور في الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه ، إذ لو كان غير مذكور في الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن في صحّته ، وإنّما الحديث في الصحاح لا ريب في ذلك...^(٢) وهذا هو التقليد الأعمى الذي يكتم العقل ، ويخمد ضوءه ، ويميت الحسّ ويدع فكر المرء آلة بيد غيره ، بصرفه طبقاً لإرادته .

وهذا إن سهل صدره من عامّة الناس ، فهو من علماء الأئمة ومثقفها فاجعة تحلّ بالأئمة ، وما هي الصحاح التي لا ينبغي أن يرقى إليها النقد؟ وهل هي إلاّ القواعد التي تخطى وتصيب ، وهي صنع بشر غير معصوم ، وكم في الصحاح من حديث موضوع يشهد العقل والنقل بوضعه .

وكم من آخر صحيح وقطعيّ الصدور ، أهملته الصحاح ، واعتبرته من المهملات ، وهذه المستدركات التي وضعها العلماء ، لتتلافى ما أفرط أو فرط به رواية المسانيد والمجاميع شاهد عدل على ما نقول .

وابن أبي الحديد عانى من ازدواجيّة مؤلّمة في نقده لهذا الحديث ، فهو من جهة ما يراه من إشكالات قويّه يحكم عقله برّدّه او برّد اضافاته بعبارة أصحّ ، وهو من جهة اتباعه وراء النظرة العامة للأحاديث المصحّحة من قبل واضعي القواعد يجبر

(١) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٢٣/١٦ ، والحديث طويل ، وأنا اخترت منه موضع الشاهد .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٢٦/١٦ .

عقله على قبوله .. وأكثر القوم يعانون من هذه الإزدواجية أو من ملك العقل منهم على أقل تقدير ويمكن أن يكون للحديث أصل بنى عليه القوم ما أحقوا به من الإضافات لغرض تعديله وجعله منسجماً مع قول أبي بكر.

والحق يقال أنهم لو رووا الحديث كما ورد لأثبت تكذيب عمر لأبي بكر واتهامه له بوضع حديث لا نورث ، وهذه طامة كبرى تحل بهم إذ تأتي على بنيانهم من القواعد .

أقول : نجد لهذا الحديث ذكراً فيما رواه الشيعة ، وقد جاء بسياقين : الأول نزاع العباس والإمام عليه السلام وهو كالتالي :

عن أبي رافع قال ، قال ^(١) إني لعند أبي بكر إذ طلع عليّ والعباس يتدافعان ويختصمان في ميراث النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : يكفيكم القصير الطويل ، يعني بالقصير علياً ، وبالطويل العباس . فقال العباس : أنا عمّ النبي ووارثه ، وقد حال عليّ بيني وبين تركته . قال أبو بكر : فأين كنت يا عباس حين جمع النبي بني عبدالمطلب وأنت أحدهم ، فقال : أيكم يوازرنني ويكون وصيّي وخليفتي في أهلي ، ينجز عدتي ، ويقضي ديني ، فأحجمتم عنها إلا علياً ، فقال النبي ﷺ : أنت كذلك ؟ قال العباس : فما أقعدك مجلسك هذا ؟ تقدّمته وتأمرت عليه ؟ قال أبو بكر :

اعذرونا بني عبدالمطلب ؟

توضيح وتوضيح : لعلّه كان أغدراً يا بني عبدالمطلب ، بتقديم المعجزة على المهملة ، أي أتنازعون وترفعون إليّ للغدر ، وليس غرضكم التنازع ، وظاهر أنّ منازعتهما كان لذلك ، ولم يكن عباس ينازع أمير المؤمنين عليه السلام فيما أعطاه الرسول ﷺ بمحضره ومحضره غيره .

السياق الثاني .. قال في البحار : ويؤيده ما روي أنّ يحيى بن خالد البرمكي سأل هشاماً بن الحكم بمحضر من الرشيد ، فقال : أخبرني يا هشام ، هل يكون الحق في جهتين مختلفين ؟ قال هشام : الظاهر لا .

قال : فأخبرني عن رجلين اختصما في حكم الدين وتنازعا واختلفا ، هل يخلو من أن يكونا محقّين أو مبطلين ، أو أن يكون أحدهما محقّقاً والآخر مبطلاً ؟ فقال

هشام: لا يخلو من ذلك. قال له يحيى بن خالد: فأخبرني عن عليّ والعبّاس لما اختصما إلى أبي بكر في الميراث، أيهما كان المحقّ من المبطل؟ إذ كنت لا تقول أنّهما كانا محقّين ولا مبطلين!

قال هشام: فنظرت فإذا أنتي إن قلت أنّ عليّاً عليه السلام كان مبطلاً كفرت وخرجت من مذهبي، وإن قلت أنّ العبّاس كان مبطلاً ضرب الرشيد عنقي، ووردت عليّ مسأله لم أكن سألت عنها قبل ذلك الوقت، ولا أعددت لها جواباً، فذكرت قول أبي عبد الله عليه السلام: يا هشام! لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك، فعلمت أنّي لا أخذل وعنّي لي الجواب في الحال.

فقلت له: لم يكن لأحدهما خطأ حقيقة، وكانا جميعاً محقّين، ولهذا نظير قد نطق به القرآن في قصّة داود عليه السلام، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إلى قوله: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾^(١)، فأبيّ الملكين كان مخطئاً وأيُّهما كان مصيباً؟ أم تقول: أنّهما كان مخطئين، فجوابك في ذلك جوابي. فقال يحيى: لست أقول أنّ الملكين أخطئا، بل أقول إنّهما أصابا وذلك أنّهما لم يختصما في الحقيقة، ولم يختلفا في الحكم، وإنّما أظهر ذلك لينبّها داود عليه السلام في الخطيئة ويعرّفاه الحكم ويوقفاه عليه.

قال هشام: قلت له: كذلك عليّ عليه السلام والعبّاس لم يختلفا في الحكم، ولم يختصما في الحقيقة، وإنّما أظهرتا الاختلاف والخصومة لينبّها أبابكر على خطئه، ويدلّاه على أنّ لهما في الميراث حقّاً، ولم يكونا في ريب من أمرهما، وإنّما كان ذلك منهما على حدّ ما كان من الملكين. فاستحسن الرشيد ذلك الجواب^(٢).

وبناءً على ما تقدّم تكون الخصومة بينهما وقعت في عهد أبي بكر لينبّها على خطئه لا في عهد عمر، ولكن المجلسي بعد أن ذكر السياقين قال: وقد تنازعا عند عمر بن الخطّاب فيما أفاء الله تعالى على رسوله وفي سهمه من خيبر وغيره، فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو دفعها إليهما، وقال: اقتصلا أنتما فيما بينكما فأنتما أعرف بشأنكما.

(١) سورة ص: ٢٢.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ٦٧/٢٩ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٠.

وهذه الرواية هي المذكورة في صحاح الجمهور، وهي التي تلتكأ عن ردها ابن أبي الحديد، وما رواه الشيعة هو الصحيح منها والباقي اضافات ليست من واحد ولذلك تراها متضادة تتنافر أجزاءها وتتضاد أبعاضها.

وهي تثبت أن فعل عمر نقض لقول صاحبه واتهام له بالوضع، وهذا ما نعتقده نحن، لأن الرجل، سُئِدِه بحجج الزهراء، وحاصرته فلم يجد مهرباً إلا بالوضع، وإلا فليس من المعقول أن تخفي الحقيقة على أهل البيت ويطلع عليها عتيق وحده، ومهما كانت الحال، فإن أول خطوة خطاها أبو بكر، بعد أن ارتفع إلى المنبر، الذي ما افتترعه هو ولا أبوه ولا أحد من آله في يوم من الأيام، دفع الزهراء عن حقها ومصادرة نحلتها، وحيازته بحجة واهية.

عن موسى بن عقبة قال : دخلت فاطمة على أبي بكر حين بويع، فقالت : إن أم أيمن، ورياح يشهدان لي أن رسول الله ﷺ أعطاني فدك، فقال : والله، ما خلف الله أحب إلي من أبيك، لوددت أن القيامة قامت يوم مات، ولئن تفتقر عائشة أحب إلي من أن تفتقري، أفتريني أعطي الأسود والأحمر حقوقهم وأظلمك، وأنت ابنة رسول الله ﷺ، إن هذا المال إنما كان للمسلمين، فحمل منه أبوك الرجل وينفقه في السبيل، فأنا إليه بما وليه أبوك، قالت : والله لا أكلمك. قال : والله لا أهجرك، قالت : والله لأدعون الله عليك، قال : والله لأدعون الله لك (١).

وتقييم المنطقين يدل على أمر هام، وهو شدة الظلم الذي أدخله الخليفة وتابعه على البيت النبوي، ومقدار نصيب الزهراء ﷺ منه، وتجرد الشيخ عن أسلوبه العصبي ومزاجه الإنفعالي وجنوحه إلى أسلوب المراوغة إذ لا بدليل له عن ذلك بعد اطلاعه على النعمة المكبوتة في نفس الزهراء عليه وعلى أعوانه، وهي نعمة قد تثير الأمة ضده، فلا بد من التحاف جلد الصل، السم النافع تحت الجلد الناعم.

وواقع الشيخ يكذب منطقته، فإنه يقول للصديقة ﷺ : ولئن تفتقر عائشة أحب إلي من أن تفتقري.. ولكنك ينحل عائشة أرضاً بالعالية جداد عشرين وسقاً (٢)، ويغصب الزهراء نحلتها في فدك، ويكاد يقضي عليه الورع والخوف من أكل تمر

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٧٩/١٠.

(٢) أنساب الأشراف، ٨٣/١٠.

الصدقة، ولما أخبر به استقاء وقال: إن الصدقة لا تحل لغني ولا الذي مرّة سوي..^(١) ولكنه في مقام العمل، يجرد أهل البيت من معاشهم وينهب أرزاقهم، وسلط أعوانه على البيت الذي يسكنه أحب الخلق إلى الله ورسوله، ومن باهل بهم النبي نصارى نجران، وهم أهل الكساء الذين طيبهم الله وطهرهم من كل رجس، فيحرقون البيت ويقودون الإمام إلى المسجد ملتباً، مخفوراً، كما تقول الروايات، أو مخشوشاً كما تقول صنيعة عمر معاوية، وورائه الزهراء تندب أشجى ندبة، وتبكي أحزب بكاء، فلا يرق للشيخ الورع قلب، ولا يدمع له جفن، وتساءل أنت أيها القارىء كما سألت الأجيال قبلك، أين ذاك الورع من هذه الوحشية والقسوة؟ وهذا الورع نفسه عسير الهضم، يظهر عليه التصنع والتمثيل، لأن الله رفع عنه ما لا يعلم وهو لم يأكل الصدقة عامداً فما موضع القيء هنا؟ ألا يعلم هذا الورع أنه أفسد الطعام مرتين بأكله مرّة ويرميه من بطنه أخرى، ولم يزد الفيء الطين إلا بلّة، وكشف عن جهل مطبق بأحكام الشرع والحمد لله، ولو اعتبرناه موضوعاً من البكريّة كما هو الشأن في كل مناقبه فهو لم ينفعه قيد شعرة، وهلمّ الآن إلى قضية فذك بالرواية الشيعيّة:

نزول الآيات في أمر فذك

عيون أخبار الرضا عليه السلام، فيما احتجّ به الرضا عليه السلام في فضل العترة الطاهرة،

قال:

والآية الخامسة: قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأْتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾^(٢) خصوصيّة خصّهم العزيز الجبار بها، واصطفاهم على الأمة، فلما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: أدعوا إليّ فاطمة، فدعيت له، فقال: يا فاطمة! قالت: لبّيك يا رسول الله. فقال صلى الله عليه وآله: فذك هي ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وهي لي خاصّة دون المسلمين، وقد جعلتها لك، لما أمرني الله به، فخذها لك ولولدك. قال الشيخ الطبرسي رحمته الله: قيل: إنّ المراد قرابة الرسول، عن السديّ، قال: إنّ عليّ بن الحسين قال لرجل من أهل الشام حين بعث به عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن

(١) نفسه، ص ٧٤.

(٢) الإسرا: ٢٦.

معاوية عليهم اللعنة: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أما قرأت: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾؟ قال: وإنكم ذو القربى الذي أمر الله أن يؤتى حقه؟ قال: نعم؛ وهو الذي رواه أصحابنا رضي الله عنهم عن الصادقين عليهما السلام.

وأخبرنا السيد مهدي بن نزار الحسيني باسناد ذكره عن أبي سعيد الخدري، قال: لما نزلت قوله: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أعطى رسول الله ﷺ فاطمة فدك.

قال عبدالرحمن بن صالح: كتب المأمون إلى عبيدالله بن موسى يسأله عن قصة فدك، فكتب إليه عبيدالله بهذا الحديث، رواه عن الفضيل بن مرزوق عن عطية، فردّ المأمون فدك على ولد فاطمة... (١)

عن زينب بنت علي عليها السلام قالت: لما اجتمع رأي أبي بكر على منع فاطمة عليها السلام فدك والعوالي، وأيست من اجابته لها، عدلت إلى قبر أبيها رسول الله ﷺ فألقت نفسها عليه وشكت إليه ما فعله القوم بها، وبكت حتى بلت تربته ﷺ بدموعها عليها السلام، وندبته ثم قالت في آخر نديتها:

قد كان بعدك أنباء وهنيئة	لو كنت شاهدا لم يكبر الخطب
إننا فقدناك فقد الأرض وابلها	واختل قومك فاشهدهم فقد نكبوا
قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا	فغبت عنا فكل الخير محتجب
وكنت بداراً ونوراً يستضاء به	عليك تنزل من ذي العزة الكتب
تجهمتنا رجال واستخف بنا	بعد النبي وكل الخير مغتصب
سيعلم المتولّي ظلم حامتنا	يوم القيامة أنى سوف ينقلب
فقد لقينا الذي لم يلقيه أحد	من البرية لا عجم ولا عرب
فسوف نبكيك ما عشنا وما بقيت	لنا العيون بتهمال له سكب... (٢)

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ..﴾ (٣)، قال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل! قد عرفت المسكين، فمن ذوا القربى؟ قال: هم أقاربك.. فدعى حسناً وحسيناً وفاطمة، فقال: إن ربّي أمرني أن

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ١٠٥/٢٩ و ١٠٦ و ١٠٧، ط دار الرضا - بيروت، تحقيق عبدالزهراء العلوي.

(٢) بحار الأنوار، ١٠٨/٢٩.

(٣) الروم: ٣٨.

أعطيتكم ما أفاء عليّ . قال : أعطيتكم فذكاء .. (١)

عن أبان بن تغلب قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كان رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى فاطمة فذكاءً ؟ قال : كان وقفها فأنزل الله ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ فأعطاها فذكاءً .
وعنه أيضاً قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كان رسول الله أعطى فاطمة عليها السلام فذكاءً ؟ قال : كان لها من الله تعالى .

عن جميل بن درّاج ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أتت فاطمة أبا بكر تريد فذكاء ، فقال : هاتي أسود أو أحمر يشهد بذلك . قال : فأتت بأماً أيمن ، فقال لها : بم تشهدين ؟ قالت : أشهد أنّ جبرئيل أتى محمّداً ، فقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ فآت ذا القربى حقه ﴾ فلم يدر محمّد صلى الله عليه وآله من هم ؟ فقال : يا جبرئيل ! سل ربك من هم ؟ فقال : فاطمة ذو القربى ، فأعطاها فذكاءً ، فزعموا أنّ عمر محي الصحيفة وقد كان كتبها أبو بكر (٢) .

عن أبي مريم قال : سمعت أبا جعفر يقول : لما نزلت آية ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين ﴾ أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة فذكاءً ، فقال أبان بن تغلب : رسول الله أعطها ؟ قال : فغضب أبو جعفر عليه السلام ، ثمّ قال : الله أعطها .. (٣)

ويقول سيّدنا ابن طاووس عليه السلام لولده : وقد وهب جدك محمّد صلى الله عليه وآله أمك فاطمة صلوات الله عليها فذكاءً والعوالي من جملة مواهبه ، وكان دخلها في رواية الشيخ عبد الله بن حمّاد الأنصاري أربعة وعشرون ألف دينار في كلّ سنة ، وفي رواية غيره سبعون ألف دينار ، وهي وزوجها المعظم والواهب الأعظم من أعظم الزهّاد (٤) .

أمير المؤمنين عليه السلام يحاصر أبا بكر ..

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما منع أبو بكر فاطمة عليها السلام فذكاءً وأخرج وكيلها ، جاء أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد ، وأبو بكر جالس وحوله المهاجرون والأنصار ، فقال :

(١) نفسه ، ص ١١٩ .

(٢) بحار الأنوار ، ٢٩ / ١٢٠ و ١٢١ .

(٣) بحار الأنوار ، ٢٩ / ١٢١ .

(٤) ابن طاووس ، كشف المحجّة لثمره المهجة ، ص ١٢٤ .

يا أبابكر! لم منعت فاطمة ما جعله رسول الله ﷺ لها ، ووكيلها فيه منذو سنين!؟
فقال أبوبكر: هذا فيء للمسلمين ، فإن أتت بشهود عدول ، وإلا فلا حق لها فيه .

قال : يا أبابكر! تحكّم فينا بخلاف ما تحكّم في المسلمين!؟ قال : لا .
قال : أخبرني لو كان في يد المسلمين شيء فأدعيت أنا فيه ، من كنت تسأل
البيّنة ؟ قال : إيّاك كنت أسأل .

قال : فإذا كان في يدي شيء فأدعى فيه المسلمون ، تسألني فيه البيّنة ؟ قال :
فسكت أبوبكر ، فقال عمر : هذا فيء للمسلمين ، ولسنا من خصومتك في شيء .
فقال أمير المؤمنين عليه السلام لأبي بكر : يا أبابكر تُقرّ بالقرآن ؟ قال : بلى .

قال : أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ فينا أو في غيرنا نزلت ؟ قال : فيكم .

قال : فأخبرني لو أنّ شاهدين من المسلمين شهدا على فاطمة عليها السلام بفاحشة ما
كنت صانعاً ؟ قال : كنت أقيم عليها الحدّ كما أقيم على نساء المسلمين !!!
قال : كنت إذن عند الله من الكافرين . قال : ولم ؟ قال : لأنك كنت تردّ شهادة
الله وتقبل شهادة غيره ، لأنّ الله عزّ وجلّ قد شهد لها بالطهارة ، فإذا أردت شهادة الله
وقبلت شهادة غيره كنت عند الله من الكافرين .

قال : فبكى الناس وتفرّقوا ودمدموا ، فلمّا رجع أبوبكر إلى منزله ، بعث إلى
عمر ، فقال : ويحك يا بن الخطّاب ! أما رأيت عليّاً وما فعل بنا ؟ والله لئن قعد مقعداً
آخر ليفسدنّ هذا الأمر علينا ولا تنتهتأ بشيء ما دام حيّاً .

قال عمر : ما له إلاّ خالد بن الوليد ، فبعثوا إليه ، فقال له أبوبكر : نريد أن
نحملك على أمر عظيم . قال : احملني على ما شئت ولو على قتل عليٍّ . قال : فهو
قتل عليٍّ . قال : فصرّ بجنبه فإذا أنا سلّمت ، فاضرب عنقه !!

فبعثت أسماء بنت عميس - وهي أمّ محمّد بن أبي بكر - خادمتها فقالت :
اذهبي إلى فاطمة فاقربّيها السّلام ، فإذا دخلت من الباب فقولي : ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ
بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ .. ﴾ ^(١) فإن فهمتها وإلاّ فأعيديها مرّة أخرى .
فجاءت وقالت : إنّ مولاتي تقول : يا ابنة رسول الله ! كيف أنت ؟ ثمّ قرأت هذه الآية :

﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُتْرَكُونَ لِمَا قَدَرْتُمْ﴾ ، فلَمَّا أرادت أن تخرج قرأتها، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام : أقرئها السلام وقولي لها : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَرِيدُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

فوقف خالد بن الوليد بجانبه، فلَمَّا أراد أن يسلم، قال : يا خالد ! لا تفعل ما أمرتك، السلام عليكم ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما هذا الذي أمرك به ثم نهاك قبل أن يُسَلِّمَ ؟ قال : أمرني بضرب عنقك، وإنما أمرني بعد التسليم، فقال : وكنت فاعلاً؟ فقال : اي والله لو لم ينهني لفعلت . قال : فقام أمير المؤمنين عليه السلام فأخذ بمجامع ثوب خالد ثم ضرب به الحائط، وقال لعمر : يا ابن الصهَّاء، والله لولا عهد من رسول الله وكتاب من الله سبق لعلمت أننا أضعف جنداً وأقلَّ عدداً..^(١)

وربما كبر على بعضهم الموقف فاستبعدوا جواز حدوث مثل ذلك، من أمر أبي بكر خالدًا بقتل الإمام عليه السلام علناً على رؤوس الأشهاد، ثم يأمر خالد بوقف التنفيذ، وهو في حالة الصلاة، ولا يكون للقضية رد فعل من المسلمين على الإطلاق، أن ذلك يصعب على العقل التسليم به بسهولة .

ولكن حين نحيط بالقضية من كل أطرافها، ونلم بما جرى لسعد بن عباد من جنهم في حلوان، وقول عبدالرحمن للإمام لما أباي البيعة لعثمان وأتهم عبدالرحمان بممالة عثمان لغاية في نفسه، بقوله : والله ما رجوت منه إلا ما رجا صاحبك من صاحبه، وجواب ابن عوف : بايع ولا تجعل على نفسك سبيلاً. ثم ما كتبه معاوية إلى محمد بن أبي بكر : همًا به الهموم، وأرادا به العظيم، أن قتل الإمام غيلةً كان قضية مطروحة بينهم، وخطّة موضوعة بين أيديهم، كحالة من العلاج الإضطراري للمواقف الصعبة، ولاجرم فالملك عقيم، وكم من ملك قتل فلذة كبده في سبيل الملك، فهذه الخيزران وهذا ابنها الهادي، ومثلها فعلت زمرد خاتون، وأراد أحمد بن طولون قتل ولده عباس، والمأمون قتل أخاه الأمين، والأموي الحاكم في الأندلس قتل ولده، وضحى به في يوم الأضحى وهكذا دواليك ..

فأي مانع أن يعمد مزاج الشيخ العصبي وصاحبه المتدلّ على الحكم المفتون به إلى تصفية علي بن أبي طالب عليه السلام عندما يضيقان به ذرعاً، وقضية محاولة الاغتيال مشهورة .

(١) بحار الأنوار، ١٢٥/٢٩ و ١٢٦ و ١٢٧.

فقد سأل ابن أبي الحديد النقيب أبا جعفر يحيى بن زيد : أحقُّ يذكرون ذلك ، وقد روي أنّ رجلاً جاء إلى زفر بن الهذيل - صاحب أبي حنيفة - فسأله عمّا يقول أبو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم نحو الكلام والفعل الكثير أو الحدث ؟ فقال : إنّه جائز ، قد قال أبو بكر في تشهده ما قال . قال الرّجل : وما الذي قاله أبو بكر ؟ قال : لا عليك . قال : فأعاد عليه السؤال ثانية وثالثة ، فقال : أخرجوه أخرجوه قد كنت أحدث أنّه من أصحاب أبي الخطّاب .

قلت له - أي ابن أبي الحديد - فما الذي تقوله أنت ؟ قال : أنا أستبعد ذلك ، وإنه روته الإماميّة ، إلى آخر ما قال ...^(١)

تمزيق الكتاب ..

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لمّا بويع أبو بكر ، واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار ، بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة بنت رسول الله منها ، فجاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! لم تمنعني ميراثي من أبي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأخرجت وكيلي من فدك ؟! وقد جعلها لي رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى .

فقال : هاتي الشهود ، فجاءت بأمّ أيمن ، فقالت : لا أشهد يا أبا بكر حتّى أحتجّ عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنشدك بالله أأست تعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنّ أمّ أيمن امرأة في الجنّة ؟ فقال : بلى . قالت : فأشهد أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿ فآت ذا القربى حقّه ﴾ ، فجعل فدك لفاطمة بأمر الله .

وجاء عليّ فشهد بمثل ذلك ، فكتب لها كتاباً ودفعه إليها ، فدخل عمر ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ فقال : إنّ فاطمة ادّعت في فدك وشهدت لها أمّ أيمن وعليّ ، فكتبته ، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة فمزقه^(٢) .

وذكر ابن أبي الحديد طرفاً من ذلك ، حيث قال : «... إنّ أبا بكر رقّ لها حيث لم يكن عمر حاضراً ، فكتب لها بفدك كتاباً ، فلمّا خرجت به وجدها عمر ، فمدّ يده إليه

(١) بحار الأنوار ، ١٣٩/٢٩ ، نقلًا عن شرح ابن أبي الحديد ، ٣/٣٠١ و ٣٠٢ .

(٢) بحار الأنوار ، ١٢٧/٢٩ ، ١٢٨ .

ليأخذه مغالبةً، فمنعته، فدفع بيده في صدرها، وأخذ الصحيفة فخرقها بعد أن تفل فيها فمحاها، وأنها دعت عليه، فقالت: بقر الله بطنك كما بقرت صحيفتي...». ولكنه استبعد ذلك وقال: فشيء لا يرويه أصحاب الحديث، ولا ينقلونه، وقدر الصحابة بجل عنه، وكان عمر أتقى الله، وأعرف لحقوق الله من ذلك^(١). ونقول له: إن جرأة عمر وخشونته ثم قسوته أمر ثابت في التاريخ، لا يكاد ينكر. فها هو لا يبالي بشخص رسول الله فيضرب النساء بمحضره، وذلك لما ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ.

عن ابن عباس قال: ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ فبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ بيده وقال: مهلاً يا عمر!.. إلى آخر الحديث^(٢)، فأين ولت تقواه يومئذٍ، ومما لا ريب فيه أن سيدة النساء كانت فيهن، فلم يستح من رسول الله ولم تدركه رافة على نساء أصبن بإحداهن فهن يبكينها ولو كان على شيء من الدين، لأدرك من سكوت رسول الله عنهن أن ذلك جائز في شرعه وإلا لأنكره، وقد أثبت العلماء أن إحدى فروع السنة تقريره ﷺ.. وقد روى الرواة في حق عمر أكثر من ذلك كقول النظام: إن عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألفت المحسن من بطنها^(٣).

وفي كتاب الملل والنحل: أن عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألفت الجنين من بطنها، وكان يصيح: أحرقوا دارها بمن فيها، وكان في الدار غير علي وفاطمة والحسن والحسين^(٤).

سبر المنطقيين وتقييم القولين

لا بد لنا كباحثين في هذه المأساة المرّوعة أن نجري تقييماً لمنطق أبي بكر مقيساً إلى حجة الزهراء عليها السلام في النحلة والإرث.. وقد عثرت على كلام قيم للعلامة

(١) شرح ابن أبي الحديد، ٢٣٤/١٦ و ٢٣٥.

(٢) الشوكاني، نيل الأوطار، ٩٨/٤.

(٣) الصلاح الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٧/٦.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ٥٧/١، تحقيق محمد سيد كيلاني - ١٣٨٧، وط مصطفى البابي -

المتكلم الشيخ علي بن يونس النباطي العاملي البياضي ، يغني عن أكثر الكلام ، فقد قال عليه السلام :

ومنها : منعه فاطمة قريتين من قرى خيبر نحلهما رسول الله ﷺ لها ، وقد ادّعتها مع عصمتها في آية التطهير ، وأورد في مناقبها : فاطمة بضعة مني ، يريني ما أرابها ، ومن أغضبها فقد أغضبني ، وليس للنبي أن يغضب لغضبها إلا وهو حق ، وإلا لجاز أن يغضب لغضب كل مبطل ، وقد شهد لها علي مع قول النبي ﷺ : علي يدور معه الحق حيث دار ، وقوله : علي مع الحق والحق مع علي ، وأم أيمن واسمها بركة وهي حاضنة النبي ﷺ وقد كانت تخبر بفضائله قبل ظهور حاله مع أنه روي أنها كانت في يدها فأخرج عماله منها .

إن قلت : فلعله كان لا يرى عصمتها وعصمة شاهدها !

قلت : فكان يجب إحلافها لأنها في يدها .

إن قلت : فلعله كان لا يرى تكميل البيّنة باليمين .

قلت : هذا مردود ، فإن أكثر علماءكم والمشهور في كتبكم بل وفي سائر

المسلمين خلافه .

إن قلت : فالهبة لا بدّ من قبضها .

قلت : قد بيّنا تصرفها فيها وأنه أخرج عمالها منها .

قالوا : ترك النكير عليه دليل عدم ظلمها .

قلنا : فترك النكير عليها دلّ على صدقها مع أنه معلوم من عصمتها فكان يجب

الحكم بمجرّد قولها ، ولهذا أمضى النبيّ شهادة خزيمة وحده ولم يكن حاضراً لما

علم من عصمته عليه السلام وجعلها بشهادتين ..^(١)

إن قيل : اكتفوا بانكار أبي بكر .

قلنا : إنها أقامت على دعواها وعلى غضبها ، ثم إن كان إنكاره مغنياً لهم عن

إنكارهم عليها فإنكارها مغن لهم عن إنكارهم عليه ..^(٢)

(١) أقول : لا مجال للاستدلال بترك النكير ، وستعرف عمّا قريب أنهم استنكروا فعله وهاجوا عليه ، وكان

على الشيخ البياضي أن يشير إلى ذلك .

(٢) البياضي ، الصراط المستقيم ، ٢/٢٨٢ و ٢٨٣ .

فدك؛ الرمز والحدود

لا تعني فدك عند الزهراء أمراً ذا بال، وإن كثر فيها القول وكبر الخطب، لأنها تتلمذت على يد أديب الله أبيها، وتخرّجت عليه، وهو القائل: لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء، وهو الذي رأى الزهراء عليها السلام تكسح بيتها وعليها «جلّة الإبل» فاستعبر وقال: تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، أو كما قال عليها السلام؛ أتراها بعد هذا كلّه تخرج مطالبة بجزء ضئيل جداً من الدنيا، أعني فدك، إنّ ذلك لا يقوّه عقل ولا يقبله حكيم، وهذا ما جعلنا نتجاوز حدود فدك ذات الحدود الأربع إلى ما هو أوسع وأجمع، إنّ خروج الزهراء هو ثورة على الخليفة، وكانت فدك رمزاً متواضعاً، والأصل في القضية هو إثبات ادّعاء الخليفة وغصبه الإمامة من أهلها، وبهذا ورد الخبر عن الإمام الكاظم عليه السلام.

جاء في مناقب ابن شهر آشوب، في كتاب الخلفاء: أنّ هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر: خذ فدكاً حتّى أردّها إليك، فيأبى، حتّى ألحّ عليه، فقال عليه السلام: لا أخذها إلّا بحدودها. قال: وما حدودها؟ قال عليه السلام: إن حدّتها لم تردّها. قال: بحقّ جدك إلّا فعلت. قال عليه السلام: أمّا الحدّ الأوّل فعند؛ فتغيّر وجه الرشيد، وقال: ايهاً. قال عليه السلام: والحدّ الثاني سمرقند؛ فاربّد وجهه. قال عليه السلام: والحدّ الثالث أفريقيّة؛ فاسودّ وجهه، وقال: هيه. قال عليه السلام: والرابع سيف البحر ممّا يلي الخزر وأرمينيا. قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء، فتحوّل إلى مجلسي. قال موسى عليه السلام: قد أعلمتك أنّي إن حدّتها لم تردّها، فعند ذلك عزم على قتله...^(١)

وهذه حدود دنيا الإسلام يومئذٍ، وفيه دلالة أكيدة على أنّ فدك عند الزهراء عليها السلام ترادف الخلافة ومقام الإمامة، وهي لم تخرج إلّا لهذه الغاية، فخرجها يعني الثورة على غاصبها.

إعلان الثورة على أبي بكر

روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنّه لمّا أجمع أبو بكر على منع

(١) بحار الأنوار، ٢٩/٢٠٠ و٢٠١.

فاطمة عليها السلام فدك ، وبلغها ذلك ، لاثت خمارها على رأسها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذبولها ، وما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنيطت دونها ملاءة ، فجلست ثم أتت أنه أجهد القوم لها بالبكاء ، ، فارتج المجلس ، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم ، وهدأت فورتهم ، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فعاد القوم في بكاءهم ، فلما أمسكوا ، عادت في كلامها ، فقالت عليها السلام :

فقرات ثورية من خطبتها عليها السلام (١)

الحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر على ما ألهم ، والثناء بما قدّم من عموم نعم ابتداها ، وسبوغ آلاء أسداها ، وتمام منن والاياها ، جمّ عن الإحصاء عددها ، ونأى عن الجزاء أمدها ، وتفاوت عن الإدراك أبدها ، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها ، واستحمد إلى الخلائق بأجزالها ، وثنى بالندب إلى أمثالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الإخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأثار في الفكرة معقولها ، الممتنع من الأبصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهام كفيّته ، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأ بلا احتذاء أمثلة امتثلها ، كوّنها بقدرته ، وذراها بمشيئته من غير حاجة إلى تكوينها ، ولا فائدة له في تصويرها إلاّ تبييناً لحكمته ، وتنبهياً على طاعته ، وإظهاراً لقدرته ، وتعبداً لبريّته ، واعزازاً لدعوته ، ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته زيادة لعباده عن نعمته ، وحياسة منه إلى جنّته .

وأشهد أنّ أبي محمداً عبده ورسوله ، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله ، وسماه قبل أن اجتباه ، واصطفاه قبل أن ابتعثه ، إذ الخلائق بالغيب مكنونه ، وبستر الأهاويل مصونة ، وبنهاية العدم مقرونة ، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور ، وإحاطة بحوادث الدهور ، ومعرفة بمواقع المقدور ، ابتعثه الله تعالى اتماماً لأمره ، وعزيمة على إمضاء

(١) نقل هنا فقرات من خطبتها دالة على ما نحن فيه من بيان ثورتها عليها السلام على أمل العودة إلى الخطبة في كتاب مستقل إنشاء الله تعالى .

حكممه ، وانفاذاً لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فرقاً في أديانها ، عكفاً على نيرانها ، عابدة لأوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأثار الله بمحمد عليه السلام ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها ، وجلّ عن الأبصار غممها ، وقام في الناس بالهداية ، وأنقذهم من الغواية ، وبصرهم مع العماية ، وهداهم إلى الدين القويم ، ودعاهم إلى الطريق المستقيم ، ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار ورغبة واينثار لمحمد عليه السلام عن تعب هذه الدار في راحة قد حف بالملائكة الأبرار ، ورضوان الرب الغفار ، ومجاورة الملك الجبار ، صلى الله على أبي نبيه وأمينه على الوحي ، وصفيه وخيرته من الخلق ، ورضيه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

الخطاب مع الحاضرين

ثم التفتت إلى أهل المجلس ، وقالت : أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه ، وحملة دينه ووحيه ، وأمناء الله على أنفسكم ، وبلغائه إلى الأمم ، وزعمتم حق لكم لله فيكم عهد قدمه إليكم ، وبقية استخلفها عليكم .

التعريف بالقرآن

كتاب الله الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، بيّنة بصائره ، منكشفة سرائره ، متجلية ظواهره ، مغتبطة به أشياعه ، قائد إلى الرضوان أتباعه ، مؤدّ إلى النجاة أسماعه ، به تنال حجج الله المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيّناته الجالية ، وبراهينه الكافية ، ورخصه الموهوبة ، وشرائعه المكتوبة ...

وبعد بيان الحكمة في التشريع وسرد معاني الأحكام وأسرارها ، قالت عليها السلام مبيّنة ذاتها ، وكاشفة عن صلتها الوطيدة ، ومقامها الشامخ بمحمد عليه السلام والقرآن ، فقالت :

إني فاطمة ..

ثم قالت : أيها الناس ! إعلموا أنني فاطمة ، وأبي محمد عليه السلام ، أقول عوداً على بدء ، ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ما أفعل شططاً ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم

عزيز عليه ما عنيتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴿١﴾، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أسي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه ﷺ، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً بثبجهم، أخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام، وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص.

واقع العرب قبل الإسلام

وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطىء الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد ﷺ بعد اللتيا واللتى، وبعد أن مني بهم الرجال، وذوبان العرب، ومردة أهل الكتاب ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ ﴿٢﴾، أو نجم قرن الشيطان، وفغرت فاعرة المشركين.

التعريف بصاحب الحق المغتصب

قدف أخاه في لهواتها، فلا ينكفيء حتى يطاء صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه مكدوداً في ذات الله، ومجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيد أولياء الله، مشمراً ناصحاً كادحاً، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون، تترصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتتكصون عند النزال، وتفرّون عند القتال، فلما اختار الله لنبية دار أنبيائه، ومأوى أصفياه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) المائدة: ٦٤.

لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير ابلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة ﴿ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم محيطة بالكافرين﴾^(١)، فهيهات منكم! وكيف بكم؟ وأنتى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهره، وأحكامه زاهره، وأعلامه باهره، وزواجره لائحته، وأوامره واضحه، قد خلقتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟! ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾^(٢)، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين..﴾^(٣) ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثم أخذتم توروون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي واهماً، وسنن النبي الصفي، تسرون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله في الخمر والضراء، ونصبر منكم على مثل حرّ المدى، ووخز السنان في الحشى، وأنتم تزعمون أن لا إرث لنا ﴿أفحك الجاهلية يبيغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون..﴾^(٤) أفلا تعلمون؟! بلى، تجلّى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته أيها المسلمون، أغلب على إرثيه..

تعقيب..

لا تجد وإن فليت الدفاتر والطرورس.. خطاباً متقدماً يصف الواقع الذي عاشته الأمة بعد نبئها ويحكي الحقبة الزمنية التي تلت وفاة النبي ﷺ وما جرى فيها على أهل البيت، من غضب حقهم، وأخذ خلافهم، وردّ إرثهم، وفصلهم عن رسول الله فضلاً بنذهم في العراء، وأقصاهم عن الدارة التي أوتهم، والنبي ﷺ طول عمره، مثل هذا الخطاب النادر، الذي يعكس تلك الفترة على حقيقتها، ويعطي الأخلاف صورة طبق الأصل عن أولئك الأسلاف الذين انقلبوا على الأعقاب بعد نبئهم ﷺ. وكأنه التفصيل لما أجملته الآية، حين أخبرتهم بما يؤول إليه أمرهم بعد وفاة

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) آل عمران: ٨٥.

(٤) المائدة: ٥٠.

النبي ﷺ : ﴿ إِيَّانَ مَاتَ أَوْ قَتَلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ .. ﴾ ، والخطاب لسانه عام ، يشمل الأمة قاطبة ، لم يستثن منهم أحداً ، وقد وصفهم بالنفاق والإرتداد ، واتباع الشيطان لما هتف بهم .

واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم ، فألفاكم لدعوته مستجيبين ..
وأنهم خلفوا القرآن ورائهم ظهرياً ، وأعادوا الجاهلية بعد أن أخزأها الله في محكم الذكر ، وكزوها جذعة بعد أن ولت إلى غير رجعة .

وأطفئوا أنوار الدين ، وأهملوا سنن النبي ، وأنهم اغتتموا موت النبي ﷺ فرصة لائحة ، وأسروا حسواً في ارتغاء ، أي أظهروا خلاف ما أضمروا ، وأبدوا نقيض ما أظهروا ، فقد تظاهروا للناس بالغبرة على الأمة من الفتنة ، ولكن الحقيقة أنهم يريدون حكم الجاهلية وعودة سلطانها البائد .

وكان النبي في حياته سترأ لهم ، فلما توفاه الله إليه هتك سترهم ، وكشرت حقيقة عن ناب أهتم ، ومشوا إلى أهل البيت بالإحن والبغضاء والظلم والإعتداء ، فصار أهل البيت منهم على مثل حرّ المدى ، ووخز السنان في الحشى ..

وحين نجري هذا النص على عمومه ، نكون قد حكمنا على الأمة كلها بالارتداد ؛ تابعاً ومتبوعاً .. وهي وإن كان واقع حالها على هذا الطرف ، دل على ذلك جنوحهم مع الظالم ، وسكوتهم عن الظلم ، ورضاهم بما جرى على أهل البيت ، وتركهم العمل بالوصية ، إلا أن هناك ثلثة من الأمة لا يستهان بها ، ثبتت على الحق ، وأبت أن تحني رأسها لغير الحق ، أو أن تباع المدعي من هؤلاء من وصموا بالردة ، واستباح القرشيون دماءهم وأعراضهم وأموالهم ، فهل يشمل الخطاب هؤلاء أيضاً؟؟

بل هناك فئة خيرة ثبتت مع أمير المؤمنين على أحر من الجمر ، حتى أقصتها السلطة ، وحرمتها حتى من موارد رزقها ، وصنفتها مع غير المرغوب فيهم من أفراد الأمة ، وأبعدهم الخلفاء عن عرصه الحياة إلى الإهمال والنفي ، فهل هؤلاء مع أولئك المنقلبين الضالين؟!

أقول : كلا ، ففي النص جمل صريحة بالإستثناء والتخصيص ، وملاحظتها يخرج الخطاب من العموم ، ويخصه في عصابة الإنقلاب على الأعقاب ، من قبيل قولها ﷺ بعد أن خاطبت الجميع : « وأنتم تزعمون أن لا إرث لي .. » إلى آخر

الخطاب، فهذه الجملة مع نظائر لها حصرت الخطاب مع عصبة الإنقلاب، ومن أعانهم الذين أنكروا إرث أهل البيت، وردّوا قولهم، ومن المعلوم أنّ الأُمَّة كلّها لم تنكر ذلك، ولم تردّه، بل استنكرته، وغضبت لأهل البيت، وسيأتيك ذلك لاحقاً إنشاء الله .

وحينئذٍ بإمكاننا تقييد اطلاق النصّ، أو تخصيص عمومه بمثل هذه الجمل التي وضعتها سيّدة النساء عليها السلام طي كلامها ليزيل اللبس بملاحظتها، فما أعظمها خطبة أتت على بنيان القوم من القواعد، والحمد لله ربّ العالمين .

تقريع أبي بكر وتوجيه الخطاب إليه

يا ابن أبي قحافة! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً، أفعلى عمدي تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراءكم ظهرياً، إذ يقول: ﴿ وورث سليمان داود ﴾ وقال فيما اختصّ من خبر يحيى بن زكريّا عليه السلام، إذ قال: ﴿ هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ وقال: ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾، وقال: ﴿ يوصكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين ﴾ وقال: ﴿ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ .

وزعمتم أن لا حظوة لي ولا أرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصّكم الله بأية أخرج منها أبي عليه السلام؟ أم هل تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟

لأبي بكر أيضاً..

فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعود القيامة، وعند الساعة ما تخسرون، ولا ينفعكم إذ تندمون، و﴿ لكلّ نبأ مستقرّ وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم ﴾ .

خطاب الأنصار..

ثمّ رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: يا معاشر الفتية وأعضاء الملّة وأنصار الإسلام... ما هذه الغميمة في حقّي والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله عليه السلام

أبي يقول : المرء يحفظ في ولده ؟ سرعان ما أحدثتم ! وعجلان ذإ إهالة ! ولكم طاقة بما أحاول ، وقوة على ما أطلب وأزاول ، أتقولون : مات محمد ﷺ ، فخطب جليل ، استوسع وهنه ، واستنهر فتقه ، وانفتق رتقه ، واظلمت الأرض لغيبته ، و كسفت النجوم لمصيبته ، وأكدت الآمال ، وخشعت الجبال ، وأضيع الحریم ، وأزيلت الحرمة عند مماته ، فتلك والله النازلة الكبرى ، والمصيبة العظمى ، لا مثلها نازلة ، ولا بائقة عاجلة ، أعلن بها كتاب الله جلّ ثنائه في أفنيتكم ، في مماسكم ومصبحكم ، هتافاً وصراخاً ، وتلاوة وألحاناً ، ولقبله ما حلّ بأنبیاء الله ورسله حكم فصل ، وقضاء حتم ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين .. ﴾ (١) .

بنو قيلة ، عاقبة السوء

ايهاً بني قيلة ! أأهضم تراث أبي ، وأنتم بمرأى مني ومسمع ، ومبتدٍ ومجمع ؟ تلبسكم الدعوة ، وتشملكم الخبرة ، وأنتم ذوو العدد والعدة ، والأداة والقوة ، وعندكم السلاح والجنّة ، توافيكم الدعوة فلا تجيبون ، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون ، وأنتم موصوفون بالكفاح ، معرووفون بالخير والصلاح ، والنخبة التي انتخبت ، والخيرة التي اختيرت ، قاتلتم العرب ، وتحملتم الكد والتعب ، وناطحتم الأمم ، وكافحتم البهم ، فلا نبرح أو تبرحون ، نأمركم فتأتمرون ، حتّى إذا دارت بنا رحي الإسلام ، ودّر حلب الأيام ، وخضعت ثغرة الشرك ، وسكنت فورة الإفك ، وخمدت نيران الكفر ، وهدأت دعوة الهرج ، واستوسق نظام الدين ، فأنتى حرتم بعد البيان ، وأسرتهم بعد الأعلان ، ونكصتم بعد الإقدام ، وأشركتم بعد الإيمان .. ﴿ .. ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أنخسوهم فإله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .. ﴾ (٢) .

إلى أن تقول سلام الله عليها : ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) التوبة : ١٣ .

التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القنا، وبنّة الصدر، وتقدمة الحجّة، فدونكموها فاحتقبوها دبيرة الظهر، نقبة الحتف، باقية العار، موسومة بغضب الله، وسنار الأبد، موصولة بـ ﴿ نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴾، فبعين الله ما تفعلون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ .

وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فـ ﴿ اعملوا... إنّنا عاملون وانتظروا إنّنا منتظرون ﴾ (١) .

وبالطبع لم تمرّ هذه الخطبة الثورية، ذات العبارات النارية الملتهبة بالعزم والإثارة، على مجتمع المدينة دون أن تترك أثراً في الأمة، أو توقد جذوة الثورة فيهم .

فقد أثارتهم هذه الخطبة وأيقظت ضمائرهم وحملتهم على الاحتشاد لصالح أهل البيت، والتهاتف باسمهم، وشقّ على أبي بكر ذلك، لأنه خشي هو وزمرته أن يفلت الزمام من أيديهم، وتضيع أحلامهم أدرج الرياح، وتقضي عليهم الأمة، فصعد المنبر وقال :

أيّها النّاس ! ما هذه الرعة إلى كلّ قالة ! أين كانت هذه الأماني في عهد رسول الله ﷺ ؟ ألا من سمع فليقل، ومن شهد ليتكلّم، إنّما هو ثعالة شهيد ذنبه، مربّب لكلّ فتنة، هو الذي يقول: كزّوها جذعه بعد ما هرمت، يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء كأّم طحال، أحبّ أهلها إليها البغي، ألا إني لو أشاء لقلت، ولو قلت لبحت، إني ساكت ما تركت .

ثمّ التفت إلى الأنصار، فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهاكم، وأحقّ من لزم عهد رسول الله ﷺ أنتم، فقد جاءكم فأوئتم ونصرتم، ألا إني لست باسطاً يداً ولساناً على من لم يستحقّ ذلك منّا .
ثمّ نزل، فانصرفت فاطمة عليها السلام إلى منزلها (٢) .

(١) بحار الأنوار، ٢٩/٢٢٠ إلى ٢٣٠، وليس بينها وبين النسخ الأخرى كالاحتجاج الذي نقل البحار عنه إلا اختلاف يسير .

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ١٦/٢١٥ .

ملاحظات شتى ..

قول أبي بكر: من سمع فليقل، وكأنه يطلب شاهداً على ما ادّعت الزهراء عليها السلام، أفلا يكفي أم أيمن المشهود لها بالجنة، وولي كل مؤمن ومؤمنة أمير المؤمنين الذي يدور الحقّ معه حيثما دار، وكذلك شهادة سيدي شباب أهل الجنة؟ وانظر إلى سوء أدبه الذي تجلّى بقوله: ثعالة شهيدة ذنبه، وهو مثل معروف، ولا حاجة إلى شرحه، وأفدح من ذلك، تشبيه أمير المؤمنين بأمّ طحال، وهي امرأه في الجاهلية تجمع على الفاحشة، أمّا البغي، فلا أجد الجرأة على توضيحها للقارىء، وجزء من قالها على الله، ولقد قال رسول الله لعليّ عليه السلام: من سبك فقد سبني ..

ثمّ سلني عن هذا السرّ الذي يكتمه هذا الرّجل ويلوّح بإفشائه ما هو؟! «..ألا إنّي لو أشاء لقلت، ولو قلت لبحت..» إنّه يريد أن ينفي الزهراء من بنوّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعلى هذا الأساس منعها من التركة، وعليه كانت ابنته تحتجب من الحسين عليه السلام ولا تحتجب من سالم سبلان، وتأمراً أختها أم كلثوم أن ترضع من تريد دخوله عليها حتّى لمنها نساء النبيّ ومنهنّ أم سلمة رضي الله عنها شدّدت النكير عليها، ولم أجد من فطن لهذا السرّ الفضيع إلّا الأربلي في كشف الغمّة، وقد تعرّضت لهذا في كتبي السالفة، الحكم والأخلاق، ومنية الخطيب، وخبّأت التفاصيل لساعة الحساب إنشاء الله، وفي عقيدتي، أن لا تقيّة بعد اليوم بعد أن تنكر القوم حتّى للمجاملة، فكانوا يقدّفون الحقّ بمختلف التهم بملأ أفواههم، ولك أن تقرأ كتاب «عقيدة الشيعة الإماميّة» للقفاري لتعرف ما قلته لك .

ثمّ قول أبي بكر للأنصار: «أحقّ من لزم عهد رسول الله أنتم»، أكان رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إليه أن يظلم آله، ويهتك حرمتهم، ويسلب حقّهم، ويعتدي عليهم، ويأخذ نحلة ابنته، ويحرق بابها، ويخرجها من خدرها، حاسرة وراء بعلمها المكتوف الملبّب، ليقنّدي به من بعده فيقتلون الذريّة الطاهرة ويسبونهم سبي الترك والديلم؟ لست أدري ما هذا العهد الذي طالب به الأنصار؟! وهل ثبت هو عليه ليحاسب الناس عليه؟

وأخيراً دقّ في قول الرّجل: إنّي لست باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحق

ذلك ممّا.. وهذا القول غاية في التهديد، فإنّ من نصر فاطمة فما عليه إلاّ الإستعداد ليد الخليفة ولسانه، يقول هذا، وله جيش ضارب بقيادة جنراله خالد بن الوليد، يفتك بالنّاس، ويقتلهم، وينصب لهم المشانق، ويخزقهم بالنبل، ويحضر الأخاديد، وفيها النار الموصدة، ويلقيهم مقموطين فيها، ويجعل رؤوسهم أئفية للقذور، ويقتل الرجل لمجرّد أن تكون له زوجة حسناء.

وها هو الخليفة يوقد ناراً مستعرة للفجاءة، ثمّ يلقيه فيها، وتأخذه السنة اللهب، وتثير من جسده فتير الشواء، والشيخ يحذق في المشهد المثير ضاحكاً.. أقول: فمن يجرأ بعد ذلك أن يقول أو يفعل شيئاً يستحقّ عليه يد الخليفة ولسانه؟!

وهذا ولم يقف المسلمون مكتوفي الأيدي بعد اليوم، فقد أخذت خطبة الزهراء عليها السلام منهم مأخذها.

يقول ابن أبي الحديد: قلت لأبي يحيى جعفر النقيب: بمن يعرّض؟ فقال: بل يصرّح. قلت: لو صرّح لم أسألك. فضحك، وقال: بعليّ بن أبي طالب عليه السلام. قلت: هذا الكلام كلّه لعليّ يقوله؟! قال: نعم، إنّه الملك يا بني. قلت: فما مقالة الأنصار؟ قال: هتفوا بذكر عليّ، فخاف من اضطراب الأمر عليهم، فنهاهم...^(١)

وبدأت ثورة الزهراء تجد لها مكاناً في صدور الأمة، ولولا اشتغالهم بالفتوح وما جننته لهم من الغنائم المثيرة لطوحت بالقوم من أوّل يوم، ولكنّها استقرّت عاملة تحت السطح حتّى تفجّرت على يد أبناءها فأقاموا بها القيامة للظالمين، وشيّد منهم الدول والحكومات بها نظير الفاطميين من شيّد، وظلّت الثورة تلتهب في الصدور فهي تارة تندلع على شكل ثورة تهزّ عرش الطاغية، وتندلع على شكل استنكار وبراءة من الظالم واستماتة مرّة أخرى.

نقل التقي السبكي قال: كنت بالجامع الأموي، ظهر يوم الإثنين سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فأحضر إليّ شخص شقّ صفوف المسلمين في الجامع وهم يصلّون الظهر، ولم يصلّ، وهو يقول: لعن الله من ظلم آل محمّد، وهو يكرّر ذلك، فسألته من هو؟! فقال: أبو بكر. قلت: أبو بكر الصديق؟

(١) شرح نهج البلاغة، ٢١٥/١٦.

قال: أبو بكر وعمر وعثمان ويزيد ومعاوية، فأمرت بسجنه، وجعل غلّ في عنقه، ثم أخذته القاضي المالكي فضربه وهو مصرّ على ذلك، وزاد فقال: إنّ فلاتاً عدوّ الله، شهد عليه عندي بذلك شاهدان، وقال: إنّه مات على غير الحقّ، وأنّه ظلم فاطمة ميراثها، وأنّه يعني أبابكر، كذب على النبي ﷺ في منعه ميراثها، وكرّر عليه المالكي الضرب يوم الإثنين ويوم الأربعاء والذي يليه، وهو مصرّ على ذلك، ثمّ أحضروه يوم الخميس بدار العدل، وشهد عليه في وجهه، فلم ينكر ولم يقرّ، ولكن صار كلّما سُئل يقول: إن كنت قلت فقد علم الله تعالى، فكّرر السؤال عليه مرّات وهو يقول هذا الجواب، ثمّ أعذر عليه فلم يُبِدِ دافعاً، ثمّ قيل له: تب، فقال: تبت عن ذنوبي، وكرّر عليه الإستتابه وهو لا يزيد في الجواب على ذلك، فطال البحث في المجلس على كفره وعدم قبول توبته، فحكم نائب القاضي بقتله، فقتل (١) رضوان الله عليه.

وسيلقى القاتل الله تعالى بدمه والله حسيبه لأنّه قتل امرأ مسلماً مصون الدم على غير شيء سوى سبّه لعدوّ أهل البيت ﷺ ولعن عدوّهم، وهؤلاء الذين قتلوا المسلم نحتوا لابن هند وزمرته ألف عذر وعذر في لعنهم أهل البيت عشرات السنين على أعواد المنابر، فلم يؤاخذهم أحد بل سوّدوا بطون الصحائف في تخريج الموضوعات في مناقبهم، وزادوا على ذلك بتصنيفهم في عداد المجتهدين لينالوا على الكفر أجراً، وهذه من مفارقاتهم التي لا زالت تملأ القلوب دماً، والعيون دموعاً.

حديث الإرث..

ولم يقتصر ظلم الرجل أهل البيت بمصادرة النحلة، بل تعدّاه إلى حرمانهم من الإرث بخبر رواه وحده لم يروه معه إلا ابنته عائشة وأعرابيّ يقال له: مالك بن أوس، وصفه من عرفه بأنّه يتطهّر ببوله، وقبل الخوض في هذه المسألة نقول: إنّ هذا الحديث لو ثبت لكان اتهاماً للنبي ﷺ بالتقصير في تبليغ الأحكام، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وأنذر عشيرتَكِ الْأَقْرَبِينَ﴾، فكيف يترك ذلك النبيّ منهم في تبليغهم

حكماً يختص بهم ثم يهمس به في أذن أبي بكر، بل هو أمر يكذبه شاهد الحال، فما كان النبي ﷺ من شأنه ذلك، بل كان يعلن تبليغ الأحكام حين يؤمر بها لتصل إلى سمع الناس جميعاً، وإن كانت تخص البعض دون الكل، فكيف أفرد أبابكر بتبليغه حكماً ليس له، وترك من يعنيه الحكم دون تبليغ؟ أم ترى أن الزهراء عليها السلام كانت على علم بذلك فكتمته وحينئذ يتسع الخرق على الراقع ويكون تكذيباً لله سبحانه، حيث أخبر عن تطهيرها عن الرجس ولم تكن كذلك نعوذ بالله، ثم إن هذه المسألة تنحل إلى مسألة أخرى وهي هل يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد أو لا يجوز ذلك؟

تخصيص الكتاب بخبر الواحد

اختلف العلماء في هذه المسألة بين مانع من جوازه مستدلاً بأن التخصيص معارض للعام والكتاب مقطوع به، والخبر الواحد مظنون، فكيف يقدم الظن على القطع؟ ومنهم من قال بجوازه شرعاً وعقلاً وزعم أنه واقع فعلاً..

والذي احتج به ابن السمعاني يدعو إلى العجب والتأمل وذلك أنه احتج على الجواز بإجماع الصحابة فإنهم خصوا قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(١) بقوله ﷺ: إنا معاشر الأنبياء لا نورث...^(٢)

وهذا الإجماع الذي ادّعه لا عين له ولا أثر، ولم يكن على هذا القول إلا صاحبه أبو بكر، وأنكره عليه حتى صاحبه عمر حين أرجع فداً إلى أهل البيت، ولم يجد أبو بكر أحداً من الناس يشهد له بسماعه من النبي ﷺ إلا ابنته ومالك بن أوس كما تقدم^(٣).

وقال أبو إسحاق الشيرازي: ويدل عليه أن فاطمة لما جاءت تطلب ميراثها من رسول الله ﷺ واحتجّت بالآية، فقال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وأجمعت الصحابة على العمل

(١) النساء: ١١.

(٢) الشوكاني، ارشاد الفحول، ١/٥١٥.

(٣) راجع شرح ابن أبي الحديد، ١٦/٢٤٥.

بذلك الخبر، وهو خبر واحد، وقد خصّصوا به عموم القرآن^(١).

وهذا الإجماع كصاحبه لا وجود له إلا في رأس الصديق، والعجب أن من خصّصوا القرآن بحديث رواه، لا يرى ذلك ويردّه، فقد روى عن ابن أبي مليكة أنّ أبابكر جمع أصحاب رسول الله ﷺ فقال: إنكم تحدّثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها فمن بعدكم أشدّ اختلافاً، فمن جاءكم يسألكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا: عندنا كتاب الله، فأحلّوا حلاله وحزّموا حرامه، فأمرهم بالرجوع إلى كتاب الله، ومنع الاعتراض عليه بخبر الأحاد^(٢).
ولعلّ هذا هو السبب الذي حمل بعض الحنابلة على منع تخصيص الكتاب بخبر الأحاد^(٣).

والواقع أنّ حديث أبي بكر هذا ليس من باب خبر الواحد سواء جوّزنا التخصيص به أو منعه، لأنه لا يخصّص عموماً، وإنّما يعارض القرآن فيما أخبر به عن الأنبياء من كونهم يتوارثون شأنهم شأن غيرهم، فهو يكذب خبراً ورد بالقرآن كقوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾ و﴿هب لي وليّاً يرثني﴾ الآية.
فأخبر أبوبكر بحديث رواه وحده أنّ ما قالته الآية ليس له أصل، فإنّ معاشر الأنبياء لا يورثون، فلم يرث سليمان داود، ولم يطلب زكريّا من ربّه وارثاً..
من هنا اعتبر هذا الحديث قولاً قاله أبوبكر أو رأياً رآه، وعزاه إلى النبيّ اضطراراً.

ومهما تكن الحال، فإنّنا مأمورون بعرض ما يرد علينا من الأحاديث على كتاب الله فما قبله قبلنا، وما عارضه أو نافاه رميناه عرض الجدار.
وهذا القول - ولا أسمّيه حديثاً - يعارض كتاب الله، فليس له إلا سلّة المهملات، وإن رواه بكر وأبوبكر وأمّ بكر..
وانظر الصديقة الطاهرة عليها السلام كيف حاورت الرجل بالقرآن، وهو حوار يدلّ على هزيمة الشيخ أمام حجج الزهراء الناصبة، فقد قال لها بعد سماع خطبتها:

(١) الشيرازي، شرح اللمع، ٣٥٣/١.

(٢) أصول الحصاص، ٧٧/١.

(٣) ارشاد الفحول، ٥١٥/١.

عن عطية العوفي أنه سمع أبا بكر يومئذ يقول لفاطمة عليها السلام : يا ابنة رسول الله لقد كان عليه السلام بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وإذا عزوانه كان أباك دون النساء، وأخا ابن عمك دون الرجال، أثره على كل حميم، وساعده على الأمر العظيم، لا يحبكم إلا العظيم السعادة، ولا يبغضكم إلا الرديء الولادة، وأنتم عتره الله الطيبون، وخيرة الله المنتخبون، على الآخرة أدلتنا، وباب الجنة لسالكنا، وأما منعك ما سألت فلا ذلك لي، وأما فذك، وما جعل لك أبوك فإن منعك فأنا ظالم، وأما الميراث فقد تعلمين أنه عليه السلام قال: لا نورث ما أبقيناه صدقة.

قالت: إن الله يقول عن نبي من أنبيائه: ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾، وقال: ﴿ وورث سليمان داود ﴾ فهذان نبيان وقد علمت أن النبوة لا تورث، ولكن يورث ما دونها، فمالي أمنع إرث أبي؟ أنزل الله في الكتاب إلا فاطمة بنت محمد فتدلتني عليه فأقنع به؟

فقال: يا بنت رسول الله عليه السلام أنت على الحجة ومنطق الرسالة، لا يدلي بجوابك، ولا أدفعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك، هو الذي أخبرني بما تفقدت، وأنبأني بما أخذت وتركت. قالت: فإن يكن ذلك كذلك فصبراً لمر الحق، والحمد لله إله الخلق (١).

عجيبية العجائب ..

إن من يصدق بما نسب إلى أبي بكر، يحكم على عقله بالفناء، أترأه يعرف لهم هذا القدر العظيم، ثم يرسل مفارزه العسكرية بقيادة جنراله السفاح، ويأسر الإمام، ويحرق الباب، ويبرز الصديقة ورائه، إن هذا الشيء عجيب.

ثم هل يعقل أحد ما قاله أبو بكر من علم الإمام بحديث «لا نورث» ثم يدع الزهراء تخرج عليه تطالبه وهو يدافعها، فما الذي منع الإمام من إخبارها، لئلا تتحمل هذه الإهانة وهذا الرد، ألا يكون الإمام قد ارتكب - وحاشاه - هذا الإصر

(١) أحمد بن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣١ و٣٢.

العظيم والذنب الفادح في كتمان الحق عمّن يعنيه الأمر وبهمّه ؟

ثمّ ألا ترى أنّ المسالك ضاقت بالشيخ فما قدر على شيء ذي بال ، إلا بأن يلقى التبعة في رواية الحديث على الإمام ، ولو صحّ ما قاله فما باله اعتراه شيطانه بعد خطبة الزهراء وراح يرغي ويزبد ويسبق ويرعد مهذّداً بيده ولسانه وناعثاً أميرالمؤمنين بالنعوت التي يجلّ عنها أصغر واحد في المسلمين ، من قبيل «مرّب الفتنة ، وأمّ طحال ..» وهكذا دواليك ، وأخيراً ، تصوّر لنا الزهراء هذه الرواية بأنّها اعترفت لأبي بكر بالحقّ وصبرت لمرّه .

أيصحّ ذلك ممّن ظلّت غاضبة عليه ، وأوصت أن لا يحضر وصاحبه جنازتها ، وأمرت الإمام أن يدفنها سرّاً ، والخبر من الشهرة بحيث يعرفه كلّ أحد ، وهذه القضية المسوّرة لا يشك فيها اثنان ، وجميع ما تقدّم يثبت لنا زيف ما نقله عطية العوفي ..

زيادة تقييم للموقف

لمّا طلبت ميراثها من أبيها لقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم ﴾ (١) الآية ، وهي محكمة كما قال صاحب التقریب : إنّها نسخت الموارث المتقدّمة .
عارضها برواية تفرد بها هي قول النبي ﷺ « لا نورث ما تركناه صدقة » ، والظاهر تزويرها ، وإلا كيف يخفى عن أهل بيته وجميع المسلمين حالها ، وخبر الواحد إذا لم يكن مشهوراً وعارضه القرآن فكان مردوداً لقوله ﷺ : إذا ورد عني حديث فأعرضوه على كتاب الله ، فإن وافقه فاقبلوه وإلا فردّوه ، ولمّا سأله عن قسم رسول الله ﷺ في الغنيمة ، قالت : أنت ورثت رسول الله ﷺ ؟ قال : لا بل ورثه أهله ، فإذا كان لا يورث فأبّي شيء ورث أهله ؟ وإذا صحّ هذا بطل ذلك لتناقضهما ، وقد شهدتما بعدم ميراثه ، ولفقتما مالك بن أوس معكما ، فوالله ما شكّ بعد هذا أنكما بالباطل شهدتما ، فلعنة الله عليكمما ، وعلى من أجاز شهادتكما ، فولّنا تلعنانه وتقولان : أخذت سلطانتنا ومنعتنا مالنا ، فقال : وأبّي سلطان لكما ولأبويكما .. (٢)

(١) النساء : ١١ .

(٢) الصراط المستقيم . ٢٨٣/٢ ، والرواية حذف صدرها ، والظاهر أنّها حوار بين عثمان وعائشة وحفصة ..

وقد أخرج ابن قتيبة قولها في جوابه : يرثك أهلك ولا يرث رسول الله ؟
وأخرج الترمذي أنها قالت : من يرثك ؟ قال : أهلي وولدي ، قالت : فمالي لا
أرث أبي ؟

وأخرج البخاري أنها قالت : أترث أباك ولا أرث أبي ؟ أين أنت من قوله
تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ وقول زكريا : ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من
آل يعقوب ﴾ ، وإذا أجمع على أنها أتت بآبتي الميراث في احتجاجها ، ودلت الدليل
على عصمتها ، وحيث الجزم بحجية قولها .. قالوا : المراد بالآيتين إرث العلم
والنبوة ، إذ لو أريد المال ، لما اختص سليمان دون زوجات أبيه ، وباقي وارثيه ، وكذا
الكلام في يحيى مع أبيه .

قلنا : العلم والنبوة تابعان للمصلحة ، لا مدخل للنسب والتوارث فيهما ، ولا
يرد قول النبي ﷺ لعلي في حديث زيد بن آدمي : ما ورث الأوصياء من قبلك
كتاب الله وسنة نبيه ، لأنه من طريقكم ، وإنما نوره إزاماً لكم ، على أن في ارثه
للكتاب والسنة دليل الخلاف إذ لو كان ثم أقرب منه وأولى لما ورثه الولاية العظمى ،
وإذا قالوا : لا تجتمع النبوة والإمامة في بيت عند قولنا : لا تخرجوا سلطان محمد من
بيته ، قلنا : قد يولد منه النبي فما يمنع الوصي مع اجماعكم بعد الثلاثة على
علي عليه السلام ، وإرث العلم ، موقوف على الاجتهاد لا الميراث ، ولهذا إن سليمان أوتي
حكماً وعلماً في حياة أبيه ، فلا مدخل للإرث فيه .

وذكر سليمان في الإرث لا يدل على اختصاصه به لعدم دلالة التخصيص
بالذكر ، على التخصيص بالحكم ، والإرث حقيقة في المال ، وقصة زكريا تدل عليه
حين طلب ولداً يحجب بني عمه عنه وعن الإفساد فيه ، لأنهم كانوا فساقاً ، والتقدير
خفت الموالي ، أن يعصو الله بمالي ، فذهب بهذا ما يتوهم من نسبة البخل إليه ،
والعلم والنبوة لا حجب عنها بحال ، لأنه بعث لإذاعة العلم ، فكيف يخاف شيء
بعث لأجله .

يقول البيضاوي رحمته الله : ثم نرجع ونقول : إنه اشترط في الولد كونه رضيعاً أي عاملاً
بطاعة ربه ، مصلحاً لماله ، والنبي لا يكون إلا رضيعاً ، فلا معنى للتقييد بكونه رضيعاً .

إن قلت: يجوز الدعاء بالواقع مثل ربنا احكم بالحق، واجعلنا مسلمين لك . قلت: كان تعبدًا وانقطاعاً إليه تعالى فيما يعود إلى الداعي، بخلاف هذا، ولذلك لا يحسن ربنا ابعث نبياً، واجعله عاقلاً...^(١) وهذا فصل قيم جداً وعلمي من الطراز المحكم، ولكن الشيخ البياضي أفسده بما يأتي:

إن قيل: قولكم: ولا نورث ما تركناه صدقة - بالنصب - بل ميراثاً لم يتأوله أحد . قلنا: أوله أصحابنا فلا إجماع في غيره ... إن قيل: لو كان هذا التأويل صحيحاً لم يكن لتخصيص الأنبياء بالذكر مزية، إذ غيرهم كذلك .

قلنا: يجوز أن يريد إنما ننوي فيه الصدقة ونفرده، وإن لم نخرجه من أيدينا لا يناله وارثنا وهذه مزية، مع أنه يجوز ترجيح الخاص بالذكر، «كفاهة ورمان» وما يدريك من أن النبي ﷺ علم من حاله إنكار ميراثه، فأفرده بالذكر لهذه الرواية . إن قيل: إنما رويت «صدقة» بالرفع، وهو ينفي ذلك . قلنا: إن أهل الرواية ما يجري في هذا المجرى أو لعلهم نسوا واشتبه عليهم فرفعوها على ظنهم...^(٢)

أقول: سامح الله هذا العالم الفاضل عما ارتكب من هذا التأويل البارد الغث، الذي ليس من حاجة تدعو إليه، اللهم إلا حاجة واحدة وهي جواز صحته، وهذا يدل على تزلزل الإعتقاد .

إن من يجادل عن هذا الحديث ويجعل له مكاناً في جواز الوقوع كمن يجادل عن آية مسيلمة: «الذين يغسلون ثيابهم ولا يجدون ما يلبسون فأولئك هم المفلسون»، في جواز كونها من القرآن من سورة الحشر مثلاً، أو سورة القيامة، كلاً والله، لا مكان لحديث «لا نورث» في السنة، وأن تأويله ومحاولة إدخال التعديل عليه إساءة إلى سيّدة النساء، التي ردّته على قائله بكتاب الله، وأثبتت معارضته

(١) البياضي، الصراط المستقيم، ٢/٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٨٥ .

(٢) البياضي، الصراط المستقيم، ٢/٢٨٦ .

بمحكم القرآن بما استشهدت به من آي وراثه الأنبياء ، فما هذه الهيمنة بعد ذلك؟! وهذا الذي تأوله الشيخ قد قعد له شيعة أبي بكر بمرصد ، وردّوه قبل أن يفرزه خيال سيّدنا الشيخ ، فقد قال قاضي القضاة حول ذلك : فأما من يقول : إنّ المراد : أنّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة أي ما جعلنا صدقة في حال حياتنا لا نورثه ، فركيك من القول ، لأنّ اجماع الصحابة يخالفه ، لأنّ أحدا لم يتأوله على هذا الوجه ، ولأنه لا يكون في ذلك تخصيص الأنبياء ولا مزية لهم ، ولأنّ قوله ما تركناه صدقة جملة من الكلام مستقلة بنفسها ، كأنه عليه السلام مع بيانه أنّهم لا يرثون المال يبيّن أنّه صدقة ، لأنه يجوز أن لا يكون ميراثاً ويصرف إلى وجه غير الصدقة ^(١) .

وغضب الخليفة الإبراهيم كما غضب النحلة ، ورجعت فاطمة عليها السلام واجدة عليه ، وقد امتلأ قلبها بغصتها ، ثمّ جاءت الثالثة تطالبه بحق واضح صريح ، نزل به كتاب الله ، وأقرّه رسول الله ، ألا وهو سهم ذوي القربى ، فكان لها من أبي بكر مواقف ثلاث لم يلبّ طلبها في موقف واحد منها ، بل كذبها وردّ عليها ، وعادت منه راغمة كما كانت تقول عليها السلام .

سهم ذوي القربى

يقول ابن أبي الحديد : واعلم أنّ الناس يظنون أنّ نزاع فاطمة بأب بكر كان في أمرين : في الميراث والنحلة ، وقد وجدت في الحديث أنّها نازعت في أمر ثالث ، ومنعها أبو بكر إيّاه أيضاً وهو سهم ذوي القربى .. وذكر الحديث التالي عن أبي بكر الجوهري بسنده عن أنس بن مالك ، قال : إنّ فاطمة عليها السلام أتت أبابكر فقالت : لقد علمت الذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات وما أفاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى ، ثمّ قرأت عليه قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسة وللرسول ولذوي القربى .. ﴾ ^(٢) الآية .

فقال لها أبو بكر : بأبي أنت وأمّي ووالدٍ ولدك ، السمع والطاعة لكتاب الله ،

(١) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٣٩/١٦ ، ٢٤٠ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ، ٢٣٠/١٦ . الأنفال : ٤١ .

ولحق رسول الله ﷺ ، وحق قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله الذي تقرأين منه ، ولم يبلغ علمي منه أن هذا السهم من الخمس يسلم إليكم كاملاً . قالت : أفلك هو ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أنفق عليكم منه وأصرف الباقي في مصالح المسلمين . قالت : ليس هذا حكم الله تعالى . قال : هذا حكم الله ، فإن كان رسول الله عهد إليك في هذا عهداً أو أوجبه لكم حقاً صدقته وسلمته كله إليك أو إلى أهلِكَ . قالت : إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلي في ذلك بشيء إلا أنني سمعته يقول لما أنزلت هذه الآية : أبشروا آل محمد فقد جاءكم الغنى .

قال أبو بكر : لم يبلغ علمي من هذه الآية أن أسلم إليكم هذا السهم كله كاملاً ، ولكن لكم الغنى الذي يغنيكم ويفضل عنكم ، وهذا عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فأسألهم عن ذلك ، وانظري هل يوافقك على ما طلبت أحد منهم ، فانصرفت إلى عمر ، فقالت له مثل ما قالت لأبي بكر ، فقال لها مثل ما قاله أبو بكر ، فعجبت فاطمة عليها السلام من ذلك ، وتظنت أنهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه ^(١) .

إن ما قاله الشيخ عن ثعالة وذنبه عاد عليه ، فلماذا هذان دون غيرهما ، ارجع الأمر إليهما ؟ ولماذا لم يوكل الأمر إلى غيرهما من عيون الصحابة وأعلام المهاجرين والأنصار ؟ أليس هذا يحكي قصة التواطء على ظلم أهل البيت بينهم ؟ وبما أن فقهاء القوم تبع لسيرة الشيخين ، لا يألون جهداً في توجيه أقوالهم وأفعالهم الوجهة الصحيحة ، فقد تاهوا في ذوي القربى وتعددت أقوالهم ، فمن قائل أنهم قريش ، وبهذا يكون سهم ذوي القربى لبطن قريش وأفخاذها حتى بنو عبد شمس منهم ، ومن قائل أنهم يختصون ببني هاشم وبني المطلب وعلى هذا القول الشافعي لأنه فيما يدعى من بني المطلب ، واستدلوا بقول النبي ﷺ لما قسم بينهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب : إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ، وشبك بين أصابعه ؛ أخرجه النسائي والبخاري . قال البخاري : قال الليث : حدثني يونس وزاد : ولم يقسم النبي ﷺ لبني

عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً..

ومنهم من حصر ذوي القربى ببني هاشم خاصة وهو قول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام (١).

رأي أهل البيت عليهم السلام

يقول شيخ الطائفة الطوسي رحمته الله: وعند أصحابنا أنّ مال الفيء للإمام خاصة، يفرقه فيمن شاء بعضه في مؤنة نفسه وذوي قرابته واليتامى والمساكين وابن السبيل من أهل بيت رسول الله، ليس لسائر الناس فيه شيء، وأمّا خمس الغنيمة، فإنه يقسم عندنا ثلاثة أقسام: فسهم لله، وسهم لرسوله للنبي، وهذان السهمان مع سهم ذي القربى، للقائم مقام النبي صلى الله عليه وآله ينفقها على نفسه وأهل بيته من بني هاشم، وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لأبناء السبيل من أهل بيت الرسول، لا يشركهم فيها باقي الناس، لأنّ الله تعالى عوضهم ذلك عمّا أباح لفقراء المسلمين ومساكينهم وأبناء سبيلهم من الصدقات إذ كانت الصدقات محرّمة على أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وهو قول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمّد بن علي الباقر عليهما السلام.. (٢)

وعن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسة وللرسول ولذي القربى﴾ قال: هم قرابة رسول الله، والخمس لله وللرسول ولنا.. (٣)

وصودر الخمس كما صودرت فدك وكما منع منها الإرث ألم تكن الزهراء على حقّ في واحدة من هذه الثلاثة؟! إنّ أبابكر يعلم في قرارة نفسه صدق الزهراء عليها السلام فيما قالت، وما ادّعت، وكذلك أعوانه وشيعته، ولكنّه أراد لعلي عليه السلام أن يظلّ فقيراً، لا مال له، ليضمن تبعيته لهم ويأمن جانبه، وكأنّ المال يحول بين الإمام

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠/٨ و١٢ بتصرّف.

(٢) الطوسي، التبيان، ١٢٣/٥.

(٣) البرهان، ٨٣/٢.

وبين الثورة على حكمه لو أراد ذلك .

وهكذا بقي الإمام يكدح في سبيل جني القوت له ولأسرته في العهدين .
 روى ابن عباس قال : دخلت على عمر في أوّل خلافته ، وقد ألقى له صاع من
 تمر على خصفة ، فدعاني إلى الأكل ، فأكلت ثمرة واحدة ، وأقبل يأكل حتّى أتى
 عليه ، ثمّ شرب من جرّ كان عنده ، واستلقى على مرفقة ، وطفق يحمد الله ويكرّر
 ذلك ، ثمّ قال : من أين جئت يا عبدالله ؟ قلت : من المسجد . قال : كيف خلّفت ابن
 عمّك ؟ فظننته يعني عبدالله بن جعفر ، قلت : خلّفته يلعب مع أترابه . قال : لم أعن
 ذلك ، إنّما عنيت عظيمكم أهل البيت . قلت : خلّفته يمتح بالغرب على نخيلات من
 فلان وهو يقرء القرآن... (١)

وهذا الغرب يستحيل إلى متاع زهيد تفتات منه أسرة الإمام وبنو أميّة في
 الشام وغيره يلبسون الحرير ، ويشربون الخمر ، ويأكلون بأنثة الذهب والفضّة ،
 وأخيراً من أجل أن يظلّ عليّ يمتح بالغرب ردّت دعاوي الزهراء الثلاث ...

طلّاع الغضب المقدس

يقول ابن شهر آشوب : لما انصرفت فاطمة عليها السلام من عند أبي بكر ، أقبلت عليّ
 أمير المؤمنين عليه السلام ، فقالت له : يا ابن ابي طالب ! اشتملت شملة الجنين ، وقعدت
 حجرة الظنين ، نقضت قادمة الأجدل ، فخانك ريش الأعرل ، أضرعت خدك يوم
 أضعت جدك ، افترست الذئاب ، وافترشت التراب ، ما كفت قائلاً ، ولا أغنيت
 باطلاً ، هذا ابن أبي قحافة قد ابتزني نحيلة أبي ، وبليغة ابني ، والله لقد أجهد في
 ظلامتي ، وألدّ في خصامي ، حتّى منعتني قبلة نصرها ، والمهاجرة وصلها ، وغصّت
 الجماعة دوني طرفها ، فلا مانع ولا دافع ، خرجت والله كاظمة ، وعدت راغمة ، ولا
 خيار لي ، ليني متّ قبل ذلّتي ، وتوقّيت قبل منيتي ، عذيري والله فيك حامياً ،
 ومنك داعياً ، ويلاي في كلّ شارق ، ويلاي في كلّ غارب ، مات العمدة ، ووهن

العضد ، شكواي إلى ربّي ، وعدواي إلى أبي ، اللهم أنت أشدّ قوّة ..
فأجابها أمير المؤمنين عليه السلام : لا ويل لك ، بل الويل لشانك ، نهني عن وجدك
يابنة الصفوة ، وبقية النبوة ، فوالله ما وهنت في ديني ، ولا أخطأت مقدوري ، فإن
كنت تريدن البلغة فرزقك مضمون ، وكفيلك مأمون ، وما أعدّ لك خير ممّا قطع
عنك ، فاحتسبي . فقالت : حسبي الله ونعم الوكيل ..^(١)

خداع التنصل ..

استتب الأمر للشيخين ، واستأصلت المعارضة أو أسكتت ، وبدأت الجيوش
تغير على البلاد المجاورة ليتمّ فتحها ، وشعر الرجال بنوع من الإستقرار على كلّ
جهات إلاّ جهة واحدة ، لا زال الخطر يلوح عليهم منها ، فرأى الشيخان احتواءها
لخفق الأصوات التي انطلقت تندد بهم ، سواء من الأقرباء أو الأنصار ، تلکم هي
الجهة الفاطميّة ، وقد أساء فهم واقعها ، فقد استقرّ في خلدكم أنّها فورة عاطفيّة
وأزمة نفسيّة ، لا تلبث إلاّ يرثمها يتقادم العهد أو يتوفّى الصديقة ربّها سبحانه ، ثمّ تعود
الأموال إلى مجاريها الطبيعيّة ، وينتهي كلّ شيء ، لذلك عمدا إلى إجراء مضحك ،
لتعجيل نهاية الإزمة ، كما تصوّرا ، أو للتمويه على عامّة الناس ، كما قدّرا ، لذلك
استأذنا الإمام في زيارة الزهراء عليها الصّلاة والسّلام ، وقيل : بل استأذن أبو بكر
وحده ، حين طلب إلى زوجه أسماء أن تستأذن له على فاطمة عليها السلام بترضاها ، فسألته
ذلك ، فأذنت له ، فلمّا دخل ولّت وجهها الكريم إلى الحائط ، فدخل وسلّم عليها ،
فلم تردّ ، ثمّ أقبل يعتذر إليها ويقول : أرضي عني يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالت : يا
عتيق ! أتيتنا من ماتت^(٢) أو حملت الناس على رقابنا أخرج فوالله ما كلّمتك أبداً
حتّى ألقى الله ورسوله فأشكوك إليهما^(٣) .

(١) المناب ، ٥٠/٢ .

(٢) العبارة غير مفهومة ، ومحقّق الكتاب لم يصلحها وأوضحها بعبارة بعيدة ممّا يدلّ على أنّه لم يقطع
باستقامتها .

(٣) بحار الأنوار ، ١٥٨/٢٩ .

وفي رواية أخرى: أنها عليها السلام مرضت فجاء يعودانها فلم تأذن لهما، فجاء ثانية من الغد، فأقسم عليها أمير المؤمنين فأذنت لهما، فدخلها عليها فسَلَمَا، فردّت ردّاً ضعيفاً، ثم قالت لهما: سألتكما بالله الذي لا إله إلا هو أسمعتما بقول رسول الله في حَقِّي: من آذى فاطمة فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله. قالوا: اللّهُمَّ نعم، قالت: فأشهد أنّكما قد آذيتماني.

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: بينما أبوبكر وعمر عند فاطمة عليها السلام يعودانها، فقالت لهما: أسألكما بالله الذي لا إله إلا هو هل سمعتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من آذى فاطمة فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله؟ فقالوا: اللّهُمَّ نعم، قالت: فأشهد أنّكما آذيتماني^(١).

وأنا أشكّ في أمر هذه الزيارة، وأظنّها لَقِمت بآخره لتقوم بعذر الشيخين، وقد انساق الشيعة وراء الرواة فرووها في كتبهم، فليس من المعقول أن تندمل الجراح بهذه السرعة، ويأذن أمير المؤمنين أو الصديقة عليها السلام لمن وقف بالأمس القريب على الباب وأحرقه وقاد أمير المؤمنين ملتبساً إلى المسجد لغرض البيعة عليه، اللّهُمَّ إلا أن نقول: أحضرتهما الزهراء بمحض اختيارها لتبلغهما نتائج الحكم عليهما من محكمة السماء والحكم الله، والخصم رسوله، والموعود القيامة، وبالفعل لقد وجّهت إليهما القول الصاعق: «من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»، فقاما نادمين على الحضور، لم يكسبا شيئاً وقد خسرا أشياء.

الحزن القاتل..

اشتدّ الحزن بسيدة النساء بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلاذت بالدموع تذرّفها هنا وهناك، حتّى عرفت بذلك بين الناس، وكانت عليها السلام تلتمس مواقع الحزن لتكون ذريعة في استدرار الدّموع.

عن محمود بن لبيد قال: لَمَّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانت فاطمة عليها السلام تأتي

قبور الشهداء، وتأتي قبر حمزة وتبكي هناك، فلَمَّا كان في بعض الأيام أتيت قبر حمزة فوجدتها صلوات الله عليها تبكي هناك، فأمهلتهَا حَتَّى سَكَنْت، فَأَتَيْتَهَا وَسَلَّمْتُ عَلَيْهَا، وَقَلْتُ: يَا سَيِّدَةَ النَّسْوَانِ، قَدْ وَاللَّهِ قَطَعْتُ أُنْيَاطَ قَلْبِي مِنْ بَكَائِكَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَمْرٍ! لِحَقِّ لِي الْبِكَاءِ، فَقَدْ أَصَبْتُ بِخَيْرِ الْآبَاءِ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاشْوَقَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

إِذَا مَاتَ مَيِّتٌ قَلَّ فِي النَّاسِ ذِكْرُهُ وَذَكَرَ أَبِي مَدَامَاتِ وَاللَّهِ أَكْثَرَ
إِلَى آخِرِ الرَّوَايَةِ (١).

عن أبي جعفر عن آبائه عليهم السلام، إِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ مَا رُوِيَ ضَاحِكَةً.
عن أبي جعفر عليه السلام: إِنَّ فَاطِمَةَ عَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: مكثت فاطمة عليها السلام في مرضها خمسة عشر يوماً وتوفيت.

ولعل ذلك نظراً إلى اشتداد وطأة المرض عليها.

الباقر عليه السلام قال: ما رُوِيَ فَاطِمَةَ عليها السلام ضَاحِكَةً قَطْ مِنْذُو قَبْضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَبِضَتْ.

عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: عاشت فاطمة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسة وسبعين يوماً لم تُرْكَاشِرْهُ وَلَا ضَاحِكَةً، تَأْتِي قُبُورَ الشَّهَدَاءِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَيْنِ الْإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَتَقُولُ عليها السلام: هَاهُنَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، وَهَاهُنَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ.

وفي رواية أبان عَمَّنْ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: أَنَّهَا كَانَتْ تَصَلِّيَ هُنَاكَ، وَتَدْعُو حَتَّى مَاتَتْ عليها السلام.

قال أبو عبدالله عليه السلام: إِنَّ فَاطِمَةَ مَكَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ

يوماً ، وكان دخلها حزن شديد على أبيها ، وكان جبرئيل يأتيها ، ويطيب نفسها ، ويخبرها عن أبيها ومكانه في الجنة ، ويخبرها ما يكون بعدها في ذرّتها ، وكان عليّ عليه السلام يكتب ذلك .

أبو عبدالله عليه السلام : البكاؤون خمسة : آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد وعليّ بن الحسين عليه السلام ؛ فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية ، وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره وحتى قيل له : ﴿ تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين ﴾ ، وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن فقالوا له : إما أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار ، وإما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل ، فصالحهم على واحدة منهما .

وأما فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تأذى به أهل المدينة ، فقالوا لها : قد أذيتنا بكثرة بكاءك ، فكانت تخرج إلى المقابر - مقابر الشهداء - فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف .

وأما عليّ بن الحسين ، فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة أو أربعين سنة ، ما وضع بين يديه طعام إلا بكى ، حتى قال له مولى له : جعلت فداك يا بن رسول الله ! إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين . قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقنني العبرة .

قال الأربلي في كشف الغمّة : ونقلت من كتاب الذرية الطاهرة للدولابي في وفاتها عليها السلام ما نقله عن رجاله ، قال : لبثت فاطمة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشهر . وقال ابن شهر آشوب : ستة أشهر . وقال الزهري : ستة أشهر ، ومثله عن عائشة ، ومثله عن عروة بن الزبير . وعن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام خمساً وتسعين ليلة في سنة إحدى عشر . وقال ابن قتيبة في معارفه : «مائة يوم» .

وفي المناقب لابن شهر آشوب : قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولها يومئذ ثماني عشرة سنة وسبعة أشهر ، وعاشت بعده اثنين وسبعين يوماً ، ويقال : خمسة وسبعون يوماً ، وقيل : أربعة أشهر ، وقال الفريابي : قد قيل أربعون يوماً ؛ وهو أصح .

واختلفت الروايات في وقت وفاتها ، ففي رواية أنها بقيت بعد رسول

الله ﷻ شهرين ، وفي رواية ثلاثة أشهر ، وفي رواية مائة يوم ، وفي رواية ثمانية أشهر^(١) .

عن علي عليه السلام قال : غسلت النبي ﷺ في قميصه ، فكانت فاطمة تقول : أرني القميص فإذا شمته غشي عليها ، فلما رأيت ذلك غيبتة .

وجاء في كتاب «من لا يحضره الفقيه» أنّ بلالاً امتنع من الأذان ، قال : لا أوذن لأحد بعد رسول الله ﷺ ، وإن فاطمة عليها السلام قالت ذات يوم : إنّي أشتهي أن أسمع صوت مؤذن أبي ﷺ بالأذان ، فبلغ ذلك بلالاً ، فأخذ في الأذان ، فلما قال : الله أكبر ، الله أكبر ، ذكرت أباه وأيامه ، فلم تمالك من البكاء ، فلما بلغ إلى قوله : أشهد أنّ محمداً رسول الله ، شهقت فاطمة عليها السلام وغشي عليها ، فقال الناس لبلال : أمسك يا بلال فقد فارقت ابنة رسول الله ﷺ الدنيا ، وظنوا أنّها قد ماتت ، فقطع أذانه ولم يتحمّ ، فأفاق فاطمة عليها السلام وسألته أن يتمّ الأذان ، فلم يفعل ، وقال لها : يا سيّدة النسوان ! إنّي أخشى عليك ممّا تنزلينه بنفسك إذا سمعت صوتي بالأذان ، فأعفته من ذلك ..

المناقب لابن شهر آشوب : وروي أنّها ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس ، ناحلة الجسم ، منهدة الرّكن ، باكية العين ، محترقة القلب ، يغشى عليها ساعة بعد ساعة ، وتقول لولديها : أين أبوكما الذي كان يكرمكما ، ويحملكما مرّة بعد مرّة ؟! أين أبوكما الذي كان أشدّ الناس شفقةً عليكما ، فلا يدعكما تمشيان على الأرض ؟! ولا أراه يفتح هذا الباب أبداً ، ولا يحملكما على عاتقه كما لم يزل يفعل بكما ..

ثمّ مرضت ومكثت أربعين ليلة ...^(٢)

الخطة الثانية

الإحتجاج : قال سويد بن غفلة : لمّا مرضت فاطمة عليها السلام المرضة التي توفيت

(١) راجع عوالم العلوم ، ص ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٤ ، وذكر صاحب الكتاب المصادر التي أخذ منها رواياته .

(٢) عوالم العلوم ، ص ٢٣٣ و ٢٣٤ .

فيها، اجتمع إليها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علتك يا بنت رسول الله؟ فحمدت الله، وصَلَّت على أبيها ﷺ، ثم قالت: أصبحت والله عاتفة لديناكن، قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وسئمتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحد، واللعب بعد الجد، وقرع الصفات، وصدع القناة، وختل الآراء، وزلل الأهواء، وبئس ما قَدَّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، لا جرم لقد قَلدتهم ربقتها، وحملتهم أوقتها وشننت عليهم غاراتها، فجدعاً، وعقراً وبعداً للقوم الظالمين، ويحهم أتى زعزعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبن بأمور الدنيا والدين؟! ألا ذلك هو الخسران المبين! وما الَّذي نعموا من أبي الحسن ﷺ؟! نعموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله، وتالله لو مالوا عن المحجة اللابحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردَّهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سجعاً، لا يكلم حشاشه ولا يكلم سائره، ولا يمل راكمه، ولأوردهم منهلاً نميراً، صافياً، رويّاً، تطفح ضفتاه، ولا يترق جانباه، ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سرّاً وإعلاناً، ولم يكن يتحلّى من الدنيا بطائل، ولا يتحظى منها بنائل، غير ريّ الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم: الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ألا هلّم فاسمع؟! وما عشت أراك الدَّهر عجباً! وإن تعجب فعجب قولهم!! ليت شعري إلى أيِّ إسناد استندوا؟! وإلى أيِّ عماد اعتمدوا؟! وبأيِّ عروة تمسكوا؟! وعلى أية ذرّية أقدموا واحتنكوا لبس المولى ولبس العشير، وبئس للظالمين بدلاً، استبدلوا والله الذنابي بالقوادم والعجز بالكاهل فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ويحهم ﴿أَفَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أما لعمرى لقد لقحت، فنظرة ريشما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً وزعافاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب ما

أَسَسَ الْأَوْلَادَ، ثُمَّ طَبَّيُوا عَنْ دُنْيَاكُمْ أَنْفُسًا، وَاطْمَأَنَّنُوا لِلْفِتْنَةِ جَاشَأً، وَابْشَرُوا بِسَيْفِ صَارِمٍ، وَسَطْوَةِ مَعْتَدِ غَاشِمٍ، وَبِهَرَجٍ شَامِلٍ، وَاسْتِبْدَادِ مِنَ الظَّالِمِينَ، يَدْعُ فِيئِكُمْ زَهِيدًا، وَجَمْعَكُمْ حَصِيدًا، فَيَا حَسْرَةً لَكُمْ! وَأَتَى بِكُمْ وَقَدْ عَمِيَتْ عَلَيْكُمْ! ﴿ أَنْزَلِمْكُمْ هَا وَأَنْتُمْ هَا كَارِهُونَ ﴾ .

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها عليها السلام على رجالهنّ، فجاء إليها قوم من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيّدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر قبل أن يبرم العهد، ويحكم العقد، لما عدلنا عنه إلى غيره. فقالت عليها السلام: إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم^(١).

الوصيّة والوفاة ::

واشتدّ بها المرض عليها السلام، فكانت يغمى عليها مرّة، وتفريق أخرى، ولا تستطيع التحوّل من جنب إلى آخر، فكانت ممرّضتها تقبّلها كلّما طلبت منها ذلك، واستدعت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ قالت له: أمّنقذ أنت وصيّتي وعهدي؟ قال: بلى أنفذا، فأوصت إليه وقالت: إذا أنا متّ فادفني ليلاً، ولا تؤذّننّ رجلين ذكرتهما... ثمّ أوصته أن يتخذ لها نعشاً رأت الملائكة صوروا صورته ووصفته له، وأن لا يشهد أحد جنازتها ممّن ظلمها، ولا أن يصلّوا عليها، وأن يتزوّج بأمامة ابنة أختها زينب لتقوم بخدمة ولدها.

ومن وصيّتها إذا أنزلها في القبر وسوى التراب عليها يجلس عند رأسها قبالة وجهها ويكثر من تلاوة القرآن والدعاء، فإنّها ساعة يحتاج الميّت فيها إلى أنس الأحياء.

وأن لا يعلم بموتها إلّا أم سلمة وأم أيمن وعبدالله بن العباس وسلمان والمقداد وأباذر وعمّار وحذيفة.

(١) الإحتجاج، ١٤٦/١؛ والبحار، ١٥٩/٤٣، وراجع عوالم العلوم، ص ٢٣٧، ٢٣٨ عنهما؛ وبلغات النساء، ص ٣٢ و٣٣.

رؤيا سعيدة

وفي بعض هذه الأيام رأت في المنام أباها رسول الله ﷺ فشكت إليه ما نالها من بعده، فقال لها: إنك قادمة عن قريب، ورأت في المنام مرة أخرى كأن ملائكة كثيرة هبطوا من السماء صفوفاً يقدمهم ملكان، فرفعوها إلى السماء، وإذا بقصور مشيدة وبساتين وأنهار، وخرجت من تلك القصور جواري يضحكن ويقلن: مرحباً بمن خلقت الجنة لها، وخلقنا من أجل أبيها، ثم لم تزل الملائكة تصعد بها حتى أدخلوها داراً فيها قصور كثيرة، وفي القصور بيوت لا تعد، وفيها من السندس والاستبرق على الأسرة شيء كثير غير أواني الذهب والفضة، فيها ألوان الطعام، ورأت أنها رأت أشدّ بياضاً من اللبن وأطيب رائحة من المسك، فقالت: لمن هذه الدار وما هذه الأنهار؟ فقيل لها: أما الدار فهي الفردوس الأعلى ليس بعده جنة وهي دار أبيك ومن معه من النبيين ومن أحب الله، وهذا نهر الكوثر الذي وعد الله أباك أن يعطيه إياه.

فقالت: أين أبي؟ قالوا لها: الساعة يدخل عليك فيبناهي كذلك إذ ظهر لها قصور أعلا من تلك القصور، وفرش أحسن مما رأتها، وإذا أباها جالس على تلك الفرش، ومعه جماعة، فأخذها وضمها إليه، وقبل ما بين عينيها، وقال لها: يا بنيته! أما ترين ما أعد الله لك، وما تقدمين عليه، ثم أراها قصوراً مشرفات، فيها ألوان الطرايف والحلي والحلل، وقال: هذا مسكنك ومسكن زوجك وولديك ومن أحببك وأحبهما، فطبيبي نفساً فإنك قادمة علي بعد أيام؛ فانتبهت فرحة وقصت الرؤيا على أمير المؤمنين عليه السلام^(١).

وما زالت تقول في أيام مرضها: يا حيّ يا قيوم! برحمتك أستغيث فأغثني، اللهم زحزحني عن النار، وأدخلني الجنة، وألحقني بأبي محمد، فإذا قال لها أمير المؤمنين: عافاك الله وأبقاك، تقول: يا أبا الحسن! وما أسرع اللحاق برسول الله ﷺ.

وفي الليلة التي أراد الله أن يكرمها باللحوق بأبيها، أتاها جبرئيل ومعه

(١) المقدم، وفاة الصديقة، ص ١١١ و ١١٢، نقلاً عن دلائل الإمامة، ص ٤٣.

الملائكة، فسلم عليها، فاخبرت أمير المؤمنين عليه السلام بذلك، ثم بعد هنيئة سمعها تقول: وعليكم السلام يا رسل ربي، فسألها أمير المؤمنين عليه السلام عن سلم عليها فأخبرته، بأن ميكائيل سلم عليها وهو يقول: إن الله تعالى يقرئك السلام يا حبيبة حبيب الله، وثمره فؤاده، اليوم تلحقين بالرفيق الأعلى وجنة المأوى.

الفاجعة ..

الروايات عن كيفية وفاتها وأرواحنا لها الفداء كثيرة، وعلى من أراد التوسع أن يطلبها في المصادر التي تضمنت حادثة الوفاة، ونكتفي بالرواية التي نقلها سيدنا المترم في كتابه عن وفاتها عليها الصلاة والسلام في هذا الكتاب.

يوم الوفاة ..

قالت أم سلمة زوجة أبي رافع: كنت أمرض فاطمة أيام شكاتها، فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيتها في شكواها..^(١) فقالت لي: يا أمّاه! اسكبي لي غسلًا، فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل، ثم قالت لي: يا أمّاه! أعطيني ثيابي الجدد، فلبستها، وأمرتني أن أقدم فراشها وسط البيت، ففعلت، فنامت عليه مستقبلة القبلة، وقالت: يا أمّاه! إنني مقبوضة الآن، فلا يكشفني أحد.

تقول أسماء بنت عميس: لما دخلت فاطمة البيت انتظرتها هنيئة، ثم ناديتها، فلم تجب، فناديت: يا بنت محمد المصطفى، يا بنت أكرم من حملته النساء، يا بنت خير من وطأ الحصى، يا بنت من كان من ربه قاب قوسين أو أدنى، فلم تجب، فدخلت البيت وكشفت الرداء عنها فإذا بها قد قضت نحبها شهيدة، صابرة مظلومة محتسبة، ما بين المغرب والعشاء، فوقعت عليها أقبلها، وأقول: يا فاطمة! إذا قدمت على أبيك عليه السلام فاقريه مني السلام، فبينا هي كذلك وإذا بالحسن والحسين عليهما السلام دخلا الدار وعرفا أنها ميتة، فوقع الحسن يقبلها ويقول: يا

(١) وأحسب أن هذا هو السبب الذي حمل الإمام على مغادرة سريرها بعد أن رآها قد أصبحت سالحة، ولو كان يدري بساعة الوفاة لما غادر البيت عليها السلام.

أمّاه كَلَميني قبل أن تفارق روحي بدني، والحسين يقبّل رجلها ويقول: يا أمّاه أنا ابنك الحسين كَلَميني قبل أن ينصدع قلبي فأموت، ثمّ خرجا إلى المسجد وأعلما بأبهما بشهادة أمّهما، فأقبل أمير المؤمنين إلى المنزل وهو يقول: بمن العزاء يا بنت محمّد، كنت بك أتعرّئى، فقيم العزاء من بعدك، وقال: اللّهُمَّ إِنِّي راضٍ عن ابنة نبيّك ﷺ، اللّهُمَّ إِنّها قد أوحشت فأنسها، وهجرت فصلها، وظلمت فاحكم لها يا أحكم الحاكمين.

وخرجت أمّ كلثوم متحلّلة برداء وهي تصيح: يا أبتاه يا رسول الله! الآن حقاً فقدناك، فقدأ لا لقاء بعده، وكثر الصراخ في المدينة على ابنة رسول الله، واجتمع الناس ينتظرون خروج الجنّازة، فخرج إليهم أبوذر وقال: انصرفوا، إنّ ابنة رسول الله آخر إخراجها هذه العشيّة.. (١)

التجهيز والدفن

وأخذ أمير المؤمنين في غسلها وعلله الإمام الصادق عليه السلام بأنّها صدّيقة، فلا يغسلها إلاّ صدّيق كما أنّ مريم لم يغسلها إلاّ عيسى عليه السلام.

قال عليه السلام: إنّ عليّاً أفاض عليها من الماء ثلاثاً وخمساً، وجعل في الخامسة شيئاً من الكافور، وكان يقول: اللّهُمَّ إِنّها أمتك وبنت رسولك، وخيرتك من خلقك، اللّهُمَّ لَقْنها حجّتها، وأعظم برهانها، واعلّ درجاتها، واجمع بينها وبين محمّد ﷺ، وحنّطها من فاضل حنوط رسول الله ﷺ الذي جاء به جبرئيل، فقال النبيّ ﷺ: يا عليّ وبيا فاطمة! هذا حنوط من الجنّة دفعه إليّ جبرئيل، وهو يقرئكما السّلام ويقول لكما: أقسماه واعزلا منه لي ولكما. فقالت فاطمة: ثلثه لك، والباقي ينظر فيه عليّ، فبكى رسول الله وضمّها إليه، وقال: إنّك موفّقة رشيدة مهدّية ملهمة. يا عليّ! قل في الباقي، فقال: نصف منه لها ونصف لمن ترى يا رسول الله، قال: هو لك (٢).

(١) المقمّم، وفاة الصّدّيقة الزهراء، ص ١١٤ نقلاً عن روضة الواعظين، ص ١٣١.

(٢) نفسه، ص ١١٥، عن الطرف لابن طاووس، ص ٤١ طرفة ٢٧.

وكفّنها في سبعة أثواب، وقبل أن يعقد الرداء عليها نادى: يا أم كلثوم! يا زينب! يا فضّة! يا حسن! يا حسين! هلمّوا وتزوّدوا من أمّكم الزهراء، فهذا الفراق واللقاء في الجنّة، فأقبل الحسنان عليهما السلام يقولان: واحسرتا! لا تنظفي من فقد جدّنا محمّد المصطفى وأمّنا الزهراء، إذا لقيت جدّنا فافترّبه منّا السّلام، وقولي له: إنّنا بقينا بعدك يتيمين في دار الدّنيا. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أشهد الله أنّها حنّت وأنت ومدّت يديها وضمّتهما إلى صدرها مليّاً، وإذ ابها تف من السّماء ينادي: يا أبا الحسنين، أرفعهما عنها فلقد أبكيا والله ملائكة السّماء، فرفعها عنها وعقد الرّداء عليها. وصلّى عليها ومعها الحسن والحسين وعقيل وعمّار وسلمان والمقداد، ودفنها في بيتها..

ولمّا وضعها في اللحد، قال: بسم الله الرحمن الرحيم - بسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله محمّد بن عبد الله، سلّمك أبتها الصّديقة إلى من هو أولى بك منّي، ورضيت لك بما رضي الله لك، ثمّ قرأ: ﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾.

وفي حديث غيرنا: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا أنزلها في القبر وسوّاه عليها سأله الملكان: من ربّك؟ قالت: الله ربّي، قالوا: من نبيّك؟ قالت: أبي محمّد، قالوا: ومن إمامك؟ قالت: هذا القائم على قبري؛ علي ^(١).

ثمّ إنّه عليه السلام سوّى في البقيع سبعة قبور، أو أربعين قبراً، ولمّا عرف الشيوخ دفنها وفي البقيع قبور، جدّد، أشكل عليهم الأمر، فقالوا: هاتوا من نساء المسلمين من ينبش هذه القبور لنخرجها ونصلّي عليها، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فخرج مغضباً، عليه قباء الأصفر، الذي يلبسه على الكريهة، وبيده ذوالفقار، وهو يقسم الله، لئن حوّل من القبور حجر، ليضعنّ السيف فيهم، فتلقّاه عمر ومعها أصحابه، فقال له مالك: والله يا أبا الحسن لننبشنّ قبرها ونصلّي عليها.

فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام بمجامع ثوبه، وضرب به الأرض، وقال له: يا بن

(١) عزاه سيّدنا المقرّم في وفاة الصّديقة ص ١١٦ إلى الاصابة، ٤/٤٧٨ بترجمة عروة بن مسعود، ولم أعرّض عليه لا في الترجمة ولا في الجزء والصفحة، والعلم عند الله سبحانه.

السوداء ، أمّا حَقِّي فقد تركته مخافة أن يرتدَّ النَّاس عن دينهم ، وأمّا قبر فاطمة فولذي نفس عليٍّ بيده لئن حوّل منه حجر ، لأسقبنَّ الأرض من دمائكم ، وجاء أبو بكر ، وأقسم عليه برسول الله أن يتركه ، فخلّى عنه وتفرَّق النَّاس .

مناجاة ..

لمّا وضع أميرالمؤمنين عليه السلام الصّدّيقة الطاهرة في لحدها ، وسوّى التراب على القبر ، هاج به الحزن ، وأرسل دموعه على خديّه ، وأنشأ يقول :

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة وكلّ الذي دون الفراق قليل
وإنّ افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل
وقال أيضاً :

نفسي على زفراتها محبوسة ياليتها خرجت مع الزفرات
لا خير بعدك في الحياة وإنّما أبكي مخافة أن تطول حياتي..^(١)

عن عليٍّ عليه السلام : أنّ فاطمة رضي الله عنها لمّا توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله ، كانت تقول : وا أبتاه ! من ربّه ما أدناه ، و أبتاه ! جنان الخلد مأواه ، وا أبتاه ! ربّه يكرمه إذا أتاه ، وا أبتاه ! الربّ والرسل يسلمّ عليه حين يلقاه ، فلمّا ماتت فاطمة ، قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام :

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة وكلّ الذي دون الفراق قليل
وإنّ افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل^(٢)

ثمّ حوّل وجهه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : السلام عليك يا رسول الله ! منّي ومن ابنتك وحبيبتك وقرّة عينيك وزائرتك والباثئة في الثرى ببقعتك ، والمختار لها الله سرعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفتك صبري ، وضعف عن سيّدة النساء تجلّدي ، إلّا أنّ لي في التأسّي بسنتك والحزن الذي حلّ بي لفراقك موضع التعزّي ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك بعد أن فاضت نفسك على صدري ،

(١) المقرّم . وفاة الصّدّيقة ، ص ١١٦ و ١١٧ نقلًا عن المستدرک ، ١٦٣/٣ ؛ والسناقب ، ٤٨/١ عن الحاكم .

(٢) المستدرک ، ٦٣/٣ .

وغمضتكَ بيدي، وتولّيت أمركَ بنفسِي، نعم، وفي كتاب الله نعم القبول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، واختلست الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء يا رسول الله، أمّا حزني فسرمد، وأمّا ليلي فمسهد، لا يبرح الحزن أو يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، كمد مقبّح، وهمّ مهيبّ، سرعان ما فرّق بيننا وإلى الله أشكو.

وستنبّك ابنتك بتظاهر أمّتك عَلَيّ وعلى هضمها حقّها، فاستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً، ويحكم الله وهو خير الحاكمين، سلام عليك، سلام مودّع لا سأل ولا قال، فإن أنصرف لا عن ملالة، وإن أقم فلا سوء ظنّ: بما وعد الله الصابرين، والصبر أيمن وأجمل، ولولا غلبة المستولين علينا لجعلت المقام عند قبرك لزاماً، واللبث عنده معكوفاً، ولأعولت إعوالم الثكلى على جليل الرزية، فبعين الله تدفن ابنتك سرّاً، ويهضم حقّها قهراً، ويمنع إرثها جهراً، ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر، فإلى الله المشتكى، وفيك أجمل العزاء، وصلوات الله عليك وعليها، ورحمة الله وبركاته.. (١)

الخاتمة ..

كان لغضب سيّدة النساء على الرجلين ردّ فعل عظيم في نفوس المسلمين أمس واليوم، بل صار موقف الزهراء من الرجلين سبباً في توقّف الكثير عن تولّيها، وسنداً لجرحهما، وسقوط منزلتهما عند الله وعند الناس ..

وكانت سيّدة النساء على علم تامّ بالأحداث، فقد قرّرت سلام الله عليها أنّ الزمن القادم يجري في صالحهما، وسوف يمحو من الخواطر والأذهان مشاهد الحزن التي عانت منها الزهراء، وسوف تذهب الأقوال عند قوم أدراج الرياح، بل من المقطوع به أنّ القوم سيبذلون أقصى الجهد في طمس هذه المعالم المؤثرة أفعالاً

(١) وفاة الصديقة الزهراء، ص ١١٧ و ١١٨.

وأقوالاً، لذلك اتخذت إجراءً فاعلاً، لا يمكن أن يمحي حين أوصت بدفنها سرّاً، ومنعت من حضور القوم جنازتها، وهذا الأمر ثابت ثبوت الشمس في رابعة النهار، من هنا جاءت محاولة القوم في إنكار هذه المسألة، جاء في شرح ابن أبي الحديد عن قاضي القضاة، قوله :

ومما يذكرونه أنّ فاطمة لغضبها على أبي بكر وعمر أوصت ألاّ يصلّيا عليها، وأن تدفن سرّاً منهما، فدفنت ليلاً، وهذا كما ادّعوا: رواية رووها عن جعفر بن محمد عليه السلام وغيره أنّ عمر ضرب فاطمة بالسوط... ثمّ قال مجيباً عن هذا: ونحن لا نصدّق هذه الروايات ولا نجوزها، وأمّا أمر الصّلاة، فقد روي أنّ أبابكر هو الذي صلّى على فاطمة عليها السلام وكبّر عليها أربعاً، وهذا أحد ما استدلّ به كثير من الفقهاء في التكبير على الميّت، ولا يصحّ أيضاً أنّها دفنت ليلاً وإن صحّ ذلك فقد دفن رسول الله صلى الله عليه وآله ليلاً ودفن عمر ابنه ليلاً، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يدفنون بالنّهار ويدفنون بالليل، فما في هذا ممّا يطعن به، بل الأقرب في النساء أنّ دفنهنّ ليلاً أستر وأولى بالسنة، ثمّ حكى عن أبي عليّ تكذيب ما روي من الضرب بالسوط، قال: والمروي عن جعفر بن محمد عليه السلام أنّه كان يتولّاهما ويأتي القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: وأمّا حديث الإحراق، فلو صحّ لم يكن طعناً على عمر، لأنّ له أن يهدّد من امتنع من المبايعات إرادة للخلاف على المسلمين لكنّه غير ثابت، إنتهى كلام قاضي القضاة.

وأجابه سيّدنا علم الهدى الشريف المرتضى عليه السلام بجواب يشفي الصدر، ويزيح الهمّ، ويروي غلّة الظمئان، وهو مستوفٍ ضافي، وقال فيه :

وأما قوله: إنّ أبابكر هو الذي صلّى على فاطمة وكبّر أربعاً، وإنّ كثيراً من الفقهاء يستدلّون به على التكبير على الميّت، وهو شيء ما سمع به إلاّ منه، وإن كان تلقّاه من غيره فممنّ يجري مجراه في العصبية وإلاّ فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسير خالية من ذلك، ولم يختلف أهل النقل في أنّ عليّاً هو الذي صلّى على فاطمة، وإلاّ رواية نادرة شاذّة بأنّ العباس عليه السلام صلّى عليها.

وروي الواقدي بأسناده في تاريخه، عن الزهري، قال: سألت ابن عباس:

متى دفنتم فاطمة عليها السلام؟ قال: دفناها بليل بعد هداة. قال: قلت: فمن صلى عليها؟ قال: علي.

وروى القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده في تاريخه عن الزهري، قال: حدّثني عروة بن الزبير أنّ عائشة أخبرته أنّ فاطمة عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ستة أشهر، فلمّا توفيت دفنها عليّ ليلاً، وصلى عليها.

وذكر في كتابه هذا أنّ عليّاً والحسن والحسين عليهم السلام دفنوها ليلاً وغيبوا قبرها. وروى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن بن محمد بن الحنفية: أنّ فاطمة دفنت ليلاً.

وعن معمر عن الزهري مثل ذلك.

وقال البلاذري في تاريخه أنّ فاطمة عليها السلام لم تُر متبسمّة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها.

والأمر في هذا أوضح وأشهر من أن نطلب في الإستشهاد عليه، ونذكر الروايات فيه.

فأمّا قوله: ولا يصحّ أنّها دفنت ليلاً، وإن صحّ فقد دفن فلان وفلان ليلاً، فقد بيّنا أنّ دفنها ليلاً في الصحّة أظهر من الشمس، وأنّ منكر ذلك كالمدافع للمشاهدات، ولم يجعل دفنها ليلاً بمجرّده هو الحجّة ليقال: لقد دفن فلان وفلان ليلاً، بل يقع الإحتجاج بذلك على ما وردت به الروايات المستفيضة الظاهرة التي هي كالتواتر، أنّها أوصت أن تدفن ليلاً حتّى لا يصلّي الرّجلان عليها، وصرّحت بذلك وعهدت فيه عهداً بعد أن كانا استأذنا عليها في مرضها ليعوداها فأبت أن تأذن لهما، فلمّا طالت عليهما المدافعة رغبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام في أن يستأذن لهما وجعلها حاجة إليه، وكلمها عليها السلام في ذلك، وألحّ عليها، فأذنت لهما في الدخول، ثمّ أعرضت عنهما عند دخولهما ولم تكلمهما، فلمّا خرجا قالت لأمير المؤمنين عليه السلام:

هل صنعت ما أردت؟ قال: نعم، قالت فهل أنت صانع ما أمرك به؟ قال: نعم. قالت: فإني أنشدك الله ألاّ يصلّي عليّ جنازتي، ولا يقوم عليّ قبري. وروي أنّه عفى قبرها وعلم عليه ورشّ أربعين قبراً في البقيع ولم يرشّ قبرها حتّى لا يهتدى إليه،

وأنهما عاتباه على ترك إعلامهما بشأنها، وإحضارهما الصلاة عليها، فمن هاهنا احتججنا بالدفن ليلاً، ولو كان غير الدفن بالليل من غير ما تقدّم عليه وما تأخر عنه، لم يكن فيه حجة .

وأما حكايته من أبي عليّ إنكار ضرب الرجل لها، وقوله أنّ جعفر بن محمّد وأباه وجدّه كانوا يتولّونهما، فكيف لا ينكر أبو عليّ ذلك، واعتقاده فيهما اعتقاده ! وقد كنّا نظنّ أنّ مخالفينا يقتنعون أن ينسبوا إلى أيّمتنا الكفّ عن القوم والإمساك، وما ظننّا أنّهم يحملون أنفسهم على أن ينسبو إليهم الثناء والولاء، وقد علم كلّ أحد أنّ أصحاب هؤلاء السادة المختصّين بهم قد رووا عنهم ضدّ ما روى شعبة بن الحجّاج وفلان وفلان، وقولهم : هما أوّل من ظلمنا حقّنا، وحمل الناس على رقابنا، وقولهم : إنهما أصغيا يانائنا، واضطجعا بسبلنا، وجلسا مجلساً نحن أحقّ به منهما، إلى غير ذلك من فنون التظلم والشكاية، وهو طويل متّسع .

إلى أن يقول ﷺ :

فأمّا قوله : إنّ حديث الاحراق لم يصحّ، ولو يصحّ لساغ لعمر مثل ذلك، فقد بيّنا أنّ خبر الاحراق قد رواه غير الشيعة .

وقوله : إنّه يسوغ مثل ذلك فكيف يسوغ إحراق بيت عليّ وفاطمة ﷺ ؟ وهل في ذلك عذر يصغى إليه أو يسمع، وإنّما يكون عليّ وأصحابه خارقين للإجماع، ومخالفين للمسلمين، لو كان الإجماع قد تقرّر وثبت وليس بمتقرّر ولا ثابت مع خلاف عليّ وحده، فضلاً عن أن يوافقه عليّ ذلك غيره، وبعد فلا فرق أن يهدّد بالإحراق لهذه العلة وبين أن يضرب فاطمة ﷺ لمثلها، فإنّ إحراق المنازل أعظم من ضرب سوط أو سوطين، فلا وجه لامتناع المخالف من حديث الضرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار...^(١)

وممّا يؤثّر عن أحد العلويين الكبار أنّه سأل عن الشيخين عن داود بن المبارك، قال : أتينا عبدالله بن موسى بن عبدالله بن حسن بن الحسن، ونحن

راجعون من الحجّ في جماعة، فسألناه عن مسائل، وكنت أحد من سأله، فسألته عن أبي بكر وعمر، فقال: سُئِلَ جَدِّي عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة، فقال: كانت أُمِّي صَدِيقَةَ بنت نبيِّ مرسل، فماتت وهي غضبي على إنسان، فنحن غضاب لغضبها، وإذا رضيت رضينا.

أتموت البتول غضبي ونرضى ما كذا يفعل البنون الكرام

ومما ينسب إلى ظالمها أنه تبرأ من نفسه بنفسه حين شعر بدنوّ أجله، فقد نسب إلى أبي بكر أنه قال: وأما الثلاث التي فعلتها ووددت أنّي لم أكن فعلتها، فوددت أنّي لم أكن كشفت عن بيت فاطمة وتركته ولو أغلق عليّ حرب، ووددت أنّي يوم سقيفة بني ساعدة كنت قدفت الأمر في عنق أحد الرجلين: عمر أو أبي عبيدة؛ فكان أميراً وكنت وزيراً، ووددت أنّي إذا أتيت بالفجأة لم أكن أحرقته، وكنت قتلته بالحديد أو أطلقته.. (١)

﴿ ويوم يعصّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ (٢)

صدق الله العليّ العظيم
تمّ الكتاب والحمد لله

(١) شرح ابن أبي الحديد، ٤٦/٢ و٤٧.

(٢) الفرقان: ٢٧.

المحتويات

٣	المقدمة
١٠	المجلس الأول: ترجمة سيّدتنا خديجة الكبرى سلام الله عليها
٣٤	المجلس الثاني: تنمة ترجمة سيّدتنا خديجة الكبرى سلام الله عليها
٤٩	المجلس الثالث: إسلام أبي طالب <small>عليه السلام</small>
٦٤	المجلس الرابع: إيمان أبي طالب <small>عليه السلام</small>
٨٨	المجلس الخامس: أبوطالب مؤمن قريش
١٣٤	المجلس السادس: تنمة مؤمن قريش
١٦٩	المجلس السابع: أم المؤمنين خديجة <small>عليها السلام</small>
١٩٨	المجلس الثامن: مناقب خديجة وفضلها <small>عليها السلام</small>
٢١٣	المجلس التاسع: خديجة؛ المال والبنون
٢٤١	المجلس العاشر: أولاد النبي <small>صلى الله عليه وآله وسلم</small>
٢٦٣	المجلس الحادي عشر: وقفة مع السيّد جعفر مرتضى العاملي
٣١٣	المجلس الثاني عشر: ولادة التّور
٣٣٣	المجلس الثالث عشر
٣٤٩	المجلس الرابع عشر
٣٧٣	المجلس الخامس عشر
٤٠٢	المجلس السادس عشر
٤٣٢	المجلس السابع عشر: فريّة مفصّوحة؛ خطبة ابنة أبي جهل: الإفتراء والردّ
٤٥٤	المجلس الثامن عشر
٤٧١	المجلس التاسع عشر: الثورة الأم
٥٢١	المجلس العشرون: ثورة الزهراء؛ وفدك الرمز والوفاة